

الدكتور حسين مؤنس

فَجْرُ الأَنْدَلُسِ

دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي
إلى قيام الدولة الأموية (٧١١ - ٧٥٦م)



فَجَزَا الأَنْدَالُسُ

الناشر : دار الرشاد
العنوان : ١٤ شارع جواد حسنى - القاهرة
تليفون : ٢٣٩٣٤٦٠٥
رقم الإيداع : ٢٠٠٥ / ٨٠٢٦
التريـم الدولى : 5 - 017 - 364 - 977
جمع وطبع وغلاف : **عربية للطباعة والنشر**
العنوان : ١٠،٧ ش السلام - أرض اللواء - المهندسين
تليفون : ٣٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٣٢٥١٠٤٣
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى : ١٩٥٩ م
الطبعة الثانية : ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م
الطبعة الثالثة : ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م (الأولى للدار)
الطبعة الرابعة : ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م (الثانية للدار)
مراجعة وفهارس : **عادل أبو العاطى**



تقديم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين .

وبعد ، فإن الحاجة ماسة إلى تاريخ عام للأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية مملكة غرناطة ، مع دراسة لأحوال المسلمين الذين تخلفوا فيه بعد ذلك ، وما كان للأندلس الإسلامي المجيد من آثار باقية بعيدة المدى في تاريخ الحضارة الإنسانية .

وقد بدأت هذا الكتاب ، الذى أقدمه اليوم للقراء ، على نية أن أسدِّ به هذا الفراغ ؛ ولكنى لم أكد أمضى فى الدراسة حتى تبين أن الإيجاز الذى تتطلبه التواريخ العامة يخفى معظم جوانب الجمال فى تاريخ هذا الفردوس الإسلامى المفقود ، إذ إنه كان قطراً فريداً فى بابه فى دولة الإسلام : أهله مزاج من عناصر أوروبية وأخرى شرقية ، وحضارته ثمرة تزاوج فكرى بين الشرق والغرب على نحو قلَّ أن نجد له مثالاً فى بلد آخر من بلاد الإسلام ، وتاريخه لهذا عميق عريض ، تنفرد كل ناحية منه بخصائص ومميزات جديرة بالبحث والتأمل والإعجاب .

وهذه الخصائص لا تستين إلا بالدرس المستأنى الصبور الذى يتعرض للمشاكل ويحاول حلها ، ويقف عند النواحي الغامضة ويجتهد فى أن يجليها ، ولا يستطرد عن العسير إلى اليسير ، ولا يقنع من التأريخ بالسرود والاسترسال . ولهذا فقد نزعنا عن التأريخ العام إلى الدراسة المفصلة لعصر واحد من عصور تاريخ الأندلس ، هو عصر الولاية من قبيل الفتح العربى إلى قيام الدولة الأموية على يد عبدالرحمن بن معاوية الداخل .

وربما بدا للقارئ أننى ذهبت مع التفصيل إلى مداه ، حينما أنفقت قرابة السبعائة

صفحة في دراسة تاريخ خمس وأربعين سنة ، ولكنى أعتقد رغم ذلك أن هذه السنوات لا زالت في حاجة إلى مزيد من التفصيل ، وكل فصل من فصول هذا الكتاب حقيق بأن يُوقف عليه كتاب كامل ، ولدينا المادة التاريخية لذلك .

وقد تبينا من تجاربنا في دراسة تاريخنا الإسلامى أن السبب الأكبر فيما يشوبه من غموض ، وفيما يفضى بالكثير من تعرضوا للكتابة فيه إلى الزلل ، هو إهمال دراسة العصور الأولى ، وهى عصور قيام الدولة والمجتمع الإسلاميين وتكوُن العناصر التى قامت عليها الدولة واستقرار الأسس التى استقام عليها المجتمع ، سواء أكانت هذه العناصر بشرية أم تنظيمية ، سياسية وإدارية أم فكرية تتصل بالإنتاج العقل والفنى .

وإذا لم تظفر هذه العصور بحقها من العناية ، وإذا لم تُدرس على الأصول التى ينبغى أن تقوم عليها الدراسات ، لم يُؤمّن الزلل فيما يكتب بعد ذلك من تواريخ العصور التى تليها ، وهذا ظاهر فيما بين أيدينا من كتب في تاريخ الإسلام العام أو تاريخ أقطاره : معظمها سرد واسترسال مع السهل الميسور من تسجيل الحوادث ، وسير مع تيار تاريخى لا يُعرف اتجاهه ولا مبتداه أو منتهاه .

ولهذا ، فقد رأيت فيما يتصل بتاريخ الأندلس أن أبدأ من حيث ينبغى أن يكون البدء ، وأن أتنفع بكل ما وصل إلّى من مادة تاريخية غزيرة ، وأن أتعرض للمشاكل وأحاول حلها على قدر ما تعين عليه المراجع والأصول . ويرى القارىء ذلك بصورة خاصة فيما كتبه عن عناصر السكان وأصول التنظيم الإدارى والمالى ، وقد اقتضانى ذلك أن أرجع بالأشياء إلى أصولها البعيدة الخافية في ليل الزمان الطويل ، وربما تتبعتها في تطورها عشرات السنين بعد العصر الذى يعينى في هذا الكتاب ؛ ولم يكن من ذلك مفر ، فإن ظواهر التاريخ لا تظفر من الأرض ، بل تنبع من أصول وتمضى في خطوط تحددها الظروف والأحداث. وقد وصلت فيما تعرضت له من مشاكل إلى حلول أرجو أن تعين العاملين على تاريخ الأندلس خاصة والإسلام عامة فيما يتولون من دراسات .

وعلى أساس من النتائج التي انتهت إليها في هذا البحث ، أرجو أن أستطيع الوفاء
بها وعدت به من كتابة تاريخ عام للأندلس الإسلامى المجيد .

ولابد أن أوجه الشكر في هذا التقديم اليسير إلى الصديقين الأستاذين : مصطفى
عبد المجيد صالح ، وحسن إيراني ، فقد تفضل الأول بالإشراف على الطبع ، وشاء
طومح الثانى - كناشر حريص على سمعة الكتاب العربى - أن يخرج الكتاب في هذا
الثوب الجميل . والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه خير الإسلام والعرب والمسلمين .

مدريد ، مارس ١٩٥٩

حسين مؤنس

الفصل الأول

إِسْبَانِيَا قُبَيْلُ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِي

١- القوط الغربيون في أواخر أيامهم
 في أواخر القرن الرابع الميلادي ، استطاع القوط الغربيون بقيادة أاريك
 أن يسيطروا على مصائر القسم الغربي من الدولة الرومانية ، ذلك أن
 الامبراطور تيودوسيوس كان قد وصل إلى عرش الامبراطورية معتمداً
 على تأييدهم وتأييد من انضم إليهم من طوائف المتبريرين من الألان والمون وبقايا الوندال ،
 فجعل يالتهم على أهل البلاد الأصليين من الرومان ، حتى إذا توفي تيودوسيوس سنة ٣٩٥
 كان أاريك قائد القوط الغربيين قد أصبح أقوى شخصية في وسط أوروبا وغربها جميعاً .

وكان امبراطور الجزء الغربي من الدولة الرومانية « هونوريوس بن تيودوسيوس » قد
 عهد في قيادة جيوشه إلى وندالي ماهر هو ستليخو ، وكان أاريك يحسده وينازعه ويود لو
 حل محله ، وكان ستليخو يعرف أطماع أاريك ومن معه من القوط الغربيين ويحاول أن
 يدفع عن الدولة سَرَّهُ وشرهم ، ولكن هونوريوس تخلى عن قائده واتهمه بالخيانة وأعدمه في
 سنة ٤٠٨ ، وبهذا أزال من وجه أاريك القوة الوحيدة التي كانت قميئة أن تحول بينه وبين
 إيطاليا لو أراد غزوها ، ولم يكذب أاريك أن جمع جنده وتحرك نحو الغرب ، وخاف
 هونوريوس شره فغادر روما وتحصن في رافنا في شمالي إيطاليا ، وأخذ أاريك يهاجم روما
 المرة بعد المرة وأهلها يدفعونه عن أنفسهم بالمال مرة وبالجند مرة أخرى ، ولكنهم انتهوا آخر
 الأمر إلى الهزيمة ، فافتحم أاريك ومن معه من القوط الغربيين المدينة الخالدة سنة ٤١٠ ،
 وأصبح غرب أوروبا جميعه تحت رحمته ، فأخذ يجرب شمالي إيطاليا تحريماً سنياً ، ولم يتخذ
 إيطاليا من مساواته إلا موته بعد ذلك بقليل^(١) .

وخلفه في قيادة القوط الغربيين ومن معهم من شرادم المتبريرين أطاؤولف ، فجرى على
 منواله وأنزل بإيطاليا بلاء شديداً ، ثم اتجه بجموعه نحو غالة ، وعبر إلى إسبانيا وأخذ ينازع
 من استقر فيها من القوط الشرقيين ومن معهم من السويف والوندال ، واضطرت الدولة
 آخر الأمر إلى مهادنة أطاؤولف وإقراره في الجزء الجنوبي من غالة في الإقليم المحيط بتولوز
 (طولوشة) سنة ٤١٦-٤١٨ م .

(١) FERDINAND LOT . La fin du monde Antique et le début du moyen-âge . (Paris, 1927) pp. 233-242 .

وكانت جماعات القوط الشرقيين المستقرة في إسبانيا في ذلك الحين قليلة العدد ، وكان مقامها في الزاوية الشمالية الشرقية جنوبى جبال البرت (التى تعرف خطأ بالبرانس) ، أما السويف والوندال فكانوا أكثر عدداً ، وكانوا قد استقروا في الركن الشمالى الغربى فيما يعرف بجليقية وأستورياس (أو أشتريس) ، وكانت الدولة قد سمحت لهم بالاستقرار في هذه النواحي في سنة ٤١١ ، واشترطت عليهم أن لا يغيروا على ما جاورهم من البلاد ، ولكنهم لم يراعوا هذا الشرط ورؤّعوا بقية الجزيرة الأندلسية وجنوبى غالة بغاراتهم . وكان الوندال مسيطرين على شرق الجزيرة ووسطها ، ولم يكونوا أحسن حالاً من السويف والألان ، فجعلوا هم الآخرون يغيرون على جنوبى غالة وحوض الرون ، وما زالت هذه الجموع المتبربرة تشدد في أعمال التخريب حتى كادت تقضى على كل أثر للاستقرار والحضارة في الجزيرة الإيبيرية كلها .

فلما أقرت الدولة أطاؤولف وأصحابه القوط الغربيين جنوبى غالة سلطوهم على طوائف المتبربرين التى تسكن إسبانيا ، فأعلنوا عليها حرباً شعواء ، وارتد الألان إلى مواقعهم الأولى وانحصروا على الساحل الشمالى المطل على خليج بسكايه ، وانحصر السويف في الركن الشمالى الغربى الأقصى من شبه الجزيرة واستقروا هناك وانقطع شرمهم .

وحاول الوندال المقاومة ، ولكن القوط الغربيين تغلبوا عليهم وأزاحوهم نحو الجنوب ، فأقاموا قليلاً في الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة المعروف بولاية بيطى (بيتيكا) الإغريقية القديمة ، وكانت لا تزال تحتفظ إلى ذلك الحين بآثار جليقة من الحضارة اليونانية المادية والفكرية ، وكان الوندال أجلاًفاً عتاة فلم يلبثوا أن قضوا على معظم ما وجدوا من آثار العمران والتحضّر في بيتيكا ، واضطر زعيمهم جيسرك - أمام ضغط القوط الغربيين المتصل - إلى العبور إلى إفريقية سنة ٤٢٩ ، بعد أن خرب أمهات مدائن بيتيكا العامرة مثل هسباليس (سفيليا - إشبيلية) وكرتاجو نونفا (قرطاجنة) وجاديس (جواديس - قادش) ومورجى (مرسية - مورثيا) وكردوبا (قرطبة - كوردفا) وغيرها ، وخلف هذا الإقليم العامر وراءه يباباً على عادة الوندال .

وقد بلغ من عمق الأثر الذى خلفه الوندال في هذا الإقليم أن اختفى اسمه القديم « بيتيس » (الذى عرّبه العرب إلى « بيطى ») وأصبح يسمى من ذلك الحين فاندالوسيا ، إقليم الوندال ، وعنه أخذ العرب لفظ « الأندلس » الذى أطلقوه فيما بعد على شبه الجزيرة

(١) كلها.

استقر القوط الغربيون في شبه الجزيرة ، وأخذوا يمتدون في نواحيها شيئاً فشيئاً ، وظهر فيهم بعد أطاوولف زعيم قادر هو « واليا » (Valia) استطاع أن يقرر سلطانهم في نواحي الجزيرة كلها . ولم يكن جميع من تحت سلطانه من الجند قوطاً غربيين ، وإنما كانت فيهم أشتات من المتبريرين من كل جنس ، ولكنهم كانوا يدينون له جميعاً بالطاعة والولاء ، وكانت علاقته بالامبراطورية علاقة التابع أو الفَصْل ، فلما طمع إدواكر المتبرير في حكومة الجزء الغربي من الدولة الرومانية ، وأقره الامبراطور البيزنطي زينون على حكومة إيطاليا في الرابع من سبتمبر سنة ٤٧٦ ، كان معنى ذلك زوال الدولة الرومانية الغربية من الوجود وتحلل جميع أتباعها من المتبريرين من الولاء لها ، وبهذا استقل القوط الغربيون بإسبانيا وأعلنوا أنفسهم ملوكاً غير تابعين لأحد ، وكان زعيمهم يوريك (Euric) قد اتخذ لقب الملك فعلاً قبل ذلك بنحو تسع سنوات (سنة ٤٦٧) ، وهو يعد لذلك مؤسس دولة القوط الغربيين في إسبانيا ، وستكتفى بأن نسميهم القوط وحسب من الآن فصاعداً^(٢).

٢- دولة القوط في إسبانيا وكان يوريك قد حرص منذ صارت إليه زعامة القوط على أن يمد سلطانه شيئاً فشيئاً حتى يسيطر على شبه الجزيرة الإيبيرية كله ، ولم يتنازل إلى جانب ذلك عما كان لأسلافه من الأقاليم شمال جبال البرت ، وكان الرومان يعتبرون جنوبي غالة وشالي إسبانيا وجزءاً كبيراً من غربها إقليمياً واحداً ، فحرص يوريك أن تضم دولته هذا الإقليم الواسع إلى شبه الجزيرة الإيبيرية ، ففتح إقليم لُسْدَانِيَة (لوزيتانيا - البرتغال) وقرر فيه سلطانه ، ومد حدود مملكته إلى الجنوب وأدخل فيها إقليم بيطي (الذي يُعرف باسم بيتيكا) وولاية قرطاجنة الرومانية القديمة وهي الركن الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة ، وتابع جهوده في شمال جبال البرت ، واستولى على آرل ومرسيليا ، وبهذا أصبحت دولته تمتد من أقصى الهضبة الفرنسية الوسطى إلى طرف إسبانيا الجنوبي ، وحكم شعيبين كبيرين هما الغاليون الرومان (Gallo - romani) شمالى البرت والإسبان الرومان (Hispano - romani) جنوبيها . وكانا شعيبين متحضرين يشغل معظمهما

LÉVI - PROVENCAL . L'Espagne musulmane au Xe . siècle, pp. 18-39. THOMAS, W. (١)

ARNOLD . The Preaching of Islam (London, 1935) pp. 130-144.

GEORGE YVER . Euric, roi des Wisigoths (466 - 485) des Etudes d'Histoire du Moyen- (٢) âge dédiées à Gabriel Monod (Paris, 1896) pp. 11-46

بالزراعة ، ويزيدان في العدد على القوط مرات عديدة ، وكان معظم أهلها مسيحيين كاثوليك ، يسيطر على نفوسهم قساوسة خاضعون لسلطان روما وأسقفها الكبير^(١).

وكان القوط مسيحيين آريين ، أى أنهم كانوا لا يعتقدون في ألوهية المسيح ، ولا يعترفون للقساوسة بحق الوساطة بين الله والناس ، ولا يجعلون للعدراء مكاناً ممتازاً في العقيدة ، وكان لهم أسلوب خاص في العبادة ، فلم يلبث السكان الأصليون من غالين وإيبيريين أن نفروا من حكمهم ، واجتهد القساوسة في تقوية شعور النفور هذا ، لأن القوط كانوا ينكرون عليهم أى سلطان روحى على الناس . واشتد هذا النفور مع الأيام بسبب ما كان القوط يُنزلونه بالقساوسة من اضطهاد ، وظل مركزهم بين رعاياهم مضطرباً مزعجاً ، فلما نهض كلوفيس زعيم الفرنجة وأخذ يمد سلطانه نحو الجنوب سارع القساوسة لتأييده لأنه كان كاثوليكياً ، وانضم إليه الغال الرومانيون ، فاستطاع أن يزيع القوط إلى الجنوب ويجليهم عن إقليم طولوشة (تولوز) الذى ظلوا يحكمونه مدى طويلاً ، ثم انتصر عليهم انتصاراً حاسماً في فوييه (Vouillé) شمالي بواتييه سنة ٥٠٧ وأجلاهم عن جل ما كان بيدهم من أراضي غالة ، فلم يبق لهم إلا إقليم سبتمانية المتاخم لجبال البرت من الشمال ويمتد حتى نهر الرون وعاصمته نربونة^(٢).

هذا اقتصر سلطان القوط الغربيين على إيبيريا ، وأخذت علاقة شبه الجزيرة مع بقية العالم الأوروبى الواقع إلى الشمال تفتت ، ولما كان القوط قد وحدوا شبه الجزيرة كله تحت سلطانهم فقد أخذت « إسبانيا » تظهر كوحدة سياسية وجنسية واحدة للمرة الأولى في التاريخ . وذلك أمر له خطره ، لأن الإغريق لم يعرفوا منها إلا الغرب وبعض الجنوب ، ولأن الرومان كانوا يقسمونها ولايات مختلفة لا علاقة بين بعضها وبعض : هى بيتيكا في الجنوب وهسبانيا تراكُوننْسِس (إسبانيا الطركونية) وتشمل الوسط والشرق والشمال الغربى . ولوزيتانيا وهى غرب الجزيرة وناربوننْسِس (ولاية نربونة) من حدود برشلونة إلى

MANUEL TORRES . Historia política del Reino de Tolosa en Historia de Espana de Me- (١) nendez Pidal (Tomo III . Madrid 1940) pp . 70 Sqq .

BALLESTEROS , RAFAEL . Histoire d'Espagne des origines à nos jours (Paris ,1938) pp.35 -36.

GUERRA (A. FERNÁNDEZ) . Caída Y Ruina del Imperio Visigótico - espanol . Madrid (٢) . 1883 .

MANUEL TORRES . Las Invasiones Y Los Reinos germánicos de Espana en Historia de Espana editada de RAMON MENÉNDEZ PIDAL . Tomo III .pp.81-84

جبال الألب، وكانت عاصمتها على أيامهم تراجوننا (طَرَكُونَة) جنوبي بركينو (برسينونا - برشلونة)^(١).

أما القوط فقد اعتبروا شبه الجزيرة كله بلداً واحداً، واتخذوا عاصمة لهم بلداً متوسطاً يقع في وسط شبه الجزيرة وهو « طليطلة ».

ولطليطلة موقع جغرافي سياسى هام تمتاز به عن طركونة عاصمة إسبانيا الرومانية وقرطبة عاصمة إسبانيا الإسلامية، فهي على هضبة مرتفعة في وسط شبه الجزيرة تقريباً، يستطيع الحاكم منها مراقبة البلد كله والاتصال بأطرافه على سبيل أسهل مما يستطيعه الحاكم المقيم بقرطبة، وهي تقع على صخرة عند منحنى من منحنيات نهر تاجه، ولا يصل إليها العدو المهاجم إلا بمجهداً بعد أن يعبر جبال قشتالة الفاحلة في الشمال وإقليمى الإسترامادورا والمنشا الفاحلين الموحشين في الجنوب، ثم إن مركزها المتوسط يحفز الحاكم على تحقيق الوحدة وييسرها له، لأنها موسطة البلاد وقلبها، أما طركونة فبعيدة جداً عن الجنوب والغرب، وقرطبة بعيدة جداً عن أشتريس وجليقية ولوزيتانيا، ومن ثم ليس بغريب أن نلاحظ أن المسلمين لم يوفقوا إلى حكم البلاد كلها تماماً، وأن أشتريس وجليقية لم تخضعا لهم أبداً، بل لم يدم سلطانهم على إقليم برشلونة ونواحي الغرب إلا خلال فترات قصيرة

MANUEL TORRES op. cit. pp. 112 Sqq

(١)

LEGENDRE, MAURICE. Nouvelle Histoire d'Espagne (Paris, 1938) pp. 66-67.

قسم الرومان إسبانيا أول الأمر إلى قسمين يفصل بينها خط غير محدد بالضبط يمتد من الدويره إلى قسطة (Gástulo) (Cazlona) في الأندلس. ثم قسمها أغسطس إلى ثلاث ولايات:

Tarraconensis	إسبانيا الشرقية
Betica	إسبانيا الجنوبية
Lusitania	إسبانيا الغربية

ثم أضاف كراكالا إلى هذه الولايات الثلاث ولاية جديدة تضم الشمال الغربي وتسمى (Gallaecia)، أي إسبانيا الجليقية، وعن هذا اللفظ أخذ العرب لفظ جليقية وسماها به الطرف الشمالى الغربى المسمى في الإسبانية (Gal-licia).

ولما أعاد دقلديانوس تنظيم الدولة الرومانية وقسمها إلى مديريات (Praefecturae)، وقسم هذه إلى دوائر (Dio-cesis)، وهذه بدورها إلى ولايات (provinciae)، ضم إسبانيا إلى مديرية غاليا، وجعلها دائرة تضم سبع ولايات: Tarraconensis, Cartaginensis, Betica, Lusitania, Gallaecia, Balcarica, Tingtana.

أى: أنه أضاف إليها جزائر البليار وجزءاً من إفريقية هو مرطانية الطنجية، وسنظل مرطانية الطنجية مرتبطة بإسبانيا حتى الفتح الإسلامى.

Cf: BALLESTEROS, RAFAEL. Histoire d'Espagne, pp. 28 Sqq.

وانظر عن ذلك كله الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب، وهو خاص بالتنظيم الإدارى والمالى.

جداً^(١).

ولعل أظهر أثر لاستقرار القوط في طليطلة هو تحوُّلهم إلى « إسبان » في وقت قصير ، في حين لم يصبح العرب إسباناً إلا بعد فترة طويلة ، لأن المقيم في طليطلة تنقطع الصلات بينه وبين ما يلي البرت وما يلي الزقاق ، ويتأقلم ويصبح إيبيريا ، أما المقيم في قرطبة فتظل صلته بإفريقية وما يتصل بها من بلاد الشرق أوثق وأظهر من صلاته بجليقية وأشترس ونواحي البرت ، وكان ذلك من أسباب الضعف الرئيسية في دول المسلمين في الأندلس^(٢).

استطاع القوط من عاصمتهم طليطلة أن يفتحوا شبه الجزيرة كله ، ولكن سلطانهم لم يستقر في البلاد أول الأمر بسبب ما ثار بينهم وبين أهل البلاد الإيبيريين من منازعات دينية وبسبب ما شجر بين أمرائهم من خلافات ، ولهذا ظلت البلاد طوال القرن السادس نهياً للحروب الأهلية وما ينجم عنها من الفوضى وسوء الحال . وقد لقي نفر من ملوك القوط مصارعهم في هذه الحروب ، وطمع ثيودوريك ملك القوط الشرقيين في عرش إسبانيا فغزاها وأقام حفيداً له على عرشها ، ولم يلبث أحد قواد القوط الغربيين الأقوياء أن ثار بهذا الدخيل وأعلن نفسه ملكاً على إسبانيا بفضل معاونة حربية أمده بها جستنيان امبراطور بيزنطة في سنة ٥٥٤ وانضم إليه أهل البلاد من الإيبيريين الرومان الكاثوليكين ، واحتل المنطقة الواقعة بين الوادي الكبير وجُكُز (نهر شقر) ، وانفصل هذا الإقليم عن حكومة طليطلة .

وكان آخر ملوك القوط الآريين هو ليوفيجيلد (Liuvigild) (٥٦٨ - ٥٨٦) وكان محارباً مقداماً ظل يحارب الكاثوليكين طول حياته ، وخلفه ابنه ريكاريدو (Recaredo) فاستبان أنه لا صلاح لدولة القوط في هذه البلاد إلا إذا تخلى ملوكها عن الآرية ، ففعل ذلك وأعلنه في مجمع طليطلة الديني سنة ٥٨٧ : اعتنق الكاثوليكية هو وأهل بيته ، وتبعه الأمراء وكبار أهل المملكة ، وبهذا أصبحت الكاثوليكية هي الديانة الرسمية في إسبانيا من ذلك الحين . وهذا حادث خطير سيظل مؤثراً في التاريخ الإسباني كله ، فإن الكاثوليكية تأصلت في أهل البلاد مع الزمان ، وزادها قوة ميل الإسبان للتشدد في الإبان والتعصب لكل ما يؤمنون به ، فأصبحت إسبانيا معقلاً من أمنع معاقل الكاثوليكية ، وكان لهذا أثر بعيد جداً

(١) تناولنا هذه الناحية في كتابنا : مقدمة جغرافية لتاريخ المسلمين في الأندلس ، وهو يطبع الآن بمدريد .

(٢) LEGENDRE , MAURICE , Nouvelle Hist . d'Espagne , (Paris, 1938), pp . 66 -67

في حياة الإيبان وفي مجرى تاريخهم كله^(١).

وأعقب هذا التحول إلى الكاثوليكية اعتبار اللاتينية اللغة الرسمية في البلاد ، وتوثق صلات إسبانيا بالبابوية ، وقد تقاتى خلفاء ريكاريدو في الولاء للبابوية تقاتياً شجع البابوات على بسط نفوذهم الدينى - بل السياسى - في البلاد ، وبدأ يقد على البلاد هذا الفيض المتصل من قساوسة الكاثوليك ورهبانهم ، وأصبحت طليطلة أسقفية يقيم فيها أسقف كبير يمثل سلطان البابا ونفوذه ، وأيده الشعب الرومانى الإيبيرى الذى لم يتخل عن الكاثوليكية بعد ذلك .

ومن هنا نفهم السر في أن نفوذ أسقف طليطلة لم يقل في فترة من فترات التاريخ الإيبانى المسيحى عن نفوذ الملوك ، إن لم يزد عليه في كثير من الأحيان . كان تحول القوط إلى الكاثوليكية الخطوة الفعالة الأولى لامتزاج الشعبين القوطى والإيبيرى الرومانى ، فقد ظلا متباعدين ما اختلفت عقيدتهما الدينيتان ، فأما وقد اتفقا في العقيدة فقد انفتح الباب أمام الامتزاج ، ولكنه لم يتم إلا على صورة مصغرة جداً ، لأن القوط حرصوا على أن يحتفظوا لأنفسهم بمركز الشعب الحاكم ، مما كان له أثر بعيد سىء على مصير دولة القوط في إسبانيا .

وكانت الملكية القوطية انتحائية ، أى أن نفرأ من كبار أهل المملكة والأمراء كانوا يجتمعون بعد وفاة الملك لاختيار ملك من بين أظهرهم ، فكان هذا النظام مدعاة لإثارة المنافسات بين الأمراء وكبار القوط ، ومن ثم لا غرابة في أن يكون تاريخ القوط في إسبانيا سلسلة من المؤامرات والحروب والاعتيالات . ومهما حاول مؤرخو الإيبان - القدامى والمحدثون - أن يقللوا من شأن هذه الاضطرابات ، رغبة منهم في الدفاع عن دولة القوط ، فإن الإنسان يستطيع أن يتتبع سلسلتها في سهولة ويُسر ، وأن يستبين أن العرب لو لم يتدخلوا في سنة ٧١١ ، في شئون الجزيرة ويضعوا نهاية لهذا العصر المضطرب لبلغ القوط بإسبانيا مبلغاً من السوء لا يسهل تصوره^(٢).

بيد أننا ينبغي أن نستثنى من سلسلة ملوك القوط نفرأ أجمع المؤرخون على أنهم كانوا قادرين خيرين ، وأنهم قدموا للبلاد خدمات حربية وعمرانية بعيدة الأثر ، مثل ششبرت

MANUEL TORRES . Las invasiones y los reinos germánicos de Espana en Historia de (١) Espana de RAMON MENÉNDEZ PIDAL Tomo III . (Madrid, 1940) PP. 109 Sqq .

BALLESTEROS, RAFAÉL . op . cit . p. 37 .

(٢)

Chindaswinto) (612-621) الذي أتم فتح شبه الجزيرة كله وشنداستفتو (649-672) الذي ألغى التفرقة بين أجناس الشعب، وحكم البلاد بمقتضى قانون جديد مزج فيه القانون الرومانى القديم الذى كان قد سنه الملك الأريك الثانى والقانون القوطى الذى وضعه يوريك، مما قرر السلام بين أهل المملكة وجنّبا مصاعب وخلافات شتى^(١).

ولعل أكبر ملوك القوط هؤلاء وامبا (Wamba 672 - 680)، فقد كان أميراً عظيم الهمة، استطاع أن يقرر سلطانه فيها بقى للقوط من الممتلكات شمالى جبال البرت: قضى على ثورة خطيرة دبرها هلدريك كونت نيمه (نيم)، وأخذ ثورة أخرى دبرها باؤلس أمير سبتانية للانفصال بها، وحكم البلاد كلها حكماً رشيداً حازماً فأجبه الناس والتفوا حوله، وبلغ من تعلق الناس به أن أصبح اسمه وعصره أسطورة لا تخلو من المعجزات والخوارق، ومن هذه الخوارق واحدة نسجلها لأن المؤرخين المغربيين يسجلون مثلها لعبد المؤمن بن

BALLESTEROS, RAFAÉL. op. cit. p. 37-39.

(١)

وقد أخذت الصور العربية لهذه الأساء القوطية بما وجدته في المراجع العربية، ولم تتحدث المراجع العربية عن ملوك القوط كثيراً، ولم تذكر منهم إلا واحداً أو اثنين، ولكنها ذكرت أشخاصاً لهم أساء هؤلاء الملوك خلال فترة الفتح، فأخذت عنها هذه الصور. وهذه المراجع العربية هي الأخبار المجموعة، ونفع الطيب (انظر فهارس الأعلام فيها)، ومرجمان عربيان: الأول مجهول المؤلف، لم نعر إلا على فقرات منه مترجمة إلى اللاتينية والإسبانية، والثانى عثرنا على ترجمتين إسبانية وبرتغالية لجزء منه:

أ- فتح الأندلس: لمؤلف مجهول، وقد نشره JOAQUIN DE GONZALEZ مع ترجمة إسبانية له تحت عنوان *Relación de la conquista de Espana y de sus emires* وقد استعمله سافندرا في دراسته عن فتح الأندلس.

ب - *La Crónica del Moro Rasis*، وهو تاريخ الأندلس المشهور للرازى، وقد ضاعت النسخة العربية لهذا الكتاب، ولم نجد إلا فقرتين صغيرتين منه باللغة الإسبانية، الفقرة الأولى تتناول جغرافية الأندلس، وقد نشرها وعلق عليها وأثبت صحتها بشكوال دى جايانجوس، راجع:

PASCUAL DE GAYANGOS. Memoria sobre la Autenticidad de la Crónica denominada del Moro Rasis; Memorias de la Real Academia de la Historia, tomo VIII, 1850

وأما القطعة التاريخية منها فلاتينية، ولم تنشر إلا سنة 1892، إذ ترجمها سافندرا إلى الإسبانية وأحفظها بدراسة عن فتح المسلمين للأندلس. انظر:

D. EDUARDO SAAVEDRA. Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana (Madrid, 1892) ص 145 وما يليها، وقد كان جايانجوس قد تعرض لها وأثبت قيمتها التاريخية في تعليقاته على ترجمته لكتاب TICKNOR المسمى: تاريخ الأدب الإسباني (ج 1 ص 519). وراجع كذلك تعليقات سافندرا على الرازى وما بقى من كتابه في كتاب سافندرا الأتف الذكر، ص 8 وما يليها. وقد عثر الأستاذ LUIS F. LINDLEY CINTRA البرتغالى على نص صحيح لترجمة القسم الجغرافى من تاريخ الرازى إلى البرتغالية ونشره، وترجمه ليفى بروفنسال إلى الفرنسية:

CF: LÉVI-PROVENÇAL. La description de L'Espagne de Ahmad al - Razi Al-ANDALUS, 1953. fasc. I pp.51-108.

على مؤسس الدولة الموحدية بعد ذلك بنحو ستة قرون ، وملخصها أن وامبا وقف بين يدي الأسقف في الكنيسة لكي يلبس التاج ، فبينما هو في هذا الموقف الرهيب إذا عمود من الدخان يتصاعد من رأسه تطير فيه نحلة من ذهب^(١).

وقد انتهى حكم وامبا نهاية لا تحلو من غرابة وطرافة ، فقد احتال عليه أحد حاسديه ودس له من سقاء جرعة مخدرة لم يلبث بعد أن شربها أن غاب في سبات عميق ، وحسبه الناس قد مات ، وهيوثو ليواروه التراب ، فبينما هم في ذلك إذ عاد إلى رشده ، وبدلاً من أن ينهض لتأديب من اتمروا به على هذا النحو الغريب ، ترك العرش للطامعين فيه ، وترهب وقضى بقية حياته في الدير .

وعندما اعتلى غيطشة (Witiza)^(٢) العرش في نوفمبر سنة ٧٠٠ كانت الأمور قد اضطربت بسبب المؤامرات المتوالية التي كان كبار القوط يدبرونها ، ولنا نستطيع أن نتعرف حقيقة أمر هذا الملك الذي سيلعب أبناؤه دوراً عظيماً في التمهيد للفتح الإسلامي ، لأن النصوص الباقية عنه تعطينا صوراً متناقضة عن شخصه وأسلوبه في الحكم ، مما حدا ببعض المؤرخين من أمثال ردريجو خيمينث والأب ماريانا إلى جعله مسئولاً عن الفوضى التي أعقبت أيامه وسيّرت للعرب القضاء على دولة القوط ، في حين تصدى دوزي وفرناندث جراً Guerra وتايلاهان للدفاع عنه وتبرته مما نسبته إليه بعض النصوص^(٣).

والظاهر أن هؤلاء الأخيرين على حق ، لأن معظم النصوص الإسبانية تثني عليه ، وتؤكد أن أعداءه ومنافسيه هم المسئولون عما أصاب البلاد في أواخر عصره من فوضى واضطراب ، وأنه حاول جهده أن يصلح الأمور فعفا عنم كان والده أخيكاً^(٤) قد أساء

(١) ذكر الرازي الملك «وامبا» في صورة معرفة جداً هي Benete ، وإذا تصورنا أن هذا اللفظ يكتب بالعربية بنيه أو فبه عرفنا كيف حدث هذا التصحيف . وقد امتدحه الرازي وقال إنه كان ملكاً حسناً جداً وعادلاً جداً ولم تسعد إسبانيا قبله أو بعده بملك مثله ، لأنه لم يسيء إلى أحد ، ولم تعرف إسبانيا أقوى منه ولا أكثر همة .

راجع : SAAVEDRA. op. cit. apendice, p. 146.

(٢) هذه الصورة العربية لاسم ويزرا معرفة هي الأخرى تحريفاً ظاهراً ، وقد رسمه الرازي هكذا : Acosta أكوستا . وقد أتى التحريف من أن ويزرا تنطق بالإسبانية القديمة يَيْتْة أو فَيْطْة أو فَيْطْشة . وهذه الصور تعطينا فُتْطَه وهي Acosta التي أوردتها الرازي وغيطشة التي أوردتها مؤرخو العرب . وقد امتدحه الرازي كذلك وذكر أنه حاول أن يزيل مساوىء أبيه ، وأعطانا تفاصيل طيبة عن كفاحه مع كبار مملكته وشقائه بهم .

راجع : SAAVEDRA. op. cit. apendice p.147.

SAAVEDRA op. cit. p. 25

(٣)

(٤) رسم الرازي هذا الاسم Abarca أباركا ، ومرد هذا التحريف إلى خطأ في الإملاء ، لأن نسخة الرازي التي بين يدينا أملت على رجل لا يعرف العربية ولا يجنس الكتابة بها (راجع ملاحظات جايانجوس وسافدرا التي سبقت =

إليهم ، ومال إلى إنصاف الناس من استبداد نبلاء القوط ، فكرهه هؤلاء وعوّلوا على القضاء عليه وعلى حكمه ، فأخذوا يثورون عليه في نواحي المملكة ، واستمر يحاربهم ويحيط كل مناوراتهم ، فلما علت به السن عجز عن أن ينهض لكل وائب به مدبر عليه ، وتآمر عليه أهله ، واستطاعت زوجته أن ترغمه على أن يعلن ابنه الصبي وقيله (أخيلا Achila) وأقامه حاكماً على الولايتين الناربونية والطركونية تحت وصاية أخيه رخشندش (Rechesin-do)^(١).

وكان هذا الإعلان حافزاً للطامعين في العرش من كبار القوط إلى مضاعفة الجهد في التدبير على غيطة ومحاولة القضاء عليه وعلى دولته ليخلو لهم العرش يفعلون به ما يشاءون . ويبدو أنه لم يأل جهداً من جانبه في القضاء على كل محاولة يقومون بها ، لأن النصوص تحدثنا أنه عاقب تيودفريدو دوق قرطبة بسمل عينيه ، ونفى ثائراً آخر اسمه بلاييه من البلاط^(٢).

ويبدو كذلك أنه أساء الظن في اليهود ، فاضطهدهم وأوقع بهم في أواخر أيامه ، ولم يكن ذلك الاضطهاد بالجديد عليهم في أيام القوط ، لأن الواقع - كما سنرى - أنهم لاقوا منهم عنفاً بالغاً متصلاً ، وأن الفتح العربي لو لم يكن قد أدركهم وأبقى على من أبقى عليه ظلم القوط منهم لما بقي لهم في شبه الجزيرة الأيبيرية أثر . اهتمهم غيطة بالتدبير عليه وبالتآمر مع من تسميهم النصوص الإسبانية « أهل ما وراء البحر Los transmarinos » ، وهو تعبير غير واضح ، لا يفهم إن كان المراد به أنهم راسلوا بربر إفريقية أو يهودها أو العرب ، ولا يستقيم فرض من هذه الثلاثة ، لأننا لا نملك دليلاً واحداً على علاقة ما بين يهود إسبانيا وبربر إفريقية قبل الفتح الإسلامي ، وأما يهود إفريقية فكانوا وقتئذ في محنة ، لأن الحرب بين حسان بن النعمان والكاهنة في جبال الأوراس كانت إذ ذاك على أشدها ، وأما العرب فلا يعقل أن يكونوا قد راسلوا يهود إسبانيا وهم بعد لم يفتحوا المغرب الأوسط^(٣).

(١) = (الإشارة إليها) فكتب إيقه بدلاً من إيقه ، وعندما ترجمها الإسبان إلى الإسبانية عدلوا أيقه إلى أبرقة وهو اسم إسباني معروف ، وعلى هذا الرسم وردت في هذه النسخة الإسبانية من الرازي . راجع : SAAVEDRA . op. cit. : appendice.p. 146 .

(٢) هذا الرسم عن ابن عفارى : البيان المغرب ، ج٢ ص ٤ ؛ وهو يشي عليه . أما الرازي فيحمل عليه حمة عنيفة . SAAVEDRA . op. cit. appendice p. 146 . أما أخيلا فيكتبه الرازي أبرقة ، وقد سبق تعلييل ذلك .

(٣) SAAVEDRA . op. cit. p. 29 . وانظر المراجع المعطاة .

(٣) هذه المسألة غير واضحة الوضوح الكافي لأن النصوص القديمة لا تتحدث عنها بما فيه الكفاية ، فيقول لوقا التودي LUCAS DE TUY وهو من كتاب القرن الثاني عشر : iudalis immunitatum privilegia dedit (جدا ١٢٣ من تاريخ العالم) ويقول : رودريجو خيمينيث RODRIGO XIMÉNEZ :

ولسنا -على أي حال- بحاجة إلى البحث عن سبب لهذا الاضطهاد ، لأن الإسمان كانوا طوال تاريخهم من أسمى الناس على مخالفيهم في الدين، وعلى اليهود خاصة . وكل ما يهنا هنا هو أن هؤلاء اشتد بهم الأمر خلال السنوات الأخيرة للفترة القوطية ، حتى باتوا يرجون الخلاص عن أي سبيل . ويبدو أن غيظشة رجع عن سياسته تلك في أخريات أيامه ، فأحب أن يرفع السخط عن اليهود ، وتحدث إلى كبار أهل الدولة فيما اتواء من العفو عنهم ، فلم يكدر رجال الكنيسة يسمعون بذلك حتى سخطوا عليه ، وأخذوا يفرغون الناس به ، حتى اشتد عليه سخط الناس ، وتحدث أهل البلاد من الرومان الإيبيريين في الوثوب به أو معاونة أول ناثر عليه^(١).

في هذا الظرف العصيب ، والبلد منشق على نفسه مفرق بين رجال الدين والملك المسن والكبراء الطامعين ، مات غيظشة ميتة طبيعية في أواخر سنة ٧٠٨ أو أوائل ٧٠٩ . وكانت هذه الأحزاب كلها تنتظر فرصة موته ليتقض بعضها على بعض ، وكان أفراد البيت المالك أنفسهم من أكثر الناس انقساماً وأشدهم ميلاً إلى الخلاف : ذلك أن غيظشة ترك من بعده زوجاً أرملة طامعة في العرش ، وأخاً لا يقل عنها طمعاً هو أبه (Oppa) وكان أسقفاً لإشبيلية ، وثلاثة بنين هم : أخيلا (رُمِّله عند المقرئ وابن القوطية وصحته وقَّله) والمُنسد (Olmundo) وأرطافازدُس أو أردبست (أرطباس . أرطبان) ، وتضيف بعض الروايات شخصاً آخر سيلعب فيما يلي من الحوادث دوراً هاماً هو سيسبرتو (ششبرت ، سبري ، سبسة في النصوص العربية) وتزعم أنه كان أخاً لغيظشة أو ابناً له ، ويذهب سافدرا إلى أنه لم يكن من العائلة ، وإنما من المتصلين بها وحسب^(٢).

= revocavit iudaeos et maiori immunitatis quam ecclesias privilegiis honoravit (I, III, cap. XVII).

ولا يُنتَمُّ من أي من هاتين الروايتين ما يفهم منه اتهام لليهود بالخيانة أو التعاون مع يهود إفريقية . وقد وردت عبارة التعاون مع « القوم الذين يسكنون فيها وراء البحر » في نص الخطاب الذي ألقاه أخيلا في المجمع الكنسي السابع عشر ، وهي عبارة لا تكفي . ولا تعرف المراجع التي استمد منها DOM VISSETTE معلوماته التي يوردها عن هذا الموضوع في كتابه Histoire de Languedoc ج ١، ص ٧٥٠ - ٧٥١ ، وعلى أي الأحوال فالنائب أن أخيلا اضطهد اليهود .

SAAVEDRA. op. cit. p. 30 .

(١)

(٢) SAAVEDRA. op. cit. pp. 30-33 وتقول الأخبار المجموعة إن أبناء غيظشة كانوا اثنين فقط .

ششبرت (Siseberto) وأبّه (Oppa) : ص ٨ .

ونص الرازي مضطرب هنا اضطراباً شديداً جداً بحيث لم نستطع الاعتماد عليه .

ويكتب ابن القوطية رُمِّله بدلاً من أخيلا ، وقد جمعه بعضهم رومولوس ، وذهب سافدرا إلى أنه تحريف من وقَّله الذي هو أخيلا .

ولم يرض نفر من كبار القوط بالخضوع لصبي مثل أخيليا ، وتخوف كثير منهم من مطامع الوصي رخشندش واستبداده ، فامتنع من أقام منهم في طليطلة عن الطاعة ، واستقل بالأطراف والنواحي منهم من كان مقيماً في النواحي والأطراف ، ودارت رحى الحرب بين المتنافسين ، وتعذر على الملكة وابنها المقام في طليطلة ففرا منها . واستمرت هذه الفوضى نحو العام ونصف العام ، واستطاع الوصي أن يجمع نفراً كبيراً من الأنصار ، وتجنب إلى عامة أهل البلاد الرومان الإيبيريين من أهل المزارع والمدن ، واستطاع أن يكسبهم إلى جانبه . وبدا لخصومه أنه مستطيع القضاء على الفتنة وإقرار الحق لذويه عما قريب ، فاجتمع منهم نفر واتلفوا ، واعتبروا أنفسهم « مجلس شيوخ وكبراء » له الحق في أن يقرر شئون دولة القوط كما يرى ، ثم اختاروا واحداً منهم اسمه رودريكو - أو رودريك أو رودريجو (لذريق) - واتخبوه ملكاً خلفاً لغيطشة ، واستعدوا لنصرته والقضاء على منافسيه بعدد السيف .

وتُجمع النصوص كلها على أن هذه الجماعة التي بايعت لذريق كانت جماعة من كبار القوط وأعيانهم ، وأنهم أرادوا باجتماعهم هذا إنقاذ دولة القوط وتقويم ما وهى من بنائها ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما سبقت الإشارة إليه من أن رخشندش أراد أن يستعين بالإيبيريين الرومان ليثبت أمر أخيليا ، استطعنا أن نستنتج من غير حرج أن المسألة لم تكن مجرد خلاف على العرش بين زعماء القوط ، بل كان فيها لون من ثورة أهل البلاد على القوط ورجبتهم في التخلص من كبرائهم ونبلائهم .

ولعل هذا الاستنتاج يتيح لنا أن نقرر ما نحاول الكثرة الغالبة من مؤرخي الإسبان - قدامى ومحدثين - نفيه وإنكاره ، وهو أن دولة القوط لم تكن في نظر أهل البلاد دولة قومية ، بل ظلت في نظر غالبيتهم دولة أجناب لقي الناس في ظلهم كثيراً من الأذى ، وحاولوا الخلاص منهم مراراً متكررة^(١) .

(١) MANUEL TORRES . Op. cit. p. 135. ويشير سيمونيت إلى ذلك إشارة غير واضحة وغير دقيقة ، فهو يقرر وجود حالة الثورة ورغبة الإيبيريين الرومان في الخلاص من القوط ، ولكنه - على عهده من الدفاع عن القوط لأنهم كاثوليكيون - يلقى التبعة كلها على الشعب وعدم تقديره لفضل ملوكه عليه . وهو يقرر بالطبع خيانة اليهود دون أن يحقق مراجع التهمة . انظر :

FRANCISCO JAVIER SIMONET . Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid. 1897-1903) pp.4 Sq.

والمراجع المعطاة . وراجع كذلك ص ١٠ وما يليها من نفس المرجع .

والخلاف شديد حول أصل لذريق هذا ، فمن قائل : إنه كان زعيماً قوطياً كبيراً ذا علم بأمور الحرب والسلام ، ومن قائل : إنه ينحدر من أصلا ب ملكية ، وأن جده الملك شنداسنتو ، ومن قائل : إنه ابن تيود فريود دوق قرطبة الذى كان غيطة قد عاقبه على ثورته عليه بَسْمَل عينيه . ومهما يكن من أمر فإن المراجع الإسبانية اللاتينية القديمة تُجمع على أنه كان رجلاً قادراً ، وأنه كان قبل ادعائه العرش حاكماً لولاية بيتيكا ، وأن الذين بايعوه على العرش فعلوا ذلك فى قرطبة عاصمة ولايته^(١).

ولم يسر لذريق إلى طليطلة مباشرة بعد إعلانه نفسه ملكاً ، بل تريت بعض الوقت ليتيسر له جمع أنصاره وملاقاء رخشندش ورجاله فى موقعة حاسمة ، وكان قد أعلن نفسه ملكاً فى ربيع سنة ٧١٠ ، قبل الهزيمة المسماة عادة بهزيمة جوادا لىتى (وادى بكه) بعام ، وكان ذلك فى السنة الخامسة من حكم الوليد فى دمشق ، كما يقول النص اللاتينى المجهول المؤلف ، ويذهب راوية آخر إلى أنه ذهب إلى بطليوس ، دون أن يذكر لنا السبب فى الذهاب إلى ذلك البلد البعيد .

والثابت أنه سار إلى طليطلة بعد أشهر من إعلان نفسه ملكاً على رأس جيش كبير فيه جلة فواد القوط ونبلائهم ، وهزم رخشندش فى واقعة حاسمة قُتل فيها هذا الأخير وتفرق أتباعه . وأما أبناء غيطة فلم يجدوا مفرأ من مغادرة البلاد فراراً من الغاصب ، ففروا إلى إفريقية وصادر لذريق أملاكهم معتبراً إياهم نائرين على العرش . والقانون القوطى يقضى بمصادرة أملاك كل نائر على العرش^(٢).

ويبدو أن لذريق ظل يحشى طيلة حكمه القصير عودة أبناء غيطة إلى البلاد ومحاولتهم استعادة عرشهم بمساعدة أنصارهم الكثيرين ، ومن ثم حرص على أن يفر الناس منهم بالمبالغة فى تصوير أعمال أبيهم ومظلمه ، وأعانه على ذلك القساوسة ، لأن غيطة كان لا يجيبهم إلى ما تصبو إليه نفوسهم من انقضاء المنبر على اليهود ، ومن ثم لا غرابة فى أن نجد عند معظم المؤرخين الإسبان اللاتين صوراً بغيضة جداً لهذا الملك وأولاده . وما كانوا يدبرون للبلد وأهله من سوء ، وزاد هؤلاء المؤرخين إصراراً على هذه الآراء انضمام أولاد غيطة للعرب ومعاونتهم فى فتح البلاد .

FERNANDEZ GUERRA . Caida ... pp 81 Sqq

(١)

SAAVEDRA . Op . cit . pp 34 sqq

(٢)

وقد تصدى نفر من المؤرخين الإسبان المحدثين للدفاع عن غيطشة وأبنائه ، وذهبوا في الدفاع عنهم إلى حد إنكار دورهم المعروف الثابت الذي قاموا به أثناء الفتح العربي ، ولسنا نستطيع تفسير هذه النزعة عند المحدثين إلا بما يُعرف عن الإسبان من مبالغة في التسامى بوطنهم وأهلهم ، وعداء بعضهم للفتح الإسلامي وكل ما يتصل به ، ورغبتهم في تنقية صفحات تاريخهم من كل ما يُشتَمُّ منه رائحة التعاون مع المسلمين^(١).

يبد أن هذا الدفاع عن غيطشة وأولاده ، والإصرار على ثبوتة لذريق من كل عيب وتصويره في صورة بطل وطني جاهد العرب عن بلاده ، وبذل كل ما يملك لينجو ببلاده من خطرهم ، كل هذا الجهد لا يمنعنا من تعرف شخص لذريق وأحوال عصره تعرفاً معقولاً هو أقرب ما يكون إلى الصواب ، فإن الظاهر الذي لا تستطيع المناقشة إخفاءه أن الرجل كان يشعر باضطراب الأمر عليه ، وأنه ظل حياته متخوفاً من وثبة تكون من أحد أعدائه الكثيرين ، لأن هؤلاء الأعداء لم يكونوا أولاد غيطشة وحدهم ، بل كانوا في واقع الأمر جلة الشعب الإيبيري الروماني واليهود ، أي معظم أهل البلاد التي اقتحمها القوط عليهم^(٢).

(١) BALLESTE- SAAVEDRA. Op. cit. p. 37. ويستثنى من ذلك بعض المؤرخين الإسبان المحدثين مثل : ROS. Histoire d'Espagne. p. 45. وهو يورد هذه الحوادث في إيجاز شديد جداً .

(٢) SAAVEDRA. Op. cit. p. 37. وكلامه في هذه النقطة غامض غير واضح ، لأنه لا يستند إلى مراجع واضحة مفصلة ، وأهم مراجعه فرناندث جزّاء في كتابه Gaida Y Ruina ص ٨٢ وما بعدها ، وهو مرجع حديث . وناهض هذا الرأي سيمونيت في تاريخ المستعربين ، ص ١٢ وما يليها . وسيمونيت إسباني كاثوليكي متعصب جداً لوطنه ودينه ، وذلك هو عيب كتاباته الكثيرة .

والصورة التي يعطينا إيها عن الحال أيام لذريق جديرة بأن نعرضها ، لأنها لا تخلو من نفع ، فهو يقول : إن الشعب الإسباني وجد نفسه تحت حكم غيطشة وخلال السنوات الأخيرة من حكمه على الخصوص ، منقسماً إلى حزبين كبيرين : حزب مناصر للملكية غيطشة القائمة ، ومن ثم فهو مؤيد من اليهود منصرف عن مصالح البلاد المنعوية والدينية ، وحزب ثان مناهض لذلك مهتم بمصالح البلاد حريص عليها ، وكان هذا الحزب يميل إلى طرد اليهود من البلاد جملة ومناصرة الكاثوليكية مناصرة تامة . فأما الحزب الأول فكان حزب الأرستقراطية القوطية ، ولم يكن أفرادها كاثوليكاً ولا أريين ، وإنما كانوا متشككين ملاحدة (كذا) ومن كبار هذا الحزب أوياس (أبة) أخو الملك وأسقف إشبيلية ، والنبلاء شسبرت ورخشندش (وربما كانا أخوين للملك نفسه) . وأما رجال الحزب الثاني فكانوا طائفة من كبار القوط المؤمنين يؤيدهم معظم أهل البلاد من الإسبان الرومان ، وأهل الصلاح والدين من سكان الجزيرة كلها وفي مقدمتهم تيود فريدو دوق قرطبة ، وخلفه في زعامة الحزب ردريجو (لذريق) وكان معه بلايو (بلايه) الذي قدر له أن يعيد دولة القوط بعد ذلك

SIMONET. Historia de los Mozarabes , pp. 11-13
وليس لدينا دليل واحد على صحة ما يذكره من أن بلايو هذا هو نفس بلايو الذي سيفر أمام العرب ويتحصن في جليقية ويعيد إنشاء دولة القوط .

ومصداق ذلك أن لذريق لم يكد الأمر يستقر له حتى مضى يرغم رجال الدين على إصدار قرارات يتهمون فيها غيطة بكل شر ، ويصورونه للناس في صورة جبار ظالم أراد بالناس وبالكنيسة كل أذى ، وأن لذريق لم ينهض إلا لإنقاذ الناس من شره وشر أولاده وكل من كان يلوذ بهم ، وقد أجاب رجال الدين طلبه ، فحفلت قرارات مجامعهم الدينية في عصر لذريق بأسوأ الاتهامات لغيطة وبنه واليهود .

ومصداق ذلك أيضاً أن لذريق قضى معظم أيام حكمه القصير يحارب الثائرين عليه في كل ناحية ، وأنه قام بحملات متتابعة على البشكنس في الشمال ، وطوائف من الثائرين في الشرق والجنوب ، ولسنا نعرف على وجه التحقيق من كان هؤلاء الثائرون عليه في الجنوب ، وإن كان من المعقول جداً أن نزعهم أنهم كانوا أنصار أولاد غيطة ، وسرى في أثناء الفتح العربي ما يؤيدنا في هذا الظن^(١).

وربما كان من دلائل سوء الحال في عهد لذريق أنه كان في حاجة مستمرة مُلِحَّةً للمال ، ولو كان قد حكم البلاد حكماً عادلاً منتظماً لما احتاج إلى إرهاب نفسه وإرهاب الناس ، لأن إسبانيا بلد غنى لا يحتاج إلا إلى الإدارة المنظمة حتى يفيض بالخير على أهله وحاكميه ، ولو كانت البلاد هادئة في عصره لما اضطر إلى هذا الإرهاب ، ولكن البلاد كانت مضطربة في عصره لا يكاد يطيعه من نواحيها إلا إقليم صغير .

والغالب أن حاجة لذريق إلى المال هي التي دفعته إلى السطو على الذخائر الغالية التي كان ملوك القوط قبله قد كدسوها في كنيسة سان بدرو وسان بابلو ، فقد جرت عادة كل ملك منهم أن يودع إحدى الكنيستين تاجه وبعض ذخائره ، وكانت هذه الذخائر مكدسة في حجرتين مغلقتين في الكنيستين ، فلما اشتدت حاجة لذريق للمال حدَّثه نفسه بأخذ بعض هذه الذخائر للانتفاع بها . وقد حذر القسس من أن يفعل ذلك ، ولكنه لم يُضغ ، ومضى ففتح مستودع الذخائر ، ويبدو أنه ذهل من كثرة ما وجد من الذهب والجوهر ، ويبدو كذلك أنه لم يجرؤ على أخذ شيء لأن رهبة المكان منعه من أن ينفذ ما أراد ، وتحدث الناس في ذلك وتناقلوه حتى أصبح أسطورة في أفواه الناس ، ورواها العرب على صورة لا تخلو من طرافة^(٢).

SAAVEDRA Op. cit. p. 47.

(١)

SIMONET. Op.cit. pp. 42. Sqq

(٢) SAAVEDRA . Op. cit. pp. 40-43. وقد أورد معظم مؤرخي المسلمين هذه الأسطورة ، انظر نفع الطيب

(طبعة الشيخ محيى الدين عبد الحميد) ج١ ص ٢٣١ وما بعدها .

وقد استطاع لذريق أن يقضى على كل أمل لأبناء غيظشة وأنصارهم بعد أن استمر يوالى غزوهم أشهراً متتابعة ، فلما ضاقت عليهم البلاد فكروا في ناحية يستنصرون بها على هذا الطاغية الذى غصبهم عرش أبيهم وشردهم في غير جنابة ، وكان العرب قد فتحوا المغرب الأقصى ووصلوا إلى الزقاق ، وانضم إليهم من البربر نفر كبير وأخذوا يتطلعون جميعاً إلى بلاد جديدة يفتحونها ويمدون رواق الإسلام إليها ، وتسامع أولاد غيظشة بهم فبعثوا الرسل إليهم يدعونهم إلى القدوم^(١).

* * *

٤- نظرة في لم يغير القوط شيئاً كثيراً من أحوال المجتمع الإسباني في العصر الرومانى أحوال إسبانيا تحت ظلت الأرستقراطية الرومانية القديمة على عهدها من الغنى والسيطرة حكم القوط^(٢) على الناس ، وظل الأحرار من أهل المدن والتجار وأصحاب المزارع الصغيرة يعيشون تحت رحمة الأقوياء في حال هي وسط بين الحرية والرق ، وظلت بقية أهل البلاد رقيق أرض أو عبيداً يشقون في سبيل الأقلية الغنية المسيطرة .

وقد ائتلف الأغنياء مع القوط لكي يحتفظوا بأموالهم ، واستقر نفر كبير من هؤلاء في المزارع واشتغلوا بالزراعة ، وإن بقيت أغلبيتهم تقيم في المدن في معسكرات تعيش من إتاوات وضرائب فرضوها على الزراع وضعاف أهل المدن ، حتى ساء أمرهم كثيراً ، ولم يكن القوط كثيرين ، ولم يكن بهم ميل إلى المشاركة في صناعة أو زراعة ، فظلوا غرباء عن البلاد في الغالب ، ولم يخلقوا فيها من الآثار ما يمكن مقارنته بها خلفه الفرنجة في فرنسا مثلاً^(٣).

ولم تنعم البلاد في حكم القوط بنصيب كبير من الطمأنينة والرخاء ، لأن العصر كله كان عصر اضطراب وفوضى في أوروبا كلها ، لا في إسبانيا وحدها ، وانهارت في نواحي غرب أوروبا قواعد المجتمع الرومانى الثابت القديم الذى كان يقوم على تقسيم الأرض بين الدولة وطائفة من كبار الأغنياء المقيمين في الريف ، ثم تأجيرها بعد ذلك للفلاحين يزرعونها ويؤدون عنها مالاً ، وكان معظم الأرض تابعة للدولة ، فكانت ترزعه بواسطة

(١) SIMONET Op.cit. pp. 12- 13

SAAVEDRA Op.cit. p. 43

(٢) درسنا هذه الناحية بتفصيل أوفى في الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب ، وهو خاص بالإدارة وشئون المال .

DOZY . Musulmans d'Espagne. I. pp. 253 Sq.

(٣)

(٣)

الفلاحين الأحرار أو العبيد ، فلما طال الزمن واستمر كل فلاح يزرع نفس القطعة من الأرض عاماً بعد عاماً نشأت بينه وبينها صلة هي أقرب ما تكون إلى صلة الملكية .

فلما أقبل المتبريرون واستولوا على أراضي الدولة آلت إليهم أملاكها ، وبهذا تعرض حق هؤلاء الزراع الأحرار في أراضيهم للضياع ، وغضب المتبريرون من الكثير منهم أرضه واستقروا فيها وأجبروه على زراعتها كأنه عبد أو قنّ ، ولجأ بعضهم إلى مالك غنى مجاور تنازلوا له عن أرضهم في سبيل حمايتهم من الغاصبين المقبلين . وشاعت هذه الطريقة وعمّت ، ونشأت عنها طبقة اجتماعية جديدة هي طبقة البوتشللاري (bucellarii) أى طبقة المحميين ، وكان القانون يعتبرهم أحراراً، ولكن التزامهم حيال الأغنياء الذين كانوا يجمعونهم جعلتهم في الواقع في مراتب التابعين والعبيد .

أقام القوط في إسبانيا حكومة عسكرية انتخابية ، يؤيدها الأشراف ومُلاك الأرض من القوط وأهل البلاد الأصليين على السواء (optiates أو proceres) ، واستمروا يدبرون شئون البلاد بنفس النظام الروماني القديم : ظلت البلاد مقسمة إلى أقاليم (provinciae) ومدن (civitates) ، وكان يحكم كل إقليم دوق ، وكل مدينة كونت (comes) ، وكان كل من هؤلاء الحكام يستعين بطائفة صغيرة أو كبيرة من الموظفين (tiumfadi أو centenarii) يقومون بها محتاج إليه حكومة الناحية في النواحي المالية والقضائية والحربية ، وكان هؤلاء الموظفون طبقات تختلف بحسب العمل الذى يقوم به كل منهم^(١).

وكان الملك يحكم مستبداً ، أى منفرداً برأيه ، يقضى في شئون البلاد كما يشاء . وكان له مجلس من النبلاء يساعده في كل شىء ، ولكن الملوك استبدوا بالأمر حتى لم يعد لهذا المجلس ظل من السلطان ، فكان الملوك يصدرون القوانين وينفذونها ويقضون في الأحكام بها يريدون ، وكان المفروض أن يُتخب الملك من بين هؤلاء النبلاء ، ولكن العادة جرت بأن يعتلى العرش أقواهم بحد السيف^(٢) .

ولكن الدولة القوطية حوت في نظامها عنصراً طيباً كان له أثر حسن في سير الأمور في دولة القوط ، ذلك هو « مجلس صُبطلة » الذى كان يجتمع

٥ - مجلس طليطلة

(١) MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES . Instituciones Economicas, Sociales (١) y Politicoadministrativas de la Peninsula Hispanica durante Los siglos V-VII en Historia de Espana.III (Madrid.1940) P. 205 Sqq BALLESTEROS . Histoire d'Espagne . p.39
BALLESTEROS Op cit p. 39-40

(٢)

بين الحين والحين للنظر في أمور الدولة الكبرى ، وكان أصل هذا المجلس دينياً ، كان مجلساً من كبار القساوسة الكاثوليكين ، يعتقدونه للنظر في أمور كنيستهم ورعاياها ، فلما اعتنق الملوك الكاثوليكية في عصر ريكاريدو أصبح هذا المجلس رسمياً يدعو الملك لعقده ويحضره كبار رجاله ، وأصبح مع الزمن مجلساً سياسياً دينياً ، يتناول المسائل جميعاً : دينية وغير دينية ، ويصدر القوانين والأحكام في شتى القضايا ، ثم اتسع سلطانه وتناول القضاء ، وأصبح بذلك محكمة عليا ، وانتهى الأمر بأن انضم مجلس النبلاء إلى المجلس الديني وأصبحا مجلساً أعلى للدولة .

وقد كان الملوك أول الساعين في توحيد المجلسين ، لأنهم أرادوا أن يزيدوا أحكامهم قوة ومهابة بالتصديق عليها من هذه الهيئة التي تضم كبار رجال الكنيسة الكاثوليكية وكبار أهل الدولة^(١).

وقد كان لهذه المجالس تأثير أحسن ، فقد سن أعضاؤها مع الزمن قانوناً شاملاً يضمن حريات الناس ويسوى بينهم جميعاً: قوطاً وإيبيريين ، وهو المسمى (Fuero Juzgo)^(٢) ، وكان لتشريعاته الأخرى أثر طيب في تهذيب نفوس القوط وتبنيهم للعيش المستقر والاتلاف مع أهل البلاد ، واستطاع رجاله كذلك الحيلولة بين الملوك وبين الاستبداد السيء المطلق بثئون الرعية.

٦- المجتمع
الإسباني أيام
القوط

والخلاف شديد بين المؤرخين حول أحوال المجتمع الإسباني خلال هذا العصر القوطي ، فمعظم الإسبان شديداً العصية لهذا العصر يذهبون إلى أن الناس فيه كانوا يستمتعون برخاء ظاهر في كل ناحية من نواحي الحياة ، وأن الزراعة والصناع كانوا في رفاهية لا يكاد الحكام يعسفونهم في شيء ، وأن موارد البلاد كانت في ازدياد ، وأن العصر على العموم كان عصر نهضة إسبانية مسيحية . وهم إنما يبالغون هذه المبالغة لكي يؤكدوا للقارىء أن النهضة التي حدثت في ظلال الإسلام بعد

BALLESTEROS. Op. cit. p. 40

(١)

(٢) عن اللاتينية Forum Judicum (القانون القوطي) أى مجموع القوانين القوطية ، وقد تكوّن في مدى قرن ، وقد بدأه يوريك ، ثم أضاف إليه خلفه الأريك الثاني مجموعة من القوانين الرومانية تسمى Breviarum وهو مختصر للقوانين التي كانت تطبق على الرومان ، ويعزى إلى شناسنتو الفضل في مزج المجموعتين معاً وتكوين مجموع متناسق منها يطبق على الناس أجمعين . وهو مجموعة قانونية شاملة لها قيمة تشريعية عظيمة ، ولو طبقت على الناس لكانت سيرة القوط في إسبانيا سيرة أخرى .

MAURICE LEGENDRE, Nouvelle Histoire d'Espagne .pp. 73. Sqq .

ذلك لم تكن شيئاً جديداً على البلاد ، وأن فضلها لا يعود إلى المسلمين وحدهم ، وإنما كانت البلاد سائرة في طريقها على أى حال . ومن هؤلاء المؤرخين من يبالغ لكى يظهر للفرنسيين ومؤرخيهم أن إسبانيا كانت على وشك أن تصل إلى شأو الدولة الفرنجية في عهد الكارولنجيين لو لم يفتح العرب بلادها ويحولوا بينها وبين إدراك هذه الغاية^(١) .

أما حقيقة الحال فكانت بعيدة جداً عما يذهب إليه هؤلاء المؤرخون ، نعم إن الحال لم يبلغ من السوء هذا المبلغ المحزن الذى يصوره دوزى في كتابه ، ولكنه كان شيئاً على أى حال، ولا يقارن بحال بها وصلت إليه البلاد من الرفاهية والرقى في عصور المسلمين . وذلك هو الرأى الذى يميل إليه المؤرخون المنصفون من الإسبان أنفسهم ، بعد أن تجلت مظاهر الحضارة الإسلامية الإسبانية ، وأصبحت أوضح من أن يبارى فيها أحد أو يفضل عليها نظاماً اجتماعياً مضطرباً كنظام المجتمع القوطى الإسباني قبيل الفتح العربى^(٢) .

طبعى ألا يستطيع القوط إنشاء مجتمع جديد خير من المجتمع الرومانى القديم ، إذ لم يكن لهم هم أنفسهم نظام اجتماعى مقبول قبل أن يدخلوا الدولة الرومانية ويستقروا في أرضها ، ويستعبروا نظمها ، ولكن ذلك لا يمنع أن يكونوا قد أنعشوا المجتمع الرومانى المضمحل ، وأدخلوا عليه عناصر جديدة نشيطة توجهه توجيهاً جديداً .

وينبغى أن نقول أيضاً : إن القوط كانوا أقل إنسانية ونظاماً من طوائف المتبريرين الأخرى التى استقرت في شبه الجزيرة حتى الوندال أنفسهم ، لأن الوندال كانوا لا يهظون البلاد التى ينزلون فيها بتكاليف حكومة ضخمة تريد أن تستقصى كل شىء وتشبه بالرومان : كانوا يزيلون النظام القديم بمحاسنه مساوئه ، أما القوط فقد احتفظوا بمساوىء هذا النظام ، وأضافوا إليه مساوئهم ، فعَمَّ ضررهم الجميع ، من المزارع الصغير والقرن الفقير إلى الغنى صاحب الضياع ، ولم يتدخل الوندال أو السويف في مسائل الناس الدينية ، أما القوط فتدخلوا واضطهدوا مخالفينهم ، كما رأينا ، فعم بلاؤهم الناس أجمعين^(٣) .

وقد ذهب الراهب الراوية باولوس أوروزيوس إلى أن القوط قسموا الأرض وأحسنوا إلى الناس ، ولكن أوروزيوس كاتب كنسى ، ورجال الكنيسة لا يهتمون إلا بما يمس

(١) نفس المصدر السابق والصفحات عينها .

DOZY. Musulmans d'Espagne, I, pp. 258-259.

(٢)

DOZY. Op. cit. I, p. 258.

(٣)

مصالحهم ، ولم تكن لهم عناية بشئون الناس وصغارهم خاصة كالزراع وأهل المدن . ومن هذا القبيل ما يؤكدته رواية آخر من رواة هذا العصر هو سلفيان المرسيل (Salvianus Marsallanus) من أن الناس كانوا يفضلون الفقر والحرية في عهد القوط على ظلم الرومان ، ولكن الغالب أن كلامه هنا مُنْصَب على حكم القوط الشرقيين ، لأنه عاش في كنفهم ، وكان القوط الشرقيون في واقع الأمر خيراً من القوط الغربيين بكثير .

وينبغي أن نقرر هنا أن الرهبان كانوا راضين عن القوط بعد تحوُّل هؤلاء إلى الكاثوليكية ، وكانوا ساخطين على الناس لأنهم لم يكونوا يراعون أشراف الدين ، بل بقى معظمهم غير مسيحيين . وتلك حقيقة لا ينبغي أن نهملها من الحساب ، إذ الواقع أن الإسبان لم يكونوا جميعاً مسيحيين في حكومة القوط ، بل ظل الكثير منهم وثنيين ، وقد وجدهم المسلمون كذلك ، وكان هذا مما يسر عليهم أمر كسبهم إلى الإسلام ، هذا على الرغم مما بذله نفر من قساوسة الكنيسة الكاثوليكية في تحويل الناس إليها .

فقد قضى القس ماسونا (Masona) القوطى حياته كلها يبشر بالمسيحية في نواحي الغرب وإقليم ماردة على الخصوص ، وهو الذى أوصل المسيحية إلى السويف وإلى نواحي جليقية ، والراهب لياندرو (Leandro) وكان مبشراً كاتباً مؤرخاً ، وإليهما يرجع الفضل في ثبات المسيحية على التربة الإسبانية وما أدركته من تأصل في بعض النواحي ، حتى لم يستطع الإسلام إزالتها خلال قرون^(١) .

لم يعمل القساوسة شيئاً لتحسين حال الناس ، إذا استثنينا ماسونا ، فقد كان خَبِراً إنسانياً حقاً ، بل لم يحاول واحد منهم أن يعترض على ما كان الأغنياء يرفون فيه من الاستبداد بالضعفاء والاستكثار من العبيد ، حتى إيزودور الإشبيل نفسه على الرغم من علمه الواسع ونزغته الإنسانية ، لم ينكر الرق صراحة ، وإن كان قد قرر أن الناس كلهم متساوون أو يكادون أن يكونوا متساوين ، هذا في حين أننا نجد راهباً آخر هو إيزودور الثيبايدى (الصعيدى) يدهش من أن نصرانياً في مصر يقتنى عبداً ، وهذا في ذاته شعور جميل جدير بالذكر ولكنه لم يقترن بأى جهد إيجابى من شأنه أن ينفع هؤلاء العبيد ، وكان عددهم كبيراً جداً ، كان الأغنياء يقتنونهم بالآلاف ، ويعاملونهم معاملة جافية كأنهم بعض المتاع ، وقد يشس هؤلاء المساكين من كل إنصاف من جانب الحكاميين أو من جانب رجال الدين ، وياتوا

يتربون فرصة الخلاص^(١).

ولم يكن أوساط الناس ممن يسمون كورياليس (Curiales) من أهل المدن والصناع وأحرار الزراع أحسن حالاً ، لأن ملوك القوط لم يلتفتوا إلى شيء يعود بالخير على عامة الناس ، ولم يؤثر عنهم إنشاء قنطرة أو تعبيد طريق أو وضع قانون يخفف عن الناس مظالم الحكام أو يجعلهم في مأمن من الظلم والعدوان ، وقد كانوا هم أنفسهم أبعد الناس عن أي لون من هذا التفكير .

ويضاف إلى هذه المساوئ الاضطهاد الديني بألوانه : اضطهاد القوط للكاثوليك حينما كانوا آريين ، ثم اضطهادهم لليهود على النحو الذي رأيناه في أيام لذريق مما جعلهم يميلون إلى الخلاص من هذا الحكم البغيض ، وقد اتهمهم القوط بالتآمر على سلامة الدولة مع قوم خارج إسبانيا ، لكي يبرروا عسفهم بهم ، والغالب أن رجال الدين الكاثوليك كانوا هم المحرضين على هذا الاضطهاد لأننا رأينا أنه من غير المعقول أن يحاول يهود إسبانيا الاتصال بيهود إفريقية في ذلك الحين .

وحينما تقادم العهد بالقوط في البلاد ، وتمتعوا بخيراتها الوفيرة مالت بهم نفوسهم إلى الدعة ، وجعلوا يكون أمور الحرب إلى عبيدهم ، حتى زاد عدد العبيد على عدد الأحرار في الجيش . ويبدو أن الحروب المتعددة بين ملوك القوط ونبلائهم هي التي حفزت هؤلاء الملوك إلى الاستكثار من هؤلاء العبيد في الجيش ، لأن أعداد عماري القوط القليلة توزعت بين الملوك والثائرين ، وكانت كثرة العبيد في الجيش من أسباب ضعفه ، لأنهم كانوا ساخطين على الدولة ينتظرون الفرصة للتخلي عنها وتركها لمصريها^(٢).

ولابد من إشارة قصيرة إلى حال الثقافة بألوانها في البلاد قبل الفتح

٧ - الحالة الثقافية الإسلامية ، فهذه هي الناحية الوحيدة التي سيجد المسلمون فيها أساساً طيباً يزيدون عليه . وقد كانت إسبانيا منذ فجر التاريخ بلد ثقافة وموطن علم وفن ، وضع الفينيقيون أساس ذلك كله وزاد عليه اليونان والرومان ، ثم أقبلت المسيحية فأنعشتها وسارت به خطوات إلى الأمام ، ولعل في هذا بعض ما يفسر لنا سراً من أسرار الازدهار الفكري السريع الذي حققه المسلمون في إسبانيا ، على قلة اتصالحهم بمنابع الثقافة القديمة والوسيلة في العالمين الإسلامي والمسيحي .

DOZY. Musulmans d'Espagne. I. 265 .

(١)

DOZY. Musulmans d'Espagne. I. pp. 269

(٢)

تأصلت المسيحية في إسبانيا بأسرع مما تأصلت في غالة مثلاً، ولم يكد القرن السادس يهل حتى كانت البلاد تفيض بالديور يقيم فيها الرهبان يدرسون ويتفكرون، والكنائس يقوم بأمرها قسس معينون بالدرس مشغوفون بالكتابة والتأليف، وقد أشرنا إلى القس القوطي ماسونا (توفي سنة ٥٧١م) ونزعاته الإنسانية واجتهاده في تهذيب المتبريرين ونشر مبادئ الأخلاق المسيحية فيهم. ومن هذا الطراز القديس لياندرو المتوفى ٦٠٣م، فقد كان داوماً مجتهداً، وقد ترك لنا آثاراً فكرية طيبة: ومن آثاره رسالة مسيحية صوفية قريبة الشبه بكتابات القديس أوغسطين فيها زهد في الدنيا وترغيب في الكمال، ومادتها مقتبسة من الإنجيل ولكنها طيبة جداً إذا عرفنا أنها كتبت في القرن السادس، وأنه كتبها وهو منفرد بنفسه في نواحي ماردة، وكانت إذ ذاك قفراً لا يسكنه إلا القليل^(١).

وأكبر شخصيات هذا العصر مكاناً وأبقاها أثراً في مستقبل البلاد الثقافي هو القديس إيزودور الإشبيلي (ISIDORO DE SEVILLA) ولم يكن قوطياً وإنما من الإيبيريين الرومان، ولم يكن كاتباً دينياً فحسب بل كان مصنفاً موسوعياً حاول أن يجمع في كتبه كل ما انتهى إليه من علوم اليونان والرومان معدلة تعديلاً مسيحياً، وهو يعد من هذه الناحية من كبار الكتاب والمفكرين المسيحيين بل من آباء الكنيسة، وكتباته تسلكه مع كتابات القديس أوغسطين في سلك واحد، وأعظم كتبه وأبقاها كتاب أصول الكلمات (Originum sive Etymologiarum).

وربما وجدنا فيما يورده من أصول الكلمات أشياء أسطورية دينية لا يقبلها العقل، ولكن الكتاب موسوعة أخلاقية تضم ثروة عظيمة من الأفكار اليونانية وفلسفة المسيحية الأولى، وهو يعالج في الأجزاء الثلاثة الأولى الفنون السبعة: النحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والموسيقى والفلك، ثم يخص الصب بالجزء الرابع، ويختص بالقانون والتاريخ الجزء الخامس، ويجعل الجزء السادس للإنجيل وغيره من الكتب الدينية، وهكذا يختص كل لون من المعارف الإنسانية بجزء، حتى الفنون اليدوية كالنجارة والهندسة والموازين والمكاييل والألعاب، مما يجعل كتابه موسوعة غنية بكل غريب طريف، تدل على أن جميع ألوان المعارف الإنسانية التي كانت معروفة في ذلك الحين كانت موجودة متداصلة في إسبانيا، وأن العرب حينما دخلوا البلاد وجدوا فيها تراثاً ثقافياً طيباً^(٢).

(١) M. LEGENDRE. Nouvelle Hist. d'Espagne. p. 77.

(٢) أراد إيزودور أن ينشئ موسوعة تضم معارف عصره كلها وجعلها في ٢٠ جزءاً، السنة الأولى منها مقدمة =

ونستطيع أن نذكر إلى جانب القديس إيزودور عدداً عظيماً من القساوسة والرهبان الذين تركوا مؤلفات شتى ، منهم باولوس أوروزيوس قس لوزيتانية ، ولم يكن إسباني الأصل وإنما كان صقلياً ، وهو من تلاميذ القديس أوغسطين أسقف بونه ، أخذ عنه العلم وتشيع بأرائه وهو لهذا يكتب على غراره : يهاجم الوثنية ويدعو إلى الله ، وقد حاول تقليد سنت أوغسطين في كتابه « مدينة الله » (Civitate Dei) ، ونلاحظ هذا التشابه في التاريخ العالمي الذي كتبه تحت اسم (Historiarum Libri vii contra paganos) الذي يفسر فيه التاريخ تفسيراً دينياً مسيحياً ، ويصور العناية الإلهية توجه أعمال البشر والرسول يقودون الناس إلى أحسن مصير^(١).

أما ما عدا الآداب من الفنون ، فإن القوط لم يخلفوا إلا ثروة معمارية فقيرة جداً ، ومن أمثلة هذا الطراز بازيليكية سان خوان دبانوس التي بنيت في عصر رخشندش وجزء من كنيسة سان بدرو دتازاسا وبعض عمد باقية في كنيسة سان بابلو دل كامبو في برشلونة ، وينسب بعض مؤرخي الفنون العقد الخمس إلى القوط^(٢).

وخلاصة القول أن إسبانيا القوطية لم تكن شراً كلها كما يذهب بعض المؤرخين الفرنسيين والعرب ، ولم تكن خيراً كلها كما يزعم الإسبان ، وإنما كانت جوانبها الاجتماعية ضعيفة جداً ، بل تعد امتداداً للعصر الروماني المضمحل . وذلك معقول ، لأن القوط أنفسهم كانوا قبائل متبدية لا تملك من الأسس الاجتماعية ما يعينها على تنظيم بلد واسع كإسبانيا ويجتمع منشعب مختلف كمجتمعها الذي ضم أخلاطاً من كل صنف ، وقد حاولوا أن يتخذوا مظاهر النظام السياسي الروماني فلم يوفقوا ، لأنهم كانوا أبعد من أن يفهموه أو يستطيعوا البناء عليه ، ولم يُصَب الناس من وراء ذلك إلا شر بالغ .

وأما الناحية الفكرية فكانت خيراً خالصاً ، لأن الذين قاموا بها كانوا هم الإسبان

= والباقية تتناول أصناف العلوم والفنون المعروفة في عصره وله مؤلفات تاريخية كثيرة ، منها كتاب عظماء الرجال (Liber de viris illustribus) والمدونة (Chronicon) وتاريخ ملوك القوط (Historia de Regibus Gothorum) وتاريخ ملوك الوندال والسوف (Historia de regibus Vandalorum et Suevorum)

انظر :

JUSTO PÉREZ DE URBEL. Las letras en la epoca visigoda en Historia de Espana, tomo III. Espana Visigoda (Madrid, 1940), pp. 401 Sqq .

(١) نفس المصدر ص ٧٢ .

BALLESTEROS. Op. cit . p. 41.

(٢)

الأصليين بعد أن دخلوا المسيحية وتأثروا بأفكارها وفلسفتها ، فلا عجب أن ظهر في هذا القطر الثاني رجال من طراز إيزودور الإشبيلي وبولوس أوروزيوس ولياندرو ، لأن البلد كان قبل ذلك موطن حضارة فكرية وفلسفة باقية الأثر في عهود الرومان .

لقد سبقت إسبانيا المسيحية أوروبا الغربية كلها في هذه الناحية ، كما ستسبق إسبانيا الإسلامية بقية العالم الإسلامي في نواح شتى من نواحي التفكير الإسلامي . ولعل مرد هذا إلى أثر هذا القطر البديع فيمن يقيم فيه ، وليس من وحى المصادفة أن يتواتر السبق والنبوغ في أهله من أقدم العصور إلى يومنا هذا ، ولعل إيزودور الإشبيلي قد أحس فضل الوطن الإسباني على ما وصل إليه من ذكاء وعلم واقتدار فعبر عن شكره لبلده في أسطر تفيض رقة وحناناً ، يقول فيها مناجياً إسبانيا :

« أرى إسبانيا ! إنها أنت أجمل الأرضين التي تمتد من أقصى الغرب حتى المند ... إنك لأرض مباركة سعيدة بأمرائك ! إنك أم لشعوب عديدة ، وأنت ملكة الولايات أجمعين ... منك يقبس الغرب والشرق النور . وعلى أرضك يزدهر خصب الشعب القوطي المجيد...»^(١).



الفصل الثاني

فتح المغرب

لم يدخل الشمال الإفريقي في حوزة الإسلام بحرب واحدة ، بل بسلسلة ٨-فتح المغرب من الحروب استمرت حوالى سبعين سنة متوالية ، بدأت ببعث استطلاعى قام به عقبة بن نافع في ذى القعدة سنة ٢١هـ (سبتمبر ٦٤٢) وانتهت بحملة موسى بن نصير الأخيرة الموفقة التى أخضع فيها المغرب الأقصى سنة ٩٠هـ (سنة ٧٠٨م) ، وقد لقى فيها العرب من الجهد والخسائر ما لم يلقوا مثله في فتح إقليم آخر ، حتى شمال الهند نفسه^(١).

بيد أننا لو قارنا هذا الجهد الذى بذله العرب بسعة البلاد التى تم فتحها ووعورة أراضيها واختلاف أجناسها ، لثبنا أن العرب فتحوا هذه الأقطار المترامية بأيسر مما فتحها الرومان ، وأنهم وُفقوا إلى إخضاعها توفيقاً لا يكاد يقارن به توفيق الرومان في العصر القديم أو توفيق الفرنسيين في العصر الحديث ، وأن خسائر العرب كانت أقل بكثير جداً من خسائر هؤلاء وأولئك ، هذا في حين كانت النتيجة التى وصل إليها العرب رائعة على غير مثال .

وقد علق جوتيه على ذلك بقوله : « لا زالت النتائج التى وصل إليها العرب (في فتحهم الشمال الإفريقي) تدهشنا إلى الآن . لقد عُزِّب المغرب إلى حد كبير ، وتحول إلى الإسلام تحولاً تاماً عميقاً ، وهذه نتيجة تدعو إلى الإعجاب ، ما في ذلك شك ، ولم توفق إلى مثل هذه النتيجة حركة استعمارية (كذا) أخرى قامت على وجه الأرض ، ولنكرر القول أن هذا الفتح أحدث ، خلال القرن السابع ، ثورة كبرى : لقد انهار الحاجز المغلق إغلاقاً محكماً من كل ناحية ، الذى كان يفصل الشرق عن الغرب . ولو أننا قارنا هذه القفزة الواسعة نحو المجهول بثوراتنا - الفرنسية أو الروسية مثلاً - لبدت لنا هاتان الأخيرتان صغيرتين جداً ، فإذا دفعنا تطلعننا إلى فهم الأسلوب الذى تمت به هذه الثورة الكبرى وإلى الإحاطة بتفاصيلها استبنأ أن الفتح العربى كان طويلاً جداً وعنيفاً جداً ، إذ قاومتهم البلاد مقاومة

(١) أوجزت في الصفحات التالية فتح إفريقية اعتياداً على بحثى في هذا الموضوع * فتح العرب للمغرب * - القاهرة ١٩٤٧ ، والبيحت الذى نشره ليفى بروفنسال * نص جديد عن فتح العرب للمغرب * في صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية في مدريد - مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ ، وتعلقنا على كلام بروفنسال ونص عبيد الله .

عنيده^(١).

هذه الملاحظة تعطينا فكرة واضحة عن طبيعة الفتح العربي للمغرب وعن ضخامة العمل الذي قام العرب به ومدوا خلاله رواق الإسلام بضعة آلاف من الكيلومترات ، من حدود مصر إلى المحيط الأطلسي . والثابت تماماً أن العرب لم يتصوروا اتساع المغرب الشاسع واختلاف شعوبه حينها أقبلوا على فتحه ، وأنهم فتحوه جزءاً جزءاً : كل إقليم يؤدي بهم إلى الذي يليه حتى وصلوا إلى النهاية ، أما ما نجده عند بعض المؤرخين والجغرافيين من تصور صحيح للمغرب وأهله فقد كتبت بعد تمام الفتح وإسلام المغرب بقرون^(٢).

مر فتح العرب للمغرب في ستة أدوار^(٣) :

E.F. GAUTIER Le passé de L'Afrique du Nord. pp. 247 - 248. (١)

وبقية عبارة جوتييه في هذا الصدد لا تقل عن هذه الفقرة أهمية ولا عمقاً ، فهو يقول مثلاً بعد استعراض سريع لخطوات الفتح العربي : « كان الفتح الفرنسي للجزائر طويلاً مولماً ، وكانت قيادته سيئة ، وليس لنا الحق في أن نفخر به كثيراً . ولكن لتفانته بالفتح العربي ، ونفرض أنه بين سنتي ١٨٣٠ و ١٩٠٠ طرد الفرنسيون من البلاد طرداً تاماً ثلاث مرات ، وأنهم لم يحفظوا في أحسن هذه المرات إلا بالجزائر وضواحيها - مدينة الجزائر تقابل عندنا القيروان عند العرب - ، إذا استعملنا تصور ذلك أخذنا فكرة عما حدث أثناء الفتح العربي ... ».

ثم يورد بعد ذلك تصوراً لمؤرخي العرب وجغرافيتهم تصور صعوبة هذه البلاد وعن أهلها ، وقد أوردت معظم هذه النصوص في صلب البحث (نفس المصدر ص ٢٤٩ وما يليها) .

(٢) مثل هذه القالة نسبها ابن عبد الحكم إلى عمرو بن العاص رواية عن عبد الملك بن مسلمة عن ابن لميعة عن ابن هبيرة عن أبي قحيم الجيشاني ، قال : إن عمرو بن العاص بعث يستأذن عمر بن الخطاب في فتح إفريقية ، فكتب إليه عمر : « لا ... إنها ليست بإفريقية ، ولكنها المفرقة ، غادرة مغدور بها ، لا يغزوها أحد ما بقيت ... » .

ومثل قول ابن عذاري : « فكتب حسان (بن النعمان) إلى أمير المؤمنين عبد الملك مجبره بذلك ، وأن أمم المغرب ليس لها غاية ، ولا يقف أحد منها على نهاية كلما بادت أمة خلفتها أمم ، وهم من الحفل والكثرة كسائمة النعم ... » .

ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ١٧٣ .

ابن عذاري : البيان ، ج ١ ص ٢١ .

(٣) اعتمدت في كتابة هذا الموجز لفتح العرب للمغرب على بحثي الخاص بهذا الموضوع (القاهرة ١٩٤٧) . وإليك أهم المراجع والصفحات التي اعتمدت عليها :

ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس (حققه شارل س . تورى سنة ١٩٢٢) ابتداء من ص ١٧٠ .

والبلاذري : فتوح البلدان من ص ٢٢٤ .

والبكري : وصف إفريقية ص ١ ، ٢ وفي مواضع متفرقة أخرى ، لأنه يذكر ما يعرفه عن فتح المسلمين لكل بلد عند ما يذكره .

ورياض النفوس للمالكي (القاهرة ١٩٥١) ج ١ ، من ص ١ وما بعدها .

وابن الأثير : ج ٣ ، ابتداء من ص ١٠ .

وابن خلدون ج ٦ ، من ص ١٤٤ .

والتويري : نهاية الأرب ، (مخطوط بدار الكتب) من ص ٦٣ .

وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ من ص ٧٦ .

والديباغ : معالم الإيمان ، ج ١ من ص ٤٠ .

وكل من هذه المراجع لا يخصص للفتح إلا بضع صفحات ، وسأكتفي بهذه الإشارة عن ذكر المراجع بعد كل ققرة .

(أ) الدور الأول : من أوائل الفتح في ذى القعدة سنة ٢١هـ (سبتمبر ٦٤٢) إلى نهاية ولاية معاوية بن حديج في أوائل سنة ٤٨هـ (سنة ٦٦٨ م) :

وفي خلالها غزا عمرو بن العاص بركة ، وكسب قبيلة لواتة الكبيرة إلى جانب المسلمين ، بل أدخل بعض أهلها في الإسلام ، فكان هذا أول كسب للإسلام فيما يلي حدود مصر غرباً ، واستفاد عمرو في أثناء ذلك بجهود عقبة بن نافع الفهري ، وكان إذ ذاك قائداً صغيراً في جيشه ، فبعثه إلى زويلة وفزان وودّان . وقد أقام عقبة في هذه النواحي الصحراوية المنعزلة نحو عشرين سنة يدعو للإسلام ويضرب لأهلها مثلاً جليلاً للمسلم الصحيح المتفاني في دينه ، واستطاع أن يكسب إلى صفه قلوب الكثيرين من أهلها ومعظمهم من نفوسة ولواتة ونفزاوة (أى من البئر ، أى البربر الطواعن) ، فأما من أسلم منهم فسيضم إلى المسلمين منذ الساعة وسيكون له أثره في نجاح فتوحهم وتقدمها ، وأما من لم يسلم فقد أصبح صديقاً للمسلمين يواليهم بالقوّة ويؤيدهم على الروم والبرانس (البربر المستقرين المتحضرين بالحضارة اللاتينية) .

وفي خلال هذا الدور وُفّق المسلمون إلى الانتصار الحاسم العظيم على الروم عند سببلة في أوائل سنة ٢٨هـ (٦٤٨ م) . وقد كانت لهذا الانتصار العظيم نتيجة واحدة: هو أنه كسر سلطان البيزنطيين كسرة لن يعود بعدها إلى ما كان عليه في البلاد قبل الفتح الإسلامي ، وسيحاول البيزنطيون العودة إلى البلاد والاتحاد مع البربر ومغالبة العرب ، ولكن كل محاولاتهم لن تزيد عن أن تكون محاولات قليلة الخطر عديمة النتائج . ولو أن عبد الله بن أبي سرح أقام في البلاد أو ترك فيها حامية لكان لانتصار سببلة نتائج بعيدة حاسمة ، ولكنه عَجّل بالعودة لأسباب غير ظاهرة ، مكتفياً بهال عظيم جمعه من أهل البلاد ، فكان على من أتى بعده أن يبدأ من جديد ، لأن انسحابه عفى على معظم النتائج التي كان المسلمون قد وصلوا إليها في البلاد .

(ب) الدور الثاني: ويمتد من سنة ٤٩هـ (٦٦٩-٦٧٠م) إلى ٦٢هـ (٦٨١م) ويشمل ولاية عقبة بن نافع الأولى وولاية أبي المهاجر دينار :

لم يقم المسلمون بشيء حاسم في إفريقية بين سنتي ٢٨ و ٤٥ هجرية ، ذلك أن فتنة عثمان وما تلاها من الأحداث أوقفت نشاط التوسع الإسلامي في كل وجه ، نعم إن عثمان لم يُقتل إلا سنة ٣٥هـ (٦٥٤ م) ولكن السنوات الأخيرة من حكمه كانت سنوات اضطراب

وشغب عليه ، وكان والى مصر وقائد الفتوح فى إفريقية هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح أحد المغضوب عليهم من الناس فى ذلك الحين ، فكان طبيعياً أن ينصرف فكره عن إفريقية ومواصلة الفتوح فيها منذ عودته من غزواته التى ذكرناها فى سنة ٢٨هـ (٦٤٧م) .

فلما انتهت الفتنة واستقر الأمر لمعاوية عاد عمرو بن العاص إلى مصر سنة ٣٨ هـ (٦٤٨م) واتجه ذهنه من أول الأمر إلى معاودة الغزو فى إفريقية ، لأنها كانت ، فى حسابه ، باباً مفتوحاً للكسب والمغانم . ولا نزاع فى أن معاوية لم يكن راضياً عن هذه الحرية التى أباحها عمرو لنفسه ، لأن حملة عبد الله بن سعد وما عادت به من المغنم الوفير فتحت عينه على أهميتها ، وجعلته يفكر فى فصلها عن مصر وإفرادها بوالٍ خاص . فلما توفى عمرو سنة ٤٤هـ (٦٦٥م) سنحت له الفرصة ليحدث هذا التغيير الهام الذى يعين لنا تطوراً خطيراً فى علاقة المغرب بالخلافة الإسلامية ، فمن ذلك الحين أصبح المغرب ولاية مستقلة تابعة للخلافة رأساً ، وكان أول وال إسلامى عُيِّن على إفريقية معاوية بن حديج أحد كبار أنصار معاوية .

عجل معاوية بن حديج بالسير إلى مصر فى سنة ٤٥هـ (٦٦٦م) فلم يكده يصل بركة حتى بلغه أن البيزنطيين عادوا فأرسلوا جيشاً إلى البلاد ، وأن قائد هذا الجيش قد طالب أهل إفريقية بأن يؤدوا له من المال بقدر ما أدوا للعرب ، فثار به الأهلون ، فعاد إلى بلاده ليعود بجيش قوى وفى نيته إرغام الأهلين على أن يؤدوا له ما طلب ، فوصل إلى قرطاجنة قبيل الوقت الذى عبر فيه معاوية بن حديج حدودها ومعه عشرة آلاف من العرب فيهم نفر كبير من الصحابة والتابعين ، من أمثال عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبير بن العوام ، وعبد الملك بن مروان وعدة من أشرف قريش ، ونفر كبير من جند مصر .

ولم يكده الجيش يحط رحاله فى إقليم قُمُونِيَّة جنوبى قرطاجنة حتى تسامع بنزول الروم ، فتقدم نحوهم وعسكر فى مكان يسمى القَرْن ، ومن هناك أرسل عبد الله بن الزبير ليستطلع أحوال جيش الروم ، فلم يكده هذا الأخير يشعر باقتراب العرب حتى تراجع إلى سوسة ، وأدركه عبد الله بن الزبير فيها وناوشه مناوشة خفيفة ، أقبل بعدها إلى صقلية ، واستولى المسلمون على سوسة . وأرسل معاوية سرية أخرى إلى جلولاء (Couloulis الرومية) استولت عليها وغنمت غنيمة متواضعة ، ثم سار بنفسه إلى بنزرت فاستولى عليها . ولا صحة لما يذكره بعض المؤرخين من أن معاوية بن حديج بعث سرية إلى صقلية . ولسنا

نستطيع اعتبار أعمال معاوية بن حديج فتوحاً ، وإنما كانت سرايا قليلة الأهمية لم تترك في البلاد أثراً يُذكر .

(جـ) الدور الثالث : ولاية عقبة الأولى واختطاط القيروان (٤٩-٥٥ هـ / ٦٦٩-٦٧٥ م) :

١- اختطاط القيروان
وأما نشاط الفتح الصحيح فيعود من جديد بتولى عقبة بن نافع قيادة الفتح في المغرب سنة ٤٩ هـ (٦٦٩-٦٧٠ م) وقد كان عقبة أقدم المسلمين عهداً بإفريقية وأعرفهم بأحوالها ، وكان في نفسه رجلاً شديد الإيمان تميل نفسه نحو نشر الدين لا إلى مجرد الفتح والانتصارات وما وراء هذه من مكاسب . ويبدو أنه كان قد وضع في نفسه خطة طويلة للفتح ، ولهذا لم تكد ولاية إفريقية تؤول إليه حتى سارع بإنشاء مدينة للمسلمين ، اختطها في إقليم قَمُونِيَّة جنوبي قرطاجنة ، ويغلب أنه لم يُرد إنشاء مدينة بالمعنى المعروف وإنما معسكراً ، فقد قال : « وأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها معسكراً ، وتكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر » .

وقد قضى عقبة في إنشائها نحو أربع سنوات (٤٩-٥٢ هـ / ٦٦٩-٦٧٥ م) فلم تكد المدينة تقوم حتى بدأت « ولاية إفريقية » الإسلامية تظهر ، ولم يعد العرب مجرد غزاة يخرجون من مصر للغزو ثم يعودون إليها ، بل أصبحت العاصمة الجديدة مركزاً تخرج منه الغزوات وتنظم منه شئون البلاد ، وهذا في ذاته تطور له معناه .

واشتغل عقبة أثناء بناء المدينة في إرسال السرايا في كل وجه ، فكانت نتيجة ذلك أن القبائل البربرية المقيمة في سهل تونس وفي الهضاب المجاورة بدأت تشعر بقوة المسلمين ، واجتذبتهم المدينة الجديدة ، وأثرت فيهم شخصية عقبة القوية ، فأخذوا يقربون من المسلمين وأسلم منهم نفر عظيم ، وبهذا نشأت في سهل تونس جماعة إسلامية بربرية . وكانت تلك خطوة حاسمة في تحويل المغرب إلى الإسلام ، وزادها أهمية أن الكثيرين من هؤلاء البربر الذين أسلموا أخذوا ينتظمون في جيوش المسلمين ويسرون معهم لإتمام فتح البلاد .

فلما أتم عقبة تأسيس « نقطة الارتكاز » وفيما هو يشرع يتخذ الأهبة للخروج للغزو الواسع النطاق ، إذا معاوية بن أبي سفيان يفاجئه بالزلزل سنة ٥٥ هـ (٦٧٤ م) نتيجة لسعايات والى مصر مسلمة بن مخلد ، الذي كان يغار من عقبة ويحسده .

وأقام مسلمة على إفريقية أحد مواله دينار أبا المهاجر سنة ٥٥٥هـ (٦٧٤م) وكان مسلماً حسناً وجندياً نشيطاً ، وكان أول قائد مسلم يُقَدَّر له أن يخرج من سهل تونس ليتوقَّف هضاب المغرب الأوسط ويهاجم القبائل البربرية في مواطنها الحصينة . وكانت أول كتلة بربرية قوية اصطدم بها هي كتلة أوزبة أقوى قبائل البرانس في ذلك الحين ، وكانت النصرانية قد انتشرت بين أفرادها ، وكان رئيسها كسيبة بن لعمزم الأوربي ، وكان رئيساً ذكياً قادراً ، وقد استطاع أبو المهاجر أن يغزو مواقع أوربة في جبال الأوراس وأن يجتذب كسيبة إلى الإسلام ، فأسلم وتبعه نفر كبير من قومه في غزوة طويلة وصل فيها إلى تلمسان ، ثم هاجم قرطاجنة هجوماً قوياً سنة ٥٥٩هـ ، ولم يرجع عنها إلا بعد أن تنازل الروم له عن شبه جزيرة شريك الواقعة جنوبي إقليم قرطاجنة ، فاحتلها المسلمون وضيّقوا الخناق على عاصمة إفريقية البيزنطية .

(د) الدور الرابع : حملة عقبة الكبرى (٦٢-٦٤هـ / ٦٨٢-٦٨٤م) :

وانتهت ولاية أبي المهاجر سنة ٦٠هـ ، إذ عزله يزيد بن معاوية وردَّ عقبة إليها بعد أن طال غيابه عنها وطالت شكواه من حرمانه منها ، ثم عجل بالخروج في غزوته الكبرى التي وصل فيها إلى المحيط ، ومن الغريب أن هذا الرجل القادر لم يحسن استغلال هذه الفرصة العظيمة التي أتاحت له ، فقد كان الروم في حالة من الضعف لا تأذن لهم بمقاومة المسلمين ، وكانت أوزبة كلها إلى جانب العرب يقودها رئيسها كسيبة . بدأ عقبة فأساء معاملة كسيبة ونفّره وقومه من المسلمين ، ثم مضى في مغامرة طويلة المدى قليلة الأثر السياسي ، تذهب المرجع إلى أنه انتهى فيها إلى ساحل المحيط عند « إيغيران يطوف » ، ثم عاد ليلقى مصرعه عند تهودة على يد البربر ونفر من أحلافهم من الروم سنة ٦٤هـ (٦٨٣-٦٨٤م) ، وقد استشهد مع عقبة في هذه الواقعة نفر كبير من رؤساء المسلمين فيهم أبو المهاجر دينار نفسه ، فإذا تم ذلك لكسيبة فقد سار بمن معه من البربر فاحتل القيروان ، وتراجع مَنْ بقي من المسلمين إلى برقة يقودهم زهير بن قيس البلوي^(١).

بهذا خرجت إفريقية من أيدي المسلمين ، وتراجعوا إلى برقة التي كان عمرو بن العاص قد فتحها منذ نحو أربعين سنة ، وكان على خليفة عقبة أن يبدأ العمل من جديد . ولكن الواقع أن هذه الهزيمة لم تكن قاضية على كل أثر للمسلمين في البلاد ، إذ إن إفريقية كانت

(١) انظر : حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب (القاهرة ١٩٤٧) وليفي برونسال : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، نشر في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمطرد ، المجلد الثاني ١٩٥٤ ص ١٩٣ وما يليها .

تضم إذ ذاك جماعات إسلامية قوية في القيروان وحولها وفي بعض نواحي الأوراس ، وقد خضعت هذه الجماعات لكسيلة ولكنها ظلت تترقب فرصة عودة المسلمين ، ويبدو أن نزاعاً وقع بينه وبينهم ، لأن المراجع تصور لنا إفريقية خلال الفترة التي انقضت بين انسحاب المسلمين وعودتهم في حالة مضطربة .

(هـ) الدور الخامس : ولاية زهير بن قيس والقضاء على مقاومة البرانس (٦٩-٧١هـ/

٦٨٨-٦٨٩م) :

عاد المسلمون إلى إفريقية بعد هذه الهزيمة بأربع سنوات - أي سنة ٦٩هـ/ ٦٨٩م - يقودهم زهير بن قيس البلوى الذى ظل هذه السنوات ينتظر المدد في بركة ، وقد أبدى زهير مقدرة عظيمة خلال السنوات الثلاث التي قاد فيها جيوش المسلمين في إفريقية : بدأ بحملة عنيفة على الروم قضت على كل أمل لهم في معاودة الوقوف في وجه المسلمين أو التحالف مع البربر ، ثم أسرع إلى كسيلة الذى كان متحصناً في تمس ، فهزمه وقتله في معركة حامية كسرت شوكة البرانس وقضت على مقاومتهم ، وقضت على ما كان معقوداً بينهم وبين الروم من تحالف على العرب وتعاون على طردهم . وبهذا قضى هذا القائد الماهر خلال هذه الفترة القصيرة على عنصرين من أشد عناصر المقاومة ، وهما الروم والبربر البرانس أى المستعربين في السهل الساحلى المتأثرين بالحضارة البيزنطية والمسيحية ، وبقيت ضربة أخرى توجه إلى القبائل المتبدية (البيرية) لكى يمكن القول بأن المسلمين قد قضوا على كل عناصر المقاومة الجديدة في المغرب .

قاد جيوش الإسلام المظفرة في هذا الدور الخطير من أدوار الفتح رجل لا يقل قدرة ولا أهمية عن عقبة بن نافع أو زهير بن قيس ، وهو حسان بن النعمان . وكان زهير قد استشهد عند بركة ، تربص له الروم على طريق العودة بعد هزيمتهم وهزيمة أحلافهم ، وكان قتلهم زهيراً قد أنعش في نفوسهم الآمال في عودة إفريقية إليهم ، وأرسل الامبراطور ليونتئوس مدداً صغيراً إلى قرطاجنة قويت به نفوس من بها من الروم ، فكان على حسان خليفة زهير أن يبدأ العمل من جديد كما بدأه زهير .

(و) الدور السادس : القضاء على مقاومة البئر وإتمام فتح المغرب (٧٦-٨٥هـ/

٦٩٥-٧٠٥م) :

فطن عبد الملك بن مروان إلى أن إفريقية لن تُفتح كاملاً ثابتاً إلا إذا سار إليها جيش

كبير حسن الإعداد ، وواتته الظروف على إرسال هذا الجيش ، إذ كانت ثورة ابن الزبير قد قضى عليها ، ولهذا وضع تحت تصرف حسان جيشاً كبيراً حسن العدة يبلغ عدد جنوده أربعين ألفاً . وسار حسان إلى إفريقية بعد أن رسم لنفسه خطة واضحة : كان يعرف أن القادة قبله كانوا ينفقون معظم وقتهم وجهودهم في أعمال حربية ثانوية تفرق قواهم وتحول بينهم وبين أن يقوموا بعمل حاسم يقضى على مقاومة البربر أو الروم .

جعل حسان الروم وجهته الأولى ، وكان يعرف أن ما بقى لهم من القوة في قرطاجنة شيء صغير لا يستطيع مواجهة العرب ، ولكنه كان يستطيع مضايقتهم وشل حركتهم وإحباط مساعيهم فعوّل على مهاجمتهم في قرطاجنة والقضاء عليهم القضاء الأخير ؛ وقد ألح في حربه لقرطاجنة ومن فيها وثابر على ذلك حتى استبان لمن فيها من الروم أن لا نجاة إلا بالهرب وترك البلاد جملة ، « فركبوا مراكبهم ، وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس ، ودخلها حسان بالسيف فسبى ونهب » .

وبهذا قضى حسان على عُش المقاومة هذا بعد أن ظل شجى في حلق المسلمين نحو ثلاثين سنة ، ولو قد أرادوا القضاء عليه سنة ٢٧ هـ لفلعلوا ، ولكن الأمر كان يحتاج إلى رجل في قدرة حسان ويُعد نظره ، ثم مضى حسان يهاجم الروم فيها عسى أن يعرفه من مراكزهم الباقية ، وأبدى في ذلك نشاطاً مشكوراً .

ثم عاد ليتوجه بكل قواه نحو مركز المقاومة الآخر وهو البربر البُتر ، وكانوا قد تجمعوا حول امرأة لقبها العرب بالكاهنة ، ويغلب أن اسمها كان « داهية بنت مانية بن تيفان » ملكة جبل أوراس ، وكانت على جانب عظيم من المهارة والقدرة ، فجمعت حول رايتهما نفراً غفيراً من البربر الرحل « فيهم بنو يفرن ، ومن كان بإفريقية من قبائل زناتة وسائر البتر » وكانت هي تنتسب إلى قبيلة جرواة ، ويذهب المؤرخون إلى أن هذه القبيلة كانت يهودية ، وهذا أمر لا يستبعد وإن كان يفتقر إلى ما يشته .

ولم تكن الكاهنة نائبة على العرب من أول الأمر كما يفهم من النصوص ، وإتيا كانت مطمئنة بمقامها في جبل أوراس ترقب الحوادث ، فلما رأت حسان يقضى على الروم ويتقدم نحو بلادها سارعت فجمعت من استطاعت جمعه من رجالها ، وانتظرت في « باغاية » على مدخل الجبال ، فلما اقترب حسان منها تراجعت حتى ثبتت عند نهر نيني على مقربة من موضع قسنطينة الحالية . وثبتت الكاهنة ومن معها للعرب ثباتاً عظيماً ، بل شدت عليهم

حتى هزمتهم بعد أن قتلت منهم عدداً كبيراً ، وتقهرقروا أمامها فتبعتهم حتى أخرجتهم من إفريقية جملة ، وبهذا خرجت هذه البلاد عن يد العرب مرة أخرى بعد ما تكبدوه من جهد وتضحية ، وأرادت الكاهنة أن تقطع أمل العرب من هذه البلاد ، فأمرت رجالها فخربوا ما استطاعوا تخريبه من مظاهر العمران .

أضر هذا العمل بالكاهنة وقضيتها ضرراً بالغاً ، لأنه غيّر عليها نفوس الناس ، وجعلهم يرون أن العرب خير من هذه الرئيسة على كل حال ، فهم لا يخربون ما يدخلونه من البلاد هذا التخريب الذريع . وانتَهز الروم الفرصة فعادوا في سفن ودخلوا قرطاجنة ، وطرَدوا من كان بها من المسلمين . وأقام حسان في برقة خمس سنين حتى أرسل له عبد الملك بن مروان المدد ، فتحرك إلى إفريقية من جديد سنة ٨١هـ (٧٠١م) .

لم يكد حسان يطل على سهل تونس حتى تسارع نفر عظيم من البربر والأفارقة فانضم إليه ، فعظم جمعه وسار للقاء الكاهنة ، ويبدو أنها أحست ضعف أمرها وقرب نهاية شأنها ، فأخذت تتراجع متوغلة في جبال أوراس ، وبعثت ولديها ليستأمننا حسان ، فأمنها وولى كلاً منها على ستة آلاف ممن استأمن من البربر والأفارقة ، ثم لقيت العرب عند « بئر الكاهنة » وانهمزت . وهكذا قضى العرب على آخر حركة قام بها أهالي البلاد لردهم ، إذ كانت الكاهنة هي الحصن الأخير الذى احتسى وراءه أهل البلاد ، فلما سقطت انتهت كل مقاومة ، ولم يبق أمام العرب بعد ذلك إلا « غبار قبائل » كما يقول جوتيه ، ثم سار حسان نحو قرطاجنة وطرَد الحامية التى كانت قد استقرت فيها بقيادة البطريق يوحنا .



ولم يطمئن حسان من ناحية الروم ، ورأى أن سقوط قرطاجنة في يديه لا يمنع الروم من العودة إلى أى مكان آخر من الساحل ، فعوّل على إنشاء ميناء إسلامى جديد على مقربة من قرطاجنة ، ليشرّف منه على البحر ويجول بين الروم وبين الاقتراب ، وبهذا نشأت « تونس » . ولم تزد في عهد حسان عن محرس صغير به بعض المساجد والمباني ، ولكن إنشاءها سيتم على يد عبيد الله بن الحبحاب بعد ذلك بثلاثين سنة ، فصيح ثغر إفريقية الكبير ، ويتكون فيها أسطول عظيم يغزو المسلمون به صقلية وجنوبى إيطاليا بل جنوبى فرنسا ، ويمهدون به السبيل للسيطرة على غرب البحر الأبيض المتوسط .



١١- تنظيم ولاية إفريقية
لم يكد الفتح يتم حتى عجل حسان بتنظيم أمور الولاية الجديدة ، « فَدَوَّن الدواوين وصالح على الخراج ، وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية » ، وقسم البلاد خططاً : لكل قبيلة خطة ، وفرض على القبائل أن يقدموا للمسلمين عدداً من الجنود يجارون معهم . ويبدو أن البربر أقبلوا على الإسلام في حماس ، فعمرت بهم جيوش المسلمين في المغرب من ذلك الحين ، وكان حسان بعيد النظر فسوى بين العرب والبربر في قَسَم الفىء ، ثم أقام العمال على نواحي الإدارة من خراج وزكاة وجند ، وأرسل الخليفة قاضياً للقيروان أسوة بغيرها من العواصم الإسلامية الكبرى ، وبهذا تم فتح المغرب وتنظيمه .

ونستطيع القول أن حسان صاحب الفضل الأول في ذلك كله ، فقد دخل البلاد سنة ٨١هـ فوجدها مضطربة ثائرة ، ووجد أمر الإسلام فيها مشغياً على الزوال ، وغادرها سنة ٨٦هـ (٧٠٦م) ولاية إسلامية هادئة منظمة ، بل تركها وأهلها مقبولون على الإسلام إقبالاً عظيماً ، ويكفى أن نلاحظ أن معظم الجيش الإسلامي في إفريقية كان من البربر حتى تتضح لنا هذه الناحية .

ولو امتدت ولاية حسان لجنى المغرب على يديه كثيراً من الخير ، لأنه كان كما رأينا رجلاً مخلصاً نشيطاً بعيد النظر ، ويبدو أن صفاته تلك أوقعت في خلاف مع عبد العزيز بن مروان عامل مصر للوليد بن عبد الملك ، وكان عبد العزيز يرى نفسه صنو الخليفة ويطلق يده في الأمور كما يشاء دون نظر صادق لصالح الرعية ، وكانت نفسه معلقة منذ زمن بإفريقية ، فلم يزل يضايق حسان ويلاحيه حتى أخافه وجعل استمراره في العمل غير ميسور ، فاعتزل هذا الرجل القدير العمل في أوائل سنة ٨٦هـ (٧٠٦م) والمغرب في أشد الحاجة إليه .

١٢- موسى بن نصير يتولى أمور المغرب^(١)
وسارع عبد العزيز فأقام على إفريقية وليه وأقرب رجاله إليه موسى بن نصير ، وكان من أقدر رجال الدولة الأموية وأذكاهم ، وإن كنا لا نستطيع بمقارنته بحسان بن النعمان من حيث النزاهة والإخلاص والعناية بصالح

(١) اعتمدت في كتابة هذا الجزء على المراجع السابق ذكرها ، ولم أجد حرجاً في الاعتماد على التفاصيل الهامة التي وردت في كتاب « الإمامة والسياسة » لأبي حنيفة الدينوري (طبعة القاهرة ، ج٢ ص ٩٦ وما يليها) .
وواضح جداً أن الكلام الخاص بموسى بن نصير وأعماله في ذلك الكتاب مستقى من مراجع صحيحة ، فالتشابه بينه وبين ابن عذارى ظاهر جداً يصل إلى الحرفية في بعض الأحيان ، ولا معنى للاستغناء عن معلومات هامة كهذه لمجرد أن دوزي شك في صحة الكتاب كله .

الدولة والرعية : فبينما كان حسان ينظر إلى صالح الأهلين ويسعى في تمكين سلطان الدولة والإسلام على نفوسهم بالعدل والخير ، كان موسى يحسب أن المسألة حروب وغنائم وكفى . فكان همه منذ تولى منصراً إلى القيام بغزوات يعود منها بالمغنم الوفير والسبي الكثير ولا يهتم بعد ذلك بما كانت تثيره هذه الضربات من الحفيظة وسوء الظن في نفوس أهل البلاد .

وستلاحظ فيما نتناول من شئون المغرب في سياق هذا البحث أن شيئاً كثيراً من سوء الظن بالعرب قد انعرس في قلوب البربر نتيجة لسياسة موسى بن نصير ومن بعده حتى أصبح من العسير اقتلاعه ، وأن سوء الظن هذا ظل يستشري مع الزمن حتى فصل بين العرب والبربر جملة ، وانتهى كما سنرى بانفصال المغرب عن مركز الخلافة ، وانحراف الكثيرين من أهله إلى مذاهب ثورية انقلابية تسمى صفرية تارة وخارجية تارة أخرى ، وما هى في الواقع إلا خوف وكراهية تأصلاً في نفوس البربر بسبب إصراف موسى ومن جاء بعده من ولاة بنى أمية في غزو البربر .

ويبدو أن إصراف موسى في غزو القبائل البربرية دون سبب أو مبرر ظاهر هو شعوره بأن عبد الملك بن مروان يسئ الظن به ويتوقع أن ينهب أموال الولاية الجديدة كما نهب أموال البصرة . وكان عبد العزيز يشد أزره ، ويود لو أثبت أنه خير من حسان بن النعمان وغيره من رجال عبد الملك ، فمضى يذرع البلاد من شرقها إلى غربها ويرمى نواحيها وقيائلها بأبنائه عبد الله وعبد العزيز ومروان وكبار رجاله من أمثال عياش بن أخيل وموسى ابن عياض بن عقبة والمغيرة بن أبى بردة وزُرعة بن أبى مدرك . ولم يكن أهل المغرب بحاجة إلى هذه الغزوات حتى يطبعوا ويقبلوا على الإسلام ، فقد كان معظم القبائل قد ركن إلى الهدوء في ظل الفاتحين الجدد ، وأقبل الكثيرون من البربر ينضمون للمسلمين ويشتركون معهم في حروبهم عن طواعية ورضى .

ولم يكن موسى ليتوخى النواحي المضطربة أو القبائل الثائرة ليغازبها ، بل كان يتوخى المطمئنين فينزل بهم على غرّة ، والظاهر أن عيوناً له كانت تجوس النواحي ويُنهون إليه أخبار

= وقد ناقش رأى دوزى وأثبت أصالة ما ورد في كتاب الإمامة والسياسة عن موسى بن نصير الدكتور محمود على مكي في مقال نشره في المجلد الخامس من صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمطرد . وقد ذهب في هذا المقال إلى أن هذا الجزء من كتاب أبى حنيفة الدينورى مأخوذ من كتاب ضاع لمعارك التصيرى .

القبائل ومن يمكن أخذه على غرة منها . فنحن نقرأ في أخباره : «أن الجواسيس أتوا موسى فقالوا له : إن صنهجة بغرة منهم وغنلة ، وأن إبلهم تنتج ولا يستطيعون براحاً ، فأغار عليهم موسى بأربعة آلاف من أهل الديوان وألفين من المطوعة ومن قبائل البربر وخلف عياشاً على أتقال المسلمين ... فسار موسى حتى غشى صنهجة ومن كان معها من قبائل البربر وهم لا يشعرون فقتلهم قتل الفناء ، فبلغ سيهم يومئذ مائة ألف رأس (كذا) ومن الإبل والبقر والغنم والخيل والحراث والثياب ما لا يحصى ، ثم انصرف قافلاً إلى القيروان ، وهذا كله في سنة ثمانين (كذا)» .

ولسنا نفهم سبباً آخر لمثل هذه الغزوة غير الطمع في المغنم ، بل حدث أن غزا كتامة واشتد في أذاه ، فسارع رجالها يؤكدون له طاعتهم وحسن ولائهم ، فأصر على أن يسىء الظن بهم ، ومضى يواتر الغزو عليهم وأصر على قتل رهائنهم ، حتى انكشفت له براءتهم على نحو لا يقبل الشك ، فانصرف عنهم بمغنم وافر .

لهذا ، نحن لا نسمى أعمال موسى بن نصير في المغرب فتوحاً ، لأن الفتح تم على يد حسان ، وكان موسى قديراً على الاستيثاق من طاعة من بقى خارج الطاعة من القبائل ، أو من بُعد مكانه منها كأهل السوس الأدنى ، بوسائل أخرى غير هذا الغزو العنيف . بيد أن هذه الغزوات لم تكن شراً خالصاً ، بل هي أحدثت في الغرب رجة كبرى أفاقت بسببها القبائل وتبتهت إلى هذا العصر الجديد الذى بدأ في حياة بلدهم ، وملك الروع معظمهم فتسارعوا إلى المسلمين يدخلون في الطاعة ويعتقون الإسلام ، ورأى الكثيرون منهم ما يجنيه مواطنوهم الذين يسلمون وينضمون إلى جيوش المسلمين من الخير والغنم ، فأقبل الكثيرون منهم ينضمون إلى جيوش المسلمين آلافاً ، ولا يكاد الواحد منهم يسلم حتى يسير مع الجيش الفاتح يغزو معه ويغنم معه .

ووافق ذلك مزاج القبائل البربرية المتبدية ، وجمعتها مع العرب صفات البداوة والفظرة والنشاط وحب القتال ، فازدادت جيوش المسلمين في إفريقية زيادة سريعة مطردة لا نكاد نجد لها شبيهاً في أية ناحية أخرى من نواحي الدولة الإسلامية إذ ذاك ، وكان لا بد لابن نصير أن يجد لهذه الآلاف مجالاً للغزو والنشاط وإلا صعب عليه ضبطها ، فمضى هذا الرجل الموفق يقود الجيوش وتقوده الجيوش ، مضى يفتح ويسترسل في الغزو حتى أدرك من ذلك غاية لم تكتب إلا للقبائل جداً من قادة المسلمين .

توجه موسى بضرباته في كل ناحية ، وبدأ بتوجيه حملة نحو سجوجما ، ويبدو أن طوائف البربر التي اشتركت في حرب عقبة بن نافع سنة ٨٧هـ (٧٠٢م) وقتله عند تهودة كانت تسكن على مقربة من هذه المدينة البربرية ، وقد قاد هذه الحملة عياض وعثمان وأبو عبدة من أبناء عقبة بن نافع ، فانتصموا لمقتل أبيهم من أهل البلد ومن حوله انتقاماً شديداً ، ثم أعقب ذلك بسلسلة من الحملات على هواراة وزناتة وكتامة ، وقضى على ما عسى أن يكون قد اختلج في نفوسها من تفكير في الثورة والاستخفاف بالحكام كما كان الحال أيام البيزنطيين .

ولما كان موسى يهتم اهتماماً عظيماً بمسألة الأسرى والمغانم ، فقد كان أهل البلاد يسارعون بالإسلام اقتداء لأنفسهم من الأسر ، وبهذا جعلت أعداد عظيمة من أهل هذه القبائل تسلم وتقبل على القيروان طلباً للاشتراك في الفتح والغزوات . ومن هنا لا غرابة في أن نسمع أن موسى أرسل بعد ذلك بقليل جيشاً عظيماً عدته ١٧٠٠٠ من العرب و ١٢٠٠٠ من البربر لفتح السوس الأقصى ، وأن هذا الجيش وصل إلى نهر درعة وعاد بطاعة أهله .

وكانت تلك هي أول مرة في التاريخ يصل فيها فاتح أجنبي إلى هذه النواحي الداخلية النائية من بلاد إفريقية ، ومن هناك أجه هذا الجمع نحو طنجة فافتتحها وترك عندها حامية عظيمة يقودها مولاة طارق بن زياد ، وعهد إليه بالعمل على نشر الإسلام فيما يجاور طنجة من بربر غمارة وبرغواطة . وعسكر طارق بمن معه من المسلمين على سواحل بحر الزقاق ، وبدأت أنظارهم تتجه نحو إسبانيا في العدة الأخرى .

ويبدو أن ميدان إفريقية ضاق بنشاط موسى وقواده وجنوده ، لأن ابن عذارى يحدثنا - رواية عن ابن القطان - عن حملة إلى صفلية ، غزا المسلمون فيها سرقوسة وعادوا موقرين بالغنائم .

وعاد موسى إلى القيروان خلفاً طارق بن زياد ومن معه بموضعهم هذا ، وعلم طارق أن ميناء سبتة على مقربة منه ، فبدأ يتحرك نحوها وهناك وجد شخصية غريبة غامضة يتحدث عنها المؤرخون كثيراً ، ولا تزيدنا كثرة الحديث إلا إمعاناً في الغموض ، تلك هي شخصية بليان .

الفصل الثالث

فتح الأندلس

١٣. مقدمات الفتح
أقام طارق ومن معه من جند العرب والبربر على الساحل المغربي عند طنجة وما حولها ، وأخذت أعدادهم تزداد مع الزمن ، وبدأت أنظار طارق تتطلع إلى ميدان جديد يشغل فيه هذه القوى العظيمة التي كانت تحت يده . وقد كان موسى بن نصير يشغل قواه قبل ذلك في مغازاة القبائل البربرية واجتياح أرضها والغنم منها ، ولكن طارِقاً لم يكن ليستطيع أن يفعل ذلك ، لأنه بربري الأصل من جهة ، ولأنه كان عميق الإيمان لا يرضى أن يضع السيف في قوم لم يعرض عليهم الإسلام بالحسنى .

ويبدو أن من معه من الجند بدأوا يلفتون نظره نحو الأندلس وما هي عليه من ضعف وما تضمه من عيون الثروة ، ولا نزاع كذلك في أن أنظاره بدأت تنجبه نحو حصن سبتة الذي عمز المسلمون عن الاستيلاء عليه مرتين : في المرة الأولى كان يقودهم عقبة بن نافع ، وفي المرة الثانية موسى بن نصير ، وظل هذا الحصن كالصخرة البارزة تقوم في وجه العرب في منتصف الطريق^(١).

١٤. يليان
هنا تجمع الروايات العربية كلها على قيام شخصية غريبة بأمور سبتة في ذلك الحين : تلك هي شخصية يُلَيان . واختلفت المراجع حول يُلَيان هذا اختلافاً عظيماً ، فبعضها يزعم أنه قوطي ، وبعضها يزعم أنه رومي ، وبعضها الأخير يزعم أنه بربري من غمارة ، ولكنها جميعاً تتفق على أنه كان صاحب سبتة وما حواليتها ، وأن سلطانه كان عظيماً على من كان يجاوره من البربر - من غمارة وبرغواطة على الخصوص - وأن صلوات من الود والولاء كانت تربطه بلذريق ملك الأندلس^(٢).

(١) راجع عن هاتين المحاولتين : ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢ .

والنويري : نهاية الأرب ورقة ٧٠ ب .

وابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ١٨٥ .

والأخبار المجموعة ، ص ٤ .

وابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٥ .

(٢) يتحفظ ابن عبد الحكم في تحديد علاقة يُلَيان بلذريق فيقول إنه « كان يؤدي الطاعة إلى لذريق صاحب الأندلس » ولا يقول شيئاً عن أصله أو جنسه . وكذلك الأخبار المجموعة تكفي من صفته بأنه « علعج » وأنه كان بمكهم =

وقد حقق دوزى وكوديرا وسافدرا شخصية يُليان . فأثبت دوزى وجوده فعلاً بعد أن كان بعض العلماء قد ذهبوا إلى أنه شخصية أسطورية خلقها خيال العرب^(١) ، وأكمل سافدرا عمل دوزى وزادنا علماً بشخصية يُليان وأصله والدور الذى قام به هو وأولاده^(٢) .

ونستطيع أن نقرر - اعتماداً على أبحاث دوزى وسافدرا - أن الإقليم الذى كان يحكمه بليان ، وهو مرطانية الطنجية (Mauretania Tingtana) كان فى ذلك الحين تابعاً للدولة البيزنطية لا لإسبانيا القوطية ، وأن بليان كان يقوم حاكماً عاماً (Exarcus) لهذه الناحية من قِبَل الامبراطور البيزنطى ، وأنه بدأ ولايته فى سن صغيرة ، وأقام فى هذه الناحية زماناً طويلاً ، ولما كانت مرطانية الطنجية بعيدة كل البعد عن بيزنطة ، ولما كانت أمور الدولة البيزنطية فى ذلك الحين مضطربة اضطراباً لا يمكنها من الإشراف على ولاياتها القريبة فضلاً عن البعيدة ، فقد تحرر بليان من سلطان الدولة وأصبح كالحاكم المستقل فى هذه الناحية ، وإذ انقطعت عنه الإمدادات من الدولة فقد بدأ يوثق علاقاته بمن جاوره من قبائل البربر حتى كسب وُدّها وأصبح كالزعيم لها ، حتى اختلط الأمر على الناس وحسبوه بربرياً .

عرف العرب بليان أول مرة عند وصول موسى بن نصير إلى إقليم طنجة سنة ٨٩هـ

« مدين على شط البحر فيها عيال صاحب الأندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها ، وكان رأس تلك المدينة مدينة يقال لها سبتة ، وكان عليها وعلى من حولها من المداين عالج يسمى بليان » ، ما يفهم منه أن بليان كان عاملاً من عيال للذريق . ويصفه ابن خلدون بأنه رومى ، ويذهب ابن عذارى إلى أنه قوطى . ولقيه ابن الأثير بالطريق ، أى أنه يقرر أنه كان رومياً .

ابن عبد الحكم : فتوح ، ج ١ ص ٢٠٤ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٤ ص ٨٩ .

أخبار مجموعة ، ص ٤ .

ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .

ابن عذارى : البيان ، ج ١ ص ٢١١ .

(١) انظر : DOZY . Recherches (3 éd.) I pp. 57 Sq .

وراجع عنده عبارة إيزودور الباجى التى تذكر بليان ووظيفته ذكراً محرفاً يصعب منها استكشاف حقيقة أمره .

(٢) SAAVEDRA . Estudio , pp. 48 Sq . وقد ذهب سافدرا إلى أنه فارسى الأصل وأنه من الأزارقة ، وقد استنتج ذلك من أن بليان خلف ولداً اسمه بسلكايش أسلم بعد الفتح العربى وحسن إسلامه ، وبلكايش اسم من أسماء الفرس الأزارقة ، بل ذهب إلى أنه من كونيسابور كبرى مداين أدبايين (Adiabene) ، وتقع كونيسابور بين تكريت وأربلاص ، وإليك سلالة بليان بعد الفتح بحسب ما تذكره الروايات الإسلامية :

بليان ← بلكايش ← عبدالله ← الحكم ← سليمان ← أبوب (توفى سنة ٣٢٦) ← سليمان (توفى سنة ٣٧٩) ← أحمد (توفى سنة ٣٨٨) .

وقد اشتهر الثلاثة الآخرون بصدق الإسلام وسعة العلم .

ويلاحظ القارىء أن آراء سافدرا فيها يتصل بأصل بليان فيها تكلف كثير .

(٧٠٩م) على وجه التحقيق ، أما ما يذهب إليه ابن الأثير من أن عقبة لقي يليان سنة ٦٣هـ (٦٨٣ م) وأنه نزل على حكم عقبة فأمر مشكوك فيه ولا تؤيده أية رواية أخرى . وكان ملك إسبانيا في ذلك الحين غيطشة ، وكان الود معقوداً بينه وبين يليان ، ولهذا حرص هذا الأخير على صرف عقبة عن إسبانيا وتوجيهه نحو البربر ، فلما انصرف موسى إلى القيروان وخلف طارقاً على طنجة وما جاورها ، أحس يليان خطر المسلمين وضغطهم عليه وبدأ يصانعهم ، وعمل على كسب ود طارق بن زياد أمير طنجة واتصلت بينهما الأسباب . ولسنا نعلم شيئاً عن الأساس الذي قام السلام عليه بين الجانبين ، وكل ما نعرفه هو أن طارقاً حاول الاستيلاء على سبتة فلم يستطع فاكتمى بمودة صاحبها ، وكان طارق - كما سنرى - رجلاً سياسياً بعيد النظر ، فلعله صادق يليان ليستعين به على إخضاع مَنْ تحت سلطانه من البربر وهم كثيرون^(١) .

وفي هذه الأثناء كان لذريق قد قام بثورته وعزل غيطشة وقتله وتولى مكانه ، ولما كان يليان حليفاً لغيطشة فقد حاول أن ينزل الأندلس أثناء القتال بين الجانبين معيناً لحليفه ، ولكن أنصار لذريق ردوه إلى بلاده منهزماً فعاد يليان إلى بلده سبتة وتحصن فيه ولبث يرقب الحوادث .

فلما قتل غيطشة وتفرق أتباعه فر بنوه نجاة بأنفسهم ، والخلاف شديد بين المؤرخين حول الوجهة التي اتخذوها بعد تفرق دولتهم ، فيذهب نفر إلى أنهم عبروا إلى إفريقية وأقبلوا يستعينون بالعرب على إدراك ثأرهم من قاتل أبيهم^(٢) ، ولكن المراجع العربية - فيما عدا ابن

(١) راجع بحثي دوزي وسافدرا السابق الإشارة إليها ، ونص الأخبار المجموعة يؤيد ما يذهبان إليه .

ويُفهم من قول ابن عبد الحكم : « فراسل طارق يليان ولاطفه حتى تهادبا » أن طارقاً تغطفن إلى مقدار الخير الذي يستطيع أن يجنيه من صداقة رجل قادر مثل يليان فاجتهد في كسب وده ، ولا يعقل أن يكون طارق قد لاقف يليان ليتنى شره ، بل ليفيد منه فيها هو أهم من سبتة . وربما جاز لنا أن نستنج من ذلك أن أنظار طارق كانت متجهة نحو الأندلس ، وأنه اجتهد في كسب ود يليان ليفيد منه في تحقيق أمنيته هذه .

ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٥ .

(٢) ينفرد المؤرخ سباستيان بالقول بأن أولاد غيطشة عبروا إلى أفريقية وذهبوا يستعدون العرب على الأندلس ويؤمنون لهم فتحها ، وهذا نص روايته :

Witizano defuncto, Rudericus a Gothis eligitur in regno. Filii vero Witizani, invidia ducti eo quod Rudericus regnum patris eorum acceperat, callide cogitantes, Missos ad Africanam mittunt, Saracenos in auxilium petunt, eosque navibus adfectos Hispaniam intromittunt.

ولو أيد مؤرخو العرب هذا الرأي لقبيلتنا ، ولكن سباستيان يتفرد به ولا يذكر ما يؤيده .

SEBASTIAN, c. 3.

DOZY. Recherches (3ed.) I PP.68-69.

القوطية - لا تذكر شيئاً من ذلك ، بل تذهب إلى أنهم كانوا صغاراً حينما وقع لأبيهم ما وقع ، وأنهم تفرقوا في البلاد حيناً ثم صالحوا لذريق واستقروا في أمانه وقد انطوت قلوبهم على كراهية الغاصب ، وأن العرب لم يكادوا ينزلون الأندلس ويسيروا لحرب لذريق حتى سارع أولاد غيظشة وأتباعهم فتركوا صفوف القوط وانضموا للعرب أثناء الموقعة ، وأن فعلتهم هذه كانت قاصمة الظهر لجيش القوط .

ويغلب أن في هذه الرواية بعض المبالغة ، لأن تصرف العرب مع أولاد غيظشة بعد تمام الفتح لا يدل على أن العرب كانوا مدينين لهم بفضل كبير كهذا ، وكل ما حدث هو أن أبناء غيظشة هؤلاء تقدموا إلى المسلمين بعد انتصارهم يطالبون بشيء من ضياع أبيهم ، فأعطاهم المسلمون جزءاً كبيراً منها كسباً لودهم . وقد أحسن المسلمون بذلك إحساناً عظيماً ، لأن أبناء غيظشة أصبحوا من ذلك الحين من أخلص الأنصار لهم ، بل لم يلبث بعضهم أن أسلم وحسن إسلامه .

وعلى هذا نستطيع أن نقرر من غير حرج أن أولاد غيظشة لم يجرضوا العرب على غزو البلاد ، بل انتظروا حتى تم انتصارهم فانضموا إليهم وجعلوا أنفسهم أدلة للمسلمين على عورات الأندلس ، والغالب أنهم حسبوا أنهم مستطيعون الاستعانة بالعرب على إدراك ثأرهم من قاتل أبيهم ، لأنهم كانوا يظنون أن العرب إذا أقبلوا إلى الأندلس لم يلبثوا أن يتصرفوا عنها لأنهم لا يطلبون من فتوحهم غير الغنيمة . ولكن العرب خيَّبوا ظنونهم وهبطوا البلاد بقوة كبيرة ، ولم يكد العرب يلقون القوط حتى قضوا على قوتهم القضاء المبرم ، وظهر أنهم ماضون في فتح البلاد بنية إدخالها في حوزة الدولة الإسلامية ، فلما استبان أبناء غيظشة ذلك تقدموا إلى العرب يطلبون الأمان مع من تقدم ، وأكرمهم العرب وردوا عليهم شيئاً من أملاك أبيهم .

فإذا لم يكن أبناء غيظشة هم الذين استدعوا العرب إلى الأندلس ، فما الذي حدا بهؤلاء إلى العبور ومحاولة فتحها في وقت لم تكن أقدامهم فيه قد ثبتت في المغرب الأقصى ؟ ما الذي شجع طارق بن زياد وموسى بن نصير على الخروج في هذه المغامرة الكبرى التي كان من الممكن أن تخر على المسلمين شرّاً كبيراً ؟ ما الذي شجعهم على الخروج إلى شبه الجزيرة الإيبيرية الواسع في قوة قليلة لا تزيد على السبعة آلاف ، وهم يعرفون أن المغرب - وهو أضعف من إسبانيا بكثير - لم يتم فتحه إلا ببضعة جيوش يبلغ أقلها أضعاف هذه الآلاف السبعة التي سار بها طارق ؟

١٥-فتح الأندلس هنا تذهب أغلبية المؤرخين إلى أن العرب لم يفكروا في فتح الأندلس فتحاً كاملاً والاستقرار فيه من أول الأمر وأنهم ما كانوا يطلبون إلا بعض الغنيمه ثم يعودون إلى إفريقية ، وأن غزوتهم للبلاد أخذت طابعاً آخر بعد انتصار طارق هذا الانتصار الحاسم الذي لم يكن منتظراً عند وادي لكة ، ويعتمد هذا النفر من المؤرخين على ما ورد في المراجع العربية من أن موسى غضب على طارق وعاقبه على الاسترسال في الفتح خلافاً لما كان قد أمره به ، وقد روى ذلك ابن عذارى عن ابن القطان^(١).

وربما بدا هذا الرأي صحيحاً لأول وهلة ، لأن خروج طارق إلى الأندلس بهذا العدد القليل لا يدل على أنه كان ينوى غزو البلد وفتحها فتحاً كاملاً ، وإنما هو مجرد الاستطلاع . ولكننا لو ذكرنا الأسلوب الذي جرى عليه العرب في فتح مصر والمغرب مثلاً للاحظنا أن التقديم للفتوح بقوة صغيرة تعقبها الإمدادات كان أسلوب العرب في الفتح : يرسلون عدداً صغيراً ويكونون على الأعباء لإتباعه بالإمدادات إذا لزم الأمر ؛ وقد حدث هذا في الأندلس بالفعل ، إذ أسرع موسى لِعُون طارق بخمسة آلاف من الجنود . وأما غضب موسى على طارق فسيبه أن موسى خشى أن يكون طارق قد تهور وغامر بالمسلمين أكثر مما ينبغي ، وربما يكون قد حسده على ما نال من التوفيق وما أدرك من المغانم ، وكان موسى على ما نعرف غير مجرد من الحسد أو الشره إلى المغانم .

لم يكن فتح الأندلس إذن مجرد مغامرة صادفها التوفيق فكان لها ما بعدها ، وإنما كانت من أول الأمر فتحاً مدبراً جرى فيه المسلمون على أسلوبهم الذي ذكرناه في فتح البلاد ، ومن أدلة ذلك ما ورد في « الأخبار المجموعة » من أن موسى كتب إلى الوليد يخبره بدعوة يليان إياه لفتح الأندلس « فكتب إليه أن خُضَّها بالسرايا حتى تحتبر [ها] ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال » ، فكتب إليه أنه ليس ببحر وإنما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر ، فكتب إليه : « وإن كان ! فاختبره بالسرايا » مما يدل على أن موسى كان قد قرر الفتح وعرف

(١) ابن عذارى : البيان ، (طبعة كولان وبروفنسال ، لايدن ١٩٥١) ج٢ ص ١٣ . وتُجمع الروايات العربية كلها على أن موسى خاطب طارقاً بما يُتهم منه أنه كان قد أمره بمجرد غزو البلاد والغنم منها ثم العودة ، وقد استعان المستشرقون - والإسبان منهم خاصة - بهذه العبارات ليحكموا على الغزو العربي بأنه كان مجرد مغامرة .

راجع مثلاً :

من شأن الأندلس ما شجعه على المضي فيه ، ولهذا كتب إلى الخليفة يستأذنه ، ولو كان أراد مجرد الغزو وللغنيمة ثم العودة لما كتب يستأذن ، ثم إن قول الخليفة له : « اختبره بالسرايا » يُفهم منه أنه يوافق على الغزو وإنما يأمر موسى أن يستوثق لجند المسلمين قبل أن يبدأ العمل^(١).

ومن دلائل ذلك أن طارقاً وموسى سارا في بلاد الأندلس منذ اللحظة الأولى سيرة من قدّر كل شيء قبل الشروع في العمل : سار طارق قدماً من مدينة لمدينة حتى انتهى إلى طليطلة ، ولو كان يرجو مجرد الغارة والغنيمة لعاد بعد أن وقعت في يده مدينة أو مدينتان وامتلأت يده وأيدي أصحابه من الغنيمة .

وتُجمع المراجع العربية كلها على أن يليان هو الذي دعا موسى لغزو الأندلس وكشف له عورتها وهوّن عليه أمرها^(٢) . وتجعل المراجع لذلك قصة ملخصها أن يليان كان قد أرسل ابنته إلى قصر لذريق لتتأدب وتنشأ فيه أسوة بغيرها من بنات سرات القوط في ذلك الزمان ، وأن لذريق بصر بالفتاة وطمع فيها ونال منها ، فكتبت إلى أبيها يخبرها ، فأحفظه ذلك على لذريق ، ودفعه إلى التفكير في الانتقام منه ، فاتصل بطارق وأخذ يزين له فتح الأندلس ويحرضه عليه حتى وُفق لما أراد ، ثم جعل نفسه وأتباعه أدلاء للعرب في الأندلس يدلونهم على طرقها وبلادها ومواضع الضعف فيها^(٣).

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥-٧

وابن عذارى : البيان ، ج ٢ ص ٦ .

(٢) انظر مثلاً : ابن عذارى ، ج ٢ ص ٦ . وليس في هذه الرواية أية إشارة إلى قصة ابنة يليان .

(٣) لا حاجة بنا إلى الإشارة إلى مواضع هذه القصة في مراجعنا العربية ، لأنها متواردة فيها جميعاً من غير استثناء .

أما المراجع اللاتينية فلم تعرف هذه القصة إلا منذ سنة ١١١٠ ، إذ ورد ذكرها لأول مرة في مرجع إسباني لاتيني هو « تاريخ واهب سيلوس » ذكرها مجملة على صورة قرية الشبه بيا نذكره الروايات العربية .

وليس إلى الشك سبيل في أن العرب لم يفتروا هذه القصة اختراعاً ، ولكننا لا نستطيع مع الأسف الوقوف على أصلها . وقد ذهب سافدرا إلى أنه من الممكن أن يكون يليان قد أرسل نقرأ من أهله إلى طليطلة ليأمنوا فيها حينما بدأ العرب حصار سبتة وتهديدها ، وأن ذلك قد يكون أصل القصة ، وأيد رأيه هذا بأن ابن خلدون وسان بدرو بسكوال يذهبان إلى أن الذي اعتدى على ابنة يليان كان غيطةشة لا لذريق ، لأن غيطةشة كان صديقه كما قدمنا أما لذريق فلم يكن ، ومن غير المعقول أن يكون يليان قد أرسل ابنته لتتأدب في قصر ملك بينه وبينه عداوة . وقد ذهب الأستاذ سافدرا إلى أننا حتى لو قبلنا هذه القصة فإننا لا نستطيع أن نجعلها سبب عبور العرب إلى الأندلس ، لأن مثل هذا الاعتداء لم يكن ينظر إليه إذ ذاك بالاشتمزاز الذي ننظر به إلى مثله الآن .

ولم يذكر مؤرخ عربي واحد لابنة يليان اسماً ، وتذكرها المراجع اللاتينية بين سنتي ١١١٠ و ١٣٠٠ من غير اسم كذلك حتى اخترع لها PEDRO DEL CORRAL اسماً حوالي سنة ١٣٠٠ . ولستنا نعرف من أين أتى بدرو بهذا الاسم ، وإن كان المظنون أنه ابتكره جرياً على عادته في اختراع أسماء لمن لا يجد له اسماً من شخصه التاريخي ، =

ولسنا نريد أن نقف طويلاً عند هذه القصة ، فقد تكون صحيحة وقد تكون من اختراع القصاص ، ولسنا نحتاج إليها لكي نعلل دخول العرب الأندلس تعليلاً معقولاً ، فقد كان ذلك الدخول هو الأمر الوحيد المنتظر في الظروف التي سادت المغرب خلال السنوات التي سبقت الفتح . فقد رأينا طارفاً يقيم على الزقاق ومعه عدد عظيم من الجند العربي والبربري يتطلع معظمهم إلى الفتح والجهاد ، وكان يلبان إلى جوارهم يوجس خيفة منهم ، فقد كان المسلمون قد حاولوا فتح مقله سبتة ، وكان موسى بن نصير قد رجع عنه بعد أن ألقى عنده عُدَّة وقوة ونجدة ليست تشبه ما قبلها فلم يقطعهم ، فرجع عنهم إلى طنجة ، وجعل

= وهذا الاسم هو « لا كافا » (La Cava) . وكافا اسم مدينة إيطالية على مقربة من سالرنو في مملكة نابلي ، ولما كان الفونسو الخامس ملك إسبانيا قد غزا نابلي وزار بعض جنوده مدينة كافا ، فقد عاد الجند يحملون هذا الاسم وتسمى به نقر من الإسبانيات في ذلك العهد .

يبد أن عالماً إسبانياً هو MIGUEL DE AL LUNA خرج على الناس في سنة ١٥٨٩ بتفسير عربي لهذا اللفظ ، فذهب إلى أنه مأخوذ عن اللفظ العربي «فحة» ، وذكر أن نصاص الأندلسيين كانوا يسمون ابنة يلبان به في العصور الإسلامية، ولزمها الاسم بعد ذلك ، واحتج لذلك بأن لوقا التودي ذكر الفتاة بهذا الاسم في « تاريخ الدنيا » (Croni- con Mundi) . وحققة يوجد الاسم في بعض النسخ ، ولكنه لا يوجد في النسخ المتطوع بصحتها ، مما يؤيد القول بأن النساخين أضافوا هذا الاسم من عندهم فيها بعد .

أما نصاص الإسبان وواضعو الأغاني الشعبية فقد سماوا هذه الفتاة فلورنדה Florinda ولزمتها هذه التسمية في كتب الأفاصيص والأشعار جميعاً ، وذهب البعض إلى أن هذا الاسم صحيح وأنه مخفف من الاسم القوطي فلوريندا (Floresinda) .

ومهما يكن من الأمر فقصه ابنة يلبان قليلة الأثر في التاريخ وإن كانت عظيمة الأثر في الفن والأدب ، وهي بهذا أحسن حظاً من صاحبتها « ابنة القوقس » و « ابنة جرجير » والانتان من اختراع قصاص العرب ، ولا يبعد أن تكون قصة ابنة يلبان من اختراع قصاص العرب كذلك .

Cronicón Silense . N. 15 .

SAAVEDRA . Estudio pp 58-59 .

SAAVEDRA FARJADO . Corona Gótica . cap. XXIX .

PEDRO DEL CORRAL . Cronica del Rey Don Rodrigo .

MIGUEL DE AL LUNA . Historia Verdadera del rey Rodrigo

ويُظن أن هذا الكتاب الأخير مترجم عن كتاب عربي يسمى مؤلفه أبا القاسم طريف بن طارق (ABULCA- CIM TARIF ABEN TARIQUE) من شهدوا الفتح (كذا) لأن هوامش النسخة الإسبانية تحمل عبارات وألفاظاً عربية، ولكن البحث التاريخي يشكك في أن أبا القاسم هذا من شهدوا الفتح أو حتى من القدماء ، لأن بعض ألفاظه مثل « غزن » حديث لم يستعمله أهل المغرب إلا في زمن متأخر . وقد اعتمد على هذا الكتاب الأخير شاعران كبيران هما :

LOPE DE VEGA في Posterer Godo de Espana

WASHINGTON IRVING . Legends of the Conquest Spain .

وقد نسب بيدرو دل كورال هذه الأسطورة إلى أحمد بن محمد الرازي المؤرخ .

وانظر عن لفظ فلورندا :

LEMBKE . Geschichte von Spanien .I.256 .

يبحث ما حولهم بالغاورة فلم يطقهم»^(١)، مما يفهم منه أن المسلمين لم يدعوا يليان هادئاً مطمئناً في بلاده، ومن الطبيعي أن يلجأ يليان في مثل هذه الظروف إلى صرفهم عن نفسه، وكان طارق كما رأينا قد صافاه بعد ذلك وصادقه^(٢). وكان جند طارق من البربر يعلمون عن الأندلس شيئاً كثيراً، ولا بد أن نفوسهم كانت تنازعهم إلى خيراته ومغانمه. ومن الطبيعي في مثل هذا الظرف أن تولد فكرة فتح الأندلس.

ويذهب سافدرا إلى أن يليان ذهب للقاء موسى تنفيذاً لمؤامرة دبرها مع أبناء غيطشة وأنصاره. ولسنا نعرف كيف ذكر سافدرا ذلك في صيغة التأكيد، مع أن المراجع جميعاً تختلف حوله اختلافاً شديداً، ولا يتضح وجه الحق في هذه المسألة إلا إذا درسنا من جديد العبارات القليلة التي بين أيدينا عن الأحوال في طليطلة خلال الأشهر التي سبقت هذه الأحداث التي نرويها^(٣).

يشير إيزودور الباجي في حوادث سنة ٧١٠ إلى «حادث عزن (suprafata clades) وقع بطليطلة، واضطر كثيراً من تبلاء القوط إلى الهجرة من إسبانيا فشردوا في كل ناحية»^(٤). ولم يذكر لنا إيزودور ما هو هذا الحادث المحزن، وذهب دوزي إلى أن إيزودور

(١) الأخبار المجموعة، ص ٤-٥.

(٢) يقول ابن عبد الحكم في هذا: «وكان يليان يؤدي الطاعة إلى لذريق صاحب الأندلس. وكان لذريق يسكن طليطلة، فراسل طارق يليان ولاطفه حتى تهاديا...» انظر: فتوح... ص ٢٠٥.

(٣) SAAVEDRA. Op. cit. pp. 54-55. وسياق رواية سافدرا ففصي في هذا الجزء من تاريخه القيم، فهو يذكر كيف أن يليان كان رجلاً ماهراً أريباً، اجتمع فيه عقل البيزنطي وشجاعة الإيراني وثبات الإفريقي، وأنه رأى أن يبعث إلى طارق وفداً يرأسه رجل من كبراء أتباعه يسمى أخيليا بسطوا الطارق مظلمتهم وصوروا له سوء حالهم بعد الذي أصابهم من لذريق وغدره، وأن نفس طارق تأثرت بهذا الكلام فبعث الرسل إلى موسى في القيروان، وأن هذا قدر خطورة المسألة، فأرسل الرسل إلى دمشق ليسطوا المسألة للخليفة على وجهها ويقنعوه بضرورة الإذن لموسى في فتح الأندلس، وأنهم عادوا من دمشق بالإذن المطلوب، فسارع موسى في تنفيذه، وأحب أن يستوثق من صدق نية هؤلاء القوم فطلب إليهم أن يسلموه رهائن من لدنهم يكونون عنده.

وهذا كله كلام يحتاج إلى إثبات، أما أخيليا هذا فقد ورد ذكره في ابن عذاري، ويذهب سافدرا إلى أن شخصاً يسمى بهذا الاسم قد وجد في هذا الظرف فعلاً، وأنه كان حاكم طنجة أو كونتها، وقد ذكره رودريجو خيمينث ونسب إليه نفس الدور الذي تنسب الروايات الإسلامية إلى يليان نفسه.

RODRIGO XIMÉNEZ DE RADA (ARZOBISPO DE TOLEDO). Historia de rebus hispaniae, i, iii, cap. 18,20.

(٤) هذا نص عبارة إيزودور:

Huius temporibus Witiza decrepito iam patre pariter regnat; qui in aera DCCXXXIX suprafatae cladis non ferentes exitium, per Hispaniam e palatio vagitant, quâ de causâ propriâ

يشير بذلك إلى قتل لذريق لغيطة معتمداً في ذلك على عبارة صريحة لابن عذارى تذكر أن لذريق ثار بغيطة وقتله، وعلل عدم ذكر إيزودور لذلك بأن نصه الذي بين أيدينا مضطرب، سقطت - أو حذفت - منه عبارات، وغيرت مواضع عبارات أخرى. ويؤيد رأيه هذا بأن إيزودور يقول في موضع آخر: إن لذريق فجأ المملكة المضطربة وحاول أن يستبد بمجلس الشيوخ^(١).

ومن هنا يكون من الجائز أن نقول إن هذا الحادث المحزن الذي يشير إليه إيزودور إنما هو قتل لذريق لغيطة، لأن هذا الحادث روع أنصار غيطة وفرّقهم في البلاد بين قتيل وهارب يطلب النجدة حيث استطاع، بل ذهب دوزى إلى أن «نلاء القوط» الذين أشار إليهم إيزودور إنما هم أبناء غيطة وإخوته، وأن إيزودور لم يذكره صراحة لأنه كان أمراً مشكوكاً فيه أيام الفتح، وأنه لم يتضح على وجه الصحة والتحقيق إلا فيما بعد^(٢).

ويقول سباستيان السلمتي: «فلما انهزم غيطة، أقام القوط لذريق ملكاً، فعلا الحسد - في الحقيقة - أولاد غيطة من أن يغصبهم لذريق مملكة أبيهم، فدبروا أمرهم بمهارة، وأرسلوا رسلاً إلى إفريقية يرجون العرب المساعدة، وقدموا لهم سفناً عبروا عليها إلى إسبانيا»^(٣). وهذه عبارة تكمل رواية إيزودور وتفسر غامضها تفسيراً معقولاً، فلو جمعنا الروائيتين معاً لجاز لنا أن نقرر أن الذي حدث هو أن لذريق بعد أن قتل غيطة تتبع آله وأنصاره بالأذى ففروا يطلبون النجاة، وكان أبناء غيطة في مقدمة الفارين، وسواء أكان هؤلاء الأبناء قد عبروا إلى إفريقية بأنفسهم ليطلبوا عون العرب أم اختفوا في بعض نواحي جنوبي إسبانيا وأرسلوا من لدنهم رسلاً يسطون للعرب أحوال إسبانيا ويدعونهم لغزوها ويهونون عليهم أمر هذا الغزو، فإن الحقيقة التي تخلص لنا من هذا كله هي أن أولاد غيطة وأقرباءه اتصلوا بالمسلمين في إفريقية ودعوهم إلى غزو البلاد، ووضعوا أنفسهم - بطبيعة الأمر - تحت تصرفهم لتسهيل هذا الغزو وتهويته.

= morte decesso iam patre. florentissime suprafatos per annos Regnum retemptat. atque omnis Hispania. gaudio nimio freta. alacritur laetatur.

(١) نص عبارة إيزودور:

Rudencus tumultuose regnum hortante senatu invadit

DOZY. Recherches. (30 éd.) I. PP. 65 Sqq.

(٢)

Witizano defuncto. Rudericus a Gothis eligitur in regno. Filii vero Witizani, invidiá ducti (٣)

eo quod Rudericus regnum patris eorum acceperat, callide cogitantes. Missos ad Africam mittunt, Saracenos in auxilium petunt. eosque navibus advectos Hispaniam intromittunt.

وفي الفقرة الأخيرة مخالفة لما تنفق عليه الرواية الإسلامية من أن السفن التي عبر عليها المسلمون كانت لليبان.

وتؤيدنا المراجع العربية في هذا الرأي ، فهي تذهب إلى أن آل غيطة مالأوا العرب من أول الأمر ، وأنهم دبروا الغدر بلذريق واتفقوا على أن يتخونوه يوم المعركة الفاصلة مع العرب^(١) - وهو ما حدث فعلاً - وبهذا أدركوا ثأرهم منه واستعادوا بعض ما ضاع منهم ، لأن العرب ، وإن كانوا لم يعيدوا الأمر إلى بيت غيطة ، إلا أنهم « أمضوا لأبناء غيطة ضياع أبيهم » وكانت شيئاً كثيراً ، وأقاموا نفرأ آخر من آل بيت غيطة في وظائف كبرى كما سنرى .

فإذا كان آل غيطة هم الذين اتصلوا بالعرب ودعوهم إلى غزو البلاد فما هو الدور الذي قام به يليان ؟ يبدو أنه كان رسول آل غيطة لدى المسلمين ، لأنه - كما رأينا - كان من أنصار غيطة وأصحابه ، وقد ساءته ولاية لذريق وتخوف أن يصيبه منها شر ، وكان من صالحه أن يعمل على إزالة ملكه والتخلص منه . وكان المسلمون جيرانه ، وليس إلى الشك سبيل في أنه فكر في أن توجيه نظرهم نحو الأندلس^(٢) يصرفهم عنه ويؤمنه من ناحية جندهم الكثير الذي كان يتجمع عند طارق بن زياد في طنجة ، ولا يستبعد أن يكون أخيلاً - حاكم طنجة الذي سبقت الإشارة إليه - كان من مؤيدي يُلبيان في هذا التفكير ، ولا يستبعد أن يكون هو الذي تفاهم معهم ، لأنه كان قد أسلم بلده للمسلمين ودخل في ذمتهم ، وكانوا يعتبرونه تابعاً من أتباعهم .



(١) يجمع المؤرخون المسلمون على ذلك ، انظر على الخصوص :

ابن القوطية : افتتاح الأندلس ص ٣ .

الأخبار المجموعة ، ص ٨ .

فتح الأندلس : ص ٦ - ٧ .

(٢) يُفهم من هذا أن ابن عذارى وصاحب الأخبار المجموعة أصرح من غيرهما في هذا الصدد ، فهنا يذهبان إلى أن يليان سعى إلى المسلمين بنفسه وحرص على تحريضهم على غزو الأندلس ، بل يذهب الأخير إلى أن يليان عقد لنفسه ولأصحابه عهداً رضيه واطمأن إليه ، ثم وصف له الأندلس ودعاها إليها . وهذه رواية يفهم منها - على إيجازها - ثلاثة أمور :

١- أن قصة ابنة يليان لم تكن السبب المباشر لدعوة يليان المسلمين لغزو الأندلس .

٢- أن يليان سعى لصحبة العرب حتى عقد معهم عهداً اطمأن إليه .

٣- فإذا تم له ذلك دعاهم لفتح الأندلس .

الأخبار المجموعة ، ص ٥ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٩ - ٤ . هذا والفاصيل التي يوردها ابن عذارى عن يليان كثيرة ذات قيمة ، وقد درسها دوزي في الفصل الذي عقده ليبيان في بحثه عن مراجع العرب للأندلس ، انظر « الأبحاث » ، ج ١ .

١٦. بده الفتح وتذكر الروايات العربية أن يُليان لم يكتف بمخاطبة طارق في الأمر ، بل تكلف مشقة الذهاب للقاء موسى في القيروان ، لإقناعه بسهولة فتح إسبانيا والتحدث إليه في الخير الذي يعود عليه ، إذا سارع وعبر إلى الأندلس واغتمت فرصة غياب لذريق مع خيرة جنده في حملة حربية نحو بنبلونة أقصى شمال شبه الجزيرة . ويبدو أن خروج لذريق في هذه الحملة هو الذي دعا يليان إلى الذهاب إلى موسى على عجل وإظهاره على الفرصة السانحة ، وربما جاز أن نستنتج من تعجيل يُليان بالذهاب إلى موسى أن فكرة الاستجداد بالمسلمين كانت قد اختمرت في ذهنه وحوّل على إنفاذها رغبة منه في التخلص من لذريق خصمه وخصم صديقه غيطة . ويذهب سافدرا إلى أن يُليان ذهب تنفيذاً لمؤامرة دبرها مع أبناء غيطة وأنصاره ، وليس لدينا دليل على صحة هذا الفرض إلا عبارة سبستيان السلمقى التي ذكرناها ، وهي عبارة لا تجد ما يؤيدها إلا في كلام ابن القوطية^(١).

رحب موسى بيليان وما عرضه عليه ، لأنه كان بطبعه ميالاً للفتوح والغزوات ، وكان من الطبيعي أن يتشكك في صحة المعلومات التي أطل بها يُليان إليه ، فطلب إليه أن يقوم بسرية في جنوبي الأندلس ، وإنما أراد موسى بذلك أن يتأكد من أن يُليان عدو للذريق لا يخشى الإغارة على بلاده ، ويرى بعينه رد الفعل الذي يحدثه مثل ذلك العمل^(٢) ، وقد قام يليان فعلاً بغارة سريعة عاد بعدها محملاً بالغنائم والسي ، فتشجع موسى وقرر العمل .

ولم يكن موسى ليستطيع الشروع في عمل خطير كهذا دون أن يستأذن فيه الخليفة الوليد ابن عبد الملك ، فكتب إليه يستأذنه ، فتردد عبد الملك وخاف على المسلمين مغبة مخاطرة كهذه في أرض مجهولة ، فكتب إلى موسى يأمره أن يختبر بلاد الأندلس بسرية صغيرة قبل أن يغامر بجيش كبير^(٣) فانتدب واحداً من كبار أتباعه هو أبو زرعة طريف بن ملوك ، ويغلب أنه عربي ، ويبدو أنه كان رجلاً قادراً حازماً ، لأنه سيقوم فيما بعد بدور خطير في تاريخ المغرب^(٤).

(١) انظر : ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣ .

فتح الأندلس ، ص ٤

(٢) ويقول ابن عبد الحكم : ١ ... فقال طارق (ليليان) : لا أطمئن إليك حتى تبعث لى برهينة ، فبعث إليه بلبتية - ولم يكن له ولد غيرها - فأقرهما طارق بتلمسين ، واستوثق منها ، ثم خرج طارق إلى يليان ، وهو بسنة على

المجاز ... ١ - خروج ص ٢٠٥ .

(٣) ابن حذاري : البيان ، ج ٢ ص ٥ .

فتح الأندلس ، ص ٥

(٤) يذهب بعض المراجع إلى أن طريفاً كان من أهل اليمن ، وتختلف بعد ذلك ، فيزعم بعضها أنه كان من النخع ، *

١٧. أبو زرعة عبر طريف إلى الأندلس في قوة صغيرة من أربعمئة رجل ومائة فارس ، وقد قدم لهم يليان أربعاً من السفن عبروا بها ، ونزل المسلمون في جزيرة صغيرة تسمى بالوماس (Palomas) على مقربة من الموضع الذي ستقوم فيه بلدة ستحمل اسم طريف (جزيرة طريف Tarifa) من ذلك الحين ، وحثت قوة من أنصار يليان وأبناء غيطشة لعونهم ، وقامت بحراسة المعبر حتى تم نزولهم على الأرض الإيبيرية ، وكان ذلك في رمضان سنة ٩١ (يوليو سنة ٧١٠م) .

ومن ذلك الموضع قام طريف وأصحابه بسلسلة من الغارات السريعة على الساحل غنموا فيها مغانم كثيرة وسبباً عديداً ، وعاد طريف بمن معه وبعث إلى موسى في القيروان بتصيه من الغنيمة والسبي ، فتشجع موسى وأخذ يستعد لإرسال حملة عظيمة تقوم بالفتح الحقيقي^(١) .

١٨. حملة طارق بن زياد ندب موسى لهذا العمل الجليل رجلاً من خيرة جنده ، هو طارق بن زياد . ولسنا نعلم شيئاً موثقاً فيه عن طارق قبل قيامه بقيادة جيش المسلمين في فتح الأندلس^(٢) .

ولكن الغالب أنه بربري من نغزة ، ويبدو أن أباه زياداً قد أسلم أيام عقبة وحسن إسلامه ، وخلفه ابنه هذا فدخل في خدمة ولاة المسلمين . ويبدو أنه كان صغير السن حينئذ

= ويذهب البعض الآخر إلى أنه من مَعَاوِر ، ولم نعد نسمع عن طريف هذا بعد هذه السرية الموفقة التي قام بها مستطعماً أحوال الأندلس للمسلمين ، ولكنه يظهر مرة أخرى على مسرح الحوادث في المغرب ، ويلعب دوراً خطيراً في الثورة التي قام بها ميسرة البربري البرغواطي في المغرب الأقصى ، والتي كانت أول حركة خارجية قام بها المغرب على المسلمين . ويقول ابن عذاري (٥/٢) : إنه بربري .

SAAVEDRA. Op. cit. pp. 64.

(١)

(٢) يسميه ابن خلدون : طارق بن زياد الليثي . (انظر المقرئ ، ج١ ص ١٤٣) وتذهب بعض المراجع إلى أن طارقاً ربما كان فارسي الأصل ، واعتاداً على ما يقوله الرازي : « فدعا (موسى) مولى له كان على مقدمته يسمى طارق بن زياد بن عبد الله فارسياً همدانياً ، وقيل إنه ليس بمولى موسى ، وإنما هو رجل من صِدف وقيل مولى لهم ، وقد كان عَقِيْبُهُ بالأندلس ينكرون ولاء موسى إنكاراً شديداً . وقيل : إنه بربري من نغزة ... - نقله المقرئ : النسخ ، ج١ ص ١٥٩ .

انظر : ابن عذاري : البيان ، ج٢ ص ٦ .

الأخبار المجموعة ، ص ٦ .

والتريجة الإسبانية للأخبار المجموعة قام بها إميليو لافونْت إى ألكانترأ ص ٥ ، وهو يترجم هذه العبارة : Un persa de Hamadan.

Cf: LÉVI-PROVENÇAL. Histoire de l'Espagne Musulmane , (I Séd.)I, 14.

عهد إليه موسى بهذه المهمة الكبرى ، لأننا لم نسمع به قبل ذلك في أى فتح من فتوح موسى على كثرتها وتواترها ، ولو كان قديم عهد بالقيادة لسمعنا عنه قبل ذلك . والغالب أنه كان من المقربين المخلصين لموسى لأنه تحظى غيره من كبار العرب الذين كانوا يقودون الجند في أيامه مثل : زُرْعَة بن أبى مُدْرِك ، وعياش بن أخيل ، وطريف بن ملوك ، والمغيرة بن أبى بردة ، وغيرهم كثيرون ، وعهد إليه في قيادة أخطر عمل حربي قام به إلى الساعة . ويبدو أن موسى كان عظيم الثقة في أمانته ، لأنه وكل إليه أمر هذه الحملة مع ما كانت تَعُدُّ به من المغانم ، فأحب موسى أن يعهد فيها إلى رجل ثقة مأمون عنده لا يطمع فيها ولا يتحدث بأمرها على الحقيقة عند العرب والخلفاء .

ومن غريب الأمر أن الجيش الذى أرسله موسى كان بربرياً صرفاً أو يكاد ، وهذه هى أول مرة نسمع فيها أن قائداً إسلامياً عهد في عمل حربي خطير كهذا إلى قائد غير عربى وجند غير عرب في الغالب ، ولكن موسى مع ذلك احترز للأمر فأرسل مع طارق عدداً من كبار الجند من العرب وموالى الأمويين ، مثل عبد الملك بن أبى عامر المعافرى ومغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك وعلقمة اللخمي وهو عربى صرف . وكان في الجيش عدد من كبار محاربي البربر ممن سنسمع عنهم كثيراً فيما يلى ، مثل مونوسة البربرى ، ويبدو أن موسى تعمد أن يختارهم من خيرة جنده ؛ لأننا سنراهم يقومون بما عهد إليهم فيه في دقة وقدرة تبعثان على الإعجاب .

وكان الاتفاق قد تم بين موسى ويليان على أن يكون هذا الأخير وأصحابه أدلاء للمسلمين ومعينين لهم في أعمال الحملة ، وتعهد يليان كذلك بأن ينقل المسلمين إلى الأندلس على سفن من عنده ، وكانت سفن يليان التى تصلح لمثل هذا العمل قليلة لا تزيد على أربع ، فلم يكن بُدُّ من نقل المسلمين عبر المضيق على دفعات ، وأن يقيم من يعبر منهم ساكناً في خفية عن أهل الشاطئ ، حتى يتم جواز الجيش كله .

تم عبور المسلمين في ربيع سنة ٧١١م ، وتذهب المراجع الإسلامية إلى أن العبور كان في رجب من سنة ٩٢هـ ، ولكننا لا نعرف الشهر الذى عبروا فيه على وجه التحقيق^(١) ، وتجمع

(١) تُجمع المراجع العربية كلها - بما فيها الطبرى - على أن عبور المسلمين كان في ربيع الثانى سنة ٩٢هـ (٧١١م) ، ولو أخذنا بما يقوله الرازى (في ابن عذارى) من أن طارقاً نفسه وصل الأندلس في آخر فوج من أفواج العبور في الخامس من رجب سنة ٩٢هـ لكان في إمكاننا أن نستنتج أن المسلمين بدعوا العبور في آخر ربيع الثانى (ابن عذارى : اليان ، ج٢ ، ص ٧) .

المسلمون عند الجبل الذي سيعرف من ذلك التاريخ بجبل طارق ، واجتهد طارق في أن يُحصّن هذا الموضع تحصيناً طيباً ليتخذ منه حصناً يجتمى به المسلمون إذا حدث ما لم يكن منتظراً^(١) ، ولم يكده يفرغ من ذلك حتى بعث عبد الملك بن أبي عامر في فرقة مختارة من الجند سارت بهذا الساحل شمالاً بغرب فاستولت على قرطاية Carteya- Torre de Cartagena ، ثم انحدرت نحو الجنوب واستولت على بلدة الجزيرة الخضراء في مقابل جبل طارق ، وبذلك أصبح مضيق جبل طارق كله في يد المسلمين ، وعهد طارق إلى يليان ومن معه من الجند حراسة هذا الموضع وحمايته من كل هجوم منتظر . وأمن المسلمون أن يعبر أحد إلى مركزهم الأول عند جبل طارق فيهدد مراكزهم وطريق مواصلاتهم مع إفريقيا^(٢) .

ولم يكده المسلمون يطمثون في مركزهم هذا حتى هاجمهم جماعة من أنصار لذريق يقودها قائد يسميه ابن عذارى « بنج »^(٣) وتسميه المراجع الإسبانية بَنَشُو وبِنَشُو ، ففصوا عليها من غير كبير مشقة ، ولم ينج من جندها إلا واحد يسميه الرازي بِلَسْيَاسِنُ (Willie- sindo-Beliasin) أسرع إلى معسكر لذريق في أقصى الشمال عند بنبلونة وأنبأه بخبر نزول العرب البلاد ، فسارع لذريق نحو الجنوب واحتل قرطبة وأخذ يستعد للسير نحو الجنوب للقاء العرب^(٤) .

= ويقول ابن حيان في «المقتبس» (ج ١ ص ١٥٥) أن العبور كان لسبع خلون من ربيع الأول سنة ٩٢ . ويؤيد مؤرخي العرب في ذلك الملك ألفونسو الكاستو (الظاهر) في تاريخه ، فيجعل العبور سنة ٦٤٩ بحسابه ، وهي تعادل سنة ٧١١ بالحساب الجريجوري (Espana Sagrada, XXXVII, 312) .

ويجعله إيزودور الباجي في السنة السادسة من خلافة الوليد ، وهي سنة ٩٢ هـ .

(١) يبيل المؤرخون المحدثون إلى القول بأن طارقاً عمد إلى السفن التي عبر عليها فأحرقها لكي يقطع كل أمل لجنوده في العودة إلى إفريقيا وليدفعهم إلى الامتثال في القتال ، ولم يذكر تلك الواقعة من القدماة إلا الإدريسي وهو من رجال القرن الثاني عشر الميلادي (كتب جغرافيته سنة ١١٥٤) ولهذا نشك في صحة هذا الخبر ؛ ثم إن طارقاً لم يكن يستطيع إحراق السفن لأنها لم تكن ملكه بل كانت ليليان .

SAAVEDRA, Estudio ... p. 65 .

(٢)

(٣) كتب ابن عذارى هذا الاسم « بنج » من غير شكل ، ونقله الأسقف رديجو « بينج » (Eneco) ، وجعله سافدرا « بَنَشُو » (Bancho) ، وورد في تاريخ إسبانيا العام Cronica general de Espana في صورة إنِيَجُو (Inego) وفي الترجمة الإسبانية للرازي سَنَشُو (Sancho) . وقد خلط ابن قتيبة بينه وبين تدمير ، أما يليان فلم يرد ذكره إلا عند الرازي وعنه أخذه سافدرا وجعله Willesindo .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ص ١٠ .

Cf.: Cronica del Moro Rasis, apud . SAAVEDRA Op. cit. p. 149.

وفهرس الأساء في تاريخ إسبانيا العام .

(٤) كان لذريق قد توجه إلى الشمال في أوائل ربيع ٧١١ لصد هجوم قام به نفر من الفرنجة على بعض نواحي نبرة =

ويبدو أن نية طارق كانت السير مباشرة إلى قرطبة عاصمة إقليم بيطي (بيتس) ، لأنه سار بحذاء الساحل حتى أدرك جزيرة طريف ، ومن ثم اتجه إلى الشمال في سهل قليل الارتفاع ، ومر بين جبلي سيليا دل بابا وسييرا دل رتين واقرب من بحيرة الخندق (لاختاندا) الواسعة التي تحصر بينها وبين سييرا دل رتين سهلاً متسعاً بعض الاتساع حصيناً ، لأن البحيرة تحميها من ناحية والجليل من ناحية أخرى ، واستمر حتى أدرك نهر البرباط الذي يجترق بحيرة لاختاندا ، وكانت بهذا الموضع في هذه الأيام بليدة صغيرة زالت الآن ويسميتها العرب بكث ، ولهذا سماوا هذا النهر وادي بكه ، وحرفه بعضهم إلى لكث أو وادي لكث ، وقد أساء الراوية الإسباني رودريجو درادا نقل هذا اللفظ فنقله ليثته ووادي ليته ، ومن هنا نشأت هذه التسمية الخاطئة التي سيقع فيها كل المؤرخين الإسبان بعده ، فسماوا هذا الموضع الذي دارت عنده المعركة الحاسمة بين العرب والإسبان جواداليت (Guadalete)^(١) .

= (نزار) ، وقد ذهب سافندرا إلى أن هجوم هؤلاء الفرنجة إنما كان بتحصين من بليان وحزب غيطنة ، وقد أرادوا بذلك إشغال لذريق في ناحية نائية تيسيراً للأمر على العرب ، وقد اعتمد سافندرا في ذلك على عبارة لوقا دي توي ، يقول فيها :

“ Julianus callide incitavit Francos ut expugnarent Hispaniam citeriorem ... ”

Cf.: LUCAS DE TUY. *Cronicòn Mundi*, L. III. p. 70.

SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 65 .

وقال المقري : إن الذي أنبا لذريق نبأ العرب هو تدمير ، وكان بليان قد استخلفه على الأندلس ، وليس لدينا ما يثبت ذلك .

انظر : النضج ، ج ١ ص ١٤٩ .

(١) هذا هو رأى سافندرا في أصل هذا اللفظ وصوره المختلفة التي ورد بها في النصوص ، وقد ذكر جابانجوس في تعليقاته على ترجمة نضج الطيب أن هذا النهر كان يسمى عند القدماء Chrysos ، وأورد كذلك صيغة أخرى لاسم هذا النهر هي :

وادي ليد ، وادي لكه : عند ابن الخطيب .

عند كوند Vadilac, Vadileke , Wadalak Gaudalede عند لذريق الطليطل (Rodericus Toletanus)

في الصورة الإسبانية للرازي .

ثم أتبع ذلك برأى طريف ، وهو أنه وجد عند فلوريت في الجزء التاسع من *Espana Sagrada* ص ٥٣ تفسيراً للفظ جواداليت ملخصه أن العرب سماوا نهر كريوس بهذا الاسم ومعناه « وادي السرور » بسبب ما أصابوا من السرور والراحة عنده ، ثم استنتج من ذلك أن العرب لا بد قد سماوا هذا النهر وادي اللذة أو وادي لذة ، فكان هذا هو أصل هذه الصور كلها .

Cf: GAYANGOS . *The Hist. of the Moh . Dyn . in Spain*, I,p.524.

SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 68-69.

وقد قرأ بروفنسال الاسم وادي لكث وقال : إن هذا اللفظ تحريف للفظ Lago-Lacus أي : البحيرة ، والمقصود هنا بحيرة الخندق (Lajanda) . وهذا التفسير هو أقرب التفاسير إلى الصحة .

وهنا عرف طارق عن سبيل عيونه أن لذريق سائر إليه في جنده، وأنه وصل إلى قرطبة واستقر بها قليلاً، ثم تقدم جنوبيها وضرب معسكره عند شذونة (Medinasidonia) واستعد للموقعة في سهل البرباط على مقربة من قرية (Casas Viejas) الحالية. وتقدر المراجع جيشه ببائة ألف، وربما كان في هذا التقدير مبالغة، ولكن الذي لا شك فيه أن عدة جيشه كانت تزيد على عدة جيش المسلمين أضعافاً كثيرة، وأن عدد الفرسان فيه كان عظيماً. ورأى طارق أن العدد الذي معه لا يكاد يكفي للقاء جيش ضخم كجيش لذريق، فبعث يطلب المدد من موسى، فعجل موسى بإرسال خمسة آلاف من خيرة جنده يقودهم طريف بن ملوك وفيهم عدد عظيم من العرب، فأدركوا طارقاً قبيل اللحظة الحاسمة، وقويت بهم نفسه ونفوس من معه. والغالب أن جزءاً عظيماً من هذا المدد كان من الفرسان، لأن المراجع تحدّثنا أن قوة طارق الأولى كانت كلها من الرّجّالة، في حين أننا سنرى للمسلمين قوة بسيرة من الخيل في المعركة الحاسمة^(١).

ويبدو أن سير المسلمين الموفق في البلاد إلى هذه اللحظة قد أنعش الآمال في أنفس أعداء لذريق، فانضم منهم إلى المسلمين نفر عظيم أعانوهم بالقوة والرأى^(٢)، وتسامع بذلك نفر من جند لذريق الغاضبين عليه فبدأت نفوسهم تحدّثهم بتخوّنه وتركه لمصيره إذا اشتبك مع المسلمين في القتال، ويقال إن ششبرت وأبّه أخوى غيطشة كانا على رأس هذا الفريق الذي عول على الخيانة، وأنها انتظرا اللحظة المواتية ليتخلّيا عن لذريق، ويتركاها يلقى جزاءه على ما فعل بغيطشة^(٣).

(١) يذهب سافدرا - اعتماداً على المراجع النصرانية - أن عدّة جيش طارق بلغت قبل المعركة ٢٥ ألفاً بسبب من انضم إليهم من النصارى من أنصار غيطشة وأعداء لذريق ومن أهل البلاد. فإذا كانت عدة من مع طارق من المسلمين اثني عشر ألفاً، فإن عدة من انضم إليهم من النصارى كانت ثلاثة عشر ألفاً، أي: أكثر من الجيش نفسه، وهذا أمر مستبعد، بيد أن هذا لا يعنتنا من القول بأن بضعة آلاف من النصارى من القوط وأهل البلاد انضموا إلى الجيش الإسلامي.

CF.: Cronicón Silense, no. 16

RODRIGO XIMÉNEZ Arzobispo de Toledo (i.iii,c.20)

(٢) ابن عذارى: البيان، ج٢، ص ١١.

الرازي في المقرئ: نفع الطيب، ج١، ص ١٦٢.

ويُفهم من رواية المقرئ أن الذي دبر الخيانة لم يكن أبناء غيطشة وأخويه فقط، وإتيا نفراً كبيراً من القوط كانوا غضاباً على لذريق.

(٣) انظر: ابن القوطية: افتتاح الأندلس، ص ٣.

ابن عذارى: البيان، ج٢، ص ٨.

الأخبار المجموعة، ص ٦.

ويبدو أن لذريق كان يشعر بما يدور حوله ، وكان يدرك أن نفرأ من جنده يدبر الخيانة ، فأحب - قبل أن يلتقى المسلمين - أن يتعرف ما لديهم من القوة ، فبعث طليعة من فرسانه لتناوشهم ، فلم يكده المسلمون يرونها حتى انقضوا عليها انقضاضاً فولت هاربة ، وأنبأت لذريق بحال العرب وما هم عليه من الحمية والتشوق للقتال ، فكاد يسقط في يديه^(١).

١١. معركة وادي البرباط ١٩٢ هـ^(٢) (التاسع عشر من يوليو سنة ٧١١) على وادي برباط على مقربة يوليو سنة ٧١١ من شدونة ، واستمرت المعركة طول ذلك اليوم وحمل وطيسها في اليوم التالي ، وأظهر البربر الذين أتى بهم يليان قدرة عظيمة على القتال ، فقد كان انتقامهم من خيار غمارة وأحسن تدريبهم على الأسلوب البيزنطي . وكان طارق قد قدم نفرأ من السودان بين يدي جيشه ، ليتلقوا بما عرف عنهم من الصبر والثبات دفعة الجيش القوطي الأولى^(٣).

وأظهر فرسان القوط قدرة عظيمة في أوائل المعركة ، وثبتوا لضغط العرب والبربر والسودان ، وكان قواد الفرسان من أعداء لذريق الغاضبين عليه ، ويبدو أن يليان ورجاله كانوا نشيطين طوال المعركة ، يخدّلون الناس عن لذريق ويصرفونهم عنه ، مؤكدين لهم أن العرب لم يقبلوا إلى هذه البلاد للفتح والاستقرار ، بل للقضاء على لذريق والظفر بالغيمة ، وأنهم إن خذلوا لذريق اليوم صفت لهم الأندلس بعد ذلك . ولم يلبث أثر هذا الكلام أن ظهر بين جنود لذريق - وكان كثير منهم كارهاً له ناقماً عليه - فلم يلبث فرسانه - وهم خيرة جنده - أن خرجوا من المعركة وتركوه لمصيره^(٤) . وكان ذلك كافياً ليقوع الفوضى في جيش لذريق ، فاضطرب نظامه ولاذ من بقي منه بالفرار وأسياف المسلمين في أفتيتهم .

(١) الرازي : برواية المقرئ - نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٦٣ .

(٢) الرازي : برواية المقرئ - نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٦٣ .

(٣) لم يذكر هؤلاء السود من المؤرخين المحدثين إلا سافدرا ، مع أنهم قاموا بدور خطير جداً في الفتح ، وسيكون لهم دور حاسم فيما وقع بين العرب بعد ذلك من الحروب في الأندلس ، وسنتبه إلى ذلك في حبه

CF.: SAAVEDRA. Op. cit. p. 71

(٤) تُجمع المراجع العربية على ذلك ، وتؤكد أن خيانة لذريق وسط المعركة إنما وقعت بناء على تدبير سابق بحكم بين آل غيطشة والعرب . وقد ناقش سافدرا هذا الموضوع ، وانتهى إلى أن الذي قام بترتيب المؤامرة كان أخوى غيطشة وهما أبه ، وششبرت ، وكان أحدهما على خيل لذريق في هذه المعركة . وقد تعجب سافدرا من أن لذريق يعهد في أمر هام كهذا لواحد من أعدائه ، ولكن فاته أن بعض المراجع العربية تذكر أن لذريق سعى في الصلح مع آل غيطشة قبل المعركة الخامسة ، وهذا واضح من قول ابن القوطية : * فلما دخل طارق بن زياد الأندلس أيام الوليد بن عبد الملك كتب لذريق إلى أولاد الملك غيطشة - وقد ترعرعوا وركبوا الخيل - يدعوهم إلى مناصرته وأن تكون أيديهم واحدة على عدوهم ... * .

ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣-٢ .

وقد قُتِلَ من القوط في ذلك اليوم عدد عظيم ، ولم يعثر للذريق على أثر ، وتذهب المراجع العربية إلى أنه أراد أن يعبر البرباط على عجل ففرق فيه ، ولم يعثر المسلمون إلا على خُفِّه^(١). ولكنه لم يمت في هذه المعركة كما سنرى ، وسبقوم بدور خطير فيها بعد . وقتل فيها أيضاً ششبرت ، وكان ممن تحل عن لذريق طمعاً في الغنيمة والسلامة ! وأصاب المسلمون من هذه الواقعة خنائم لا تكاد تحصى ، ولعل أكثر ما يهتنا منها هي الخيل . فقد غنم المسلمون خيلاً كثيرة حتى لم يبق منهم راجل . وقد قتل من المسلمين ثلاثة آلاف ، وبقي منهم تسعة آلاف زادهم النصر حماسة ، فأصرع بهم طارق نحو قرطبة تتقدمهم هذه الشرذمة الباسلة من السود التي أبلت في هذه المعركة بلاء طيباً^(٢).

ولم يكد خبر هذا الانتصار يصل لإفريقية « حتى أقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ، فلاحقوا بطارق » ففاض سيل البربر على الأندلس ، وأخذوا يستقرون في النواحي المفتوحة . وتضخم جيش المسلمين إلى حد يصعب معه تقديره بعد هذه الواقعة ، وأسلم الأراء هو أن تقول إن جيش المسلمين تضخم تضخماً عظيماً ، ورأى طارق أنه لن يستطيع السير بهذا الجحافل اللجب دفعة واحدة ، فهال إلى تفريقهم في بعوث صغيرة يبعثها إلى النواحي .

وأعقب هذا الانتصار اضطراب في شئون الأندلس كلها ، « وارتفع أهل الأندلس هند ذلك إلى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال » كما يقول الرازي^(٣). وحسب حزب غبطشة أن الفرصة قد سنحت لإعلان واحد منهم ملكاً مكان الطاغية المهزوم^(٤) ، وفعلاً بذل وقَّله (أخيراً) جهداً لكي يستصدر من مجلس طليطلة قراراً باعتباره

(١) لا يقطع اس عذارى يموت لذريق ، ويكتفى بقوله : « ولم يُعرف للذريق موضع ، ولا وُجِدَ له حنّة ، وإنما وجد له حنّ بعض ، فقالوا إنه فرّق ، وقالوا إنه قتل والله أعلم » .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٠ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٧ .

الرازي ، برواية المقرئ - نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٣ . وهو يقول : إن طارقاً قسم الغنائم على ٩٠٠٠ من المسلمين ، أي : أن هؤلاء هم الذين سلموا وقتل الباقون .

(٣) رواه المقرئ - نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

(٤) يقول رoderico الطليطلي .

... et rex Rudericus, cum esset magnanimus, antequam fugeret, permetteret se occidi, et eo mortuo, posset eis regnum perditum provenire ...

RODERICUS TOLETANUS. De Rebus Hispaniae, Lib III cap 20 Cf: SAAVEDRA. Op cit

ملكاً ، ولكن الأمر لم يستقر له لأن الشائعات كانت عملاً الجوب بأن لذريق لم يقتل ، وعمل هؤلاء الغيظيون من جهة أخرى على تشجيع طارق على الاستمرار في الفتح حتى يتم لهم الانتصار المحقق ، وأما يليان فقد ثبت بقواته في ناحية الجزيرة المحضراء^(١).

ولو عمل طارق بأمر موسى لكان من الواجب أن يعود إلى إفريقية بعد هذا النصر كما عاد عبد الله بن أبي سرح إلى مصر بعد نصر سيظلة ، ولكن طارقاً كان أبعد نظراً من عبد الله بن أبي سرح ، ووجد أن الأبواب قد فتحت أمامه فلا معنى لتركها والعودة إلى إفريقية ، فمضى مسرعاً نحو استجة ليعبر شنيل من غاضتها في طريقه إلى قرطبة ، ويبدو أن عدداً عظيماً من بقايا جيش لذريق كان قد تحصن فيها لأن طارقاً لقي فيها مقاومة عنيفة ، واحتاج إلى عون يليان الذي خف إليه مسرعاً . ويبدو أنه استبان كثرة مَنْ مع طارق وصعوبة الاستفادة منهم جميعاً في حملة واحدة ، فنصحته بأن يفرق جنده في بعوث جانبية ، فقال له : « قد فتحت الأندلس ، فخذ من أصحابي أدلاء ففرّق معهم جيوشك ورسز معهم إلى مدينة طليظلة » . ففرّق جيوشه من استجة^(٢).

ولم يلبث حاكم البلد أن أسلمه صلحاً ودخل في طاعة المسلمين^(٣) ، وانفتح أمامهم طريق قرطبة وطليظلة . ولو قائد غير طارق لالتجه نحو قرطبة وأنفق وقتاً طويلاً في الاستيلاء عليها ، ولكنه كان قد علم بعض ما كان يدور إذ ذاك في طليظلة ، وعرف أن الظروف لا تسمح بإنفاق الوقت في الحصول على مدائن جنوبي الجزيرة كقرطبة وغرناطة ومالقة ، فعجل بإرسال مغيث الرومي في قوة كبيرة إلى قرطبة ليشغل من فيها عن قطع طريق عودته ، ثم مضى بمعظم جيشه مسرعاً نحو طليظلة ليصل إليها قبل أن يُحْكِمَ أنصار لذريق الدفاع عنها ، وقبل أن يدبر أنصار غيظشة أمراً لا يكون في صالح المسلمين .

= وللرازي إشارة هامة تؤيد هذا الرأي . قال إن يليان قال لطارق : « قد فضضت جيوش القوم ورحبوا ، فاصمد لبيئتهم ، وهؤلاء أدلاء من أصحابي مهرة ، ففرق جيوشك معهم في جهات البلاد ، واعمد أنت إلى طليظلة حيث معظمهم ، فاشغل القوم عن النظر في أمرهم والاجتماع إلى أولى رأسهم » مما يدل على أن كبار القوط كانوا يبدون شيئاً في عاصمتهم ، وأن يليان نصح طارقاً بالإسراع إلى طليظلة رأساً ليتدارك الأمر .

انظر : القرقي - فتح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٠ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٠ .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن طارقاً أرسل في هذا الوقت حملة فتحت جنوب شرقى الأندلس وكبار مدائنه مثل مالقة وغرناطة وأوريولة ، ولكن ذلك غير صحيح ، لأن المسلمين لن يفتحوا هذه النواحي إلا في ولاية عبد العزيز بن موسى ، ولا يستبعد أن يكون قد بعث سرايا صغيرة إلى هذه النواحي وغيرها لمجرد الاستطلاع لا للفتح . وكان الجند عنده قد كثروا ففرّق أعداداً منهم مع جماعات من رجال يليان يدلونهم على الطريق ، وربما كان يليان صاحب هذه الفكرة^(١).

وكان جيش المسلمين يزداد عدة في الطريق بمن كان ينضم إليه من الغاضبين على لنزيق وعهده ، وانضم إليه كذلك عدد من اليهود الذين استقبلوا أخبار انتصار المسلمين على القوط استقبال الظمان للماء^(٢) ، فقد كان حالمهم معهم كما رأينا شيئاً جداً ، ولا نزاع في أن طارقاً أفاد فائدة كبيرة من هذه الجماعات من الإيبيريين واليهود التي انضمت إليه ، فقد وجد فيهم الأدلاء الذين يقودونه في هذه الأباطح المسيحية التي لم يكن المسلمون يعرفون عنها شيئاً ، وهكذا أسعد المسلمون بأكثر مما كانوا ينتظرون ، وسار هذا القائد المجدود طارق يقود هذه الجماعات من العرب والبربر والموالي والسود والإيبيريين واليهود قاصداً طليطلة عاصمة القوط .

٢٠. احتلال عبر طارق الوادى الكبير عند منجبار (Manjibar) وسار في الطريق القديم طليطلة الذى كان يعرف في عهود الرومان باسم طريق هانيبال^(٣) ، ودخل طليطلة من غير مقاومة تُذكر ، واستولى على الكنوز الزاخرة التي وجدها في قصور القوط وفي كنيسة طليطلة الكبيرة بوجه خاص ، ولم يسهب المؤرخون المسلمون في شيء مما وقع للمسلمين في فتوحهم كلها مثلما أسهبوا في صفة المذبح المحلّ بالجواهر الذي اغتتمه المسلمون في هذه الكنيسة الجامعة ، فقد سموه مائدة سليمان بن داود ، وذهبوا إلى أن هذه المائدة كانت من زبرجد خالص ، ومن المحقق أن هذا المذبح كان درة من درر الفن ، محلى بأثمن ما لدى

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٢ ، ص ١٠ .

المقرى : نفع الطيب ، ج٢ ، ص ١٦٤ .

SAAVEDRA. Op. cit. p. 79.

(٢)

(٣) يذكر المقرى أن طارقاً سار إلى طليطلة في الطريق المار بينان ، وهذا يأذن لنا في القول بأنه اتبع طريق هانيبال الروماني ، لأنه كان طريقاً معموراً إذ ذاك ، وفيه تمر الآن سكة حديد الأندلس .

المقرى : نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٦٧ .

القوط من الذهب والجواهر ، وأن وقوعه في يد المسلمين أثار بينهم دهشة كبرى^(١).

وقد وجد المسلمون المدينة شبه خالية لأن أهلها انتشروا عنها طالين الحرب حينما علموا بمقدمهم ، حتى أستقف البلد سِنْدَرْدُ وكبار قساوسة المجمع الطليطلي ففصلوا ترك البلد ينعى من بناء وتوجهوا إلى روما . ولم يشتغل طارق بالغانم والذخائر وإنما مضى قُدماً حتى أدرك وادي الحجارة ، واستمر صاعداً حتى أدرك بليدة تسميها المراجع العربية « المائدة » على مقربة من قلعة هنارس^(٢) ، وكان الصيف قد انقضى وأقبل أكتوبر ومعه برد الخريف ، ففضل طارق وأصحابه العودة لكي يقضوا الشتاء في طليطلة ، وكانت الغنائم قد أثقلت العسكر إلى حد عظيم .

ويستبعد أن يكون طارق قد سار إلى أمايا (Amaya) واشترقة (Astorga) في ذلك

(١) يذهب معظم المؤرخين المسلمين إلى أن طارقاً غنم هذه التحفة الثمينة في « مدينة المائدة » ، وهذه المدينة هي في الغالب قلعة هنارس (Acala de Henares) . وهي بالطبع ليست مائدة سلبيان بن داود عليه السلام (إن كانت لسلبيان مائدة) ، وهي ليست كذلك بابتداء أصلاً ، إذ لا يعقل أن يهزم القوط بصناعة « مائدة » هذه الفخامة ، ولكن الغالب أنها مذبح الكنيسة الجامعة في طليطلة . إذ لم تكن في قلعة هنارس إذ ذلك كنيسة كبيرة يحتمل وجود هذا المذبح الفخيم بها . ويفهم ذلك من عبارة صريحة لابن حيان يقول فيها : « وهذه المائدة الماثرة عنها المنسوبة إلى سلبيان التي عليه السلام لم تكن له فيها يزعم رواة العجم ، وإنما أصلها أن العجم في أيام ملكهم كان أهل الحسبة منهم إذا مات أحدهم أوصى بهال للكنائس ، فإذا اجتمع عندهم ذلك المال ، صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشياها من الذهب والفضة ، تحمل الشمامسة والفسوس فوقها مصاحف الأناجيل إذا أيرزت في أيام المناسك ، ويصفونها على المذابح في الأعياد لتسبادة بزيتها ، فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ في هذه السيل ... » وبقية العبارة تدل صراحة على أن تلك المائدة إنما كانت للمذبح كنيسة طليطلة .

ولسنا نعلم كيف وجدته المسلمون في قلعة هنارس ، اللهم إلا إذا افترضنا أن قساوسة طليطلة حاولوا الفرار به لفخامته ولقداسه ، ولم يستطعوا التقدم به أكثر من ذلك الموضع ، وذلك فرض يؤيده أن المؤرخين لا يحدوثونا بغنيمة كبيرة من قصور ملوك القوط في طليطلة ، مما يفهم منه أن رجال القصور قد حملوا معهم أحسن طرفها حينما أخذوها لاقترب المسلمين .

ووصف هذه المائدة لا يمكننا على أي حال من تصور هيئتها تصوراً صحيحاً ، إذ أن ابن عبد الحكم وصاحب الأخبار المجموعة وابن عذارى والمقرئ وصاحب فتح الأندلس يتفقون في وصفها اتفاقاً حرفياً ، فهي عندهم « كانت من زبرجدة خضراء ، حافاتها وأرجلها منها » ، والغالب أنهم يريدون أنها كانت محلاة بالزبرجد الأخضر . أما عن حجمها فإن صاحب الأخبار المجموعة يوقنا في حيرة شديدة ، لأنه يقول تارة : « وها ثلثائة رجل وخمسة وسبعون رجلاً » ويقول تارة أخرى : « ... وعمل لها سبط من حوص فأدخلها فيه » .

انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٠٧ .

الأخبار المجموعة ، ص ١٧ ، ١٩ .

ابن عذارى : البيان ، ص ١٤ .

ابن حيان برواية المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

وفتح الأندلس : ص ٩ .

الحين كما يزعم بعض المؤرخين^(١)، لأن الشتاء كان قد اعترب ، وكان الإجهاد قد نال من المسلمين وثقلوا بالغنائم ، والأرجح أنه قام بحملاته نحو هذين البلدين القاصيين بعد ذلك بزمن ليس بالقصير .

٢١. فتح قرطبة وأما مغيث الرومى ومن معه من الرجال - ولم يكن عددهم ليزيد على سبعمائة فارس - فقد أخذوا يقتربون من قرطبة حتى أدركوا الضفة اليسرى من الوادى الكبير مقابل قرطبة ، وكانت القنطرة التى تصل الشاطئين مهدمة فى ذلك الحين ، فاضطر المسلمون إلى الانتظار حتى تسنح الفرصة المناسبة للعبور . ولبثوا حيناً مترصدين محتبئين فى غابة بين قرتى شقنته (Secunda) وطرسيل^(٢) على الضفة اليسرى للوادى الكبير ، وأخذوا من مخبتهم هذا يستطلعون أخبار البلد قبل أن يعبروا النهر إليه ويهاجموه .

وكان أهل قرطبة كارهين لأمر القوط عامة وللذريق خاصة لأن القوط كانوا مختصين أنفسهم بالجزء الغربى من البلد ، وتركوا جزءه الشرقى للأهلين ، كما كان الرومان قبلهم يفعلون^(٣) ، وأقاموا سوراً بينهم وبين الأهلين حتى لا يقرب هؤلاء مساكنهم كأنهم منبذون ، وكان البلد حصيناً يدور عليه سور من الحجر الضخم ، ولكن الظاهر أنه كان متداعياً فى بعض أجزائه لأن العرب سينغذون من ثغرات فيه .

وكان من حسن حظ العرب أن الجزء الذى كان يقابل القنطرة هو الجزء الذى كان الأهلون من الإيبيريين الرومان يسكنونه ، وفيه الكنيسة الجامعة (الكاتدرائية) التى ستصبح جامع قرطبة الكبير فيما بعد ، ولم يصعب على المسلمين الاتصال بنفر من الأهلين واستطلاع أخبار البلد منهم ، وبمعاونة هؤلاء استطاعوا عبور الوادى الكبير فى ليلة غزيرة المطر من ليالى أغسطس^(٤) ، عبروا فى مواجهة باب القنطرة أو باب الصورة ، نسبة إلى تمثال أسد كان قائماً على مقربة من السور ، وظل قائماً أيام المسلمين ، وجعل مغيث وأصحابه يدورون حول السور يلتمسون ثغرة فيه يدخلون منها .

(١) انظر : ابن حيان عند القرى : فتح الطيب ، ج١ ، ص ١٦٧ .

(٢) يسمى هذا الموضع اليوم El Campo de la Verdad . أما عن طرسيل فانظر تعليق سافندرا فى كتابه المذكور آنفاً ، ص ٨١ ، هامش ٢ .

SAAVEDRA. Op. cit. p. 82 .

(٣)

(٤) يقول الرازى : وأقبل المسلمون رويداً حتى عبروا نهر قرطبة ليلاً ، وقد أغفل حرس المدينة احتراس السور ، فلم يظفروا عليه شيئاً بالذى نالهم من المطر والبرد ، فزجل القوم حتى عبروا النهر ، وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعاً ... ٤ .

القرى : فتح الطيب ، ج١ ، ص ١٦٤ .

ولم يكن من العسير على المسلمين أن ينفذوا إلى داخل البلدة من هذه الناحية ، إما من ثغرة دُهم عليها واحد من أهل البلد أو بتسلق السور . ولم يكذب نفر من المسلمين يجتمع داخل البلد حتى اندفعوا إلى الباب ففتحوه ليدخل بقية إخوانهم^(١) ، وحدثت في البلد هزيمة أفاق على أثرها حماية البلد من القوط ولم يكن عددها يزيد على ٤٠٠ فارس ، وكانت مقيمة مع الحاكم في الجزء الغربي الذي سيعرف أيام المسلمين بالمدينة أو القصبه (يسمى اليوم لافيليا = المدينة) ، وكان الحاكم مقياً وحده في قصر منيف من الضاحية التي سُعرف أيام المسلمين بربض الوراقين ، فأسرع إلى حمايته ، ولم يمهلته العرب أن فاجأوه ، ففر بجنده إلى كنيسة قريية تسمى كنيسة القديس أنيسكلو (San Acisclo)^(٢) وتحصن فيها ، وأقام المسلمون حولها محاصرين إياها .

واستمر الحصار قرابة الثلاثة أشهر ، حتى استطاع المسلمون قطع الماء عن المحصورين ، وكان يجري إلى الكنيسة في مجرى تحت الأرض ، فلم يفتن إليه المسلمون ، حتى اكتشفه رجل من السود عن كانوا مع المسلمين^(٣) . وقد صبر هؤلاء المحصورون صبراً طويلاً رغم قطع الماء عنهم ، ولم يستسلموا إلا بعد أن جهدوا جهداً عظيماً ، ويذهب الرازي إلى أن مغنياً أوقد النيران في الكنيسة حتى ماتوا حرقاً . ونحن نستبعد ذلك ، لأن الكنيسة ظلت بعد ذلك في أيام المسلمين زماناً طويلاً وليس فيها للنار أثر^(٤) . وأراد قائد المحصورين الهرب ، فخرج يشتد على جواده ، فتبعه مغيث وحده ، وخرج الرجل من البلد وأفضى إلى ضاحية قُطليبة وكاد ينجو ، لولا أن عثر به جواده ، فجلس على ترسه مستأسراً حتى أدركه مغيث وأسرته ، وكان هو القائد الوحيد الذي أخذ أسيراً من كبار قواد القوط ، وقد سلمه مغيث لطارق ، واحتفظ به هذا ليذهب به إلى الخليفة ونازعه فيه موسى بن نصير فيما بعد ، فلما اشتد النزاع بينها عليه أخرج مغيث سيفه وقتله .

(١) الرازي برواية المقرئ : فتح الطيب ، ج١ ، ص ١٦٤ .

(٢) يسمى صاحب الأخبار المجموعة هذه الكنيسة شنت أجليح ، وقد ورد في تقويم قرطبة لعريب الذي نشره دوزي أن هذه الكنيسة هي سان أنيسكلو بالعجمية .

انظر : الأخبار المجموعة ، ص ١٢ وهامش ١ من ص ٢٥ من الترجمة الإسبانية .

وانظر كذلك : سافدرا ، المصدر المشار إليه ، ص ٨٥ ، هامش ١ .

(٣) راجع أخبار ما وقع لهذا الأسود على يد الإسبان والقوط ، فقد وقع في يدكم وحسبوه مصبوراً فحاولوا إزالة لونه بالغسل والحك حتى اعتنوه ! ثم تركوه يمضي غير مقدرين أنه عين عليهم ، فلما مضى إلى المسلمين أظهرهم على مجرى الماء . ولستأ نعرف إن كنا نقل هذه القصة أو لا نقلها ، لأننا لا نكاد نصدق أن الإسبان لم يكونوا قد رأوا أسود حتى الساعة .

الرازي - في المقرئ : فتح الطيب ، ج١ ، ص ١٦٥ .

(٤) الرازي ، نفس المصدر والصفحة .

أما بقية الحامية فقد قُتِلت عن آخرها عند باب الكنيسة التي اعتصمت فيها ، فسميت هذه الكنيسة من ذلك الحين كنيسة الأسرى . واحتل مغيث قصر الحاكم القوطي ^(١) ، الذي سيصبح فيما بعد مقام الأمراء والخلفاء ، بعد أن يعدل وتضاف إليه أجزاء كثيرة . وقد ترك المسلمون كنيسة الأسرى لنصارى قرطبة فظلت أكبر كنائسهم في عاصمة الأندلس الإسلامية طالما بقيت المدينة في حوزة الإسلام ، ثم عمد إلى اليهود فجعلهم بعض حرس المدينة ، « استنامة إليهم دون النصارى للعداوة بينهم » ، كما يقول الرازي ^(٢) .

وقد لاحظنا أن المسلمين كانوا لا يفتحون في الأندلس بلداً إلا جعلوا بعض حرسه وحاميته من يهوده ، ولا يعلل هذا إلا بأن اليهود قد وقفوا إلى جانب المسلمين وأعانوهم من أول الفتح في كل مرحلة من مراحلهم . وهذا أمر طبيعي ، لأن اليهود كانوا يقاسون على يد القوط بلاء شديداً ، فلم يكادوا يرون المسلمين مقبلين حتى انضموا إليهم وأزروهم ، فجزأهم المسلمون بذلك . وللرازي في هذا عبارة تستحق التسجيل لا لأهميتها للفتح وحده ، بل للتاريخ الأندلسي عامة : « وصار ذلك لهم سنة متبعة في كل بلد يفتحونه : أن يضموا يهوده إلى القصبه مع قطعة من المسلمين لحفظها ، ويمضى معظم الناس لغيرها ، وإذا لم يجدوا يهوداً وفروا عدد المسلمين المخلفين لحفظ ما فتح » ^(٣) .

وهنا ، وبعد أن فتح المسلمون عاصمة البلاد وكسروا قوات لذريق وقضوا على كل أمل له أو لأنصاره في العودة إلى الحكم ، تقدم أبناء غيطة إلى طارق يطلبون إليه الوفاء بما وعدهم من الكرامة وحسن الجزاء . ويبدو أنهم كانوا يؤملون أن ينسحب طارق وجند المسلمين معه من البلاد مكتفين بما أصابوا من الغنيمة ، فيعود آل غيطة إلى ما كانوا فيه من الملك والسلطان ، فلما خيب طارق رجاءهم وأظهر أنه أقبل إلى البلاد للفتح الثابت ونشر الإسلام سقط في أيديهم ، ووجدوا أن لا مندوحة لهم عن القناعة بما يمنحهم المسلمون إياه . ووجد طارق أنهم لا يستحقون أكثر من ضياع أبيهم ، وهي كثيرة فأمضاهم لهم - ويبدو أنهم استقلوها وطعموا في المزيد . ولم يستطع طارق إجابتهم إلى ما سألوا ، فاستأذنوه في المسير إلى موسى بن نصير في إفريقية وسألوه الكتابة إليه بشأنهم معه ، وما أعطاهم من عهد ففعل .

(١) في هذا يقول صاحب الأخبار المجموعة : « ودخل مغيث بلاط قرطبة فاختمه » .

والبلاط هو القصر ، عن palatum اللاتينية كما هو معروف .

انظر : الأخبار المجموعة ، ص ١٢ .

(٢) الرازي ، في المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

(٣) الرازي ، عند المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٦ .

فلما بلغوا موسى أقر طارقاً على ما فعل ، بعد أن قرأ كتابهم واستوثق من صدق معاونتهم للمسلمين ، ويبدو أنهم ألحوا على موسى في الزيادة ، لأنه - على قول الرازي - أحاطهم على الخليفة نفسه^(١) فأقر عهد موسى وطارق . وليس لدينا ما يؤيد ذهابهم إلى دمشق ، ونحن أميل إلى القول بأن موسى بعث إلى الوليد بالمسألة كلها ، فلم يفعل أكثر من أن أقر عهد أميره ، وعاد الأمراء آخر الأمر إلى الأندلس قانعين بما أصابوا ، ولم يكن شيئاً قليلاً ، إذ أعطاهم المسلمون ثلاثة آلاف ضيعة - هي بعض ما كان لأبيهم الملك غيطشة - فأصاب كل منهم ألفاً : أخذ ألمند ألف ضيعة في الغرب واستقر في إشبيلية ، وأخذ أرتباس ألفاً في وسط الأندلس واستقر في قرطبة ، وأصاب أخيليا (وقله) ألفاً في شرق الأندلس وفضل الإقامة في طليطلة في ظلال المسلمين ، وبهذا كان الفتح الإسلامي خيراً عظيماً عليهم وعلى بيتهم المهضوم .

٢٢- عبور
موسى إلى الأندلس

وتذهب الرواية الإسلامية إلى أن موسى بن نصير لم يكذب بسمع بأخبار ما وفق إليه مولاة طارق من الفتح حتى أكل قلبه الحسد ، وقرر أن يذهب إلى الأندلس بنفسه ليعاقبه وليفتح بنفسه فتوحاً أعظم من فتوحه . وعلى الرغم من أن موسى لم يكن بعيداً عن الغرور والحسد والطمع ، فإننا نستبعد أن يكون هذا الشعور أو ما يماثله هو الذي دفعه إلى العبور إلى الأندلس ، ثم إن طارقاً كان بطبعه رجلاً متواضعاً فتوحاً ، وكان قد فتح هذه الفتوح كلها باسم مولاة أميره ، وكان يوقفه على الأخبار أولاً بأول ، فقد كان المسلمون قد استوثقوا لأنفسهم من ميناءى جبل طارق والجزيرة الخضراء ، وكانت السفن رائحة غادية .

ولا يعقل أن يكون موسى قد ظل جاهلاً بما يفعله طارق حتى وصل هذا إلى طليطلة وما وراءها ، وقد رأينا طارقاً يبعث أبناء غيطشة إلى موسى يستشير في أمرهم ، وإنما المعقول أن يكون موسى قد شعر بأن المسلمين قد استرسلوا أكثر مما ينبغي ، وأن خطوط مواصلاتهم في شبه الجزيرة الواسعة في خطر ، فقد بقيت مدائن الشرق والغرب جميعاً لم تفتح ، وكان لا بد من فتحها وإلا تعرض المسلمون للخطر إذا شاء القوط في أوريولة أو إشبيلية مثلاً أنسير إلى استجة أو شذونة وفصل الجيش الإسلامي في الشمال عن الحامية الصغيرة التي كانت في قرطبة ، وقطع الجيش والحامية معاً عن موانئ الاتصال بإفريقية .

(١) الرازي ، برواية القرى : فتح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٧ - ١٦٨ .

ولو قرأ الإنسان روايات هؤلاء المؤرخين في شيء من الرواية لاستبان أن بعض عباراتها يدل على تناقضهم ، فيذهب ابن حيان مثلاً إلى أن موسى « تنكب الجبل الذى حله طارق ، ونزل على الموضع المنسوب إليه المعروف الآن بجبل موسى ، فلما احتل الجزيرة الخضراء قال: ما كنت لأسلك في طريق طارق ولا أقفو أثره ، فقال له العلوج الأدلاء أصحاب يلبان: نحن نسلك بك طريقاً هو أشرف من طريقه ، وندلك على مداين هي أعظم خطراً وأوسع عُناً من مداينه ، لم تفتح بعد ، يفتحها الله عليك إن شاء الله تعالى . فملىء سروراً » .

وهذه عبارة إن دلت على شيء فعلى بُعد نظر موسى من ناحية ، وعلى شرهه إلى الغنائم من ناحية أخرى ، ولكنها لا تدل على الحسد بحال . فأما بُعد النظر فلأنه وقد أقبل مع هذا الجيش الكبير من المسلمين ، لم يكن من الحكمة في شيء السير به في بلاد ومدائن قد فتحت فعلاً ، إنما الحكمة في استخدامه في فتح بلاد لم تفتح بعد . وأما الشره إلى المغنم فظاهر ، لأن موسى قد سره أن يسير به الأدلاء إلى مدن أغنى من مدن طارق وأكثر منها مالاً ، وليس للحسد في مثل هذا الموضع مكان ، لأن طارقاً ، مهما كان الحال ، مولاه وتابعه ، وباسمه يفتح ولحسابه يغمم^(١) .

لم يذهب موسى للقاء طارق وتأديبه ، وإنما انصرف إلى فتح كبار البلاد الجنوبية والغربية التي خلفها طارق دون فتح ، فلما تم له ذلك سار إليه ولقيه في طلبيرة على مقربة من طليطلة . وقد أطنب بعض المؤرخين في وصف ما وقع بين الرجلين عند هذا اللقاء ، فيذكر ابن عبد الحكم أن موسى شد وثاق طارق « وحبسه وهمم بقتله » لولا تدخل مغيث الرومى . وكان طارق قد كتب إليه من محبسه يرجوه أن يسرع بخبر ما وقع له إلى الخليفة الوليد ، فذهب مغيث إلى موسى وحذره أن يسىء إلى طارق ، ثم ذهب مغيث - كما سنرى - إلى دمشق وأبلغ الوليد الأمر ، فكتب هذا يهدد موسى ويدعوه للمثول بين يديه ، فخاف موسى وأطلق طارقاً ، ثم لم يلبث أن عاد ليؤدى عند الخليفة حساباً عسيراً على ما فعل^(٢) .

ولا نرى إلا تفسيراً واحداً لانفراد ابن عبد الحكم من بين المراجع الموثوق فيها بهذه الرواية : هو أنها كانت معروفة في المشرق مجهولة عند أهل الأندلس . وأما وجودها في المشرق فمرجهه على أغلب الظن إلى مغيث الرومى ، فقد كان محتقاً على موسى مولعاً بالكيده

(١) ابن حيان عند المقرئ ، ج ١ ، ص ١٧٠ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٠ .

له ، لأنه كان يرى أنه مولى الوليد وأنه أولى بولاية الأندلس كما سنرى ، فانتهاز فرصة ذهابه إلى المشرق لإبلاغ الوليد أخبار انتصارات المسلمين ، وأخذ يبائع في مساءات موسى ويختلق عليه ، حتى لقد أنكر عليه كل فضل في الفتح كما يرى من رواية ابن عبد الحكم الأنفة الذكر ، وانتشرت قالاته بين أهل قصر الخليفة وبين أهل المشرق ، وسجلها المؤرخون المشرقون الذين يمثلهم ابن عبد الحكم في هذه الناحية .

وأما الأندلسيون ، وهم أخرى بأن يعرفوا مثل هذا الخبر على صحته لأن أخبارهم أخذت عن ناس حضروا بأنفسهم هذه المواقف ، فلا يعرفون إلا أن موسى « وضع السوط على رأس طارق وونه » كما يقول صاحب الأخبار المجموعة ، وقد كان مستطعياً أن يقول : إن موسى ضرب طارقاً بالسوط بدلاً من قوله : « وضع السوط على رأسه » فقط .

ثم إن الرجلين لم يلبثا أن تعاونوا ، فترك موسى طارقاً على قيادة جيشه وسار كل منهما في اتجاه ، متعاونين متساعدين ، ولو كان ما ذكره ابن عبد الحكم صحيحاً ، لما حدث ما سنراه من اشتراك الرجلين الكامل في العمل . وهذا واضح من قول ابن حيان : « قالوا : ثم إن موسى اصططح مع طارق ، وأظهر الرضى عنه وأقره على مقدمته ، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه ، وسار موسى خلفه في جيوشه » (١) .

وعندنا أن ابن حيان أصح من ابن عبد الحكم في هذا الموضع ، وهو لم يذكر شيئاً عن ضرب موسى لطارق أو سجنه ، وكل ما يذكره هو أن موسى وبَّخ طارقاً على مخالفته أمره ، ثم لم يلبث الود أن عاد بينهما ، وظل طارق أوثق رجال موسى وصاحب مقدمته ، ولو كان موسى « مغيباً » على طارق إلى هذا الحد الذي يزعمه ابن عبد الحكم ، فكيف لم يستدعه إليه إلا بعد أن أتم فتح ماردة ، مع أنه - أى موسى - أقام على هذا الفتح بضعة أشهر ؟ ثم كيف طلب إليه أن يخرج للقاته في طلبيرة فقط ، وقد كان مستطعياً استدعاه إلى أبعد من ذلك ؟

الواقع أن موسى كان يعمل مع طارق من أول نزوله الأندلس ، وأن خروج طارق للقاء موسى عند طلبيرة لم يكن لمجرد اللقاء بل لغرض آخر حربي سنعرفه . وقد أتم الرجلان الفتح معاً على أحسن ما يكون الرجال تعاوناً ، وعادا إلى المشرق فلم نسمع أن طارقاً وقف يشكو موسى بين يدي الخليفة . ولو كانت بينها هذه الخصومة لسمعنا لها صدى - ولو خافتاً - في المشرق بعد أن عادا معاً .

(١) ابن حيان عند المقرئ : فتح الطبيب ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

وللمقرى رواية تؤيدنا في هذا المذهب ، إذ يقول : « ... ولما سمع موسى بن نصير بها حصل من النصره لطارق عبر إلى الجزيرة بمن معه ولحق بمولاه طارق فقال له : يا طارق ، لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلانك بأكثر من أن يبيحك الأندلس ، فاستبجه هنياً مرياً ، فقال له طارق : أيها الأمير ، والله لا أرجع عن قصدى هذا ما لم أنته إلى البحر المحيط...»^(١).

كل ذلك يحملنا على الظن بأن الرواية التي تصور القائدين المسلمين العظميين متعادين إنما مرجعها إلى مغيث الرومي ، وللمقرى عبارة تؤيدنا في هذا أيضاً ، فهو يقول من غير سند ظاهر : « ولما قفل موسى بن نصير إلى المشرق وأصحابه ، سأل مغيثاً أن يسلم إليه العليج صاحب قرطبة الذي كان في أسره . فامتنع عليه وقال : لا يؤديه للخليفة سوى ، وكان يدل بولائه من الوليد ، وهجم عليه موسى فانتزعه منه فليل له : إن سرت به حياً ادعاه مغيث ، والعلج لا ينكر قوله ، ولكن اضرب عنقه ففعل . فاضطغننا عليه مغيث ، وصار إلماً مع طارق الساعى عليه » . مما يفهم منه أن الخلاف كان واقعاً بين موسى ومغيث ، وأن مغيثاً كان يضطغن على موسى ويربص به الدوائر ، وأنه كان يُدبّل بولائه من الخليفة ، يظن أن هذا يجعله في موضع ممتاز .

ولما كان موسى بطبعه رجلاً فخوراً مزهواً بنفسه وبمكانه من عبد العزيز بن مروان ومن يزيد بن المهلب ، فإنه من الطبيعي ألا يرضى عن مغيث وأن تقع الجفوة بينهما . ولم يحدثنا المؤرخون بما قال مغيث للخليفة في زيارته الأولى ، ولكنهم يقولون إنه حينما عاد مع طارق وموسى بعد الفراغ من الفتح « سبق إليه - أى إلى سليمان بن عبد الملك - طارق ومغيث بالشكية منه ورمياه بالخيانة ، وأخبراه بما صنع بها من خبر المائدة والعلج صاحب قرطبة ، وقالوا له إنه قد غل جوهرأ عظيم القدر أصابه لم تحو الملوك من بعد فتح فارس مثله ، فلما وافى سليمان وجدته ضغيثاً عليه»^(٢).

ومما يؤيدنا في ذلك الرأي أيضاً أن مغيثاً هذا - الذي يزعم أنه ذهب منتصفاً لطارق - لم يكذب بسمع أن الخليفة يريد تعيين طارق عاملاً على الأندلس بعد موسى حتى مضى يخوفه

(١) نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٥٦ .

واقراً عبارة ابن حيان ، نفس المصدر ، ج١ ، ص ١٧٠ .

(٢) المقرى : نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٧٧ .

منه ويصده عن إنفاذ هذا الغرض ، لأنه كان يطمع لنفسه في ذلك في الغالب . ويبدو كذلك أن الخليفة استبان كذب حديثه فلم يعطه الولاية التي رجا فعاد إلى الأندلس كما خرج منها ، بل ترك سليمان بن عبد الملك الأندلس في يد عبد العزيز بن موسى^(١).

ولا شك في أن يليان كان على اتصال دائم بموسى ، وأنه تلقاه في الأندلس وسار معه كما سار مع طارق ، ولا نزاع كذلك في أن يليان هو صاحب الفضل فيما يبدو من تكامل فتوح طارق وموسى ، فإن الإنسان إذا نظر إلى فتوح هذا وفتوح ذاك حسب أنها دبرت جميعاً بإحكام من أول الأمر . والحقيقة أن يليان وأصحابه تولوا إرشاد موسى إلى خير الطرق التي يستطيع بها إكمال ما بدأ به مولاة ، وبهذا تكامل العملان وتم بهما إخضاع شبه الجزيرة الإيبيرية على أحسن وجه.

ويبدو كذلك أن موسى إنما عبر إلى الأندلس بناء على استغاثة وجهها إليه طارق، ولا يبتنا عن هذه الاستغاثة إلا صاحب « الإمامة والسياسة »^(٢)، ولكننا نقبلها لأنها تفسر لنا السبب في عبور موسى في ذلك الوقت بالذات . ولو كان موسى قد عبر مع عدد قليل من الجند لقلنا إنه عبر من تلقاء نفسه لكي يرى نتيجة ما وصل إليه قائده طارق ، ولكنه عبر في جيش تزيد عدته على جيش طارق بكثير ، وتخبر الأجناد الذين صاحبه تخير المقبل على عمل خطير .

والواقع أن الظروف كلها كانت تحتم إسرعه وتجعلنا أميل إلى قبول رواية ابن قتيبة في استغاثة طارق بموسى ، فقد كان المسلمون قد ساروا في البلاد شوطاً بعيداً دون أن يستوثقوا من سلامة خطوط مواصلاتهم بالجزيرة الخضراء وإفريقية ، ولم يكن يدهم من المعاقل الكبيرة إلا قرطبة ، وكانت طوائف من القوط مفرقة في البلاد تستطيع أن تنقض على جماعات العرب القليلة المفرقة على طول الخط الطويل من جبل طارق إلى طليطلة وما يليها .

(١) انظر : ابن عبد الحكم ، ص ٢١٠ .

الأخبار المجموعة ، ص ١٩ .

ابن عذارى ص ١٨ .

وهو يروي قصة موسى أول الأمر برواية يتفق فيها مع غيره من الأندلسيين ثم يقول : وقيل إنه ضربه أسوأها كثيرة .. الخ ، مما يدل على أنه يشك في هذه الرواية .

(٢) قال : وكتب طارق إلى مولاة موسى : إن الأمم قد نداعت علينا من كل ناحية ، فالعوث العوث ! .

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

وكان يليان يقيم معظم الوقت بالجزيرة الخضراء يُؤمن ظهور المسلمين ، وكان قد فرّق كثيراً من جنوده مع المسلمين في كل ناحية ، وأحس في مقامه هذا أن القوط يتجمعون ويديرون شيئاً ، وشعر بحاجته وحاجة المسلمين إلى عون جديد وإلا ساءت العاقبة^(١) . ويبدو أنه أفضى إلى طارق بشيء من هذا ، لأن الرازي يذكر أن طارقاً رجاء أن يكتب إلى موسى ليعجل العبور^(٢) . ويؤيدنا في ذلك الظن ما يذكره الرازي من أن طارقاً أقام - بعد عودته من سيره إلى مدينة المائدة - في طليطلة لا يكاد يصنع شيئاً^(٣) ولو قد وجد عند نفسه من القوة ما يعينه على فعل شيء لفعل ، ولكن من معه من الجند كانوا قد أجهدوا إجهاداً عظيماً ، وكانت المقاومة في نواحي البلاد قد بدأت ترفع رأسها ، ففضل المقام حيث هو ، وكتب إلى موسى يستغيث به .

وحينما وطئت قدم موسى الأندلس خَفَّ يليان للقاته خروف المتظر المترقب ، وعقد معه مجلساً للتشاور في الأمر^(٤) . فلو لم تكن الأحوال مضطربة خوفاً لما كانت هناك حاجة إلى المجلس والمشاورة ، ولسار موسى إلى طليطلة قداماً ليلقى طارقاً وليحاسبه على ما فعل ، كما تذهب المراجع . ويدلنا خط سير موسى واتجاهه إلى إشبيلية على أن يليان قد نبهه إلى خطورة ترك هذا المعقل الخطر في أظهر المسلمين دون فتح .

عبر موسى إلى الأندلس في رمضان سنة ٩٣هـ - يونيو ٧١٢م ، واستصحب معه ثمانية عشر ألفاً من خيرة جنده ، جُلُّهم من العرب وفيهم عدد عظيم من القيسية واليمانية ومعهم أتباعهم ومواليهم ، وكان فيهم كذلك عدد طيب من التابعين وكبار العرب جعلهم موسى في فرقة واحدة عليها محمد بن أوس^(٥) . وكان هؤلاء العرب الذين ذهبوا مع موسى هم

SAAVEDRA. Op. cit. p. 92 .

(١)

(٢) يقول الرازي في النسخة الإسبانية التي بين أيدينا :

" et embió luego à rogar à Don Juliano que le diese pasaje ... "

CF : GAYANGOS . La Crónica del Moro Rasis , n . 7 .

(٣) يقول الرازي :

" ... oyó decir que foigaba en Toledo et que non se trabajaba à otra cosa ... "

CF : GAYANGOS . Op. cit. n. 8 .

(٤) الإدريسي : نزهة المشتاق ، ص ٢١٣ من ترجمة دوزي .

(٥) انظر : الضبي : بغية المتلصص ص ٥١ .

المقري : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٦-١٧٧ .

وقد تحدث الرازي عن هؤلاء التابعين في شيء من الإفاضة ، وذكر أنه دخلها صحابى واحد هو المنبذر الإفريقي ،

سمى الإفريقي لأنه سكن إفريقية .

الجماعة الكبيرة الأولى من مهاجري العرب إلى الأندلس يُعرفون عند المؤرخين بطالعة موسى ، وستكون لهم الصدارة بين مسلمي الأندلس زمنًا طويلاً ، وسيكون لهم أثر عظيم حاسم في سير الأمور .

ولم تصل هذه الآلاف الكثيرة إلى الأندلس دفعة واحدة ، بل كان موسى قد قسمهم فرقاً بحسب قبائلهم وأصولهم ومراتبهم ، وكان لكل جماعة راية . فلما عبر انتظرهم في مكان على مقربة من الجزيرة الخضراء ابتنى فيه مسجداً ، وأخذت الرايات تغد عليه في ذلك الموضع ، فعرف الموضع والمسجد بمسجد الرايات ، وظلا عامرين قرونًا طويلة .

نزل موسى في الجزيرة الخضراء عند موضع قريب من جبل طارق سمي مرسى موسى ، ثم عجل بالسير إلى شذونة (Medina Sidonia) ومنها سار إلى قرمونة ورعواق (Alcalá Guadaira)^(١) فاستولى عليهما ، وهذا أمنت خطوط مواصلات المسلمين من الجزيرة الخضراء إلى قرطبة ، إذ أصبحت سلسلة مدائن الجزيرة وشذونة ورعواق وقرمونة واستجة وقرطبة في يد المسلمين ، وأصبح في إمكان موسى أن يتجه نحو الغرب ليفتح لإشبيلية كبيرة مدائن شبه الجزيرة بعد طليطلة إذ ذاك .

= أما التابعون فهم : موسى بن نصير ، وعلى بن رباح التميمي ، وحيوة بن رجاء التميمي . وقيل : إن رابعهم هو حنش بن عبد الله الصنعاني (صناع الشام) .

وقد قفل هؤلاء من الأندلس بقول موسى ، إلا أن أهل سرقسطة يزعمون أن حنشاً مات عندهم ولم يقفل إلى المشرق ، وقره لديهم مشهور يتبركون به . ويضيف إليهم بعضهم خامساً هو : عبد الرحمن الحُكَلِي واسمه عبد الله بن يزيد ، وسادساً : هو حيان بن أبي جبلة مولى بني عبد الدار ، وكان في ديوان مصر فبعثه عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية في جماعة من الفقهاء ليفقهوا أهلها ، وغزا مع موسى حين افتتح الأندلس ، وبلى ذلك تفصيل طيب عن هؤلاء التابعين .

الرازي عند القرى ج١ ، ص ١٧٦ .
وانظر عن هذا الموضوع أيضاً أقوال ابن بشكوال وابن سعيد وابن حبيب والنجاشي في : القرى : فتح الطيب ، ج١ ، ص ١٨٢-١٨٣ .

(١) ورد اسم هذه المدينة في المراجع العربية بصيغ مختلفة : دعوان زعواق ورعواق ، وقد أثبت لافونت ألكانترا أن الرسم الصحيح لهذه التسمية العربية هو رعواق ، وأنها هي قلعة جوادايرا (Alcalá de Guadaira) ، انظر : LAFUENTE ALCANTARA . Ajbar Machmua , indice geografico.p. 256 ولم يرد ذكر فتح قرمونة قبل إشبيلية إلا في فتح الطيب رواية عن ابن حيان وق الأخبار المجموعة ، وقد كادت تستعصي على موسى لولا أنه لجأ إلى حيلة نصحه بها من معه من الأدلاء من أنصار بليان ، إذ تسربوا إلى داخل البلد في هيئة المستأجرين ، ثم غافلوا أهل البلد وفتحوا أبوابه للمسلمين .

انظر : ابن حيان عند القرى ، ج١ ، ص ١٧ .

الأخبار المجموعة ، ص ١٦ .

٢٣. فتح إشبيلية سقطت إشبيلية في يد المسلمين بعد بضعة أشهر من الحصار والقتال، ويبدو أن أهل البلد ومن فيها من اليهود سارعوا بفتح الأبواب حينما طال القتال واشتد، وأما الحامية القوطية فانسحبت إلى لُبلة على مصب وادي آتة ومنها إلى أكشونية (Sta. Maria de Faro = Ossonoba) ثم إلى باجة، وهناك راحت تنتظر الحوادث. وترك موسى في البلدة حامية قليلة معظمها من البربر واليهود، ثم سار قاصداً ماردة متتبعاً طريقاً رومانياً قديماً كان يصل البلديتين، واستولى في الطريق على بلد يسمى لَقَتَّ^(١) سلم له أهله دون مقاومة فسموا لذلك «موالى موسى»^(٢).

٢٤. فتح ماردة فلما أدرك موسى ماردة وجدها أحصن وأقوى مما ظنها، فقد كان أنصار لذريق والمهاربون من فلول القوط قد تجمعوا فيها لأنها بلد بعيد صعب المنال وعر المسالك، فأقام موسى محاصراً البلدة بقية الصيف والشتاء التالي، ولم يسلم البلد إلا في الثلاثين من يونيو ٧١٣م (١ شوال سنة ٩٤هـ) بعد قتال طويل هلك فيه نفر كبير من حامية البلدة بسبب كئيبات أخفاها موسى في مقاطع الصخر أمام مخارج البلد. وقد هلك أثناء محاولات نقب السور نفر من المسلمين سقطت عليهم دبابة كانوا قد اختفوا تحتها لينقبوا طبقة من السور مبنية من شيء يشبه الأسمنت الصلب كان يسمى (Argama-sa)^(٣). ولم يسلم أهل البلد إلا بعد أن عاهدهم موسى على «أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال المهاربين إلى جليقية للمسلمين، وأموال الكنائس وحليها لها»، وهي شروط سيكون لها أثر في تحديد العلاقة بين المسلمين والأهالي فيها بعد^(٤).

(١) قال ابن القوطية: «ثم قصد من إشبيلية إلى لقتت إلى الموضع المعروف بفتح موسى في أول لقتت إلى ماردة» - افتتاح الأندلس، ص ٩.

ولا يعقل أن تكون لقتت هذه هي لقتت المعروفة في جنوب الشاطئ الغربي لشبه الجزيرة. وقد قرأها سافدرا لَقَتُّ أو لاكانتوس وقرر أنها عين كانتوس (Fuente de Cantos).

CF : SAAVEDRA. Op. cit. p. 94 et note 2

(٢) فتح الأندلس: ص ١١، وانظر تعليق JOAQUIN DE GONALEZ بخصوص هذه العبارة، ص ٩٣ من الترجمة.

(٣) أورد ابن حيان هذا اللفظ بنصه محرراً فكتبه «الاشة ماشة».

ابن حيان، عند المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ١٧٠.

(٤) وردت هذه العبارة الهامة عن ذلك الاتفاق في الأخبار المجموعة ونفع الطيب للمقرئ، وقد أورد هذان الكتابان تفاصيل هامة عما فعله المسلمون حتى استطاعوا الاستيلاء على هذا الحصن الهام، ومن ذلك قصة المسلمين الذين استشهدوا تحت الدبابة التي كانوا يجنحون تحتها لقب سور البلد، وذكر أن هذا الموضع يسمى إلى وقتها «برج الشهداء» لهذا السبب، وهي ملاحظة هامة. ويذكران كذلك حيلة موسى مع أهل ماردة وتلويته شعره من أبيض إلى أحمر إلى أسود إرهاباً لهم، وهي قصة مستعبدة الحدوث.

يذهب سافدرا إلى أن فتح المسلمين لإسبانيا دخل في دور جديد أثناء فتح موسى لماردة «لأن حراسة الحصون لم يعد يعهد فيها إلى اليهود ، ولم يعد أهل البلاد يفتحونها من الداخل للمسلمين ، ولم يعد المسلمون يبعثون البلاد ويأخذونها من حكامها فجأة ، وتلك كلها دلائل على أن لونا من القطيعة قد وقع بين الأهالي والمشاركة . أما سبب هذا التغير ، فهو أن موسى - في مسيره من الجزيرة الخضراء إلى ماردة - رأى بعينه سوء حال الشعب (الإسباني) ورأى كذلك أن الملك لم يكن قادراً على جمع جيش محترم ، وأن مجلس الشيوخ لم يكن يستطيع الاجتماع للتشاور في الأمر ، وأن أنصار غيطشة لم يكن يؤيدهم إلا نفر لا يملكون عدة للحرب أو قدرة على إدارة الحكومة . هنا بدأت فكرة « ضم » الأندلس تدور في رأسه ، بدأ يفكر في تملك ما فتحه»^(١) .

أى : أن المسلمين قد قاموا بما قاموا به في الأندلس حتى الساعة وهم يشعرون أنهم يقومون بغارة يعودون إلى بلادهم بعدها ، حتى إذا استبان موسى ذلك كله في مسيره من الجزيرة إلى ماردة تغير رأيه ، وأخذ يعمل على الفتح الثابت الدائم ، أى على ضم الأندلس إلى دولة الخلافة ، وأن هذا التفكير غير نفوس أهل البلاد - الذين كانوا يؤازرون المسلمين إلى هذه الساعة على اعتبار أنهم مغربون يطلبون المغانم لا غير ، أو حلفاء يريدون القضاء على دولة الطاغية لذريق ورد الأمر لأهله - فلم يعودوا يؤازرونهم ، ولم يعودوا يفتحون لهم أبواب المدن ويدلونهم على ثغرات أسوارها وينقضون معهم على حكام القوط ، بل بدأوا يعادونهم ويقفون منهم موقفهم من أى فاتح معتد يريد ببلادهم سوءاً .

وليس في سياق الحوادث ما يؤيد سافدرا في هذا الزعم ، لأن الواقع الذى لا شك فيه هو أن المسلمين نزلوا الأندلس من أول الأمر على نية الفتح الثابت الدائم ، وأن طارقاً كان يسير في البلاد ليدخلها في حوزة الإسلام ، لا ليغنم منها ثم يعود ، ولا ليعين فريقاً من أهلها على فريق . ولا يستبعد أن يكون نفر من الإسبان وأنصار غيطشة ممن ساعدوا المسلمين من أول الأمر قد انتبهوا - بعد فوات الوقت كما رأينا - إلى أن المسلمين يفتحون البلاد لضمها إلى دولة الخلافة ، لا لاقتسام غنائم الفتح معهم ، فأخذوا يأسفون بعد فوات الفرصة على ما كان منهم ، لأن إيزودور الباجى يقول في هذه المناسبة :

« انظر : الأخبار المجموعة ، ص ١٨ .

ابن حيان ، في فتح الطيب للمقرى ، ج ١ ص ١٧١ .

... pace fraudifica male diverberans (n.36,v.864) ... pacem nonnullae civitates ... iam coactae proclamitant , atque suadendo et irridendo astu quodam fallit^(١).

ويؤيد سافدرا رأيه هذا بما حدث بعد فتح ماردة من أن « عجم أهل إشبيلية تحيلوا على من بها من المسلمين وجاءوا من مدينة يقال لها لبله ومدينة يقال لها باجة ، فقتلوا من بها من المسلمين ، قتل فيها ثمانون رجلاً ، فقدم قُلُوبُهم على موسى بن نصير بإرادة ، فلما فتح ماردة بعث ابنه عبد العزيز على جيش إلى إشبيلية فافتحها ورجع^(٢) . حقيقة أن هذا هو أول انقلاب من أهل البلاد على المسلمين ، ولكن من أين استدل سافدرا على أن الذين قاموا بهذا العمل كانوا من الإسبان ولم يكونوا من فلول القوط المنهزمة التي كانت تتجمع في نواحي الغرب ، وأن هؤلاء إنما جرؤوا على الانقضاض على من بإشبيلية من المسلمين حينما استبانتم لهم قلة عددهم وابتعاد إخوانهم المسلمين عنهم؟

نظن أن هذا الفرض الأخير أقرب إلى الصحة ، لأن عبارة ابن حيان وصاحب الأخبار المجموعة تدل على أن الذين غدروا بالمسلمين لم يكونوا من أهل إشبيلية أو لبله أو باجة ، فلو أن هذا هو الذي حدث لذكر المؤرخان أن أهل لبله وباجة ثاروا أيضاً ، إذ لا يعقل أن يسيروا إلى إشبيلية للاشتراك في ثورتها وهم أنفسهم خاضعون ، ثم إن عبد العزيز بن موسى لم يعاقب أهل البلد بعد أن أخذ الثورة ، وتركهم على حالهم وأقام معهم فيها ، ولو كان لهم ضلع في الحادث لرأينا لذلك أثراً في معاملته لهم ، ولا يستقيم الأمر إلا إذا فرضنا أن الذين فعلوا ذلك هم نفر من القوط ، من حاميات البلاد التي فرت منها عند اقتراب المسلمين وعادت إليها بعد ذهاب الجيش الإسلامي عنها ، تحاول استعادتها أو الانتقام من المسلمين .

فلما فرغ عبد العزيز من أمر الثائرين في إشبيلية سار إلى لبله وباجة^(٣) ، وربما إلى أكشونية ، ليطرد منها من عسى أن يكون قد تجمع بها من القوط ، ثم ترك في هذه البلاد جميعاً

ISODORO PACENSE .Cronicón, 36 apud LAFUENTE ALCANTARA, Ajbar Machmua, (١) apendice pp. 147-148.

وقد أيد سافدرا رأيه هذا بفقرتين : الأولى من « مدونة البلدة » (Cronicón Albeldense) يقول فيها : « ثم ثارت بين القوط والعرب بصورة مستمرة حروب استمرت سبع سنوات » (نفس المصدر ص ١٦٣) والثانية عن تاريخ راهب سيلوس (Cronicón Silense) فقرة ١٧ .

(٢) الأخبار المجموعة ص ١٨ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٧ .

حاميات إسلاميه لتؤمنها من أى تدبير يقوم به القوط . ويدلنا نص من المقرئ على أن حامية باجة كانت قوية ، وأن قائدها كان قائداً عربياً معروفاً ، هو عبد الجبار قائد مسيرة موسى وجد بنى زهرة أحد بيوت إشبيلية التى سيكون لها شأن^(١).

وأقام موسى شهراً فى ماردة يرتب أمورها ويريح جنده بعد هذا العناء الذى تكلفوه فى فتح هذا البلد ، ومن الواضح أنه أحس أن عناصر المقاومة فى هذه الناحية كانت أقوى ما لقي المسلمون فى بلاد الأندلس إلى الآن ، وأنه عرف أن فلول القوط - وأنصار لذريق خاصة - كانوا يتجمعون فى هذه النواحي الجبلية الوعرة فلناً منهم أن المسلمين لن يصلوا إليها ، واستعداداً للهروب إلى نواحي قشتالة وإسترامادورة إذا ما وطئت أقدام المسلمين هذه النواحي من غرب الأندلس ، لأن سير الفتح الإسلامى سيطوً وسيصطدم بعقبات فى هذه الناحية بعد أن كان يسير سيراً ذلولاً دون عقبة ظاهرة .

وقد رأينا القوط فى إشبيلية ولبلة وباجة كيف « تتجالب فلهم » من هذه النواحي كما يقول ابن هذارى ، ولاحظنا أن فتح ماردة كلف موسى من أمره عسراً ، وأنه لم يفتحها إلا بحيلة ، وأن المسلمين خسروا فيها خمسمائة لم يخسروها فى قرطبة أو إشبيلية أو حتى طليطلة ، وعلة ذلك أن فلول القوط كانت تتجمع فى هذه النواحي الوعرة من كل جانب .

فإذا صح ذلك ، كان مسير طارق للقاء موسى بعد فراغ هذا الأخير من فتح ماردة أمراً معقولاً ، لأن الإنسان يتساءل : ما الذى أخر طارقاً عن الخروج للقاء موسى حتى هذه اللحظة ، مع أن موسى كان فى أشد الحاجة إلى العون أثناء حصار ماردة وكفاحه أهلها ؟

ولا يُفسَّر بهذا إلا بأن موسى رأى أن مقام طارق بطليطلة يؤمنه من حمل يقوم به قوطها ، فلما فرغ من أمر ماردة وأراد السير نحو طليطلة أحس أن الطريق طويل محفوف بالخوف ، لأن فلول القوط كانت « تتجالب » وتتجمع فى هذه النواحي . فلما وجدت موسى يأخذ فى الطريق رأت الفرصة سانحة لا اعتراضه ومنازلته فى معركة خطيرة الشأن كما سنرى . وهذا هو السبب الذى حفز طارقاً إلى المسير للقاءه . ولا يغفل سكوت طارق عن الذهاب إلى مولاة طيلة أشهر الشتاء رغم وجوده على مقربة منه ، إلا بأن موسى نفسه لم يطلب إليه المحيى إلا فى هذه اللحظة ، حينما أحس ببعض ما كان يدبر حوله فى هذه النواحي الفسحة المنهجولة للمسلمين .

(١) المقرئ : فتح الطيب ، ترجمة جايانجوس ، ج ٢ ، ص ١١ .

والواقع أن حركة كبيرة كانت تدور حول جيوش المسلمين الغازية بين وادي آنة وغيره الناتجة في ذلك الحين ، فقد كان لذريق قد تراجع بمن بقي له من فلوله وتحصن بهم في شعاب الهضبة ، مما يلي وادي آنة إلى الشمال في جبال سيرا ديفرانثيا على أبواب قشتالة الجديدة واسترامادورا في السهل الفسيح الذي يحيط بسلمنقة ، ولثوا هناك يتحينون الفرصة للانقضاض على جيوش المسلمين . ولم يكن موسى ليستطيع السير من ماردة إلى طليطلة وهؤلاء في ظهره ، بل كان لابد له من القضاء عليهم ، ولهذا استدعى طارقاً ليلقاه في منتصف الطريق بين ماردة و طليطلة ، فسار طارق نحو مائة وخمسين ميلاً وانتظر مولاه في وادي الأروكامبو (Arrocampo) في مكان يسمى المعرض (Almaraz) بين الناتجة وغيره التيتار^(١).

وأما موسى فقد سار في طريق روماني قديم يصل ماردة وسلمنقة بحذاء نهر سيحمل من ذلك الحين اسمه ، وهو فالوذا (Valmuza) أي نهر موسى^(٢) . وظن لذريق وأصحابه أن الفرصة قد سنحت في المسلمين لتوسطهم هذا الطريق الطويل وتقدمهم عن أي مركز يستطيعون طلب المعونة منه ، وانقضوا على جيش موسى في ناحية يسميها بعض مؤرخي

(١) يقول هذا الرأي سافدرا وتؤيده فيه أقوال كثيرة لمؤرخين إسبان ونفر قليل من مؤرخي المسلمين ، وهو في الواقع أقرب الآراء إلى الصحة في صدد نهاية لذريق . فإن المسلمين لم يقتلوه في واقعة وادي لكة ، وتكتفى المراجع بالقول بأنه اختفى أو غرق . وسيرى القارىء في سياق الحديث أن هذا الرأي يصحح الوقائع أكثر مما يصححها القول بموته أو اختفائه من ميدان التاريخ عقب لقائه المسلمين أول مرة .

SAAVEDRA. Op. cit. pp. 98 sqq .

(٢) وتعيين اتجاه موسى على هذا النحو يعيننا على تحديد المكان الذي التقى فيه بطارق على وجه التقريب ، والمراجع العربية مختلفة حول هذه النقطة أشد الاختلاف ، فابن عذارى مثلاً يقول : « اتفق الأكثرون على أن اللقاء ما كان على طليطلة ، وذكر الطبري أنه كان على قرطبة ، وذكر الرازي أن طارقاً خرج من طليطلة لما بلغه مسير موسى إليه ، فلقبه بمقربة من طليطلة ... » وإشارة الرازي تدل على أن اللقاء تم على مقربة من هذا البلد الأخير . وقد ذكر صاحب الأخبار المجموعة أن اللقاء وقع في ناحية يرسمها « ناند » من غير نقت ، ويمكن قراءتها تايد أو تايتير اعتماداً على عبارة أوردها رادريجو أسقف رادا في تاريخه : *iuxta rivum qui Teitar dicitur* .

ولما كانت بعض المراجع الإفرنجية تقول بأن اللقاء وقع عند ناحية تسمى Almaraz - وهو لفظ عربي الأصل يرجح أن أصله « المعرض » ، وهو مكان على مقربة من طليطلة على نهر التيتار - فإننا نستطيع القول بأن اللقاء بين القائد المسلمين الكبيرين وقع هناك .

ابن عذارى : البيان ج ٢ ، ص ١٧ .

الأخبار المجموعة ، ص ١٨ .

RODERICUS TOLITANUS . De rebus Hispaniae, I, III, cap. XXIV

CF : SAAVEDRA. Op. cit. p. 98 .

المسلمين « السواقي » وهي (Segoyuela de los Cornejos) على مقربة من ثاميس (Tamames)^(١) ، فانقض عليهم المسلمون وثبتوا لهم حتى أفنوهم عن آخرهم ، وقتل لذريق نفسه ، قتله مروان بن موسى بن نصير ، فشهدت هذه البقعة مصرع آخر ملوك القوط ، وقد حمل أتباعه رفاتة بعد ذلك ودفنوها في فيزيو ، وظل قبره هناك معروفاً حتى زمان ألفونسو الكبير ، فقد ورد في حوليات هذا الملك أنه رأى قبر لذريق وقرأ عليه لوحة تقويته: هنا يرقد لذريق ملك القوط .

(Hic requiescit Rudericus rex gothorum)

ومن الغريب أن هذه الواقعة التي أهملها المؤرخون إهمالاً شبه تام كانت الأساس الذي دارت حوله الملاحم الإسبانية التي نشأت فيما بعد حول لذريق آخر ملوك القوط ودفاعه عن بلاده .

ويبدو أن اشتباك المسلمين مع القوط في هذه الواقعة الحاسمة الأخيرة قد شجع نفرأ من بقايا القوط وأنصارهم على طليطلة على نقض طاعة المسلمين ، فانتهزوا فرصة خروج طارق وجنده منها ووثبوا بها ، فاضطر موسى إلى فتحها من جديد ودخولها دخول الظافر^(٢) ويذهب المؤرخ الإسباني مودستو لافونتي إلى أن أفراد حزب غيضة كانوا يؤملون - بعد مقتل لذريق - أن يقيمهم المسلمون ملوكاً على البلاد ، ولكن موسى خيَّب ظنونهم حينما

(١) لم يذكر هذه الواقعة من المؤرخين المسلمين إلا الرازي (في الترجمة الإسبانية) وفتح الأندلس المجهول المؤلف ، وقد ذكر هذا المرجع الأخير أن الموضع الذي وقع فيه اللقاء الأخير يسمى « السواني » في نسخة و « السواقي » في نسخة أخرى ، وأما الرازي فيسمى هذه الواقعة La batalla de Saguyue ، وهو لفظ قريب جداً من لفظ السواقي . أما مقتل لذريق على يد مروان بن موسى فلم يذكره إلا ابن قتيبة في الإمامة والسياسة - انظر .

Fragmentos inéditos de la crónica llamada del MORO RASIS, apud SAAVEDRA. Op. cit. apendice 145 sq.

فتح الأندلس ص ٨ .

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ٧٦ .

ولا شك في أن تسمية الرازي لهذا الموضع بـ Saguyue كانت الأصل الذي أخذ عنه المؤرخون الإسبان وقصاصهم اسم هذا الموضع ، فقد كتبه « فرناندو جنزالد » في قصيدته الطويلة عن لذريق Sangonera ، وكتبه « ردريجو كارو » سانجويلا .

CF.: FERNANDO GONZALEZ, El Ultima Rey Godo, Copla 79.

RODRIGO CARO, Antigüedades y principado de Sevilla, f., 122 v.

SAAVEDRA, Op. cit. pp. 100 sq.

(٢) فتح الأندلس ، ص ١٢ .

أعلن بعد دخوله مباشرة أن البلاد كلها لخليفة المسلمين في دمشق ، ولم يجد أبناء غيطشة بدأ من الرضوخ للأمر الواقع ، فسكنوا قانعين بما منحهم موسى من أملاك أبيهم وما شرفهم به من عظيم المكانة^(١) . فاستقر أخيلا (وَقَلَّة) في طليطلة وعاش آمناً في ظلال المسلمين ، وخلفه ابنه أَلْبُرُو (ألفارو) ثم حفيده حفص الذي أصبح فيما بعد قاضياً للنصارى . وأما أَرطباس فقد استقر في قرطبة مكرماً معزراً وأصبح له بين المسلمين مكان مرعى ، واحتفظ بلقب « قومس » وورثه عنه ابنه أبو سعيد . وأما أَلْمُنْدُ فقد اختار المقام في إشبيلية وأنجب ابنة هى سارة ، عاشت كريمة حتى أيام عبد الرحمن الداخل وابنه هشام ، وابن هاجر أحدهما إلى الشمال وبقي أحدهما في بلاد المسلمين ليحظى بمكان رفيع وليصبح أسقف المستعربين جميعاً فيما بعد . وكافأ موسى أبة (Oppas) أخوا غيطشة -الذى ظلما ساعد المسلمين وأعانهم - بتعيينه أسقفاً لطليطلة ، والظاهر أن جمهور النصارى لم يرض عن هذا التعيين لأن إسبانياً آخر هو « أوربانو » لم يلبث أن خلفه في هذا المنصب الكبير سنة ٧١٩م^(٢) .

٢٥. أول عملة إسلامية في الأندلس
 ولم يكد موسى يستقر في طليطلة حتى سارع بضرب عملة ذهبية ليدفع منها رواتب الجند الذين كانوا معه ، ولسنا نعلل ضرب موسى لهذه العملة الذهبية - التى كانت فى ذلك الحين من حق الخليفة وحده - إلا بأن الخليفة كان قد خوله هذا الحق فى إفريقية فأباحه لنفسه فى الأندلس ، لأنها كانت معتبرة فى نظره أرضاً مفتوحة تابعة لإفريقية ، وكان المسلمون يتعاملون خلال هذه الفترة القصيرة فى إسبانيا بالعملة الإفريقية التى ضربها موسى قبل ذلك سنة ٩٠ هـ . وقد رسمت هذه الدنانير الذهبية الجديدة على هيئة العملة الإفريقية : كانت لاتينية عربية ، ففى ناحية منها كتب « محمد رسول الله » يحيط به النص التالى باللاتينية على هيئة دائرة :

In nomine Domini, non Deus nisi Deus . Solus Sapiens. non Deo simi-
 lis Alius

وفى الناحية الثانية نجمة ذات ثمان أذرع كتب حولها باللاتينية :

MODESTO LAFUENTE. Historia general de Espana, II. 479 .

(١)

(٢) ابن القزطية : افتتاح ، ص ٤-٥ .

DOZY . Recherches , I, p. 79

EL cronicon Silense. n. 20

SAAVEDRA. Op. cit. pp. 104 - 105 .

Solidus Feritus in Spania

وبلى ذلك تاريخ سكتها وهو سنة ٩٧هـ^(١).

وضرب موسى كذلك عملة برونزية صغيرة لاتينية الكتابة .

ثم بعث موسى برسولين إلى الخليفة الوليد يُنهيان إليه أخبار هذا الفتح العظيم ، ووقع اختياره على التابعي على بن رباح ، وكان رجلاً صالحاً في نحو الثمانين من عمره ، ومغيث الرومي فاتح قرطبة . ويبدو أن مغيثاً كان حانقاً على موسى لشيء في نفسه ، أو لأنه ساءه أن ينسب فضل الفتح كله إلى نفسه مغفلاً ببيان ما قام به هو وما قام به طارق ، فلم يأل جهداً في تنقص موسى وتشويه سمعته ، فكان لكلامه أسوأ الأثر على مصير موسى فيما بعد^(٢).

٢٦. السيرة نحو الشمال
فلما اطمأن موسى إلى هدوء ما بيده من البلاد أخذ يستعد للسيرة نحو الشمال لإكمال فتح شبه الجزيرة ، ويذهب المؤرخون إلى أن نيته انعقدت إذ ذاك على التصعيد واختراق جبال البرت وغالة وأوروبا كلها ليصل إلى القسطنطينية من الغرب^(٣) . وليس لدينا دليل واحد نستطيع أن نؤيده به هذه الأقوال، ونستبعد أن يكون موسى قد فكر في أمر خيالي عسير التحقيق كهذا. وكل الذي نعرفه أن موسى جمع أجناده حينما انقضى الشتاء وسار بهم في اتجاه الشمال الشرقي ليفتح حوض الإبرو وما فيه من

SAAVEDRA. Op. cit. pp. 106-107 .

(١)

LEVI-PROVENÇAL. Hist. De L'Esp. Mus. pp. 20-21.

والمراجع المذكورة هناك .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ، ج١ ص ١٩٤ - ١٩٥ .

ويسهب ابن عبد الحكم - على غير عادته - في تفصيل ما فعل موسى بطارق ، وما فعله مغيث من عون طارق والإسراع إلى الخليفة لإتقائه . ولنا نعلم سبباً لهذا الإسهاب إلا أن تكون أخبار كهذه قد شاعت وتداولها الناس في المشرق ، ولما كان مغيث هو الوحيد الذي أتبع له الحديث إلى الخليفة ، فلا يستبعد أن يكون صاحب هذه الشائعات . ورواية المقرئ تؤيدنا في هذا .

(٣) يذكر المقرئ أن موسى حينما أدرك هذا الموضع الفاصي من شمال الأندلس وأشرف جنده على البحر الأخضر (المحيط الأطلسي) وجبال البرت ، فكر في اختراقها والاستمرار في الفتوح ، وأنه « كان يؤمل أن يخترق ما بقي عليه من بلد إفرنجة ، ويقطم الأرض الكبيرة حتى يصل بالناس إلى الشام مزملاً أن يتخذ مخترقه بتلك الأرض طريقاً يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من الشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً » . ولنا نستطيع تحقيق قالة كهذه ، وكل ما نستطيع استنتاجه منها هو أن الوليد لو لم يكن قد استدعاه وألح في استدعائه لآثم فتح جليقية - كما يذكر المقرئ - أو لاخترق جبال البرت وأقضى إلى غالة . أما ما يزعمه المقرئ من وصوله إلى نهر الرون (ردونه - من Rodanus) فأمر غير صحيح ، وسرى فيما بعد أن المؤرخين وضعوا كثيراً من أعمال الفاتحين المسلمين ممن أتى بعد موسى في حملته تلك ونسبوا لها إليه .

المقرئ : نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٧٤ - ١٧٥ .

مدائن . وكان معه طارق وجماعة من كبار جنده ، وتقدم الجيش محمد بن إلياس المغيلي أحد قادة البربر مع طائفة قليلة استولت على وادي الحجارة دون كبير جهد^(١).

ويبدو أن ما لقيه المسلمون من الشدة عند ماردة والسواقي ، وما دهمهم من ثورة أهل طليطلة مال بهم إلى الشدة ، فزاهم في غزوتهم هذه أميل إلى العنف مما كانوا قبل ذلك ، فبينما كان طارق يحتل المواقع احتلالاً سلمياً فيؤمن أهلها ولا يكاد يستبيح لنفسه إلا ما كان من أملاك القوط أو أملاك الكنيسة ، نسمع من الآن فصاعداً عن نهب البلاد وإحراقها ورعب أهلها وخروجهم منها على وجوههم . ويبدو كذلك أن هذا كان نتيجة لسياسة موسى ، وقد عرفناه شديداً قاسياً عظيم الميل إلى المغانم والأسرى والسببا ، وقد بلغ من إسراره في هذا الوجه أن العرب أنفسهم - وعلى رأسهم الخليفة - أنكروا عليه هذا المسلك ، فلم يلبث الخليفة أن استدعاه ليناقشه الحساب فيما يفعل .

ولم تكد طلائع المسلمين تشرف على سرقسطة حتى رعب أسقفها بنسيو (Bencio) ومن معه من الرهبان ، فجمعوا كتبهم المقدسة وذخائرهم الموروثة وقرروا الهجرة من البلد والفرار بهذه الذخائر . فلم يلبث موسى أن أرسل إليهم رسولا يؤمّمهم ويعطيهم عهده ، فسكنت مخاوفهم واستقروا ودخل المسلمون البلد بعد قتال لا يُذكر^(٢) . ولم يكد المسلمون يستقرون في البلد حتى قام التابعي حنش بن عبد الله السبأى الصنعاني بإنشاء مسجد للمدينة ، وقد قُدِّر لهذا المسجد أن يتسع حتى أصبح مسجداً جامعاً وظل قروناً متوالية مناراً للإسلام وأهله في هذه النواحي^(٣) .

ثم أعقب موسى ذلك باحتلال سرقسطة ووشقة ولاردة وطركونة ، وأحب أن يتابع سيره نحو البرت ، ولكن جنده روعوا لما شاهدوه من فقر هذه النواحي وقلة عمرانها ، ثم إن أهلها كانوا يتكلمون اللغة البسكية فوقعت من العرب موقعاً غريباً . وظنوا أنهم لا يتكلمون^(٤) . واستوحش الجند من هذه الناحية وأبدوا رغبتهم في العودة ، وانضم إليهم

(١) شهاب الدين الفاسي برواية المقرئ : نفع الطيب ترجمة جايانجوس ، ج١ ، ص ٥٣٣ .

(٢) ISODOR PACENSE. Cronicon, n. 36. versos 871-873. (٢)

(٣) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١١١ .

القصبي : بغية المنتسب ، ص ٢٦٣ .

المقرئ : نفع الطيب ، ج٢ ، ص ٤ .

(٤) « ... وقتح بلاد البشكنس وأوغل في بلادهم حتى أتى قوماً كالبهايم ، وغزا بلاد الإفرنج ... » .

ابن عذارى : البيان ، ج٢ ، ص ١٨ .

التابعي حنش الصنعاني ، وأخذ موسى يحاول إقناعهم بضرورة الاستمرار^(١) .

وفي ذلك الحين وصل مغيث الرومي عائداً من دمشق ومعه أمر لموسى وطارق بأن يشخصا إلى دمشق ، وأحس موسى بما وراء هذه الدعوة : وعرف أن مغيثاً مولى عبد الملك ابن مروان لا بد أن يكون قد تقوّل عليه شيئاً ، ولكن ذلك لم يصرفه عن المضي في إتمام هذه الغزوة التي صاحبها التوفيق إلى هذه الساعة ، وأحب أن يسترضى مغيثاً حتى يدعه يعضى في إكمال فتح البلاد ، فعرض عليه أن يمنحه نصف ما يغنم من البلاد التي سيفتحها في هذه المهلة ، ومنحه القصر الذي كان يسكنه حاكم قرطبة في الجزء الشرقي منها ، فقبل مغيث وظل هذا القصر يُعرف فيما بعد ببلاد مغيث^(٢) . فإذا اطمان موسى إلى ذلك فقد تابع سيره في قشتالة القديمة (Castilla la vieja) ليتم فتحها ولْيُؤمّن طليطلة من غدر أي عدو للمسلمين يكون فيها^(٣) . واستقر رأيه على أن يقسم جيش المسلمين قسمين : قسماً يسير به هو ، وقسماً يسير به طارق .

عهد موسى إلى طارق في السير نحو جبال كَثْبَرِيَّة ، فبدأ طارق بمهاجمة البشكنس غربي الإبرو فلم يجد صاحب الناحية « فُرْتُون » (Fortunius) بدأ من الدخول في طاعة المسلمين بل اعتنق الإسلام ، ومنه تسلسل « بنو قسي » أصحاب الثغر الأعلى الذين سئلناهم كثيراً على طول تاريخ المسلمين في الأندلس^(٤) ثم تابع طارق سيره ، واستولى على أمايا واشترقة وليون^(٥) .

٢٧. أقصى ما وصلت إليه فتوح المسلمين في إسبانيا
وسار موسى نفسه على الضفة الشرقية للإبرو في إقليم قشتالة ، فأطاعه معظم من مر بهم من رؤساء هذه الناحية . وقد لقي بعض المقاومة عند قرية تسميها المراجع بارو - أو بازو - في مقاطعة فالبادوليد (بلد الوليد) الحالية^(٦) ، ولم يلبث أن تغلب عليها وسار متابعاً فتوحه . وبدلاً من أن

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ج٢ ، ص ١٣٧ .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٧٤ .

(٣)

(٤) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٦٣ .

(٥) الأخبار المجموعة ، ص ٢٨ . وقد جعل هذا المرجع فتح هذه الحصون الثلاثة في سنة ٧١١ ، وهو خطأ واضح ، وقد بيناه في حينه .

(٦) كتبها المقرئ بارو وبازو ، وقد ظن بعضهم أن المراد بذلك فيزيو (Viseu) ولكن نظرة على الخريطة تدل على أنه من العسير أن يصل موسى إلى فيزيو من هذه الناحية في هذا الوقت القصير . وقد حقق موقعها ساندرا وقرر أن المراد بها فلباروز (Villabaruz) وبهذا تكون صحة الاسم الذي أوردته المقرئ باروز .

نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٧٤ .

يعرج على اشترقة ليلتقى فيها بجيش طارق ، انحرف إلى الشمال واخترق باب تارنا (Tar-na) وسار متابعاً مجرى نهر النالون (Nalón) ثم حط رحاله عند قلعة يسميها المقرى لُك (Lucus Asturum الرومانية و Maria de Lugo اليوم) غير بعيد من أيبط (Oviedo) ، وما زال بها حتى سواها بالتراب وفرَّ من كان بها إلى مكان قاصٍ من الشاطيء يسمى الصخرة (Picos de Europa) . ثم سار بنفسه حتى بلغ خيخون (Gijón) وأقر فيها حامية ، وجعلها حصناً لما فتحه من البلاد في هذه النواحي البعيدة ، ثم بعث سرية من فرسانه أدركت البحر عند صخرة بلاى (Pena de Pelayo)^(١) .

فإذا أدركت خيل موسى البحر من الشمال أحس أنه فتح شبه الجزيرة كله ولم يعد هناك معنى للاسترسال في السير ، وكان موسى يترك في كل قلعة يفتحها حامية من المسلمين ، فتفرق جنده وطال السير بمن بقي معه منهم ، ونال منهم الجهد فمالت نفوسهم إلى العودة ، فاكنتى موسى بوصوله إلى خيخون ، وأزمع العودة غير عالم أن نفراً كبيراً من القوط قد تراجعوا أمامه واحتموا في نواحي أشتريس وجليقية . وكان المسلمون يحسبون أنهم قضوا على القوط حتى لم يبق منهم إلا ثلاثون رجلاً^(٢) .

والواقع أن من بقى من القوط إذ ذاك كان قليلاً ، ولو لم يشتغل العرب بعد ذلك بحروب ومنازعات قبلية فيما بين أنفسهم لاستطاعوا الالتفات إلى هذه البقية الباقية من الأرض والناس ، ولكنهم شغلوا بأمور أنفسهم كما سرى ، فاستطاعت هذه الحفنة القوطية أن تظمن في هذه النواحي القاصية القاحلة ، وأن تنمو لتستهزئ في المسلمين كل فرصة تسنح ، وكانت معظم الحاميات التي خلفها المسلمون من البربر ، وكان أكبرها حامية استقرت في خيخون على الغالب يقودها زعيم بربرى سيكون له شأن ، هو « مونوسة » .

(١) هكذا وصل المسلمون إلى أقصى نقطة من أشتريس أدركوها في أيام موسى في دفعة الفتح الأول ، واليك عبارة المقرى بهذا الصدد نوردتها لأهميتها : « ... ومشى معه (أى مع مغيبث) حتى بلغ المغازة فافتتح حصن بازو وحصن لُك ، فأقام هناك وبعث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاى على البحر الأخضر ، فلم تبق كنيسة إلا هدمت ولا نافوس إلا كسر ، وطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية وسكنت العرب المغاوز ... » .
المقرى : نفع الطيب ، ج١ ص ١٧٤ - ١٧٥ :

SAAVEDRA, Op. cit. p. 117.

(٢) عيسى بن أحمد الرازى برواية المقرى : نفع الطيب ، ج٢ ، ص ٦٧١ - ٦٧٢ .

فإذا انتهى موسى في فتحه إلى هذا الحد القصي فقد كان لابد أن يعود ، لا إلى طليطلة أو قرطبة فقط . بل إلى دمشق رأساً . فقد كان مغيب رسول الخليفة يتعجله ، وكان الوليد معجلاً عليه لا يريد أن يتمهل ، حتى لتذهب الروايات إلى أنه بعث إليه رسولاً آخر اسمه أبو نصر لقيه في « لُك » فأخذ بعنان فرسه وأمره بالعودة ، وذلك أمر مستبعد ، لأن مغيباً وصل وموسى في سرقسطة في أوائل الربيع ، ولما تنقضى على وصوله ثلاثة أشهر ، ولا يتفق أن يكون الخليفة قد استطال هذه المدة القصيرة فأرسل يتعجل ، وربما كان « أبو نصر » هذا كنية لمغيب كما يظن جايانجوس^(١) .

أخذ موسى في طريق العودة في أواخر سنة ٩٥هـ (متتصف صيف ٧١٤م) وكان مغيب قد خف للقائه ، فالتقيا بنواحي ليون ، وهناك أدرکہها طارق عانداً من اشترقة ، وساروا جميعاً فاخترقوا فج موسى (Valmaza) في طريقهم إلى طليطلة . ولم يقم موسى في طليطلة شيئاً وإنما مضى مجدداً حتى دخل قرطبة ولقي فيها نفرأ من كبار جنده ، ثم مضى إلى إشبيلية حيث ركب البحر ومعه طارق ومغيب وكبار الجنند في ذى الحجة سنة ٩٥هـ ، وكان معهم يليان . وتذهب المراجع إلى أنه اصطحب معه ثلاثين ألف رأس من الأسرى ، وهذا أمر لا يصدق ، نظراً لما يحتاجه مثل هذا العدد العظيم من العدة حتى يمكن نقله هذه المسافة الطويلة من الأندلس إلى دمشق ، والغالب أن عدداً قليلاً جداً من هؤلاء رافق موسى في رحلته ، وأما الباقي فقد ترك في المزارع يزرعها . ونكاد نتفق مع ابن قتبية الذي يذكر أن موسى دخل دمشق ومعه ثلاثون من خيرة أسرى القوط ، ألبسهم أفخر الثياب وسارهم في موكبه ليدل على عظم الفتح الذي قام به ، وكان موسى ميالاً إلى مثل هذه المظاهر^(٢) .

٢٨. عودة موسى وطارق إلى المشرق

بارح موسى الأندلس في ذى القعدة سنة ٩٥هـ (سبتمبر ٧١٤) ووصل مصر في السابع من ديسمبر ، وبلغ دمشق في السادس عشر من يناير سنة ٧١٥م أي قبل وفاة الوليد بأربعين يوماً ، وكان سليمان بن عبد الملك قد أحس باقتراب منية أخيه فكتب إلى موسى يأمره بأن يترث حتى يصل بعد

(١) المقري : نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٧٢-١٧٣ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٣٣ .

المقري : نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٩٣ .

الرازي : (في الجزء الإسباني الذي نشره جايانجوس) رقم ١٤ .

فتح الأندلس ، ص ١٩ .

ابن قتبية : الإمامة والسياسة ، ج٢ ، ص ١٥٨ .

موت عبد الملك ، فتزول الذخائر التي كان يحملها معه إلى سليمان . ولكن موسى لم يشأ أن يترث ، ووجد الحجى في أن يسير سيره العادى ، فإن وصل والوليد حتى كانت الغنائم له ، وإلا فهى لمن يخلفه بالحق والعدل .

وكان ركب موسى في عودته ركب قائد مظفر أوسع الله عليه في الخير والمغانم ، فكان لا يلقى أحداً إلا أعطاه شيئاً ، ولستنا نعلم على وجه التحقيق من أى مال كان يعطى ، ولكن الذى نعلمه أن أحداً من الفاتحين المسلمين لم يبلغ هذا المبلغ من السخاء وكثرة الهبات^(١) .

وصل موسى دمشق قبل وفاة الوليد بأربعين يوماً ، فأذهل الناس بما أتى به من الخيرات والمغانم ، بل يُجمع المؤرخون على أن أحداً من الفاتحين المسلمين لم يعد بغنائم تشبه - بعد فتح فارس^(٢) - غنائم موسى ، ولكن الظاهر أن قلب الوليد كان متغيراً على موسى تغيراً لا سبيل إلى إصلاحه ، فلم يحسن لقاءه ، ثم لم يلبث أن لقي ربه ، وخلفه أخوه سليمان وهو أشد من أخيه غضباً على موسى لما كان منه معه ، ولهذا كان طبيعياً أن لا ينتظر موسى خيراً كثيراً ، وأن يدرك أن أيام مجده وعزه قد مضت مع أمس الدابر .

بيد أننا نستبعد صحة ما يبالغ فيه المؤرخون من أفاعيل سليمان بموسى ، نعم إن مغيباً الرومى لم يدخر وسعاً في تشويه سمعة الفاتح العظيم ، وصحيح أن قالاته لقيت قبولاً من آذان أولى الأمر في عاصمة الخلافة ، ولكن الإنسان يستبعد ما يقال من أن سليمان كان يقيم موسى في الشمس حتى يكاد يغمى عليه من شدة التعب والجهد ، أو أنه ألزمه أن يطوف بالقبائل محروساً يستجديها ما لا يفتدى به نفسه ، حتى لقد كان يستجدى الدرهم والدرهمين « فيفرح بذلك ليدفعه إلى الموكلين به فيخففون عنه من العذاب »^(٣) ، لأن سليمان لو كان قد أنزل بموسى هذه المساءات لما ترك ولديه واليين على إفريقية والأندلس ، ولأن موسى كان أثيراً على نفس يزيد بن المهلب وزير سليمان بن عبد الملك وصاحب الأمر في دولته .

وكل ما نستطيع قبوله هو أن سليمان أهمل موسى وتركه في زوايا النسيان ، وما نظن أن رجلاً كهذا كان يمكن عقابه بأقسى من ذلك ، فقد فتح الفتوح ومصرّ الأمصار وكان حقيقاً

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ١٥٨ ، وما بعدها .

(٢) المقرئ : ج ١ ، ص ٧٧ .

(٣) المقرئ : فتح الطيب ، ج ١ ، ص ١٨٠ .

بأن يعود إلى ما فتح لينظمه أو ليزيد فيه . ولا نزاع في أن موسى كان على نية مواصلة الفتح إذا عاد ، فحُرِّم مسلمو الأندلس من هذه القوة الدافعة التي وصلت إلى شاطئ خليج بسكاية في عام وبعض عام ، وأصاب بقايا القوط الفرصة التي كانوا في أشد الحاجة إليها ليستريحوا بعد طول جهد ، وليستعدوا للصراع الطويل مع المسلمين من جديد^(١).

خرج موسى من الميدان وعاش بقية حياته في ظلال النسيان لا نكاد نسمع من أخباره شيئاً ، ولا تحدثنا المراجع بشيء عنه بعد ذلك حتى موته بعد ذلك بقليل سنة سبع وتسعين أو تسع وتسعين وهو في طريقه إلى الحج في رفقة سليمان^(٢) ، وإذا عرفنا أن سنه كانت قد تجاوزت الثمانين عند وفاته لتبيننا أن الرجل كان قد قارب الثمانين حين عاد من الأندلس ، فلا يستبعد أن يكون سليمان قد لاحظ سِنَهُ العالمة فاستحسن أن يحمله من العمل وأن يبقى ابنه مكانه في إفريقية والأندلس ، فبقى الفاتح العظيم في صحبة الخليفة حتى مات في ركابه كما رأينا .

ومهما يكن الجزاء الذي لقيه موسى على يد سليمان فإن الإنسان لا يسعه إلا أن يقرر أن الخلافة لم تعرف فضله ولم تجزه الجزاء الذي كان يستحقه ، فقد فتح للإسلام فتوحاً تضعه في الصف الأول من رجال الإسلام الأول ، وكانت له سياسة وقدرة تدفع الإنسان إلى أن يقرر في غير تردد أن هذا الرجل هو واضع أساس ما أدركه المسلمون من سلطان وحضارة في غرب البحر الأبيض المتوسط ، لأن فتح الأندلس كان أمراً لا بد منه حتى يطمئن المسلمون على فتوحهم في الشمال الإفريقي ، ولو لم يُفتح الأندلس لاستمر المغرب الإسلامي مهدداً بجموع النصرانية . هذا إلى ما كان لهذا الفتح الأندلسي في ذاته من القيمة والأثر مما يغني عن كل حديث .

قال المقرئ : « ... فقد كان له من الأثر ما يوجب أن يترحم عليه . وإن فعل سليمان به وبولده ، وكونه طرح رأس ابنة عبد العزيز الذي تركه نائباً عنه بالأندلس - وقد جرى به من أقصى المغرب - بين يديه ، من وصاياته التي تعد عليه طول الدهر ، لا جرم أن لم يمتعه الله بعده بملكه أو بشبابه »^(٣).

(١) انظر تفاصيل ذلك في نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٩ وما بعدها .

(٢) وتختلف الروايات حول ذلك الموضوع ، فيذهب الحجارى وابن بشكوال أن موسى توفى بوادي القرى في أسوأ حال .

انظر المقرئ : نفع الطيب ج ١ ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٣) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٨١ .

وتصمت الرواية الإسلامية كذلك عن طارق صمتاً كاملاً، ولسنا نفهم لهذا سبباً إلا ما يقال من أن مغياً وشى به هو الآخر وخوف الخليفة منه، وكان هذا يريد أن يوليه الأندلس بعد موسى. والحق أن مغياً الرومي أساء إلى قانديه إساءة كبرى، وربما كان دافعه إلى ما افتراه على طارق هو طمعه في ولاية الأندلس، ولكنه على كل حال لم يفز من ذلك بشيء؛ لأنه عاد إلى الأندلس فيما بعد ليعيش في «بلاطه» وأملاكه، ولكي ينجب بنين سيكون لأحفادهم شأن عظيم في تاريخ الأندلس الإسلامي^(١).

وإذا كنا لا نأسف كثيراً على حرمان موسى من ثمرات فتوحه، لأنه في الواقع قد استمتع من هذه الثمرات بما فوق الكفاية، فإن المؤرخ لا يسعه إلا أن ينظر بعين الأسف إلى هذه الحجب الكثيفة التي أسدلت على بقية حياة طارق، هذا المسلم الإفريقي المجيد الذي لا تسجل الرواية الإسلامية عنه إلا خيراً. ولكن إهمال المؤرخين أمره لم يحرمه من نصيبه من الخلود، فقد أرادت المقادير أن تحمل اسمه أول بقعة من الأندلس وطنتها قدماءه، وأن تنتقل هذه التسمية بصيغتها العربية معرفة تحريفاً بسيطاً إلى اللغات الأوروبية جميعاً، وتريد المقادير كذلك أن تكون هذه البقعة بالذات من المواضيع التي سيشغل ذكراها الناس على مر العصور، لأسباب وعلى صورة لم تكن تدخل في حساب طارق، فلا يزال الناس من ذلك الحين يتحدثون عن جبل طارق أو جبر النار، ويدفعهم هذا الذكر إلى البحث عن طارق وأخباره.

٢٩. استكمال لم توقف عودة موسى وطارق نشاط المسلمين في الأندلس، فقد بقي فيه نفر الفتح من الأجناد استمروا يواصلون العمل لإكمال ما بدأوا به، فتذكر الأخبار المجموعة أن سنة ٩٥ هـ شهدت فتح كثير من بلاد الأندلس على يد المسلمين دون أن تذكر هذه البلاد، ويذكر ابن الفرضى أن نعمان بن عبد الله الحضري عاد إلى الأندلس بعد مرافقته موسى إلى دمشق، واشترك في الجهاد ومات في سبيل الله، واستمر التابعيان على بن رباح وحنش الصنعاني في سيرهما بجند المسلمين نحو الشمال حتى فتح الله عليها بنبلونة في أواخر سنة ٩٥ هـ (٧١٤م). ويذكر ابن خلدون أن المسلمين افتتحوا برشلونة بعد ذلك بقليل، دون أن يستطيع التأكد من صحة أخبار هذه الفتوحات^(٢).

(١) المقرئ: نفع الطيب، ج١، ص ١٧٥.

جايانجوس: ترجمة نفع الطيب ج٢، ص ٣٩٩.

(٢) ابن الفرضى: تاريخ علماء الأندلس، ج٢، ص ٢٩ و ج١، ص ١٠٩، ٢٥٦.

المقرئ: نفع الطيب، ترجمة جايانجوس، ج٢، ص ٢٦٠.

وكان ينبغي أن نقف بقصة الفتح عند هذا الحد ، لأن ولاية عبد العزيز بن موسى تبدأ عصر الولاة الذي سنتناوله في الفصل التالي ، ولكن بقيت من الأندلس نواح واسعة في الشرق لا بد من استقصاء أخبار فتحها أو دخولها في طاعة المسلمين حتى نستطيع القول بأننا قد فرغنا من أخبار فتح المسلمين للأندلس تماماً .

كان عبد العزيز بن موسى فاتحاً نشيطاً ، فقد كانت له يد طولى في فتوح إفريقية ، وقد رأيناه ملازماً أباه مشاركاً إياه في كل عمل قام به في الأندلس ، ثم رأيناه بعد ذلك يقود جيشاً سار إلى إشبيلية ليخمد ثورتها التي قام بها أهلها على المسلمين في سنة ٧١٣ م ، وأقام عبد العزيز بعد ذلك في هذه الناحية مواصلاً الفتوح في نواحي الغرب ، ففتح يابرة وشنترين وقلمرية خلال سنة ٧١٤ في الغالب .

ولم يكد عبد العزيز يستقر في ولاية الأندلس حتى نشط لإخضاع جنوب شرقي شبه الجزيرة الذي لم يصل إليه أحد من المسلمين حتى ذلك الحين ، وكان عبد العزيز قد استقر برجال حكومته في إشبيلية ، فظل هذا البلد عاصمة للأندلس الإسلامي طوال حكمه ^(١) .

بدأ عبد العزيز بفتح مالقة ^(٢) التي أسلمها حاكمها إلى المسلمين دون كبير تدمير ٢٠٠٠ عناء ، ثم قصد غرناطة ، ويقال : إن حاميتها كانت من اليهود ففتحوا للمسلمين أبوابها دون مقاومة ^(٣) ، ثم أجه عبد العزيز إلى إقليم مرسية حيث كان يحكم قائد قوطى يسمى تدمير (Teodomiro) ويذهب سافدرا إلى أنه ابن (Ergobado) ^(٤) أحد

(١) ذكر المقرئ في نفع الطيب سبب استقرار عبد العزيز في إشبيلية واتخاذها عاصمة له ، وهو رغبته في أن يظل على اتصال مستمر بإفريقية ، وكانت إشبيلية ميناء كبيراً يسع السفن الكبيرة ، ولم يكن جبل طارق كذلك .

(٢) يذهب المقرئ أن مالقة فتحت أيام موسى ، وأنه أرسل ابنه عبد الأعلى في بعث حاصرها وكادت تستعص عليه لولا أن حاكمها وقع في يد المسلمين نتيجة لعدم حرصه فلم تلبث المدينة أن سلمت . وهذه تفاصيل طريفة ، غير أننا نستبعد أن تكون مالقة قد فتحت في أيام موسى وعلى يد ابنه هذا ، لأننا نعرف أن هذه الحملة قادها عبد العزيز بن موسى بنفسه عقب رحيل أبيه .

المقرئ : نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٧٤ .

(٣) أحمد الرازى : روى ذلك ابن الخطيب . انظر :

CASIRI. Bibliotheca, II p. 105 .

(٤) قال الضى في بغية الملتبس : إن اسم تدمير كان تدمير بن غيدوش ، ويؤيد أحمد بن أس العذرى ذلك في « نظم المرجان » ، ويقول سافدرا بأنه لا بد أن يقرأ غوبادوش أو جوبادوش Gobados ، وأن هذا الاسم هو Ergobados وكان من أسماء القوط المشهورة المتداولة .

الضى : بغية الملتبس ص ٢٦٩ و ٣٣٧ و ٤٠٠ .

كبار قواد غيطشة ، وإلى أن تدمير هذا كان رجلاً نصرانياً حسن العقيدة وأنه كان مثقفاً استطاع بفضل وعلمه أن يكسب احترام المسلمين بل احترام الخليفة نفسه حينما سار إليه فيما بعد ليشكو إليه غبناً أصابه من عامل الأندلس^(١) .

ويذهب الرازي إلى أن تدمير دخل في طاعة المسلمين من أول الأمر ، دون أن يسلم ، وأنه قاد جماعة من المسلمين سارت لفتح استجة^(٢) ، ولكن الغالب أن الرازي أخطأ في ذلك ؛ لأنه يذكر أن المسلمين ساروا بعد ذلك لفتح أورويولة (Orihuele) التي كانت إذ ذاك عاصمة إقليم مرسية وكان فيها مقام تدمير ، والغالب عندنا كذلك أن تدمير لم يفعل شيئاً لمقاومة المسلمين ، مثله في ذلك مثل غيره من أنصار غيطشة ، وبقي مكانه يرقب الحوادث حتى سار إليه المسلمون بقيادة عبد العزيز في أول ولايته سنة ٩٥هـ على ما روينا^(٣) ..

فلما اقترب عبد العزيز وجنوده من بلاده تخوف وفكر في أن يحتمي منهم ، وتذهب المراجع النصرانية إلى أنه استطاع رد جيوش المسلمين مهزومة مرتين^(٤) ، أما المراجع العربية فتكتفى بقصة - موضوعة في الغالب - تدل على ذكاء تدمير وفطنته ، فنذكر أنه احتال على المسلمين ليحصل منهم على شروط حسنة ، « فأمر النساء فنشرن شعورهن وأعطاهن القصب وأوقفهن على سور المدينة ، وأوقف معهن بقية من بقى من الرجال في وجه الجيش حتى عقد على نفسه ، ثم هبط بنفسه كهيئة الرسول ، فاستأمن فأمن ، فلم يزل يراوض أمير ذلك الجيش حتى عقد على نفسه الصلح وعلى أهل بلده ، فصارت تدمير صلحاً كلها ليس منها عنوة قليل ولا كثير ، وعاملهم على ترك أمواله في يديه ، فلما فرغ أبرز لهم اسمه وأدخلهم المدينة ، فلم يروا فيها أحداً عنده مدفع ، فندم المسلمون ومضوا على ما أعطوه...»^(٥) .

ولسنا نستطيع أن نقبل هذه القصة على علاقتها ، ولسنا نستطيع كذلك أن نقر المراجع

(١) إيزودور الباجي ، رقم ٣٨ .

(٢) الرازي ، طبعة جاينانجوس ، ص ٤ .

(٣) وانظر أيضاً :

(٤)

(٥) الأخبار المجموعة ، ص ١٣ .

ابن عذارى : البيان ، ص ١٣ .

SAAVEDRA. Op. cit. pp. 88-89.

SAAVEDRA. Op. cit. p.127 .

اللاتينية على ما تذهب إليه من هزيمة تدمير للمسلمين مرتين متواليتين^(١)، وليس من المعقول كذلك أن تدمير سلم دون مقاومة أصلاً، لأنه لو كان فعل ذلك لما حرص المسلمون على إعطائه شروطاً خاصة . وكل ما نستطيع قوله هو أن تدمير كان صديقاً للمسلمين من أول الأمر ، لأنه كان من أنصار غيطشة الكارهين للذريق وأمره^(٢)، وربما حسب أن المسلمين تاركوه وشأنه ، وربما يكون قد تفاهم مع موسى أو طارق على شيء من ذلك ، فلما وجد عبد العزيز يسير إليه ويقرب من بلاده أبدى من المقاومة ما أشعر المسلمين أن بلاده لن تُفتح من غير عناء ، وكان المسلمون مجهدين بعد هذه الحروب المتصلة ، وكانوا يودون لو فرغوا من هذا الكفاح المتصل حتى تناح لهم الفرصة لتنظيم شؤون البلاد ، فانتهاز الفرصة وأقبل يفاوض المسلمين في شروط التسليم ، واستطاع أن يحصل على ما ضمن له بقاء شيء من السلطان في بلاده ، وإن كانت الشروط نفسها لا تختلف في كثير عن معاهدات الصلح الكثيرة التي عقدها المسلمون في ذلك العصر .

وقد احتفظت لنا المراجع بنص هذا الصلح على خلاف ما فعلت بالكثير من أمثاله : أورد الضبي نصه العربي وأورد الرازي صورة إسبانية منه وترجمه ميخائيل الغزيري إلى اللاتينية ، وأثبته في فهرسه المعروف للمخطوطات العربية في الإسكوريال، وهذه هي الوثيقة نقلاً عن الضبي :

« نسخة كتاب الصلح الذي كتبه عبد العزيز بن موسى لتدمير بن عبدوش :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز إلى تدمير

أنه نزل على الصلح ، وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عنه ملكه ، ولا أحدأ من النصراري عن أملاكه ، وأنهم لا يُقتلون ولا يُسيون ، أولادهم ولا نساؤهم ، ولا يُكروهون على دينهم ، ولا تحترق كنائسهم ما تعبد (كذا ، وصحتها تقيد) وما نصح ، وأن الذي اشترط عليه أنه صالح على سبع مدائن : أوريولة وبلتيلة ولقنت ومولة وبقسرة وأنه ولورقة^(٣) ، وأنه لا يأوى لنا عدواً ، ولا يخون لنا أمناً ، ولا يكتم خبراً علمه ، وأنه عليه

(١) انظر مثلاً : إيزودور الباجي ، فقرة ٣٨ أسطر ٩٧٠ - ٩٧٣ .

(٢) يُهم هذا من قول بعض المؤرخين إن طارقاً بعث تدمير في جيش ففتح استبجه .

(٣) هذه المدن السبع التي عاهد عليها تدمير هي :

وعلى أصحابه دينار كل سنة ، وأربعة أمداد قمح ، وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط طلا ، وأربعة أقساط خل ، وقسط عسل ، وقسط زيت ، وعلى العبد نصف ذلك . كُتِبَ في رجب من سنة أربع وتسعين من الهجرة .

شهد على ذلك عثمان بن أبي عبدة القرشي ، وحبيب بن عبيدة الفهري ، وعبد الله بن ميسرة الفهمي ، وأبو قائم الهذلي^(١) .

لو أخذنا بظاهر نص هذه الوثيقة لقلنا إن عبد العزيز اعترف لتدمير بالاستقلال في نواحيه ، وأن موقف هذا الأخير من المسلمين كان موقف المعاهد الذي يدفع الجزية ، فلم يكن للمسلمين حتى دخول بلاده ولا التدخل في شؤون إدارتها . ولم تكن المنطقة التي عاهد عليها الرجل بالصغيرة ولا القليلة الأهمية ، لأن المدائن السبع التي عاهد عليها ترسم صلياً يضم في محيطه كل جنوب شرقي شبه الجزيرة ، فكيف يتفق أن يسلم المسلمون في هذا الجزء الهام من البلاد دون حرب ، ولمجرد أن تدمير ضمن لهم الجزية وعاهدهم على الصدق والنصح معهم ، مع أنهم كانوا مستطيعين أن يأخذوا الإقليم كله كما أخذوا بقية شبه الجزيرة؟

لا نستطيع أن نفهم ذلك الصلح إلا على تفسير واحد ، وهو أن الأمان انصب على المدائن السبع وحدها دون الإقليم ، ولم تكن هذه المدائن كبيرة إذ ذاك بل كانت حصوناً ، فأقر المسلمون تدمير على ملكيتها على أن يؤدي عن أهلها الجزية^(٢) . ودليلنا على ذلك أن

= أوربولة وهي Orihuela

بلنطة ، وقد وردت في الرازي Valencia وهو خطأ ، وأوردتها الغزيري Valentia ، وقد أثبت سافدرا أن قرية قديمة بهذا الاسم كانت توجد على مترية من بلدية Alcantarilla الحالية على خمسة كيلو مترات من مرسية ، وأن النهر الذي بهذه البلدية الأخيرة كان يسمى في القديم وادي فالنتيلية وقد تحول مع الزمن إلى Guadalentín .

لقنت ، وهي Alicante

مولة ، وهي Mula

بقسرة ، وهي Begastro بلدية على مقربة من Cehegin

أنه ، وهي Amaya على مقربة من دير San Ginés القديم المتهدم في إقليم مرسية .

لورقة ، هي Lorca

راجع الملاحظات القيمة التي أوردتها سافدرا ، ص ١٢٨-١٢٦ والمواش .

(١) انظر : الضبي : بنية المناس ، ص ٢٥٩ .

الرازي : الترجمة الإسبانية ، فقرة ١٢ .

(٢) اختلف سافدرا وبروفنسال حول المراد بعبارة : « وأن لذي اشترط عليه أنه صالح على سبع مدائن ... » الواردة في

ذلك العهد ، فترجمها سافدرا :

العرب سيتوغلون في جنوب شرقى الجزيرة وسيستقرون في بعضها دون حرج ، ثم إن العهد لم ينص على أن هذه الشروط تسرى على أولاد تدمير من بعده ، أى أنها كانت له وحده طول حياته ، فكان عبد العزيز أقر هذا الرجل المصادق للمسلمين على بعض بلاده التى كان يملكها تأكيداً لودّه وتسكيناً لخواطرها من كان يعيش فيها من النصارى .

ولا محل إذن لما يزعمه بعض مؤرخى الإسبان من أن تدمير تصدى للعرب وأوقفهم خارج حدود إقليمه كله ، وأنه أقام هناك كالأمر المحالف معالفة الند للند . ولم يخسر المسلمون بهذا شيئاً ، لأن جنوب شرقى الأندلس لم يظل خارجاً عن سلطانهم بل دخل في طاعتهم أسوة بغيره من نواحى شبه الجزيرة ، ولأن تدمير كان في « ذمة » المسلمين شأنه في ذلك شأن غيره من النصارى الذين دخلوا في طاعة المسلمين إذ ذاك . وكان موقفهم موقوف مالك إقطاعى من صاحب البلاد كلها : له سلطان شبه مطلق على النواحى التى يشملها إقطاعه ، ويظل في هذا الإقطاع ما ظل على الطاعة والصدق وما أدى الواجبات الإقطاعية من مال ومساعدة وقت الحرب وغير ذلك^(١).

بقيت ملاحظة صغيرة عن تاريخ هذه المعاهدة الوارد في نصها ، فقد جعل بعض المؤرخين ذلك في سنة ٩١ هـ وذهبوا إلى أنها تمت في عهد طارق بن زياد ، وجعلها بعضهم سنة ٩٢ هـ . وهذان فرضان غير معقولين ، فإن الوثيقة صريحة بأنها عقدت على يد عبد العزيز ، وأنه عقدها بصفته عامل الأندلس ، ولو كان عقدها في حكومة أبيه لأشير إلى ذلك

“ .. Y queda libre en las siete ciudades de .. ”

أى : أن المسلمين تعهدوا له بأن يتركوه حراً في هذه المدن السبع .
وأما برونسال فقد ترجمها هكذا :

“La paix lui est accordée moyennant la remise des sept villes suivantes ...”

والترجمان فيها نرى غير دقيقتين : فإن المراد من أن الرجل صالح على هذه المدن السبع هو أنه سلم بأنها دخلت في طاعة المسلمين دون حرب ، ولكنهم لم يحتلوها بل اكتفوا بالمعهد الذى أخذوه على صاحبها ، وبما تعهد به من سداد ما على أهلها من الجزية ، فهم لم يتركوه حراً كما يقول سافندرا ولم يتسلموا البلاد منه كما يقول برونسال ، وإنما اعترف الرجل بأن البلاد للمسلمين وأقام الكاتب عنهم فيها يحكمها باسمهم .

Cf.: SAAVEDRA. Op. cit. p. 129 .

LEVI-PROVENCAL. Histoire de L'Espagne Musulmane, I, p. 28.

وترجمة سافندرا لهذه الوثيقة مليئة بالأخطاء ، وفيها زيادات .

(١) هذا واضح من قول إيزودور الباجى :

Theudimer. qui in Hispaniae partibus non modicas Arabum intulerat neces et diu exagitatis pacem cum eis Foederat habendam . Cf.: no.38.

وقد ورد النص في الضمان التى ألحقها لانويتى الكاترا بترجمته للأخبار المجموعة ، ص ١٤٩ .

في صليها . فإذا صح ذلك كان من المسور أن نشك في التاريخ الذي تورده الوثيقة في نصها . فهي تذكر رجباً سنة ٩٤هـ ، ورجب هذا يقع في أبريل سنة ٧١٣م ، فلو ذكرنا أن عبد العزيز فتح في هذه الغزوة - وقبل وصوله إلى بلاد تدمير - حصنين كبيرين هما غرناطة ومالقة ، ولا بد كذلك أن شيئاً من الوقت قد ضاع في المحادثات مع تدمير حتى تم الاتفاق معه ، إذا حسبنا لذلك كله ثلاثة أشهر كان من الضروري أن يكون عبد العزيز قد خرج بهذه الغزوة في يناير أو أوائل فبراير على أكثر تقدير ، وهذا وقت لم تجر العادة بالخروج للغزوة فيه في تلك العصور .

وأسلم الآراء في هذا الموضوع هو أن نضع تسليم تدمير - وهو آخر حلقة من حلقات فتح المسلمين للأندلس - في أوائل سنة ٩٦هـ (٧١٤م) لأن موسى لم يبرح البلاد إلا في ذي قعدة سنة ٩٥هـ .



هكذا تم فتح الأندلس بعد حرب عنيفة وجهد متصل داما أربع سنوات إلا أشهراً: بدأ الفتح في رجب سنة ٩٢هـ وانتهى في أوائل سنة ٩٦ هجرية ، وقد فتح المسلمون خلال تلك السنوات القلائل هذه الجزيرة الضخمة من أقصى الجنوب إلى جبال البرت وشاطئ البحر في الشمال ، ومن مالقة وطركونة في الشرق إلى قلمرية وأشبونة في الغرب ، واستولوا فيها على سهول الجنوب وعلى مرتفعات قشتالة ونواحي الجوف (استرامادوره) القاحلة ، ولم يغادروا بلداً عظيماً أو حصناً هاماً إلا رفعوا عليه راية الإسلام وأدخلوه في حوزة الدولة الإسلامية الكبرى . ولو لم تكن البراهين ثابتة على تمام الفتح في هذه المدة القصيرة لما صدقه أحد ، لأن شبه الجزيرة الأندلسية قطر عسير فسيح لا يسهل على أحد فتحه أو إخضاعه ، وقد وفق العرب إلى ذلك في نظام وسياسة ينبغي أن نسجلها لمن قاموا به .

ومهما بلغ المؤرخ من الثناء على طارق فإنه لا يستطيع وفاء حقه ، ولو فكر الإنسان في الأمر لحظة لاستخرج من حياة طارق وأعماله سرّاً من أسرار قوة الإسلام وناحية من نواحي امتيازته . فطارق هذا رجل مغربي بربري لم يكن ليصبح - بغير الإسلام - إلا قائداً خاملاً لجماعة من البربر منسيين في ركن من أركان الأطلسي ، فجاء الإسلام فجعل منه قائداً فاتحاً وسياسياً محتكاً يقود الجيوش ويفتح الأمصار ويوقع المعاهدات في قدرة وكياسة جديرتين

بالإعجاب ، فلو لم يكن للإسلام من أثر إلا تكوين أمثال هذا الرجل واستنهاض قومه للعمل الجليل لكفاه ، فكيف وقد بث الإسلام هذه الروح في كل مكان أظلمته رايته ، وكيف وقد فعل هذا في أقصر وقت وحققه على أتم وجه !

الحق أن فتح المسلمين للأندلس معجزة في ذاته ، إذ لا يصدق المرء وهو يتتبع أخبار هذا الفتح أن الذين كانوا يقومون به بهذا النظام وبهذا النظر البعيد إنما كانوا بربراً لم يسبق لهم عهد بالنظام ولا الجيوش ولا المعاهدات ، الحق أن الإسلام قد خطا بمعتقديه خلال القرن الأول بضعة قرون للأمام ، وهذا تاريخ الرومان في إفريقية : لم يُوفَّقوا إلى تحضيرها على نحو يقارب ما فعله الإسلام - ولو من بعيد - بعد بضعة قرون ، فما بالك وقد فعل الإسلام ذلك في نحو نصف قرن ؟

ولو ذكر الإنسان أن موسى أكمل عمل طارق ، وأن عبد العزيز أكمل عمل الاتنين ، لاستبان أن العرب ساروا في فتح هذه البلاد على خطة محكمة لم يكن من الميسور وضع أحسن منها : فقد قُضِيَ على المقاومة واحتلَّت العاصمة في أول وثبة ، ثم اتجهت الهمة إلى إخضاع كبريات مدن الغرب ، ثم احتل المسلمون إقليم سرقسطة وتبعوا فلول المقاومة في معاقلتها في الشمال والشمال الغربي ثم فتحوا أقصى الغرب ، وختم العمل بفتح الجنوب الشرقي . ولو أن مجلساً للحرب من كبار العسكريين اجتمع ليضع خطة لفتح البلاد لما وُفِّق إلى خير من ذلك ، وتلك ناحية ينبغي أن لا تغيب عن ذهن الإنسان وهو يدرس هذا الفتح ، لأنها في الواقع تدل على نبوغ حربى عند هؤلاء المسلمين الأولين .

* * *

الفضل الرابع

عَصْرُ الْوَلَاةِ

فتح المسلمون خلال القرن الهجري الأول بلاد العرب كلها والعراق
 وفارس والشام وجزءاً من آسيا الصغرى ومصر والشمال الإفريقي وشبه
 الجزيرة الإيبيرية ، ولكنهم لم يتكلفوا في فتح قطر من هذه الأقطار مؤونة
 هي أيسر مما تكلفوه في فتح هذا القطر الأخير . فقد سيرت الخلافة
 الجيوش نحو كل قطر من هذه الأقطار وألقت في ميادينها بآلاف العرب
 وأمدتهم بالمؤن والأعطيات ، ولم يتم الفتح في معظم هذه النواحي من غير معارك دامية
 هلك فيها آلاف العرب وانكسرت فيها جيوشهم مراراً عديدة ، ولقى فيها نفر من كبار
 القواد حتوفهم كما رأينا في فتح المغرب . فأما الأندلس فقد احتمل البربر صدمته الأولى ،
 وهلك منهم في واقعة وادى البرباط وحدها ثلاثة آلاف ، وأقبل العرب بعد ذلك مع موسى
 سيرون في البلاد الهونى لا يكادون يلقون عندما يعترضهم من البلاد من المقاومة ما
 يتناسب مع أهمية هذه البلاد ، ولا تكاد ناحية تعجب قوماً منهم حتى يحطوا رحالهم فيها
 ويستوطنوها دون حاجة إلى حاميات أو إقامة حصون ، وما زالوا حتى انتشروا في شبه
 الجزيرة كله ، واستقرت جماعات منهم في نواحي الشمال على مقربة من خليج بسكاية ،
 وجماعات أخرى في أقصى الشمال شرقاً وغرباً^(١) ، بل طمحت بهم الآمال إلى ما وراء
 إسبانيا من بلاد غالة فانساحوا في بطانحتها يفتحون ويستقرون .

ولعلنا لاحظنا أن الخلافة لم تتكلف في سبيل ذلك جهداً خاصاً : لم يبميش الأمويون
 جيشاً واحداً لفتح الأندلس ، ولم يُخرجوا من خزائنتهم درهماً لإعداد حملاته ، إنها فتح
 الأندلس البربرُ وجندُ إفريقية وجندُ مصر^(٢) ، وكانت الأعطيات تدفع من مال إفريقية،

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .

(٢) لم يشر مرجع واحد إلى أن الوليد بن عبد الملك بعث إلى موسى بجيش أو بعداد ، ويذكر الرازى - عن الواقدي عن
 موسى بن رباح عن أبيه - أن موسى خرج « في عشرة آلاف من إفريقية » ، ويقول صاحب فتح الأندلس أن موسى
 « دخل الأندلس ومعه ثمانية عشر ألفاً من قریش والعرب ووجوه الناس » .

انظر ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٥ .

فتح الأندلس ، ص ١٠ .

وهذه ظاهرة ينفرد بها الفتح الأندلسي بين غيره من فتوح المسلمين : لقد وقع للخلافة كالغنيمة الباردة من غير جهد أو مثونة أصلاً .

٣٢. لم تغنم بيد أننا ينبغي أن نقرر أن الخلافة نفسها لم تغنم شيئاً مادياً من هذا الفتح ، الخلافة منه شيئاً إنما غنمه الذين قاموا بفتحها وحدهم : ففي حين أننا نجد الخلافة تهتم - إذا مادياً ما تم فتح بلد - بإرسال عامل يقوم بشؤون الإدارة ، وعامل آخر يشرف على الجبايات وتنظيم الأموال والسهر على حقوق الدولة المركزية ، وترسل قاضياً ينظم القضاء ويقيم العدل باسم الخلفاء ، وبينما نرى سبيل الأموال يتثال على خزائن الخلفاء في دمشق من كل ناحية فتحها المسلمون : من فارس إلى حدود التوبة وسواحل المحيط الأطلسى ، وبينما يحرص المؤرخون أشد الحرص على أن يذكروا لنا مقادير الجبايات ونظمها في كل ناحية ، إذا بنا نجد الخلافة لا تكاد تولى هذا القطر العظيم ولو جانباً سيراً من العناية التي يستحقها : فهي لم ترسل إليه من أول الأمر والياً خاصاً به بل تركته نحو تسع سنين تحت تصرف عامل إفريقية يتصرف في شؤونه كما يريد^(١) وهي لم ترسل إليه عاملاً على المال يحمي نواحيه وأهله ويحمس النواحي ويقرر مقادير الخراج والجزية والجباية ، ويقرر ما ينبغي أن يتفق في البلاد وما ينبغي أن يحمل إلى دار الخلافة ، وهي لم تُعَن كذلك بتنظيم القضاء في الأندلس من أول الأمر ، بل جعلت ذلك من شؤون الولاة ، يعينون القضاة أو لا يعينونهم كما يشتهون^(٢) . وإنه لمن الغريب حقاً أن نلاحظ أن المراجع لا تذكر - ولو مرة واحدة - أن شيئاً من المال قد أرسل من الأندلس إلى المشرق^(٣) ، بل إننا لن نخرج من

(١) ترك موسى بن نصير ابنه عبد العزيز بن موسى والياً على الأندلس حينما عاد إلى المشرق في صفر سنة ٩٥هـ (أكتوبر - نوفمبر ٧١٣م) وخلفه أيوب بن حبيب اللخمي ، وقد أقامه جند الأندلس على أنفسهم ، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي وقد عينه محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان بن عبد الملك . وكان أول وأل أقامته الخلافة هو السمح بن مالك الخولاني ، أقامه عمر بن عبد العزيز في رمضان سنة ١٠٠ (مارس - أبريل سنة ٧١٩م) ولم ترد ولايته عن عاملين وبضعة أشهر ، إذ خلفه عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي في ذي الحجة سنة ١٠٢هـ .

(٢) لم يعين خلفاء بني أمية على الأندلس إلا قاضياً واحداً هو يحيى بن زيد التجيبى ، عينه عمر بن عبد العزيز . أما غير يحيى من قضاة الأندلس قبل قيام الدولة الأموية الأندلسية فكان يعينهم ولاة الأندلس في الغالب ولاة إفريقية في النادر ، وكانوا يسمون قضاة الجند .

انظر الخشتي : قضاة ، ص ٢٧ .

النهاي : المرقية العليا ، ص ٤٢ - ٤٣ .

ومقدمة الترجمة الإسبانية لقضاة قرطبة للخشتي .

(٣) يذكر ابن قتيبة في «الإمامة والسياسة» أن سليمان قرر على موسى ٣٠٠,٠٠٠ دينار ذهباً غرامة ، ولنا نعلم إن كان هذا المبلغ هو ما استحق للخلافة من خراج الأندلس في الفترة التي تولاها موسى ، أو هو خراج الأندلس =

بحثنا إلا بنتيجة واحدة ينبغي أن نقررها حتى يتكشف لنا ما يتقضها : وهي أن الأندلس لم يبعث إلى مركز الخلافة شيئاً من ماله أو من جبايته أصلاً .

وذلك في ذاته وضع غريب ، ويزيد في غرابته أن الأندلس كان بلداً غنياً عظيم الجباية ، وأن الخلفاء كانوا يعلمون مقدار غناه بسبب ما يحمله إليهم غزاته من غنائمه وطرهه ، ولست أشك في أننا سنظل زماناً طويلاً لا نفهم السر الذي جعل الخلافة تُمضى على هذا النحو من التهاون في شؤون الأندلس ، ولسنا نستطيع أن نرد ذلك إلى بُعده عن مركز الخلافة ، لأن الخلافة لم تحاول ولا مرة واحدة بسط سلطانها الموكد عليه ، ولم تطالب مرة - ولو في شيء من اللين - بنصيبها من أمواله وجباياته التي تحت لها وفقاً للنظم المالية والإدارية التي كانت تطبق في دقة في كل ناحية من نواحي الدولة الإسلامية الواسعة إذ ذاك .

ولسنا نستطيع كذلك أن نرد هذه الظاهرة إلى أن جند الأندلس كانوا يستفدون أمواله كلها ، أو أن خراجه كان ينفق على الفتوح فيها وراهه من البلاد ، لأن الواقع أن جانباً عظيماً من عرب الأندلس لم يكونوا جنداً نظامياً تابعاً لديوان الجند في دمشق ، وأن عدد هؤلاء العرب لم يبلغ المبلغ الذي يستفد أموال هذا القطر العظيم الغنى . وأما الحروب فيها وراه البرت فقد كان معظم الغنائم بها من المتطوعة الذين لا تُفرض لهم أعطيات ، وكان ما يقع بين أيديهم من الغنائم من الوفرة بحيث لم يفكروا في مطالبة الدولة بأعطيات^(١) .

كل ذلك يلقي ضوءاً كاشفاً على حقيقة وضع القطر الأندلسي خلال الفترة التي تقع بين تمام الفتح وبين قيام الدولة الأموية على يد عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل سنة ١٣٨ هجرية (سنة ٧٥٦م) ، فهو لم يكن ولاية تابعة تمام التبعية للخلافة المركزية كمصر أو كالشمال الإفريقي مثلاً ، ولم يكن كذلك قطراً مستقلاً تمام الاستقلال ، وإنما كان له وضع خاص بين بين : كان يكوّن جزءاً من الدولة الإسلامية مكملاً لإفريقية داخلاً في طاعة

= وإفريقية معاً ، أو هو نصيب الخلافة في مغانم موسى من الأموال . وهذه الإشارة - على اضطرابها وقلة جدواها - هي الوحيدة التي تتحدث عن مطالبة الخلفاء لأحد من ولاء الأندلس بهال .
ابن فنية : الإمامة والسياسة (طبعة القاهرة سنة ١٩٠٤) ج ٢ ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(١) يذهب بعض المؤرخين إلى أن جند المسلمين الذين كانوا يخرجون للحملات فيها وراء جبال البرت بلغوا ثمانين أو مائة ألف في مواقع مثل طولوشة وبلاط الشهداء ، وتلك تقديرات مبالغ فيها ، إذ الواقع أن جند المسلمين لم يزد في هذه المناسبات عن ستين أو سبعين ألفاً أكثر من ثلاثة أرباعهم من البربر ، والبربر - أي بين خمسة عشر وعشرين ألفاً - كانوا من العرب . هذا وقد كان العرب وحدهم هم أصحاب الحق في فروض الديوان ، أما البربر فلم يكن يفرض لهم رزق ، وسنرى أن ذلك سيكون من أسباب ثورة البربر على العرب .

الخلفاء ، يخطب لهم على منابرهم ، ولم يزد سلطان الخلفاء فيه على هذا اللون الضعيف من ألوان التبعية إلا قليلاً كما سنرى ، وسنحاول فيما يلي من هذا الفصل أن نزيد هذا الأمر وضوحاً .

٢٣. هجرة العرب إلى الأندلس
 وظاهرة أخرى لا تقل غرابة ولا أهمية عن هذه : هي هجرة العرب إلى الأندلس وسكناتهم نواحيه ، ولسنا نقصد بذلك جماعات العرب الفاتحة ، وإنما جماعات المهاجرين المسلمين الذين أقبلوا إلى الأندلس بعد الفتح واستقروا في نواحيه دون أن نحدثنا المراجع عنهم بشيء يتقع الغلة ، فقد رأينا أن عدد العرب الذين أقبلوا مع موسى لم يزد على ثمانية عشر ألفاً ، وسنلاحظ أن بضعة آلاف أخرى ستقبل خلال العشرين سنة التالية شيئاً فشيئاً ، وسنرى أن موجة أخرى لا يزيد عددها على عشرة آلاف ستقبل مع بلج بن بشر ، فإذا أخرجنا من ذلك أعداد من لقي مصارعه في فتح البلاد وما وراءها من نواحي غالة ، وأعداد من عاد إلى المشرق أو إلى إفريقية بعد الفتح ، لم نستطع أن نقدر من استقر في الأندلس من العرب بأكثر من خمسة وعشرين ألفاً .

ولكننا لا نكاد نمضى في استقصاء أخبار الأندلس حتى نجد موجة بالعرب موجاً : نجد جماعات عربية ضخمة في نواحي قرطبة وإشبيلية والجزيرة الخضراء وتدمير وسرقسطة ، غير جاليات أخرى صغيرة في كل ناحية تقريباً ، وقد استعرض ابن غالب في « فرحة الأنفس » بعض هذه الجماعات العربية استعراضاً سريعاً مقتضباً يُفهم منه أن عددهم كان يبلغ على الأقل أضعاف هذه الآلاف التي ذكرها المؤرخون^(١) .

فمن أين أتى هؤلاء العرب ؟ وكيف بلغ من كثرتهم أنهم احتلوا معظم سهول البلاد حتى لم يبق للبربر غير القليل منها ، وسهول الأندلس واسعة لا يملؤها إلا مئات الآلاف ، فكيف أتبل إلى البلاد هؤلاء العرب الذين فاضت بهم الأندلس من أقصاها إلى أقصاها ؟

لسنا نستطيع تفسير ذلك إلا إذا افترضنا أن تياراً من مهاجري العرب كان يتجه نحو الأندلس من أول الأمر ، ويؤيد ذلك قول الرازي بعد وصف معركة وادي لكة : « وتسامع الناس من أهل بر العدو بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر فلهحقوا بطارق ،

(١) راجع البيانات التي يقدمها المقرئ تقرأ عن « فرحة الأنفس » لابن غالب : نفع الطيب (القاهرة سنة ١٩٤٩) ج ١ ، ص ٢٧١ وما يليها .

وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجلبال^(١).

وهي عبارة هامة تدل على أن اندفاع الناس نحو الأندلس كان عظيماً لا يكاد يعدله اندفاعهم نحو أى بلد آخر مما فتح الله على المسلمين في ذلك الحين .

ولم يفسر لنا الرازى عبارته تلك حتى نعرف نسبة العرب إلى البربر في هذه الجماعات المهاجرة ، ولكننا نستطيع أن نقرر أن نسبة العرب وإن كانت قليلة إلا أن عددهم كان كثيراً ، وأن جانباً عظيماً من هؤلاء استقر في الأرياف من أول الأمر على صورة جماعات قليلة في كل ناحية ، وقد وضعت هذه الجماعات يدها على ما استطاعت من الأرض وأخذت تعمل على عمارته واستحيائه مستعينة بالزراع من الأهليين على نظام المزارعة الذى سنشرحه .

وكانت الأحوال السياسية في المشرق سبباً من أسباب هجرة العرب إلى الأندلس : فقد هاجر الكثيرون جداً من أهل الحجاز من بلادهم إلى العراق وخراسان والشمال الإفريقي والأندلس عقب هزيمة عبد الله بن الزبير ، وهاجر كثير من الكلبيين بعد انتصار مروان بن الحكم واعتلائه عرش الخلافة ، وهاجر عدد عظيم من مصر إلى الأندلس بسبب ما تلا ذلك من أحداث^(٢).

وأما البربر فكانت أعداد مهاجرهم تزيد على أعداد العرب أضعافاً ، وتذهب بعض التواريخ الحديثة إلى أن العرب استأثروا دونهم بخير النواحي ولم يتركوا لهم غير الهضاب

(١) الرازى برواية المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

ويبدو أن هذه العبارة تنصب في الغالب على البربر ، ولكن الذى لا شك فيه أن جماعات كثيرة من العرب اليمنية الكلية ومن أهل المدينة كانت قد هاجرت بعد كربلاء والحرة إلى إفريقية والأندلس . راجع الإشارات عن ذلك عند :

اليقوبى : كتاب البلدان ، ص ٣٢٧-٣٢٨ .

ابن خلدون : كتاب العرب ، ج ٣ ، ص ٢١ وما بعدها .

السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٠٩ وما يليها .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٣ ، ص ٥٧ .

المسعودى : مروج الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٠٠ وما بعدها .

ابن الأبار : الحلة ، ص ٤٧ - ٤٩ .

P.H. LAMMENS, Le Califat de Yazid ler , VIII- IX, pp. 114 sqq .

WEIL, Geschichte der Chalifen. I, p. 326 sqq .

DOZY, Musulmans d'Espagne. I, pp. 119 sqq.

وهذه المسألة ورغم ذلك لا تزال غامضة جداً لقلّة وضوح المراجع .

(٢) انظر الهامش السابق .

القاحلة في الشمال^(١)، وهذا غير صحيح على إطلاقه، لأن البربر انتشروا واستقروا من أول الأمر في كل ناحية، وكانت غالبية هذه الأفواج الأولى من البربر المهاجرين من زناتة، لأن الزناتيين كانوا أول البربر إسلاماً وانضماماً للعرب، وكان طارق بن زياد منهم^(٢).

أخذت هذه الجماعات المسلمة - عربية وبربرية - تستقر في نواحي البلاد خلال فترة الولاية كلها، وسنرى أثر ذلك في تطور الحوادث وفي تحول الأندلس إلى بلد إسلامي عربي الطابع في أقل من قرن.



٢٤. ولاية أصبح عبد العزيز بن موسى بن نصير والياً على الأندلس منذ مبارحة أبيه عبد العزيز بن موسى البلد في صفر سنة ٩٥هـ (أكتوبر - نوفمبر سنة ٧١٣م)، ولستنا نعلم موسى إن كان الخليفة سليمان بن عبد الملك قد بعث إليه كتاباً يشبه في هذه الولاية، وإن كنا نعلم في شيء من الثقة أنه أقره في ولايته سياسة منه أو رضئ عنه. وكان الأندلس في ذلك الحين تابعاً لإفريقية، وكانت ولاية إفريقية بيدي مروان وعبد الله ابني موسى وأخوي عبد العزيز، فليس إلى الشك سبيل في أنها أيدها على هذه الولاية.

ولا تكاد المراجع تذكر لعبد العزيز عملاً خلا ما ذكرناه من فتحه الجزء الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة، ويبدو أن نفسه كانت طول الوقت مروعة يتتابها الخوف على مصير أبيه ومصير أسرته، فمال إلى السكون والانتظار والترقب، وبهذا وحده نعلل سكوته عن العمل وقد عرفناه إلى ذلك الحين رجلاً نشيطاً مقداماً.

(١) المسئول عن إذاعة هذه الفكرة دوزي، وقد اعتمد على عبارة قصيرة جداً وموجزة لإيزودور الباجي (فقرة ٤٤) ولكننا سنرى أن الحوادث لا تؤيد هذا الرأي. صحيح أن العرب أساموا معاملة البربر وأذوهم كثيراً، ولكنهم لم يقتصروا أنفسهم بأحسن الأرضين، لأن أرض الأندلس كانت من الوفرة بحيث تكفى جميع العرب عن سعة، ويبقى للبربر بعد ذلك من الأرض ما فيه الكفاية في كل ناحية.

(٢) كان معظم البربر الذين أسلموا أول الأمر من زناتة. راجع:

ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٢٤.

ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٣، ص ١٨٤.

ابن خلدون: كتاب العبر، ج ٦، ص ١٠٨.

وفتح العرب للمغرب لصاحب هذا الكتاب، ص ٢٨٢ وما بعدها.

٢٥. مقتل ويبدو أن حاله مع الجند لم يكن على ما يرجى ، لا لأهم كانوا ساخطين عليه عبد العزيز بل لأن نقرأ من بينهم كان شديد التطلع والطموح ، تذكر المراجع منهم موسى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري حفيد عقبة بن نافع - وقد كان شخصية قلقة لا تكف عن السعى والتدبير كما سنرى - وزباد بن عنزة البلوى ، وزباد بن نابغة التميمي ، وكانوا جميعاً من الظاهرين من جند موسى وكبار رجاله . وكان حبيب بن أبي عبيدة الفهري أكبرهم وأظهرهم ، وكان موسى قد ألحقه بابنه وجعله « وزيراً له ومعيناً »^(١) كما يقول ابن عذارى ، ويبدو أن الخلاف بين هؤلاء القادة وعبد العزيز كان مستمراً « لأشياء نقموها عليه »^(٢) ، كما يقول الرازي .

فأما هذه الأشياء التي « نقموها عليه » فهي علاقته بزوجه النصرانية « أجيلونا » التي تسميها المراجع العربية أيلُه (= أيلونا) أو أم عاصم . وكانت أيلونا قبل ذلك زوجاً للذريق فيا تذهب المراجع ، « وكانت قد صالحت على نفسها في وقت الفتح وباءت بالجزية ، فأقامت على دينها فحظيت عنده وغلبت على نفسه »^(٣) ، فتزوجها وأقام معها في ناحية من كنيسة رُفينة في إشبيلية ، وكانت قد حولت إلى مسجد . فكانت داره على هذا قرية من موضع اجتماع المسلمين وكان صلاتهم . ولو قد كان عبد العزيز ضعيفاً مترفاً كما يفهم من مراجعنا لاستطاع أن يسكن أحد قصور إشبيلية الحسان ، ولكنه كان في واقع الأمر رجلاً جاداً حريصاً على أن يكون على مقربة من رجاله .

ويبدو أن أيلونا كانت على جانب عظيم من القوة والذكاء ، لأنها لم تلبث أن ملكت زمام زوجها فتابعها في كثير مما أرادت . وتذهب المراجع إلى أنها عملت له تاجاً من الذهب والجواهر وحملته على أن يلبسه ، لأن « الملوك إذا لم يتوجوا فلا ملك لهم » كما قالت ، وما زالت به حتى قبل أن يلبسه إذا خلا إليها ، فبينما هو ذات يوم جالس معها والتاج على رأسه دخلت عليه امرأة كانت قد تزوجها زياد بن نابغة التميمي من بنات ملوكهم ، فعاينته والتاج على رأسه ، فقالت لزياد : ألا عمل لك تاجاً ؟ فقال لها : ليس في ديننا استحلال لبسه ، فقالت : ودين المسيح إنه لعل رأس ملككم وإمامكم ، فأعلم بذلك زياداً حبيب بن أبي عبيدة ، ثم تحدثا بذلك حتى علمه خيار الجند ، فلم يكن لهم همٌّ إلا كشف ذلك ، حتى

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

(٣) فتح الأندلس ، ص ٢١ .

رأوه عياناً، فقالوا: قد تنصّر! ثم هجموا عليه فقتلوه»^(١).

ولسنا نعلم كيف فسر الجند لبسه التاج بأنه قد تنصّر، هذا إذا كان قد لبسه أصلاً، ولا كيف قال عبد العزيز إن لبس التاج ليس من الدين، مع أن أشراف الدين ليس فيها ما يفهم منه ذلك، ثم إن الرجل يلبسه كشارة من شارات الملك، بل لبسه في خلواته مع أهل بيته. ولسنا نفهم كذلك كيف ثار الجند هذه الثورة لمثل هذا الأمر وهم لم يكونوا يثورون على من يعيب الخمر ويقرّف المحرمات منهم، وقد كان جند الأندلس من أكثر الناس إسرافاً في هذه الأمور. ثم لماذا تكون زوجة زياد بن النابغة التيمي بالذات هي التي تكشف هذا الأمر؟

إن سياق هذه القصة يدل على أنها ملفقة تلفيقاً، وأنها وُضعت لكي تستر الدوافع الحقيقية التي حفزت جند عبد العزيز على قتله.

وأما القول بأن الخليفة سليمان هو الذي أوّعز بقتله فقول لا يجد ما يؤيده، لأن الخليفة لم يكن عاجزاً عن عزله إن أراد، ولم يكن ليخشى ثورته بالجند لأن الجند كان مختلفاً عليه، وليس بمعقول أن يكون حقد سليمان على عبد العزيز أشد من حقه على أبيه موسى.

ومصادق ذلك ما يذكره صاحب الأخبار المجموعة من أن سليمان بن عبد الملك لما بلغه «مقتل عبد العزيز بن موسى شق ذلك عليه، فولى إفريقية عبيد الله بن يزيد القريشي، لا أدري لمن من قریش (يريد محمد بن يزيد مولى قریش والى إفريقية)، وإلى إفريقية كان أمر الأندلس وطنجة وكل ما وراء إفريقية. وأمره سليمان فيما فعله حبيب بن أبي عبيدة وزياد ابن النابغة من قتل عبد العزيز، بأن يتشدد في ذلك، وأن يقفلها إليه ومن شركها في قتله من وجوه الناس. ثم مات سليمان، فصرح عبيد الله بن يزيد والى إفريقية على الأندلس الحرّ ابن عبد الله الثقفى، وأمره بالنظر في شأن قتل عبد العزيز»^(٢). مما يفهم منه صراحة أن الأمر دُبّر بغير علم الخليفة، وأن له أسباباً أخرى لا تفصح المراجع عنها. وتؤيدنا رواية الأخبار المجموعة تلك فيما ذهبنا إليه آنفاً من أن الأمر دبره حبيب بن أبي عبيدة ونفر ممن كان معه من الجند، وسرى أن حبيباً هذا سيقظ طول حياته سبباً للمتاعب والقتال، وأن مصيره لن يكون خيراً من مصير عبد العزيز.

وأقرب التفسير إلى الصحة هو القول بأن المسألة كانت نتيجة لتدبير محكم بين محمد بن

(١) ابن عذارى: البيان، ج ٢، ص ٢٣.

(٢) الأخبار المجموعة، ص ٢١-٢٢.

يزيد عامل إفريقية لسليمان وبين حبيب بن أبي عبيدة ، ونفر من الجند ، وأن هؤلاء قرروا قتله دون الرجوع إلى سليمان في الأمر ، ومصداق ذلك ما يقوله صاحب فتح الأندلس: « ثم اجتمعوا على أيوب بن حبيب اللخمي الذي قُتل عبد العزيز بمشورته » مما يدل بوضوح على أن الأمر تم في الأندلس بعد أن اشتور فيه الجند .

وكان سليمان قد أوصى يزيد بأن « يأخذ آل موسى بن نصير وكل من انتسبوا إليه حتى يقوموا بها بقى عليه وهو ثلاثمائة ألف دينار ولا يرفع عنهم العذاب ، فقبض على عبد الله وإلى القيروان فحبسه في السجن ، ثم وصل البريد من قبل سليمان بأمره بضرب عنقه ... وحكى الواقدي ، قال : لما بلغ عبد العزيز بن موسى ما نزل بأبيه وأخيه وأهل بيته خلغ الطاعة وخالف ، فأرسل إليه سليمان رسولاً ، فلم يرجع ، فكتب سليمان إلى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ووجوه العرب سرأ بقتله ، فلما خرج عبد العزيز إلى صلاة الصبح قرأ فاتحة الكتاب ، ثم قرأ سورة الواقعة ، فقال له حبيب : « حقت عليك يا ابن الفاعلة ! » وعلاه بالسيف فقتله »^(١).

فمن العقول جداً أن يكون عبد العزيز قد تحدث بشيء من السخط على بنى أمية بسبب ما أنزله سليمان بأبيه وأخيه وآله ، دون أن يصل به هذا السخط إلى حد الثورة وخلع الطاعة ، لأنه لو كان فعل هذا لأبعد حبيب بن أبي عبيدة عن معسكره ولاحتاط منه على الأقل ، فلم يكذب خبر هذا الحديث يصل إلى محمد بن يزيد حتى أوعز إلى حبيب هذا ومن معه يغريهم به فغدره على النحو الذي تصوره رواية الواقدي وتؤيده كل الروايات الأخرى فيه .

وتجمع المراجع على الثناء على عبد العزيز ، فهو عند أكثرهم من خيار الولاة ، ويؤكد الرازي أنه « ضبط سلطانها وسد ثغورها وافتتح مداين كثيرة ، إلا أن مدته لم تطل .. » وإذا جاز أن نستتج شيئاً من قصته مع أيلونا فهو أنه كان رجلاً تقياً لطيفاً حسن العشرة ، وأنه كان قادراً على تذوق الحياة .

يقول صاحب « فتح الأندلس » أن جند الأندلس اجتمعوا بعد قتل عبد العزيز « على أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى الذي قُتل عبد العزيز بمشورته » ، وهي عبارة هامة تكشف لنا عن بعض أسباب مقتل عبد العزيز ،

٣٦. أيوب بن

حبيب اللخمي

(١) انظر : ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٣ - ٢٤ .

وفتح الأندلس ، ص ٢٣ .

ولو أضافناها إلى رواية « الأخبار المجموعة » - التي ذكرناها آنفاً والتي تؤكد أن سليمان استاء حين بلغه خبير مقتل عبد العزيز وبعث يطلب إلى والي إفريقية فحص المسألة وإرسال من اشتركوا فيها إليه - تبيّن أن القول بأن سليمان هو الذى حرص على مقتل عبد العزيز غير صحيح ، وأن الحادث كان من تدبير نفر من رجال العرب في الأندلس . فقد كان كبار الجند - وعلى رأسهم أيوب بن حبيب اللخمي هذا وحبيب بن أبي عبيدة وزباد بن عنزة البلوى وزباد بن نابغة التميمي - ناقلين على عبد العزيز ، فقتلوه ليتولى الأمر واحد منهم وهو أيوب . ويبدو أنهم كانوا يحسون أن سليمان سيرضى عن فعلتهم هذه ويقرهم على ما فعلوا ، ولكن سليمان لم يلبث أن أرسل يطلب عقابهم ، ولم يلبث أن عزل واليهم هذا وأقام غيره .

٣٧ . نقل
من إشبيلية إلى قرطبة ، ولا نزاع في أن قرطبة كانت أوفق من إشبيلية
العاصمة من
إشبيلية إلى قرطبة
لحكم الأندلس ، لأن موقعها أوسط وأقرب إلى منازل جماعات العرب في
الشرق والجنوب الشرقي والجنوب . ولو أنهم انتقلوا إلى طليطلة لكان
أحسن ، لأنها في وسط شبه الجزيرة تماماً ، وهى على أبواب الهضاب الشمالية والشمالية
الغربية ، وصاحبها لا يجد صعوبة في إخضاع هذه النواحي ، أما قرطبة فبعيدة عنها جداً ،
ولا تستطيع الحملات الصادرة منها الوصول إلى نواحي قشتالة وأستريس إلا بعد سير
طويل مجهد . وقد ظلت إشبيلية عاصمة الأندلس الإسلامى أربع سنوات إلا قليلاً ، ويبدو
أن النية لم تنجح في الانتقال إلى قرطبة إلا في أواخر أيام عبد العزيز . وكانت جماعات كبيرة
من العرب قد استقرت في إقليمها ، وظلت مقيمة فيه بعد انتقال العاصمة إلى قرطبة ، وكان
معظم هؤلاء العرب الذين استقروا في إقليم إشبيلية وكبار مدنها مثل وادى آش وشريش
وَسَنْطِطِيش من هوازن وأسد وبكر بن وائل وإياد بن نزار ومراد وخولان ، وتكونت منهم
مع الزمن جالية عربية قوية اختلطت بأهل البلاد ، وقامت لهم مع الزمن عصبية خطيرة كان
لها فيما بعد مع أمراء قرطبة المروائيين تاريخ طويل حافل بالحروب والمنازعات .

وكان قد سكن قرطبة وإقليمها عدد عظيم من العرب ، بل كان ما يحيط بها من
الأرباض أحفل أقاليم الأندلس بالعرب من أول الأمر ، وكان هؤلاء العرب المستقرون
هناك من أصول شتى لا يكاد السلام يستقر فيما بينهم ، فكان انتقال الحكومة إليها سبباً في
تورط العمال فيما عساه أن يشجر بين هذه القبائل من خلافات .

وكان قد أشرنا إلى أن موسى بن نصير كان قد وهب مغياً الرومي القصر الذي كان حاكم قرطبة القوطي يعيش فيه في غرب المدينة ، فلما عاد موسى من فتوحه في الشمال ومر بقرطبة ورأى القصر استكثره على مغيث ، ورأى أنه أوفق ما يكون لعامل البلاد ، فصرف مغياً عنه وعوضه عنه داراً أخرى على مقربة من باب القنطرة مقابل الثلثة التي دخل منها أصحابه حين افتتح قرطبة ، وكانت داراً شريفة ذات سقى وزيتون وثمار ، ويقال لها «أليسانة» كانت للملك الذي أسره وكان له فيها بلاط منيف ، فهي تسمى بالأندلس «بلاط مغيث» وقد أدخل مغيث هذه الدار لتصبح قصر عامل قرطبة وأمراتها ، ويبدو أن أيوب حينما دخل البلد لم يسكنه .

وكانت ولاية الأندلس في ذلك الحين إلى عامل إفريقية ، وكان عاملها كما
 ٢٨. عامل
 إفريقية بولي الحر
 ذكرنا محمد بن يزيد (ذو الحجة سنة ٩٧هـ / أغسطس سنة ٧١٦م -
 رمضان سنة ١٠٠ / مارس سنة ٧١٩م) فلم يقر الجند على ما فعلوا من
 ثقفي على
 تولية أيوب بن حبيب وسارع فبعث الحر بن عبد الرحمن الثقفي والياً في ذى
 الأندلس
 الحجة سنة ٩٧هـ / ٧١٦م . ويبدو أن سليمان بن عبد الملك هو الذي حفزه
 على ذلك ، رغبة منه في عقاب من شاركوا في قتل عبد العزيز بن موسى ، ويبدو أن الحر كان
 قد توقع مقاومة من أيوب وأصحابه من المؤتمرين فاصطحب معه قوة صغيرة من أربعائة
 عربى من وجوه عرب إفريقية ، ويبدو أنهم كانوا نخبة مختارة ، فلم يستطع جند الأندلس
 لهم مقاومة ، وأسلموا لهم الأمر . وأصبح الحر والياً على البلاد .

أقام الحر حاكماً للأندلس ستين وثمانية أشهر ، ولا تذكر المراجع له شيئاً غير سكنه قصر
 قرطبة الكبير واختطاطه إياه مقاماً للعامل من ذلك الحين .

وتوفى سليمان بن عبد الملك في العاشر من صفر سنة ٩٩هـ / ٢٢ سبتمبر سنة ٧١٧م ،
 وخلفه عمر بن عبد العزيز ، فبدأ الأندلس في خلافته عهداً جديداً ، شأنه في ذلك شأن
 إفريقية وبعض الولايات الإسلامية الأخرى ، بسبب ما امتاز به من الإخلاص في أمور
 المسلمين والعناية بشؤون دولته والحرص على تخير العمال الصالحين القادرين على النهوض
 لمسئوليات .

٣٩- ولاية السمع بن مالك وقع اختيار عمر على رجل من أفاضل عرب إفريقية ليل شؤون الأندلس وهو السمع بن مالك الخولاني ، وكان قد ظهر قبل ذلك في مناسبة لا تخلو من معنى ، يذكرها معظم رواتنا ، فيقولون إن عادة خلفاء بني أمية كانت قد جرت بأن لا يدخلوا خزائنتهم شيئاً مما يرسله الولاة من خراج ولاياتهم إلا إذا شهد عشرة من عدول الجند في الولاية بأن هذا المال هو المستصفي الحلال لبيت المال ، بعد دفع أعطيات الولاية والإنفاق على مصالحتها وشؤونها . فلما أقبلت أموال إفريقية في أحد أعوام خلافة سليمان ، أقبل معها عشرة من العدول تخبرهم الوالي ، وفيهم إسماعيل بن عبيد الله والسمع ابن مالك ، فحلف الثمانية الآخرون على صحة هذا المال وحلاله ، وأما السمع وإسماعيل ابن عبيد الله فأبيا أن يخلفا . وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً إذ ذاك ، فأعجبه عمل الرجلين وضمهما إلى نفسه وادخرهما إلى وقت يحتاج إليهما فيه . وهى رواية تدل على صحة ما كان يتهم به ولاة إفريقية للأمويين من سوء التصرف في أموال البلاد ، وإرهاقهم أهلها بالمغارم والجبايات ، والمبالغة في مقادير ما يرسلونه إلى دمشق من الأموال والألطف^(١).

فلما صارت الخلافة لعمر بن عبد العزيز في العاشر من صفر سنة ٩٩هـ / ٢٢ سبتمبر سنة ٧١٧ م لم يقدم شيئاً على إصلاح ما أفسده من سبقه من الأمويين ، واشتغل بذلك عن أمور الأندلس عاماً وثمانية أشهر ، فلم تتح له الفرصة للنظر في شؤون المغرب والأندلس إلا في رمضان سنة ١٠٠هـ (أبريل - مايو سنة ٧١٩ م) ، فأقام إسماعيل بن عبيد الله على إفريقية والسمع بن مالك على الأندلس .

٤٠- عمر بن عبد العزيز تذهب المراجع إلى أن عمر بن عبد العزيز كان يفكر في إقفال المسلمين من الأندلس وإخلائها منهم ، إذ « خشى تغلب العدو عليهم » كما يقول ابن في إخلاء الأندلس القوطية^(٢) ، أو « لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين » كما يقول من العرب صاحب فتح الأندلس وصاحب الأخبار المجموعة^(٣) . ولسنا نجد تفسيراً معقولاً لهذه النزعة من خليفة عُرف بالحرص على نشر الإسلام وتوسيع رقعته لأن حال

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٢٣ .

فتح الأندلس ، ص ٢٤-٢٥ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٢ .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٢٣ .

فتح الأندلس ، ص ٢٤ .

المسلمين في الأندلس كان في إقبال إلى ذلك الحين ، ولم يكن الأعداء قد نهضوا لهم على الوجه الخطر الذي سنراه فيما بعد ، ولم تكن فتن العصبية قد عصفت بهم وفرقتهم وأضعفتهم . وربما جاز تعليقه بأن عمر لم يكن يعلم شيئاً عن عظمة الأندلس واتساع مداها وما كسبه المسلمون من فتحها وما يعود على الدولة الإسلامية من أسباب الخير والقوة من بقائها في أيديهم ، ولهذا تذكر المراجع أنه لما ولى السمع بن مالك طلب إليه « أن يكتب إليه بصفة الأندلس وأنهاها ويحررها » ، ولا يستبعد أن يكون أباح له إقبال المسلمين منها إذا وجد أنها لا تستحق عناء حكمها والمحافظة عليها ، فكتب إليه السمع « يعرفه بقوة الإسلام وكثرة مدينتهم ، وشرف معاقلمهم »^(١) ، فلما استوثق عمر من أهمية الأندلس وثبات أقدام المسلمين فيه أولاه من عنايته ما هو أهل له .

وكان أول ما اهتم به عمر بن عبد العزيز هو ضبط أمواله وتنظيم أمر خراجها ، وهو أمر لم يُعْنَ به واحد من سبقه من الخلفاء ، فانتدب مولى من ثقاته يسمى جابراً وبعثه في هذه المهمة^(٢) . ولما تعلم الأساس الذي سار عليه جابر هذا في أداء مهمته تلك ، لأن النصوص تذكر أنه اهتم بتمييز أرض الصلح من أرض العنوة وباستخراج خمس العنوة لكي يضمه إلى أرض الدولة ، فلم يخرج في الخمس إلا ريبضاً من أرباض قرطبة جعله مقبرة للمسلمين وأقر القرى بيد غنامها . وهذه عبارة لا تفسر إلا بأن جابراً اعتبر قرطبة هي الناحية الوحيدة التي فتحت عنوة ، فأخذ خمسها للدولة ، وأما بقية الأندلس فاعتبره قد فُتِحَ صلحاً . ولما كنا نعلم أن معظم الأندلس قد فتح عنوة : الجنوب وأقاليم قرطبة وإشبيلية وماردة على الأقل ، فكيف لم يزد خمس ذلك كله على ريبض من أرباض قرطبة ؟ ثم ما معنى قولهم إنه أقر القرى في أيدي غنامها ؟ على أي أساس تركها في أيديهم ؟ إن لفظ «غنامها» هنا يسمح لنا بأن نفترض أن الحكومة المركزية اعتبرت ما فتح من بلاد الأندلس غنيمة لمن فتحوه ، فتركت كل ناحية بأيدي من فتحوها واستقروا فيها . إننا نفترض ذلك مجرد افتراض ، ولا يمكننا إيراد على صورة مؤكدة ، لأن عبارات المراجع قليلة مبسرة غامضة ، ولا تعيننا بأية صورة على تبيين النظام الذي وضعه المسلمون للأندلس .

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٢ - ١٣ .

الأخبار المجموعة ، ص ٢٣ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٢ .

وإذا كان عمر بن عبد العزيز قد تخير السماح بن مالك لفضله وأمره أن « يحمل الناس على طريق الحق ولا يعدل بهم عن منهج الرفق ، وأن يخمس ما غلب عليه من أرضها وعقارها ، ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنها .. »^(١) فكيف لم يدون للبلاد ديواناً ؟ لقد رأينا حسان بن النعمان يسارع بذلك عقب تمام انتصاره على الكاهنة ، فكيف تنقضى إلى الآن أربع سنوات على تمام الفتح دون أن ينشأ للبلد ديوان ثابت يخصص كل شيء وينظم كل شيء ؟ الحق أن الأندلس ينفرد بهذا الوضع الغريب من بين ولايات الدولة الإسلامية جميعاً : لا تعرف إن كان قد أنشئ له ديوان ، ولا تعرف على أي أساس وزعت أرضه بين الفاتحين والدولة المركزية ، بل إننا لا نملك ولو فكرة يسيرة عابرة عن مقادير الجزية أو الخراج التي كانت تجبى منه ولو لسنة واحدة .

الأندلس هو البلد الإسلامي الوحيد الذي ظل تابعاً لمركز الخلافة نيفاً وأربعين سنة دون أن يذكر المؤرخون ولو مرة واحدة مقدار جزية جبيت منه أو خراج أرسل منه في إحدى السنوات ، بل لم تسجل المراجع أن الأندلس أرسل إلى مركز الخلافة خراجاً ما ، أو جانباً من الجباية ، وهذا وضع غريب في ذاته ، وسنرى فيما يلي أن عدم ذكر هذه الشؤون المالية ليس مرده إلى إغفال المؤرخين أو سهوهم ، بل لأن وضع الأندلس في ذاته من أول الأمر كان غريباً لا يشبهه في ذلك بلد إسلامي آخر .

ويبدو أن السماح كان ماضياً في تنظيم البلد وإحصاء أمواله ، ولكن الظروف لم تمهله ، لأن خلافة عمر بن عبد العزيز لم تطل ، وهو لم يول إلا بعد أن انقضى منها نحو العام ، وكان عليه إلى جانب هذا العمل الإداري أن ينشط للغزوات في أحيانها ، وكان عظيم الرغبة في الجهاد ، فلم يلبث أن استشهد في طرسونة في يوم عرفة من سنة ١٠٢ هـ ، فلم تتح له فرصة استكمال العمل الإداري الذي بدأه .

ولعل هذا يأذن لنا في أن نفترض أن « البطحاء المعروفة بالربض » ، وهي التي خرجت في الخمس ، لا تعنى إلا خمس إقليم قرطبة^(٢) ، لأنه - كما يقول ابن عذارى - لا يعقل أن يكون هذا الربض هو خمس الأندلس كله ، وأن الرجل كان على نية استقصاء الأمر في

(١) ابن عذارى : البيان ، ج٢ ، ص ٢٥ .

(٢) انظر : فتح الأندلس ، ص ٢٤ .

ابن عذارى : البيان ج٢ ، ص ٢٥ .

الأندلس كلها لو لم تدركه منيته ، وأنه إذا كان قد ترك القرى في أيدي أربابها فإنها فعل ذلك إلى أن يحين وقت ضبطها على أساس ثابت ، لأنه لا يعقل أن يكون قد تركها في أيديهم هكذا طعنة لا يكادون يُحاسبون عنها .

لم يكد السمع يمضى في تنظيم شؤون البلاد من الناحية المالية حتى اجتمع له مبلغ كبير من المال ، وكانت قنطرة قرطبة الرومانية التي كانت مقامة على الوادى الكبير للاتصال بنواحي جنوبي الأندلس قد تهدمت ، ولم يعد الناس يستطيعون العبور إلا في السفن ، وكان العرب في أمس الحاجة إلى قنطرة متينة يستطيعون العبور عليها من الجنوب إلى عاصمتهم الجديدة ، فوجد السمع أن بناء هذه القنطرة هو أهم ما ينبغي أن يتفق فيه هذا المال المتجمع ، فكتب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز يستأذنه في ذلك فأذن له ، فقام السمع « بيناتها ، فصنعت على أنف وأعظم ما عقد عليه جسر في معمور الأرض من حجارة سور المدينة ، وكانت القنطرة القديمة موصولة الرقة بباب المدينة القبل بها ، وقد تصدعت هذه القنطرة في أيام الإمام عبد الرحمن الداخل^(١) وسئرى للمسلمين عناية عظيمة بهذه القنطرة التي ستكون ذات أهمية كبرى في تاريخ البلاد السياسى والفكرى ، لأنها كانت تصل العاصمة بجنوب الأندلس وبلاد الشرق جميعاً ، ولأنها كانت من الجمال والبهاء بحيث كانت متزه أهل قرطبة ومدار خيال شعراء الأندلس أجمعين .

وفي ربيع سنة ١٠٢ هـ (سنة ٧٢١ م) خرج السمع بالصانفة ليغزو فيها وراء البرت فاستشهد في طرسونة في يوم عرفة من العام نفسه ، وستحدث عن ذلك في فصل خاص نجمل فيه أعمال المسلمين الحربية كلها فيها وراء البرت .

وفي أثناء السنوات القليلة التي ذكرناها كانت العلاقات بين البربر والعرب في إفريقيا والأندلس تتطور على نحو سيكون له أثر حاسم في مجرى الأمور في البلدين خلال هذه الفترة وما تلاها ، وجدير بنا أن ندرس هذه الناحية بشيء من التفصيل .



(١) فتح الأندلس ، ص ٢٥ .

الفصل الخامس

صراع العرب والبربر

٤٢- خلاطات العصبية انقضت أيام الخليفة التقى العادل عمر بن عبد العزيز وواليه المجتهدين إسماعيل بن عبيد الله والسمح بن مالك الخولاني، وعاد الغرب الإسلامي إلى ما كان عليه أيام الخليفة سليمان ومن سبقه : عاد حكام إفريقية يستدون بالأندلس ويولون عليه من الحكام من يشاءون ، وعاد هؤلاء يُصرفون أموره على الوجه الذي يجيونه . ولقد رأى الأندلس في الفترة بين سنتي ١٠٢ و١١٢ حكماً لا نكاد نذكر لهم إلا اهتماماً ظاهراً بالحروب فيما وراء البرت ، وانصرافاً ظاهراً إلى المنازعات العصبية العنيفة^(١).

كانت ولاية إفريقية خلال هذه الفترة كلها إلى رجلين من كبار رجال بنى أمية ، هما يزيد ابن أبي مسلم مولى الحجاج وكتابه (١٠٢-١٠٣هـ / ٧٢٠-٧٢١م) وبشر بن صفوان الكلبي (١٠٣-١٠٩هـ / ٧٢١-٧٢٦م). وكانت خلافة المسلمين إلى اثنين من أشد الأمويين إغراقاً في العصبية القبلية ، هما يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ / ٧٢٠-٧٢٤م) وهشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ / ٧٢٤-٧٤٣م) ، وفي عهدهما ظهر في البيت الأموي الانقسام والتفرق اللذان انتهيا بإضعاف البيت كله وذهاب ريمه .

فقد كان يزيد بن عبد الملك مضرب الميول : أغضب يزيد بن المهلب وحاربه حتى قتله،

(١) هم عبد الرحمن بن عبد الله العافى (من ذى الحجة سنة ١٠٢ إلى صفر سنة ١٠٣ / من يولي إلى أغسطس ٧٢١) وعيسى بن شخيم الكلبي (من صفر سنة ١٠٣ إلى شعبان سنة ١٠٧ / ٧٢١-٧٢٦) ، وعفدة بن عبد الله الفهري (من شعبان سنة ١٠٧ إلى شوال سنة ١٠٧ / من يناير إلى مارس ٧٢٦) ، ويحيى بن سلامة العامل (من شوال سنة ١٠٧ إلى ربيع الأول سنة ١١٠ / من مارس ٧٢٦ إلى يولييه ٧٢٨) ، وحذيفة بن الأحوص القيسي (من ربيع الأول سنة ١١٠ إلى شعبان سنة ١١٠ / من يولييه إلى ديسمبر ٧٢٨) ، وهشام بن أبي نسعة الخنصمي (من شعبان سنة ١١٠ إلى المحرم سنة ١١١ / من نوفمبر ٧٢٨ إلى أبريل ٧٢٩) ، والحشيم بن عبيد الكلبي (من المحرم سنة ١١١ إلى ذى القعدة سنة ١١١ / من أبريل ٧٢٩ إلى فبراير ٧٣٠).

انظر ابن عذاري : البيان ، ج٢ ، ص ٢٦-٢٧ .

والبحث الذي كتبه لافونتي إي ألكانترا وذيل به ترجمته للأخبار المجموعة وحفظ فيه ولايات مهال الأندلس .

LAFUENTE Y ALCANTARA: Cronología de los gobernadores de España . Apéndice III de Ajar Machmua, pp. 220-242 .

وتعقب اليمنية بألوان الأذى حتى نفروا منه ومالوا إلى أعدائه ، وامتلأت نفوسهم بالثورة عليه ، وعادت إليهم أحقاد مرج راهط وتحركت في قلوبهم ثاراتها^(١) ، وأقام على إفريقية يزيد بن أبى مسلم هذا . وكان من كبار القيسية ، فلما قتل أقام مكانه بشر بن صفوان ، وقوى جانب القيسية في بلاد الدولة الإسلامية كلها ، فلما أقبل أخوه هشام بدا له أن يخفف من غلواء القيسية المضرية بقبض يده عنهم ، ومن ثم أقام نفراً من كبار اليمنية الكلية من أمثال خالد بن عبد الله القسرى وأخيه أسد على الولايات ، فأخذوا يضطهدون المضرية اضطهاداً رضى عنه الخليفة وإن لم يفعل فعلها . ولهذا ترك بشر بن صفوان في ولايته ، لأن ميوله كانت كلية يمنية ، وحينما توفى بشر بن صفوان سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٦م كانت ميول الخليفة قد انحرفت بعض الشيء عن الكلية اليمنية ومالت نفسه إلى إضعاف أمرها ، ولهذا أخذ يولى بعض القيسية كبار المناصب ، فولى يوسف بن عمر الثقفى العراق ، ونصر بن سيار خراسان ، وعبيدة بن عبد الرحمن السلمى إفريقية . وكانوا جميعاً من غلاة القيسية ، فأخذوا يضطهدون اليمنية الكلية ، حتى ليذكر النويرى أن عبيدة بن عبد الرحمن السلمى لم يكذب يصل إلى إفريقية حتى « أخذ عمال بشر بن صفوان فحبسهم وتحمل عليهم ، وكان فيهم أبو الخطاب بن صفوان الكلبى »^(٢).

هكذا أخذت عواصف العصبية تعصف بالدولة في القلب وفي الولايات ، ولم يقتصر الأمر على العمال ورجال الدولة بل تعداه إلى عامة الناس ، لأن الجاليات العربية التى كانت قد هاجرت إلى الولايات واستقرت فيها لم تخرج عن أن تكون قيسية مضرية أو كلية يمنية ، فإذا كان العامل قيسياً حابى القيسية واضطهد الكلية اليمنية وأذاها ، واشتبكت بينه وبينها الحروب ، وإذا كان كليياً عسف القيسية وأنزل بها من البلاء شيئاً كثيراً . ومن هنا قامت الحروب بين العرب في الولايات ، وتخصبت أراضي الدولة الإسلامية من خراسان إلى أقصى الأندلس بدماء العرب ، وشغلتهم هذه الخلافات في كل ناحية عما هو أهم منها وأولى بالعناية من الأمور .

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٨ ، ص ١٣٦ وما بعدها ، ابن الأثير الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٣ وما بعدها ، المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٣٥-١٣٦ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣-٢١٦ .

النويرى : نهاية الأرب ، طبعة جسيار ريمير ، ص ٣٣ .

وراجع تعليق فورنيل على هذه التغيرات العصبية في الفترة الأموية :

ولم يشقّ بلد من بلاد المسلمين هذه الخصومات كما شقى بها المغرب والأندلس ، لا لأنها كانت فيها أفسى وأعنف ، بل لأن المغرب والأندلس كانا إلى ذلك الحين بمثابة الشجر الكبير لبلاد المسلمين عامة ، وكان لا بد لمن يقوم فيها من العرب أن يكونوا كتلة واحدة يقظة ، وإلا نهض لهم العدو - الذي لم يُقَصَّ عليه القضاء المبرم - واستعاد قوته ، وتحفز لقتالهم وهم في شغل عنه . وهذا هو الذي حدث بالفعل : شغل العرب بتصفية ثاراتهم القبلية العvisية عن بقايا القوط في الأندلس ، وعن إتمام إخضاع البربر في إفريقية ، فأصاب هؤلاء وأولئك فرصة كانوا في أشد الحاجة إليها ، واستطاعوا أن يستعيدوا ثباتهم وأن يمكننا أقدامهم في نواحيهم النائية ، ثم أخذوا يتقدمون على مهل متتهزين الفرصة في هؤلاء العرب الذين شغلتهم قيس وكلب عن القوط والنصرانية والوثنية معاً .

وليس إلى الشك سبيل في أن هذه المنازعات العvisية وحدها هي السبب في نهضة فلول القوط وتقدمهم لمنازعة العرب هذه المنازعة الطويلة التي انتهت بخروج المسلمين من البلاد جملة ، وأنها هي السبب في ثورة بربر المغرب جميعه على العرب ، لأنها أنت في وقت حرج كان المسلمون أحق فيه بأن يذلولوا قصارى جهدهم في إتمام فتح البلدين ، فعاقتهم عن ذلك واضطرب الأمر عليهم فيها جميعاً .

٤٣- فترة سيادة الكلبين اليمنيين كانت ولاية يزيد بن أبي مسلم وبشر بن صفوان في إفريقية كلبية يمنية صرفه ، وقد عرّف الكلبيون اليمنيون بإسرافهم في العvisية على الموالى في المغرب كل ناحية ، وحسبنا من ذلك الإشارة إلى سياسة الحجاج وعسفه موالى والأندلس فارس ، وكان يزيد بن أبي مسلم تلميذه وكتابه^(١) ، فحسب أنه يستطيع أن يسير في البربر بسيرة الحجاج في أهل العراق وفارس^(٢) ، وأخذ يعسف البربر ويشد في جمع أموالهم وسبى نسايتهم . وكان شديد العناية بالطف الخلفاء وكسب قلوبهم بالهدايا ، فصار يتخير أحسن نساء البربر ليعت بهم إلى الخليفة ، وكان يأخذ المائة من الغنم ويذبحها ليأخذ فراءها العسل الصافي ويرسلها إلى دمشق ، فربما ذبح مائة شاة دون أن يستخلص منها جلدأ واحداً سليماً ، فتغيرت نفوس البربر ، وبدأت قلوبهم تتحدث بالثورة عليه ، لأن البربر

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ - ٢١٤ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج١ ، ص ٢٧٢ .

(٢) التويرى : نهاية الأرب ، ج١ ، ص ٢١ .

كالعرب قوم بدو لا يعرفون طاعة ولا ذلة^(١).

٤٤ - مسئولية الخلفاء عن أعمال عمالهم في المغرب

وليس إلى الشك سبيل في أن خلفاء بني أمية لم يكونوا ليرضوا عن سياسة يزيد بن أبي مسلم وبشر بن صفوان في إفريقية، وأنهم لم يكونوا يعلمون شيئاً عن الوسائل التي كانوا يلجأون إليها في عسف البربر والاستبداد بهم. ومن دلائل ذلك أن يزيد بن عبد الملك لم يغضب حينما علم بقتل البربر واليه يزيد بن أبي مسلم، وقال إنه لم يرض عن عمله، ثم أقر محمد بن أوس الأنصاري الذي أقامه أهل إفريقية على أنفسهم^(٢).

وربما تبادر إلى الذهن أن الخلفاء كانوا يكلفون العمال أن يكثروا من الهدايا والألطف، فكان العمال يضطرون لهذا إلى الإسراف في عسف الناس والاشتطاط معهم، ولكن رواية لابن عذارى تدل على أن العمال يحملون أكبر جانب من المسئولية في هذا، وذلك حيث يقول: « وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب، ويعثون فيها إلى عامل إفريقية، فيبعثون لهم البربريات المسييات، فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب متأهم بالكثير وتكلف لهم - أو كلفوه - أكثر مما كان، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة^(٣) وهي رواية تدل على أن الخلفاء كانوا يستحبون طرائف إفريقية فقط، وأن العمال كانوا يتكلفون الإسراف في عسف الناس طلباً في المزيد من رضى الخلفاء.

وكان الكلبيون بطبعهم على جانب قليل من السياسة والكياسة، فأسرفوا في الأمر إسرافاً نفّر البربر ودفعهم إلى الثورة، وشجعهم على المضى في هذا العسف ما كان قائماً إذ ذاك بين العرب أنفسهم من عدا.

٤٥ - تسوتر نفوس البتر - زنانة

وكان وضع العرب في بلاد المغرب بُعيد الفتح وضعاً فريداً في ذاته، فإن بربر المغرب - على ما نعرف - ينقسمون إلى بتر وبرانس، أو إلى بدو وحضر. فأما البتر فقد تسارعوا إلى الانضمام للعرب من أول الأمر واشتركوا معهم في فتح البلاد، ولولا مساعدة قبائل بترية مثل لواتة ونفوسة وهوارة

(١) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٣ وما يليها.

النويري: نهاية الأرب، ص ٢١ وما يليها.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٣.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، ج ١، ص ٣٢-٣٣.

وبرغواطة^(١)، لما استطاع العرب الوصول في المغرب إلى هذه النتيجة الباهرة التي وصلوا إليها بعد جهد طويل متصل . فلما انتصر العرب واستقرت أقدامهم في البلاد توقع البتر أن يعتبروهم مساوين لهم ، وأن يميزوهم عن البرانس الذين قاوموهم مقاومة عنيفة ولم يلقوا بيد الطاعة إلا بعد أن يشسوا من كل عون من ناحية البيزنطيين .

ولكن العرب لم يفتنوا إلى ذلك ، ومضوا يعاملون البربر جميعاً معاملة واحدة ، واشتدوا عليهم جميعاً ، أصدقاء وغير أصدقاء ، أحلافاً وغير أحلاف ، فتغيرت نفوس البتر - وزناتة منهم خاصة - وبدأوا يفكرون في الثورة على العرب عامة . ثم إن البربر - والبتر منهم خاصة - حملوا معظم عبء فتح الأندلس ، وقتل منهم في هذا السبيل آلاف ، في حين لم يفقد العرب إلا بضعة مئات ، وكان نفر من قادة الفتح بربراً زناتيين مثل أبي زرعة طريف بن ملوك وطارق بن زياد ، فلم يحسن العرب جزاء هذين ، بل أصاب موسى طارقاً بشراً كبيراً ، ولم ينظر عرب الأندلس إلى بربرها نظراً للنند ، فأنكر البربر ذلك وبدأت نفوسهم تتغير .

وربما كان دافع عرب الأندلس إلى إساءة معاملة البربر هو خوفهم منهم ، فقد كان البربر في الأندلس أضعاف العرب عدداً ، وكان العرب يشعرون أنهم أقلية ، وكان شعورهم بهذا يدفعهم إلى التحرز من البربر وإبعادهم عن الحكومة والسلطان ، فزاد ذلك في سخط هؤلاء . وكان البتر هم حرس الولاة المقربين إليهم ، وكان الولاة قبل يزيد بن أبي مسلم يميزونهم على البرانس ويتخذون منهم بطانتهم ، فلما جاء يزيد بن أبي مسلم أغفل هذه الناحية وأساء معاملة البتر وأراد امتحانهم وإذلالهم ، فنفرت نفوسهم منه ، وفقد العرب من ذلك الحين ولاء هذا الفريق القوي من بربر إفريقية ، وسيكون لذلك أثر كبير في تطور الحوادث فيما بعد^(٢) .

(١) راجع النصوص الخاصة بانضمام هذه القبائل إلى المسلمين من أول الأمر في :

البلاذري : فتوح ، ص ٢٢٤ .

ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .

ابن خلدون : كتاب العبر ، ج ٦ ، ص ١٠٨ .

وانظر لمؤلف هذا الكتاب : فتح العرب للمغرب ، ص ٢٨٢ وما يليها .

(٢) لاحظ قول ابن عبد الحكم : « ويقال : بل كان حرس يزيد بن أبي مسلم حين قدم البربر ليس فيهم إلا بترى ، وكانوا هم حرس الولاة قبله ، البتر خاصة ليس فيهم من البرانس أحد ، فخطب يزيد بن أبي مسلم الناس فقال : إني إن أصبحت صالحاً وشمتُ حرسى في أيديهم كما تصنع الروم ، فأشتم في يد الرجل اليمنى اسمه وفي اليسرى : حرسى ، فيعرفون بذلك عن غيرهم ، فأنفوا من ذلك ، ودب بعضهم إلى بعض في قتله » . فتوح ، ص ٢١٤ .

٤٦- الأفارقة وكان في إفريقية - إلى جانب البربر والروم - نفر كبير من الأفارقة ، أى من الأجناب المستوطنين الذين طال مكثهم في البلاد حتى أصبحوا إفريقيين ، وكان معظم هؤلاء يسكنون المدن ومواقع الساحل . وكانوا على علائق حسنة مع الروم متأثرين بحضورهم ، وكان فيهم كثير من النصارى . ولما أقبل العرب وأنشأوا مجاريون الروم وقف هؤلاء الأفارقة على الحياد بل أقبل نفر منهم على الإسلام ، وكانوا ينتظرون ألا يعتبرهم العرب روماً وألا يعسفوهم ، ولكن العرب وضعوهم والروم في منزلة واحدة ، فاعتبروا الأفارقة موالى ، وغنموا أراضيهم وأموالهم ، فانقلبوا أعداء لهم ، واتصلوا بزنانة ، وتفاهم الحيان على الثورة^(١) .

٤٧- دعاة الحارجية في المغرب وزاد الحال حرجاً أن اشتداد بنى أمية مع العلويين والخوارج أُرهبهم ونفّرهم من الشام والعراق وجزيرة العرب ، فمضوا يلتمسون الأمان حيثما وجدوه ، وفر منهم نفر كبير إلى المغرب حيث وجدوا أهلهم حانقين على الأمويين مستعدين للثورة عليهم ، فلم يكن أيسر على هؤلاء العلويين والخوارج من كسب هؤلاء البربر إلى صفوفهم ؛ ووجدت مذاهب الحارجية - الصفرية والإباضية خاصة - قبولاً طيباً من البربر ، وهكذا تهيأت في بلاد المغرب كلها الظروف لثورة عامة كبرى على الأمويين والعرب عامة .

ويُجمع مؤرخو المغرب على أن معظم من أقبل إلى إفريقية من هؤلاء الدعاة كانوا من الصفرية والإباضية ، ولسنا نعلم بالضبط لماذا كان معظم دعاة الثورة في المغرب من هذين الفريقين من الخوارج ، ولا السبب في إقبال أهل المغرب عليها خاصة . لأن مبادئ الفريقين ليست مما يجتذب البربر ، فهما أكثر الخوارج ميلاً إلى المسالمة والتسامح مع المخالفين^(٢) ، بل الإباضية لا تحل قتال غير الخوارج من المسلمين ولا تستحل من الغنائم غير السلاح والخيل ، والصفرية تكاد تكون أكثر مذاهب الحارجية اعتدالاً ، والبربر على ما

(١) يفهم من روايتين لأبي المحاسن والسلاوي أن زعامة برابر طنجة في الثورة التي ستحدث عنها كانت إلى ميسرة الطغرئى وعبد الأعلى بن جريج الإفريقي ، وكان مع كل منهما قومه ، مما يدل على أن الطائفتين اتفقتا على الوثوب بالعرب .

انظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٨ .

السلاوي : الاستقصاء ، ج ١ ، ص ٤٩ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص ٦١ - ٦٢ .

نعلم لا يميلون إلى الاعتدال في العقائد، وسنرى من أحداث ثورتهم أنهم كانوا متطرفين لا يعرفون وسطاً، وربما كان الأحجى أن نشك في نسبة هذه الحركات إلى الصفرية والإباضية خاصة، لأن أسبابها كانت سياسية قبل أن تكون دينية، ولسنا نجد على أي الأحوال في أخبار هذه الثورة الكبيرة دليلاً واضحاً على صفرية القائمين بالحركة أو إباضيتهم، والأسلم أن نسميهم خوارج فحسب، خوارج سياسيين لا دينيين.

ولصاحب «الأخبار المجموعة» رواية يفهم منها أن البواعث البعيدة لهذه الحركة كانت موضع خلاف بين المؤرخين القدماء أنفسهم، وذلك حيث يقول: «وقد يقول من يطعن على الأئمة أنهم إنما خرجوا ضيقاً من سير عمالهم، وأن الخليفة وولده كانوا يكتبون إلى عمال طنجة في جلود الخرفان العسلية، فتذبح مائة شاة، فربما لم يوجد فيها إلا جلد واحد. وهو قول البغض للأئمة، فإن كانوا صدقوا، فما بال التحكيم فشا فيهم ورفع المصاحف وحلقت الرؤوس، اقتداء بالأزارقة وأهل النهروان، أصحاب عبد الملك بن وهب وزيد بن حصن...؟»^(١).

وظاهر أن صاحب هذا المجموع القيم من الأخبار يحاول الدفاع عن خلفاء بنى أمية لأنهم أجداد أموية الأندلس، وليس إلى الشك سبيل في أن عبارته هذه موجهة إلى نفر من معاصريه الذين كانوا يرمون خلفاء بنى أمية بالظلم ويحملونهم مسئولية هذه الحركة الخطيرة.

ومهما يكن من الأمر فقد اجتهد دعاة الخارجية هؤلاء اجتهداً عظيماً في إثارة البربر ودفعهم إلى الوثوب بالعرب. ومن دلائل ذلك قول المالكي: «وكانوا - أي أهل إفريقية - يقولون: لا تحالف الأئمة بما تجني العمال، فقالوا - أي الدعاة الذين كانوا يجرضون البربر على الفتنة - لهم: إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك، فقالوا: حتى نخبرهم!».

«فخرج مسيرة في بضعة وعشرين رجلاً، فقدموا على هشام، فلم يؤذن لهم، فدخلوا على الأبرش فقالوا: أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا ويجنده، فإذا غنمنا نفلهم ولم ينفلنا، ويقول: هذا أخلص لجهادكم!...، فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنة، ونحن مسلمون! فأحببنا أن نعرف أعن رأى أمير المؤمنين هذا أم لا؟ فطال عليهم المقام ونفدت نفقاتهم، فكتبوا أسأهم ودفعوها إلى وزيرائه، وقالوا: إن سأل عنا أمير المؤمنين فأخبروه،

(١) الأخبار المجموعة، ص ٣١ - ٣٢.

ثم رجعوا إلى إفريقية . وبلغ الخبر هشاماً فسأل عن النفر ، فعرف أسماهم ، فإذا هم الذين صنعوا ذلك^(١) مما يدل على أن أهل إفريقية أنكروا هذه المعاملة السيئة من عمال الأمويين ، وجعل هؤلاء الدعاة يدفعونهم إلى الثورة ويؤكدون لهم أن ذلك الظلم الذي ينزل بهم إنما مصدره الخلفاء أنفسهم ، فأحب ميسرة - زعيم البربر - أن يتأكد من الأمر قبل أن يقدم على شيء ، فمضى في وفد من أهل بلده إلى دمشق ليلسط ظلامته أمام الخليفة هشام ، فلم يستطيعوا مقابلته ، فعادوا ولا مندوحة لهم عن الثورة .

وكان الأندلس تابِعاً لإفريقية في ذلك الحين ، فلا غرابة أن تظهر فيه
 ٤٨-العصبة
 المرية في الأندلس
 أصداء ذلك كله ، ولا غرابة في أن يكون لها جميعاً أسوأ الأثر على مصائر الإسلام فيه للأسباب التي ذكرناها .

أقام يزيدُ بن أبي مسلم وبشرُ بن صفوان الكلبيان اليمانيان على الأندلس عمالاً يمينيين كليبيين هم : عنبسة بن سحيم الكلبي (صفر ١٠٣ - شعبان ١٠٧) وعذرة بن عبد الله الفهري (شعبان ١٠٧ - شوال ١٠٧) ويحيى بن سلامة العامل (إلى ربيع الأول سنة ١١٠) ، وقد حكم ثلاثتهم سبع سنوات (شوال ١٠٧ - ربيع الأول ١١٠) تعصبوا خلالها لليمنية الكلية وأوغروا صدور القيسية .

وكانت قيسية الأندلس مُوَعَّرَةً الصدر بطبعمها لا تحتاج إلى من يحرك نيران أحقادها ، لأن الكثيرين من أفرادها كانوا ممن حضر حروب الزبيريين والمرواتيين في المشرق ، بل كان منهم من حضر مرج راهط ورأى بعينه مصارع القيسية وأقول نجمها بهزيمة الزبيريين ، وكانوا ينتظرون الفرصة ليسوا حساسهم القديم مع اليمينيين الكلبيين . فلم يكده هؤلاء الولاة الثلاثة يسرون في سياستهم اليمنية الكلية حتى امتلأت قلوب القيسية ألماً ، وجاشت نفوسهم بالثورة ، وغدوا لا ينتظرون إلا الفرصة المواتية^(٢) .

وكان هؤلاء الكلبيون كغيرهم من اليمينيين ذوى شره إلى الأموال وعسف في جمعها ، وقد اشتد سحيم معهم شدة خاصة ، فألزم التصاري في الأندلس بدفع جزية مضاعفة ،

(١) ليس لدينا ما يؤيد ذهاب ميسرة إلى المشرق ، ولكننا نستطيع أن نستخلص من هذه الرواية أن زعماء البربر حاولوا بسط شكائهم أمام الخلفاء قبل أن يلجأوا إلى الثورة .

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٢٤ - ٢٥ .

فتغيرت نفوس أهل البلاد وبدأ القلق يسودها من كل وجه^(١).

(١) إيزيدور الباجي ، (نقرة رقم ٥٢) . واسمه الكامل ISIDORO PACENSE وهو مؤلف وهمي يقال إنه كان أسقفاً لمدينة Pax- Julia أو Pace وهي Beja الحالية من مدن البرتغال (باجة عند العرب) ينسب إليه تاريخ هام لإسبانيا اسمه :

Epitoma (epitome) Imperatorum uel Arabum Ephemerides atque Hispaniae Chronographiae sub uno Volumine Collecta .

وهو يشمل تاريخ إسبانيا من أواخر العصر القوطي ، من نهاية حكم سببرت إلى نهاية حكم يوسف الفهري آخر مجال الأندلس للأمويين ، وهو يضم معلومات هامة عن الدولة البيزنطية والدولة الإسلامية في المشرق خلال هذه الفترة . ولم يستطع البحث التاريخي الاهتمام إلى حقيقة إيزودور هذا أو إلى نسبة هذا الكتاب إليه ، ولهذا يفضل الكثيرون تسميته « بالتاريخ الطويل المجهول المؤلف El Anonimo Toledano » لأن مخطوطته وجدت في طليطلة . والذي لا شك فيه هو أن مؤلف هذا المجموع الفريد من الأخبار كان واحداً من رجال الدين الإسبان ، ولكنه يمتاز عن هؤلاء باعتدال في الرأي وبعد نسي عن المصيبة الدينية التي نجدها عند غيره من مؤرخي إسبانيا من رجال الدين . وروايته تزودنا بمعلومات قيمة جداً عن خلفاء الأمويين بالمشرق وأعمال عمال بني أمية في إفريقية والأندلس . ويفهم من نص روايته ، ومن كتب أخرى معاصرة ، أنه كتب كتاباً أخرى هي :

1.- *Epitome Regum Wisigothorum a tempore Recaredi principis .*

2.- *Epitome Temporum .*

(مختصر تاريخ المصور) - وفيه يتحدث بالتفصيل عن الحروب التي جرت بين البربر وكثوم بن عياض عامل هشام بن عبد الملك على إفريقية .

3.- *Epitome .*

يقص فيه أخبار الحروب بين بلج بن بشر ومن معه من الشامية وبقية عرب الأندلس .

4.- *Liber verborum dierum Saeculi .*

وهو يكمل فيه ذكر الأحداث التي فاتته ذكرها في كتبه السابقة . وكتابه الأول هو أهمها من غير شك ، وهو المشار إليه في التواريخ الأندلسية ، وهو الذي نقصد نحن في هذا البحث . وظاهر أن مؤلفه أراد أن يجعل منه صلة لتاريخ إيزيدور الإشبيلي SAN ISIDORO DE SEVILLA نجد نمه الكامل عند :

THEODOR MOMMSEN, *Auctorum Antiquissimorum, tomus XI, Cronica Minora, (Saec. IV, V, VI, VIII) II, Ip. 334 - 360 Berolini, 1893 .*

وفي :

FLOREZ, *Espana Sagrada, pp. 283-307, Isidori Pacencis Episcopi chronicon .*

ونشر أجزاء منه LAFUENTE Y ALCANTARA كملحق لترجمته الإسبانية للأخبار المجموعة ، ص ١٤٦ وما بعدها .

وانظر عنه :

RUDOLF SCHEVENKOW, *Kritische Betrachtungen ueber die lateiniscugeschriebenen Quellen zur Geschichte der Eroberung Spaniens durch die Araber, 1894.*

FRANCISCO JAVIER SIMONET, *Historia de los Mozarabes de Espana, (Madrid 1867-1903) pp. 234, 599 .*

CESAR DUBLER, *Sobre la Cronica Arabigo - Bizantina de 741 y la Influencia Bizantina en la Peninsula Iberica (Al- Andalus, vol. XI fasc. 2 Madrid- Grenada, 1956) pp. 283- 349.*

فلما تولى إفريقية عبدة بن عبد الرحمن السلمي^(١) وكان قيسياً ، انقلبت الآية وتوالت على الأندلس سنوات قيسية لقي الكلييون اليمينيون خلالها بلاء شديداً ، قام بالأمر خلالها حذيفة بن الأحوص القيسي وعثمان بن أبي نسعة الخثعمي ، والهيثم بن عبيد الله الكنانى ، ومحمد بن عبد الله الأشجعي ، واستمرت حتى سنة ١١١ هـ ، وقد اشتد الهيثم مع اليمينيين شدة أثارهم ودفعتهم إلى العصيان علانية ، وقد بلغ من شدته أن أنكر هشام عليه ذلك - رغم قيسيته - وعزله وعاقبه عقاباً صارماً^(٢).

ومن عهد الهيثم هذا تبدأ في الأندلس خصومة القيسية واليمينية الصريحة الخطرة ، التي سيكون لها أسوأ الأثر على مصير الإسلام في الأندلس خاصة والمغرب عامة .

بيد أننا ينبغي أن نذكر أن المسلمين كانوا معنيين خلال ذلك كله بالحروب فيما وراء البرتات ، فقد استمرت جهودهم بعد مقتل السمح بن مالك الخولاني ، ووصلت جيوش المسلمين في أيامهم إلى قرب من أفينيون ، وكانت أربونة عاصمة الهيثم بن عبيد الكنانى يقيم فيها معظم وقته^(٣).

ولسنا نجد ما نسجله في عهود هؤلاء الحكام القصيرة إلا ثورة بلائيه زعيم فلول القوط في نواحي أشتريس ، وهى ثورة خطيرة تعين بدء المقاومة الإسبانية ، وقد وقعت في عصر عنبسة بن سُحَيْم^(٤).

وفي صفر سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠م أقام عبيد الله بن عبد الرحمن السلمي عبد الرحمن بن عبد

(١) آثار وصول عبدة بن عبد الرحمن إلى إفريقية اضطراباً كبيراً ، لأن الكلييين كانوا قد اطمأنوا إلى السيادة في عهد سلفه بشر بن صفوان ، وكان معظم عرب إفريقية والأندلس كلييين يمينيين كما ذكرنا ، وكان بشر قد ترك مكانه كليياً ، فلم يكد يستقر في الولاية حتى فأجاء هشام بعبدة بن عبد الرحمن ، ودخل عبدة القيروان فجأة ، كأنها كان يتوقع معارضة ومقاومة ، ولم يقدم شيئاً على عسف اليمينيين عسفاً جاوز الحد المؤلف .

انظر : ابن عذارى : البيان ج ١ ، ص ٣٦ .

ابن الأثير : الحلة السيرة ، ص ٤٥٧ - ٤٩ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ١٠٨ ، ١٣٠ .

(٢) إيزيدور : فقرة ٥٧ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٦٨ ، ٧٤ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٩ . وانظر الفصل التالى .

إيزودور : فقرة ٥٦ و ٥٧ .

(٤) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٩ - ١٠ .

الله الغافقي أميراً على الأندلس، وكان عبد الرحمن من كبار رجال جند الأندلس، وقد قضى حياته حتى ذلك الحين يغازي الأعداء فيها يلى البرتات، وكان الجند قد أقاموه والياً على الأندلس قبل ذلك مدة لم تزد على شهرين قبيل قدوم عنبسة بن سحيم، وكان عبد الرحمن شخصية أندلسية قضى معظم أيامه في نواحيها وفي الجهاد فيها يليها، فكان لولايته طابع خاص لا نلمحه عند أحد من سبقوه، فقد كان هؤلاء مشاركة يقبلون على البلاد وهم لا يكادون يعرفون من أمرها شيئاً، ولا يكادون يحملون إليها إلا عصبيتهم اليمينية أو القيسية ويزيدون الحال سوءاً. فأما عبد الرحمن فأندلسي لا يكاد يلقى بالاً إلى هذه الجاهلية العصبية، ولا يكاد يلتفت إلا لإقرار الأمن في البلاد وموالة الفتح فيها يليها^(١).

تُجمع الروايات الإسلامية على الثناء على عبد الرحمن، بل يذهب بعضها إلى القول بأنه أعظم ولاة الأندلس أجمعين وأكثرهم فضيلة وأشدهم إخلاصاً في القيام بما تفرضه الأندلس على واليها من الواجبات، والواقع أن المراجع لم يتبالغ في ذلك كثيراً، فقد كان عبد الرحمن واقع الأمر منظمًا قادراً وجندياً باسلاً، وربما شاركه في إحدى هاتين الصفتين بعض من سبقه من ولاة الأندلس مثل السمع بن مالك أو عنبسة بن سحيم، ولكنه يمتاز عن هذين وغيرهما بأنه كان سليماً من نزعة العصبية التي أفسدت على معظم هؤلاء الحكام أعمالهم. وقد كان الرجل من غافق إحدى بطون كهلان اليمينية، ولسنا نعلل اختيار عبيدة بن عبد الرحمن السلمى القيسي المتشدد بإياه إلا بأن شخصية عبد الرحمن كانت من الظهور بحيث صرفت عبيدة عن التفكير في قيسيته التي أفسدت عليه الأمور زماناً^(٢)، ويبدو أن عبد الرحمن كان يتمتع بمرکز عظيم بين عرب الأندلس، لأن ولايته لقيت الرضى من طوائفهم كلها يمينية وقيسية.

(١) عن عبد الرحمن الغافقي، انظر: ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٦ - ٢١٧.

ابن حيان برواية المقرئ: نفع الطيب، ج ٢، ص ٥٩.

أخبار مجموعة ص ٢٥.

ابن عذاري: البيان، ج ٢، ص ٢٧ - ٢٨.

ابن الأثير، ج ٥، ص ٩٤.

ISODORO PACENSE, Cronicon, cc. 56-63.

(٢) وكان عبد الرحمن الغافقي في خلاف دائم مع عبيدة بن عبد الرحمن، ومصداق ذلك رواية لابن عبد الحكم يقول فيها بعد تفصيل أعمال عبد الرحمن في إحدى غزواته في بلاد الفرنجة: «وكان فيها أصاب رجل مفضضة بالدر والياقوت والزبرجد، فأمر بها فكسرت، ثم أخرج الخمس، وقسم سائر ذلك في المسلمين الذين كانوا معه، فبلغ ذلك عبيدة، فعصب غضباً شديداً، فكتب إليه كتاباً يتوعده فيه، فكتب إليه عبد الرحمن: إن السهوات والأرض لو كانتا رتقاً، لجعل الرحمن للمؤمنين منها مخرجاً. ثم خرج إليهم أيضاً غازياً فاستشهد وعامة أصحابه...».

ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢٤٧.

ولم يوفق عبد الرحمن في غزواته الكبرى التي أراد أن يفتح فيها غالباً رغم ما حشد من عدة وما بذل من جهد ، واستشهد هو ونفر عظيم ممن كانوا معه عند بلاط الشهداء على مقربة من بواتيه في رمضان سنة ١١٤ هـ . ولا نزاع في أن ابن حيان قد بالغ حينها زعم أن أحداً من جيش عبد الرحمن لم ينج من هذه الموقعة ، لأنه لا يعقل أن يُقتل من المسلمين سبعون ألفاً ثم لا تضطرب الأندلس كلها . والواقع أن عدداً عظيماً من جنود عبد الرحمن عاد إلى الأندلس قبل الموقعة مستوحشاً من طول الشُّقة ، فلما فاجأه العدو اللفاء في قلة فاستشهد وبعض من بقى معه .

كان لهذه الهزيمة وقع شديد في نفس الخليفة هشام بن عبد الملك ، فقد أقبلت إليه أخبارها بعد فشل أخيه مسلمة بن عبد الملك في اقتحام أسوار القسطنطينية بأربع عشرة سنة ، فأحس هشام أن سيوف المسلمين قد عمزت عن اقتحام معازل المسيحية الكبرى في الشرق والغرب ، فساه ذلك ، وأخذ يفكر تفكيراً جاداً في علاج هذا الموقف ، وفي تقوية جبهة الإسلام من ناحية الغرب ، ويبدو أنه تخوف خطر الفرنج على مسلمي الأندلس بعد إذ استشعر قوتهم بعد هذه المعركة .

بدأ هشام فعزل عبيدة بن عبد الرحمن عن إفريقية في أواخر سنة ١١٤ هـ ، لأنه كان قسياً مسرفاً في عصبية حتى لقد أثار اليمينية وكاد يوقع المغرب الإسلامي كله في فتنه عصبية كبرى ، واستبدل به قيسياً آخر كان يحسب أنه أهدأ منه نفساً وأقل عصبية ، ذلك هو عبيد الله بن الحبحاب .

بدأ عبيد الله بن الحبحاب ولايته في إفريقية بدءاً حسناً ، وقد كان وُفق في مصر توفيقاً طيباً كعامل لخراجها^(١) ولكنه لم يستطع أن يدرك في إفريقية ما أراد من الإصلاح وتهدئة النفوس ، ذلك أن المغرب الإسلامي كان يجوز إذ ذاك أزمة سياسية واجتماعية حادة . ولا بد أن نعود بتاريخ المغرب سنوات إلى الوراء لتتبع هذه الأزمة منذ مبادئها .

ذلك أن حكومة موسى بن نصير وابنيه عبد الله وعبد الملك من بعده في المغرب أضاعت

٤٩ - مصائب

الحكم في المغرب

بعد موسى بن نصير

(١) ابن الأثير : الحلة السرياء (طبعة دوزي) ، ص ٣٢ .

ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٦١ .

على المسلمين ثمرات حكومة حسان بن النعمان وإصلاحاته ، فقد اشتد موسى وبنوه على البربر شدة نقرتهم وبغضت العرب إليهم ، وزاد الأمر سوءاً أن آل موسى احتضنوا بعض القبائل واعتبروا أفرادها موالى لهم وفضلوهم على غيرهم ، فأنار ذلك نفوس بقية القبائل ، وأخذ كثير من البربر يشعرون بأن الحكم العربي الجديد ليس خيراً في كثير من الحكم البيزنطي المنقضى .

ولو استمر الأمر على ذلك بصورة مضطربة لانفجرت ثورة البربر في زمن مبكر جداً ، ولكن الأحوال هدأت بعد انقضاء أمر آل موسى فترة دامت أربع سنوات من ٩٧-١٠١ هـ / ٧١٥-٧٢٠ م بسبب اعتدال محمد بن يزيد القرشي^(١) وإسماعيل بن عبيد الله اللذين توليا حكومة المغرب بعد آل نصير على ما ذكرناه^(٢) .

وقد بلغ من توفيق إسماعيل في إقرار السلام في البلاد أنه لم يبق في ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم^(٣) كما يقول ابن عبد الحكم ، ولم يبالغ راويتنا الجليل كثيراً في ذلك ، فالواقع أن حسن سياسة إسماعيل وحرصه على نشر الإسلام قد كسبا للدين عدداً عظيماً جداً من البربر ، فلو قلنا إن ولايته ثبتت قدم الإسلام في إفريقية ما بالغنا ، لأن المغرب أصبح بعد ولايته بلداً إسلامياً يغلب على أهله الإسلام^(٤) .

وكان من سوء الحظ أن خليفته في ولاية المغرب لم يكن يقاربه في شيء من ذلك ، بل كان رجلاً يمينياً جافياً شديداً العصية قليل الكياسة هو يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج ؛ ولاء يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١ هـ / ٧٢٠-٧٢١ م على ما ذكرنا . ومن غريب الأمر أن يزيد بن عبد الملك أصحبه عبد الله بن موسى بن نصير ، وكان عبد الله قد عُزل عن المغرب وانتقل

(١) المقرئى : خطلط (طبعة فيت) ج٢ ، ص ٦١ - ٦٣ .

٥ : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، طبعة فستفلد تحت عنوان :

WUESTENFELD, Abhandlung ueber die in Agypten eingewanderten arabische Stamme, Goettingen, 1847, pp. 39-40 .

وهي ترجمة لكتيب المقرئى ٥ : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ٥ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ .

ابن خلدون (طبعة نوبل دي فرجير) ، ص ٨ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) ابن نايجى : معالم الإيبان ، ج ١ ، ص ١٥٤ - ١٥٦ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٢ - ٣٣ .

إلى المشرق في سنة ٩٦هـ / ٧١٤م^(١)، ولسنا ندرى السبب في ذلك التصرف من يزيد، وربما أراد منه أن يكون عبد الله - بما له من الخبرة بالبلاد والمعرفة بشؤونها - عوناً ليزيد بن أبي مسلم في شؤونه، ولكنه أخطأ التقدير، لأن عبد الله كان موغراً الصدر من بني أمية ينتظر الفرصة للاقتصاص منهم بما فعلوا بأله وبه هو نفسه.

ثم إن أنصار بني نصير لم يكادوا يعلمون بمجىء عبد الله حتى خرجوا يتلقونه مرحبين، يحسبون أيام عزهم قد عادت، فساور الخوف نفس يزيد بن أبي مسلم من هذه المكائنة التي كانت لبني نصير، وأدركته الغيرة مما رآه من منزلة عبد الله بن موسى في نفوس أهل البلاد، فأحب أن يُبغضه إلى نفوسهم، وأن يضعه في مركز حرج، فطلب إليه أن يقوم بإعداد العطاء اللازم للجنود خمس سنين من ماله، ثم أمره أن يلزم داره^(٢)، وأعقب يزيد ذلك بالشدة البالغة مع موالى بني نصير من البربر، فوضع يده عليهم، واعتبرهم جزءاً من الخمس يتبع لبيت المال ويؤول لعامل المغرب، وأحصى أموالهم وأولادهم، وجعل نفراً من هؤلاء الموالى حرسه ويطانته، وأراد أن يقضى على كل أثر لجاه بني نصير في إفريقية.

ولو اقتصر الأمر على ذلك لكان البلاء، ولكنه لم يقصر هذا العسف على آل نصير ومواليهم، بل توسع فيه حتى شمل به البربر أجمعين، وأراد أن يسير في البربر بسيرة مولاة الحجاج في أهل العراق، وفاته أن معظم من اشتد عليهم من البربر كانوا من البتر وزناته، أي من البربر الذين انضموا للعرب من أول الأمر وقدموا إليهم أخلص العون. ثم حفزه سوء الرأي إلى أن يتخذ قراراً كان فيه حتفه: قرر أن يَشم حرسه البربر في أيديهم، فخطب الناس فقال: «إني إن أصبحت صالحاً وشممت حرسى في أيديهم كما تصنع الروم، فأشم في يد الرجل اليمنى اسمه وفي اليسرى «حرسى» فيعرفوا بذلك من غيرهم»^(٣) إسرافاً منه في الاستخفاف بالبربر وطلباً للون من الأبهة لم يعرفه العرب قبل ذلك. فثارت نفوس البربر لذلك ودبروا قتله، وكان عبد الله بن موسى بن نصير يؤلبهم عليه ويزيد نفوسهم ثورة واضطراباً، وبتحريضه قُتل يزيد بن أبي مسلم، اغتاله حرسه في سنة ١٠٢هـ / ٧٢٠م - ٧٢١م.

(١) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٣ ولا يؤيد ابن عبد الحكم في القول بهذا مؤرخ آخر، ولكننا نقبل روايته لأنها أقدم ما لدينا. ولم يتحدث أحد من المؤرخين المغربيين عن هذه الناحية بتفصيل يعتنا على تعرف الواقع.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٤ ولا يبعد أن يكون ذلك بإيعاز من يزيد بن عبد الملك، لأنه كان يعتقد - مثل أخيه سليمان - أن بني نصير اجتبوا أموالاً جسيمة وأخفوها عن الدولة حتى لا تنقصاهم إياها.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٤. وراجع تعليق فورنل على ذلك:

وأقام أهل إفريقية قاضيهم المغيرة بن أبي بردة القرشي والياً حتى يأتيهم رأى خليفتهم يزيد بن عبد الملك^(١)، فلما بلغ يزيد نبأ مقتل يزيد بن أبي مسلم أمر عامله على مصر بشر بن صفوان أن ينهض إلى إفريقية ويخلف مكانه أخاه حنظلة^(٢)، فدخل بشر إفريقية في نفس العام الذي قُتل فيه يزيد، وكان أول ما فعله هو أن أخذ عبد الله بن موسى بن نصير فقتله^(٣)، وتبع أموال بنى نصير بالاستقصاء وأنصارهم بالتعذيب، وعزل عن الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفي وولى مكانه كليياً يمينياً هو عنبسة بن سحيم^(٤).

وظل بشر عاملاً على إفريقية بقية خلافة يزيد وجزءاً من ولاية هشام حتى توفي في شوال سنة ١٠٩هـ/٧٢٧-٧٢٨م واستطاع أن يهدىء أمورها بسبب ما أسرف فيه من استعمال القسوة البالغة^(٥)؛ ولم يسرف أحد من عمال بنى أمية الكليليين في العصية لقومه كما فعل بشر، فقد اشدت في ذلك شدة ملأت نفوس القيسيين عليه حقداً، وغدوا يترقبون موته بنافذ الصبر، وكان هو نفسه يشعر بذلك، ومن دلائل هذا ما يذكره المالكي من أن جارية من جوارى بشر قالت وهو يعانى سكرات الموت: «يا شهاتة الأعداء! فقال لها: قولى للأعداء لا يموت! حتى لا يستطيعهم الفرح».

وكان بشراً خشى أن يقيم هشام على البلد رجلاً قسياً بعده، فترك عليها العباس بن باضعة الكلبى والياً ورجا أن يثبه هشام في الولاية. ولكن هشام بن عبد الملك انتهز فرصة وفاته ليولى مكانه قسياً هو عبيدة بن عبد الرحمن، وقد وقع دخوله إفريقية على نفوس الكلبية موقع الصاعقة، حتى أن رأسهم العباس بن باضعة خارت قواه ولم تحمله رجلاه حينما بلغه النبأ^(٦) (١١٠هـ/٧٢٨-٧٢٩م).

(١) ولم يستقر المغيرة في الولاية إلا قليلاً، لأن ابنه خوفه من أن يظن الخليفة أنه شارك في قتل يزيد بن مسلم إذا وجده والياً مكانه، فاعتزل، وولى أهل إفريقية مكانه محمد بن أوس الأنصاري، وكان يتوسل على غزو بحرهما، فأرسلوا إليه فولوه أمرهم، ثم عزله يزيد ببشر بن صفوان.

ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٥.

(٢) F. WUSTENFELD. DIE Statthalter von Egyptenzur Zeit der Chalifen: Goettingen 1875. (٢)

(٣) ابن عذارى: البيان، ج ٢، ص ٢٦.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) ابن عذارى: البيان، ج ١، ص ٣٦.

ابن الأبار: الحلة السيرة، ص ٤٧.

(٦) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٧.

٥٠- المغرب
 أثناء خلافة هشام
 ابن عبد الملك
 (١٠٥-١٢٥هـ) /
 (٧٢٤-٧٤٢م)
 ولم يكن عبيدة بن عبد الرحمن على اقتداره وحسن رأيه بأحسن معاملة
 للبربر ممن سبقوه ، فقد أسرف في مغازاة من بُعد من قبائلهم وسبى نساءهم
 حتى ليقال إنه عندما بارح إفريقية يريد المشرق سنة ١١٤هـ / ٧٣٢-
 ٧٣٣م * كان فيها خرج به من العبيد والإماء ومن الجوارى المتخيرة
 ٧٠٠ جارية ، وغير ذلك من الحصيان والحليل والدواب والذهب والفضة
 والآتية (١) مما يدل على عسفه للناس وشدته معهم (٢) ، وكان إلى ذلك شديد الوطأة على
 كل من انتمى إلى آل نصير من العرب اليمنية والبربر الزناتية ، فأذى نقرأ كثيراً منهم ، وكانوا
 من كبار أهل البلاد وأصحاب السلطان على نواحيهم (٣).

يبد أن عبيدة كان يشعر أن الحال في إفريقية لم يكن على ما يرام ، وأن ريح الثورة كانت
 تهب على البلاد ، بسبب سوء سياسته وسياسة من سبقه من ولاة إفريقية ، ولهذا سأل هشاماً
 أن يعفيه من الإمارة لغير سبب ظاهر ، فأعفاه ، وبارح إفريقية إلى المشرق بعد أن غل من
 المغرب من المال شيئاً كثيراً ، وبعد أن استبد بالبربر وباليمنية استبداداً بالغا .

٥١- عيد الله
 ابن الحبحاب
 على إفريقية والأندلس في ربيع الآخر سنة ١١٦هـ / ٧٣٤م، وبهذا أصبح هذا
 الرجل يحكم غرب الدولة الإسلامية كله من حدود مصر إلى جبال البرت ، وهي مساحة
 تزيد على نصف الدولة الإسلامية كلها . وكان بسط سلطان ابن الحبحاب على هذا النحو
 خطأ فادحاً ، لأن الرجل كان رغم ثقافته الواسعة قيسياً مبالغاً في قيسيته (٤) ، ثم إنه كان إلى
 ذلك بعيداً عن الكياسة ويُعد النظر اللازمين لرجل تُوكل إليه أمور مثل هذا الملك الشاسع
 يفعل به ما يريد .

(١) نفس المصدر ، ص ٢١٧ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السرياء (طبعة دوزي) ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٧ .

الأخبار المجموعة ص ٣١-٣٢ .

ابن عفار : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٩ .

النويري : نهاية الأرب ، ص ٣٣ .

السويطي : تاريخ الخلفاء (طبعة القاهرة) خلافة هشام بن عبد الملك : ص ٤٨ - ٤٩ .

(٤) النويري : نهاية الأرب ، ص ٣٣ .

المقريزي : خطط (طبعة قيت) ، ج ٢ ، ص ٦١-٦٣ .

كان أول ما فعله عبيد الله هو أن قسم ولايته على بنيه وأنصاره : جعل ابنه إسماعيل على السوس ، وولى ابنه عبد الرحمن على مغازى السودان ، وجعل على طنجة رجلاً من أتباعه يسمى عمر بن عبد الله المرادى ، وجعل على الأندلس عقبه بن الحجاج السلولى ، واحتفظ لنفسه بإفريقية لكي يكون في مكان قريب من المشرق يستطيع أن يدير منه ولاياته جميعاً^(١).

وكان عبيد الله بن الحبحاب كغيره من القيسية شديد العصية العربية لا يكاد يقيم لغير العرب وزناً ، فجعل يعسف البربر لا يكاد يحفل لمشاعرهم ، وجعل كذلك يتبع من وجد من اليعنية لا يكاد يعفيهم من عذاب شديد ، وامتد أذاه إلى أتباعهم ومواليهم وفيهم أنصار بنى نصير الغاضبون لما أصاب هذا البيت الكبير من الأذى على يد هؤلاء القيسيين ، وكان من هؤلاء رجل يسمى عبد الأعلى بن جُرْنِج الإفريقي وكان أصله رومياً ، وكان مولى لابن نصير ، وكان قد كوّن لنفسه عصية بربرية كبيرة في نواحي طنجة^(٢).

فإذا بلغ عسف القيسية ورئيسها في الغرب الإسلامي كله عبيد الله بن الحبحاب هذا المبلغ ، فقد بدأت أنفوس البربر تتطلع إلى الخلاص ، ولو قد كان عبيد الله وعمله على شيء من بُعد النظر لاستشعروا اضطراب النفوس في المغرب جميعه ، ولكنهم كانوا كما قلنا لا يكادون يحفلون لمشاعر هؤلاء البربر ، حساباً منهم أنهم لن يستطيعوا قتلهم شيئاً ، ويبدو أن قضاء ابن الحبحاب على ثورة أهل مصر قبل ذلك قد هوّن في نظره شأن غيرهم من الشعوب التي كانت خاضعة لحكمه .

ويبلغ من استخفاف ابن الحبحاب بالبربر أن أراد اعتبارهم جميعاً فيئاً للمسلمين ، من أسلم منهم ومن لم يسلم ، وكان الولاة قبله يقصرون هذا اللون القاسى من المعاملة على من لم يسلم من البربر ، من استأمن منهم ومن لم يستأمن ، فأبى عبيد الله إلا أن يزيد الأمر سوءاً بوضع مسلمى البربر موضع العبيد الذين يملك المسلمون رقابهم ، ومضى في تنفيذ ذلك ، فكتب إلى رجاله بحصر مُخس البربر واعتبارهم رقيقاً^(٣) ، ولم يكن عبيد الله ليستطيع أن يُنقِر البربر ويسىء إليهم بأكثر من هذا ، فهؤلاء قوم أسلموا ومنهم من اشترك في جيوش المسلمين غازياً واندرج اسمه في الديوان ، فكيف يعتبر بعد ذلك عبداً رقيقاً ؟

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٧ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .

(٣) التويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٣٤ .

ولو اقتصرت المعاملة السيئة على البربر ونصارى الأندلس وحدهم لكان من الميسور تلافى الخطر إذا بقي العرب جميعاً بدأ واحدة - وهم لم يكونوا قليلين في إفريقية والأندلس - ولكن ابن الحبحاب كان مسرفاً في قيسيته لا يكاد يعفى اليمانيين من شر ، فتغيرت نفوسهم عليه ، ولما كان أكثر عرب البلاد يمينيين ، فقد وقف القيسيون بسبب سياسة رئيسهم ابن الحبحاب من أهل البلاد جميعاً - عرباً وغير عرب - موقف العدو، وغدا هؤلاء لا ينتظرون إلا الفرصة الملائمة لينقلبوا على ابن الحبحاب والقيسية ، بل على العرب جملة .

ولم يكن الدعاة الذين تحدثنا عنهم ينتظرون فرصة هي أعظم من هذه ، فنفس أهل البلاد تغلى والعرب منقسمون على أنفسهم ، وليس أهون عليهم في مثل هذا الطرف من توجيه البربر وإرشادهم إلى طريق العمل . وسنرى من حوادث الثورة التالية أنها كانت مرتبة مقدرة ، وأن أبدي محركيها من خوارج العرب كانت ظاهرة لا تحتاج إلى طويل بحث ، وأغلب الظن أن هؤلاء الخوارج وفقوا في إقناع البربر بأن الله لم يقصر حق القيادة والإمامة على العرب وحدهم ، بل جعله حقاً مطلقاً لكل مسلم صالح ، وأن حكام العرب حادوا عن الطريق القويم ، وأنهم - أي البربر - إذا وثبوا بالعرب لم يكونوا في ذلك إلا منفذين لتعاليم الإسلام كما وردت في القرآن ، وسنرى ذلك بوضوح حينما يعلن رئيسهم ميسرة نفسه إماماً ويتسمى بالخلافة ، وحينما يرفعون المصاحف على الأستة كما كان خوارج المشرق يفعلون^(١).

ويبدو أن أعداد هؤلاء الدعاة من الخوارج كانت عظيمة في المغرب ، لأن الأمان عند قبائله وفي شعابه كان مضموناً لهم ، ولأن البربر كانوا ساخطين تتأجج نفوسهم بالثورة على العرب ، فكثر جيء هؤلاء الخوارج إلى المغرب واختفاؤهم بين قبائل البربر ، ولم يلبثوا أن قلبوا المغرب كله رأساً على عقب .

ولما كان هؤلاء الدعاة لا يستطيعون أن يقيموا في إفريقية أو في المغرب الأوسط لقرب هذه النواحي من مقام عامل بنى أمية في القيروان ، فقد تحبروا لمقامهم ولدعواتهم نواحي المغرب الأقصى البعيدة : إقليم طنجة ونواحي السوس الأقصى بوجه خاص ، إذ كانت هذه النواحي موطن أكبر القبائل الزناتية ، وأكثرها استعداداً للثورة وهي برغواطة ومكناسة وانضمت إليها كذلك أعداد قليلة من مسمودة .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٢ .

٥٢- ميسرة وكان في القيروان إذ ذاك رجل من قبيلة مَظفرة ، يسمى ميسرة ، وتتفق وبدء الثورة في معظم المراجع العربية على تسميته بالحقير أو بالحقور ، وتذهب إلى أنه كان إقليم طنجة يبيع الماء في مساجد القيروان^(١) ، وليس ذلك بصحيح ، لأن ابن خلدون يؤكد أنه كان رئيس مظفرة^(٢) أو لعله كان ينتسب إلى بيت كبير من بيوت هذه القبيلة ، ولأن ما سيلي من الأحداث يدل على أنه كان رجلاً ذا عصبية لها خطرها ، والثابت أن ميسرة كان من رواد المجالس العلمية في مساجد القيروان ، وأنه كان ذكياً بعيد المطامع شديد الميل للمغامرة ، فوجدت مبادئ الخارجية الصفوية سبيلها إلى نفسه فاعتنقها ، ووقر في نفسه أن ينشرها في بلاده ، واتجه بصره إلى مواطن مظفرة في إقليم طنجة ، فمضى إلى هذه الناحية واندسّ بين جماعات قومه مظفرة ، وأخذ يكسب لنفسه الأنصار ويؤلبهم على العرب وحكامهم ، فلم يلبث أن استألمهم إلى رأيه ، فرفعوا راية العصيان ، ولم تلبث الدعوة أن امتدت حتى شملت مكناسة ، فأقبلت بجموعها وانضمت إلى ميسرة وقومه^(٣).

ولم تلبث برغواطة أن أعلنت الخروج يقودها داعية خارجية لا نكاد نعرف عنه شيئاً وهو طريف بن شمعون بن يعقوب بن إسحاق ومعه ابن له غلام يسمى صالحاً^(٤) . وانضمت القبائل النائرة بعضها إلى بعض وجعلت تترقب الفرصة لإعلان الثورة والخروج على بني أمية ، وكان عامل طنجة لعبيد الله بن الحبحاب قيسياً شديداً العصبية لقيس وللعرب هو عمر بن عبد الله المرادي ، فمضى يعسف البربر لا يكاد يحسب لشعورهم حساباً ، وكان ميسرة إذ ذاك نشيطاً في دعوته ، فأعانه جهل عمر بن عبد الله المرادي وسوء سياسته على كسب قلوب الناس .

ثم سنحت الفرصة لميسرة وأصحابه للخروج على العرب علانية ، ذلك أن عبيد الله بن الحبحاب أرسل قائده حبيب بن أبي عبيدة سنة ١٢٢ هـ / ٧٣٩ م^(٥) في حملة إلى صقلية ،

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .

البكري : المسالك والممالك ، ص ١٣٤ .

النويري : نهاية ، ج ١ ص ٣٤ .

(٢) ابن خلدون : العبر (طبعة دى سلين) ، ج ١ ص ١٥٠ .

(٣) ابن خلدون : العبر (طبعة دى سلين) ، ج ١ ص ١٦٧ .

(٤) البكري : المسالك والممالك ، ص ١٣٥ .

(٥) ابن خلدون : العبر (طبعة دى سلين) ، ج ١ ص ١٥١ .

ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٨ .

وأصبحه خيرة جنده ، فعجل ميسرة وأصحابه يتهزون فرصة ابتعاد جند عبيد الله بن الحبحاب فيما وراء البحر ، فجمعوا أنصارهم ، وتصارعوا نحو طنجة ووالها عمر بن عبدالله المرادى ، واستولى ميسرة عليها وقتل المرادى ، وانضم إليه عبدالأعلى بن جريج الإفريقي ومن معه من الأفارقة ومولاي بنى نصير ، فأقامه والياً على طنجة ، ثم سار إلى نواحي السوس واستولى عليها ، وقتل والها إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب ، وبهذا خرج المغرب الأقصى كله من يد الأمويين ، وتخرج مركز عبيد الله بن الحبحاب في إفريقية وساء مركز المسلمين في الأندلس^(١).

وجمع عبيد الله بن الحبحاب نفراً من خيرة جنده وقوّد عليهم رجلاً من كبار عرب إفريقية هو خالد بن حبيب القهري ، وبعث إلى حبيب بن أبي عبيدة يتعجل عودته ، فلم يكذب يعود ، حتى بعثه ومن معه من الجند ليشدوا أزر خالد ، والتقى العرب بقوات ميسرة على مقربة من طنجة ، فانهزموا وقُتل منهم نفر عظيم ، وعاد ميسرة إلى مركزه في طنجة منصوراً ، ثم ادعى الخلافة وتسمى بها ويوع عليها^(٢). ويبدو أن النصر ذهب بصوابه ، فأساء السيرة في جماعته ، فلم يلبثوا أن قتلوه وولوا مكانه واحداً من كبار رؤسائهم هو خالد ابن حميد الزناتي ، وكان خيراً من ميسرة وأقدر^(٣) (١٢٢/هـ - ٧٣٩ - ٧٤٠م).

وتخرج مركز ابن الحبحاب في إفريقية ، فبعث إلى عقبه بن الحجاج السلولي عامل الأندلس يطلب إليه الإسراع لعونه بمن يستطيع من الجند ، فأسرع الرجل وحاول مهاجمة مواقع البربر في طنجة فلم يستطع ، وعاد أدراجه^(٤).

(١) انظر عن ميسرة : ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ - ٢١٩

ابن الفرطية : افتتاح ، ص ١٤ - ١٥

ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ٣٩

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ١٤٢

ابن خلدون : المعبر (طبعة دي سلين) ، ج ١ ، ص ١٣٧ و ١٥١ .

(٢) التويرى : نهاية الأرب ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .

هنا يحاول فورنيل الدفاع عن ميسرة ، على عهده من امتناع كل ثائر على المسلمين ، ويبدو في هذه المناسبة افتعاله وتكلفه بصورة واضحة جداً :

cf : HENRI FOURNEL, Les Berbères, I. pp. 288-289.

ISIDORI PACENCIS, Chronicon; Espana Sagrada, VIII. Cap. 61 in p. 302 .

(٤)

٥٢- هزيمة الأشراف لوائل سنة ١٢٣هـ
 وجيش ابن الحبحاب جيشاً آخر احتفل في تكوينه وجعل فيه نفرأً عظيماً من أشراف حرب إفريقية والظاهرين منهم ، ورعى بهم قوات خالد بن حميد الزناتي ، فلم يكده هذا الجيش العربي - يقوده خالد بن حبيب الفهري - يقارب طنجة ويلقى البربر ويشند القتال بينه وبينهم حتى فجأه خالد بن حميد من خلف بعسكر عظيم ، فانهمز بعض أصحاب خالد بن حبيب وكره هو أن ينهزم ، فألقى بنفسه هو وأصحابه في أوار المعركة ، فقتل هو ومن كان معه ولم يسلم منهم أحد : «وقتل في هذه الواقعة حماة العرب وفرسانها ، فسميت وقعة الأشراف وانتقضت البلاد ومرج الناس ، واختلفت الأمور على عبيد الله ، فاجتمع الناس وعزلوه عن أنفسهم»^(١) .

وبلغ ذلك هشام بن عبد الملك فغضب غضبة «مضرة» لفظاً ومعنى ، وقرر إرسال جيش عربي عظيم إلى إفريقية ليؤدب البربر ويقضي على ثورتهم ، وعزل عبيد الله بن الحبحاب في جمادى الأولى سنة ١٢٣ / ٧٤٠ . وقد أصاب بعزله إياه ، لأن الرجل كان قد تمادى في سوء التصرف بعد هذه الهزيمة ، وكان دافعه الأول إلى ذلك الرغبة في الانتقام لقتل ابنه إسماعيل^(٢) .

ويبدو أن ابن الحبحاب شك في أن لعرب إفريقية بدأ في هذه الهزيمة ، فاتهم نفراً منهم بأنهم اتفقوا مع البربر والأفارقة على إيقاع الهزيمة بجيشه ، وكانت جماعة من هؤلاء العرب الإفريقيين تقيم في تلمسان يرأسها موسى بن أبي خالد ، أحد موالى معاوية بن حديج أحد كبار قادة العرب الذين ساهموا في فتح إفريقية بنصيب كبير ، وكان عامل تلمسان « وقد اجتمع عليه من تمسك بالطاعة ، فقبض عليه ابن الحبحاب وقطع رجله ويده »^(٣) ثاراً لقتل ابنه إسماعيل فأنار على نفسه بذلك العرب الإفريقيين أجمعين ، ودفعهم إلى الخروج عليه صراحة ، واضطربت أمور البلاد كلها . وكان هذا - في الغالب - هو ما حدا بهشام بن عبد الملك إلى الإسراع في عزل ابن الحبحاب واستبدال غيره به^(٤) ، وتم ذلك في جمادى الأولى سنة ١٢٣هـ / ٧٤٠م .

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج ١ ص ٣٥ .

(٢) « وبلغ ذلك هشام بن عبد الملك ، فقال : أتفل هؤلاء الرجال الذين كانوا يقدمون علينا من الغرب ؟ قيل : نعم ! فقال : والله لأغضين لهم غضبة عربية » - نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

النويري : نهاية الأرب ، ص ٣٥ .

٥٤- كلثوم بن استقر رأى هشام بن عبد الملك على أن يعهد في ذلك إلى رجل من زعماء عياض القشيري القيسية توسم فيه القدرة ويُعد النظر وهو كلثوم بن عياض القشيري ، ولم يكن هشام بأحسن حظاً في هذا الاختيار منه يوم عهد في إفريقية والأندلس (١٢٣هـ/٧٤١م) إلى ابن الحبحاب : كان كلثوم بن عياض قيسياً شديداً الاعتداد بقيسيته ، وكان في نفسه إلى جانب ذلك غرور جعله يظن أن البربر قوم لا حيلة لهم في الحرب ، وأنهم إذا كانوا قد انتصروا على عبيدة بن عبد الرحمن وعلى عبيد الله بن الحبحاب ، فإنها يرجع ذلك إلى جهل هذين وقلة اقتدارهما . وكان الخليفة قد أوسع عليه في النفقة ، وأمر عمال مصر وطرابلس وإفريقية أن ينضموا إليه بكل ما يستطيعون من رجال وخيل وعدة ، فزاده ذلك غروراً . خرج كلثوم بعدد عظيم من دمشق ومرّ بمصر فاستصحب عدداً من خيرة جندها وكذلك فعل بطرابلس وإفريقية. فاجتمع له جيش عظيم^(١) جعل على مقدمته قائد خيله بلج بن بشر القشيري^(٢) .

وكان فارساً شهياً إلا أنه كان أشد غروراً وعصبية من كلثوم ، وجعل على رجاله ثعلبة ابن ثوابة الجذامي ، وكان من غلاة القيسية كذلك.

ويبدو أن كلثوماً عوّل على القتال حتى الموت ، لأنه أوصى بأن يخلفه بلج في القيادة إذا أصابه شيء ، فإذا قتل بلج خلفه ثعلبة بن ثوابة .

٥٥- العرب الإفريقيون كان جند إفريقية إذ ذاك موافقين للبربر بناحية طنجة في انتظار المدد من دمشق ، وكانت نواة هؤلاء الجند جماعة من العرب. طال بهم المقام والعمل في إفريقية حتى أصبحوا يعتبرون أنفسهم أفارقة لا يطمنون إلى أحد من القادمين من المشرق ، مثلهم في ذلك مثل عرب الأندلس إذ ذاك : كانوا يعتبرون أنفسهم « أهل البلد » ويتسمون بالبلديين ؛ وقد تكونت جماعات العرب الأفارقة من جند العرب الأوّل الذين استقروا أثناء الفتح أو بعده فيما راقهم من نواحي المغرب .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٩-٢٢٢ ويقال إن بلجاً كان ابن أخيه : النويري ، نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٣٥ وراجع تعليق فورنل على هذا الجيش :

H. FOURNEL, Les Berbères : I, p. 292 .

ويقصر ابن عذاري في الجزء الأول من تاريخه على ذكر عدد الشاميين في هذا الجيش وهم ١٢ ألفاً من الفرسان كان يقودهم بلج بن بشر (البيان ، ج ١ ، ص ٣٨) ، ثم يذكر في الجزء الثاني أن عدة الجيش كله كانت ٣٠ ألفاً (البيان، ج ٢ ، ص ٣٠) ويؤيد، في ذلك ابن القوطية (افتتاح الأندلس ، ص ١٤) ، أما ابن حبان فيجعل عدة الجيش ٧٠.٠٠٠ (أورد تلك الرواية المقرئ في نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١٢) .

وقد جرت عادة هؤلاء العرب أن يستقروا في النواحي بمن انضم إليهم أو صار في ولايتهم من البربر ، فاعتبروا مواليهم واندجوا فيهم مع الزمن ، وبهذا كثرت جموع هؤلاء العرب الإفريقيين البلديين وأصبحوا قوة سياسية لها خطرهما . ولما كان هؤلاء العرب الأوّل هم الذين فتحوا البلاد ، فقد أصبحوا يعتبرون أنفسهم أصحابها وملوك نواحيها ، لا يكاد يجرؤ غيرهم من غير قبائلهم على الاستقرار معهم فيها . ووفد إليهم من بلاد العرب طوائف من أبناء عصبيتهم وانضموا إليهم فاشتدت بهم سواعدهم ، ولما كان معظم من شارك في فتح إفريقية من العرب يمنيون فقد كثر جمع اليمنيين في إفريقية ، كما كثروا في الأندلس ، وانضمت إليهم جماعات من البربر الزناتية ، وأخذوا ينظرون للقيسيين خاصة نظرهم إلى عدو دخيل .

ومن هنا نفهم السر في هذا النفور العنيف الذي أظهره عرب إفريقية البلديين عندما أخذ ولاية القيسيين يتعاقبون على إفريقية تصاحبهم جماعات قيسية قليلة تريد الاستقرار في البلاد . ولنصف إلى ذلك أن عدداً عظيماً من فاتحي إفريقية أنشأوا فيها أسراً من أهلهم وذريتهم ، فأصبحت هذه الأسر مع الزمن ذوات جاه وسلطان بفضل من التف حولها من العرب والموالي والأتباع ، وأصبحت لها رئاسة على جماعات العرب والبربر في النواحي التي استقرت فيها ، ومن بيوت هذه الأسر بيت بنى عقبة بن نافع وكان أقواها وأعظمها ، وبيت معاوية بن حديج ، وبيت بنى نصير . وكان هذه البيوت الثلاثة النصيب الأوفى من السلطان في إفريقية خلال العصر الأموي ، بل صارت الأمور أخيراً إلى بيت عقبة بن نافع عملاً في شخص عبد الرحمن بن حبيب بن عقبة^(١) .

وكان هؤلاء العرب الأفارقة « البلديون » مقيمين جماعات ، كل جماعة في ناحية عليهم رئيس منهم يقوم بشئون الإقليم لحساب عامل إفريقية في القيروان . وقد سجل المؤرخون لنا منهم جماعات قوية في طرابلس وسبّرت وقابس والقيروان ، ومن شخصيات هؤلاء العرب الإفريقيين في ذلك الحين : حبيب بن ميمون (سبّرت) ، وعبد الرحمن بن عقبة

(١) راجع تراجم : عقبة بن نافع ، ورويفع بن ثابت الأنصاري ، ومعاوية بن حديج ، وربعة بن عباد الدبلي ، وزبيد بن الحارث الصدائي ، وأبي عبد الرحمن بن بسر بن أرطاة ، وأبي عبد الرحمن عبد الله بن زيد (الإفريقي) ومن بعده من التابعين في :

الملكي : رياض النفوس ، ج ١ ص ٤١ وما يليها .

الدباغ : معالم الإيمان ، ج ١ ، ص ٩٩ وما يليها .

الغفاري ، ومسلمة بن سودة القرشي (القيروان) ، وصفوان بن أبي مالك (طرابلس) وسعيد بن بجرة الغساني (قابس) وحبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ، ويبدو أنه كان رأس هؤلاء العرب الأفارقة جميعاً ، وكان مقبياً إذ ذاك بجموع من هؤلاء العرب عند طنجة موافقاً لخالد بن حيد الزناتي زعيم البربر الثائرين وخليفة مسيرة^(١) .

ولم تكن العلاقات بين هؤلاء العرب الأفارقة النازلين مدائن إفريقية وأريافها وبين البربر من أهل البلاد على ما يرام ، لأن العرب جميعاً كانوا لا يطمثون إلى البربر بعد هذه الحرب الطويلة التي كانت بين الجانبين أيام الفتح . ولأن العرب الأفارقة كانوا يعدون أنفسهم سادة البلاد وأهلها ، ولأنهم كانوا إلى ذلك عماد الحكام وولايتهم على النواحي ، فكرههم البربر لذلك وحملوهم تبعات مظالم هؤلاء الحكام ، وكان من هؤلاء العرب البلديين قدامى معظمهم من اليمانيين منذ أيام موسى بن نصير وبنه وجُدّد غالبيتهم من القيسية ، وكان الفريقان متعادين كما لاحظنا^(٢) .

لهذا كان طبيعياً أن تكون ثورة البربر في إقليم طنجة إيذاناً بثورة عامة جديدة من البربر جميعاً على من بين أظهرهم من العرب ، سواء أكانوا من رجال الدولة وجندها أو عرباً مستقرين مسالين . ومن هنا فإننا لا نستطيع القول بأن هذه الثورة كانت في صميمها ثورة بربر على عرب ، بل كانت فتنة عامة بين جماعات متنافرة ، ولم يكن معظم المشتركين فيها يميلون إلى بني أمية ، ولهذا فقد كانت الحركة في جللتها فتنة إفريقية عامة وثورة على بني أمية .

٥٦-ثورة البربر وصل كلثوم بن عياض إفريقية ، ولم يشأ أن يريح بالقيروان ، بل أراح ببلدية على العرب في طرابلس سببية على مقربة منها (شوال ١٢٣هـ/ أغسطس ٧٤١ م) . ثم انصرف

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٩ - ٢٢٢ .

(٢) نذكر المراجع في أخبار ولاية عبيد الله بن الحبحاب قصة تصور لنا هذا العدا بوضحة ، ملخصها أن عبيد الله لم يكذب على إفريقية حتى قدم عليه عقبة بن الحجاج السلولي ، وكان الحجاج - أبو عقبة - قد اعتق الحارث جد عبيد الله ، أي أن بني الحارث - وهم بنو الحبحاب وغيرهم - كانوا موالى الحجاج السلولي وبني سلول ، فقام ابن الحبحاب لعقبة وشرفه ، فأنكر أولاده ذلك ، وخشوا أن يحط من قدرهم في نظر عرب إفريقية ، ولأموأ أباهم في ذلك . فانتظر ابن الحبحاب حتى اليوم التالي ، فلما اجتمع الناس وعمر المجلس استقدم عقبة وأعلن إليه أمام الناس أنه وليه وخاطب أولاده مؤنباً إياهم على عقوقهم نحو الحجاج وبنه ، فخجل الأولاد من أنفسهم وهذا يدل على أن أولاد عبيد الله كانوا يعتبرون أنفسهم عرباً أفارقة ، أي من أصحاب البلاد ، فكروا أن يسودهم هذا المشرق المقبل ويحط من قدرهم ، وهم في هذا يعبرون عن شعور العرب الأفارقة عامة نحو من كان يقبل من العرب ، انظر : الأخبار المجموعة ، ٢٦ - ٢٧ .

بجموعه إلى ناحية طنجة مخلفاً على إفريقية عبد الرحمن بن عقبة الغفاري ومسلمة بن سودة القرشي . فلم يكذب يتعد عنها حتى نهض زعيم من زعماء زناته يسمى عكاشة بن أيوب الغفاري - وكان من الخارجية الصفرية - فجمع جموعه بناحية قابس ، وأرسل أخاه في نفر من البربر ، فحصروا حبيب بن ميمون ومن معه من العرب في سبرت ، وأقام محاصراً لهم حتى خف لنجدتهم صفوان بن مالك رأس عرب طرابلس ، فانهمز البربر إلى قابس ، وكان عرب القيروان قد علموا بالأمر وخشواً مع أميرهم مسلمة بن سودة إلى قابس لنجدة عرب هذه الناحية والقضاء على ثورة البربر ، والتقى الجمعان بأحواز قابس ، فانهمز العرب وعادوا مفلولين إلى القيروان حيث أقبل البربر يحاصرونهم بها^(١).

بهذا زاد مركز عرب إفريقية حرجاً : انهزمت قواتهم عند قابس وحاصروهم البربر في القيروان ، وانهزمت قواتهم عند طنجة قبل ذلك ، وأقام خالد بن حميد الزناتي موافقاً لمن بقي منهم على نهر سبو ، وأخذ يؤلب بقية البربر عليهم ويستعد لمعركة فاصلة جديدة بينه وبينهم .

٥٧- الحلاف بين العرب الأفاقة ليلقوا البربر ، ولو قد كان كلثوم حسن السياسة لتودد إلى عرب إفريقية و كلثوم بن عياض ومن معه من القيسية وكسب قلوبهم حتى يقف العرب جميعاً جبهة واحدة أمام الخطر الداهم ، ولكنه لقي هؤلاء العرب بمعاملة نفرتهم منه وصرقتهم عن عونه ، وكان كما قلنا قيسياً جافياً شديد الاعتزاز بنفسه: أنف أن يتزل القيروان وأراح في سبيته ، ثم تقدم نحو طنجة وبعث يأمر حبيب بن أبي عبيدة رأس عرب إفريقية بأن يقيم مكانه لا يصنع شيئاً حتى يقدم عليه . وكان بلج بن بشر على مقدمة كلثوم كما قلنا ، ولم يكن أقل عصية ولا كبرياء من كلثوم ، فلم يكذب يلقى عبيدة حتى أهانه وحقره ، وأعلن إليه أن الشامية قد عولت على المقام في إفريقية واتخاذها داراً ، فحز هذا في نفس الأفاقة وأخافهم على ما كان لهم من المكانة في البلاد^(٢) . وزادهم نفوراً من بني أمية والشاميين عموماً .

وبعث حبيب بن أبي عبيدة إلى كلثوم يشكو إليه ابن أخيه ، فلم يلق عنده إنصافاً كافياً ، فامتلات نفس أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ونفوس من معه من العرب البلديين سخطاً على

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٩ .

(٢) ابن عسافى : البيان ، ج ١ ، ص ٤١ .

الشامية وخوفاً منهم . ثم وصل كلثوم إلى نواحي طنجة ولقى حبيباً ، فعامله نفس المعاملة التي عامله بها بلج قبل ذلك ، وتقدم أبو عبيدة بن عقبة (أبو حبيب) يريد نصح كلثوم فرفض نصيحته وأهانته ، وبهذا انقسم المعسكر العربي قبل المعركة إلى فريقين ينطوي أحدهما على اللدد نحو الآخر : فريق العرب الأفارقة على رأسهم أبو عبيدة بن عقبة وابنه حبيب بن أبي عبيدة وحفيده عبد الرحمن بن حبيب ، وفريق الشامية المقبلين وعلى رأسهم كلثوم بن عياض وبلج بن بشر ، فكان هذا الانقسام أسوأ الأثر في مجرى الحوادث^(١).

وكانما أراد هشام بن عبد الملك أن يزيد الموقف تعقيداً ، فأمر كلثوم أن يسير وفق التوجيهات التي يرسمها له هرون القرنى مولى معاوية بن هشام ومغيث الرومى مولى الوليد ، وقد أمره الخليفة بهذا بحجة أنها أعرف ببلاد إفريقية ،^(٢) وكان أولى به أن يأمره بالاتفاق مع العرب الأفارقة ، لا بطاعة هذين الموليين اللذين سيزيدان الأمر تعقيداً وحرراً . ويبدو أن هشاماً أراد أن يكونا رقيبين على كلثوم ، لأن الجيش الذى كان معه كان عظيماً جداً ، كانت عدته تبلغ السبعين ألفاً على بعض المؤرخين .

وليس أدل على ما كان بين الحيين من النفور من أن العرب البلديين كانوا يغلقون أبواب مدنهم إذا سمعوا بمقدم الشامية ، ويبدو أن بلجاً لم يدخر وسعاً في زيادة نفورهم ، فجعل يقول إنه إنما أتى ليستقر بمن معه في إفريقية كما ذكرنا ، ولم يكن ليستطيع أن يثير نفوس الأفارقة بأكثر من هذا ، لأن معظم من كان قد استقر في إفريقية إلى الآن كانوا يمنية كلبية ، وكان مجرد التفكير في إقرار بضعة آلاف من القيسية الشامية معهم في نواحيهم كافياً لإثارة نفوسهم وإذكاء نار العداوة فيها . هذا إلى أن القيسية كانت فيهم جفوة وقلة كياسة وشدة في العصبية ، فكانوا لا ينزلون بلداً إلا أثاروا أهله - عرباً أو غير عرب - هكذا فعلوا في خراسان وفي شمال إفريقية وفي الأندلس .

(١) يقول ابن عبد الحكم في وصف هذه الحالة النفسية التي سادت الجانبين : * وكان كلثوم حين خرج إلى البربر قد قدم بلج بن بشر القيسى على مقدمته في الخيل ، فلما قدم على حبيب رفضه وأهان منزلته ، ثم قدم كلثوم فتلغاه حبيب فتهاون به أيضاً ، ثم خطب كلثوم الناس على ديدبان له فطعن في حبيب وشتمه وأهل بيته ... » - ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٩ - بل بلغ من اضطراب النفوس أن دار القتال بين الجانبين قبل أن يلقوا البربر ، ولم يستطع كلثوم إقرار السلام إلا بعد جهد . وكان بلج بن بشر من أكثر الناس عصبية لقبسيتيه ، وهو المستول على كثير مما نزل بالعرب في إفريقية والأندلس من البلاء في ذلك الحين .

ابن عذاري : البيان ، ج ١ ، ص ٤١ - ٤٢ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٣١ .

٥٨-هزيمة على هذه الحال التقى الجيش العربي مع البربر يقودهم خالد بن حميد الزناتي العرب عند عند بليلة تسمى بقدورة أو نقدورة على مقربة من تاهرت قرب مصب نهر بقدورة مَلَوِيَّة^(١) ، وقد رأى هرون القرنى ومغيث الرومى أن أعداد البربر عظيمة جداً ، وخافا على العرب منها ، فصححا كلثوماً بأن يضرب حول معسكره خندقاً ، ولكن الغرور ملأ نفس بلج ، وظن أنه إذا جال بخيله لم يلبث البربر أن يتفرقوا ، وغاب عنه أن البربر قوم ذوو جلد على الحرب وحيلة في الميدان ، فصنعوا أكياساً من الجلد ملأوها بالحجارة ، وأخذوا يقذفونها على رؤوس الخيل ، فنفرت وروعت ، ولم يستطع الفرسان القتال عليها ، فأمرهم كلثوم أن يترجلوا ، ولم يكن البربر يرجون خيراً من ذلك ، فانقضوا على العرب وأحاطوا بهم ، وأعملوا فيهم السيوف ، وتبدت طلائع الهزيمة لكلثوم ، فخطب حبيب بن أبى عبيدة وعرض عليه قيادة الجيش ، فقال حبيب : قد فات الأمر ! ثم اشتد القتال وأحاط البربر بالعرب حتى كادوا يأتون عليهم أجمعين ، فلما رأى حبيب ذلك عزم على الاستشهاد وأوصى ابنه عبد الرحمن أن يلزم بلجاً ، وقاتل حتى قُتِل ، وهكذا أبدى هذا العربي الفهري من الشهامة والبراعة ما يملك النفس ، وراح ضحية شدة القيسين وعصبيتهم .

وكان بلج قد رفض أن ينزل عن جواده وبقي معه نحو عشرة آلاف ، فحملوا على البربر في عنف حتى اخترقوا صفوفهم ووصلوا خلفهم ، ثم استدار لهم البربر وكاثروهم حتى اضطروهم إلى الفرار ، ففروا - يتقدمهم بلج - في اتجاه طنجة . وأما بقية العرب فقد أحاط بهم البربر واشتدوا في قتلهم حتى قُتِل هرون ومغيث وحبيب بن أبى عبيدة وكلثوم نفسه ، وانتهت المعركة بهزيمة كبرى للعرب ، حتى ليؤكد المؤرخون أن ثلث هذا الجيش العربي الكبير قد قتل وأن ثلثه الآخر راح أسيراً ، وأما الباقون فقد تفرقوا فلولاً مهزومة لا تكاد

(١) بين المؤرخين خلاف حول مكان هذه الموقعة ، فيذهب الرازى إلى أنها كانت على نهر ملوية (روى ذلك ابن خلدون : العبر ، ج ١ ، ص ١٥٢) ، ويذهب ابن عذارى وابن خلدون إلى أنها كانت على نهر سبو (ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ٤٧ ، وابن خلدون : العبر ، ج ١ ، ص ١٣٧) ، أما صاحب الأخبار المجموعة فيذهب إلى أن الموقعة كانت عند بليلة تسمى نقدورة أو بقدورة (الأخبار ، ص ٣١) ، وجعلها ابن القوطية بقدورة (بالفاء) - انظر الافتتاح ، ص ١٥ ، ولم نجد بليلة بهذا الاسم في هذه الناحية من إفريقية ، وربما كانت صحة الاسم بقدورة بالباء ، فقد ذكر ابن خلدون بليلة بهذا الاسم دون أن يحدد موقعها . وقد رجحنا رأى الرازى وابن خلدون راجع : العبر (طبعة دى سلين) ، ج ١ ، ص ٣٥٤ . وانظر أيضاً :

تلوى على شيء بعد السلامة^(١) (١٢٤ هـ).

انهزم بلج وأصحابه من الشامية إلى الغرب * واتبعهم أبو يوسف الهواري ، وكان طاغية من طواغيت البربر ، فأدرّكهم فقاتلهم ، فقتل أبو يوسف وانهزم أصحابه^(٢) واستطاعوا آخر الأمر أن يدخلوا سبتة ويتحصنوا بها ، وأقبل البربر يحاصرونهم ويهاجمونهم المرة بعد المرة ويحاولون الاستيلاء على هذا البلد منهم ، فلم يستطيعوا ، فلما يشوا قطعوا الزروع حول الحصن ، وأقاموا مشددين الحصار حوله حتى عدم بلج وأصحابه الأقوات وساءت حالهم كثيراً .

وزادت ثورة البربر والخوارج في إفريقية عنفاً ، وقام من البربر في كل ناحية زعيم يقود مواطنيه في هذا الكفاح : قام أبو يوسف الهواري يقود بربر إقليم طنجة ويقاثل بلجاً ومن معه ، وتجمعت جموع عظيمة منهم في ناحية الزاب يقودها قائدان بربريان هما عكاشة بن أيوب الفزاري الصفرى الخارجى ، وعبد الواحد بن يزيد الهواري ، وأخذوا يستعدان للسير نحو القيروان ، فلما أتت العدة سار عكاشة على طريق مجانة واقترب من القيروان وعسكر عند « القرن » وأما عبد الواحد فسار على طريق الجبال واقترب من القيروان وعسكر عند طُبنة ، وكان على مقدمة جيشه أبو قرّة المغيل^(٣) . وكان أبو قرّة من كبار زعماء الخوارج . وكان قد نادى بنفسه إماماً . وكان بربرياً مستعرباً من قبيلة مغيلة .

وكانت هزيمة « الأشراف » قد روعت هشاماً وملأت نفسه خوفاً من ناحية
٥١- جيوش الخلافة تندخل البربر ، كما رأينا ، ثم وقعت هذه الهزيمة عند بقدره فكانت ضغثاً على ابالة ، وأحس أن المسألة ليست باليسر الذى تصوره ، وأن الثورة إذا استمرت على هذا النحو فربما كانت نتيجتها خروج المغرب والأندلس جملة عن طاعة الخلافة ، ففعل

(١) ابن عبد الحكم : افتتاح ، ص ٢٢٥ .

ISIDORI PACENCIS, Cronicon, cap. 68-69 .

الأخبار المجموعة ، ص ٣٢ .

ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٥ .

التويرى : نهاية الأرب ، ج١ ، ص ٣٦ .

أبو المعانس : النجوم الزاهرة ، ج١ ، ص ٣١٩ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٠ .

التويرى : نهاية الأرب ، ص ٣٧ .

FOURNEL, Les Berbères, I, p. 299 n.2.

وراجع :

بتخير نحو ثلاثين ألفاً من خيرة جنده بعثها إلى حنظلة بن صفوان عامله على مصر ، وأمره بالإسراع إلى إفريقية ، فوصل حنظلة القيروان بجنوده في ربيع الأول سنة ١٢٤هـ / ٧٤١م ، وأخذ يرسم الخطة للقضاء على هذه الثورة الخطرة . وكان هشام - رغم مرضه - دائم الاتصال بحنظلة وجيشه لتوجيههم والاطمئنان على مصيرهم ، وتحدثنا المراجع أنه هو الذي رسم لحنظلة خطة العمل ، فنصحته بأن لا ينتظر حتى يجتمع الجيشان البربريان عليه ، وأن يعجل بحرب كل منهما على حدة^(١) .

وقد فعل حنظلة ذلك : خرج للقاء عكاشة ومن معه عند القرن فالتقى بهم وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً ، وقتلهم قتلاً ذريعاً . ويبدو أنه خسر عدداً عظيماً من جنده في هذه الواقعة ، لأنه عاد إلى القيروان بعدها ليستعد للسير إلى جمع البربر الثاني المعسكر على مقربة من طُبْنة يقوده عبد الواحد بن يزيد الهوارى وأبو قرة المغيل .

يذكر النويرى أن عبد الواحد كان في ثلاثمائة ألف^(٢) ، وظاهر أن تقديره هذا مبالغ فيه ، لأنه لو كان في هذا العدد العظيم حقاً لما استطاع حنظلة الانتصار عليه بالعدد القليل الذى كان معه ، ولكن الثابت أن حنظلة بذل أقصى جهده في الاستعداد لهذه المعركة الخطيرة الحاسمة ، وأنه تناسى قيسيته في هذه اللحظة الحاسمة ، وجمع العرب جميعاً ، أفارقة وغير أفارقة ، على لواء واحد للدفاع عن مصير العرب ومذهب السنة والجماعة في إفريقية « فأخرج ما في الخزائن من السلاح ، ونادى في الناس فكان يعطى لكل منهم درعاً وخمسين ديناراً ، فلم يزل يفعل ذلك حتى كثر عليه الناس ، فرد العطاء إلى أربعين ثم إلى ثلاثين ، ولم يقدم إلا شاباً قوياً . فعبا الناس طول ليلته ، والشمع حوله وبين يديه ، فعبا في تلك الليلة خمسة آلاف دارع وخمسة آلاف نابل ، وأصبح وقدم للقتال ، وكسرت العرب جفون سيوفها ، والتقوا ، ولزم الرجال الأرض ، وجثوا على الرُكْب ، وكان ذلك بمكان يسمى « الأصنام » على وادى نهر شلف جنوب غربى مدينة الجزائر الحالية ، واشتد القتال وصبر العرب صبر الفناء^(٣) .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٧ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ص ٣٧ .

(٣) وبعث حنظلة أبا الخطار والياً على الأندلس . وأمره أن يبعث إليه مدداً من جندها ، ويبدو أنه لم يوفق إلى شيء ، لأن حال العرب في الأندلس لم يكن حسناً كما سنرى . عن معركة القرن والأصنام انظر : ابن عبد الحكم : فوح ، ص ٢٢١ - ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٥ - اسن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ٤١ - الأخبار المجموعة ، ص ٣٦ ، ٣٧ - النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٣٧ ، والنص الوارد هنا عن النويرى . هذا والأصنام موضع كانت فيه آثار رومانية قديمة في ذلك الحين ، وقد اختلف المؤرخون في تحديد مكانه ، وأقرب آرائهم إلى الصحة هو =

وكان عكاشة قد أيسر في القرن ، فأمر به حنظلة فقتل صبراً^(١) ، وانتهت المعركة بانتصار العرب ، وقتل فيها عبد الواحد وانقسم ظهر الثورة وأخذت البلاد تهدأ ، وكان ذلك سنة ١٢٥هـ / ٧٤٣م .

ومات هشام قبل أن تصله أخبار هذا النصر ، وخلفه الوليد بن يزيد ، فأقر حنظلة على ولاية إفريقية ، وساد السلام ربوعها أثناء خلافته القصيرة ، لأن حنظلة كان معتدلاً في عصبية ، فأخذ عرب البلاد يطمئنون إلى مصيرهم ، ولزم البربر السكون بعد هذه الهزائم القاسية ، وكان انتصار حنظلة انتصاراً لمذهب السنة والجماعة ، فمن ذلك الحين رجحت كفة السنة على الخارجية ، ولهذا يعتبر أهل السنة من المغاربة هذه المعركة معادلة لمعركة بدر الكبرى .

ولكن الأخبار لم تلبث أن وردت بمقتل الوليد بن يزيد في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ / أبريل ٧٤٤م ، وكان الوليد شديد العصبية للقيسين دائم الانتصار لهم ، وكان مقتله إيذاناً بانتصار أعدائهم اليمينيين وعودتهم إلى السلطان . ولهذا ريع القيسيون في إفريقية عندما بلغهم النبأ ، وخافوا أن يتقلب عليهم اليمينيون والبربر الزناتيون يؤازرهم الخليفة الجديد وأنصاره ، فخرج إلى الشام نفر من كبارهم وجندهم ، وبقي حنظلة في نفر قليل من القيسية^(٢) .

٦٠- ظهور ويبدو أن القيسيين كانوا على الحق فيما تخوفوا من انقلاب اليمينيين عليهم ، أمر عبد الرحمن لأن رأس هؤلاء العرب الأفارقة البلديين ، عبد الرحمن بن حبيب بن أبي ابن حبيب عبيدة بن عقبة بن نافع لم يلبث أن بادر إلى العمل .

كان عبد الرحمن مع بلج بن بشر في الطائفة التي انهزمت إلى سبتة عقب هزيمة الأشرف ، إذ كان أبوه حبيب بن أبي عبيدة قد أمره بأن يلزم بلجاً ، فلما انهزم بلج ولجأ إلى سبتة ، تركه عبد الرحمن ومضى إلى الأندلس ليلقى أميرها إذ ذاك عبد الملك بن قطن الفهري - اليمنى مثله - وجعل يثيره على بلج وأصحابه ويخوفه منهم . فلما تسامع بموت الوليد وخرج

= ما يذهب إلى أن الأصنام تقع على ثلاثة أميال شمال القيروان على مقربة من جلولاء . راجع : FOUR- NEL, Berbères, I. p. 300 n. 4 .

(١) ابن عذاري : البيان ، ج ١ ، ص ٤١ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .

معظم القيسية إلى الشام عاد إلى إفريقية معجلاً ، وجمع أصحابه الأفارقة وعسكر بهم في مكان يعرف بسبخة سَجُوم في أوائل سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٥م^(١) ، وقرر أن ينتهز الفرصة ويخلص إفريقية من القيسية جملة ، فكتب إلى حنظلة ومن معه يطلب إليهم ترك القيروان وإخلاء البلاد ، وأمهلهم ثلاثة أيام . وشاء حنظلة أن يقاوم ، ولكنه رأى قلة من معه ، وبلغته أنباء اضطراب الأمر على الأموية في الشرق ، فقرر ترك إفريقية والعودة إلى المشرق .

ويبدو أن حنظلة لم يقرر ذلك مختاراً بل مضطراً ، فقد بدا له من اختلاف عرب إفريقية عليه وتواطئهم مع عبد الرحمن بن حبيب ما أخافه وزهده في المقام بهذه البلاد ، فقد حدث بعد انتصاره في موقعتي القرن والأصنام أن أمر قائده على طرابلس معاوية بن صفوان أن يخرج لحرب نفر من الصفرية من نفاوة ، فخرج إليهم وحاربهم وانتصر عليهم ولكنه قُتل في المعركة ، وأرسل بعد ذلك بقليل نقرأ من وجوه العرب إلى عبد الرحمن ليصالحوه وليردوه إلى الطاعة ، فاستألمهم هذا بالأموال فانقلبوا على صاحبهم الذي أرسلهم^(٢) ، وضاعت الأمور بحنظلة ، واستبان أن أمر بني أمية كله إلى زوال ، وطمع فيه عبد الرحمن بن حبيب ، فجمع أصحابه ومضى بهم إلى القيروان .

٦١- عبد الرحمن واحتل عبد الرحمن بن حبيب القيروان واستقر بها أميراً ، وصار الأمر في ابن حبيب يعقل المغرب بعد هذا الكفاح الطويل للعرب الأفارقة البلديين بعد نزاع طويل مع القيروان البربر حيناً والعرب المشاركة القيسية حيناً آخر ، وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ١٢٧هـ/ أبريل ٧٤٥م^(٣) .

٦٢- ختام النزاع بين القيسية واليمينية في إفريقية كان انتصار عبد الرحمن بن حبيب وسيادته على إفريقية ختاماً للنزاع بين القيسية واليمينية في إفريقية ، لا لأن الفريقين انتهيا إلى التفاهم والسلام في إفريقية بعد هذه المنازعات الخطيرة ، بل لأن توالى الحروب مع البربر حيناً وبينهم

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج١ ، ص ٣٩ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٣ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٠ .

الأخبار المجموعة ، ص ٢٣-٣٥ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج١ ، ص ٤١-٤٣ .

ابن الأثير : الكامل ، ج٥ ، ص ٤٣ .

ابن الأبار : الحلة السراء ، ص ٥١ .

وبين أنفسهم حيناً كان قد انتهى بإضعاف العرب جميعاً في المغرب ، فلم يعد لديهم من القوة ما يمكنهم من طلب السيادة على هذه البلاد الواسعة . ثم إن زمان سيادة العنصر العربي في الدولة الإسلامية كان قد ولى بزوال الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية مكانها بعد ذلك بسنوات (١٣٢هـ / ٧٤٩-٧٥٠م) ، فلم يعد لعرب إفريقية - قيسية ويمينية - أى رجاء في أن تقف الدولة إلى جانبهم وتؤيد هذا الفريق منهم أو ذلك على هذا النحو الذى جرى عليه خلفاء بنى أمية .

ولم يكن انتصار عبد الرحمن بن حبيب انتصاراً للعنصر العربي في الواقع ، وإنما كان انتصاراً لهذه الطائفة الإفريقية من العرب التى كانت زناتة تؤيدها وتشد أزرها وهى طائفة العرب البلديين ، ولهذا نستطيع القول أن انتصاره كان انتصاراً لزناتة من بعض الوجوه ، ومصداق ذلك أن الأمر لم يَصْفُ لعبد الرحمن بن حبيب شهراً واحداً بعد ولايته تلك ، فقد بايع لمروان بن محمد ، فلما قتل بايع لأبى جعفر المنصور ثم اختلف معه وخلع طاعته ، واستقل بأمره ، ولم يلبث النزاع أن دب بينه وبين من كان معه من العرب ، وانتهى الأمر بقتله على يد أخيه إلياس بن حبيب سنة ١٣٨هـ / ٧٥٥ - ٧٥٦م ، ولم يكن إلياس بأحسن حظاً من أخيه ، لأن الحرب استمرت بينه وبين ابن أخيه حبيب ، وقتل بعد ستة أشهر ، وخلفه ابن أخيه حبيب بن عبد الرحمن الذى لجأ إلى بربر ورفجومة وكانوا خوارج وسار رئيسهم عاصم بن جميل وهو ابن أخت طارق بن زياد ودخل القيروان وقضى على بقية بنى حبيب . ولم تدم ولايته أكثر من ثمانية عشر شهراً كلها حروب ومنازعات ، وانتهى أمره وأمر بيت حبيب كله في المحرم سنة ١٤٠هـ / ٧٥٧م .

وسنحت الفرصة لورفجومة إحدى قبائل البربر الزناتيين ، بعد أن دخل رجالها القيروان وسيطروا على إفريقية فترة قتلوا من العرب خلالها نفراً كثيراً ، ولم يتنه أمرهم إلا بعد أن أرسل أبو جعفر المنصور واليه على مصر محمد بن الأشعث في أربعين ألفاً : « ثلاثين ألفاً من أهل خراسان وعشرة آلاف من أهل الشام » كان فيهم الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي الذى صارت إليه الأمور كلها في المغرب في جمادى الآخرة سنة ١٤٨هـ / ٧٦٥-٧٦٦م بفضل من كان معه في جيشه من الخرسانيين ، وبفضل من انضم إليه من البربر^(١) .

(١) انظر التفاصيل في :

التويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٤٠ - ٤٦ .

بيد أننا ينبغي أن نقرر أن ما ذكرناه من انتصار محمد بن الأشعث ومن آزره من العرب الأفارقة والبربر لم يكن ختاماً للفتنة الإفريقية والثورة على الشاميين ، لأن حركات الخوارج الصفرية والإباضية استمرت بعد ذلك أشد ما تكون استعازاً وقوة ، ولكي نفهم هذا حق الفهم نعود إلى تفصيل ما أجملنا من تاريخ عبد الرحمن بن حبيب وآله في إفريقية .

٦٢- البربر ذلك أن الأمر لم يكد يستقر في القيروان حتى ظنت قبائل البربر أن أمر يستقلون بنواحيهم العرب قد ولى مع أسس الدابر جملة ، وأنهم الآن في حل من أن يستقلوا بها يسيطرون عليه من النواحي ، فقام في كل ناحية زعيم بربري وأعلن نفسه أميراً : قام عروة ابن الوليد الصدفي واستولى بجاعات من البربر على تونس ، وأعلن أبو العطف الأزدي استقلاله بطيناس ، واقتطع ثابت الصنهاجي وقومه باجه لأنفسهم وانضم إليه عبد الله بن سقرديد ، وقامت جماعات من إباضية هواة يقودها عبد الجبار والحارث الهواريان واستولت على ناحية طرابلس وقتلوا عاملها بكر بن عبس القيسي^(١) ، وخاض عبد الرحمن ابن حبيب وأخوه إلياس من بعده مع هؤلاء الثائرين حروباً طويلة عنيفة استمرت سنوات .

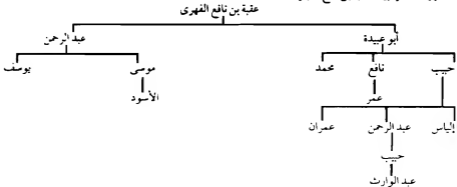
ثم وقع الخلاف بين أفراد بيت بنى حبيب أنفسهم ، فتحارب بنو عبد الرحمن وبنو أخيه إلياس ، وتصب لكل نفر منهم فريق من العرب الإفريقيين حتى اضطربت أحوال البلاد واشتعلت ناراً من جديد ، وانتهى الأمر بأحدهم وهو عبد الوارث قائد جند إلياس وتمكن إلياس من قتل أخيه عبد الرحمن بن حبيب ، فهرب ابنه حبيب إلى ورفجومة إحدى بطون نفزة والاستعانة بها على إدراك ثار عم أبيه عبد الرحمن بن حبيب^(٢) . فنصرته ورفجومة

(١) ابن عدي : البيان ج ١ ، ص ٤٨ وما يليها .

ابن خلدون : العبر ، ج ١ ، ص ١٣٨ .

التويري : نهاية الأرب ، ص ٣٨ وما يليها .

(٢) إليك شجرة بيت عقبة بن نافع في إفريقية .



وشيخها عاصم بن جميل ثم وضع الخلاف بين عاصم بن جميل وحبيب وانتهى الأمر بموت هذا الأخير ، وأصبحت هذه القبيلة الزناتية سيدة إقليم إفريقية . فعجل شيخها عاصم بن جميل ، وكان خارجياً صفرانياً بالمسير إلى القيروان ، وخرج أبو كريب جميل بن كريب قاضيها للقاء ورفجومة يقودها عاصم وأخوه مكرّم ، فثبت لها ثباتاً كريماً بظاهر القيروان ، ثم انهزم وهلك هو ومن بقى معه .

ودخلت ورفجومة القيروان في ذى الحجة سنة ١٣٥هـ/ ٧٥٣م ، وهكذا سقطت عاصمة المغرب الإسلامي في يد البربر الخوارج الزناتيين ، فكان هذا الحادث إيذاناً بزوال سلطان العرب عن المغرب جملة ، وبدا بوضوح أن دولة الخلافة لا بد متخلفة عن هذا القطر الفسيح راضية أو كارهة في القريب أو في البعيد ، فقد اشتدت الخصومة السياسية بين أهل السنة والخوارج ولم يعد هناك سبيل لإصلاح النفوس ، واختلف العرب على أنفسهم فضعف أمرهم وهانوا في نظر رعاياهم .

ولم يلعب بيت عربي في هذا الدور من تاريخ المغرب الإسلامي دوراً يقرب من الدور الخطير الذي لعبه بيت عبد الرحمن بن حبيب ، فقد كان طموح هذا العربي الفهري وتعصبه للعرب الإفريقيين البلديين سبباً مشجعاً للخوارج على موالاته جهودهم ، ولم يكن في نفسه بالرجل الثابت ولا التقدير ، وكان فيه ميل إلى الظلم ، فلم يلبث أن نفروا منه ، ونهض له أخوه إلياس فقتله واستبد بالأمر كما قلنا ، فكان شراً من عبد الرحمن وأعتى ، واختلط الأمر عليه ووثب به أبناء بيته ، فلم يلبث أمر بنى حبيب كلهم أن تفرق وضاع ، وضاع معه سلطان العرب البلديين على البلاد ، ولو لم يتداركها الله بعد ذلك بسنوات قلائل بمحمد بن الأشعث ثم بالأغلب بن سالم بن عقال لما عاد السلام إليها .

ثم إن دخول ورفجومة القيروان واستبداها بشئون إفريقية لم يكونا إلا مظهراً لقوة الخوارج الصفرية وانتشار أمرهم انتشاراً هياً لهم السيطرة على البلاد ، وكانت سيادة هذه القبيلة شراً خالصاً على إفريقية وأهلها ، لأن كراحتهم للعرب بلغت مبلغاً جعلهم

= انظر :

ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٣- ٢٠٤

ابن خلدون : العبر ، ج ١ ، ص ١٠٩ وما يليها وص ١٣٠ وما يليها .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٥٠ وما يليها .

التويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٤٠- ٤٣ .

يستبيحون كل محرم ، وكانت دعوة الصفرية قد أنتهم ولما يتمكن الإسلام من نفوسهم بعد ، فأضلتهم وأخرجتهم عن الإسلام جملة ، ومن ثم لا غرابة في أنهم حينما دخلوا القيروان قتلوا من بها من قريش وساموهم سوء العذاب ، وربطوا دوابهم في المسجد ١٤٠هـ/ ٧٥٧-٧٥٨م^(١) . فآثار عملهم هذا إخوانهم بربر نفوسة ، وكانوا إباضية ، فساروا يقودهم شيخهم أبو الخطاب ، فأخرجوا ورفجومة من القيروان ، وأنزلوا برجالها مذبحة مروعة وقضوا على سيطرتهم على إفريقية .

ومن طريف ما يلاحظ أن أبا الخطاب بدأ عمله بخلع طاعة العباسيين على القيروان ، ولم يتخير عربياً ليقبمه في الإمارة ، وإنما تخير رجلاً من أصل فارسي هو عبد الرحمن بن رستم ، وكان خارجياً إباضياً شديداً العصية لمبادئ الخارجية (١٤١هـ/ ٧٥٨-٨٥٩م) ولم يستطع محمد بن الأشعث قائد المنصور دخول القيروان وإعادة المغرب إلى طاعة المشرق إلا بعد حرب عنيفة وموقعة فاصلة مع نفوسة على مقربة من تورغة إحدى قرى طرابلس (جمادى الأولى ١٤٤هـ/ يونيو ٧٦١م)^(٢) ، وقد هرب على أثرها عبد الرحمن بن رستم إلى أقصى المغرب الأوسط وتحصن بناحية جبل جزول عند تاهرت ، وكانت هناك إذ ذاك بقايا حصن روماني فعمرها واستقر فيها يؤيده البربر الإباضية ، وأعلن نفسه إماماً ، وأنشأ بذلك الدولة الرستمية ، ولم يلبث أن سيطر على المغرب الأوسط كله^(٣) .

وحذا حذوه بربري خارجي آخر هو أبو قرّة المغيلي شيخ قبيلة بنى يفرن وكان صفرياً ، فأعلن نفسه إماماً في نواحي تلمسان . وهكذا استقلت كل جماعة من البربر في ناحية ، ولم يبق للعرب إلا سلطان ضئيل بقي لبعض المضربة في ظواهر القيروان ، وظل من السيطرة بقي لجالية عربية صغيرة أخرى كانت تقيم على الطاعة في نواحي طينة وهمدنة ، ولم يبدأ أمر البلاد إلا على يدي محمد بن الأشعث قائد العباسيين وبعد محمد بن الأشعث ولي أبو جعفر المنصور على إفريقية الأغلب بن سالم بن عقال .

وعندما قُتِل هذا في حربه مع الخوارج تولى أمر إفريقية أبو حفص عمر بن قبيصة المهلبى ،

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج١ ، ص ٤٤ .

(٢) ابن عذاري : البيان ، ج١ ، ص ٦١ .

النويرى : نهاية الأرب ، ج١ ، ص ٤٤-٤٦ .

(٣) البيان المغرب ، ج٢ ، ص ٦١ وما يليها .

النويرى : نهاية الأرب ، ج١ ، ص ٤٤-٤٦ .

وبدأ بذلك حكم المهالبة في إفريقية . وقد استمر حكم المهالبة إلى سنة ١٨٠هـ ثم تولاها هرثمة بن أعين ثم تولى أمر إفريقية إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال الذي أقام دولته بسواعد بعض رجال العرب المشاركة تؤيدهم فرق من الجند الحُرسانية وبعض القبائل الصنهاجية المنافسة للزناتية الخارجية سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠م وعلى يديه خرج المغرب عن طاعة الخلافة العباسية جملة .

كانت ثورات البربر على العرب إذن ختاماً لتبعية إفريقية المطلقة على المغرب ، فإن دولة بني الأغلب تعتبر بداية لعصور استقلال إفريقية عن الخلافة ، ووقفت حدود إفريقية الأغلبية السنية عند مجرى نهر شلف ، أما غربي هذا النهر فقد قامت فيه دولة الخوارج الإباضية الرسمية التي سادت المغرب الأوسط .

٦٤- دولة بني وانتهزت جماعات من برابر مكناسة - إحدى بطون ضريسة - فرصة مدرار في سجلها ابتعادها عن القيروان وانشغال العرب بمنازعاتهم مع البربر ومع أنفسهم ليستقلوا بناحتهم وليقيموا لأنفسهم دولة . كانت هذه البطون من نقوسة تسكن على منابع نهر ملوية عند الموقع الذي ستقوم فيه بلدة سجلها في بعد ، وكانت هذه القبائل تسيطر على قريتي تازا وتسول ، وكانتا إذ ذاك من منازل الرعاة ، فأقبل عليها في مراعيها رجل بربري ممن حجج إلى بيت الله الحرام وأخذ أصول الدين على فقهاء المدينة ، واسمه أبو القاسم سَمكو بن وسول بن مَسْلان بن أبي ازول ، ويبدو أنه كان قد مال إلى ناحية الخارجية ، فدعا النفوسيين إلى مبدئه فانضموا إليه وتعصبوا له ، ولم يلبثوا أن نقضوا طاعة الخلافة في سنة ١٤٠هـ / ٧٥٧ - ٧٥٨م يقودهم شيخهم عيسى بن يزيد الأسود ، ثم اتخذوا سجلها عاصمة لهم فانسعت وتمددت ، ومات عيسى فخلفه ابنه اليسع وخلّف هذا ابنه مدرار ، وفي عهده قوى أمر هذه الدولة البربرية التي عرفت في التاريخ بدولة بني مدرار . وإنما فصّلت أمر نشوء هذه الدولة لأن ذلك يلقي ضوءاً على التطور الباطني الذي كان يجري في المغرب الإسلامي إذ ذاك ، وواضح جداً أن دعاة الصفرية والخارجية أصحاب فضل كبير في نشر الإسلام في نواحي المغرب الأقصى والسوس ، كما رأينا في حالة هذا الداعية أبي القاسم سمكو ، وكما سيحدث في حركات المرابطين والموحدين فيما بعد^(١).

(١) راجع عن هذه الأحداث :

ابن عذارى : البيان ، ج١ ، ص ٦٠ وما يليها .
 الفويري : نهاية الأرب ، ص ٤٤ وما يليها .
 ابن خلدون : العبر ، ج١ ، ص ١٢٩ وما يليها .

٦٥- رأى جوتييه وقد حاول ا.ف. جوتييه جغرافياً المغرب ومفلسف تاريخه على مذهب في ثورات البربر الفرنسيين أن يدرس هذه الحركات الثورية ويلتصم لها أصولها البعيدة في تاريخ المغرب القديم وتكوينه الجنسي ، فانتهى إلى آراء لا بد من إيرادها في ختام هذا البحث^(١). يرى جوتييه أن هذه الثورات هي أخطر حادث في تاريخ المغرب الإسلامي قبل الحركة الفاطمية . فلنعرض آراءه في تحليل أسباب هذه الحركات لأنها تكشف لنا في الواقع عن خصائص هامة ينفرد بها هذا التاريخ المغربي ، وتلقى على الثورات الخارجية البربرية نفسها ضوءاً كاشفاً^(٢).

يرى جوتييه أن هذه الثورة الخارجية في المغرب إن هي في الواقع إلا الدوناتية التي روعت أمن المغرب النصراني من قبل . وتفصيل هذه الحركة الدوناتية في إجمال هو أن «دونات» أسقف كازنوار إحدى بلاد المغرب الأوسط أبى أن يعترف بصقليان (Cicilia-nus) بطريقاً لقرطاجنة ، لأن من انتخبوه كانوا قسماً مشكوكاً في صلاح عقيدتهم ، فغضب عليه صقليان ، وثارَت بينها الخصومة ، وتعصب لكل منهما فريق ، وانقسم نصارى إفريقيا شيعتين ، شيعة صقليان ، وشيعة الدوناتيين المنشقين أو الخارجين عليه .

والخارجية المغربية في نظر جوتييه ، ليست في الواقع إلا شيئاً شبيهاً بالخارجية الدوناتية النصرانية ، فالخوارج المسلمون لا يخالفون غيرهم من المسلمين في أمر من أمور العقيدة - كما تحالف البروتستنتية الكاثوليكية مثلاً - وإنما يخالفونهم في عدم الاعتراف بخلافة معلومة، ويقولون بأحقية علي وأولاده في الخلافة (كذا!) بالقبض كما كان الخلاف بين دونات وصقليان خلافاً حول شخص صقليان وحقه في البطريكية ، والحركات الدينية الخطيرة -

(١) E.F. GAUTIER, Le Passé de l'Afrique du Nord, pp. 260 Sqq .

(٢) لم يبحث أحد هذه الحركة بمثل ما بحثها به جوتييه من العمق والشمول ، وقد انتهى من بحثه إلى نظرية خاصة فسر على أساسها تاريخ المغرب الإسلامي كله ، وقد أخذها عنه جميع مؤرخي المغرب الفرنسيين ، ولهذا رأيت أن أعرض لها في شيء من الإسهاب . وإليك مراجعته التي استند إليها في هذا البحث إنماماً للقائدة وتسهيلاً للمراجعة : أبو زكريا : تاريخ أبي زكريا ، ترجمه وعلق عليه EMILE MASQUERAY (الجزائر ١٨٧٨) ، ص ٦٧ وما يليها من المقدمة .

ابن خلدون : العبر ، (ترجمة دي سلين) ج ١ ، ص ٢١٦ و ٢١٨ ، ج ٢ ص ١٢٥ وما بعدها .

ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ٥١ وما يليها .

ابن الأثير : حوادث المغرب التي جمعها فانيان Fagnan وترجمها إلى الفرنسية في كتاب Annales du Magreb et de l'Espagne ، ص ١٢ .

سواء في المغرب النصراني أو في المغرب الإسلامي - لم تنشأ عن آراء أو عقائد خاصة ، بل عن تعصب وانتصار لأشخاص ، لأن أهل المغرب - كما يقول - لا يكادون يخفون للعقائد في ذاتها ، ومدار الأمر كله عندهم هم الأشخاص .

وإيمان البربر في رأى جوتيه يمتاز إلى ذلك بتطرف بالغ وتمسك بالطواهر يجعلهم يعلقون أمر العقيدة كلها على فرع من فروعها ، ويصرّون على ذلك إصراراً لا يكاد يقبل تنازلاً . وهذه كلها أمور نلاحظها في الدوناتية كما نلمسها في الخارجية : فقد كان الدوناتيون متعصبين لمبادئهم تعصباً أعمى لا يكاد يصدّق ، وكانوا يتحرون جماعات في سهولة لا يكاد يتصورها العقل ، أملاً في أن يغتنموا الشهادة ويرقوا إلى السماء ، بل بلغ بهم الأمر أن كان القلق يساورهم في بعض الأحيان حينما يعلمون أن لهم الحق في قتل أنفسهم واغتنام الشهادة على هذا السبيل « الفين » ، فكانوا يسألون أحد المارة أن يقتلهم بيده ! ويبل له إذا أبى ! فأما عند خوارج المغرب المسلمين ، فلم يصل الأمر إلى حد اغتنام الشهادة بالانتحار ، وإنما هم كانوا يتهافون على القتال في سبيل العقيدة تهافت من لا يعنيه أمر حياته ، نجد هذا واضحاً عنيقاً عند غلامهم كالصفرين ومعتدلاً بعض الشيء عند معتدليهم كالبياضين . هذا مع العلم بأن تغاني هؤلاء الأخيرين في العقيدة كان يذهب بهم إلى حد إلغاء شخص الإنسان إلغاء تاماً أمام الخالق .

٦٦- الدوناتية ثم يقول : ولقد أحسن ماسكراى حينما قال إن الخارجية هي الدوناتية نقلت والخارجية من إطار مسيحي إلى إطار إسلامي ، ولا يهمننا الإطار ولا الحادث الذي أثار الحركة في المسيحية أو في الإسلام بقدر ما تهمننا الظاهرة ومغزاهما الذي يتلخص في الحقيقة التالية : وهي أننا نجد عند المغاربة أنفسهم أسلوباً واحداً عميقاً في الإحساس بالله وقوته ، وأتينا نجد هذا الإحساس ظاهراً في صور مختلفة متتابعة ، فذلك غريزي عند هذا الجنس .

وهو - أي جوتيه - لا يهتم لذلك بالناحية الدينية للموضوع - فهي في نظره حادث عارض - والمهم عنده هي الغايات والنزعات المادية التي تستر دائماً خلف ستار العقيدة ، ولقد طالما حاول الناس أن يصلوا إلى المعنى السياسي والاجتماعي للحركة الدوناتية ، وقد وُفقوا ، وليس باليسير كذلك الوصول إلى النزعات السياسية والاجتماعية التي أدت إلى الثورة الخارجية .

ثم يقول : إن ابن خلدون نفسه قد كشف عن هذه النزعات ببعد نظره وزكاته ، وذلك حيث قال : إن الخارجية انتشرت على عجل في البلاد وأصبحت سلاحاً في يد أهل الفتنة يجارون به الدولة ، وهو يقصد بالدولة هنا دولة الخلفاء التى يمثلها العمال ، فهؤلاء الخارجيون كانوا يلتصمون الأنصار بين الطبقات الدنيا من البربر .

ويقول : ولم تكن الدونانية في الواقع إلا حركة بربرية سياسية اجتماعية أساسها ديموقراطية ، إذ كانت في الواقع ثورة شعبية قام بها فقراء الناس المستضعفون . وطبعى أن الشعب الذى قام بحركة الخارجية لم يكن هو نفسه الشعب الذى قام بالدونانية ، فقد تغيرت الأحوال بتغير الأزمنة وإنما كان عماد الحركتين هؤلاء الناس الذين كان تصوفهم صورة نظرية حرمانهم من الخيرات الدنيوية ، وكان هذا التصوف يخفى خلفه - بطبيعة الحال - انفجاراً هائلاً لمطامع لم تسعفها الظروف بالتحقق .

وكانت الخارجية كذلك ثورة من البربر أهل البلاد على السادة الأجانب ممثلين هذه المرة في صورة الخلفاء المشاركة .

٦٧-أى فريق ثم يمضى جوتيه يملل عناصر الحركة الخارجية ، لأنه لا يريد أن يكتفى من البربر نهض بتسميتهم بربراً وكفى ، بل يريد أن يعرف أى فريق من البربر نهض بعبء بعبء الحركة ، ويقرر بوضوح أن الذين قاموا بالحركة كانوا في الغالب بربراً زناتيين ، فقد انفجرت الثورة أول الأمر في طنجة خلف ظهور الجيوش الإسلامية الغازية في أسبانيا ، ثم لم يلبث لهبها أن وصل إلى القيروان ، وقد وقعت موقعة الأشراف على مجرى «شلف» ، ووقعت المعركة الثانية التى هلك فيها كلثوم بن عياض على نهر «سيو» ووقعت الثالثة التى انتصف فيها العرب لأنفسهم عند القرن على مقربة من القيروان سنة ٧٤٢ ، وأما الرابعة فقد كانت إلى الشرق مما يلى ذلك ، وفيها استولى الخارجيون على طرابلس ، ثم نشهد بعد ذلك رد فعل عربى عنيف يقوم به عبد الرحمن بن حبيب . أى أن الحوادث البارزة في الحركة كلها دارت حول طرابلس وتونس وتلمسان (بين سنتى ٧٤٣-٧٥٢) وفيها بين سنتى ٧٥٧-٧٥٨ ينتقل مركز الحركة إلى القيروان ، فيستولى عليها برابر ورفجومة الخارجيون ويعيشون فيها فساداً ، ثم يطردهم عنها برابر آخرون ، ويستولون عليها .

ثم ينهض العرب لحرب الخارجيين من جديد يقودهم محمد بن الأشعث ويحزب النصر في

صرت من نواحي طرابلس ، ثم سيرا إلى القيروان فيحتلها ، ولكنه لا يوفق إلى النصر عند تلمسان التي ينتقل إليها مركز الحركة بفضل أبى قرّة اليفرنى (سنة ٧٦٥) ، ثم يعود الخارجيون فيستولون على طرابلس ، ويحاصرون القيروان . ويطلق المؤرخون الحديث عن حصار الخارجيين لطبنة في إقليم هدنة ، ويذكرون أن عاملها عمر بن حفص ظل زمناً طويلاً محاصراً (سنة ٧٧٠) حتى لقي حتفه على أسوار القيروان (سنة ٧٧١) ، ثم يستمر الأمرين أخذ وردّ بين العرب والخارجيين حتى ينتهى الأمر إلى يد بنى الأغب في سنة ٨٠١ ، فهدأ أحوال البلد ويسودها السلام قدراً من الزمان . فمراكز الثورة هى طنجة ووادي سبو وإقليم تلمسان ووادي شلف وهدنة وجنوب تونس وطرابلس ، أى أنها تقع جميعاً في نطاق السهول والهضاب العالية ، أى في مواطن زناتة ، لقد وقعت الثورة كلها في أوطان زناتة على وجه التقريب .

ثم يمضى جوتيه مؤيداً رأيه ، فيذكر أن ابن خلدون وابن عذارى يؤكدان أن عبء الحركة الأولى حملته برغواطة (ويشير إلى أن برغواطة هذه قد كثرت بالقرآن فيما بعد ، وأقام رجالها في إقليم الشاوية ديناً جديداً يخالف الإسلام) ، ومغيلة وهوارة وبنى يفرن ، ويناقش النصوص مناقشة يخرج منها بأن قليلاً جداً من صنهاجة قد شاركوا في هذه الحركة ، وأنها لهذا ينبغي أن تعتبر حركة زناتية صرفة .

ثم يستطرد جوتيه استطراداً بعيداً يخلل فيه الحركة من الناحية الاجتماعية ، ولكننا نكتفى بهذا القدر الذى أوردناه لأنه يلقي ضوءاً كاشفاً على بعض العناصر النفسية في هذه الحركة البربرية الخطيرة ، ويهمننا من كلامه قوله إنها كانت حركة زناتية ، وهذا معقول وطبيعى ، فقد كانت زناتة قد أعانت المسلمين وانضمت إليهم من أول الأمر أملاً في أن تتصف بهم على الروم والنصارى والأفارقة وصنهاجة ، وأن تستعيد في ظلهم بعض ما فاتها في عهود هؤلاء ، ففاجأ العرب رجالها بهذا العسف الذى رأيناه فجنحت نفوسهم إلى الثورة . ويهمننا كذلك قوله إن هذه الحركة طبيعة مركبة في النفس البربرية : فهى طبيعة تفران وتصوف واستخفاف بالحياة . ويهمننا كذلك إشارته إلى ناحيتها القومية ، فالواقع أن الذين قاموا بها كانوا ينكرون على العرب هذا التصرف المطلق في شئون البلد . ويهمننا أخيراً ربطه هذه الحركة بأمتالها في عهود الروم وسيره بالحركة إلى مطالع المعهد الأعلى .

٦٨-الأحوال ونعود الآن إلى الأندلس . لم تكن الأحوال في الأندلس إذ ذاك بأحسن مما في الأندلس كانت عليه في المغرب . كانت هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء ومقتل عبد الرحمن الغافقي وخيرة رجاله في رمضان سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢م قد أوقعت البلد في أزمة كبرى ، ذلك أن اليمانيين وأحلافهم من المدنيين انتهزوا فرصة موت الغافقي واشتغال عامل إفريقية عنهم فأقاموا كبيرهم عبد الملك بن قطن بن نُفيلة بن عبد الله الفهري في أول شوال سنة ١١٤ هـ ، ويبدو أن عبيدة بن عبد الرحمن عامل إفريقية أقر عبد الملك في ولايته لأن العلاقات لم تكن طيبة بينه وبين أنصار عبد الرحمن الغافقي^(١).

٦٩-عبد الملك لا تمدنا المراجع العربية بمعلومات وافية عن أعمال عبد الملك في ولايته ابن قطن الفهري الأولى ، ولكن ايزيدور الباجي يذكر أنه أساء السيرة وأذى المسلمين والنصارى معاً ، وأن من معه من اليمينية عاثوا في البلاد فساداً وأكثروا من الشغب والثورة عليه ، وأنهم شرهوا إلى الأموال شرهاً اضطر معه عبد الملك إلى عسف الناس عسفاً أثار النفوس وأسخطها^(٢) . فلما تولى عبيد الله بن الحبحاب أمر إفريقية بعث على الأندلس مولاه عقبة بن الحجاج السلولي ، وكان رجلاً قيسياً صالحاً محباً للجهاد ، فوصلها وبدأ ولايته عليها في شوال سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤م^(٣).

ويذكر ايزيدور الباجي أن عبد الملك بن قطن الفهري ومن معه من المدنيين حاولوا أن يعارضوا عقبة ويحدثوا عليه الشغب ، فاضطر إلى القبض على عبد الملك وإلقائه في السجن ، ثم نقل عدداً عظيماً من المدنيين إلى إفريقية لكي يهدأ البلد ، ويستريح من نزوعهم الدائم إلى السلطان والفوضى^(٤).

ويبدو أن الأحوال استقرت لعقبة في الأندلس بعد ذلك فاستطاع أن يقوم بأمر البلاد «بأحسن سيرة وأجملها وأعظم طريقة وأعد لها»^(٥) . واستطاع كذلك أن ينصرف إلى الفتح في صقلية وفيها وراء جبال البرت بقية أيام حكمه الذي طال سبع سنين^(٦).

(١) انظر : ابن عبد الحكم : فتوح ، آخر ص ٢١٦ وأول ٢١٧ .

(٢) ايزيدور ، فقرة ٦٠ .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٢٧-٢٨ .

(٤) ايزيدور فقرة ٦١ ، ويراد بالمدنيين هنا جماعات من أهل المدينة المنورة من الأنصار هاجروا إلى الأندلس واستقروا فيها ، وأنشأوا لأنفسهم شيعة سياسية قوية ، وكانوا يؤازرون اليمانيين ويمتحنون بهم .

(٥) ابن عذاري : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

(٦) الأخبار المجموعة ، ص ٢٨ .

في ذلك الحين كانت ثورة البربر في إفريقية على أشدها ، وكان عبید الله بن الحبحاب قد انصرف عنها وتولاها كلثوم بن عياض ، وشغل القيسية في إفريقية عن أبناء عمومته في الأندلس ، فضعف أمر عقبة ومن معه ، وبدأ اليمينيون ومن معهم من المدنيين وفيهم بعض أبناء الأنصار يتطلعون إلى السلطان من جديد ، وقد أمكنتهم الفرصة في أوائل سنة ١٢٣ هـ إذ مرض عقبة وطال مرضه حتى أشفى على الموت ، والغالب أن اليمينيين ضغطوا عليه وأرغموه على إقامة عبد الملك بن قطن خليفة له إذا توفاه الله ؛ وقد كان ، وعاد السلطان إلى ابن قطن ومن معه من اليمينيين والمدنيين^(١).

٧٠- انتقال والظاهر أن نقرأ من دعاء الثورة البربرية الإفريقية خف إلى الأندلس ليثير الثورة من إفريقية بربرها على عربها ، ولم يكن البربر في الجزيرة الأندلسية مطمئنين إلى الأندلس العرب ، لأن هؤلاء الأخيرين استبدوا دونهم بالسلطان ، مع أن معظم فضل الفتح يعود إلى البربر . ويذهب نفر من المؤرخين كذلك إلى أن العرب اختصوا أنفسهم بخير بقاع الأندلس ، ولم يتركوا للبربر غير الفياقي والجبال القاحلة في الشمال والشمال الغربي^(٢).

وليس ذلك صحيحاً على إطلاقه ، لأن جماعات بربرية كثيرة كانت مستقرة في أخصب نواحي الأندلس في الجنوب والشرق والغرب ، بل كادت ناحية الجزيرة الخضراء أن تكون مقصورة عليهم لكثرة من نزلها من بطونهم وعشائرتهم ، ثم إن العرب لم يكونوا من الكثرة بحيث يستطيعون الأفراد بكل سهول بلد عظيم واسع كالأندلس ، ثم إن الكثيرين منهم (أى من العرب) كانوا أهل جهاد مقيمين دواماً في منطقة الثبوت وما وراءها عند أربونة ، فلم تكن بقية العرب لذلك من الكثرة بحيث تستطيع احتلال سهول الأندلس الواسعة في الشرق والجنوب والوسط والغرب .

٧١- مقدمات ثم إن المراجع تتحدث كذلك أن جماعات كبيرة منهم كانت قد استقرت في ثورة بربر الأندلس أقصى الشمال عند لاردة واسترقه و «المدائن التي خلف الدروب» كما يقول

(١) إيزيدور الباجي ، فقرات ٦١-٦٣ . ويذكر ابن عذاري أن عقبة استخلفه (البيان ، ج٢ ، ص ٢٩) . ويذهب ابن عبد الحكم إلى أن عبدة بن عبد الرحمن هو الذي رد عبد الملك إلى ولاية الأندلس (فتوح ، ص ٢١٧) . أما ابن القوطية فيؤكد أن عبد الملك ومن معه من اليمينية اجتمعوا على عقبة وخلعوه ، فهو يتفق مع إيزيدور في ذلك ، وقد أخذنا بروايتها .

صاحب الأخبار المجموعة^(١) أى في نواحي الهضاب الشمالية المجاورة لمواطن الإسبان النصرارى في الشمال ، فتعليل ثورة البربر على العرب في الأندلس بأن هؤلاء استبدوا دونهم بخيرات البلد وحرموهم منها جميعاً مبالغة لا تؤيدها المراجع ، فأما غضب البربر فسيبه استبداد العرب بأمر الحكم واعتبارهم البربر شعباً محكوماً لا ينبغي أن يترك له أى نصيب في الحكم أو في إدارة الأمور .

ولم يكن البربر يعتبرون أنفسهم بأقل من العرب ديناً ولا كفاءة ولا فضلاً ، فقد كانوا هم الذين حملوا معظم عبء الفتح ، وكان منهم طريف وطارق وهما صاحبا الفضل الأول فيما كسب الإسلام في الأندلس من نصر . ولم يقف الأمر عند مجرد الاستبداد بالأمر بل تعداه إلى سوء المعاملة والإهانة ، فكان العرب يوقعون بهم أقسى العقوبات لأنفه الأسباب ، فإذا جرؤوا على الشكوى كان عقابهم أشد وأقسى^(٢) .

ثم إن استبداد القيسية بالأمر كان حرياً أن يُنفر البربر ، إذ كان القيسيون قوموا ذوى عصبية شديدة ، لا يكادون ينظرون لغيرهم نظرتهم إلى ناس مثلهم ، وقد رأينا موقفهم من اليمنية ومن البربر في إفريقية ، وليس لدينا وثائق تدلنا على معاملتهم للبربر في الأندلس ، ولكن الأدلة كلها تدل على أنهم أساءوا معاملتهم ونفروا نفوسهم ، وكان اليمنيون أقرب إلى نفوس البربر منهم ، لأنهم كانوا معظم الوقت مضطهدين مثلهم^(٣) . وهذا لا يمنعنا من أن نقرر أن هؤلاء اليمنيين كانوا إذا وصلوا إلى السلطان أفسدوا من أمره أشد مما كان القيسيون يفعلون ، لأن عيب القيسيين كان كبرياء وصلفاً ، في حين كانت عيوب الكلبية اليمنية الظاهرة جسعاً إلى المال وميلاً إلى الفوضى وعجزاً عن التنظيم وحسن الإدارة .

٢٢-ثورة البربر طيعي إذن أن يبادر بربر الأندلس إلى الثورة حينما تبلغهم أنباء ثورة أبناء في الأندلس عمومهم واشتباكهم مع العرب في الحرب في إفريقية . فيقول صاحب الأخبار المجموعة - وروايته على قصرها أكثر ما بين أيدينا تفصيلاً - : « ففضى أن بربر

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ وراجع ذلك المقال القيم الذي كتبه سيزار دوبلر عن منازل البربر في الجزيرة الأندلسية .

(٢) ESAR DUBLER. Ueber Berbersiedlungen auf der iberischen Halbinsel, in Festschrift. z. zud Zurich 1943.

DOZY. Recherches. I. p. 119

(٢) إيزيدور ، فقرة ٤٤ .

(٣) يُدَّهَم هذا من قول ابن القوطية مثلاً : « وبقي عرب الأندلس وبربرها يجاريون الأمويين الشاميين ويتعصبون لعبد الملك بن قطن الفهري ، ويقولون لأهل الشام : بلدنا يضيئ بنا فخرجوا علينا ! » - ابن القوطية ، افتتاح ، ص ١٧ .

الأندلس لما بلغهم ظهور بربر العدو على عربها وأهل الطاعة ، وثبوا في أقطار الأندلس ، فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم ، وأخرجوا عرب أسترقه والمدائين التي خلف الدروب ، فلم يرع ابن قطن إلا فقههم قد قدم عليه ، وانضم عرب الأطراف إلى وسط الأندلس إلا ما كان من عرب سرقسطة ونغرهم ، فإنهم كانوا أكثر من البربر ، فلم ينجح عليهم البربر^(١).

ويزيدنا صاحب فتح الأندلس وضوحاً فيقول : « وتناولت البربر أيضاً بالأندلس على العرب الساكنين بجليقية وأسترقه والمدائين التي خلف الدروب ، وقاتلوهم وطردهم لكثرتهم هناك وقلة العرب^(٢) » ولا يزيدنا إيزيدور على ذلك كثيراً ، وإن كان يشير إلى أن العرب استبدوا بالبربر وأذوهم وعاملوهم معاملة قاسية ، فأسخطهم ذلك ودفع بهم إلى الثورة^(٣).

ولكن دوزي يضيف من عنده كثيراً ، فيزعم أن العرب اختصوا أنفسهم بأحسن الأرض ، ولم يتركوا للبربر غير النواحي القاحلة في الشمال ، ويمضى في الجالفة - على عهده - فيذكر أن بربر الأندلس تلقوا أخبار ثورة أبناء عمومتهم في العدو الإفريقية بقبول عظيم ، وأن دعاة خارجيين ذهبوا إلى الأندلس ليحضوا البربر على القيام على العرب واستصالحهم جملة ، فلم تلبث أن انفجرت ثورة دينية سياسية في إقليم جليقية امتدت إلى شمال الأندلس جميعه عدا إقليم سرقسطة ، ولسنا نعلم من أين استقى هذا كله ، وليس بين أيدينا إلا ما أوردناه من النصوص^(٤).

ومهما يكن من الأمر فقد ثار بربر شمال الأندلس على عربها المقيمين في نواحي جليقية واسترقه والنواحي القاصية من أستريس وبعض مناطق الغرب مثل ماردة وقورية وطلبيرة ، فأما إقليم سرقسطة فلم يجرؤ البربر فيه على الوثوب بالعرب ، لأن العرب هناك كانوا أكثر عدداً منهم . وأسرع من بقى من العرب في هذه النواحي بالهروب إلى وسط الأندلس^(٥) ، فإذا انتصر البربر هذا النصر الأول فقد انتظمت قواهم في ثلاثة جيوش كبيرة : وجهة الأول طليطلة ، والثاني قرطبة ، والثالث الجزيرة الخضراء ليتصل بالبربر عبر المجاز .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .

(٢) فتح الأندلس ص ٣١ .

(٣) إيزيدور ، فقرة ٧٦ .

(٤)

DOZY, Mus. d'Esp. I, p. 161.

(٥) الأخبار المجموعة ، ص ٣٩ .

ومثل هذا الترتيب لا يمكن أن يصدر إلا عن قيادة واحدة نظمت صفوف الثائرين ورسمت لهم وجهة واضحة معينة ، لأن الاتجاه إلى الجزيرة الخضراء معناه محاولة قطع مواصلات العرب مع المشرق لحصرهم حصراً لا يخلص لهم منه ، وهذا أمر لا يصدر إلا عن رأس مفكر مدبر ، ويذهب دوزي إلى أن الثائرين اجتمعوا وانتخبوا من بينهم إماماً دون أن يذكر مرجعه في هذا القول^(١) . ولكننا وجدنا في «فتح الأندلس» إشارة موجزة إلى وجود زعيم بربري يسمى «زقطرتق» كان يرأس جماعة البربر التي كانت متوجهة إلى الجزيرة الخضراء والتي تجمعت في شذونه ، فلا يستبعد أن يكون هذا في الواقع رسماً محرفاً لاسم هذا البربري الذي قاد بربر الأندلس في الثورة كما قاد مسيرة بربر إفريقية^(٢) .

تخرج مركز عرب الأندلس إذن ، ووجد عبد الملك بن قطن ومن معه من الكلية اليمنية أنهم لن يستطيعوا الثبات للبربر إلا إذا وصلتهم من المشرق إمدادات . ولم يكن ذلك ميسوراً لأن ثورة البربر في إفريقية كانت على أشدها ، ثم إنهم كليون يمنيون وكان اليوم يوم القيسية المضربة .

٧٣=بلج بن بشر ومن معه وكان بلج ومن معه من الشامية القيسية محصورين في سبتة منذ عام ، وقد أجهدهم الحصار حتى أكلوا الدواب والجلود وأشرفوا على الهلاك^(٣) معاصرون في سبتة وكانوا لا يكفون عن الكتابة إلى عبد الملك يستصرخونه ويستغيثون به ، فلم يسمع إلى استغاثتهم ، لأنه كان يحشاهم على نفسه . فهم قيسية شامية متعصبون وهو ومن معه كليون يمنيون ، فتركهم لكي يهلكوا حيث هم^(٤) .

وكان عبد الرحمن بن حبيب - كبير عرب إفريقية الذي تحدثنا عنه - قد نجا من معركة الأشراف - وانهمز مع بلج وأصحابه إلى سبتة ، ومن هناك عبر إلى عبد الملك بن قطن الفهري مثله ، وجعل يجرضه على بلج وأصحابه ويخوفه منهم ، فزاده ذلك إصراراً على تركهم لمصيرهم^(٥) . وبلغ من إسراره في ذلك أن عربياً أندلسياً من لحم يقال له عبد الرحمن

(١) يقول صاحب الأخبار المجموعة في ص ٣٩ : «وكانت قد رأست البربر بالأندلس على أنفسهم ابن هدين» ؛ ولم نستطع قراءة هذا الاسم ، وظاهر أن المؤلف يريد أن يقول إن البربر اختارته رئيساً فقط لا إماماً ، والفرق بين الأمرين ظاهر ، إذ أن نص ابن القوطية يفهم منه أن الحركة سياسية ، أما كلام دوزي فيفهم منه أن الثورة كانت دينية أيضاً ، وانظر أيضاً : ابن حيان ، برواية المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١١ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٣١ ، وهذه هي قراءة ناشر الكتاب ، ولم أستطع تحقيقها .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٣٧ .

(٤) نفس المصدر والصفحة . وفتح الأندلس ، ص ٣١ .

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٠ .

ابن زياد الأحرم أشفق عليهم من التلف ، فبعث إليهم مركبين وشحنهما بالشعير والإدام ، فبلغ ذلك عبد الملك فغضب عليه وعاقبه أشد عقاب^(١) وساءت حال بلج وأصحابه . ولو لم يكن الربيع قد أقبل وأنبت الأرض بعض الخضرة والبقل لهلكوا^(٢) ، ولكنهم اقتاتوا بذلك واستعانوا به على البقاء حتى واتتهم الظروف بالفرج من حيث لم يحتسبوا .

وزاد مركز عبد الملك بن قطن وعرب الأندلس حرجاً مع الأيام ، ولم يجد لنفسه مخرجاً إلا أن يأذن لهؤلاء القيسيين المحصورين في سبته في العبور إلى الأندلس ، فأجابهم إلى طلبهم بعد طول عناد ، واشترط عليهم أن ييارحوا الأندلس بعد القضاء على ثورة البربر مباشرة ، واشترطوا عليه بدورهم أن لا يفرقهم وأن يعيدهم إلى إفريقية جماعة واحدة ، ويتزلم في مكان يستطيعون منه العودة إلى المشرق . وتم الاتفاق على ذلك . وأرسل إليهم عبد الملك سفناً عبروا بها إلى الأندلس سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م بعد أن أعطت كل فرقة منهم عشرة من رجالها رهائن احتفظ بهم عبد الملك في جزيرة أم حكيم في مدخل الوادي الكبير^(٣) .

٧٤- طلاعة بلج هكذا عبر بلج بن بشر القيسى ومن معه من القيسية الشامية إلى الأندلس ، ولم يكن عددهم ليزيد على عشرة آلاف ولكنهم كانوا من غير شك نخبة من خيرة فرسان الشامية القيسية . لقد أساء رئيساهم كلثوم وبلج استعماهم حتى هذه اللحظة وسيرتكبون من الأخطاء فيها بعد شيئاً جسيماً ، ولكنهم امتازوا بشجاعة عظيمة وذكاء بعيد ، وسينتهي بهم الأمر بالاستقرار في البلاد ، وسيكون لهم في تطور الأندلس الإسلامي أحسن الأثر حينها تستقر الأمور وتقوم الدولة الأموية .

ترك بلج وأصحابه الأندلس في حال من الجوع لا مزيد عليها ، وكانت ملابسهم قد بليت حتى كانوا يستترون بالدروع ، ونزلوا الجزيرة الخضراء ، فوجدوا بها جلوداً مديوعة كثيرة ، فقطعوا منها المدارع ، ثم أقبلوا إلى قرطبة ، فكسا ابن قطن خيارهم وأعطاهم كلهم عطاء . فلم يكن فيه ما يغنيهم ، واستقبلهم عرب بلد الأندلس وهم ملوك ، فكسا كل رجل منهم من خيارهم خيار عشيرته ، وأفضل عليهم الناس حتى لبسوا وشبعوا^(٤) . وهكذا

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .

ابن خلدون عند القرى : فتح الطيب ، ج ٢ ، ص ١١ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٨ - ٣٩ .

فتح الأندلس ، ص ٣١ .

(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٣٩ .

أوى عرب الأندلس رجال هذه الطائفة القليلة من القيسية بعد أن تقاذفهم البلاد والنوب منذ مبارحتهم مواطنهم الأولى في الشام منذ قرابة العامين . ولا نزاع في أن القيسية الأندلسية قد أحسنت استقبالهم وإكرامهم على النحو الذى يصفه صاحب الأخبار المجموعة طمعاً في أن تقوى بهم قلوبها ، ومن ثم ليس بغريب أن نرى قيسية الأندلس تنهض لمنازلة الكلية اليمنية من جديد .

٧٥- طالعة بلج ولم يكذب بلج وأصحابه يريجون بقرطبة حتى نهضوا للعمل الذى أتوا من تقضى على ثورة أجله وهو لقاء البربر والقضاء على ثورتهم . كان أول ما ينبغي عمله هو البربر في الأندلس القضاء على الجيش البربرى الذى كان متجهاً نحو الجزيرة الخضراء ليتصل بالثائرين في ناحية طنجة وسبتة ويقطع كل أمل لعرب الأندلس في أى عون يأتيهم من المشرق ، ويبدو أن هذا الجيش البربرى كان أقوى جيوشهم الثلاثة وأكثرها نظاماً ، وكان قد وصل كما رأينا إذ ذاك إلى شذونة وعسكر عندها .

نهض بلج وأصحابه للقاء هؤلاء ، وانضم إليه نفر من عرب الأندلس البلديين ما بين قيسية ويمنية ، والتقى الجمعان على مقربة من شذونة « فلم يكن للعرب فيهم إلا نهضة حتى أبادوهم وأصابوا أمتعتهم ودوابهم فاكتسى أصحاب بلج وانتعشوا وأصابوا المغانم »^(١) . ولا نزاع في أن العرب كانوا مدفوعين في هذه المعركة بالرغبة في طلب الثأر من هؤلاء البربر الذين أذاقوهم الويل في إفريقية والأندلس طوال الحقبة الماضية . ثم نهض بلج وعبد الملك ابن قطن ومن معها للقاء الجيش البربرى الذى كان متجهاً نحو قرطبة ، ولم يجدوا عناء كبيراً في هزيمته والقضاء عليه .

فأما الكتلة البربرية الثالثة التى كانت تحاصر طليطلة فيبدو أن أمرها كان أخطر من الكتلتين الأخرين بسبب الأعداد العظيمة التى تجمعت فيها . كانت جماعات بربرية غفيرة من بربر جليقية وأسترق وماردة وقورية وطلبييرة قد انجفلت من بلادها وانضمت إليها ، وأقبلت فحاصرت طليطلة ، وأقامت على الحصار أشهراً حتى اشتد الأمر بطليطلة وأهلها ، وكان بعض هذه الجماعات البربرية قد عبر التاجه واتحدر نحو الجنوب وحاول عبد الملك ابن قطن أن يناجزها الحرب فلم يفلح ، فلما تم له القضاء على الجيشين البربريين الآخرين على يد الشامية جمع رجاله وسار مع الشاميين للقاء البربر على مقربة من طليطلة ، فلما تسامع

(١) ابن عذارى : البيان ، ج٢ ، ص ٣١ .

هؤلاء بمسيره إليهم حلقوا رؤوسهم اقتداء بميسرة ، « ولكى لا يخفى أمرهم وليضربوا ولا يختلطوا »^(١) ، مما يدل على شدة حماسهم ورغبتهم في النصر .

٧٦- معركة دارت المعركة الحاسمة بين الجانبين عند وادي سليط (Guazalete) وحي وادي سليط أوارها ، لأن قلوب الجانبين كانت تفيض سخطاً ، وأظهر الشاميون من الشجاعة والقدرة ما استطاعوا به القضاء على هذه الجموع البربرية والانتصار عليها ، فلم ينج منهم إلا الشريد ، فركب أهل الشام ولبسوا السلاح ، ثم فرقوا الجيش في الأندلس فقتلوا البربر حتى أطفأوا جرتهم^(٢) (أوائل ١٢٤ هـ / منتصف ٧٤١ م).

ويُفهم من هذه العبارة الأخيرة أن العرب بعد أن انتصروا على البربر هذا الانتصار الحاسم عند وادي سليط تعقبوهم في نواحي الجزيرة واشتدوا في ذلك شدة بالغة حتى ساء حالهم كثيراً .

* * *

٧٧- المجاعة شغل العرب والبربر بهذه الحروب عن عمارة الأندلس ، وكانت جموع كثيرة وهجرة البربر إلى من هؤلاء البربر وأعداد قليلة من العرب قد اشتغلت بفلاحة الأرض إفريقية واستقرت فيها منذ سنوات الفتح الأولى ، وكان نفر آخر من العرب قد استقروا في عواصم الأرياف والقرى التي غنموها واشتغلوا بالإشراف على المزارعين من أهل البلاد ، فكان إشرافهم هذا من العوامل التي أسرعت بعمار الأرض بعد انتهاء فترة الفتح وما دار خلالها من حروب .

فلما اشتغل العرب بالحروب فيما بينهم ، وغادروا مواقعهم ، واشتبكت الحرب العنيفة بينهم وبين البربر وانتصروا عليهم واشتدوا في الانتقام منهم ، خاف من بقى من البربر واضطربوا في مساكنهم ، وبدأت الرغبة تساورهم في ترك هذه البلاد ، التي كانوا يقيمون فيها على الخطر ، إلى بلادهم الأولى حيث يكونون أكثر اطمئناناً ، فانصرف معظم هؤلاء البربر عن الزراعة وأخذوا يهجرون الأرض ، وكان العرب قد فعلوا ذلك قبلهم ، وهكذا

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠ ، وادي سليط نهر يصب في التاجه من اليسار جنوبي طليطلة بقليل . وقد أشار الرازى في قطعة باقية من الترجمة الإسبانية لتاريخه إلى هذه الموقعة بقوله :

“ et esta batalla fué en el termino de Toledo sobre el rio Calican .

انظر الفقرة ٢٤ ص ٨٨ في نهاية عمود ٢ من طبعة جاياتنوس . ولم يستطع الناشر تحقيق نهر كاليكان هذا .

أخذت المزارع والقرى تخلو من سكانها من العرب والبربر ، وأخذ الخير يقل في البلاد ، وتوالى ذلك سنوات فزادت الحال سوءاً.

ولم ينتبه العرب إلى ذلك لاشتغالهم بحروبهم مع البربر ومنازعاتهم بين أنفسهم ، فانتهى الأمر بعد سنوات فلال إلى مجاعة كبيرة لقلة المحاصيل ، وانضاف شر هذا البلاء الجديد إلى شر الحرب القائمة والفوضى السائدة وقلة الأمان ، فانعدمت الزروع وندرت المحاصيل ، ولاح شبح مجاعة خطيرة ظهرت بشكل حاد بعد أن انهزم البربر هزيمتهم النهائية عند وادي سليط . فلم تكد عشرة أعوام تنقضى على ذلك حتى قحطت البلاد وانتابتها مجاعة عامة شديدة يتحدث عنها صاحب الأخبار المجموعة بقوله : « حتى كانت فتنة أبي الخطار وثوابة ، فلما كانت سنة مائة وثلاث وثلاثين (٧٤٨م) هزمهم (أى بلاى زعيم الإسبان) وأخرج (يريد أخرجهم أى العرب) عن جليقية كلها ، وتنصر كل مذبذب في دينه وضعف عن الخراج ، وقتل من قتل ، وصار قُلُهم إلى خلف الجبل إلى استورقة ، حتى استحکم الجوع فأخرجوا أيضاً المسلمين على استورقة وغيرها ، وانضم الناس إلى ما وراء الدرب الآخر وإلى قورية وماردة في سنة ست وثلاثين ، واشتد الجوع ، فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصبلا وريف البربر مجتازين ومرتحلين ، وكانت إجازتهم من واد بكورة شذونة يقال له وادي برباط ، فتلك السنون تسمى « سنى برباط » ، فخفف سكان الأندلس ، وكاد أن يغلب عليهم العدو ، إلا أن الجوع شملهم^(١) .

واشدت المحنة وأصاب نواحي الأندلس كلها عدا إقليم سرقسطة الذى نجا منها بفضل مياهه وأنهاره وبفضل الجماعة العربية الكبيرة التى استقرت فيه . ويبدو أن المحنة كانت شديدة جداً ، لأن الكثيرين من العرب انتجفلوا - كما رأينا - إلى النواحي التى توقعوا أن يجدوا فيها خيراً ، وكان البربر أسوأ حالاً ، لأن الهزائم قَلَّتْ عَزْبهم ، ولأن العرب تتبعوهم بالأذى في كل ناحية حتى ضاقت البلاد بهم ، وأحسوا العداوة والشر في الأندلس فأخذت جموع منهم تعود إلى إفريقية ليطمثوا بين أهلهم وعشائرهم ، فهاجروا إلى إفريقية أرسالاً كثيرة .

٧٨- زحف نصارى الإسبان نحو الجنوب
لا نزاع في أن عدد من هاجر من البربر كان عظيماً جداً ، لأن المؤرخين يحدوثونا أن نواحي شمال الأندلس وغربه كادت تخلو من أهلها المسلمين ، فإذا أضفنا

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٢ .

إلى ذلك أعداد من هلك من السكان - عرباً وبربراً - بسبب المجاعة ، ومن انجفل منهم إلى الجنوب وإلى الغرب وإلى إقليم سرقسطة ، استطعنا أن نعرف السبب فيها حدث من اتساع دولة النصارى الإسبان في جليقية وأشتريس اتساعاً مفاجئاً بلغت به ضعف حجمها الأول بين سنتي ٧٥١ و٧٥٣م (١٣٤-١٣٦هـ) .

ذلك أن الإقليم الواسع الواقع بين نهري المنهو والدويرو خلا من سكانه المسلمين في ذلك الحين ، فاستطاع النصارى أن يتقدموا ويحتلوا ما استطاعوا من هذه المساحة من غير جهد، وكان يقودهم ملكهم ألفونسو الأول ، فاسترجع النصارى افراغه وأبورتو وفزوي^(١) ، وبذلك سيطروا على شمال الأندلس حتى الدويرو ، ثم تقدموا بعد ذلك في حذر فاستولوا على أشترقة وليون وسمورة ولدسما وسلمنقة وقورية . بل تذهب المراجع النصرانية إلى أنهم استرجعوا ماردة نفسها ، وتوسعوا نحو الشرق فاحتلوا سلدانيا وسيانقاس وشقوية وأفيلة وأوكا وأوسما وميراندا على نهر ابره وسنيسيرو وأليسانكو على نهر ريوخه . وانحدرت حدود الأندلس الإسلامي إلى الخط الممتد من قلمرية على المنديجو إلى قورية وطلبيرة وطلبيلة على التاجية إلى وادي الحجارة وتبيلة وبنبلونة في الشمال الشرقي .

٧٩-العرب وهذا خسر المسلمون نحو ريع ما فتحوه من الأندلس بسبب هذه الخصومات يخسرون ريع القبيلة من ناحية وبسبب المنازعات بين العرب والبربر من ناحية أخرى ، الجزيرة وكان لهذا أسوأ الأثر على مستقبل الإسلام في الأندلس^(٢) .

٨٠-الخصومة ولم تقف نتائج هذه الثورة المشثومة عند ذلك الحد ، بل إنها خلقت في نفوس بين العرب العرب والبربر من الكراهة للحكم الأموي في دمشق ما سيظل قائماً قرناً والبربر متواليه لا تكاد الأيام تمحوه . كانت هذه الحرب الضروس حرب فناء بين الجانيين ، فلما انهزم الخوارج في إفريقية والأندلس ظل بقايا خوارج البربر طوال القرون التالية يحسون الخوف من دولة الخلافة والكراهة لرجالها ، وقد انتهى الأمر بعد قرابة ثلاثة قرون باندماج العرب والبربر وقيام الشعب العربي المغربي .

(١) ظن بعض المؤرخين أن الصيغة العربية لفزوي Viseu هي بازو الواردة في المقرئ ولكن سافدرا أثبت خطأ ذلك (انظر المقرئ : نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٧٤) .

SAAVEDRA, Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana (Madrid, 1882) p. 182 .

(٢) انظر : BALLESTEROS : Historia de Espana Y su influencia en La historia universal , : ١١٦ sqq. DOZY, Recherches, I, pp.325 sqq.

وأما في الأندلس فلم يقهر أحد من الجانبين الآخر ، لأن عودة الهجرة البربرية إلى الأندلس بعد قيام الإمارة الأموية قوى جانب البربر الخوارج من جديد وأعادهم إلى المقاومة ، فنقوت مراكزهم وأخذوا يناوون العرب والأندلسيين مرة أخرى ، وسترى ذلك بصورة واضحة أثناء الأزمة الكبيرة الأولى التي دامت طوال إمارات محمد والمنذر وعبدالله ، وسترى أثر هذه الخصومة واضحا بشكل خطر حاسم بعد سقوط الخلافة الأموية .

يقول الرازي تعقياً على هذه الحوادث التي ذكرناها : * ومن هذا وأشباهه قدمت العداوة بين بربر الوسط وعرب الأندلس ، وتوارثها الأبناء إلى يوم البعث ، فبالعرب غزوا في بلادهم وبأسهم شئيت ذراريهم وغُتمت أمواهم حتى أدخلوا في الإسلام واضطروا إليه قهراً . قال : فلما رجع العرب إلى بلادهم [في] المشرق ، واستقر منهم الأقل [في] الأندلس ممن أراد الجهاد ورغب فيه ، وكان البربر يومئذ أكثر منهم فيها لمجاورتهم بلادهم ، لم تنزل عداوة الأديان والغلبة تتجدد بينهم ^(١) . وفي هذا الكلام مبالغة .

* * *

هكذا أسدل الستار على هذه الفتنة الإفريقية الكبرى بعد حروب طويلة ودماء غزيرة ، ولكن الأيام تكفلت بمحو آثار هذه العداوة ، وبعد أن قامت الدولة الأموية الأندلسية بقليل لن نجد في الأندلس إلا أندلسيين ولكن أسوأ آثارها أنها قللت من قوة المسلمين في مواصلة الفتوح في غالة وهي فرنسا . فقد كان من الممكن قبل هذه الثورة أن يستمر المسلمون في مغازاة ما لم يغزوه بعد من أنحاء الأندلس حتى يستولوا على شبه الجزيرة كلها ، بفضل جموع البربر المهاجرة .

أما الآن ، وقد عادت هذه الجموع البربرية إلى بلادها ، ويعد أن هلك منها في الفتنة من هلك ، فلم يعد من الميسور تعمير شبه الجزيرة كله بالمسلمين ، وانضح أمام الإسبان النصراري مجال النمو وتجددت آمالهم في غزو بلاد المسلمين وليس يخفى على أحد أن الأندلس الإسلامية إنما أتت من الشمال والغرب - حيث هاجر البربر - ولم يؤت من الشمال الشرقي حيث ظلت جماعات العرب والبربر مقيمة في إقليم سرقسطة .

* * *

(١) روى ذلك صاحب فتح الأندلس ، ص ٣٢ .

الفصل السادس

القيسيّة واليمنيّة

٨١- مؤرخو الأندلس والعداء بين القيسية واليمنية المعروف بـ «تاريخ مسلمي إسبانيا» - أدار ثلثة الأول على الحروب بين القيسية التي وقعت بين عرب الأندلس خلال عصر الولاة ، وبالغ في تصوير هذه الحروب حتى جعل العرب الذين استقروا في شبه الجزيرة شراذم من أهل العصبية لا همَّ لها إلا الاقتال فيما بين بعضها وبعض، كأنهم كانوا منقسمين إلى شعيبين متعادين لا تربط أحدهما بالآخر رابطة ، هما شعب عدنان وشعب قحطان ، لا يبالي أحدهما بشيء في سبيل القضاء على الآخر ، ومضى يصف في إسهاب الوقائع والأيام التي دارت بين الفريقين في نواحي الدولة الإسلامية عامة وفي الأندلس خاصة دون التفات إلى شيء آخر ، كأن تاريخ العصر الأموي لم يكن إلا تاريخ الصراع بين عرب الشمال وعرب الجنوب^(١).

ومن هنا جاءت الصورة التي رسمها لعصر الولاة في الأندلس صورة مشوهة لا تمثل الحقيقة التاريخية في شيء . ولكن ذلك التشويه لا يخلو من دلالة لها قيمتها . فقد كان دوزي أول من كتب تاريخاً للأندلس على منهج علمي صحيح ، وكان أول مؤرخ محدث التنص هذا التاريخ في مصادره الأولى واقتدر على قراءة هذه المصادر ، فوقق فيها فشل فيه مؤرخون لم يتأهلوا لهذا المطلب بأدواته اللازمة^(٢) ، ووضع يده على الأصول التي ينبغي أن يؤخذ منها ذلك التاريخ ، ففتح بذلك الباب لمن جاء بعده .

(١) REINHARDT PETER- ANNE DOZY, Histoire des Musulmans d'Espagne (Leid- en.1861).

وقد لقي الكتاب لأول ظهوره رواجاً عظيماً ، فأعيد طبعه وترجم إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية . ثم أشرف إيفاريسنت ليفي - بروفنسال على طبعه طبعه جديدة معدلة منقحة ظهرت في ثلاثة مجلدات سنة ١٩٣٢ .
(٢) مثال ذلك : MASDEU. Historia Critica de Espana . (Madrid. 1805) .

وقد تحدث في الجزء العشرين منه عن العرب في الأندلس
JOSE ANTONIO CONDE . Historia de los Arabes en Espana. Madrid. 1820 .

وانظر نقد دوزي لهذين المؤلفين في أبحاثه:
Recherches sur l'Histoire et la Littérature de l'Espagne pendant le Moyen- Age (3e.éd. Leiden. 1881) vol. I. pp. 30 sqq.

وانظر نقد رامون مننديز بيدال لمعظم ما كتب في أوروبا في تاريخ إسبانيا الإسلامية في :
RAMON MENENDEZ PIDAL . La Espana del Cid (1 era ed. Madrid. 1929) tomo I.pp. 3 sqq.

وقد نقض آراء دوزي مستشرقون لا يقلون عنه تبحراً، مثل يوليوس فلهاوزن واجناتس جولدتسيهر، فأما الأول فلم يقره على ما ذهب إليه من المبالغة في تصوير ما كان بين العدنانية والقحطانية^(١)، وأما جولدتسيهر فتعمق الأمر وبحث موضوع العدنانية والقحطانية عامة، وانتهى إلى أن البحاثه الغربيين أسرفوا وأكثروا في ذلك الموضوع دون سند كافٍ من الأصول، فإن العرب في الجاهلية وصدر الإسلام لم يقولوا إنهم ينقسمون إلى عرب شمال وعرب جنوب، وإنما نشأ ذلك التقسيم اليبين للعرب إلى شعبين متعادين خلال العصر الأموي ونتيجة لسياسة بنى أمية في الاستعانة بجماعة من العرب على جماعة، وتقريب قوم دون قوم، فإذا قرّب الخليفة الأموي قيسياً حظيت قبيلته وحاول أبناء عمومته أن يفيدوا من ذلك، وإذا قرب الخليفة شيخاً كلبياً (أى مبنياً) سخطت القيسية صاحبة الخطوة أولاً.

وأخذ كل فريق يتعصب لأصحابه ويحمل على منافسيه، فظهر هذا العداء بين العدنانية (أو المعدية) والقحطانية. وهو عداء أخذ أسماها شتى، فهو في الشام خصومة الشام واليمن، وفي خراسان عداء مضر وأزد اليمن، وفي الأندلس صراع قيس وكلب. وفي أثناء ذلك الصراع مضى كل فريق يعتز على صاحبه بأعمال أجداده في الجاهلية، ونسبوا لهؤلاء الأجداد من الوقائع ما لم يكن، وهكذا رجع الناس بخصومة العدنانية والقحطانية إلى الوراثة، وتصوروا أن هذه الخصومة قديمة قدم الجاهلية، وردد المؤرخون ذلك كأنه حقيقة واقعة^(٢).

ويعيننا الآن أن نقول إن ما يحكيه مؤرخو الأندلس عن عداء قيس ويمن في الأندلس مبالغ فيه، أو على الأقل مبالغ في تصويره بحيث يبدو وكأنه هو كل تاريخ الأندلس في عصر الولاة. وهذا هو ما نخرج به من كتابتي الأخبار المجموعة وافتتاح الأندلس مثلاً، وهما أكثر المراجع إسهاباً في الكلام على عصر الولاة.

والحقيقة أنه كانت هناك بالفعل عداوة بين قيس ويمن في الأندلس، وأصولها ترجع إلى

(١) انظر الترجمة العربية لكتاب

JULIUS WELLHAUSEN, Das Arabische Reich und Sein Sturz.

بعنوان: تاريخ الدول العربية إلى نهاية العصر الأموي، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة ١٩٥٧.

(٢) انظر: تعليقتنا على هذا الموضوع على هامش الطبعة الجديدة التي قمنا بها لكتاب جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، القاهرة سنة ١٩٥٧.

ما كان بين هذين الحيين من صراع على السلطان في قلب الدولة الأموية ، وكان أحدهما إذا انتصر في مرحلة من مراحل النزاع اشتد على الآخر ، فهاجرت جماعات منه إلى الولايات ونفوس أفرادها تفيض بالحق والعدل ، وهناك تنضم إلى من تجده من أبناء عشيرتها ، فتجتمع كِسْرُ القبائل ، وتتكون الجماعات القيسية والمضرية ، ويتجدد النزاع القبلي بصورة أعنف مما كان في قلب الدولة ، حدث ذلك في خراسان والمغرب والأندلس وغيرها من الولايات .

ولكن العصبية لم تكن وحدها سبب النزاع القبلي في الأقاليم ، فقد كان هناك التنازع على المغانم والسلطان في الولايات ، وكانت هناك مصالح جديدة تختلف من ولاية لولاية ، ومن هنا كانت بعض القبائل تتناسى عصبيتها في سبيل كسب مادي وتنضم إلى قبيل غير قبيلها ، وكانت هناك قبائل محايدة ، لا هي من قيس ولا هي من مضر ، وكانت تنضم إلى هذا الفريق أو ذلك بحسب ما تمليه عليها مصالحها ، ومن ثم فقد كانت الأحزاب التي اضطرت في الأندلس خليطاً من هذين الحيين في أغلب الأحيان ، ولكن كانت تغلب عليها صفة الأكثرية من جماعتها .

وقد رأينا فيما مر من الكلام طلائع الصراع بين القيسية واليمينية في الأندلس ، وكيف بدأ الحيان يتنازعان على السلطان ، ثم شغلتها عنه الثورة البربرية أو الفتنة المغربية .

فلما انتهت هذه الثورة خلا الجو لها فعدا إلى النزاع ، وأسرفا فيه إسرافاً جاوز كل حد ، حتى ضعف أمر العرب والإسلام في الأندلس ، وكاد أمرهما يتلاشى فيه جملة ، لو لم تتداركه العناية بعبد الرحمن الداخل .



٨٢-القيسية خرج عبد الملك بن قطن ومن معه من اليمينية مظفرين من المعركة العنيفة
تستيد بأمر مع البربر ، كما خرج منها عبد الرحمن بن حبيب في إفريقية ، ولكنه لم يطمن
الأندلس على أمره ما دام بلج وأصحابه إلى جانبه ، وقد كان هؤلاء قيسية لا يقنعون
بغير الصدارة والقيادة ، ثم إن هذا النصر لم يأت إلا بسببهم ، فأقام عبد الملك خائفاً منهم
يرقب ، ولم تكد الحرب تضع أوزارها حتى أسرع يطالب حلفاءه بمبارحة الأندلس وفاء
بالمهد الذي قطعوه على أنفسهم ، فتلكأ هؤلاء حيناً ، فما كانوا ليركوا هذا البلد الذي
أقبلت عليهم النعمة فيه إلا إذا أخرجتهم منه قوة .

ثم إن عبد الملك لم يكن خالص النية نحوهم ، إذ اعتذر عن إعادتهم إلى إفريقية جماعة واحدة ، متعللاً بأنه لا يملك سفناً كافية لنقلهم وما جمعوا من خيرات وغنائم . وطلب بلج وأصحابه أن يبحروا من الجنوب الشرقى من ناحية تدمير (مرسية) حتى يستطيعوا العبور إلى ناحية أخرى من إفريقية يستطيعون الذهاب منها إلى القيروان ، ولكن عبد الملك أصر على أن يبحروا من الجزيرة الخضراء ، وتعلل بأنه لا يستطيع نقل سفنه من هذه الناحية خوفاً من انتهاز البربر الفرصة والعبور إلى الأندلس^(١).

٨٢- بلج بن وليس إلى الشك سبيل في أن عبد الملك لو وُقِّي لهم بعهد لبحثوا عن تعلقة بشريلى أمور أخرى للبقاء في الأندلس ، فقد أصابوا فيه من الخير ما لم يكونوا يعلمون به ، الأندلس فأما وقد بدأ هو بالعدوان - لسوء رأيه وقلة سياسته - فلم يعودوا يرون حرجاً في مناصبته العداء ومهاجمته ، ووثبوا به في أوائل ذى القعدة ١٢٣ هـ (٢٠ سبتمبر سنة ٧٤١ م) وخلعوه وأخرجوه من القصر وأقاموا أميرهم بلجاً والياً على الأندلس . وأقام عبد الملك شبه سجين في دار له بقرطبة تسمى دار ابن أيوب ، وأفلت ابنه قطن وأميه ، فلحق أولهما بأربونة حيث كان يقود جند المسلمين عبد الرحمن بن علقمة اللخمي وكان من أنصار عبد الملك بن قطن ، وجعلا ينظران معاً فيما عسى أن يصنعاه إزاء هؤلاء القيسيين الذين لم يطمئن لهم جنب حتى أنزلوا اليمانية عن الإمارة جملة . وأما أميه بن قطن فلحق بهارده حيث اجتمع عليه نفر من عرب الأندلس وبربرها وأخذوا يتحفزون للأخذ بثأرهم من بلج وأصحابه^(٢).

أثار انتصار الشامية هذا ثائرة أهل البلد جميعاً : عرباً وبربراً وإسباناً ، إذ اعتبرهم الجميع أجانب ينبغي إخراجهم على أية صورة . ولم يقف العرب منهم موقف عربي من عربي ، بل موقف صاحب البلد من غاز أجنبي ، ولهذا نجد قدماء عرب الأندلس - يمنية وقبسية - يثرون على هؤلاء الشامية يداً واحدة ويحاولون إخراجهم . وتلك هي الفترة التي ظهر فيها

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٠ - ٤١ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٣١ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ١٨٩ .

المقرئ : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١٣ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٤٣ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٣٢ .

المقرئ : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١٣ ، ١٧ .

التمييز بين ما يسمى بالبلديين والشّاميين ، فأما البلديون فهم عرب طالعة موسى ومن أتى بعدهم من إرسال العرب ، وقد استقروا في البلد ورسخت جذورهم في نواحيها قرابة ثلاثين سنة ، وتوشجت بينهم وبين أهلها الأواصر ، وكان معظمهم يمنية ، واليمينية ذات ميل إلى التعمير والاستقرار واهدوء ، فقويت الصلات بينهم وبين الأرض وأهلها .

وأما الشّاميون فهم هذه الجماعة التي أقبلت مع بلج ، ومعظمهم قيسية ، وقد نظر أهل البلاد إليهم على أنهم أجنبيون كما قلنا ، واجتمعت كلمتهم على حربهم^(١) ، ولو لم يكونوا على جانب عظيم من الشجاعة والمهارة الحربية لذهبت ريجهم أو لاندمجوا في الآخرين . وكان من سوء حظ الأندلس أن يكونوا من خيرة العرب شجاعة وقدره ، فطال البلاء بهم واستمرت الحرب بينهم وبين البلديين سجالاتاً .

ويبدو أن عبد الرحمن بن علقمة اللخمي لم يحزم أمره على السير لحرب بلج وأصحابه إلا حينما بلغه نبأ مقتل عبد الملك بن قطن الفهري ، فجاشت نفسه ونفس حليفه قطن بن عبد الملك ومن معها من البلديين ومن التف حولهما من البربر وأهل البلد لطلب الثأر ، وساروا لحرب بلج ومن معه من القيسية . وأما مقتل عبد الملك فقد وقع بعد ولاية بلج بقليل : ذلك أن عامل عبد الملك على الجزيرة الخضراء أهمل في أمر رهائن القيسية الشّامية الذين كانوا في جزيرة أم حكيم ، ولم يرسل إليهم الماء بانتظام ، وكان الماء يُحمل إلى هذه الجزيرة إذ لم يكن فيها ماء . فلما تولى بلج أسرع فأرسل من يفك أسر هؤلاء الرهائن ، فوجدهم على أسوأ حال من الإجهاد والعطش ، ووجد أن أحدهم - وهو غساني من أهل دمشق - قد مات عطشاً ، فنهض اليمينيون من أهل قرطبة يطالبون بلجاً برأس عبد الملك فداء لابن عشرينهم الغساني ، وتلكأ بلج إذ نفرت نفسه من قتل عبد الملك وهو شيخ قد عدا التسعين ، ثم إن مسئوليته عن موت الغساني لم تثبت ، فشك اليمينيون في نوايا بلج وظنوه لا يهتم لثأرهم أو يعطف على عبد الملك لأنه من مضر مثله .

وكادت الفتنة تقع بينهم وبينه ، فلما لم يجد من الأمر بُدّاً أباح لهم دمه ، فأخرجوه وهو شيخ كأنه فوخ نعامه ، وهو ابن تسعين سنة أو أكثر ، حضر الحرة مع أهل المدينة ، ومنها قُلَّ إلى إفريقية ، فأخرجوه ، وهم ينادونه : « يا فال ! فللت من سيوفنا يوم الحرة ثم عرضتنا (ل) أكل الكلاب والجلود طلباً بشار الحرة ، ثم يعث جند أمير المؤمنين ! » . ثم قتلوه وصلبوا

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٧ .

رفاته وعن يمينه خنزير وعن يساره كلب ، إمعاناً في الزرابة والنكاية (١).

فلما بلغ ذلك عبد الرحمن بن علقمة اللخمي وقطن بن عبد الملك ومن معها من العرب في إقليم أربونة ، ثارت في نفوسهم الحمية لطلب الثأر ، وساروا بجمعهم نحو قرطبة للقاء الشاميين وحريمهم ، وثارَت العصية مرة أخرى في نواحي الأندلس كلها ، وتسارع اليمينيون للانضمام إلى عبد الرحمن بن علقمة ، وجمع بليغ من استطاع جمعه من قيس ومن انضم إليهم من مواليهم من البربر ومن أهل البلد الإسبان . وطبيعي أن يكون جمع اليمينية أضخم لأن معظم البلديين انضموا إليهم ، فيقال إن عددهم بلغ أربعين ألفاً على قول ، ومائة ألف على قول آخر ، في حين لم يزد من مع بليغ عن اثني عشر ألفاً . وعسكر بليغ وأصحابه في موضع يقال له أقوة برطورة على بريدين من قرطبة (٢).

ولم يلبث عبد الرحمن ومن معه أن أقبلوا بجمعهم ووقع اللقاء بينهم وبين خصومهم ، ولم يعرف عرب الأندلس وقعة بينهم وبين أنفسهم أعنف ولا أحمى ولا أبعد أثراً من هذه ، لقد تفانى الجانبان في القتال وتساقت الآلاف منهم جرحى ، وحسب عبد الرحمن بن علقمة أنه يضع حداً لهذه المذبحة إذا قتل بلجاً ، وكان عبد الرحمن أعظم مقاتلي الأندلس وأرماهم بالنبل ، فسأل عن بليغ فدلوه عليه ، ففوق نحوه سهامه ومضى نحوه على عجل وضره بالسيف ضربتين أصابتا منه مقتلاً . ويبدو أن هجومه زعزع الشامية عن مواضعها حتى خشى رجالها الهزيمة ، فتصدى له واحد منهم هو الحصين بن الدجن العقيلي قائد خيل جند قنسرين وثبت له وجعل يبعده ومن معه عن الميدان حتى انفرد به وشغله عن المعركة الدائرة ، وانتهاز البلجيون الفرصة فهجموا على بقية البلديين هجمة قصموا بها ظهورهم وألقوا بهم مقتلة شديدة .

واستمر القتال أياماً ، ومات بليغ بعد يومين متأثراً بجراحه ، فتولى قيادة الشاميين ثعلبة ابن سلامة العامل ، ورجحت كفة البلديين حيناً وانهمزوا إلى ماردة حيث أقبلت جموع البلديين ومن معهم من البربر تحاصرهم ، وخاف ثعلبة الهزيمة ، فكتب إلى خليفته بقرطبة

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٢ .

ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٢ ص ٣٢ .

(٢) ابن الفوطية : افتتاح ، ص ١٦ .

الأخبار المجموعة ، ص ٤٣ .

وانظر عن أقوة برطورة : المعجم الجغرافي الملحق بترجمة لافويتس أكائترا للأخبار المجموعة ص ٢٤٣ .

أن يخرج لمناجزة أهل البلد . وطال القتال ، وحضر عيد الأضحى ، فشغل به البلديون عن قتال الشاميين ، فانتهز هؤلاء غررتهم ونهضوا فيهم نهضة أزالتهم عن مواضعهم وأنزلت بهم مذبحه وهزيمة عظيمة ، وبهذا انتهى هذا الصراع العنيف بهزيمة ساحقة لليمنية والبلديين . وقد كانت الهزيمة ساحقة إلى درجة قلّت غريرهم وأضعفتهم وأخرجتهم من ميدان السياسة ومن القيادة ، ومن ذلك الحين أخذ معظمهم يتفرقون في نواحي البلاد ، ويشتغلون بالزراعة والتجارة وما إليهما من أمور المعاش وشئون النشاط السلمى . ومن هنا أهمية هذه الواقعة في تاريخ البلاد الاجتماعى^(١) . ولم يستطع من بقى منهم في الميدان النهوض من جديد ، إلا حينما أقبل عبد الرحمن الداخل على ما سيأتى ذكره .

واقرب ثعلبة بن سلامة العامل بمن معه من قرطبة يجر في ركابه من وقع في قبضته من كبار اليمنية وذراهم أسرى ، ونزل عند المصاراة^(٢) من ظواهر قرطبة وعقد سوقاً لبيع هؤلاء الأسرى ، وقد أراد له لدد العداوة أن يبيعهم لمن ينقص لا لمن يزيد ! فجعل الناس ينقصون حتى بيع واحد من كبارهم بكلب وثانٍ يعود ، واستمرت هذه المهزلة المبكية أياماً^(٣) .

٨٥- معىء أبى فبينما ثعلبة فى ذلك إذا ضجة تتعالى من بعيد ، وإذا موكب يقترب ، ونظر الخطاب بن الحسام الجمع فإذا وال جديد للأندلس يقبل ومعه وثيقة التعيين من حنظلة بن الكلبى صفوان عامل إفريقية ، وهو أبو الخطاب الحسام بن ضرار الكلبى ، بعثته العناية فى هذه اللحظة لينقذ أسرى البلديين من هذا البلاء المهين الذى كان ثعلبة ومن معه من الشاميين يصرون على إنزاله بهم . وكان أبو الخطاب « رجلاً من خيار أهل الشام من أهل دمشق ، فرضى به الشاميون والبلديون ، وأطلق الأسرى والسبى ، فسمى ذلك العسكر

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٥ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٣٣ - ٣٤ .

واتظر عن ثعلبة بن سلامة :

الضئى : بغية الملتصم ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ رقم ٦٠٦ .

المقرى : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١٣ - ١٤ .

(٢) تقع إلى شمال قرطبة ، ويذكر لافوتسى الكانترافى قاموسه الجغرافى الذى ذيل به ترجمته للأخبار المجموعة أن موضعها كان موضع طاحونة زيت ، (المصاراة - المعصرة Almazara بالإسبانية)

انظر الترجمة الإسبانية ، ص ٢٤ هامش .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٤٦ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٣٣ - ٣٤ .

«عسكر العافية» وأفلت ثعلبة بن سلامة وعثمان بن أبي نسعة وعشرة من قواد الشام، وأمنّ ابني عبد الملك بن قطن، فاستقامت حال الناس بالأندلس، وأنزل أهل الشام بالكور»^(١).

وبدأ أبو الخطار ولايته على الأندلس في ذلك اليوم من رجب سنة ١٢٥هـ (مايو سنة ٧٤٣م). وصادف بدء ولايته ميلاً عاماً من مسلمي الأندلس إلى المهادنة والسكينة بعد ما كان من شرور العصبية، وكانت الحروب قد أنهكتهم وكادت تفنيهم حتى خشوا على أنفسهم غائلة نصارى الشمال، وكانوا قد بعثوا إلى حنظلة وفدأ منهم ييسط له سوء حال الأندلس ويرجوه أن يغيثها برجل فاضل يكف القتال ويقر السلام بين الجماعات المتعادية، فتخير لهم أبا الخطار هذا وبعثه في اللحظة المناسبة على ما رأينا. وقد بدأ أبو الخطار ولايته بدءاً حسناً فأمن أمية وقطن ابني عبد الملك بن قطن ومن معها من اليمانيين والبلديين المرّعين بعد هزيمتهم، وأخرج من الأندلس نغراً من المسرفين في عصبيتهم من الشّاميين وأعادهم إلى إفريقية وفيهم ثعلبة بن سلامة، وانتهى بعد تفكير إلى ضرورة إبعاد الشّامية القيسية عن قرطبة لكي يخلص من متاعبهم.

٨٦-إخراج
الشّاميين من قرطبة
إلى الكور
أقترح عليهم أبو الخطار أن ينتقلوا إلى الأرياف في الكور، على أن يجعل لهم ثلث ما يجبي من أهل الذمة في النواحي التي يختارون الإقامة فيها. ولم تفصل لنا المراجع هذا الاتفاق بأكثر من ذلك، فلنسا نعلم إن كان استقرارهم في هذه النواحي معناه قيامهم بجباية أموالها واحتجاز الثلث لأنفسهم وإرسال

(١) الأعيان المجموعة، ص ٤٦.

الضبي: بغية الملتصق، ص ٢٦١ - ٢٦٣ رقم ٦٨٦.

وقد أمدا ابن القوطية بملاحظات طيبة عن ولاية أبي الخطار، فقال: إن هشاماً حينما بلغه ما فيه عرب الأندلس من افتراق وحروب شاور ابن أخيه العباس بن الوليد (يذكر ابن القوطية خطأ أنه أخوه) فنصحته بأن يعدل عن عدائه لليمنية الفسطانية لكي يجتذب قلوبهم، فاستمع لنصيحته وولى حنظلة بن صفوان الكلبي إفريقية وأمره بأن يولى ابن عمه أبا الخطار الأندلس فمضى أبو الخطار في نحو ثلاثين رجلاً من الشّاميين (من عرب إفريقية، ويسمهم ابن القوطية الطالعة الثانية من الشّاميين). وأراد أن يهاجمه عرب الأندلس، فسار مستراً وأخفى لواء الولاية الذي أعطاه إياه حنظلة في عيبة كانت معه، فلما نزل بوادي شوش واقرب من المكان الذي كان الفريقان يتحاربان فيه بقبل قرطبة، رفع اللواء وأعلن نفسه للفريقين، فتسارعا إليه كل يشكو من الآخر. فاشترط عليهم السمع والطاعة، فأجابوا. وذكر له اليمينيون أنهم لا يهتمون بالشّاميين ولا بد من إخراجهم عنهم، فطلب إليهم أن يمهلوه حتى يدخل قرطبة ويستريح، ثم يفصل في أمرهم بالعدل، فأجابوا. وقد بدأ أمره بإخراج ثعلبة بن سلامة العامل والوقاص بن عبد العزيز الكناني وعثمان بن أبي نسعة الختعمي من الأندلس إلى طنجة بإفريقية، ثم تبنى بتفريق الشّاميين في نواحي الأندلس على ما سيأتي بيانه.

انظر: افتتاح الأندلس، ص ١٩ - ٢٠.

الثّنين إلى قرطبة ، أو أن عمال والى الأندلس كانوا يجيئون الخراج على العادة ويعطون ثلثه هؤلاء العرب الشّاميين . فإن كان النظام الأول فمعناه أن أبا الخطار أقطعهم هذه النواحي مقابل أن يؤدوا ثلثي خراجها دون أن تتدخل الإدارة المحلية في شئونهم أو شئون الإقليم ، وإن كان الثّاني فمعناه أن هذا الثّالث الذي كان يُعطى لهم كان معتبراً « عطاء » عن الخدمة العسكرية التي كانوا ملزمين بأدائها بصفتهم جنداً رسمياً مقيداً في الديوان . ولكن الغالب أنهم استقروا في هذه النواحي على النظام الأول ، أي « مقطعين » ، لأن شواهد الحوادث بعد ذلك تدل عليه صراحة ، ثم إنه كان - كما سنرى - النظام السائد المتبع في الأندلس إلى ذلك الحين^(١).

حرص أبو الخطار ، وهو يقوم بذلك ، على ألا يمس حقوق البلديين ، وكان هؤلاء قد توزعوا فيما بينهم بعض نواحي الأندلس الحصبة على مثل هذا النظام من المقاطعة : كان كثيرون منهم قد استقروا في أقاليم سرقسطة وأربونة وباجة وإشبيلية ، فلم يشأ أبو الخطار أن يتزّل هؤلاء الشّاميين إلى جوارهم ، وقد أشار عليه بذلك أرتباس بن غيطشة شيخ نصارى الدّمة ، وكان مقبياً إذ ذاك في قرطبة متمتعاً بمقام كريم بين العرب وأهل جنسه وعند الولاة ، ويبدو أنه كان مشيراً هؤلاء ، يسألونه الرأي فيما يجزيهم من شئون البلاد ، وهو بها أعرف ، وقد أشار على أبي الخطار بذلك ، وكان رأياً حسناً ، قبله الشّاميون ، فبادر أبو الخطار إلى إنفاذه^(٢).

أقر أبو الخطار كل جماعة من الشّامية آتية من جند بلد واحد في ناحية ، وكان جند مصر

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٦ .

إيزيدور الباجي ، الجزء المنشور ذيلاً للأخبار المجموعة ، الفقرات من ٦٤ إلى ٦٧ .

ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٤ .

المقرئ : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١١ - ١٤ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٠٤ .

ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٨ - ١٩ .

DOZY, Musulmans d'Espagne, I. pp. 168 - 169

E. LEVI-PROVENCAL. Histoire de l'Espagne Musulmane, I. pp. 34 - 35 .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة (طبعة محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥) ، ج ١ ، ص ١٠٩ البيان المغرب (طبعة

كولان وبروفنسال ، ليدن ١٩٥١) ج ٢ ص ٣٣

DOZY, Recherches, I. pp. 79-80

SIMONET. Historia de los Mozàrabes de Espana . pp. III, 197-198.

E. LEVI-PROVENCAL. Hist. de l'Espagne Musulmane, p. 35. note I.

أكثرهم عدداً فأنزلهم في ثلاث نواح هي : أوكشونة وباجة وتدعير (مرسية) ، وأنزل جند حصص في إشييلية ، وجند فلسطين في شدونة ، وجند الأردن في ريه (ناحية مالفقة) ، وجند دمشق في البيرة ، وجند قنسرين في إقليم جَيَّان ، وبهذا تفرق هذا الجند المشاغب في نواح شتى متباعدة فهدأ أمرهم إلى حين ، وكان إنزالهم بعيداً عن مواقع البلديين الأول سبباً في سكون هؤلاء واطمئنانهم لعدل أبي الخطار ، فأقاموا «على ما بأيديهم من أموالهم لم يتعرض لهم في شيء منها » . فلما وجد الشاميون أنفسهم في بلاد « تشبه بلادهم ، و [في] توسعة ، سکونا واغبتوا وتمولوا »^(١).

فاستقر الكثير منهم في الأرض وأخذ يعمل فيها ، وشغلوا بذلك عن منازعات السياسة والعصية ، ولم يلبثوا أن كثرت أموالهم ، وكان في ذلك خير كثير للأندلس وأهله .

ولو قد استمر أبو الخطار على هذه السياسة العادلة لصلحت الأحوال وانتهت هذه العصية البغيضة التي مزقت عرب الأندلس إلى ذلك الحين شر ممزق ، ولكنه لم يلبث أن انحرف عن الجادة ومال إلى عصيته الكلية اليمينية ، وكان سبب ذلك مقتل صديق له عزيز عليه هو سعد بن جؤاس ، فاتهم الشامية القيسية بقتله ، وأخذ يتحيفهم ويُنزل بهم ما يستطيع من الأذى^(٢) ، فاستعرت نيران عصيتهم من جديد ، وبدا بوضوح أن الأندلس مشتعلة مرة أخرى بنيران هذه العصية على صورة أشد مما رأى في سابق الأيام . وحدث أن مَعْدِيّاً كثنائياً من الشامية اختلف مع كلبى فشكاه الكلبى إلى أبي الخطار ، فجار هذا في حكمه على المعدي (العدناني) ، فذهب إلى شيخ من كبار الشامية يسمى الصميل بن حاتم بن شمر - ويلقب بذي جوشن - يشكو له ما أصابه ، فمضى هذا إلى أبي الخطار . وكان أبو الخطار يتخوف الصميل ، لأن أمر القيسية كان قد انتهى إليه وفاقهم بالنجدة والسخاء ، وتوجس منه أبو الخطار شراً .

٨٧- ظهور فلما أقبل الصميل إلى أبي الخطار في شأن العدناني انتهز أبو الخطار الفرصة الصميل بن حاتم وأحب أن يشفى بعض لدد نفسه منه ، فلكره وشتمه وأمر جنده أن يضربوه ، فضربوه حتى مالت عمامته من على رأسه ، فخرج وقلبه يتلظى بنيران الثأر ، وعاد إلى داره بقبلى قرطبة فجمع كبار قومه وأخذ يشاورهم في السبيل التي يستطيعون بها أن يغسلوا هذه

(١) فتح الأندلس ، ص ٣٧ .

(٢) الضمى : بغية اللئيم ، ص ٢٦٩ .

الإهانة ويدركوا ثأرهم من أبي الخطار واليمينية^(١) .

وكان الصميل في ذاته شخصية غريبة جداً ، تكاد تعتبر في ذاتها نموذجاً لهذا الطراز من العرب الذين دخلوا الإسلام بخيرهم وشرهم ، وظلوا فيه على حالهم لم يكد الإيهان يمس قلوبهم أو يغير منها شيئاً ، وقد وصفه دوزي وصفاً لطيفاً لا بأس من إيراد له لدقته : « لم يكن الصميل رجلاً عادياً لا في الخير ولا في الشر ، وكانت نفسه بطبيعتها خيرة كريمة ولكنها كانت خاضعة لقوتين متكافئتين من الخير والشر ، متعالية جياشة عنيفة لا تنسى ثأرها . كانت نفسه مهياة تهيئة قوية ، ولكنها كانت جاهلة نشيطة خاضعة للغريزة بقودها الحظ كيف شاء ، كانت خليطاً غريباً من الملكات المتعارضة أشد التعارض . كان يبدو نشطاً مثابراً إذا ما استثرت عواطفه ، فإذا هدأت ثورة نفسه بدا كسولاً قليل الاكتراث . وكانت هاتان الخصلتان الأخيرتان أقرب إلى طبيعه .

وكان كريماً واسع العطاء ، وكانت تلك صفة يقدرها أصحابها أكثر مما قدروا غيرها ، وقد بلغ من كرمه أن شاعره كان يحرص ألا يزوره إلا مرتين في العام ، مرة في كل عيد ، حتى لا يستنفد الصميل ماله ، إذ كان أقسم أن يهبه كل ما عنده مهما رآه . وكان لكل سيد عربي شاعره ، كما كان الحال عند سادة العشائر الاسكتلندية . ولم يكن الصميل مع ذلك رجلاً متعلماً ، إذ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب^(٢) ، على الرغم من غرامه بالشعر ، وبالشعر الذي يدور حول مديحه بوجه خاص ، وعلى الرغم من أنه كان ينظم الأبيات منه بين الحين والحين ، وكان أصحابه يرون أنه أتى بعد زمانه^(٣) . بيد أنه كان خبيراً بالحياة لا يكاد يفوته من وجوهها شيء ، حتى أن أعداءه أنفسهم كانوا يقررون أنه نموذج كامل للأدب . وشخصية الصميل كانت استمراراً لهذا الطراز من أشراف العرب القدماء المسرفين في حبهم للحياة ، والذين لم يكونوا مسلمين إلا بالاسم ، فقد كانت أخلاقه منحلة ، وكان

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٦ .

فتح الأندلس ، ص ٣٧ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

(٣) إشارة إلى قول أربطاس للصميل في حديث له معه : « يا أبا جوشن ، إن أهل ديانتك يجبروننا أن أدهم لم يأخذك ، ولو أخذك لم تنكر عليّ برّ من بررت » ، أي : أن أدب الإسلام لم يؤثر في نفسه ، وظل جاهل الطبع والحظن والزعات .

DOZY, Musulmans d'Espagne (2ème éd- Layde 1932) , I p. 173-174 .

ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

لا يكاد يحفل بشيء من أشراف الدين : فكان يشرب الخمر على الرغم من نهى الدين عنها ، فكان يسرف في الشراب حتى لينام كل ليلة سكران (١) .

فأما القرآن فقد كان لا يعرف منه شيئاً ، ولم يكن ليهتم بتعرف هذا الكتاب ، إذ إن مبادئه التي تدعو إلى المساواة كانت تمس كبريائه . ولقد خطر يوماً بمؤدب يؤدب الصبيان وهو يقرأ « وتلك الأيام نداؤها بين الناس » فقال الصميل : « نداؤها بين العرب » فقال له المؤدب : « بين الناس » ، فقال الصميل : « وهكذا نزلت الآية ؟ » ، قال له : « نعم ! » قال الصميل : « والله إنى أرى هذا الأمر سيسرنا فيه العبيد والسفال والأراذل ! » (٢) . ولا نزاع في أن الكثيرين جداً ممن شارك في فتح الأندلس وساهم في هذه الحروب القبلية بضع عظيم كان من هذا الطراز ، وهذا ما يفسر إصرافهم في حروبهم العنيفة التي نحن بصدددها .

٨٨-هزيمة أبي الخطار وولاية ثوابة ابن سلامة العامل
فلما انتهى الصميل إلى داره في عقدة الزيتون قبل قرطبة ، جمع من لقي من الشامية ومضى يستشيرهم فيها هو فاعل . وكان يحس قلة الشامية القيسية أمام الكثرة اليمنية الكلية التي كان أبو الخطار يرأسها ، فتاب له رأى في التقرب إلى اللخمين والجذاميين من اليمنيين وعرض الرياضة عليهم مقابل معاونته في حربه مع أبي الخطار ، وكان يوسف الفهرى شيخ اللخمين حانقاً على أبي الخطار متلهفاً على فرصة يشفى فيها لدد نفسه فاستصوب الشامية رأيه . ولم تكن القيسية إذ ذاك على اتفاق تام ، إذ كانت غطفان منحرفة في استجة ، لأن شيخها أبا العطاء كان يحسد الصميل على رياسته للقيسية دونه ، لهذا بادر الصميل بالتوجه إلى استجة واسترضى أبا العطاء وكسبه إلى جانبه ، ثم مضى إلى مورور حيث كانت منازل جذام وشيخها ثوابة بن سلامة العامل . وبهذا جمع الصميل بنشاطه وذكائه عصابة قوية من قيس ولخم وجذام وغطفان ، واجتمع رجال هذه القبائل في شدونة وعولوا على السير إلى قرطبة وعزل أبي الخطار (٣) .

وعجل أبو الخطار بالخروج للقاء الشامية وهو لا يشك في الظفر ، ولم يكن يدرى بما دبره

(١) الأبخار المجموعة ، ص ٧١ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

(٣)

الأبخار المجموعة ، ص ٥٦ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

المقرئ : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١٧ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٥٧ .

الصميل من استمالة لحم وجذام وإضعاف جهة اليمينية ، وكان اللقاء عند وادي لكة الذي شهد إلى اليوم من حروب المسلمين شيئاً كثيراً . وقد تقاعس معظم الكلبية عن قتال بني عمومتهم جذام ولحم ، ثم تركوا أبا الخطار في قلة وولوا مدبرين، فلبث بعض الوقت حتى اضطر إلى الفرار ، فإذا هو جاد في فراره يريد قرطبة وقع أسيراً في يد أعدائه ، فكَبَلُوهُ بالحديد ، وتولى ثوابة بن سلامة العاملى أمر الأندلس بحسب ما تم بين الصميل رأس القيسية الشامية وأبى العطاء رأس غطفان ، وثوابة هذا سيد لحم وجذام (رجب سنة ١٢٧هـ / أبريل سنة ٧٤٥م)^(١).

لم تدم ولاية ثوابة إلا عاماً وبعض عام ، ولم يحدث فيها من جليل الأمور إلا محاولة أبى الخطار استعادة الولاية وجمعه نقرأ من اليمينية وسيره إلى قرطبة ، وقد اندحر أبو الخطار وتبدد كل أمل له في الولاية ، واختفى من صفحات التاريخ الأندلسى بحيلة ماهرة دبرها هذا الرجل الماهر الصميل بن حاتم : حينما عسكر الجيشان وجهاً لوجه وأخذوا يستعدان للحرب ، انتهز الصميل فرصة هبوط الليل وبعث رجلاً من معد وقف بمعسكر اليمينية وناداهم مؤكداً لهم أنه إنما يقول ما يقول حقناً للدماء لا خوفاً من القتال ، وجعل يسفه أحلامهم في السير لنصرة أبى الخطار وحرب بنى عمومتهم من لحم وجذام ، ويُذَكِّرهم بأن القيسية لو كانت تريد قتل أبى الخطار لقتلته وقد كان بيدها بالأمس أسيراً ، وأنهم لا ينبغي أن يخشوا شيئاً من ثوابة لأنه جذامى وجذام يمنية ، ففعلت هذه الكلمات فعلها في نفوس اليمينية الكلبية وانفض معسكرهم وعادوا إلى مواطنهم، وهكذا فسد أمر أبى الخطار وضاع أمره ، واستطاع الصميل أن يكسب الموقف بذكائه وقدرته^(٢).

وصفا الأمر لثوابة حيناً ، ولكن ولايته لم تدم طويلاً كما ذكرنا ، فقد عاجله الموت بعد عام من انتصاره الأخير على أبى الخطار . ولم يكده يختفى من الميدان حتى هب ابنه عمر يطالب بأن يخلفه في السيادة . ونهض لمنافسته يحيى بن حريث رأس جذام وأحد كبار العرب الذين كَوَّنوا هذا الحلف .

٨٩- الصميل
ابن حاتم بمهد
الطريق لبوسف
الفهري

وكان الصميل يستطيع أن ينادى بنفسه أميراً على الأندلس في ذلك الحين ، لأنه كان بالفعل رأس العصبة القائمة بالأمر ومصرف شئون البلاد ، ولكنه كان أذكى من أن يُفتر أحلافه من اليمينية بمثل هذا العمل ، وكان لا يرضى

(١) الأبخار المجموعة ، ص ٥٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٥٨ .

كذلك أن يترك الأمر لأحد من المتنافسين مخافة أن يستبد به وبجماعته ، فمضى يبحث عن شخص يرضاه اليعمنيون ويأمن جانبه القيسيون ، ثم يكون إلى ذلك ضعيفاً سهل القيادة حتى يملك زمامه .

وهذا البحث إلى يوسف الفهري سيد الفهريين في الأندلس ، وكان للفهريين مقام ممتاز عند العرب أجمعين إذ ذاك ، لأنهم ذؤابة قريش وكانت قريش في هذه المنازعات كلها حياً لا تسرف في الميل إلى فريق دون فريق ، وقد عجل الصميل بثبيت أمر يوسف حتى يفسد على يحيى بن حريث سيد جذام مطامعه في الإمارة . وكان يحيى شديد الكراهية للشامية ، وكان يقول : « لو أن دماء أهل الشام جمعت لي في قدح لشربتها »^(١) ، فكره الصميل - وهو شامى قيسى - أن تصير الإمارة إليه فيصيب قومه منه شر . فلما تم أمر يوسف الفهري سعى الصميل حتى أقام يحيى بن حريث عاملاً على ربه ترضية لنفسه ولقومه^(٢) .

من ذلك اليوم أصبح أمر الأندلس في واقع الأمر بيد الصميل بن حاتم ، فقد كان يوسف الفهري رجلاً سهل القيادة على السن ، فمضى الصميل يصرف الأمر كما يشاء ، وكان كما لاحظنا رجلاً كيساً واسع الخيلة ، فلم يعسر عليه قياد بقية الزعماء . وقد استطاع هذا الرجل أن يكسب ود من تحالف مع القيسية الشامية من معد ، فقوى أمره وأمر صاحبه الفهري .

فإذا استقر الأمر للصميل على هذا النحو فقد بدأ يفكر في التخلص من يحيى بن حريث جملة ، وكان يحيى كما عرفنا شديد الكراهية للشامية ، وكان لا ينفك منازعاً للصميل مهدداً أمره . فبادر الصميل بعزله عن ولاية ربه قبل أن تثبت قدمه ويشدد ساعده فيها ، فلم يكده العزل يبلغه حتى نفر وقومه للحرب . وسعى حتى وضع يده في يد أبي الخطار سيد الكلية اليمينية الذي كان يعيش في قومه ببعض نواحي إشبيلية مهملأً ضعيفاً بعد هزيمته^(٣) ،

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٠ .

ابن عذاري : البيان ، ج٢ ، ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) يذكر صاحب الأخبار المجموعة أن النزاع على الولاية كان شديداً بين يوسف الفهري ويحيى بن حريث وعمرو بن ثؤابة (يكتبه ثؤابة بن عمرو خطأ) .

الأخبار المجموعة ، ص ٥٧ .

(٣) كانت قضاة قبل إجماع عرب الأندلس على يوسف الفهري ، قد تعصبت لأبي الخطار وقام شيخها عبد الرحمن بن نعيم الكليي فجمع مائتي رجل وأربعين فارساً وهاجم قرطبة واستنقذ أبا الخطار ومضى به إلى كلب وأقره في ناحية إشبيلية .

الأخبار المجموعة ، ص ٥٨ .

وهكذا اتفقت كلب كلها على محاربة الصميل ومن معه من قيس ، وشعر الصميل بالخطر وعرف أن يجيى فاعل به ويقومه الأفاعيل إذا قُدِّر له النصر ، ولهذا عجل فاستنفر المعديّة القيسية كافة ، فتسارعوا إليه .

وكان من لطف المقادير أن الدعوة إلى الحرب لم تمس إلا عرب جنوب الأندلس وحدهم ، فبقى أهل الشرق والشمال الشرقي والغربي في مواطنهم لم تحرك الدعوة منهم ساكناً ، ولهذا سينحصر الصراع المقبل في حدود ضيقة ، ولن يكون له من النتائج السيئة ما كان لما سبقه من الحروب التي أتينا عليها .

٩٠- موقعة شقنند سنة ١٣٠هـ المجموعة بقوله^(١) : « فلما رأّت قضاة ما يدعوا إليه ابن حريث أجبوا جمع كلمة اليمن كلها ، فأجابوا ابن حريث وقدموه فأصفت يمن الأندلس خيرها وكنتها ومذحجها وقضاعتها . واحتازت مضر وربيعة إلى يوسف ، وربيعة بالأندلس قليل . فلحق خيار اليمن بابن حريث من كل جند ، وتجرع أهل البلد بتجرع أهل الشام ، ولحق خيار مضر بيوسف والصيل ، لا يعرض أحد لأحد: يخرج الجوار فيودع بعضهم بعضاً حتى يلحق كل رجل بقومه (!) وهى أول حرب كانت في الإسلام بهذه الدعوة .. فزحف ابن حريث وأبو الخطار إلى يوسف والصيل بقرطبة ، فأقبلا حتى نزلا على نهر قرطبة (الوادى الكبير) بقبليها بقرية شُقنندة .

وعبر يوسف والصيل النهر إليهما بمن معها ، فالتقوا حين صلوا الصبح ، فتطاعنوا على الخيل حتى تقصفت الرماح . وثبت الخيل وحيت الشمس . ثم تداعوا إلى البراز ، فتنازلا وتضاربوا بالسيوف حتى تقطعت (هكذا في النص والأصح تقصفت) ، ثم تقابضوا بالأيدى والشعور (!) لم يكن في الإسلام صبر مثله إلا ما يذكر من صفيين . ولم يكن القوم بكثير لا هؤلاء ولا هؤلاء ، وإنما كانوا خياراً من الفريقين وكانوا متقاربين ، إلا أن اليمن كانوا أكثر قليلاً . فلما أعى بعضهم بعضاً توافقوا يضرب بعضهم وجوه بعض بالقسي والجعاب ، ويحشى (هكذا وصحتها يحشو) بعضهم التراب على بعض .. إذ قال

(١) وصف ابن القوطية هذه الوقعة وصفاً موجزاً .

انظر : الانتاح ، ص ٢٠

وذكرها ابن عذاري ببعض التفصيل : البيان ، ج ٢ ، ص ٣٧

الصميل ليوسف : ما وفقنا إذ خلفنا جنداً نحن عنهم في غفلة ! قال : ومن هم ؟ قال : أهل السوق بقرطبة ! فرد إليهم يوسف مولاة خالد بن يزيد وصاحب [...] فأخرجنا منهم نحواً من أربعمائة راجل معهم الخشب والعصى ومع قليل منهم السيف والمزراق ، فخرج الجزارون بسكاكينهم ، فجاءوا إلى قوم موسى ، وقد مضت الظهر والعصر لم يصلوها لا صلاة خوف ولا أمن ، وقتلوا وأسروا بشراً كثيراً ، وأسروا أبا الخطار وابن حريث وكانا الأمرين .

وكان ابن حريث لما رأى أهل سوق قرطبة يقتلون أصحابه تغيب ودخل تحت سرير الرحى التي بموضع بيع الخشب ، فلما أسروا أبا الخطار وهوما يقتله قال : ليس على قوت ، ولكن عندهم ابن السوداء ابن حريث ! فدل عليه ، فأخرج وقتلا جميعاً ، وكان ابن حريث يقول : لو أن دماء أهل الشام جُمعت لي في قدح لشربتها ! فلما استخرج قال له أبو الخطار : يا ابن السوداء ! هل بقي في قدحك شيء لم تشربه ؟^(١)

تلك كانت خاتمة أبا الخطار الذي أتى ليصلح الأمور فزادها سوءاً ، وأراد أن يستنقذ اليمينية من استبداد القيسية ففقد حياته وحياة من ساروا معه ، ودفع اليمينية إلى وهدة من الهزيمة لن تنهض منها إلا في ظلال عبد الرحمن الداخل وإمارة قرطبة ، وأصبحت الأندلس من تاريخ تلك الواقعة تحت سلطان يوسف الفهري في الظاهر وسلطان الصميل بن حاتم في واقع الأمر .

٩١-مأساة وأحب الصميل أن يشفى أحقاد نفسه ، فسار بالأسرى مصفدين وقعد لهم أسرى شقندة على باب جامع قرطبة ، وكان من قبل كنيسة القديس بيجنث (فِستو - فنسنت) ، وجعل يقضى في أمرهم بالموت واحداً واحداً في لذة ووحشية واستخفاف يثير النفس ، فلما ضرب أواسط سبعين منهم ثارت نفس حليفه أبا العطاء شيخ جذام ، فقام ينهاه ، ولكن الرجل رده وقال له في نشوة الانتقام : « اقعدهم أبا عطاء فهذا عرك وعز قومك » ومضى في هذه المذبحة البشعة حتى لم يطق أبو عطاء الصبر ، وخشى أن يكون الصميل القيسى يسرف هذا الإسراف في التشفى من اليمينية رغبة منه في القضاء عليها ، وتحركت في أبا عطاء يمينته ، فقام إلى الصميل يقول : « يا أعرابي ! والله إن تقتلنا إلا بعداوة صغين ، لتكفن أو لأدعون بدعوة شامية » ، وبهذا التهديد وحده خاف الصميل وكف عن هذا

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٩ - ٦٠ .

العمل البشع^(١).

٩٢- المجاعة واستقامت الأمور ليوسف الفهري والسميل بن حاتم بعد هذا النصر الحاسم تحتاج الأندلس على من كانوا يناوئونها من اليمينين ، وكان السميل كما رأينا شخصية قوية بعيدة الطموح ، في حين كان يوسف الفهري رجلاً مسناً في نفسه خمول ، فجعل السميل يصرف الأمر من دونه . ويستبد به حتى ستم الرجل وفكر في الخلاص من هذه الوصاية التي يفرضها عليه هذا القيسى القوي . فعرض عليه أن يقيمه حاكماً على إقليم سرقسطة ، وقبّل السميل ذلك ، وكان إقليم سرقسطة موطن معظم اليمينين ، فأراد يوسف أن يذلهم بهذا القيسى الفتح^(٢) . وكانت البلاد تعاني إذ ذاك مجاعة حادة لم يسلم من شرها إلا إقليم سرقسطة بفضل مياهه وخيراته ، فكان ذلك مما مال بالسميل إلى إطاعة أمر يوسف .

وأما أسباب هذه المجاعة فترجع إلى هذه الحروب العنيفة التي وقعت بين العرب : شامية وبعنية ، وبين العرب والبربر . وقد رأينا أن هذه الحروب لم تكن قصيرة الأمد ولا محصورة الميدان ، وإنما امتد شرها حتى شمل سكان البلاد جميعاً وأقاليمها كلها ، وقد رأينا أن العرب انجفلوا من المواضع التي كانوا قد استقروا فيها في الوسط والشمال والغرب وخلفوها لا يكاد يشرف على عمارتها أحد ، وأقبل البربر في أعقابهم وهجروا مواقعهم البعيدة وساروا هم الآخرون إلى الجنوب ، ثم انهزموا أمام العرب هذه الهزائم المتلاحقة ، وتبعهم هؤلاء بالأذى في كل ناحية حتى ضاقت بهم البلاد ، وأخذوا يهجرون الأندلس ويعودون إلى مواطنهم الأولى في إفريقية جماعات^(٣) .

هكذا فقدت النواحي أعداداً عظيمة ممن كان قد سكنها من العرب والبربر الذين كانوا يقومون على زراعتها وعمارتها ، فلا غرابة أن تقل المحاصيل وتعرض البلاد لخطر المجاعة . ثم إن هذه الحروب المتوالية بين العرب حيتاً وبين العرب والبربر حيتاً آخر قد دارت رحاها في الأقاليم الخصبّة المزروعة في الجنوب والجنوب الشرقي ، فخرّب كثير من المزارع واضطرب أمر زراعتها ، وزادت المحاصيل قلة تبعاً لذلك .

وانتهز التصارى الإسبان الفرصة وأخذوا يتحدرون إلى الجنوب واحتلوا المنطقة الواسعة

(١) نفس المصدر ، ص ٦١ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٦٢ .

الواقعة بين نهري دويره وتاجه وأخذوا يغازون المسلمين ، فانضاف إلى الأندلس الإسلامي بلاء آخر جديد كانوا قد ظنوا أنهم استراحوا منه (١) ، واجتمعت العوامل كلها فزادت الأمر حدة ، واشتد الجوع وعظمت البلوى وانعدم الأمن حتى تقطعت الصلات بين النواحي ، وبلغ من الأمر أن صاحب الأخبار المجموعة يذكر أن يوسف الفهري احتاج مرة إلى رسول يبعثه إلى الصميل في سرقسطة فلم يجده ، إذ كان الرسل القادرون جميعاً قد هلكوا، وانقطعت المواصلات أو كادت بين قرطبة وسرقسطة (٢).

دامت هذه الحال خمس سنوات من سنة ١٣١هـ إلى سنة ١٣٦هـ / ٧٤٩-٧٥٥م، وكانت هذه السنة الأخيرة هي أقساها وأشدّها ، مما أدى إلى زيادة هجرة الناس إلى إفريقية .. «وانضم الناس إلى ما وراء الدرب الآخر وإلى قورية وماردة في سنة ست وثلاثين ، واشتد الجوع ، فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر مجتازين ومرتحلين ، وكانت إجازتهم من واد بكورة شذونة ، يقال له وادي برباط ، فخف سكان الأندلس ، وكاد أن يغلب عليهم العدو ، إلا أن الجوع شملهم» (٣). إلى هذا الحال انتهى بمسلمي الأندلس تناحرهم بسبب العصبية وبسبب الرغبة في إذلال البربر والاستبداد بالأمر كله دونهم ، وستحدث عن ذلك بتفصيل أوّفى حيننا نتحدث عن مبادئ حركة الإسبان النصرى .

وقد سلم من هذه المجاعة الشديدة إقليم سرقسطة على ما قلناه ، لأن عربيه أقاموا في مواضعهم لم يشتركوا في هذه الحروب الدامية إلا بنصيب قليل ، ولأن من كان يساكنهم من البربر في هذا الإقليم أعددته كثرتهم عن أن يشب بهم ، فلم تمتد نيران الحروب بين العرب والبربر إلى إقليم سرقسطة ، وبقي الإقليم كله على حاله من الرخاء ووفرة الخير ، فلما وصله الصميل وجد قومه في سعة ، ووجد جماعات العرب الذين مستهم المجاعة في أقاليم أخرى يتوافدون إليه انتجاعاً للخير ، وفطن الصميل إلى أن يوسف إنما بعثه إلى هذه الناحية لكي يذل أهلها من اليمينين ، ولكي تقع البغضاء بينه وبينهم ، فيشتغل بهم ويشتغلوا به ويخلص الأمر ليوسف ، فعول على كسب قلوب أعدائه ، ففتح خزائنه ومضى يعطى بكلتا يديه متناسياً عصبية القيسية لكي يفوّت على يوسف غرضه . وكان الصميل داهية واسع الذكاء، ساخراً من كل شيء ، لا يكاد يفعل أمراً عن إيمان ، قال صاحب الأخبار المجموعة : « فلم

يأته صديق أو عدو فحرمه ، فازداد سؤوداً ، وأقام بها أعوام الشدائد التي تابعت^(١).

٩٢- البيونين وأقام يوسف يدبر الأمر وحده في قرطبة بما عرفناه فيه من الضعف وقلة يثرون على الرأي ، وكان لا يجزبه أمر إلا بعث يسأل الصميل فيه ، فلما اشتدت الصميل في سرقطة المجاعة وعدم الرسل ساء أمره وبدأ الناس يتجهمون له. وكان في قرطبة إذ ذاك فتى من بنى عدى بن عبد الدار يسمى عامر بن هاشم ، وكان فارساً نجداً يلي الصوائف قبل ولاية يوسف والسميل ، فجعل يوسف يكيد له خوفاً منه وغيره مما كان الفتى يتمتع به من عظيم المكانة ، وأحس هذا بما يدبر له الصميل فسارع بالكتابة إلى المنصور خليفة العباسيين يسأله توليته الأندلس وبعث سجل الولاية . وكان عامر يميناً ساء ما صنع يوسف والسميل باليمينية ، وخاف أن يفعل الصميل مثل ذلك يمين سرقطة ، فأخذ يستعد للوثوب بيوسف وابنتى لنفسه حصناً كبيراً في منية بغربى قرطبة * فأغلق غلقة عظيمة كاد أن يجعلها مدينة ، وأراد أن يبتنى بها بنياناً ينضم إليه ويغاور يوسف حتى يأتيه إمداد اليمن ، وضعف سلطان يوسف حتى كان لا يركب معه خمسون رجلاً من حشمه^(٢) . ووقعت الوحشة بين الرجلين ، ولولا أن يوسف كان بطبعه جباناً متردداً لوقعت الحرب . ولكنه فضل أن يبدأ بسؤال الصميل رأيه ، فنصحه هذا بالتدبير عليه وقتله ، فلم يكذ عامر يعلم بذلك حتى شعر بأن حياته أصبحت في خطر ، واتجه هم إلى أن يقوم بعمل حاسم إزاء يوسف الفهرى وصاحبه الصميل^(٣) .

كان الرجل يمينياً كما قلنا ، ففكر في الالتجاء إلى ناحية تكون لليمن فيها عزوة وكثرة ، ولم يكن في الأندلس أكثر يميناً من إقليم سرقطة ، حيث أقام الصميل محاولاً جهده استتلاف الناس والتجيب إليهم ، فكتب عامر إلى زعيم من زعماء يمين سرقطة يسمى الحباب (أو الحبحاب) بن رواحة بن عبد الله الزهرى الكلابى - وكان سيد بنى زهرة من كلاب يمت إليه بالقرابة - يعلمه بأن لديه سجل أبى جعفر المنصور ويدعوه إلى معاونته للخلاص من سيادة القيسيين ، واستخفت الدعوة الزهرى فنهض مع عامر بنفر من قومه ، واجتمعت إليهما كذلك أعداد من اليمينية ، وسار جمعهم وحاصروا الصميل في سرقطة^(٤) .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ - ٦٤ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٦٥ .

ويبدو أن الخطر على الصميل كان شديداً لأنه بعث يستنجد بمن أمكنه الاستنجاد به من القيسية ، كتب إلى جُنْدَى قنسرين ودمشق ، ويبدو كذلك أنهم تقاعسوا عنه ، لأنه ألح عليهم . وجعل يقول إنه يجترىء منهم بالقليل ، فنهض لعونه سيد من كلاب يسمى عبيد الله بن علي وجمع له عدداً من قبائل كلاب ومحارب وسليم وهوازن ، وتقاعس من القيسية سيد جند قنسرين الحصين بن الدّجن العقيلي وسيد جند دمشق سليمان بن شهاب ، ولم ينهض للعون إلا بنو عامر بن كلاب وشيخهم عبيد الله وبنو نمير وسعد وجميع قبائل هوازن وسُليم بن منصور ثم تابعتهم غطفان . فلما اجتمعت معظم قيس على هذا النحو لعون الصميل شعر الحصين بن الدجن وسليمان بن شهاب أن قعودهما عن عونه ليس بضائره فنهضا بمن معها . واجتذبت الدعوة كذلك أتباع بنى أمية ومواليهم في الأندلس ، وكان معظمهم مقيماً في جند دمشق بناحية البيرة . فنهض زعماءهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت ، وكانوا من أنصار يوسف والصميل ، وبهذا تحركت قيس جميعها لغياث هذا الصميل الذي فعل بالأندلس الأفاعيل . بيد أننا لا ينبغي أن نبالغ في تقدير أعداد من نهض لعون الصميل ، فإن كل طائفة لم تنهض إليه إلا بضع مئات ، مما يدل على أن عرب الأندلس كانوا قد قلوا إذ ذاك قلة ظاهرة .

٩٤-الحرب سارت هذه القوات لحرب اليمنيين ومن معهم من البربر الذين كانوا بين القيسية مقيمين على حصار سرقسطة ومن فيها من القيسية . وكان معظم هذه والكلبية في سرقسطة القوات من القيسيين لا تفكر إلا في القضاء على اليمنية ، وكان فيهم نفر من موالي بنى أمية كما قلنا ، ولم يكن هؤلاء الأمويون يفكرون في أمر الصميل بقدر ما كانوا يفكرون في أمر قتي من بنى أمية كان إذ ذاك مقيماً في العدو الأخرى بشاطىء إفريقية عند برابر نفة ، وكان قد أرسل مولاة بدراناً إلى الأندلس ليلقى هؤلاء الموالي الأمويين ويدعوهم إلى أمره .

وصلت جموع القيسيين إلى طليطلة ، ويبدو أنها استغرقت وقتاً طويلاً في التجمع والسير ، فأمكن اليمنيين الفرصة لتشديد الحصار على الصميل ومن معه حتى ساءت حالهم . وأقبلت رسلهم إلى طليطلة تستحث القيسيين في سرعة السير ، فعجلوا بإرسال فارس منهم برسالة إلى الصميل تؤكد له إسرعهم إليه بالعون ، وتسلسل الرجل بها بين فرسان عامر وزهرة المحاصرين للصميل ، وربط الرسالة بحجر ثم ألقى بها إلى المحصورين ، ولم يكن فيها إلا البيتان الآتيان :

تبشّرُ بالسلامة يا جدارُ
أناك الغوث وانقطع الحصار
أنتك بنات أعوجَ ملجعات
عليها الأكرمون وهم نزار

فناولها الصميل لمن قرأها له - فقد كان الرجل لا يقرأ - فلم يكذب يسمع الأبيات حتى استبشر ونادى في قومه يعلمهم بالخبر ، وسرى في نفوس المحصورين الفرح والحماس ، ونهضت همتهم بعد أن كانوا قد أشرفوا على التسليم . وتسامع اليمينيون المحاصرون للصميل بذلك فخافوا أن تنزل بهم الهزيمة إذا انتظروا حتى تقبل هذه الأمداد القيسية ، فتفرقوا ، وخلص الصميل من هذا الحصار دون مشقة أو قتال . وأقبل القيسيون ومن معهم من الأمويين فاستقبلهم الصميل استقبال الخبير والسلامة ، « وأعطاهم العطاء الجزيل : أعطى خيارهم خمسين ديناراً ، وأعطى غيرهم من الناس عشرة عشرة وشقة شقة خز ، ثم أقبل معهم إلى قرطبة . فلما فرغ الصميل وأصحابه من الاحتفال بالنصر انتهب الأمويون الثلاثة الفرصة ليكلموا الصميل في أمر صاحبهم عبد الرحمن بن معاوية»^(١).

وستقف هنا بأخبار هذه الفتن القبلية ريثما نلقى نظرة على وجوه أخرى من نشاط مسلمي الأندلس في ذلك العصر ، ولئليّم بظواهر أخرى لا تقل عنها أهمية بالنسبة لمستقبل الإسلام في الأندلس . ستحدث عن الأعمال العسكرية التي قام بها المسلمون فيما يلي شبه الجزيرة الأيبيرية إلى الشمال من أرض أوروبا ، وسندرس ميلاد حركة المقاومة النصرانية في شمال شبه الجزيرة وشمالها الغربي .

* * *

(١) عن هذه الحوادث انظر :

الأخبار المجموعة ، ص ٦٧ - ٦٩ .

ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٤٣ - ٤٥ .

فتح الأندلس ، ص ٤٧ وما يليها .

ابن الأبار : الحلة السراء ، ص ٤٥ - ٥٠ .

الفصل السابع

فتوح المسلمين في غآلة

وقفنا بالفتوح الإسلامية عند نهاية الأعمال العسكرية التي قام بها موسى بن نصير في نواحي سرقسطة وما يلي طليطلة إلى الشمال الغربي وما يلي وادي الحجارة إلى الشمال ، ولكننا لم نفصل أعماله في شمال سرقسطة لأنها أدخلت في باب فتوح المسلمين في منطقة البرت^(١) وما وراءها .

يذهب بعض المؤرخين إلى أن موسى وطارقاً استوليا على برشلونة ثم عبرا جبال البرت وفتحوا أربونة وأبنيون وواصلوا التقدم حتى بلغا ليون في فرنسا^(٢)، وهي الحد الأقصى لفتوحات موسى وطارق بحسب ما يذكره هؤلاء المؤرخون . وليس من الممكن أن يكون موسى وطارق قد عبرا البرت وصعدا مع نهر رُدائه^(٣)، حتى بلغا ليون ، وليس بين أيدينا دليل واحد يؤيد مثل هذا الزعم . وأما فتوحهما في نواحي برشلونة والركن الشمالي الشرقي لشبه الجزيرة ففتحناج إلى شيء من الدرس حتى يتضح مداها على وجه قريب من الصحة .

يذهب مؤرخونا إلى أن موسى حينما أتاه رسول الخليفة الوليد بن عبد الملك - على ما ذكرنا - لم يتعجل العودة وإنما دفعه ذلك إلى الإسراع ومضاعفة المهمة في الغزو حتى يستكمل فتوح شبه الجزيرة قبل أن تأخذ عليه الظروف سبيل إدراك هذه الغاية . فعبر نهر ائره ومضى نحو الشمال الغربي دون أن يمر بِنَبْلُونَة وغزا بلاد البَشْكُنْس فيها حتى أتى قوماً كالبهائم - كما يقول ابن عذارى^(٤) - ثم اتجه نحو الشمال فأطاعه رؤساء جليقية وأساقفتها، حتى إذا بلغ لك (Lugo - Lucus Asturum) أدركه رسول ثان من قبل الوليد يأمره بالعودة إلى دمشق ، فلم يستطع مخالفة الأمر هذه المرة فَكَّرَ راجعاً وانضم إليه طارق واتجها

(١) جبال البرت أو البرتات هي المعروفة عندنا خطأ بالبرانس . والبرت هو اللفظ اللاتيني Porta أى الباب أو المرعى الجبال ، ولهذا تسمى في العربية أيضاً بجبال الأبواب .

(٢) المقرئ : نفع الطيب . ج ١ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٣) رُدائه هي الصيغة العربية لاسم نهر الرون ، وهي مأخوذة عن اسمه اللاتيني Rhodanus .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٨ .

جميعاً نحو قرطبة ومنها إلى المشرق^(١) وانتهى دوره في الفتوح الإسلامية بعد أن قام بدور يرضه في الصف الأول من الفاتحين المسلمين .

ولم يجد ابنه عبد العزيز بن موسى أثناء ولايته القصيرة التي لم تزد على سنتين وأشهر فراغاً يُمكنه من القيام بالغزو والفتح فيما خلا سيره إلى ناحية تدمير ، وعقده المعاهدة التي ذكرناها مع صاحبها تدمير ، مدة ولايته ، وقد ذكر بعض المؤرخين أنه افتتح مدناً وحصوناً كثيرة ، ولكنهم لم يذكروا شيئاً على وجه التحديد مما يدل على أن جهده في الفتوح أثناء ولايته كان قليلاً جداً^(٢) .

ويبدو أن خليفته أيوب بن حبيب كان أكثر منه انصرافاً إلى الغزو على الرغم من قصر ولايته ، ولم يحدد لنا المؤرخون النواحي التي صرف إليها نشاطه ، ولكن الغالب أن جهوده وجهت نحو شمال شبه الجزيرة وشاهاها الشرقي ، ويذكر الأسقف رودريجو الطليطلي أن أيوب هذا هو الذي ابتنى البلد المعروف بقلعة أيوب (Calatayud) إلى الشمال الشرقي من طليطلة ، وكان في موقعها حصن روماني قديم يسمى (Bilbilis)^(٣) .

٩٥-بدء الغزوات وتتفق المراجع على أن الحر بن مالك - خليفة أيوب - كان رجلاً ذا نشاط فيما وراء جبال ملحوظ في الغزوات في غالة وما وراء البرتات ، ولم يذكر شيئاً مفصلاً عنها البرت إلا إيزيدور الباجي ، فقد أفرد فقرة خاصة للحر وأعماله ، فذكر أنه غزا

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٤ ، ص ٤٤٨ .

ابن عذاري : البيان ، ج ٢ ، ص ١٨ .

المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

وقد ذهب إيزيدور الباجي إلى أن موسى لم يفتح سرقسطة إلا بحد السيف ، فأنزل بأهلها من الولايات شيئاً كثيراً : ذبحهم بالسيف وأشعل النار في البلد ، وقتل الشبان والأطفال الرضع بالحرب ، وأنه نشر الحراب والجوع في المنطقة كلها . ولم تشر المراجع العربية إلى ذلك .

CF : ISIDORO PACENSE : Chronicon, c. 38

CODERA, Estudios. VIII. p. 204 .

وذهب فيارنو وكوندي إلى أن موسى أنزل بنواحي قطلونية (Cataluna) ونبرة (Navarra) وأرغون مساءت كثيرة لأن أهلها قاوموه مقاومة شديدة ، ولم يذكر المؤلفان من أين أخذوا هذه المعلومات ، وقد شك فيها كوديرا واعتبرها بالغة مصدرها كوندي .

VIARDOT, Hist, des Arabes et des Maures d'Espagne, I, P. 82 .

CODERA, Estudios Criticos de historia árabe esqanola (Segunda serie, Madrid, 1917) .

(٢) ابن الأثير : ج ٥ ، ص ١٤ .

المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

CODERA, Op. cit. p. III

(٣)

جنوبي غالة حتى أربونة عاصمة غالة النربونية (Gallia Narbonensis) وظل يغاور أهل هذه النواحي حتى اضطروا إلى طلب الصلح فمنحهم إياه، ولكن أحداً من مؤرخي العرب أو الفرنجة لا يزيد إيزيدور في ذلك، ولهذا لا يمكننا التعويل على هذه التفاصيل الواردة في روايته تلك^(١).

٩٦-السمح بن مالك يصل إلى طرسونة استشهاداً عند طولوشة
فلما أقام عمرُ بن عبد العزيز السمعَ بن مالك الخولاني والياً على الأندلس (سنة ١٠٠هـ/ ٧٤٠م) نشطت حركة الفتوح فيها وراء البرتات نشاطاً عظيماً، لأن السمع كان رجلاً وثيق الإيمان جم النشاط، فلم يكذب يستقر في الولاية حتى بادر بالنهوض لحرب النصرانية فيها وراء البرتات، فتوغل في غالة حتى أدرك طرسونة (Tarascon) واستمر في التقدم حتى وقف بأبواب طولوشة (Tolosa). ويبدو أن نشاطه هذا روعَ أهل أقطانية (أكويتانيا)، فنهض له دوقها وسار بجيشه حتى لقي السمع في موقعة عنيفة على مقربة من طولوشة.

واشتد القتال بين الجانبين وصبر المسلمون صبراً كريماً حتى قُتلوا عن آخرهم كما يقول ابن حيان، وقد استشهد السمع مع من استشهد في هذه الموقعة في يوم عرفة من سنة ١٠٢هـ (١٠ يونيو سنة ٧٢١م)، ولم تستطع فلول الجيش الإسلامي العودة إلا بفضل ما أبداه أحد كبار الجنود - وهو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي - من الجهد، فقد أقامه العسكر رئيساً عليهم، فبذل المهمة في جمع شتاتهم والتفكير بهم حتى عاد إلى الأندلس. وكانت تلك هي ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولى، ولم تدم إلا أشهراً لأن عامل إفريقية استبدل به عبسة بن سحيم الكلبي بعد هذه الكارثة بأشهر قلائل^(٢).

(١) يقول إيزيدور الباجي عن غزوات الحر في غالة، فقرة ٤٣، ص ١٥١ :

Hujus tempore Alahor per Hispaniam lacertos judicum mittit, atque debellando et pacificando pené per tres annos Galliam Narbonensem petit, et penlatim His paniam ulteriorem vectigalia censendo, ad Hiberiam citeriorem se subrigit, regnans, annos supra scriptos .

وقد أخذ CENAT MONCAUT يقول إيزيدور وقرر أن الحر فتح أربونة، وجعل هذا الحادث سنة ١٠٦هـ وهي أولى سنوات حكم السمع بن مالك. وقد نقل عنه ذلك مؤرخون محدثون كثيرون دون أن يفتنوا إلى ذلك الخطأ. CENAT MONCAUT, Histoire des peuples et des etats pérénéens (3e. éd - 1873) I, 477.

(٢) الأخبار المجموعة، ص ٣٤.

المقرى، ج ١، ص ١٤٩ - ج ٢، ص ٩.

ابن عذاري: البيان، ج ٢، ص ٢٥ - ٢٦.

وتذكر المراجع العربية أن هذه المزيمة وقعت عند طرسونة، والأصح أن يقال إنها كانت عند طرسونة =

٩٧ - عنبسة بن سحيم وحملته الكبرى
 وقد قضى عنبسة السنوات الأربع الأولى من ولايته في تنظيم أمور الأندلس وتهديتها ، بعد الاضطراب الذي وقعت فيه بسبب خلافات العصبية التي ذكرناها وبسبب هذه الكارثة التي أصابت السمع ورجاله ، ولكنه كان ذا حماس للفتوح ، فلم تكد الأمور تستقر شيئاً حتى عجل بالنهوض للغزو في غالة ، فصعد مع نهر ردانه حتى أدرك قرقسونة (Carcassona) فحاصرها وشدد الحصار حتى نزل المدافعون عن البلد على شروطه ، فنزلوا له عن البلد ونصف الإقليم المحيط به وتعهدوا برّد أسرى المسلمين الذين كانوا في الحصن وبأن يدفعوا الجزية وأن يشتركوا مع المسلمين في حرب أعدائهم جنباً إلى جنب ، ويضيف صاحب « مدونة مواسياك » أن عنبسة استولى بعد ذلك على نيمة (Nimes- Noemansum) وأخذ رهائن أهلها وأرسلهم إلى برشلونة ، مما يُفهم منه ضمناً أن برشلونة كانت إذ ذاك في يد المسلمين وأنهم اتخذوها حصناً ومركزاً يصدرون منه للغزو فيها وراء البرتات .

ثم واصل عنبسة سيره حتى أدرك مجرى نهر ردانه . ويبدو أنه وجد الطريق أمامه خالية ، فسار مسرعاً ، دون أن يلقى مقاومة ، وصعد مع النهر حتى أدرك نهر الساعون ، ودخل إقليم بوجونيا واستولى على أوتون (Autûn- Augustodunum) ونهبها وأحرقها .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن حملة عنبسة لم تقف عند هذا الحد « بل نهب مدينة أوزه (Uzès) وفيين وعائث في نواحي فالانس ووصلت الموجة حتى ليون وماكون وشالون . وهناك تفرعت فرعين ، سار الأول نحو ديجون وبيز (Béze) ولانجر (Langre) ، واتجه الثاني صوب أوتون مرة أخرى ، ولم يقف تيار هذه الحملة إلا قرب بلدة سانس (Sens) على بُعد ثلاثين كيلو متراً جنوبى باريس ، لأن إيون (Ebbon) أسقف سانس تصدى للمسلمين وأوقف تقدمهم » (١) .

وعاد عنبسة بمن معه من الجند محملين بالغنائم بعد أن وصلوا إلى قلب غالة ، وغزوا

(1) = (Tarascon) على مقربة من طولوشة عند مصب الرون ، وقد ذهب إلى هذا الرأي سافندرا معتمداً على ما ذكره إيزيدور الباجي من أن السمع استشهد عند طولوشة في موقعة حامية بينه وبين دوق أكويتانية . وقد ذهب إيزيدور إلى أن هزيمة المسلمين كانت قاسمة .

ISIDORO PACENSE, Chronicon, c. 44 .

يقرر صاحب مدونة مواسياك كذلك أن هزيمة السمع ومقتله كانا عند طولوشة .

Chronicon Moissiacense. app. 4. p. 165 .

DOM VAISSETTE, Histoire de Languedoc. I, 781-784 .

(١)

حوض الرون كله وتخطوا نهر اللوار وأصبحوا على مسافة قصيرة من السين نفسه . وقد تم ذلك كله خلال سنتي ١٠٦- و١٠٧هـ / ٧٢٥-٧٢٦م .

وطبيعي أن تثير هذه الغارة العنيفة المخاوف في نواحي غالة كلها : ارتاعت معظم الدوقيات الجنوبية والوسطى ، وشعرت مملكة الفرنجة أنها أمام خطر داهم حقيقي . وبدا بوضوح أن الحملة المقبلة ستكون حملة حاسمة من كل وجه ، فإما أتم العرب فتح مملكة الفرنجة أو ارتدوا عنها . ولو قد كانت أحوال مسلمي الأندلس على غير ما علمنا من الاضطراب ، بسبب خلافات العصبية ومنازعات العرب والبربر ، لما اضطرت عبسة إلى الانصراف عن فتوحه الموقفة في غالة بعد أن أدرك هذا النصر العظيم .

يبد أننا ينبغي أن نلاحظ أن حملة عبسة لم تكن في الحقيقة غير غارة بعيدة المدى ، ولو كان عبسة على نية الفتح الثابت لأتم الاستيلاء على ما غلب عليه من المدائن ، ولأقام الحاميات في بعضها على عادة العرب في فتوحهم . وربما كانت نيته من أول الأمر أن يقوم بحملة تشبه حملة عُقبَةَ الكبرى : غارة بعيدة المدى تشق البلاد شقاً وتطلع المسلمين على أحوالها وتمهد لما بعدها . ولو قد استقر عبسة في ليون مثلاً أو في أحد مراكز غالة الوسطى لكان في إمكاننا أن نقرر أنه فتح جنوبي غالة ووسطها ، أما وقد عاد أدرجه بعد أن سار نحو ألف ميل شمالي قرطبة فلا نستطيع القول إلا أن حملته الرائعة تلك لم تكن أكثر من غارة سريعة طويلة أتت بمغانم وفيرة ونشرت في نواحي غالة كلها رعباً شاملاً . ومهما يكن من الأمر فإن عبسة بن سحيم الكلبي يتفرد بين الفاتحين المسلمين بهذا الفخر ، فخر الوصول برايات الإسلام إلى قلب أوروبا الغربية ، ولم يدرك هنا الشؤ بعد ذلك فاتح مسلم آخر^(١) .

٩٨- لماذا اتجه رأينا كيف استولى عبسة بن سحيم على قرقشونة ، ثم كيف انحرف بعد عبسة نحو حوض ذلك شياً بشرق في اتجاه نهر الرون واستولى على نيمه (Nimes - Noe) المرون؟ (mansum) ، ولا يعطل اتجاهه هذه الوجهة إلا بأن طولوشة كانت ما تزال إذ ذاك في أيدي المسلمين ، ولو كانت في أيدي التصاري لما تركها - وهي أقرب البلاد إليه - واتجه نحو بلاد الرون .

Chronicon Moissiacense. p. 165.

ISIDORO PACENSE. C. 52.

CODERA, Op. cit. p. 114 .

LEVI- PROVENCAL, Op. cit. pp. 41- 42 .

ويذهب بروفنسال إلى أن عبسة لا بد أن يكون قد قُتل أثناء اشتباكه مع نصارى طرسونة .

ولو كنا نملك نصوصاً أوضح من المدونات اللاتينية الشديدة الإيجاز لاستطعنا أن نفسر السبب في اتجاه عنبة نحو حوض الرون بدلاً من متابعة الغزو في الاتجاه الأول ، أى في اتجاه دوقية أقطانية . وربما اتضح الأمر بعض الشيء إذا درسنا الوضع العام في جنوبي غالة في ذلك الحين .

لاحظنا أن المسلمين لم يجدوا عناء في غزو إقليم سبتانية ، فاستولوا على عاصمته أربونة واستقروا فيها واتخذوها مركزاً لأعمالهم . والسبب في ذلك أن سبتانية لم تكن داخلية في دولة الفرنجة ، بل كانت من أملاك القوط الشرقيين أصحاب الأمر في إيطاليا . ثم تراخى سلطانهم عليها ، وطمع فيها الأمراء الإقطاعيون المتنازعون على السيادة على جنوبي غالة مثل كُند (كونت) طولوشة (تولوز) ودوق أقطانية (أكويتين) وكند بواتيه ، ولكنهم لم يجرءوا على غزوها تحاشياً للاشتباك مع القوط الشرقيين^(١) . وكانت سبتانية ولاية ساحلية تمتد من شمالي جبال البرت بحذاء ساحل غالة (فرنسا) الجنوبي وتتصل بها يُعرف اليوم بالرفيرا الإيطالية . وكانت تتألف من سبعة أقسام إدارية صغيرة ، ولهذا سميت بسبتانية (Septemania).

فلما خرج المسلمون من سبتانية وبدأوا يجوسون خلال دوقية أقطانية واستولوا على عاصمتها طولوشة تغير الأمر ، ونهض لردهم دوقها أودو (Eude-Odon) وأوقع بهم الهزيمة التي ذكرناها عند طولوشة والتي استشهد فيها السمعح بن مالك الخولاني (ذى الحجة سنة ١٠٢هـ/ يونيو سنة ٧٢١م) . وقد أخذ عنبة بتأر السمعح واستولى على قرقشونة وبدلاً من أن يتجه نحو طولوشة ، وكانت لا تزال في أيدي المسلمين ، نجده يرتد إلى سبتانية ثم يغادرها ليصعد مع الرون ويدرك نيمه (Nimes - Noe mansum)^(٢) فما العلة في ذلك ؟

ربما استطعنا تفسير ذلك إذا نحن درسنا علاقات الدوق أودو بالعرب من ناحية ، وبمملكة الفرنجة من ناحية أخرى .



١١-الدوق نودو تبدأ الروايات التي تحدثنا عن صلوات أودو بالعرب بالكلام عن صلته بثورة وعلاقته مع مونوسة . وقد عرضنا من قبل لهذه الثورة وذكرنا كيف أوردت المراجع المسلمين العربية هذا الاسم بصورة مبهمة لا يفهم منها إن كان اسم شخص بربري أو اسم إقليم ، وكيف أن هذا الإبهام قد أوقع المؤرخين جميعاً في خلاف حول الموضوع كله : فأما الغالبية - وهي كوند ورينو ودوزي وبروفنسال وجبريل وكاليمت - فقد ذهبوا إلى أن مونوسة زعيم بربري ثار على المسلمين في نواحي بنبلونة ، وعارض هذا الرأي جماعة من الإيبان على رأسهم كوديرا ، فقد ذهب إلى أن مونوسة إن هو إلا تحريف لاسم مكان هو منريسا (Manresa) معتمداً في رأيه هذا على أن لفظ مونوسة ورد في النصوص العربية مبهماً دون تحديد . ولكننا لا نستطيع أن نقبل هذا الرأي لأن رواية إيزيدور الباجي أبين من أن تُدحض جملة ، ثم إن سياق الحوادث يدل على أن شخصاً بربرياً اسمه مونوسة وُجد فعلاً ، وأنه لعب دوراً خطيراً في العلاقات بين المسلمين والنصارى في هذه الأيام^(١).

وإليك موجزاً لرواية إيزيدور عن مونوسة :

إن رجلاً من الجنس البربري اسمه مونوس (Munuz) ترامت إليه من حدود ليبية (إفريقية) أخبار الظلم القاسي الذي كان يعانيه أبناء جنسه في هذه البلاد ، فصالح الفرنجة وصاهر أودو دوق أقطانية وأخذ يعمل على إيذاء العرب أعداء إسبانيا ، ووثب بهم بالفعل وأصبح في حرب دائمة معهم . ولكن أنصاره كانوا في خلاف متصل معه . ولم ينهض عبد الرحمن (الغافقي) لحربه إلا بعد أن أرسلت نحوه حوالي عشر حملات . فنهض عبد الرحمن لمونوسة وتبعه ففرَّ إلى خواتق الجبال . وتخرج مركزه وضيق المسلمون عليه الخناق وقتلوه وقبضوا على زوجته وأرسلوها إلى بلاط الخليفة .

وتفيض رواية إيزيدور بعد ذلك في ذكر أعمال العنف والاضطهاد التي أنزلها عبد الرحمن بحلفاء مونوسة من النصارى ، وخاصة أهل شرطانية (Cerdana-Cerritania) ، وكيف أنه أحرق أناباديوس (Anabadius) أسقفها بعد ذلك^(٢).

وتهمنا من هذه الرواية مسألتان : الأولى هذا التفصيل الذي تورده عن أعمال عبد الرحمن

ISIDORO PACENSE : Chronicon. C. 58.

(١)

CODERA, Estudios árabes, VII pp. 141 Sqq. VIII pp. 115-118.

ISIDORO PACENSE : Chronicon. C. 58.

(٢)

واضطهاده للنصارى ، والثانية هى علاقة أودو بالمسلمين ، وكيف أنه زوّج ابنته لزعيم بربرى منهم لكى يأمنهم على بلاده .

فأما المسألة الأولى فستناقشها عند عرضنا لأحاديث المدونات اللاتينية عن عبد الرحمن جملة ، وأما المسألة الثانية فذات أهمية خاصة لنا هنا ، لأنها تلقى بعض الضوء على علاقات أودو بالمسلمين .

ونقطة الضعف فى هذه الرواية هى زعمها أن مونوسة قام بثورته تلك حين بلغته أخبار ما كان البربر فى إفريقية يقاسونه من مظالم العرب ، أى فى نفس الوقت الذى حدثت فيه الثورة البربرية التى فصلنا أمرها ، ولم تقع هذه الثورة إلا بعد حركة مونوسة بعشر سنوات . ومن هنا لا يستقيم كلام إيزيدور ، وربما استطعنا القول بأن مونوسة إنما وثب بالعرب لما كان من سوء معاملتهم البربر جملة فى الأندلس .

كان أودو دوق أقطانية ، بناء على هذه الرواية ، حليفاً لمونوسة البربرى وحمياً له قبل أيام عبد الرحمن الغافقى ، أى فى أيام عنبسة وربما فى أيام السماح ، وربما كان هذا من أسباب هزيمة السماح عند طولوشة . وما يؤيدنا فى هذا الظن أن عنبسة ، حينما نهض بحملته التى نحن بصدددها ، اتجه نحو بلاد الدوق رأساً واستولى على قرقشونة ، ثم انحرف إلى سبتانية من جديد وسار نحو نيمه على ما رويناها .

ولسنا نعلم - على أى الأحوال - إن كان مونوسة قد خرج مع عنبسة وساهم فى هذه الحملة أو لم يخرج ، وإن كان انحراف الحملة عن بلاد الدوق يؤيد خروجه مع المسلمين . وليس ببعيد أن يكون وجود مونوسة فى جيش عنبسة هو السبب فى انصراف المسلمين عن بلاده ، وقد كانوا مستطيعين التوغل فيها والاستيلاء على كبار معاقلها .

ثم إن الدوق لم يسر لحرب المسلمين كما فعل يوم ساروا إليه يقودهم السماح بن مالك ، ولم يحاول أن يهاجمهم من خلف يعد أن تركوا بلاده خلفهم وساروا مع نهر ردانه صعداً حتى قاربوا السين ، ولا يعلل ذلك إلا بأنه كان فى ذلك الحين صديقاً موالياً لهم . وربما كانت هذه الصداقة هى مصدر الرواية الفرنجية التى تتهم الدوق بأنه استدعى العرب لغزو غالة لأنه كان فى خصومة مع قارله (شارل مارتل) صاحب الأمر فى الدولة الفرنجية إذ ذاك^(١) .

(١) يقول إيزيدور :

Eudo Sarracenos in auxilium sui adscivit, qui venientes cum rege suo Abdirama transeunt Gallonnam, Burdigalem usque perveniunt cuncta vastantes acclias igne crematis , Pictavis basilicam Sancti Hilarii incendunt .

والواقع أن أودو لم يكن إذ ذاك على وئام مع دولة الفرنجة ، وكان قارله بنفس عليه مكانته ويود لو أزاله عن ولاية أقطانية (أكويتين) الغنية الواسعة ، وقد أوردت لنا الروايات اللاتينية أخباراً متفرقة عن عداة الرجلين وما كان بينهما من خصومة . وليست هذه العداوة بالأمر الغريب ، فقد كان معظم الأشراف الإقطاعيين في غالة يخافون قارله ويكرهونه ، وكان الكثيرون منهم - وفيهم أودو - في حالة حرب معه ، وهذا هو السبب المعقول الذي دفع بأودو إلى مصادقة المسلمين ومصاهرة واحد منهم هو مونوسة .

لم يقع انصراف عبسة عن أراضي الدوق إذن مصادفة ، وإنما كان أمراً طبيعياً أُمَلَّتْه الظروف العامة ، فقد انصرف العرب عن أراضيها لأنه كان حليفهم ، وربما كان هذا الحلف هو السبب فيها وُفِّقَ إليه المسلمون من انتصارات فاقت كل ما كان منتظراً في حملة عبسة .

ولم يستطع عبسة إدراك الأندلس بعد هذه الغزوة الكبرى فقد داهمت في طريق العودة جموع كبيرة من الفرنج التحمت معه في موقعة أصيب أثناءها بجراح بالغة توفى على أثرها في شعبان سنة ١٠٧هـ / ديسمبر سنة ٧٥٢م وقام بقيادة الجند الإسلامي والعودة به إلى الأندلس قائد تسميه المراجع النصرانية Hodeyra أو Hodra وهما صيغتان محرفتان لعذرة^(١).

١٠١-عذرة بن عبد الله الفهري
عذرة هذا هو عذرة بن عبد الله الفهري الذي خلف عبسة في ولاية الأندلس بدون تعيين من عامل إفريقية أو من مركز الخلافة ، وقد ظل في الولاية سنتين وثلاثة أشهر (شوال ١٠٧هـ - ربيع الأول ١١٠هـ / فبراير

= كوديرا، ص ٢٠٦ .

(١) يذكر ابن عذاري (البيان المغرب ج٢، ص ٢٦) وابن الأثير (ج ٥، ص ٣٧٣) أن عبسة مات حتف أنفه ولم يستشهد . وقد أورد القرني روايات مضطربة كثيرة نقلها عن ابن حبان والرازي يفهم منها أنه توفي مستشهداً (القرني: نفع، ج ٢، ص ٩) ورواية إيزيدور الباجي غير واضحة ، لأنه يذكر أن عبسة توفي ، فقام أحد قواده وهو Hodera (عذرة) بقيادة الجند والعودة بهم إلى وطنهم (الأندلس) ، وأن عبسة أوصى له بذلك قبل وفاته :
(عذرة) Hodera : atque Hodera) Qui dum rabidus pervolat. morte propria vitae terminum parat :
consulem patriae sibi commissae vel principem exercitus repedantis , vel quasi refractantis. in extremo vitae positus ordinat (c.53) .

يبد أن الكثيرين من مؤرخي غالة بشيرون إلى هذه الموقعة التي استشهد فيها عبسة وقيام عذرة (الذي يسمونه في بعض الأحيان Hodeyra) بجمع شتات الجنود والعودة بهم إلى الأندلس ، وقد أخذنا بروايتهم لأنهم أدرى بحوادث تاريخ بلادهم ، ولم يكن لنا عن ذلك مفرز أمام صمت الرواية العربية .

مارس سنة ٧٢٦ م - يونيو - يوليو سنة ٧٢٨ م^(١).

ولا تنسب الرواية الإسلامية إلى عذرة أى عمل حربي في غالة ، ولكن الرواية النصرانية تذكر أعمالاً حربية خطيرة قام بها المسلمون بعد مقتل عنبسة مباشرة ، وحيث أن ولاية عذرة دامت سنتين وأشهرأ فلابد أن هذه الأعمال وقعت خلالها ، ويجعل رينو أخبار هذه الأعمال في قوله : ه .. وقد قتل (عنبسة) في إحدى غزواته سنة ٧٢٥ م . واضطر خليفته عذرة إلى قيادة الجيش في طريق العودة إلى الحدود . ولم تلبث الحرب أن استمرت من جديد في عنف ، ولما كانت أعداد كثيرة قد أقبلت من الأندلس ، فقد غض قادة المسلمين ، وقد شجعتهم المقاومة القليلة التي صادفوها ، وأخذوا يرسلون الحملات في كل وجه . ويقول مؤرخ عربي أن رياح الإسلام أخذت تهب على النصرانية من كل ناحية ، فافتحم المسلمون سبتمانية مرة أخرى وعادوا إلى حوض الرون وغزوا بلاد الألبين (Les Albegeois) وإقليم رويرج (Le Rouergue) وجيفودان (Gévaudan) وليفليه (Levelay) ونهبوا نهباً لأزيعاً ، وأتت النيران على ما أغفلته سيوف العرب ، حتى لقد استنكر الكثيرون من الفاتحين أنفسهم هذا الإسراف في أعمال العنف^(٢).

ولسنا نستطيع تحقيق ذلك على وجهه الصحيح ، وإن كنا نقبل ما تذكره الروايات اللاتينية عن الأعمال التي وقعت أثناء ولاية عذرة ، لأن عبد الرحمن الغافقي حينما تولى وجد المسلمين في حالة طيبة في غالة ، ولو كان أمرهم وقف عند ما انتهت إليه أعمال عنبسة وهو الرجوع إلى الأندلس ، لما استطاع عبد الرحمن الغافقي أن يقوم بالعمل الكبير الذي قام به .

وتضيف الروايات النصرانية أخباراً كثيرة عن أعمال العرب في غالة خلال هذه الفترة التي نتحدث عنها وهي التي انقضت بين موت عنبسة وقدم عبد الرحمن الغافقي ، وهذه الأخبار ملأى بالمبالغات عما تسميه مساءات العرب أو مظالمهم التي أنزلوها بأهل هذه النواحي ، ونحن نورد طرفاً منها على سبيل استكمال الأخبار عن أعمال المسلمين الحربية في غالة .

تذكر هذه الروايات أن المسلمين خربوا كنيسة رودس (Rhodès) الكبيرة وعاثوا فيها

(١) ابن عثاري : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٦ .

REINAUD, Invasions ... 23 .

(٢)

ولم يُشير رينو إلى مراجعته التي استند إليها في ذلك .

أى عيث ، واستقروا في حصن قريب من موضع روكبريف الخالي (Roqueprive)^(١). وانضم إليهم نفر من أهل هذه النواحي وساروا معهم يغزون في كل وجه ، ويحكي المؤرخون في هذه المناسبة قصة شاب يسمى داتوس أو دادون أظهر بطولة كبيرة في محاربة العرب وردهم عن ناحيته^(٢).

ويغلب على الظن أنه في خلال هذه الفترة - أى بين سنتي ٧٢٥ و ٧٣٠م (١٠٧-١١٢هـ) - قام المسلمون بالغزوات التي تنسبها إليهم الروايات النصرانية في أقاليم دوفينيه (Dauphiné) وليون وبورجونيا (Bourgogne) . ولا تذكر مراجعنا العربية عن ذلك شيئاً على الإطلاق في حين تختلف المراجع النصرانية فيما بينها اختلافاً يبيّن بشأنها . فأما المقرئ فيذكر : « إن الله ألقى الرعب في قلوب النصارى ، ولم يعد أحد منهم ليظهر إلا ليستأمن ، فاستولى العرب على البلاد ومنحوا الأمان لمن أراد ، وساروا مصعدين حتى وصلوا حوض الردانة ، وهناك ابتعدوا عن الشاطئء وتوغلوا داخل البلاد » .

ولم يذكر لنا المقرئ البلاد التي وصلوا إليها حينما توغلوا في غالة هذه المرة ، ويقول رينو في تفسير عبارة المقرئ تلك : « ولا نستطيع تعرف المواقع التي وصل إليها العرب إلا بما خلّفوه وراءهم من التخريب في النواحي التي وصلوا إليها ، فقياً يحيط بفين (Vienne)

(١) ويجعلها بعضهم في موقع بالاجيه (Balaguier)

REINAUD, Op. cit. p. 23 .

والمراجع المطبوعة .

(٢) أورد هذه الحكاية الشائعة ERMOLDUS NIGELLUS في نص قصيدة لاتينية نشرها برتس : M. PERTZ Monumenta Germaniae Historiae, II, p. 466 sq. وتبدأ قصة دادون في البيت السابع بعد المائتين من أبياتها ، ووردت إشارة إليها في كتاب « غالة المسيحية » Gallia Christiana ج ١ ، ص ٢٢٦ ، وقد خصصها رينو في كتابه عن غزوات العرب في غالة كما يلي :

كان دادون شاباً صغيراً من قرية كونك (Conques) في إقليم رويرج (Rouergue) عندما اتحم المسلمون هذه الناحية ، فحمل السلاح وخرج لقتالهم مع غيره من رجال ناحيته ، فينما هو في بعض مطارداته للفرقة بعيداً عن قريته ، دمّمها المسلمون ونهبوا بيته وأخذوا أمه أسيرة وأدخلوها في حصنهم . فلما عاد دادون وسمع الخبر حمل سلاحه ومضى إلى الحصن يريد اقتحامه ، وسخر منه المسلمون خلف أسوارهم ، وقال له بعضهم : « إذا أردت أن نرد لك أمك فأعطنا الحصان الذي تمتطيه وإلا ذبحنا أمك أمام عينيك » فرفض دادون أن يجيبهم إلى ما طلبوا . فذبحوا أمه ورموا إليه برأسها ، فبلغ من رعب الفتى وحزنه أن ذهب قترهب في ناحية على ضفاف نهر الدوردون (Dourdon) وقد أنشء فيها بعد في مكان ترهبه دير كونك (Conques) .

وقد أوردنا هذه الحكاية كنموذج لما كتبه مؤرخو غالة النصارى عن المسلمين في هذه الفترة .

وقد أورد رينو قصة أخرى من هذا الطراز يذهب رواة النصارى إلى أنها حدثت في هذه المناسبة .

cf : REINAUD : Invasions ... pp. 26-29.

Gallia Christiana : II, p. 468 .

وعلى ضفاف الرون تحولت الكنائس والأديرة كلها إلى خرائب ، وكذلك تخربت كنائس لودون (Lyon) ونهبت ماكون وشالون على السواء ، وتعرضت بون (Beaune) لتخريب ذريع ، وأشعلت النيران في كنيسة سان نازير (Saint Nazaire) وسان جان في أوتون ، وهدم دير سان مارتان (Saint Martin) خارج البلدة ، ونهبت كنيسة سان أندوش (Saint- Andoche) في سوليو (Saulieu) وعلى مقربة من ديجون هدم العرب كنيسة بيز (Béze)^(١) .

ولم تشر المراجع التي أشار إليها رينو إلى أن العرب هم الذين خربوا النواحي التي ذكرها كلها ، وإنما هو الذي جعل دأبه - كما وجد ديراً قد احترق أو كنيسة تخربت في هذه المدة - نسبة ذلك إلى المسلمين ، مع علمه بأن العصر كله كان عصر اضطراب وحروب بين النصارى فيما بين بعضهم وبعض في هذه الجهات من غالة على وجه الخصوص ، ومع علمه بأن كلوفس نفسه أنزل بالكنائس والأديرة في جنوبي غالة وفي بورجونيا وفي أقطانية من التخريب والأضرار ما فاق كل وصف . وليس من المعقول أن المسلمين لم يكن لهم همٌّ في غاراتهم في غالة إلا لتخريب الكنائس والأديرة وإشعال النار في المدن ، فقد فتحوا قبل ذلك مصر وإفريقية والأندلس وهي كلها غاصة بالكنائس والأديرة وما إليها من المؤسسات النصرانية فلم يحرقوا ولم يخربوا ، فمن عجب أن ينقلب حالهم إذا عبروا إلى غالة فيتحولوا إلى برابرة مخربين لا يكادون يقون على شيء !

الواقع أن هذا الكلام لا يقوله مؤرخ جاد يقدر معنى ما يقول ، فليس من الجذ في شيء أن يقال إن العرب لم يفعلوا في غالة غير تخريب الكنائس وحرق الأديرة ، والثابت المعروف عنهم أنهم لم يخربوا كنيسة أو يحرقوا ديراً . وإذا نحن قارنا المسلمين بالشعوب التي كانت تسود غالة في ذلك الحين ، من فرنجة وقوط غربيين وقوط شرقيين وبرغنديين ومن إليهم ، لتبيننا أن المسلمين كانوا أعظمهم حضارة وأبعدهم عن النهب والتخريب . ومهما بحثنا في حويليات ذلك العصر فلن نجد بين من ظهروا على مسرح الحوادث في غالة خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادي رجالاً نستطيع أن نقارنهم بالسبح بن مالك ، أو عنبة بن سحيم ، أو عبد الرحمن الغافقي .

REINAUD, Op. cit. pp. 29-30

Gallia Christiana IV. pp. 51. 450-860-1042.

Chronicon Moissiacense dans Hist. des Gaules, II, 655.

DOM PLANCHER : Histoire de Bourgogne, I. p. VII .

(١) ومراجعته هي :

ويلاحظ رينو الملاحظة التالية : « ... إن غارات العرب هذه التي يُجمع الناس على أنها لا بد أن تكون قد امتدت إلى أبعد مما ذكرنا^(١) . تمت جميعها دون خطة مقررة من قبل ، ومع هذا فلم تلق إلا مقاومة ضئيلة جداً ، مما يدلنا على الحالة السيئة التي كانت تسود فرنسا في ذلك الحين وعلى عدم وجود أية حكومة ترعى شئونها . ولكننا إذا قارناها بما حدث في إسبانيا قبل ذلك بسنوات ، لتبين لنا أنه لم يحدث في أى موضع أن وجد الفاتح إقبالاً من أهل البلاد ، إذا استثنينا بضعة أشخاص بلا دين أو وطن ، ولم يحدث أبداً في أى مكان أن انتفتت معهم جماعة لها قيمتها من السكان ، وحتى في المدن مثل أربونة وقرقشونة - حيث استقر العرب بصورة ثابتة - ظلت جماعة السكان على إخلاصها للنصرانية^(٢) .

وهذا أيضاً كلام لا قيمة له من الناحية التاريخية ، فأى سند استند إليه هذا الباحث الفرنسي ليقول ذلك ؟ وما معنى القول بأن أحداً من سكان البلاد لم ينضم إلى المسلمين ؟ ومن الثابت أن منطقة جبال البرت كلها ونواحي بسكايه وسبتانية كانت تسكنها جماعات بدائية لم تستقر بعد على دين ولم تفهم بعد معنى الوطن ، بل لم يكن الفرنجة أنفسهم ، أصحاب الأمر في غالة ، لياخذوا الدين مأخذ الجد أو يشعروا بشعور « وطني » نحو غالة .

(١) يقول رينو : يذهب بعضهم أن العرب أرسلوا سراي بلغت اللوار عند نيفير (Nevers) من ناحية ، وبلغت فرانش كوتيه (Franche Comte) من ناحية أخرى . فإذا صدق هذا ، فلا بد أن يكونوا خربوا دير القديس كولومبان (Saint Colomhan) في نيفير ، ويذهب بعضهم كذلك أنهم تفلوا معظم رجال الدين والرهبن في بيزانسون (Be-sançon) . وهذه المزامع ليست بعيدة عن التصديق ، خصوصاً فيما يتصل بفرانش كوتيه حيث لا زال كثير من المواضع يحمل اسم ساراازان (Sarrazin) . ويقال كذلك إن كنيسة لوكسيل (Luxeuil) هدمت وهي في سفح الفوج (Vosges) وذبج رجانها وعلى رأسهم القديس ملان (Mellin) .

cf : p. LECOINTE. Annales Ecclesiastici Francorum. IV pp. 728 Sqq. 795 Sqq .

MABILLON. Annales Benedictini. II. p. 88

MABILLON. Acta Sanctorum Benedicti II. Ière partie pp. 527 Sqq .

وتذهب هذه المراجع إلى أن العرب لم يجدوا مقاومة جديدة إلا عند بلدة صانص (Sens) إذ أن أسقفها (Ebbes) أو (Ebbon) تصدى لهم ، وجمع نفراً من أهل البلد وهجم بهم على المسلمين ، وألقى ناراً على آلات حصارهم ففترقوا . وكان هذا الرجل قبل ذلك فارساً وكونداً لبلدة تونير (Touner) ثم تهرب ورسمته الكنيسة قديساً فيها بعد . ولا تذكر هذه النصوص المسلمين ولا تشير إلى أنهم هم الذين قاموا بهذه الأعمال ، ولكنها تقول إن الوند (Vandes) والوندال (Vandali) والجندال (Gandali) هم الذين كانوا يجربون ، فجاء مؤرخو الكنيسة فقالوا إن المراد بهذه الألفاظ هم المسلمون ، وتابعهم رينو وغيرهم من المؤرخين المحدثين في ذلك ، وهو تصف لا معنى له وخاصة أن هذه التسميات أطلقت فيها بعد على المجرين الذين أغاروا على هذه النواحي وخربوها على أيام قازله وبيبين وشرلمان . وقد عاد رينو فنشكك في أن المسلمين هم الذين قاموا بذلك .

انظر كتابه الأنتف الذكر ، ص ٣١-٣٢ .

(٢) رينو : نفس المرجع ، ص ٣٢ .

وأنى يكون ذلك وغالة كلها كانت في دور التكوُّن ، لم تصبح بعد « وطناً » يتعصب له أحد ؟ وأيسر دليل على مغالطة رينو وأمثاله هو أن أولئك الذين يزعم أنهم لم ينضموا إلى المسلمين ولم يؤيدوهم هم الذين أنزلوا بمؤخرة جيش شرلمان الفرنجى المسيحى مذبحة رنشفالة ومأساة رولان بعد ذلك بأكثر من قرن .

* * *

وكان كبار رجال غالة في حالة لا تُمكنهم من النهوض لحرب المسلمين ، فأما أودو فقد ركن إلى السكون ولم يجرؤ على الخروج لملاقاتهم بعد الذى رأى من قوتهم ، ولم يجرؤ كذلك على طلب المعاونة من قارله لأن العلاقات بينهما لم تكن على ما يرام ، وأما قارله فكان مشغولاً بحرب الفريزيين سكان إقليم فريزيا الذى يعرف اليوم بالنورمندى والبافاريين والسكسون غربى نهر الرين ، وكانوا يهددون نوستراسيا - قلب بلاد غربى الرين - بخطر داهم إذا ما عبروا الرين ، ولهذا لم ينهض قارله لملاقاة المسلمين حينما غزوا بوجونيا ، وكانت إذ ذاك داخلة في طاعته .

لم تكن هذه الأحداث التى ذكرناها في ولاية عذرة بن عبد الله الفهرى أعمالاً عسكرية منظمة يمكن إدراجها في سلسلة الغزوات المنظمة التى قام بها ولاة الأندلس في غالة ، وإنما كانت نشاطاً عاماً قام به المسلمون الذين استقروا في سبتهانية وقاعدتها أربونة ، وبعض قواعد جنوبى غالة مثل طولوشة وطرسونة .

أما سلسلة الفتوح فتتصل من جديد عندما يتولى الأمر عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م .

١-٢- عبد الرحمن لا نزاع في أن عبد الرحمن الغافقى كان أقدر قائد عسكري عرفته الأندلس الغافقى في عصر الولاة . ومن المؤسف أن أخباره لدينا قليلة جداً لا تتناسب مع الدور الكبير الذى قام به في تاريخ الإسلام . ويبدو أن كارثة بلاط الشهداء التى ختمت حياة الغافقى كانت الأليمة الوقع عند مؤرخينا ، فأوجزوا الكلام عنها قدر الطاقة ، وأصاب الإيجاز سيرة عبد الرحمن ، فتمعدوا الاكتفاء بمجرد الإشارة إليه مع عظيم تقديرهم له .

كان عبد الرحمن جندياً أندلسياً ، قضى أحسن أيامه عاملاً في جيوش المسلمين المغازية فيما وراء البرتات . ويُتهم من إجماع عرب الأندلس على تقديره أنه كان سلبياً من نزع

العصية التي ابتلى بها غيره ، ومن دلائل ذلك أن عبيدة بن عبد الرحمن القيسي عامل إفريقية المتعصب لقيسيته أقامه على الأندلس وهو يمينى من غافق . وقد أورد ابن عبد الحكم رواية يُفهم منها أن الرجل كان مسلماً سليم الإيمان حريصاً على أصول الشريعة ، لا يخفل في سبيل ذلك بغضب من ييدهم الأمر . يقول ابن عبد الحكم بعد الكلام عن إحدى غزوات عبد الرحمن : « .. وكان فيما أصاب رجُل مفضضة بالدر والياقوت والزبرجد ، فأمر بها فكسرت ، ثم أخرج الخمس ، وقسم ذلك في المسلمين الذين كانوا معه ، فبلغ ذلك عبيدة (بن عبد الرحمن القيسي عامل إفريقية) فغضب غضباً شديداً ، وكتب إليه كتاباً يتوعده فيه ، فكتب إليه عبد الرحمن : « إن السموات والأرض لو كانتا رتقاً لجلع الرحمن للمتقين منها مخرجاً . ثم خرج إليهم أيضاً غازياً ، فاستشهد وعامة أصحابه »^(١).

وهذه هي الإشارة العربية الوحيدة التي تدل على ناحية من خلق عبد الرحمن . ويصفه إيزيدور الباجي بأنه كان رجلاً نشيطاً عنيفاً قاسياً ، لا يبالي أن يُنزل بالنصارى أقسى المظالم وأشد ألوان الاضطهاد والتخريب والقسوة^(٢) . ولا تضيف النصوص اللاتينية الأخرى إلى أوصافه هذه شيئاً ، وإن كانت جميعها تتحدث عن شجاعته النادرة ومقدرته الحربية العظيمة . ولو أمدتنا المراجع العربية بأخباره مفصلة لاستطعنا تعرّف مكان هذه الروايات النصرانية من الصحة ، ولكنها أقدم ما بين أيدينا وأكثره تفصيلاً ، ولا مندوحة لنا عن الاعتماد عليها إلى حد كبير .

وكان عبد الرحمن جندياً من طراز آخر غير طراز عبسة ، وإذا كنا قد قلنا إن هذا الأخير كان من طراز عبقة ، أى من الذين تستهويهم الغارات البعيدة المدى والضربات المدوية ، فلنقل عن عبد الرحمن الغافقى إنه كان من طراز حسان بن النعمان ، من طراز الفاتحين الذين يرسمون خطة الفتح الثابت المستقر ، فيعمدون إلى مراكز المقاومة الفعلية ويهاجمونها لكي يتم الفتح وتدخل البلاد في حوزة الإسلام .

١٠٢-خروج
عبد الرحمن للفرز ،
أوائل سنة ١١٤هـ /
ربيع سنة ٧٣٢م

عبر عبد الرحمن البرتات في أوائل سنة ١١٤هـ / ربيع سنة ٧٣٢م ، ولسنا نعلم على وجه التحقيق عدة الجيش الذى كان معه ، فأما المراجع النصرانية فتزعم أنه كان يقود أربعمئة ألف مقاتل في حين تكفى الرواية

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ١١٧ .

(٢) إيزيدور الباجي : فتوحات ٥٨-٥٩-٦٠ .

وانظر أيضاً ، ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، رقم ٥٨٤ .

الإسلامية بتحديد عدة الجيش بعدد يتراوح بين سبعين ألف ومائة ألف . وليس لدينا ما يوضح هذا الأمر ، لأننا لا نستطيع قبول أى الرقمين ، وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن عدة الجيش لم تكن لتزيد عن سبعين ألفاً على أى حال ، وأن جل هؤلاء كان من البربر ، لأن الكثيرين من عرب إفريقية والأندلس كانوا إذ ذاك في شغل بما انصرفوا إليه من المنازعات العصبية من ناحية ، ومن الاستقرار فى القرى والاشتغال بالزراعة من ناحية أخرى . ونستطيع أن نقول كذلك إن معظم هؤلاء كانوا يمينيين ، لأن عبد الرحمن الغافقى كان يمينياً ، ولأن غالبية سكان نواحي إقليم سرقسطة كانوا يمينيين ، ومنهم كانت غالبية العرب المحاربين فى ناحية البربات وما يليها .

وكانت مصلحة المسلمين تقتضى الاستمرار على صداقة أودو لكى يكون لهم عوناً على حرب الفرنجة والخلاص منهم ، ولم يكن ذلك بالعسير لو كان عبد الرحمن الغافقى سياسياً كما كان قائداً ممتازاً ، فقد وصل المسلمون إلى قرب السين ، وكان على خليفة عنسة أن يكمل عمله ، فيمضى بالمسلمين إلى قلب الدولة الفرنجية . ولكن حركة مونوسة^(١) أفسدت الأمر كله ، وقد رأينا أنه من العسير أن نتعرف أسباب الجفوة التى طرأت بينه وبين عبد الرحمن ، وإن كان من الممكن ردها إلى ما كان بين العرب عامة والبربر عامة إذ ذاك من التحاسد والتباغض ، وبما كان فى خلق عبد الرحمن نفسه من الصلابة والاستقامة ، مما لا يستبعد معه أن يكون قد كره هذه الصداقة المتصلة وذلك العهد المتين بين مونوسة وأودو .

وعلى أى الأحوال ، كانت ثورة مونوسة ونهوض عبد الرحمن للقضاء عليها من أسباب فشل عبد الرحمن فى حملته الكبرى على غالة ، فقد غضب الدوق لما أصاب صهره وتوقع الشر من ناحية العرب وبدأ يُظهر الجفوة نحوهم ، فلم تعد لهم مندوحة من حربه أولاً ، ولهذا اتجه عبد الرحمن بقواته إلى عواصم أقطانية ففتحها كما سنرى ، وفر من بقى من جند الدوقية إلى الشمال وأخذوا يستنجدون ملك الفرنجة ، وانضمت قواتهم إلى قواته فكثرت جمع النصارى أمام المسلمين . هذا إلى أن الحرب بين مونوسة وعبد الرحمن كانت حرباً بين البربر والعرب فى حقيقة الأمر ، وسنرى أن نفوس العرب والبربر لم تكن متفقة فى هذه الحملة كما كانت فيما سبقها ، وسيكون لهذا أثره البليغ فى هزيمة « بلاط الشهداء » التى سنفصل أمرها .

(١) راجع عنه :

جمع عبد الرحمن جنده في بنبلونة ، واحتفل في إعداد حملته هذه احتفالاً عظيماً ، لأنه كان يرجو أن يكون فتح غالة على يديه ، ثم اخترق بجنده جبال البرت في أوائل صيف سنة ٧٣٢م من ممرات رونسفالة التي ستشهد مأساة رولان بعد ذلك بسنوات ، أى أنه لم يسلك الطريق المألوف الذي سار فيه العرب إلى ذلك الحين : طريق ساحل البحر الأبيض الذي يفضى إلى سبتانية وحوض الرون ، بل طريقاً في وسط الجبال يفضى إلى قلب دوقية أقطانية مباشرة . فلما أفضى إلى غالة اتجه أول الأمر نحو وادي الردانه لكي يمهد أمره ويمعى ظهره قبل أن يتجه إلى دوقية أقطانية في الغرب .

١٠٤-فتح آزل ويقال إن سبب اتجاهه إلى وادي الردانة خروج مدينة آزل (Arelatum) عن الطاعة وتوقف أهلها عن دفع الجزية ، فهاجمها واستولى عليها بعد معركة عنيفة^(١) . فلما تم له ذلك وأمن ظهره توجه بجموعه نحو الغرب ليهاجم دوقية أقطانية (أكويتين) . وكانت هذه تتكون من عدد من الكونتيات أكبرها غسقونية وتمتد من جبال البرتات إلى حدود اللوار في الشمال ، ومن نهر الأليه في الشرق إلى خليج بسكاية في الغرب ، وكانت تعد أعظم إمارات غالة بعد المملكة الفرنجية التي كانت تصاحبها على حدودها الشمالية مباشرة .

١٠٥-الاستيلاء توجه عبد الرحمن بقواته نحو بردال (بوردو) ، فخف الدوق بقواته لكي على بزداى يوقف تقدمه ، ولقيه على ضفاف الدوردوني (Dordonia) على مقربة من (بوردو) ملتحقه بالجارون (Garona) فانهمز هزيمة قاصمة فقد فيها عدداً عظيماً من فرسانه وفر هارباً^(٢) ، وتقهر أمام المسلمين نحو الشمال تاركاً لهم عاصمته بردال ، فدخلوها ونهبوها نهباً ذريعاً^(٣) ، فلما فرغوا منها انساحوا في البساتن هناك يفتحون كل ما صادفهم ، فلما امتلأت أيديهم من الغنائم تقدموا نحو اللوار ، وكانت وجهتهم هذه المرة مدينة تور ثانية مدائن الدوقية على نهر اللوار وفيها كنيسة سان مارتان ، وكانت لها إذ ذاك

(١) عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، ص ٨٦ .

DOM VAISSETTE, Op. cit. I. p. 795 .

ISIDORO PACENSE. Chronicon. C. 95 .

(٢)

ويبدو أن عدد القتلى من جيش أودو كان عظيماً ، لأن إيزيدور يقول :

"Deus numerum morientium vel pereuntium recognoscat" .

DOM VAISSETTE, Op. cit. I. p. 795 .

(٣)

شهرة ذائعة في الآفاق ، فاقتموها البلد وخرّبوا كنيسةها^(١).

١٠٦- أودو يستنجد هنالك أسرع أودو إلى قارله (شارل مارتل) يستنجد به ، إذ وجد نفسه بشارل مارتل مضطراً إلى مصالحته ، وبهذا توحدت قوى النصرانية في غالة للوقوف في وجه المسلمين . ورحب قارله بالفرصة ، لأنه كان تواقاً إلى بسط نفوذه على أكويتين وأراضيها الواسعة ، ولأنه كان قد استشعر الخطر الإسلامي منذ حين ، فقد غزا المسلمون منذ عام فقط بورجونيا وهي داخلة في بلاده وصعدوا حتى قاربوا اللوار . وقد عرف قارله كيف يأخذ للأمر عدته ، فجعل يجمع الجند والفرسان من كل ناحية ، ولم يدخر جهداً في ذلك ، فقد كان الخطر في هذه المرة واضحاً جلياً ، ويبدو أنه لم يكن بمن كان عنده من الجند في غالة ، فبعث يستقدم جنداً من حدود الرين من نواحي أوستراسيا ، فأنته نجات من جنود أجلاف أقوياء يحاربون شبه عراة في مثل هذا الجو البارد ، ويصفهم إيزيدور بأن أيديهم كانت حديدية ترسل ضرباتها القاصمة في سرعة وقوة ، وبهذا اجتمع لقارله جيش قوى قدير على الثبات للعرب ومنازلتهم^(٢).

وينبغي أن نضيف هنا أن الفرنجة السالين أنفسهم - ومنهم كان معظم جند قارله - كانوا قوماً بدويين أشداء لا يقلون عن العرب صلابة ولا شجاعة ، فقد مهدوا بحراهم وصدورهم غالة كلها وغلّبوا البرغنديين والقوط الغربيين وبقايا الرومان في غالة وغلّبوا السكسون عدة مرات وما زالوا بهم حتى كسروا شرّتهم ، وانصاعت لهم جماعات كثيرة من

"Tunc Abderraman suprafatum Eudonem Ducem insequens, dum Turonensem ecclesiam, (١) palatia diruendo et ecclesias ustulando depraedari desiderat" ISIDORO PACENSE, Op. cit. c. 59 .

ولم يذكر إيزيدور اسم كنيسة القديس مارتن (سانتوس مارتنوس) التي ذكرناها في النص ، ولكن رودريغيث حينئذ ذكر أن العرب خربوا كنيسة البلد الرئيسية .

Turonis civitatem, ecclesiam et palatia vastatione et incendio simili diruit et consumpsit .

cf : RODERIGUEZ JIMENEZ, 12-13 .

لما صاحب ذيل تلويغ فرييداريوس فيقول :

...Ad domum beatissimi Martini evertendam destinant .

أي : أنه يقول إن العرب أرادوا فقط تحريب الكنيسة ولم يفعلوا

Scolastici Fregedarii Continuatio II .

Ubi dum penè per septem dies utriq̄ue de pagnae conflictu exruciant, sese postremo in (٢) aciem parant, atque dum acriter dimicant gentes septentrionales in ictu oculi ut paries immoviles permanentes, sicut et Zona rigoris glacialiter manent adtrietae. Arabes glodio enecant"

ISID. PAC. Op. cit. c. 59.

المثيرين كالسويف والآلان ، وكان مُلكتهم في ذلك الحين في صعود ، إذ كان قارله حاجب الملوك الميروفنجيين ، وكان أبوه يبين قد استولى على السلطان منهم ، وخلفه قارله واعياً لهذا المطلب البعيد وهو إزالة الميروفنجيين عن الملك والحلول محلهم . وكان سياسياً قادراً ومحارباً ماهراً ، استطاع أن يجمع الناس حوله بالقوة تارة وبالساسة تارة أخرى ، واجتمعت له قوات ظل يرقب بها الحوادث ، فلما بلغت أنباء الغزو العربي شعر ألا مندوحة له عن اتخاذ الأهبة ، ثم أقبل خصمه أودو يستغيث به فلئى النداء وأسرع للقاء المسلمين بنفس مشرّبة للظفر وجنود متطلعة للقتال^(١).

١٠٧- المعسكر وكان المعسكر العربي في مثل هذه الحال من التوفر وعلو الحالة المعنوية : لم الإسلامى قبيل يكن ينقص المقاتلين الإيبان ولم تكن الخبرة لتعوز القيادة ، ولكن أموراً المعركة أخرى كانت تغل من عزيمة الجيش وتقلل من أمهه في الظفر .

أول هذه الأمور أن العرب بعدوا مسافات شاسعة جداً عن مركز الدولة الإسلامية^(٢). ويكفى أن يتصور الإنسان المسافة بين دمشق وجبل طارق ، وبين جبل طارق ونهر اللوار ليعلم أن الجيوش الإسلامية المحاربة في نواحي غالة كانت تقوم في الواقع بمغامرة أقرب إلى قصص الأساطير منها إلى حوادث التاريخ ، لأنها كانت في وضع لا تستطيع معه أن تحصل على إمدادات من الجند أو العتاد من مركز الخلافة . ولم يكن في استطاعة هؤلاء المحاربين أن يحصلوا على إمداد من عامل الأندلس في قرطبة ، لأن عدداً عظيماً من عرب الأندلس لم يستقروا في العاصمة بل تفرقوا في نواحي شبه الجزيرة وشغلوا بها إلى حد كبير عن الحكومة المركزية .

وقد رأينا فيما مر من الحديث أن عرب الأندلس هؤلاء كانوا في واقع الأمر جماعات متفرقة في النواحي لا يستطيع العامل استخدام أجناد منهم على عجل ، وكانت العصبية قد توزعتهم وفتّرت بينهم فلم يعد من الميسور لعامل الأندلس أن يجمع قوات محترمة إلا من بنى عصبته . وربما لم يكن هذه النقطة الأخيرة أثر كبير في تكوين جيش عبد الرحمن ، لأنه كان في الواقع بعيداً عن نزعة العصبية ، فاجتمعت إليه أعداد كبيرة من عرب الأندلس جميعاً ، إلا أن أثرها ظهر بعد مقتله ، فقد تفرق العرب واختلفوا فيما بينهم اختلافاً شديداً

GIBBON, Decline and Fall . II. p. 803.

(١)

(٢) أشار جيبون إلى هذا البعد التاسع إشارة لطيفة جداً .

انظر : اصطحلال الدولة الرومانية وسقوطها ، ج ٢ ، ص ٨٠٢ .

أدى إلى انسحابهم جملة ، ولو كانوا يداً واحدة لارتدوا بعد الهزيمة إلى أقرب مركز لهم ليستجمعوا قواتهم من جديد كما فعلوا بعد الهزائم المتكررة التي جرت عليهم في إفريقية .

ولنصف إلى هذا ما كان بين العرب والبربر إذ ذاك من أسباب الخصومة ، وهي ظاهرة تاريخية ينبغي ألا يهمل حسابها في كل ما يتصل بتاريخ المغرب والأندلس حتى نهاية القرن الهجرى الثانى ، وقد رأينا مثلاً ثورة مونوسة وما جرّته من وخيم العواقب ، وسرى أثرها واضحاً كذلك فيما أعقب موقعة البلاط . وكانت غالبية الجيش الإسلامى المقاتل في غالة من البربر ، وليست لدينا أية تفاصيل عن أعدادهم أو طوائفهم ، مما يحول بيننا وبين استجلاء حقيقة الموقف في المعسكر الإسلامى قبل المعركة الحاسمة .

ومسألة أخرى كانت تضعف الجيش الإسلامى وتقلل من أمه في الظفر ، هي الغنائم التي جمعها الغزاة المسلمون من النواحي التي مروا بها قبل لقاء الفرنجة في الموقعة الفاصلة . وتتفق المراجع جميعاً على أن الجيش الإسلامى كان يجر وراءه قطاراً عظيماً محملاً بالغنائم والأسلاب من كل صنف ، وربما بالغت المراجع النصرانية في وصف أعمال السلب والنهب التي قام بها المسلمون في نواحي غالة ، ولكن أكثر الأحكام اعتدالاً في هذه الناحية يقرر أن المسلمين اجتمع لهم شيء عظيم جداً من أسلاب المدن وتحف الكنائس والقصور والحصون . ويبدو أن استمساك الجند بهذه المغنم كان عظيماً ، لأنهم حملوها معهم حتى نهر اللوار ، ولو أحسنوا لبعثوا نقرأ منهم ليودعها أربونة أو برشلونة حتى يطمئنوا عليها وتحلو أيديهم للعمل المقبل ، ولكنهم كانوا أحرص عليها من أن يفارقوها ، بل سئروا أنهم كانوا أحرص عليها منهم على النصر والظفر ، فكان هذا الحرص في ذاته من أشد أسباب هزيمتهم ، لأن عدوهم استشعر هذا الحرص منهم وعرف كيف يستغله لصالحه .

١٠٨-مكان : ولسنا نعلم مكان الموقعة الفاصلة بين المسلمين والفرنجة على وجه التحقيق : المعركة أغفلته الرواية الإسلامية فيما أغفلت ، وتركته الرواية النصرانية مبهمها فذكرت أنها كانت إلى شمال بواتييه Pictavens في اتجاه تور ، أى على الطريق الرومانى القديم بين البلدين ، ونقول على « الطريق الرومانى » لأن اسم المكان كما تحدده الرواية العربية باسم « بلاط » الشهداء يُفهم منه أنها وقعت على مقربة من قصر كبير « بلاط »^(١) وربما كان أقرب الآراء إلى الصحة في هذا الموضوع ما ذكره بروفنسال من أن الموقعة كانت « على مقربة من

طريق روماني يصل شاتلرو (Chatellerault) ببواتيه ، على مسافة نحو عشرين كيلو متراً من المدينة الأخيرة ، وربما كانت عند الموضع الذي يسمى اليوم (Moussais-la-Ba-taille)^(١).



١٠٩-معركة بلاط الشهداء الفاصلة ، ولا يعلل هذا الإغفال الغريب بمجرد رغبة الرواة المسلمين في إخفاء معالم هذا الحادث المحزن ، لأن هؤلاء المؤرخين قدموا لنا تفاصيل طيبة عن هزائم أخرى نزلت بالإسلام على يد النصرانية ، كهزيمة الخندق ومأساة العقاب ، وكانت هذه الأخيرة أخطر من « بلاط الشهداء » وكانت مصيبة الإسلام فيها أعظم ، فكان إخفاء معالمها أَوْلَى ، فكيف اتفق أن كل ما تقدمه الرواية العربية عن هذه الواقعة لا يزيد في مجموعه على عشرين سطراً موزعة في نحو سبعة مراجع أو ثمانية ؟ بل كيف نجد نصوص هذه الروايات من الاضطراب بحيث يذهب ابن عذارى على دقة روايته إلى أن الواقعة حدثت سنة ١١٥ هـ لا سنة ١١٤؟^(٢) بل كيف يذهب ابن خلدون إلى أن قائد المسلمين الذي استشهد في هذه الواقعة لم يكن عبد الرحمن العافقي وإنما محمد بن عبيد الله بن الحبحاب ، وهي شخصية لم نسمع بها إلى الآن في حوادث الأندلس؟^(٣) وكيف يذكر المقرئ في إحدى رواياته أن الواقعة حدثت أيام السماح بن مالك؟^(٤) كيف يقع هذا التناقض كله وذلك الإهمال كله في وقعة مشهورة فريدة في بابها كوقعة البلاط مع أن نفس هذه المراجع أوردت لنا تفاصيل هزائم إسلامية أخرى حدثت في نفس الفترة على درجة كبيرة من الدقة والعناية ، كما رأينا في هزيمة « تهودة » و« الأشراف » اللتين مررنا بهما ؟ ثم كيف نجد الرواية النصرانية لا تخطيء مرة واحدة في ذكر اسم القائد الإسلامي الذي خلط رواتنا الثقات فيه هذا الخلط ؟

(١) ظن الكثيرون أن المراد بلفظ « بلاط » طريق مبلط ، وترجمها النصارى إلى pavé ، ولكن المراد بلفظ بلاط في الأندلس قصر أو حصن حوله حدائق تابعة له ، فيقولون « بلاط معيث » و « بلاط الحر » و « بلاط يوسف » ويقصدون بذلك قصور أولئك الرجال ، واللفظ مشتق من Palatum اللاتينية . وعلى هذا فبلاط الشهداء معناها في الواقع « قصر الشهداء » ، مما يفهم منه أن مكان الواقعة كان إلى جوار قصر أو حصن كبير ربما كانت له علاقة كبيرة بحوادث المعركة .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

(٣) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٤ ، ص ١١٩ .

(٤) ابن حيان في المقرئ : نفع ، ج ٢ ، ص ٥٦ .

الواقع أن المسألة لا تعلق إلا بشيء واحد : هو أن هزيمة المسلمين كانت من الشدة بحيث كان أوائل الرواة ينفرون حتى من مجرد ذكرها من فرط الألم والتشاؤم ، فاندرجت أخبارها في مدارج النسيان وتعاقبت عليها الأعصر فلم يبق في ذاكرة الرواة منها إلا أن أهل الإسلام قد هُزموا في هذه الناحية هزيمة مروعة بين سنتي ١١٤ و ١١٥ هجرية .

والدلائل كلها تنطق بأن الهزيمة كانت مروعة حقاً : أولها تسمية الموقعة ببلاط «الشهداء» وهي تسمية يُفهم منها أن عدد من استشهد فيها من المسلمين كان عظيماً جداً . وثانيها أن المسلمين لم يحاولوا الاقتراب من اللوار بعد ذلك أبداً ، ولو كانت هزيمتهم هناك يسيرة لعادوا إلى المحاولة ، ولو بقيت منهم بقية صالحة ما ترددت في العودة . وثالثها هذا الصمت الغريب الذي تسدله الرواية الإسلامية على الموقعة . ورابعها هذا الإجماع على فداحة خسارة المسلمين الذي نجده عند المؤرخين النصارى في هذا الموقف ، فضلاً عن مؤرخنا الأول ابن حيان الذي لا تدع روايته مجالاً إلى الشك في مصاب المسلمين في هذه الموقعة^(١).

ولا مندوحة لنا عن الاعتماد على المراجع النصرانية في وصف هذه المعركة الخطيرة، وينبغي أن ننبه إلى أن أقدم هذه المراجع - وهما المدونتان المنسوبة أولاهما إلى إيزيدور الباجي وثانيتهما المنسوبة إلى بلدة مواسياك (Moissiac) - قد كتبت أولاهما بعد الحوادث بنيف وعشرين عاماً وثانيتهما بعده بنحو قرن ، ولم يزد ما كتبتاه معاً عن الموقعة على بضعة أسطر ، أما التفاصيل الكثيرة فترجع إلى مدونات متأخرة جداً تشوبها روح القصص والأساطير .

ونكتفي في وصف تطورات هذه الموقعة بما أورده عنها إيزيدور الباجي وصاحب مدونة مواسياك وبولوس دياكونوس وصاحب ذيل فريجيداريوس الأول والثاني^(٢).

(١) ... وذكر أنه - أي عبد الرحمن الغافقي (ويذكر ابن حيان السمح بن مالك خطأ) - قتل في الواقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البلاط ، وكانت جنود الفرنجة قد تكاثرت عليه ، فأحاطت بالمسلمين ، فلم ينج من المسلمين أحد . قال ابن حيان : فيقال إن الأذان يسمع بذلك الموضع إلى الآن .
ابن حيان برواية المقرئ في نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

ISIDORO PACENSE : Chronicon. cc. 58-59.60.

Chronicon Moissiacense p. 166.

PAULUS DIACONUS , Ex Lib . VI .

Scolastici Fregedarii. Continuato. II,III. apud Ajbar Machmua p. 168 .

CODERA, Op. Cit. PP. 118 Sq .

REINAUD : Op. cit. p. 34 Sq .

١١٠- المعركة وقع اللقاء بين قارله وعبد الرحمن في الثاني عشر أو الثالث عشر من أكتوبر سنة ٧٣٢م / أواخر شعبان سنة ١١٤هـ. وتدل التفاصيل التي لدينا على أن كلاً من الفريقين كان يحس خطورة هذا الصراع الحاسم ، فلم يشتبك الجيشان في المعركة الحامية إلا بعد بضعة أيام ظلاً خلالها يتناوشان في اشتباكات محلية ، ثم اشتبكا بعد ذلك في قتال عنيف ، واجتهد الفرنجة ومن معهم من الألمان والسويف والسكسون في اختراق خطوط العرب يومين متتاليين دون نتيجة ، وقد بذلوا أقصى ما استطاعوا من جهد وهجم مشاتهم وفرسانهم على المسلمين هجوماً عنيفاً بالحرايب ، ولكن هؤلاء ثبتوا ثابتاً فريداً ، بل بدا في بعض الأحيان - قرب مساء اليوم الثاني على الخصوص - أن المسلمين أخذوا يتفوقون على أعدائهم .

ثم حدث بعد ذلك أن اندفعت فرقة من فرسان الفرنجة فاخترقت صفوف المسلمين في موضع ، وأفضت إلى خلف الصفوف حيث كان المسلمون قد أودعوا غنائمهم ، وكانت شيئاً عظيماً جداً ، ففرع الجند الإسلامي المحارب وخشى الكثيرون من أفرادها أن يستولى عليها هؤلاء الفرنجة ، فالتفت بعضهم وعادوا إلى الخلف ليبعدوا الأعداء عنها . وهنا اضطربت صفوف المسلمين واتسعت الثغرة التي نفذ منها الفرنجة ، فاندفعوا فيها في عنف وقوة زلزلت نظام القوات الإسلامية ، وحاول عبد الرحمن جهده أن يثبت جنده ويعيد نظامه أو يصرفه عن الهلع على الغنائم فلم يوفق ، بل أصابه سهم أودى بحياته ، وكان ذلك نذير الشؤم على جيوش المسلمين ، إذ انهال عليهم الفرنجة من كل جانب وحصدوهم حصداً . وصبر المسلمون حتى أقبل الليل ، فانتهزوا فرصة الظلام وتسللوا متراجعين إلى الجنوب على عجل ، وكان ذلك في العشرين من أكتوبر سنة ٧٣٢م (أوائل رمضان سنة ١١٤هـ).

وحينما أسفر الصباح نهض الفرنجة لمواصلة القتال ، فلم يجردوا من المسلمين أحداً ، وتقدموا على حذر من مضارب المسلمين ، فإذا هي خالية منهم وقد فاضت بالغنائم والأسلاب والخيرات ، فظنوا أن الأمر خدعة ، وترثوا قبل أن يجتاحوا المعسكر وينتهبوا ما فيه ، ولم يفكر أحد منهم في تتبع المسلمين ، إما لأنهم خافوا أن يكون العرب قد نصبوا لهم بهذا الانسحاب شُرْكَاً ، أو لأن قارله تبين ما نزل بالمسلمين ورأى أنه يستطيع العودة إلى الشمال مطمئناً إلى أنهم انصرفوا عنه وعن بلاده .

١١١- بعد المعركة وسندع التعليق على هذه الموقعة وأهميتها إلى أن نفرغ من تتبع الجيش الإسلامي في أعقابها ، وليس لدينا مرجع عربي واحد نستطيع الاعتماد عليه في هذا الصدد. ولا مفر لنا - هنا أيضاً - من الاعتماد على الروايات النصرانية وحدها. اندفع المسلمون في قهقرهم نحو الجنوب مسرعين ، واتجهت جموعهم نحو أربونة فمروا على مقربة من جيرييه (Guéret) وغزوا في طريقهم بلدة ليموزين وخرّبوا كنيسة سولنيك (Solignac) ، وحينما أحسوا أن أحداً من النصارى لا يتبعهم تمهلوا في سيرهم ليستجمعوا صفوفهم من جديد . ويبدو أن فرقة منهم شردت عن الجيش ف وقعت في أيدي النصارى ، ولدينا تفاصيل كثيرة من هذا النوع ، ولكنها جميعها غير ثابتة ولا محققة ، ولا نستطيع لهذا أن نتحدث عنها بأكثر من هذه الإشارة^(١).

وتزعم الروايات النصرانية أن خبر الهزيمة الإسلامية تردد في نواحي غالة الجنوية وإسبانيا الشمالية فتوالت أهلها بالمسلمين من كل ناحية ، وتحفظوا فلول قواتهم المتراجعة . وليس لدينا على ذلك دليل ، وإن كان المعقول أن يطمع أهل هذه النواحي في المسلمين ، لأنهم مسلمون بل لأن قواتهم في غالة قد تفرقت بعد هذه المعركة ، فأسرع هؤلاء فيفدون من هذه الفرصة ، كما سيفعلون حينما يتقوضون على مؤخرة جيش شرلمان النصراني بعد ذلك بسنوات^(٢).

وكانت هزيمة « البلاط » سبباً في تعجيل عبيدة بن عبد الرحمن بتولية عبد الملك بن قطن الفهري ، ولسنا نعلم على وجه التحقيق إن كان عبد الملك قد قدم الأندلس من إفريقية أو كان من عربها المقيمين فيها ، ويغلب على الظن أنه كان من جند العرب في الأندلس ، واختاره عبيدة للولاية من بينهم ، لأننا نجده من أول الأمر في عصبة من الرجال يؤازرونه ويتعصبون له . وهو أمر لم يكن ليحدث لو أنه أتى من إفريقية ، خصوصاً وأن المراجع لا تذكر أن جماعة من العرب انتقلت إلى الأندلس في ذلك الحين.

١١٢- عبد الملك
ابن قطن الفهري
يسير إلى غالة
وكان أول ما اهتم به عبد الملك هو المسير إلى غالة لإقرار أمر المسلمين فيها بعد موقعة البلاط وما تلاها ، وقد توجه بنشاطه أول الأمر إلى نواحي شمالي

Gallia Christiana, II, p. 566 .

REINAUD, Op. cit. p. 49 .

GREGOIRE DE TOURS dans RUIINART, De Gloria Confessorum, p. 934 et 1402 . (٢)

REINAUD, Op. cit. p. 50 .

الأندلس ، فهاجم نواحي أرغون ونبره ، ثم عبر البرتات وأفضى إلى لانجدوك واهتم بتحسين المعاقل التي كانت ما تزال في أيدي المسلمين . وكانت نواحي سبتانية إذ ذاك في فوضى شاملة بسبب الحروب المتوالية وبسبب الاضطراب الذى نجم عن هزيمة البلاط وتقهقر جيوش المسلمين ، وكان الظاهرون من أهلها قد انتهزوا فرصة تلاشى أمر الدوق أودو لكي يتوزعوا النواحي فيما بينهم ويعلنوا أنفسهم أكناداً أو أدواقاً بها ، واحتربوا فيما بينهم . وكانوا جميعاً يكرهون أودو وقارله معاً ، وخشوا أن تؤدي هزيمة المسلمين إلى وقوعهم تحت سلطان أحدهما ، فجعلوا يستعينون بالعرب المتحصنين في أربونة ، وتذكر المراجع منهم دوقاً يسمى ماورنت (Maurontes) اتخذ لقب دوق مرسيلية وحالف جند المسلمين وطمع في السيادة على بروفانس كلها^(١) .

وكان قارله مشغولاً إذ ذاك بتقرير سلطانه في ولايتي بوجونيا وليون اللتين تم له فتحهما، وكان المسلمون قد فتحوها ثم تخلوا عنها بعد الهزيمة وخلقوها في فوضى شاملة ، فأقام قارله فيها نفراً من المخلصين له يسمون *Laudes* (أى الخلصاء) وفرض طاعته على أشرفها . ثم اشتغل بعد ذلك بأمر أهل فريزيا (Frisii) ومضى لإخضاعهم وأنفق في ذلك وقتاً ليس بالقصير . وأحب أن يضمن ولاء جنده فأطلق أيديهم في ذخائر الكنائس وأملأكمها ، فأغضب بذلك القساوسة وعامة الناس . وكان جنده الفرنجة يعتبرون أنفسهم سادة البلاد المفتوحة ، وكان قارله يميز جنده على أهل غالة الأصليين ويحرم عليهم الزواج منهم ويلزمهم بالعيش بعيداً عنهم ، فأبغضه أهل جنوبى غالة ، وفتروا حماسهم نحوه ، وهكذا خسر ولاءهم^(٢) ، وأعان ذلك العرب على الثبات في هذه النواحي ، بعد أن كان أمرهم قد تخرج وتواتر عليهم ثواب الناس ، حتى غدوا كالمحصورين في أربونة وغيرها مما كان بيدهم من المعاقل .

١١٣-المسلمون وكان قائد جند المسلمين في أربونة وغالة رجلاً تسميه المراجع النصرانية يستعيدون آرل بيوسف (Jusuf) ، والغالب أنه يوسف الفهرى الذى ستصير إليه ولاية الأندلس فيما بعد ، فاتخذ مع ماورنت دوق مرسيلية (Massilia) ، وسار فعب الردانة واستولى على آرل (Arelatum) وخربها وأطلق يد جنده فيما حوفا حتى صارت قفراً

REINAUD, Op. cit. p. 52 .

(١)

Gallia Christiana, I. p. 537. 544.600.620 .

(٢)

REINAUD, Op. cit pp. 53-54 .

خراباً بعد ذلك أربع سنين ، وتوغل بعد ذلك في بروفانس واستولى بعد حصار طويل على بلدة فرتا (Fretta) التي تسمى اليوم (Saint-Remi).

١١٤- الاستيلاء ثم توجه نحو أبنيون (Avenionum) واقتحمها على أهلها بعد أن دافعوا على أبنيون عنها دفاعاً عنيفاً ، وأفضت جيوش المسلمين إلى نهر الديورانس (Du-rance) ووقفوا عند ذلك الحد بعد أن استعادوا بقيادة يوسف هذا جزءاً عظيماً مما كانوا قد فقدوه بعد وقعة البلاط ، وقد ثبتت قدم المسلمين في هذا الجزء أربع سنين لم يجرؤ خلالها أحد على منازعتهم السلطان فيه^(١).

وقد لبث قارله ساكناً أثناء ذلك كله ، ولم يفكر في المسير للقاء المسلمين مع نهمه إلى الأرض وطمعه في توسيع سلطانه بأي سبيل ، وبدلاً من ذلك أسرع إلى أقطانية حينما بلغه موت أودو سنة ٧٣٥م ، وأرغم ابنه على حلف يمين الولاء له . ولا يعقل انصرافه عن العرب وتجنبه لقاءهم إلا بأنه قد ذاق مرارة الحرب معهم وعرف جلدتهم وقدرتهم فصار يتجنبهم ، وقد رأيناه يتخوف تبعهم بعد مقعة البلاط مما يدل على أن تجرمة « البلاط » لم تكن عسيرة على العرب وحدهم ، بل على قارله أيضاً . وكان هو أعرف الناس بأنه لولا تفتنه إلى حيلة مهاجمة معسكر الغنائم لما استطاع كسب معركة البلاط ، وقد كان يقود المسلمين فيها بطل من أبطالهم هو عبد الرحمن الغافقي، وهو جيش وحده .

١١٥- إخضاع وكان عبد الملك بن قطن قد اطمأن إلى جهده قائده في أربونة ، فلم يتجشم إهانات البرت عناء المسير نحو الردانة ، فوجه همه نحو إمارات جبال البرت^(٢) ليكسر شرة أهلها ، وكانوا كما رأينا قوماً جبليين شديدي المراس قد ضروا على حروب الجبال

Chronicon Moissiacense, p. 166 .

(١)

Recueil des Historiens de France, II, p.655

Fregedarii Scolastici Continuatio, dans Recueil des Historiens de France, op. cit. II p.456.

ويسمى العرب في ذلك النص الإسابعيليين :

“ Denuo rebellante gente validissima Ismahelitarum, irrumpenteque Rhodanum Fluvium ... ”

PAPON : Hist. de provence, I, p. 85 .

M. DE LAGOY : Description de quelques médailles inédites de Massilia (Aix, 1834) p. 23.

REINAUD, Op.cit. pp. 54 - 55 .

(٢) لم تكن جبال البرت إذ ذلك فاصلاً بين غالة وإيبيريا كما هي اليوم فاصل بين فرنسا وإسبانيا ، وإنما قامت فيها إمارات تمتد على جانبي الجبال في غالة وإيبيريا ، وهذه الإمارات هي النويات التي نشأت حولها فيما بعد ممالك نبرة وأرجون.

والعصابات ولم يكن قد أخضعهم إلى ذلك الحين أحد ، وقد لقي عبد الملك في الحروب معهم بلاء شديداً وهزموه في معركة كبيرة لا تذكر المراجع زمانها أو مكانها ، وكان بطبعه رجلاً سىء السياسة عنيفاً ظلوماً ، فلم تلبث الشكوى منه أن وصلت الى إفريقية واتصلت إلى دمشق ، وانضافت إلى ذلك هزيمته فعمجت بعزله . وكانت ولاية إفريقية قد صارت إلى عبيد الله بن الحبحاب ، فعجل بعزل عبد الملك وبعث على الأندلس مولاة عقبة بن الحجاج السلولي ، وكان أفضل من عبد الملك من كل وجه^(١).

كان عقبة بطبعه رجلاً مجاهداً ، مثله في ذلك مثل عبد الرحمن الغافقي ، وكان قد اختار ولاية الأندلس لأنها « موضع جهاد » كما قال^(٢) ، وكان مسلماً صلماً عادلاً متفانياً في القيام بأعباء منصبه الجديد ، وكان عبد الملك قد أفسد الأمور ونفّر أهل الأندلس ، عرباً وغير عرب ، مسلمين وغير مسلمين ، فصرف عقبة همه إلى إقرار الأمور وإشاعة العدل في الناس ، ثم تجرد للغزو في شمالي الجزيرة ، وصرف همه أول الأمر نحو الثائرين في أشتريس ، فلما أوفى على غايته في هذه الناحية انحدر إلى الشرق ، فنزل سرقسطة وتوجه منها نحو البرتات وغالة .

١١٦ - عقبة
ابن الحجاج
السلولي يحدد نشاط
الفتوح في غالة

وكان المسلمون بعد أن ثبتوا أقدامهم في بروفانس قد تحصنوا في المدائن الكبرى وحوّلوها إلى رباطات ثم جعلوا يرقبون الحوادث . فلما أقبل إليهم عقبة بحماسة ورغبته في الجهاد نهضوا معه نحو ناحية الدوفينييه (Dauphiné) واستولى عقبة على سان - بول - تروا - (Saint-Paul - Trois-Chateaux) ودونزير (Donzaire) وخربوها . ثم اتجه نحو الشمال في جراءة وحزم فاستولى على فالانس وخرّب جميع الكنائس المحيطة بفين (Vienne) ، وكان من معه من الجنود ينتظرون هذه الفرصة بفارغ الصبر ليدرکوا ثأر معركة « البلاط » ، فمضوا معه يشدون لا يكادون يقابلون شيئاً عامراً إلا خربوه .

REINAUD : Op. cit. p.55 .

(١)

ويذكر رينو في نفس الموضع أن الخليفة أبى لعبد الملك ولاية الثغور الشمالية في الأندلس ومنطقة البرتات ، ولا تعرف المصدر الذي استقى منه هذا الكلام ، وكل ما نعرفه هو أن عبد الملك بقى في الأندلس بعد عزله وأنه كان يتمتع بمركز ممتاز بين اليمانيين في الأندلس ، وقد ظل يدبر على عقبة حتى وثب به في أخريات أيام ولايته واسترد ولاية الأندلس من جديد كما تعلم .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٢٧-٢٨ .

١١٧-إعادة وصعد بهم عقبة مع ردانه حتى أعاد فتح إقليم بورجونيا كله ، واستولى على فتح بورجونيا ليون من جديد ، وامتد جناح المسلمين الشرقي في إقليم دوفينه حتى وصل إلى بيدمنت في شمالي إيطاليا ، وبدا أن المسلمين مستعدون مراكزهم كلها في غالة عن قريب^(١).

هنا تحرك قارله للعمل من جديد ، وكانت حروبه مع أعدائه في شمال أوستراسيا وشرقها قد انتهت إلى هدنة مؤقتة سنة ٧٣٧م واستطاع التفرغ للسير نحو الجنوب ، فعجل بإرسال أخيه شلدبراند (Childebrand) - ساعده الأيمن في كل حروبه - في جيش كثيف نحو أبنيون ، وكتب إلى لويتبراند (Luitbrand) ملك اللومبارد في شمال إيطاليا يسأله المسير لمهاجمة جناح المسلمين الشرقي المتحصن في جبل بيدمنت . وانحدر شلدبراند مع الرون حتى وصل أبنيون وبدأ حصارها ، وكان المسلمون قد أحكموا تحصينها فعجز الجيش الفرنجي عن اقتحامها ، واضطر قارله إلى المسير بنفسه في جيش جديد ، وشدد الأخوان الحصار واستعانا بآلاته ، وتقدم لويتبراند في نفس الوقت وهاجم المسلمين عند بيدمنت ، وأمام هذا الضغط الشديد لم يستطع المسلمون الاستمرار في الدفاع عن أبنيون ، ولكنهم لم يسلموا البلد واستأثروا في الدفاع عنها حتى اقتحمها الفرنجة عليهم . ويصف صاحب ذيل مدونة فريجداريوس استيلاء قارله على البلد بقوله :

«... وأحاط كارولوس (قارله) بالبلد وحاصر أسوارها حصاراً حديدياً (in modum Hierico) بجيش ضخم وأبواق ذات أصوات عالية وآلات حرب وأدوات مفزعة مركبة على الأسوار ، وحفرت حول الأسوار خنادق ، وتواترت على البلد جيوش جرارة فلم يلبث البلد أن سلم»^(٢).

Gallia Christiana : I, 703-737

(١)

REINAUD : Op. cit . p . 57 .

PAULUS DIACONUS, Lib. VI apud Achbar Machmua., p.167

(٢)

ونصه :

"... Cum machines et restium funibus super muros et aedium moenia irrunt, urbem succedunt,hostes capitium interficientes trucidant ..."

وخلف لويتبراند لوحة عند بافيا أشار في بضعة أبيات نقشها عليها إلى ما صنعه مع العرب في شمال إيطاليا بقوله :

Deinceps tremuere feroces

Usque Saraceni, quos dispulit impiger, ipso,

Cum dremarent Gallos, Carolo poscente iuvari

=

ثم تقدم الجيش الفرنجى نحو أربونة معقل العرب الرئيسى في غالة ، وتذكر المراجع النصرانية أن قائده كان يسمى أئيمة (Athima) وربما كانت صحته هـرثمة . وتذكر المدونات اللاتينية أن أمم البرت وثبت بالمسلمين من جديد وقطعت مواصلاتهم مع الأندلس ، فلم يبق للقوات الإسلامية في غالة إلا أن تتصل بمراكزها الرئيسية في إسبانيا عن طريق البحر ، فعجل عقبه بن الحجاج بإرسال مدد عن طريق البحر يقوده قائد عربى يسميه إيزيدور الباجى (Amor) وصحته عمرو أو عمر على الغالب ، فنزل المدد على شاطئ غالة في موقع قريب من أربونة ، فأسرع قارله للقاءه ، والتقى به يوم أحد على شاطئ نهر البر (Berre-Birra) على بضعة فراسخ من أربونة ، ويذكر صاحب مؤرخة مواسياك أن القائد العربى كان قد تحصن على ربوة عالية واعتمد على كثرة جنده ولم يتخذ الحيلة ، ففاجأه قارله على غرة وأنزل به هزيمة قبيحة استشهد فيها عمر نفسه ، ولم ينج ممن معه إلا عدد قليل استطاع بعضهم الوصول إلى أربونة ودخولها ، وحاول الباقون الهرب في المراكب فتعقبهم الفرنجة في مراكب صغيرة وأصابوا كثيرين منهم^(١).

١١٨ = قارله وعاد قارله يشدد الحصار على أربونة ، واستبسلت حاميتها الإسلامية فلم يفشل في الاستيلاء يدرك الفرنجة منها على طول الحصار متالاً ، فاضطر إلى رفع الحصار على أربونة والتقهقر إلى الشمال . ويبدو أن أهل غالة الجنوبية وقفوا منه موقف العدو ولم يعينوه على ما طلب من إخراج المسلمين ، مما يدلنا على أن ما تذكره الروايات النصرانية عن مساءاتهم في النواحي التى دخلوها إن هى إلا مبالغات قساوسة ومزاعم رهبان نصارى . فأراد قارله الانتقام من أهل غالة ليعزى نفسه عن فشله أمام حصون أربونة ، فعسفهم عسفاً شديداً ، وخرّب حصون بيزيه وأجدة ونيمة . وقد لقيت هذه البلدة النصرانية الأخيرة من الولايات على يد قارله شيئاً كثيراً ، فهدمت أسوارها وأطلقت فيها النيران ، وفعل قارله مثل ذلك بمجلونة (Magallona) وكانت إذ ذاك من المدن الزاهرة في

= Cf : SIGONIUS .De Regno Italiae, anno 743

وأما تفصيل حصار قارله لأبنون المذكور فقد ورد في :

Fregedarii Continuatio III, apud Achbar Machmua pp. 168-169.

Recueil des Historiens des Gaules. II. p. 486 .

وانظر أيضاً

REINAUD, Op. cit. pp. 57-59.

Continuatio Scolastici Fregedarii III, Loc . cit .

(١)

Chronicon Moissiacense apud Achbar Machmua pp. 165-166.

هذه الناحية . وعاد إلى الشمال ومعه كثير من أسرى المسلمين وعدد من كبار الغاليين ، أخذهم معه كرهائن ليضمن بهم إرغام أهل نواحيهم على التخلي عن عون العرب ، مما يدلنا على أن أهل غالة الجنوبية كانوا يفضلون المسلمين على الفرنجة ، وذلك طبيعي ، لأن الفرنجة كانوا إذ ذاك أجلاً قساة بعيدين عن كل تمدن ، لا مقارنة بينهم وبين المسلمين أصلاً في مسائل الحكم والتنظيم .

ويؤيد المؤرخ رينو ذلك بقوله : « ومن المؤكد أن سلطان قارله كان مبغضاً إلى أهل غالة الجنوبية ، لأنهم كانوا يفخرون بأنهم احتفظوا بجزء من النظم الرومانية وحضارتها ، فكانوا ينظرون إلى أهل الشمال نظرتهم إلى متبربرين همج لم تزايلهم طوابع الجلافة الجرمانية . ولم يستطع رجال الدين على الخصوص أن يغفروا لقارله استبداده بممتلكات الكنائس . وكان العرب في تقدمهم قد استولوا على معظم الكنائس والأديرة ووضعوا أيديهم على ممتلكات هذه المؤسسات ، فلما أقبل قارله وأخرج العرب لم يُعد إلى رجال الدين ممتلكاتهم ، وإنما فُرق الأراضي والمنازل على جنوده ، فأثار ذلك استنكار الأتقياء وظل معظم الأسقفيات والأديرة خراباً لقلّة تعهدتها بالعناية . ويذكر التاريخ فيليكاريوس (Vilicarius) أسقف فيين الذي حاول ، بعد خروج العرب من المدينة ، أن يسترجع ممتلكات أسقفيته ، فلما وجد أنها تفرقت في أيدي غير رجال الدين غادر بلده ومضى إلى دير القديس ماوريكيوس (سان موريتز الآن) ، ولم تصلح هذه الأخطاء إلا خلال الأعوام التالية شيئاً فشيئاً ، في حكم يبين وشارلمان»^(١).

١١٩ - العرب وعبارة رينو تفسر لنا سر كراهية أهل غالة الجنوبية للفرنجة ، ولكنها وأهل غالة لا تفسر لنا سر ميلهم إلى المسلمين ومؤازرتهم إياهم ، وليس لذلك إلا تفسير واحد لم يشأ المؤرخ أن يذكره ، وهو أن المسلمين كانوا يحترمون الدين وأصحابه ، ولم تمتد يدهم بالأذى إلى أموال الناس فيما دخلوه من البلاد إلا بقدر ما اضطرتهم إليه الضرورات العسكرية . وقد رأينا المسلمين ينصفون الناس في الأندلس ولا يكادون يؤذون رجال الدين أو المؤسسات الدينية ، فمن عجب أن تتغير خطتهم دفعة واحدة بعد دخولهم غالة ! وقد كان قائدهم إذ ذاك رجلاً اشتهر بالعدل وإيثار الحق هو عقبة بن الحجاج السلولى

(١) انظر عن هذه التفاصيل مدونة موسايك والذبل الثالث لمؤرخة فرجيديريوس في المواضع المشار إليها آنفاً .

Cf: CHARVET : Hist . de la Sainte Eglise de Vienne . p. 147.

REINAUD : Op . cit. pp. 59-61 .

الذى تجمع المراجع النصرانية نفسها على الثناء عليه ، ومن أسف أن مراجعنا العربية تضمن علينا بسطر واحد ينير أمامنا الطريق في هذا الموطن المبهم ، إلا عبارة يسيرة عن سلوك عقبة تؤيد ما قلناه ، تقول إن الرجل كان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يدعوه إلى الإسلام ويبين له فضائله ، فأسلم على يديه ألفا رجلا بذلك^(١) ، مما يأذن لنا في القول أن عقبة ومن عمل تحت إمرته من المسلمين كانوا يؤثرون الرفق حتى مع الأسرى (وكان مصيرهم القتل في قواعد الحرب في تلك الأيام) فكيف بأهل المدن والأرياف الذين يستسلمون ويؤدون الجزية دون حرب ؟ وكيف ولدينا البرهان الساطع على حسن تصرف المسلمين مع أهل هذه النواحي من انضمامهم إلى المسلمين ومؤازرتهم إياهم على ملك الفرنجة وأودو وغيرهما من طواغيت الجرمان ؟ وحتى كتابات الرهبان - على تعصبها الشديد - تفيض بالشكوى من مساات الفرنجة وملكهم قارله ، وقد كتب معظمها بعد هذه الحوادث بسنوات ، أى في ظلال امبراطورية شرلمان ، فلا بد أن كتابها خففوا كثيراً من مساات قارله ، وأما ما فيها من الأقوال عن أفاعيل المسلمين فمبالغات تقرب من الأساطير ، ولا يستطيع التاريخ المنصف أن يقبل إلا القليل منها^(٢).

وكان الدوق ماورنت قد عاد إلى بروفانس بعد انصراف قارله ، وعقد الخناصر مع المسلمين من جديد ، فتخوف قارله من عواقب ذلك وقرر المسير إلى الجنوب مرة أخرى لمحاولة القضاء على هذا الخصم العنيد ، فانحدر سنة ٧٣٩م مع أخيه شلديبراند ووجهتهما ماورنت وبلاده ، واستوليا على ماسيليا (مرسيليا) قاعدة دوقته وطرداه من البلاد ، وأقاما المحارس على الشاطيء المقابل لشواطيء إسبانيا وحالا بذلك بين العرب وبين الاسترسال إلى شرقي ردانه من جديد^(٣).

يبد أن المسلمين لم يقفوا مكتوفى الأيدي أمام هذا التحدى ، وجعلوا مهمهم بعد ذلك

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) راجع ما يقوله رينو في هامش ص ٦٣ :

« يبدو أن التفاصيل الواردة في تاريخ حياة القديس بوركاربيوس Porcarius بخصوص أعمال التخريب التى أحدثها العرب في داخل إقليم بروفانس تنصب على ما فعله المتبريرون في هذه النواحي حينما نزلوها بعد سنة ٨٨٩م . وهى ملاحظة قيمة تؤيد ما قلناه ، وهو أن الرهبان نسوا كل ما أحدثه المتبريرون الجرمان من التخريب في شمال إيطاليا وجنوب غالة إلى العرب . ويشير المؤلف إلى كتابات البولنديست (Bollandistes) بتاريخ ١٢ أغسطس ٧٣٧م .

Continuatio Fregedarii, III, Loc. cit .

(٣)

نزول بروفانس ودوفينية من ناحية البحر . وأعانهم الحظ بموت قارله (٧٤١م/١٢٣هـ) واضطراب الأمر من بعده حيناً حتى استقراره لابنه يبيين الثاني ، ولكن ظروفهم لم تعينهم على الاستفادة من هذه الفرصة استفادة كاملة ، لأن فتنة البربر في الأندلس وإفريقية كانت إذ ذاك على أشدها ، فتوقفوا عن مدد حامياتهم في غالة^(١).

وكان عقبه بن الحجاج قد توفي (صفر سنة ١٢٣هـ/يناير ٧٤١م) على ما رأينا ، وصار الأمر مرة أخرى إلى عبد الملك بن قطن : وثب عليه هو ومن معه من اليمينية واستبدوا بالبلاد وأشعلوا الأندلس ناراً ، ثم أقبل بلج والقيسيون ونازعوه الأمر وانتزعوا الإمارة وقتلوه ، فنارت اليمينية على كلمة واحدة .

١٢٠-عبد الرحمن وكانت قيادة المسلمين في غالة قد صارت إلى عبد الرحمن بن علقمة ابن علقمة النخعي اللخمي على أوائل أيام عبد الملك بن قطن ، وكان عبد الرحمن يميناً ينصرف عن غالة متعصباً فلم يكذب يترامى إليه خبر مقتل عبد الملك حتى قرر المسير إلى بجنده قرطبة للانضمام إلى قطن وأميه ابني عبد الملك بن قطن ، وأخذ معه معظم

من معه من أنجاد الجند ، حتى لتزعم المراجع العربية أن عدة من سار معه إلى قرطبة كانت مائة ألف^(٢) . وهي مبالغة ظاهرة ولكنها تدل على أن غالة خلت من أنجاد مقاتليها من المسلمين ، فتضعف مركزهم فيها نتيجة لهذا ، وكان ذلك من أقوى الأسباب في زوال أمر الإسلام من غالة جملة ، وكان عبد الرحمن نفسه من خيرة قادة المسلمين وفرسانهم حتى لكان يلقب بـ « فارس الأندلس » وكان قيامه بقيادة جند الإسلام في غالة خير ضمان لثبات أمر الإسلام فيها ، فأما وقد انصرف بمن معه ، وألقى بنفسه في معمرة « المصاراة » وفقد الآلاف من خيرة جنده فيها ، فلم يعد للمسلمين أمل كبير في الثبات فيما وراء البرتات ، خصوصاً وقد انتظم أمر الدولة الفرنجية واستتب الأمر لليبيين في أوستراسيا ودان له ابنا أودو صاحباً أقطانية بالطاعة ، وتمهد أمامه الطريق للتجرد لحرب المسلمين .

ولا غرابة والحالة هذه أن نقرأ في المدونات النصرانية أن كهريات مدائن سبتائية مثل بزيبه ونيمة ومجلونة تخلصت من الحكم الإسلامي ، وقامت فيها حكومات محلية من أهلها ،

REINAUD. Op. cit. p 72 .

(١)

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٤٣ .

وانظر أيضاً :

ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٦ .

وكذلك حدث في إمارات البرتات مثل كتبريه ونبره ، خلعت طاعة المسلمين وصار أمر أهلها بأيدي أنفسهم^(١).

ولم يكد الأمر يستقر ليوسف الفهرى والصميل (من ربيع الثاني سنة ١٢٩ هـ/ ديسمبر سنة ٧٤٦م) حتى عمجل يوسف بإرسال ابنه عبد الرحمن في بعث إلى نواحي البرتات لإقرار أمر الإسلام فيها من جديد ، فلقى مقاومة عنيفة ولم يوفق إلى شيء يذكر . وكانت المواصلات بين جند المسلمين في أربونة وأجنادهم في شمالي الأندلس قد تقطعت ، فطمع فيهم فايتر (Vaifre) ولد أودو الذى صارت إليه أمور أقطانية بعد نزاع طويل مع أخيه في سنة ٧٥١م/ سنة ١٣٣ هـ . وكان عبد الرحمن بن علقمة اللخمي قد عاد إلى أربونة بعد هزيمته مع اليمينيين في وقعة المصاراة فتولى الدفاع عن أربونة ، ولكن أمره كان قد ضعف بسبب ما فقده من الجند في حروب العصبيات في الأندلس^(٢) .

١٣١-بيبين وكان مركز بيبين قد قوى في غالة كلها بعد أن انحاز إليه البابا ونقل إليه التاج الثاني يهاجم من آخر الميروفنجيين (سنة ١٣٣ هـ/ سنة ٧٥١م)فبادر بالمسير في جيش كبير أربونة نحو أربونة عام ١٣٣ - ١٣٤ هـ / ٧٥٢ م . وأعاناه الحظ بوجود حليف قوى من قوط جنوبي غالة يسمى أنسموندوس (Ansemundus) كان سلطانه يشمل بلدان نيمة وأجلدة وتجلونة وبزيه ، فسلمها إليه ، وبهذا لم يبق أمام بيبين إلا أن يوجه قواته كلها نحو أربونة ، فتقدم وحاصرها فترة من الوقت ، ولم يلبث أن استبان مناعتها وصعوبة الاستيلاء عليها ، فتركها وخلف أنسموندوس ليمضى في الحصار . ودارت الحرب بين أنسموندوس والمسلمين ، فلم يلبثوا أن أوقعوا به : فاجأه كمين منهم وقتله ، وحلّت مجاعة شديدة بجنوب غالة كله ، فلم يستطع جند الفرنجة الاستمرار في حصار أربونة ، فاضطروا إلى الانسحاب منها ونجا البلد من خطر الحصار هذه المرة أيضاً^(٣).

ولم يجتد جديد في أمر أربونة خلال السنوات السبع التالية ، لأن أهل الأندلس شغلوا بأمر عبد الرحمن الداخل وتأسيس دولته ، فظلت حامية البلد قائمة بالدفاع عنها معتمدة على نفسها دون أن يعمر قلوبها أمل في وصول نجدات من المسلمين ، ولكن الحظ أعانهم

REINAUD. Op. cit. p.77.

(١)

REINAUD. Op. cit. pp. 76-77.

(٢)

Cronicon Moissiacense. Loc. Cit .

(٣)

REINAUD. Op. cit . p. 78.

باشتغال يبين عنهم بما دهاه من الثورات في بلاده ، فظلت أربونة وبعض نواحي سبتمانية ثغراً إسلامياً يقوم للأندلس الإسلامي كالدرع الحصين دون أن يفطن أهل الأندلس إلى هذا الدور الخطير الذي لعبه هؤلاء المسلمون المنزولون في هذه الناحية القاصية يحيط بهم الأعداء من كل ناحية .

ولم تغب عن عبد الرحمن الداخل أهمية هذا الثغر ، فلم يكذب الأمر يستقر له حتى أسرع في سنة ١٤٠هـ / سنة ٧٥٨م بإرسال بعث قوى يقوده قائد تسميه المراجع النصرانية سليمان^(١) ، ولكن التوفيق أخطأ هذا البعث ، إذ دمه رجال العصابات في ممرات جبال البرت الخطرة ومزقوه إرباً^(٢) . وكانت هذه آخر محاولة قام بها الأندلس لإتقاذ آخر معاقل الإسلام في غالة ، إذ روعت هذه الكارثة عبد الرحمن فلم يعد يفكر في أمر حامية غالة ، وشغلته الثورات الكثيرة التي تواترت عليه ولما يستتب سلطانه .

١٣٢- سقوط أربونة (سنة ١٤١هـ / سنة ٧٥٩م) فإذا كانت أربونة قد تُركت لشأنها على هذا النحو المحزن ، ولم يعد أحد يفكر في نجدة أهلها أو استغلال موقعها الذي بذل المسلمون تضحيات كبرى للتمكن منه ، ودافعت عنه جماعات منهم بعد جماعات ثبتت كلها للهجمات المتوالية من جيوش الفرنجة ومن انضم إليهم من جماعات الجرمان قرابة الثلاثين عاماً ، إذا كان هذا حالها الذي صارت إليه ، فقد كان من الطبيعي أن يضعف أمر حاميته إلى حد لا تستطيع معه الثبات . والواقع أن انتصار رجال العصابات على البعث الإسلامي الذي أرسل لنجدها سنة ١٤٠هـ / سنة ٧٥٨م وتبين نصارى جنوبى غالة أن حامية أربونة وحاميات غيرها من المعاقل الإسلامية في سبتمانية باتت وحيدة منعزلة لا يزداد أمرها مع الأيام إلا ضعفاً ، فزاد طمعهم فيها وأخذوا يتربصون بها . فلما كانت سنة ٧٥٩م شعر أهل أربونة من النصارى أن في استطاعتهم الوثوب بمن بينهم من المسلمين وإخراجهم منها ، وكان الفرنجة قد أرسلوا بعثاً حاصرها ، فتشجع أهل أربونة وانقلبوا على

(١) ذكر ابن الأبار في الحلة السيرة رجلين من رجال دولة عبد الرحمن الداخل يسمى كل منهما أبا سليمان : الأول أبو سليمان حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، والثاني فطيس بن سليمان بن عبد الملك بن زيان أبو سليمان الكاتب . والراجح أن المراد هنا هو الأول ، لأن ابن الأبار يذكر أن عبد الرحمن ولاء طلبلة وأهلها ، وقد توفي أبو سليمان هذا في عهد عبد الرحمن في حين توفي الثاني في عهد الحكم الربضى .

انظر :

ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ٤٥ وما بعدها وص ٦٠ .

الحامية الإسلامية على حين غرّة ، فقتلوا من أفرادها نفراً عظيماً وأسرعوا ففتحوا أبواب البلد للفرنجية ، وعجل يبيّن بإرسال بعث قوى أكمل ما بدأ به أهل البلد ، وقضى على ما بقي للمسلمين من الجند في أربونة ، وبهذا ضاع هذا المعقل الإسلامي الفريد ، بعد أن ظل في يد المسلمين قرابة الثلاثين سنة يؤيد سلطانهم على سبتانية ومعظم نواحي جنوبي غالة^(١).

١٢٣- بقايا وبقيت من المسلمين بعد ذلك جماعات صغيرة تسيطر على بعض نواحي المسلمين في غالة دوقية الدوفينييه وكونتية نيس ، واعتصمت جماعات منهم في شعاب الألب الغربية ، وظلت هذه الجماعات تقيم في هذه النواحي طوال عصر شرلمان ، وتذهب بعض نصوص - غير موثوق في صحتها - إلى أن تلك الجماعات الإسلامية استولت على جرينوبل في تاريخ غير محدد بالضبط . وقد ظلت هذه الجماعات الإسلامية مقيمة في هذه النواحي حتى نزل المسلمون شاطيء فرنسا الجنوبي مقبلين من صقلية وقرصقة بعد مائة وثلاثين عاماً على ما فصلناه في دراسة أخرى^(٢) . ولكننا نستطيع القول أن تاريخ سيادة المسلمين في جنوبي غالة ينتهي بسقوط أربونة سنة ٧٥٩ ميلادية^(٣).

١٢٤- نتائج سقطت أربونة تغير الوضع في شمال الأندلس الغربي تغيراً تاماً ، إذ رفعت الولايات النصرانية الواقعة في منطقة البرت رأسها وانتعشت بقيام الدولة الشلمانية ، فقوى أمرها واستمدت العون من غالة ، وهنا يبدأ تاريخ « الثغر الإسباني » الذي نشأت عنه إمارة قطلونية (كتلونيا) فيها بعد ، وسنرى شرلمان بعد

(١) وردت تفاصيل كثيرة عن هذا الحادث في قصة فيلومين PHILOMENE التي نشرها M. CIAMPI في فلورنسه سنة ١٨٢٣ تحت عنوان :

Gesta Caroli Magni ad Carcassonam et Narbonam

ويبدو أن هذا المرجح لا يمكن الاعتماد عليه ، لأن رينو يقول إن المؤلف يزعم أنه كتب بأمر شرلمان ، ولكن هذا الكتاب الذي كتب أول الأمر بالبروفسالية والذي يضع المؤلف فيه في عصر شرلمان حوادث وقعت على أيام أبيه يبين وجده قارله ، قد كتب في القرن الثاني عشر على الأغلب ولا يستحق أية ثقة :

REINAUD . Op. cit. p. 81 et note I .

(٢) انظر : حسين مؤنس : المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى بدء الحروب الصليبية . مجلة الجمعية المصرية التاريخية سنة ١٩٥٤ .

REINAUD . Op. cit. p. 82 et note I .

(٣)

ومراجعته :

Gallia Christiana. III, p. 1275.

M. DE COURCELLES : Hist . généalogique des pères de France

المواد الخاصة بـ Clermont- Tonnère , Agoult ، ولا يوافق رينو على كثير مما ورد في هذه المراجع .

سنوات يعبر البرت ويجاوم الاستيلاء على سرقسطة^(١).

وقبل أن نترك غالة وتاريخ المسلمين فيها ، لابد من أن نتعرف أحوال المسلمين أثناء إقامتهم فيها ، والنظم التي ساروا عليها في تنظيم ما كان تحت سلطانهم من نواحيها .

١٢٥-أحوال لا نملك عن ذلك الموضوع إلا معلومات عامة وأمثلة قليلة لا يُؤمّن القياس جنوبي غالة تحت عليها . والثابت على أى حال أن مقام العرب في غالة لم يدم على هيئة مستقرة الحكم الإسلامي إلا نحو ثلاثين سنة ، وأن المسلمين لم يسيطروا فيها على مساحات واسعة يستطيعون أن يطبقوا عليها نظاماً ثابتاً كما كان الحال في الأندلس مثلاً ، ولو قد انتصر المسلمون في وقعة البلاط وتلاشت المقاومة الفعلية أمامهم لأخذت الأمور مجرى آخر : إذن لنشأت ولاية جديدة في غالة ، ولأرسل عامل الأندلس إليها العمال والرجال . فأما وقد انهزم المسلمون في محاولتهم الكبرى فقد وقعت ممتلكاتهم في غالة عند وضعها الأول ، وظلت معتبرة ثغراً للأندلس فيما وراء البرتات ، يقيمون فيها ويحافظون عليها ليحموا ما وراءها ، ولنهضوا فيها للغزو إذا ما أمكنتهم الفرصة . والمعروف أن الولايات الإسلامية كانت تولد عقب الانتصارات العسكرية الكبيرة ، هكذا نشأت ولايات العراق والشام ومصر والمغرب والأندلس ، وقد كان يحدث أن يملك المسلمون أرضاً واسعة دون نصر حاسم ، كما ملكوا جزءاً من آسيا الصغرى ، فلم تنشأ ولاية إسلامية في آسيا الصغرى على الرغم من أن ما كانوا يملكونه من أرضها أيام الأمويين يزيد مرات كثيرة عن مساحة ولاية البصرة مثلاً .

ظلت فتوح المسلمين فيما وراء البرتات معتبرة إذن ثغراً تابعاً للأندلس من الوجهة الإدارية ، والأدلة كثيرة على أن عمال الأندلس اعتبروا سبتانية ثغراً عسكرياً لا كورة إدارية ، وقد نشأ هذا الثغر في أيام السماح بن مالك ، فهو الذى افتتح أربونة ونيمة وأجدة ومجلونة ووصل بالفتح إلى ليون ، ولو لم ينهزم عند طولوشة لما اقتصر ثغر غالة على سبتانية وبعض الأراضى الساحلية الواقعة شرقي الردانه ، ولجعل المسلمون عاصمة ثغرهم في أبتيون أو طولوشة أو غيرها من كبار المراكز التي تسيطر على جنوبي غالة كلها ، فجاءت هذه الهزيمة قاضية على الآمال ، واضطر المسلمون إلى الارتداد إلى الجنوب والتحصن بناحية سبتانية .

وقد حاول عنبسة بن سحيم أن ينتصف لمقتل سلفه فقام بغارته الكبرى التي لم تزد على أن تكون مظاهرة عسكرية رائعة ولكنها قليلة الأثر ، ثم جاء عبد الرحمن الغافقي وأراد أن يفتح غالة فتحاً دائماً ، وأعد عدته لملاقاة النصرانية في معركة حاسمة فانهمز هو الآخر وقتل ، ثم جاء عقبه بن الحجاج وحاول أن يصل إلى ما فشل فيه عنبسة وعبد الرحمن فكان أحسن حظاً وإن لم يصل إلى نتيجة ، ومضى عن الولاية وأملاك المسلمين شمال البرتات لا تزيد عن إقليم سبتانية .

١١٦٦- لماذا لم يوفق المسلمون إلى
 ومن الواضح أن ضعف مركز المسلمين في غالة إنما أتى من اقتصر معظم
 محاولاتهم على العبور إلى غالة من الأبواب والممرات الشرقية ، فانصرفت
 جهودهم كلها على الجنوب الشرقي لغالة وحوض ردانه ، ولو نفذوا من
 الغرب أيضاً من أول الأمر لسيطروا على أقطانية وأزالوا هذه الشوكة من جنبهم وثبتوا
 أقدامهم في جنوب غالة كله ، ولاستطاعوا أن يكونوا أثبت أقداماً في المعارك التي هزموا
 فيها على حدود هذه الدوقية عند طولوشة مرة وعند تور مرة أخرى . وربما كان سبب ذلك
 هو أن سلطان المسلمين لم يتمكن تماماً في الركن الغربي من جبال البرتات ، وظلت أقصى
 فتوحهم في هذه الناحية عند بنبلونة جنوبي البرت ، وبقيت مساحات أخرى واسعة يسكنها
 أقوام جيليون ذوو مهارة حربية وجلّد لم يخضعوا لسلطان المسلمين ، بل ظلوا يترصدون بهم
 الفرص ، لا يكاد يمر بهم بعث إسلامي إلا هاجموا وتحطفوا رجاله ، ولا أمكنتهم غيرة في
 المسلمين إلا انتهزوها .

وقد كان ترك المسلمين للسيطرة على هذه الناحية من أكّد الأسباب في زوال سلطانهم عن
 منطقة البرتات وما صاقتها من الشمال والجنوب ، وستكون هذه النواحي مهدداً تولد فيه
 الكثير من الولايات الإسبانية النصرانية التي ستناوئ المسلمين مثل أرغون ونبرة وشرطانية
 وريجاجورثا وغيرها . ولو قد اهتم المسلمون بإكمال إخضاع منطقة البرتات وتثبيت أقدامهم
 فيها لتمكنوا من القضاء على كل قوة مناوئة لهم فيها ، ولكان هذا أجدى عليهم من
 الاسترسال في مغازاة غالة لأن غزواتهم في غالة لم تؤتهم أي ثمر على الإطلاق ، في حين كان
 تمهيد الأمر في نواحي البرتات تمهيداً تاماً يؤمن الأندلس الإسلامي ، ويقطع كل سبيل
 لنصارى الأندلس في الاتصال بالجماعات النصرانية الكبرى في غالة وإيطاليا .

ولنلاحظ إلى ذلك أن المسلمين خانهم الحظ في الوقت الذي دخلوا فيه غالة ، فقد

دخلوها في إبان قيام الدولة الكارولنجية وكانت أسرة فتية في طور التأسيس ، وكان رجالها يجتهدون في إخمال البيت الميرورنجنى للاستحواذ على العرش من دونه ، وكانوا قد أنشأوا لأنفسهم جيشاً قوياً جمعه من خيرة الفرنجة ومن انضم إليهم من التبريرين ، ومضوا يحاولون إخضاع غالة كلها وشمال إيطاليا ، فأثارهم دخول العرب البلاد وتوغلهم فيها وغلابهم لكل من فكر في مناوأتهم من أهل الجنوب ، ولو قد فطن العرب للوضع السياسى في غالة وحالفوا أودو وغيره من أكتاد الجنوب وأدواقه لكان حظهم أحسن ، ولكنهم كانوا يجهلون كل شيء عن الحال في غالة . ولهم في ذلك عذر : فقد بعدت بهم الشقة ، ولم يعد هناك سبيل لاتصالهم المباشر بقلب الدولة في دمشق ، وكان كل عماد المجاهدين في غالة على الأندلس وأهله ، ولم تكن أحوالهم قد استقرت بعد ، بل لم تكن أعدادهم كافية لسيادة الأندلس نفسه ، فكيف بقطر جديد تفصله عن الأندلس جبال وعرة مثل البرتات وتقوم فيه شعوب جديدة فتية ، يعمر نفوس أهلها من الآمال ما كان يعمر قلوب المسلمين أنفسهم ؟

ولا ينبغي أن نظن أن المسلمين لم يفكروا في غزو غالة غزواً مستمراً والاستقرار فيها ، لأن الواقع أن نفوسهم تطلعت إلى فتحها فتحاً ثابتاً من أول الأمر ، ولا يسعنا ونحن نتأمل جهود الحر بن يوسف والسمح بن مالك وعنبسة بن سحيم وعبد الرحمن الغافقى وعبد الملك بن قطن إلا أن نقرر أن هؤلاء القواد المقتدرين كانوا يشعرون أنهم يقومون بفتح منظم غايته إدخال البلاد في رحاب الدولة الإسلامية لا مجرد القيام بغارات سريعة لا هدف لها بعد الغنيمة كما يفهم من كلام بعض المؤرخين المحدثين . بل لعننا لو قارنا السمع والغافقى وعقبة بن الحجاج بغيرهم من رجال الفتوح الإسلامية الأخرى لتبيننا أن فتوح غالة كانت من أمجد الجهود الإسلامية الحربية ، وأن تضحياتهم في سبيلها من أغلى ما ضحوا به في فتوحهم . وقد رأينا تفانيهم في إتمام فتحها ، وتبيننا أن تضحياتهم في سبيلها لا تقل روعة عن تضحياتهم لفتح الأندلس نفسه ، ولا نزاع في أن السمع والغافقى وعقبة يُعدون جميعاً في طليعة قادة المسلمين العظام ، ولا نزاع كذلك في أن المسلمين ضحوا في سبيل غالة أكثر مما ضحوا في سبيل مصر مثلاً ، وأن من استشهد من المسلمين في نواحي غالة كانوا جديريين بفتحها ، ولو لم يكن الأندلس نفسه مضطرباً هذا الاضطراب .

وربما بدا غريباً أن نرد معظم السبب في فشل المسلمين في فتح غالة إلى اضطراب الأحوال في الأندلس ويُعد غالة عن مركز الدولة الإسلامية لا إلى الجشع في الغنائم كما يزعم بعض

مؤرخى النصرى ، أو إلى قوة الدولة الفرنجية كما يزعم بعضهم الآخر . ولكن هذه هي الحقيقة : فأما البعد السحيق عن مركز الدولة فقد حرم فاتحى غالة من توجيه الدولة وعون رجالها السريع ، وحرّمهم من أعداد العنصر العربى الذى كان قوام الفتح وعمودها الفقرى . ويكفى أن نذكر أن من دخل الأندلس من العرب كان قليلاً لا يكاد يكفى لسيادة الأندلس نفسه ، وأن جزءاً عظيماً من هؤلاء استقر في نواحي الأندلس ولم يشترك في أعمال الغزو فيها بعدها من البلاد .

يكفى أن نذكر ذلك لكى نتبين أن عدد العرب في الجيوش الإسلامية الغازية في غالة كان قليلاً جداً . فأما غالبية الجند الإسلامى المحارب في غالة فكانت من البربر ، وتدل الدلائل كلها على أن أعداد هؤلاء البربر كانت عظيمة وإن لم تبلغ مئات الآلاف كما يزعم رواة أصحاب المدونات اللاتينية^(١) ، والغالب أن معظم من كان يُهَجَّر إلى الأندلس من البربر كان يُهَجَّر إليها طمعاً في فضل الجهاد ومغانمه ، ولهذا كانت جموعهم في الجيوش الغازية عظيمة ، وكان طمعهم في الغنائم كبيراً كذلك ، وقد كان لهذا وذاك أثرهما البعيد في تطور أحداث الغزوات في غالة كما رأينا .

فإذا كانت نوايا المسلمين الغازين في غالة قد انعقدت على الاستقرار ، وطال مقامهم في سبتانية نيفاً وثلاثين عاماً ، فلا بد أنهم وضعوا نظاماً لإدارة النواحي التى خضعت لهم ، وليس لدينا إلا إشارات عابرة تعيننا على تكوين فكرة عن هذا النظام . ويكفى أن نبه الى أن كلامنا هنا مقصور على ما سار عليه العرب في حكم سبتانية فقط من النظم خلال السنوات الثلاثين التى سيطروا فيها عليها واتخذوا أربونة عاصمة لهم .

١٣٧- طبيعة

الحكم الإسلامى وطبيعى ألا يكون العرب قد مضوا في حكم هذه الناحية كما حكموا مصر في غالة مثلاً ، لأن مصر كانت ولاية مدنية في حين كانت سبتانية ولاية عسكرية ثغرية ، وكان المسلمون ينظرون إلى هذه الولايات الثغرية نظرة تخالف نظرهم إلى الولايات المدنية ، فكانوا أميل إلى التساهل مع السكان في النواحي الثغرية طمعاً في كسبهم إلى جانب المسلمين ، وكانوا كذلك أكثر كرمًا على الجنود المقيمين في الثغر منهم على المقيمين في الولايات المدنية ، فقد وزع عمر بن الخطاب أراضي أقصى شرقى فارس على فاتحها من المسلمين وسأها الثغور الهندية ، وقد فعل ذلك استتلاًفاً لقلوب هؤلاء الجنود ولتقوية

(١) انظر الفصل الرابع من كتاب رينو الألف الذكر ، من ص ٢٢٩ فصاعداً .

نفوسهم على سداد ثغرها . واعتبر عمر بن عبد العزيز الأندلس ولاية ثغرية ، فأقر الإقطاعات فيها ، وتسامح المسلمون مع أهل النواحي من النصارى فيه ، فمنحوا كل ناحية عهداً بحريتها في كل شيء مع اشتراط أداء جزية معينة ، والخضوع للحاكم الإسلامى الذى يقيم فى الناحية فى بعض المسائل الكبرى^(١) .

١٢٨ = المسلمون وقد ذهب رينو إلى أن المسلمين عاملوا سبتانية على هذا الأساس ، وقال يعتبرون غالة إقليمياً إن العرب ساروا فى حكمها على نفس الأسس التى قرروها فى صلحهم ثغرياً مع قلمرية (Coimbra) فى أقصى غربى الأندلس ، وإنما تخير قلمرية بالذات لأنها كانت أشبه بالثغرى الأخرى ، ولأننا عثرنا على نص معاهدها مع المسلمين كاملاً . وأهم ما فى هذه المعاهدة هو أن يكون لأهل قلمرية الحق فى أن يحكموا أنفسهم بقوانينهم التى تعودوا أن ينظموا بها أمورهم قبل مجيء المسلمين ، وأن يكون لهم حاكم منهم يقوم بالقضاء بينهم وينفذ الأحكام فيما عدا أحكام الإعدام إذ كان لابد من عرضها على الحاكم الإسلامى المقيم . وكان هذا العامل المسلم يقيم فى قلمرية ممثلاً لسلطان المسلمين ، ومعه حامية تؤيده وتحميه وتمنع النصارى من الانتقاص عليه ، فإذا وقعت خصومة بين مسلم وواحد من أهل البلاد كان لابد من عرضها على الحاكم المسلم الذى يقضى فى الأمر بمقتضى الشريعة الإسلامية ، وإذا اعتدى نصرانى على مسلمة أزم باعتناق الإسلام والزواج منها ، فإذا كانت متزوجة لم يكن له من الموت مفر^(٢) .

فإذا طبقنا أشراف هذه المعاهدة على سبتانية استطعنا أن نقول إن الحماية الإسلامية

(١) موضوع حكومات المسلمين فى الولايات الثغرية فى حاجة إلى الدرس ، فقد كانت لها نظم خاصة تختلف كل الاختلاف عن النظم التى أقرها المسلمون فى الأراضى المفتوحة . أما فيما يخص ثغرياً هذا - غالة - فيقول محمد بن مزين ، ونصه فى غاية الأهمية لدراسة الموضوع كله ، والكلام هنا منصب على الأندلس : « ... فيبعث إليها السمع بن مالك عاملاً ، فوردها فى جند سوى جندها الأول ، فأرادا النزول معهم فى أمواتهم ومشاركتهم فيما بأيديهم ، فوجد لهم وفد على أمير المؤمنين عمر (ابن عبد العزيز) وشكوا إليه ذلك ، ورغبوا إليه فى الرجوع إلى بلادهم ، وإدانتهم بمن ورد مع السمع ، فمنعهم من ذلك وأنسهم وعقد لهم وأشهد فى عقدهم على إقرارهم فى أمواتهم ، وأقطع الواردين مع السمع إقطاعات غيرها ، وقال : هذه الثغور الهندية . لولا إقطاعات عمر بن الخطاب (رضه) الجند فيها لم يسدوها ، فكيف بتلك الناحية ؟ فإننا نستخير الله فى إجلاء المسلمين عنها . ثم إنه لم ينفذ ذلك ليلعب الكتاب أجله ... » .

DOZY: Recherches. I, app. I. p. v.

انظر النص فى :

Cf: REINAUD. Op. cit. pp. 272 Sqq .

(٢)

والمراجع الواردة فى الهوامش .

الرئيسية كانت تقيم في أربونة ، وأن حامية إسلامية صغيرة كانت تقيم في كل بلد كبير من بلاد سبتمانية ودوفينييه وما خضع للمسلمين من دوقية أقطانية وحوض ردانه ، وهذه الحاميات تقوم بحماية المكان وإقرار السلام بين أهله وجمع أمواله . وكان للمسلمين إلى جانب ذلك جند غازٍ كبير يخرج للغزو مع العامل المقيم أو مع عامل الأندلس نفسه إذا أُقبل .

١٢٩ - نظام الحكم في جنوب غالة
ولا نزاع في أن العرب خففوا عن أهالي هذه النواحي أعباء حكمهم إلى أقصى حد مستطاع ، وليس لدينا دليل مادي على ذلك ، ولكننا نستند في القول به إلى أمرين :

الأول : هو تعلق أهل هذه النواحي بهم ووقوفهم إلى جانبهم أمام الفرنجة ، وهذا أمر لم يكن ليحدث لو لم يكن المسلمون قد اجتذبوا أهل هذه النواحي بالتخفيف عنهم في كل شيء ، والثاني : هو أن المسلمين كانوا أحلافاً لنفر من أدواق هذه النواحي مثل ماورنت دوق مسيلية (مرسيليا) الذي ذكرناه ، ولم يكن هؤلاء الأشراف ليشتوا على الولاء للمسلمين إلا إذا كان هؤلاء قد أبقوا لهم على ما كان لهم من سيادة في بلادهم . ولنلاحظ أن أراضى هؤلاء الأدواق المعاهدين لم تكن منفصلة عن أراضى المسلمين ، أى أنهم لم يستقلوا بنواحيهم عن السلطان الإسلامى ، بل اعترفوا به وأقاموا معه : فقد كان ماورنت يحكم مسيلية وما حولها من أراضى دوفينييه ، وقد أخضع المسلمون هذه النواحي ولكنهم لم يمسوا ماورنت ، فظل يحكم أهلها ويؤدى للمسلمين ما حق لهم من أموالها ، أى أنه كان شيئاً يشبه « زعيم عجم الذمة » و « قومس النصارى » في الأندلس ، مع فرق ظاهر وهو أن « زعيم عجم الذمة » كان رجلاً مديناً صرفاً تقتصر مهمته على معاونة المسلمين على حكم البلاد ، وكان خاضعاً لعامل الأندلس خضوعاً تاماً ، ولم تكن له سيادة فعلية إلا في حدود ضيقة ، في حين كان « دوق عجم الذمة » في ناحية سبتمانية سيداً قوياً ذا جند وسلطان ، وكان حليفاً للمسلمين لا خاضعاً لهم ، وكان يتعاون مع المسلمين في مهمتين رئيسيتين : إقرار السلام في الناحية ، ثم حمايتها من الفرنجة وحلفائهم .

١٣٠ - موقف المسلمين من المسيحية في غالة
وقد زعم رينو أن المسلمين اضطهدوا النصارى في سبتمانية واستولوا على كنائسهم ، ولم يستند في ذلك إلى دليل واحد مباشر أو غير مباشر . ولسنا ندرى لماذا أصر على الكلام عن هذه الناحية بهذا الأسلوب مع عدم وجود

الدليل ، وربما كان الأصدق أن يقال إن المسلمين تركوا لأهل هذه النواحي حربتهم الدينية كاملة كما فعلوا مع أهل الأندلس ، بل ربما كان الأقرب إلى المنطق هو أن موقفهم من النصرانية ورجالها في ناحية سبتمانية كان أكثر رفقاً ، فقد كان لهم حلفاء من النصارى ، وكانوا يحاولون كسب رجال الدين في جنوبي غالة لأن قارله كان قد أساء إليهم إساءات بالغة وانتزع أموال الكنائس وفرّقها على جنده ، وشرّد الكثيرين من القساوسة والأجبار ، ولا نزاع في أن حال الكنائس في النواحي التي كانت خاضعة للفرنجة في جنوبي غالة كانت أسوأ من حالها في النواحي التي كانت خاضعة للمسلمين .

وليس لدينا كذلك أى وثيقة نستطيع أن نستخلص منها مقدار ما قرر المسلمون على أهل هذه النواحي من الجزية ، فلم يبق إلا القول بأن المسلمين ساروا في ذلك على نفس الأسس التي ساروا عليها في الأندلس . أى : أنهم تركوا الأرض التي فتحت عنوة في أيدي أصحابها وأطلقوا فيها الأسرى وفرضوا عليها مالا يتراوح بين ثلث وربع المحصول ، وأما ما فتح صلحاً فقد تقرر عليه العشر . ويستعد أن يكون المسلمون قد ملكوا الأرضين واشتغلوا بالفلاحة في هذه النواحي لاضطراب الأحوال وعدم استقرار الأراضي في أيديهم أزماناً طويلة . وهذا فيما نظن كان من أقوى الأسباب في زوال أمر المسلمين من هناك ، لأن من كان فيها من المسلمين ظلوا مجرد جنود قلق يقيم في المدن أو يخرج للغزو ، ولم تتح لهم الفرصة للانتشار في الأرض وامتلاكها والاختلاط بأهلها ونشر الإسلام فيهم وتعريبهم .

ولم يكن سقوط أربونة وما تلاه من الأحداث التي ذكرناها هو ختام تاريخ المسلمين فيها وراء البرتات ، بل استمرت بقاياهم وأثارهم هناك زمناً طويلاً وتجدد لهم تاريخ في جنوبي حوض ردانة بعد قرن ونصف ، إذ نزلوا هذه الناحية من البحر ، ولكننا نقف عند هذا الحد الآن ونحيل القارئ على ما كتبناه في هذا الموضوع في بحثنا عن « المسلمين في حوض البحر الأبيض » .

وقد رأينا أن جهود المسلمين في هذه النواحي لم تكن بالقليلة ولا بالعبارة ، وإنما كانت جهوداً مضيئة جادة قصد من ورائها إلى فتح غالة ومدد رواق الإسلام على غرب أوروبا ، ولم يوفق المسلمون في ذلك للأسباب التي ذكرناها . ولا يقلل ذلك من قيمتها في ذاتها ولا من أهميتها التاريخية . وأبسط نتيجة نخرج بها من هذا العرض السريع هو أن المسلمين لم يدخلوا غالة غزاة غائبين لا ينظرون إلى شيء بعد الغنيمة . بل دخلوها فاتحين منظمين

يريدون إدخالها في رحاب دولتهم وتحويلها إلى الإسلام ، ولو قد استقر لهم الأمر في غالة الجنوبية لاتبه نظرهم إلى ما وراءها ، ومن هنا كانت أهمية « بلاط الشهداء » في تاريخ النصرانية في غرب أوروبا ، فقد حالت بينها وبين الزوال فعلاً .

ولا يمكن القول بأن المسلمين لو كانوا انتصروا في « بلاط الشهداء » وأقاموا حكم الإسلام هناك لما منع ذلك النصرانية من أن تعود كما عادت في الأندلس ، لأن الذي أعاد النصرانية في الأندلس هو عجز المسلمين عن فتح غالة ، وكانت نصرانية غالة هي نواة النصرانية في غرب أوروبا إذ ذلك ، ولم يكن يليها إلا شعوب وثنية ، أما البابوية في روما فلم تكن لتستطيع شيئاً ، لأنها هي نفسها كانت في حماية للمبارد ، وكان أمرها إذ ذاك ضعيفاً لم يتقرر على النحو الثابت الذي نراها عليه خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين^(١).



١٣١- مقارنة ولقد أسرف الغربيون في تقدير أهمية « بلاط الشهداء » وقالوا إنها أنقذت بين المسلمين حضارة غرب أوروبا أو المسيحية ووضعت حداً لسيادة الشرق على الغرب ، والفرنجة في غالة وما إلى ذلك مما يجلو الكلام فيه لمؤرخي أوروبا وفرنسا خاصة . والواقع أن هذه كلها مبالغات لا يقبلها الحكم التاريخي الصحيح فلم يكن الفرنجة الذين تصدوا لرد المسلمين عن غالة بأصحاب البلاد ، بل كانوا غزاة أغاروا عليها وتملكوها بحد السيف . فإذا كان المسلمون أغراباً عن غالة فقد كان الفرنجة أغراباً أيضاً ، ولم يكن لهم من الحق فيها أكثر مما لغيرهم . وقد كانوا يحكمون البلاد بالعنف والقسوة حكماً أجنبياً خالصاً ، وكانوا يترفعون عن أهل غالة الأصليين (الغالين الرومان) ويعتبرونهم مجرد رعية عليها الخضوع . بل لم يكن هؤلاء الفرنجة الساليون مسيحيين مخلصين ، وإنما كانوا ما يزالون أجلاً متبربرين أقرب إلى الوثنيين منهم إلى أهل الكتاب ، وكانت وطأتهم على الكنائس شديدة وظلمهم للرهبان ورجال الدين عظيماً ، ولا شك أن المسلمين كانوا أقرب إلى روح المسيحية من أولئك المتمسحين .

ولم يغلب الطابع المسيحي على الفرنجة إلا من أيام بيبين الثاني بن قارله بسبب تصديه لحماية البابوية من اللمباردين حماية سياسية لا دينية ، وقد زاد ارتباط الفرنجة بالمسيحية على أيام شرلمان ، وهو أول ملك فرنجي مسيحي صادق . وقد كتب في أيامه الكثيرون من

أصحاب المدونات النصرانية التي نقلت إلينا أخبار الصراع بين العرب والفرنجة على غالة ، وصوروا حروب قارله مع المسلمين على أنها حروب شارلمانية مسيحية، أى أنهم كتبوا عن عصر بروح عصر آخر ، ونسبوا إلى قارله ومعاصريه ما لم يكن يعرفه هو . فلم يكن الرجل يفكر في مصير المسيحية بقدر ما كان يفكر في مصير مملكته ، وقد رأينا أن موقفه من الكنائس والقسيسين لم يكن موقف الصديق ولا موقف الراعى المسيحى وإنما موقف الطاغية العسكرى الذى لا يفكر إلا في ملكه وأمواله ومغانمه .

وليس إلى الشك سبيل في أن السمح بن مالك وعبد الرحمن الغافقى وأمثالهما كانوا يعرفون عن المسيح والمسيحية أكثر مما كان قارله ورجال مملكته يعرفون . ثم إن المسلمين كانوا أهل دولة ذات نظم وقوانين وقواعد مقررة ، في حين كانت نظم الدولة الفرنجية في طور التكوين ، وكانت أصول الحكم فيها تعتمد على قوانين الجرمان الأولى ، وهى شبيهة بقوانين العرب الجاهليين ، فلم تكن الحرب إذن حرباً بين إسلام ونصرانية بقدر ما كانت صراعاً بين حضارة وجاهلية ، بين نظام وفوضى .

بل لم يكن الفرنجة الذين حاربهم المسلمون بأنصار الثقافة اللاتينية كما زعم مؤرخو الغرب ، فلم يكن الفرنجة يعرفون من اللاتينية شيئاً ، بل كان قارله نفسه لا يكتب اسمه ، لا باللاتينية ولا بغيرها (وكذلك كان شلمان) وكان رجاله محاربين أجلاًفاً لا يفقهون من اللاتينية شيئاً ، بل لعلهم لم يكونوا قد سمعوا بعد بحضارة الرومان . ومن الثابت على أى حال أن الفرنجة والقوط الغربيين وأضرابهم من المتبربرين هم الذين أزالوا بقايا الحضارة اللاتينية من البلاد التى سيطروا عليها . وكان عليهم فيما بعد أن يتعلموا اللاتينية على أيدي رهبان ومعلمين أقبلوا من إيرلندة وبلاد الشمال . وقد بيّن هنرى بيرين هذه الحقيقة بما لا يحتاج إلى مزيد من البيان ، وقد أوجزنا نحن آراءه في بحثنا الذى أشرنا إليه عن « المسلمين في حوض البحر الأبيض » .

وإذن فلم تكن موقعة البلاط إنفاذاً للمسيحية والحضارة اللاتينية كما يذهب معظم مؤرخى الغرب ، فقد كانت المسيحية في حرج في غالة عندما دخلها المسلمون ، وكانت اللاتينية قد تلاشت منها . وهذا كله يلقى ضوءاً جديداً على مكان موقعة البلاط من التاريخ ، نعم إن المسلمين لو انتصروا فيها لسادوا غالة وغرب أوروبا ولكان القرآن الكريم يدرس الآن في جامعة أكسفورد كما قال ادوارد جييون ، ولكن انهزام المسلمين فيها لم يكن هو الذى

أوقف تقدمهم ، لأنهم كانوا إذ ذاك قوماً مجاهدين « الموت أحب إليهم من الحياة » كما قال رسل هرقل عندما سأهم عن المسلمين ، وكانت الهزائم لا تعنى في حسابهم شيئاً ، وقد رأيناهم ينهزمون المرة تلو المرة في إفريقية ، فلم يمنعهم ذلك من العودة والإصرار على الفتح. إنها الذى أوقف تقدم العرب هم العرب أنفسهم ، بما شجر بينهم من فتن العصبية وما صرفهم عن مواصلة الفتح من أحقاد النفوذ وتفاهة النظرة الجاهلية إلى الحياة .

* * *

الفصل الثامن

قيام حركة المقاومة النصرانية

حينها وصلت جيوش الإسلام الفاتحة إلى لُك (Lugo = Lucus Asturum) وأوغلت في الجبال الصخرية المفضية إلى سواحل كتثيرية القاحلة ، وأشرفت عند خيخون على خليج بسكايه^(١) ، اعتقد قادة المسلمين أنهم فرغوا من افتتاح هذه الناحية ، وتحولوا بجهودهم إلى الركن الشمالى الشرقى من شبه الجزيرة فيما يلى الخط الممتد من برشلونة إلى (أمايه) ماراً بلاردة وسرقسطة وتطيلة وقلهرة ونخرة وما يلى ذلك من منطقة البرتات وما إلى شهاها من أراضى غالة^(٢) . ولم يكن يخطر على بال موسى وطارق - ومن جاء بعدهما - أن الركن الشمالى الغربى القصى المسمى «جليقية» الذى خلفوه وراءهم دون فتح - استصغاراً لشأنه - إنها كان فى الواقع حصناً لجأت إليه أعداد قليلة من بقايا القوط ، واطمأنت إلى الحياة فى هضابه ووديانه ، وأخذت تنتظر الفرصة المواتية لتخرج منه وتسنح فيها بليه من الأرض رويداً رويداً ، لتكوّن لنفسها دويلة لا تزال تسع بجهود أمرائها ومواتاة الظروف إياها حتى تصبح كتلة صلبة لن يستطيع العرب القضاء عليها ، ولا تزال أحداث الزمان تجرى بها إلى سعور حيناً وإلى نحوس حيناً ، حتى تضعف دولة الإسلام فى شبه الجزيرة ، فيتنفس أهل جليقية الصعداء وينقلبون من الدفاع إلى الهجوم ، ويتيح لهم المسلمون الفرص بها أسرفوا فيه من الخصومات فيما بين أنفسهم ، حتى إذا هدموا دولتهم بأيديهم وانفرد كل فريق منهم بقطعة منها ، أقبل هؤلاء المتحصنون فى الشمال يستعيدون من المسلمين البلاد بلدأ بعد بلد ، حتى استخلصوا شبه الجزيرة كله من أيديهم ، بعد قرابة ثمانية قرون من الجهد والكفاح .

١٢٢-انصراف العرب إلى المنازعات عن صيانة دولتهم وليس من الصواب فى شىء أن يذهب الإنسان إلى أن العرب أخطأوا إذ تركوا هذا الركن القصى دون فتح ، فقد كان على أيام موسى هضبة مقفرة موحشة باردة لا أهمية لها من أية وجهة حربية أو عمرانية ، تحيط بها غابات

(١) كان خليج بسكايه يعرف فى العصر الرومانى ببحر الغالى الكتثبرى الأكوينا

انظر Mare Gallicum Cantabricum Aquitanicum

FRANCISCO CONDEMINAS Y LUIS VISINTIN : Atlas Historico de Espana.

الخريطة رقم ٤ من هذا الأطلس .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٨ .

كثيفة . وكان طبيعياً أن يخلفها العرب دون فتح ، ولم تأت العلة - فيما بعد - من تركه ، بل من انقسام العرب أنفسهم وانصرافهم إلى منازعات الجنس والعصية : فقد قضت هذه المنازعات على أعداد كبيرة منهم ، وصرفت جهودهم عن مراقبة الجزيرة والاستمرار في اليقظة على سلامة دولتهم فيها . بل أدت حروب العرب والبربر إلى مبارحة معظم البربر للنواحي التي كانوا قد استقروا فيها في الشمال الغربي الأقصى ، وانحذارهم إلى الجنوب . بل إلى عودة أعداد عظيمة منهم إلى إفريقية على ما فصلناه ، فتخلفت وراءهم مساحات فسيحة من الأرض كان من الطبيعي أن يتقدم القوط والإيبيريون الرومان للسكنى فيها دون خوف ، فاستعادوا بهذا الشكل نحو خمس شبه الجزيرة دون أن يفتن العرب إلى ذلك ، فإذا استوثقوا من أنفسهم في هذا الخمس فقد كثرت أعدادهم وتسموا شيئاً من الرخاء أعانهم على الثبات للمسلمين وعلى ردهم عن بلادهم أولاً ، ثم شجعهم على التقدم نحوهم والاستيلاء على الأرض والبلاد من أيديهم فيما بعد .

وتسمى هذه الحركة في تاريخ إسبانيا بحركة « الاسترداد » - La Recon-
 ١٣٢-الريكونيستا quista ، والإسبان يعتبرون تطوراتها الحلقات الرئيسية لسلسلة تاريخهم القومي الذي يبدأ بضعة قرون قبل المسيح ، حينما هبط الفينيقيون شبه الجزيرة الإيبيرية ، ويتصل أثناء العصور الإغريقية والرومانية والقوطية النصرانية ، ويستمر خلال الفترة الإسلامية متمثلاً في هذه الدويلات التي نشأت في الشمال ، وأخذت تسع حتى قضت على دولة الإسلام في البلاد وأعادتها نصرانية كما كانت .

ولا شك في أن إطلاق تسمية « الريكونيستا » على حركة المقاومة النصرانية منذ ميلادها في أوائل القرن الهجرى الثاني (النصف الأول من القرن الثامن المسيحي) وربطها بحركة الاسترداد الحقيقي التي بدأت بصورة جدية محسوسة بعد زوال خلافة قرطبة وانتشار دولة الإسلام في شبه الجزيرة في أوائل المائة الخامسة للهجرة ، لا يتخلو من خطأ ، لأن اشترس إننا ولدت في ناحية لم يفتحها العرب قط ، فميلادها لا يعد بدءاً لحركة الاسترداد ، وإنها يعد ميلاداً لحركة المقاومة للسيادة الإسلامية . وقد بدأت حركة المقاومة هذه فعلاً في أواخر أيام « بلاى » على ماسيجىء ، ونشطت على أيام أذفونش الأول ، ولكنها وقفت بعد ذلك زماناً طويلاً ، ولم يتجدد نشاطها إلا بعد أيام المنصور بن أبى عامر . ومن هنا يجوز لنا أن نعترض على ما تُجمع عليه التواريخ الإسبانية من أن حركة الاسترداد إنما كانت معركة دامت

ثاني قرون La batalla de ocho siglos ، وقد اعترض على هذه التسمية نفر من معتلى المؤرخين الإسبان .

وقد كان مؤرخو الإسبان ومن شابعهم من الأوروبيين ينظرون إلى الفتح الاسلامى على أنه حادث طارىء ، طال زمنه ثم انتهى أمره ، دون أن يخلف في البلاد أثراً يذكر ، ولهذا كان هؤلاء المؤرخون يعرون بالفترة الإسلامية مروراً عابراً لا تنظر معه إلا بيضع صفحات من مؤلفاتهم . ولم يتبين الإسبان أهمية هذه العصور الإسلامية إلا من أواخر القرن الماضى ، ولم يعتبروها جزءاً هاماً مجيداً من تاريخهم إلا من أوائل القرن الحالى ، نتيجة لجهود طائفة من المستشرقين الإسبان ، لم يدخروا جهداً في كشف النقاب عن جمال هذه العصور الإسلامية وما قام خلالها من حضارات ، وما خلفته للإسبان وللحضارة البشرية من تراث مجيد .

فإذا كان هذا هو مكان حركة الاسترداد هذه من التاريخ الإسبانى العام ، فلا بد لدارس التاريخ الأندلسى من الوقوف عندها بين الحين والحين ليرقب تطوراتها ، لأن العلاقات الحربية وغير الحربية بين المسلمين والنصارى في إسبانيا تكوّن جزءاً هاماً من تاريخ العصور الإسلامية نفسها ، بل ستكون هى الناحية الهامة الخطيرة من تاريخ هذه العصور ابتداء من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) .

وطبعى ألا نجد من مراجعنا العربية أى اهتمام كبير بمبادئ هذه الحركة ، لأنها كانت في أول الأمر خافية أو كالحافية ، لا يكاد يحفل لها مؤرخ يتبع الحوادث الهامة ، وطبعى كذلك أن تهتم بها المراجع النصرانية اللاتينية الإسبانية اهتماماً عظيماً ، لأن مصنفها كانوا قساوسة ورهباناً عاشوا في مدائن الدول النصرانية الشمالية أو في العواصم الإسلامية ، ولكن اهتمامهم بها لم يتفعا كثيراً لأن أسلوبهم في كتابة التاريخ في هذه الأعصر كان يقتصر على تسجيل قوائم من التواريخ والأحداث موجزة إيجازاً شديداً ومضطربة اضطراباً بالغا ، ولهذا فإننا لا نستطيع الانتفاع بها إلا إلى حد محدود جداً .

لهذا كله كادت الحقائق الخاصة بتطورات هذه الحركة تضع بين إهمال المراجع العربية واضطراب المراجع النصرانية ، وظلت مبادئها وتطوراتها في أدوارها الأولى نهباً مقسباً بين الغموض والأساطير ، وأصبح من العسير جداً أن نكتب في شيء من الثقة عن أول أبطالها

المسمى بلاى^(١) بن فافيليا وعن أول حوادثها الجسام التى تسميها المراجع بواقعة « كوفادونيجا » .

١٣٤- الإيبيريون وكذلك يحيط الغموض فى مراجعنا العربية بحقيقة الأجناس التى كانت الرومان تسكن اشترىه وكتبريه على أول أيام الفتح الإسلامى ، لأن أصحاب المدونات الإسبانية فى العصور الوسطى يسمونهم « القوط » فى حين يجعلهم العرب قوطاً أو جلالقة ، وهم يريدون بالجلالقة أهل الركن الشمالى الغربى لشبه الجزيرة الإسبانية ، والواقع أن هذه الناحية كانت تسكنها جماعات من الإيبيريين ، وهم جنس قديم أقبل إلى شبه الجزيرة من إفريقية واستقر فيها من أقدم العصور ، يمتاز بالنشاط والذكاء ويعتبر أساس سكان شبه الجزيرة كلهم ، وأما من أتوا بعد ذلك فمهاجرون اختلطوا بهذا العنصر الإفريقى الأصيل ، وأول من هاجر إلى شبه الجزيرة واختلط به جنس أوروبى قديم - جرمانى فى الغالب - هاجر إلى شبه الجزيرة من الشمال فى أعداد قليلة اختلطت بالعنصر الإفريقى وتكوّن منها العنصر المسمى بالإيبيرى Los Iberos .

وتوالى المهجرات بعد ذلك على شبه الجزيرة ، أهمها هجرة الكلث وقد اختلط معظمهم بالإيبيريين ، وبقيت بعض جماعاتهم صافية فى نواحي جليقية ، ثم نزلت البلاد جماعات من الفينيقيين واليونان ، ثم أعقبت ذلك موجة الفتح الرومانى الذى شمل البلاد كلها ونظمها للمرة الأولى تنظيمياً إدارياً ، وإلى هذا الأثر العمرانى ترجع القيمة العظيمة لهذه الموجة الرومانية التى طبعت البلاد بالطابع الرومانى ، حتى أصبح أهلها يُعرفون بالإيبيريين الرومان من ذلك الحين Ibero-Romanos ، فلما أقبل القوط لم يختلطوا بأهل البلاد ، فبقى سكان شبه الجزيرة إيبيريين روماناً فى حين كانت الطبقة الحاكمة من القوط^(٢) .

١٣٥- صخرة بلاى تتفق المراجع العربية وغير العربية على أن فلولا من القوط فرت أمام الفاتحين المسلمين ، ولا زالت تتقهقر نحو الشمال حتى اعتصمت منهم بركن قصى من « جليقية » تسميه المراجع العربية « صخرة بلاى » والإسبانية (picos de Europa) فى

(١) Pelayo هذه هى الصورة الإسبانية لاسمه ، أما صيغته اللاتينية فهى Pelagius وقد آثرت استعمال الصورة الإسبانية لأنها أشيع ، ولأن هناك من المؤرخين من يقول بأنها الأصل كما سنرى .

(٢) cf: f . OLORIZ: Distribucion geográfico del índice refálico en Espana (Boletin de la Roy-(٢) al Sociedad Geográfica, Vol .XXXDI, 1894, primer semestre) pp.294 - 299.

ناحية كتبرية القاحلة^(١). وهناك اطمأن بها المقام ، لأن العرب عجزوا عن الوصول إليها أو استصغروا شأنها ، ولم يجدوا على أنفسهم بأساً فى تركها حيث هم . وتبالغ المراجع العربية فى استصغار شأن هذه الأعداد ، فيقول عيسى بن أحمد الرازى مثلاً : « .. ولم يبق إلا الصخرة ، فإنه لاذ بها ملك يقال له بلاى ، فدخلها فى ثلاثائة رجل ، ولم يزل المسلمون يقائلونه حتى مات أصحابه جوعاً ، وبقي فى ثلاثين رجلاً وعشر نسوة ، ولا طعام لهم إلا العسل يشترونه من خروق بالصخرة فيقتوتون به ، حتى أعمى المسلمين أمرهم واحتقروهم وقالوا : ثلاثون علجاً ، ما عسى أن يجيئ منهم ! »^(٢).

ويقول ابن عذارى : « فما زال المسلمون يضيقون عليهم حتى صاروا ثلاثين رجلاً ، وحتى فنت أزودتهم ولم يقتوتوا إلا بعسل يجذونه فى خروق الصخرة ، وأعمى المسلمين أمرهم فتركوهم »^(٣). وانصرف المسلمون عن بلاى وأصحابه ، فاطمأن المقام بهم واختلطوا بأهل هذه الناحية من الإيبيريين الرومان ، فأخذت أعدادهم تزايد ، وازداد أمرهم ثباتاً .

ومن الثابت أنه كان على رأس هؤلاء القوط الهاريين إلى « الصخرة » نفر من أهل بيت لذريق ونفر من كبار القوط وعدد آخر من القساوسة ورجال الدين الذين فضلوا الهجرة والعيش فى هذه النواحي القاصية على العيش فى البلاد التى فتحها المسلمون . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن نفراً من هؤلاء الهاريين أخذ يفارق صخور كتبرية ويعود إلى موطنه الأولى بعد أن اطمأن إلى عدل المسلمين^(٤) ، بل إن بعضهم تبع غيره من أهل البلاد ودخل فى الدين الجديد ، ولم تحدد لنا الروايات تاريخاً لذلك وإن كنا نظن أنه حدث خلال ولاية عقبة ابن الحجاج السلولى (أى بين سنتى ١١٦ و١٢١ هـ) .

(١) تسميها المراجع العربية فى الغالب « الصخرة » اختصاراً ، وقد ترجمها لافويتى إى ألكانرا EL-Roco عبارة للمسلمين فى تسميتهم . وهم يجعلونها فى جليقية Galicia خطأ ، إذ أنها فى كتبرية ، وهى أعلى قمم كتبرية ارتفاعاً وأبعدها إلى الشمال ، وهى الناحية التى تحصن بها بلاى ومن معه . وثابت من المراجع الإسبانية أن « بلاى » وأصحابه احتنوا من المسلمين فى مغارة أونجا (Cova de onga) الواقعة فى جبال « بيكوس دى ايروبا » ، وقد وصفها الكونت سان سو بقوله : « كتلة هائلة من صخر الجبل يبين الإنسان فيها ثلاث قمم : قمة إلى الشرق تسمى « أندارا » ، وثانية وسطى تسمى Bulnes ، وثالثة غربية تسمى قمة كوكا دونجا . ويبلغ متوسط ارتفاع الصخرة ٢٦٠٠ متراً .

cf: LE CONTE SAINT-SAUD : Monographie des picos de Europa. Etudes et Voyages, Paris 1923.

(٢) عيسى بن أحمد الرازى ، فى نفع الطب للمقرى : ج ٢ ، ص ٦٧١-٦٧٢ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

LEVI-PROVENÇAL : Histoire de l'Espagne Musulmane, I, p. 47 .

(٤)

١٣٦- مونوسة ولا نعلم على وجه التحقيق كيف حكم المسلمون ما فتحوه من نواحي كتبرية وجليقية مما يلي هذه الصخرة ، ولكن إشارات متناثرة هنا وهناك تدل على أنهم أنزلوا بها جماعات من المسلمين معظمهم من البربر ، وأقاموا هناك مرابطين ومستقرين ، وكان يرأس هذه الجماعات البربرية رؤساء من بنى جلدتها تتفق المراجع على ذكر واحد منهم هو مونوسة .

وقد سبق أن أشرنا إلى هذا الزعيم البربري عند كلامنا عن حملة عبد الرحمن الغافقي على غالة ، وبقي أن نستكمل الكلام عنه هنا ، إذ أنه كان أكبر قواد المسلمين في الركن الشمالي الغربي لشبه الجزيرة إذ ذاك .

وأقرب الآراء إلى الصحة في أمر مونوسة أنه كان من رؤساء الجند في جيش طارق بن زياد (١) ، والغالب أن موسى وطارقاً تركاه حاكماً على أشتريس وما يصاحبها من نواحي جليقية ، ثم امتدت منطقة نفوذه بعد ذلك حتى شملت شمال شبه الجزيرة كله (٢) ، فقد رأينا صلاته الوثيقة بالدوق أودو صاحب أقطانية وصهره معه ، وما كان لذلك الصهر من أثر على سير الأحداث في غالة .

ويستوقف نظرنا أن المراجع النصرانية الإسبانية تذهب إلى أن مونوسة تعلق بابنة بلاى وتزوجها ، كما أحب ابنة أودو وتزوجها (٣) ، كأنه كان ذالغ خاص بالوقوع في هوى بنات الأشراف والزواج منهن ! وقد علل بعض المؤرخين ذلك بافتراض وجود شخصين بنفس

SAAVEDRA, Estudio ... p. 70

(١)

ESTANSILAO RENDUELES LLANOS : Historia de la villa de Gijón desde los tiempos más remotos hasta nuestros días (Gijón, 1867) p.93:

(٣) عن علاقة مونوسة بابنة أودو انظر :

RODERIGO XIMENEZ DE RADA, Historia arabum. p.12

وعن علاقته بابنة بلاى انظر :

BARRAU DIHIGO : Royaume Asturien, pp. 117-118.

وورد في بعض الروايات أن ابنة أودو كانت تسمى لاميجيا ، ويبدو أن هذه التسمية من ابتكار القصاص . وأورد كوند عن هذه الحوادث رواية أكثر تفصيلاً زعم أنه استقاها من مراجع عربية ، ولم نستطع تحقيق روايته هذه لأننا لم نجد لها في أي من مراجعنا العربية ، وربما كانت من ابتكاره ، تاريخه مليء بأمثال هذه الابتكارات . وفيها إلى ذلك خلط ظاهر ، فهو يزعم أن تحقيقه هده إلى أن مونوسة إن هو إلا عنيسة (بن سحيم الكلبي وإلى الأندلس) وأنه نازع عبد الرحمن الغافقي على الولاية لأنه كان يعتقد أنه أحق بها منه . ويقول إنه بينما كان مونوسة في إحدى غاراته إذ وقعت عينه على لاميجيا فأنفذ بجيها وسمى حتى تزوجها ، وحالف أباه أودو . فلما أراد عبد الرحمن غزو غالة =

الاسم في هذه الناحية في ذلك الحين^(١) ، وهو أمر مستبعد . والأصح أن يقال إن علاقات مونوسة مع أودو وزواجه بابتته اختلط أمرها على بعض الرواة والقصاص ، فجعلوها مع بلاي ، وأطلق القصاص لخيالم العنان فقالوا إن مونوسة رأى ابنة بلاي وأعجب بها فاختطفها وتزوجها . ولا يبعد على أي حال أن يكون مونوسة قد تزوج بعض نساء ناحيته أو تسراهن فكان هذا أصل أسطورة مع ابنة بلاي^(٢) .

= عارضه مونوسة في ذلك وأخذ جانب حبه أودو ، وأبى عبد الرحمن أن يقر المحالفة التي عقدها مونوسة وقال له أن لا حلف بين المسلمين والنصارى وأن السيف وحده هو الحكم بينهم ، فسارع مونوسة وأبلغ أودو بعزم عبد الرحمن حتى يستعد له ويحمي بلاده منه . وقرر عبد الرحمن محاربة مونوسة عقاباً له على ما أخطأ في حقه وحق إخوانه المسلمين . وهاجمه على غرة ، ففر مونوسة أمامه وتحصن منه بالجبال مستصحباً معه زوجته لاميبيجا ، وما زال المسلمون يطاردونه من صخرة إلى صخرة حتى أنقلوه بالجراح ، اشتد به الجوع والإجهاد وتقاعس النصارى عن نصره بسبب أفاعيله معهم في أول أمره ، وانتهى أمره بأن سقط من شاهق واندقت عنقه فقطع المسلمون رأسه وبعثوا به إلى دمشق ، وأسروا لاميبيجا وأرسلوها إلى دمشق كذلك فضمها الخليفة إلى حريمه . وقد وقع ذلك لمونوسة في مكان يسمى بويكريدا Buycreda . وهي رواية مليئة بالخطأ لا نجد ما يؤيدها ، وإنما أوردناها لأنها تذكر أن مونوسة رأى ابنة أودو في إحدى غزواته فهم بها بالضبط كما حدث عندما رأى ابنة بلاي (على ما تزعم الأفايص) مما يدل على الوضع والاختراع فيما يتصل بعلاقة مونوسة ببلاي

cf : CONDE : Historia . I , 83.

LEVI- PROVENÇAL , Histoire de l'Espagne Musulmane . I , p. 42 .

(١)

وقد أنكر الأستاذ كوديرا وجود مونوسة إنكاراً تاماً ، وذهب إلى أن هذا اللفظ (Munuza) إن هو إلا تحريف لفظ ماسون (وبصحها كوديرا إلى Manresa) بليدة بجنوبي غالة غزاها الهيثم بن عبيد الكلابي كما يقول ابن عذارى (البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٧) وقال : إن القصاص ابتكروا القصة كلها ، فزعموا أن مونوسة كان زعيماً بربرياً وبنوا على زعمهم ذلك القصاص كله ، وهو رأى ضعيف لم يقره عليهم إلا بعض المؤرخين الإسبان مثل باليستروس ، وغالبيتهم اليوم لا تقره .

cf : F. CODERA : Manuza y el duque Eudon en Estudios historicos de historia arabe española, Zaragoza 1903. p. 135. Sqq .

BALLESTEROS : Historia ..., II, pp. 9-10

JUAN JAURGAIN : La Vasconie ..., p. 34

REINAUD : Invasions ..., pp. 36 Sqq

LEVI-PROVENÇAL : Histoire ..., I , pp. 42-43 et notes

(٢) وقد تحدث إيزيدور الباجي عن مونوسة في شيء من التفصيل فقال : إنه رجل من الجنس البربري uno ex Maurorum gente اشترك في فتح الأندلس وسار مع قوات المسلمين حتى أقصى الشمال وساهم في إخضاع ناحية شرطانية (Cerritania) في اللاتينية و Cerdana في الإسبانية) ، وأظهر قسوة بالغة حتى لقد حرق أنامبادي أسقف شرطانية حياً ، واجتهد في نصرة الإسلام ، حتى إذا ترامت إليه أخبار ثورة إخوانه البربر في إفريقية انقلب على العرب وحالف أودو دوق أقطانية ، فرحب به أودو وزوجه إحدى بناته ليضمن عونه وعون مَنْ معه من البربر :

Et quia filiam suam dux francorum nomine Eudo Causa Foederis ei in conjugio, ob persecutionem arabum differendam jam olim tradida

وكل ما يمكننا استخلاصه من تلك الروايات هو أن مونوسة كان زعيم المسلمين المستقرين في أقصى شمال شبه الجزيرة ، وأنه كان ذا نشاط وهمة ، فاتصلت الأسباب بينه وبين أودو من ناحية وبلاى من ناحية أخرى ، ونتيجة لطول الجوار نشأت بينه وبينها ، وأودو على الخصوص ، علاقات صداقة زادت وأصرها عندما وقع النفور بين العرب والبربر .

وهنا ينبغي أن نسأل : من هو بلاى هذا الذى تذكره النصوص وتنسب إليه أعمالاً كثيرة جعلته في الطليعة من شخصيات التاريخ الإسباني ؟ نبدأ بروايات المراجع النصرانية عنه لأنها أوثق صلة بهذا الموضوع : يذكر أقدمها - وهى رواية مدونة البلدة (Chronicon Albeldense) - أن بلاى كان ابن أمير قوطى يسمى برمودو (Vermudo) وابن أخى لذريق ، وأنه - أى بلاى - اختلف مع لذريق فنفاه هذا عن طليطلة قبيل دخول العرب البلاد ، فذهب إلى اشتريس وأقام نفسه أميراً عليها ، وأقام بلاطه في بلدية (Cangas = Canicas) تسعة عشر عاماً . ومات فيها سنة ٧٣٧^(١).

ورواية سبستيان السلمتى أكثر تفصيلاً ، فهى تذهب إلى أنه عندما غزا العرب الأندلس هلك معظم القوط بالسيف أو بسبب الجوع ، وأن من نجا من أفراد بيتهم المالك فر بعضهم إلى غالة ، ولجأ معظمهم إلى اشتريس ، حيث أقاموا على أنفسهم بلايو بن الدوق فايفلا أميراً ، وقد حكم بلاى تسعة عشر عاماً وتوفي سنة ٧٣٧ ، وألحد مع زوجته « جاؤذ يوسا » في كنيسة ساننا أوليالياد فيلابينو^(٢) . وتضيف مدونة سيلوس (Chronicon Silense) أن بلاى كان حامل سيف لذريق (Spatarius regis Roderici) ، وأنه هرب إلى اشتريس حينما غزا العرب البلاد وتشرذ في نواح غير معروفة منها (Vagabatur incertis Locis) يجمع الناس لحرب المسلمين ، فلما اكتملت له العدة نازهم وانتصر عليهم ، فأكبّره القوط لهذا وأقاموه عليهم أميراً^(٣).

وأما تاريخ إسبانيا العام (Crónica general de Espana) الذى صنفه ألفونسو العاشر المعروف بالعالم ، فيذهب إلى أن بلاى كان ابناً « لفافايلا » دوق كتبريه الذى كان

HUICI : Crónicas Látinas de la Reconquista. Chronicon Albeldense: I p. 157 . (١)

HUICI, op.cit . I. P. 206 . (٢)

HUICI, op.cit . II. P. 44 . (٣)

الملك اجيكا قد نفاه من طليطلة ، فمضى إلى تُودَه Tuy واستقر فيها حيناً ، وهناك مات بسبب ضربة عصا كانت قد أصابته من يد غيطة ، الذى كان يطمع في زوجته (أى زوج فافيليا) ، فلما صعد غيطة إلى العرش نفى بلاى من طليطلة ، وأراد أن يفتق عينيه ، ففر إلى كتثريه ، وهناك تزعم أهل هذه الناحية ، ودعاهم إلى الوثوب بالعرب ، واستطاع الانتصار عليهم في معركة عند مغارة أونجا (La Cueva de Onga) سنة ٧١٨م^(١) ويضيف لوقا التودى (Lucas Tudense) في تاريخ العالم (Chronicon mundi) قصة تعلق « مونوسة » - الأمير المسلم على هذه النواحي ، وكان مقيماً في خيخون - بإحدى بنات بلاى مما أدى إلى الخصومة بين الرجلين ، ووقعت الحرب بينه وبين المسلمين ، فأقامه القوط ملكاً عليهم قبل لقائه إياهم وانتصاره عليهم في « معركة مغارة أونجا » ، وتوفي في كانجاس سنة ٧٣١م بعد أن حكم ثمانية عشر عاماً ، ويذهب لوقا التودى كذلك إلى أن فافلة أبا بلاى كان ابناً لشندستو ، وربما زعم لوقا هذا رغبة منه في أن يجعل بلاى سليلاً للبيت القوطى^(٢).

وأما الروايات العربية عن أصل « بلاى » فأكثرها تفصيلاً رواية « ابن حيان » التى يقول فيها : « قال غير واحد من المؤرخين : أول من جمع فل النصرارى بالأندلس - بعد غلبة العرب لهم - علعج يقال له بلاى من أهل أشتريس من جليقية ، كان رهينة عن طاعة أهل بلده ، فهرب من قرطبة أيام الحربين عبد الرحمن الثقفى ، الثانى من أمراء العرب بالأندلس ، وذلك في السنة السادسة من افتتاحها سنة ٩٨ من الهجرة ، وثار النصرارى معه على نائب الحر ابن عبد الرحمن ، فطردوه وملكوا البلاد ، وبقي الملك فيهم إلى الآن »^(٣).

ويذهب صاحب « الأخبار المجموعة » إلى أنه كان جليقياً من أهل أشتريس^(٤) ، ويؤيده

(١) Primera Cronica General de Espana (Madrid, 1906) pp.303-499 .

(٢) LUCAS TUDENSE . Chrocion Mundi. apud :

SCHOTT : Hispaniae illustratae Scriptores varii : 17 n . 2-220,695 n. I .

(٣) ابن حيان برواية المقرئ ، نفع الطيب : ج ٢ ، ص ٦٧١ .

(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٦١ .

ونص عبارتها : « فثار أهل جليقية على المسلمين ، وغلظ أمر علعج يقال له « بلاى » قد ذكرناه في أول كتابنا ، فخرج من « الصخرة » وغلظ على كورة (هنا كلمة أسقطها الناسخ ولم يلاحظ ذلك الناشر) واشتريس ... » وقد جعل تاريخ هذا الحادث (سنة ١٣٣ هـ / ٧٤٠م - ٧٤١م) ولما كان من الثابت أن بلايه توفي سنة ٧٣٧م (حوالي ١٣٠ هـ) فإن لا فوييتى إى الكائنات في تعليقاته على الترجمة الإسبانية للأخبار المجموعة يذهب إلى أن مؤلف « الأخبار » يخلط في هذه الفقرة بين أعمال بلاى وأعمال أذفوتش بن بيطره ... وهو رأى معقول .

انظر الترجمة الإسبانية للأخبار المجموعة ، ص ٦٦ هامش ٥ .

ابن خلدون في رأيه هذا . ويقول : « إن أمم النصرانية أجمعت أمام المسلمين إلى سيف البحر من جانب الجوف ، وتجاوزوا الدروب وراء قشتالة واجتمعوا بجليقية ، وملكوا عليهم بلايه ابن فافلة ، فأقام ملكاً فيهم تسع عشرة سنة ، وهلك سنة ١٣٣ ، وولى ابنه فافلة سنتين ، ثم هلك فولوا عليهم بعدهما أذفونش بن بيطره الذى اتصل الملك في عقبه إلى اليوم ، ونسبهم في الجلالقة من العجم كما تقدم ، ويزعم ابن حيان أنهم من أعقاب القوط ، وعندى أن ذلك ليس بصحيح ، فإن أمة القوط قد دثرت وغبرت وهلكت ، وقُلَّ أن يرجع أمر بعد اندثاره وإنما هو ملك مستجد في أمة أخرى والله أعلم^(١) . أى : أنه يقرر مع المقرئ وصاحب الأخبار المجموعة أن بلاى جليقى من أهل الشمال ، وليس قوطياً ، وتلاحظ أن ابن خلدون لا يؤيد رأيه إلا بدليل استخرجه من فلسفته ، فلا يمكن - في رأيه - أن يكون الرجل قوطياً ، لأن ملك القوط قد اندثر ، ولا يمكن أن يقوم أمر أمة اندثرت ، وسنرى أن قانونه لم يصدق هذه المرة .

١٣٨ - كوفادونجا ولم يكن أحد من المؤرخين ليتنبه إلى « بلاى » هذا لو لم يقترن اسمه بصراع قصير مع العرب أعانه الحظ على التوفيق فيه ، فانتصر عليهم وأبعدهم عن النواحي التى كان يسطر عليها سلطانه . وقد بالغت المراجع النصرانية في تصوير هذا النصر ، وجعلته شيئاً أشبه بالفتح العظيم ، وزاده مؤرخو الإسبان تقديراً وإجلالاً مع الزمن ، فجعلوه بدءاً لصراعهم لإخراج المسلمين من بلادهم ، وإيداناً بميلاد إسبانيا النصرانية من جديد . ومن هنا أهميته التى تحدونا إلى أن نقف عنده وقفة تتفق مع قدره في التاريخ الإشباني عامة .

تكاد المدونات اللاتينية الإسبانية كلها تُجمع على ذكر هذا الانتصار ، وإن اختلفت فيما بينها في التفاصيل وتحديد التواريخ اختلافًا بيناً .

ومصدر هذه الروايات النصرانية كلها قصة طويلة أوردها « مسبتيان السلمنتى » في تاريخه يقول فيها : « إن بلاى حينما انتهى به المطاف إلى ناحية « الصخرة » أعلن نفسه أميراً على ما يجاورها من النواحي واتخذ قرية كانجاس (Cangas = Canicas) مركزاً لأعماله ، وهناك أعلن الثورة على العرب وصارحهم بالعداء ، فأرسل إليه المسلمون جيشاً كبيراً يقوده

(١) أورده «دوزى» نص ابن خلدون في ملاحق أبحاثه :

cf : DOZY : Recherches (3e éd. 1881) I, appendice III, pp. X, XI.

قائد من كبار قوادهم يسمى علقمة^(١)، فغزا اشتريس وتوغل في أرضها، فلما سمع بلاى بذلك تحصن في جبل أوسبة Auseva في مغارة القديسة مارية Cova Sanctae Mariae التى تسمى كذلك «مغارة أونجا» فحاصره المسلمون وضيقوا عليه، وكان معهم أبه (Oppas)^(٢) أخو غيبيشة الذى انضم إلى المسلمين لأشياء نعمها عليه. فمضى أبه إلى بلاى، وحاوره محاولاً إقناعه بالتسليم للمسلمين، وأورد لنا سباستيان نص هذه المحاوراة مفصلاً، فلم يفلح في إقناعه، فإذ فشلت هذه المحاولة فقد قام المسلمون بهجوم عنيف على الجبل والمغارة بالمعالول (Fundibala) والسهام، وهنا حدثت معجزة: إذ كانت السهام ترتد نحو المسلمين أنفسهم! وانتهت المعركة بهزيمة المسلمين وقتل ١٢٤ ألفاً منهم، فيهم القائد علقمة نفسه، وأخذ «أبه» أسيراً ونجا من المسلمين ثلاثة وستون ألفاً فروا هاربين، فنسلقوا جبل أوسبة وانحدروا من الناحية الأخرى، وساروا في خانق في الجبل يسمى خانق أنكورا (El Tajo de Ancora) وانحدروا إلى إقليم ليبانا (Liebana)، وهنا حدثت معجزة أخرى: إذ أن الجبل انهار من الناحية المشرقة على مصب نهر الديفا (Deva) فطمر بقية المسلمين^(٣).

وتلى رواية سباستيان في الأهمية والطول رواية «مدونة البلدة» التى تذهب إلى أن ثورة بلاى حدثت في أيام يوسف الفهرى، وكان مونوسة حاكماً على أشتريس في ذلك الحين ومقياً في ليون، فسار نحو بلاى جيش إسلامى يقوده رجل تسميه المدونة ألقمان أو ألومان (Alcaman = Aloaman = علقمة؟) وكان معه «أبه» فانهزم المسلمون وأسير «أبه»، ومات مونوسة بعد ذلك بزمن. وأما الذين نجوا من القتل فقد هلكوا بناحية ليبانا

(١) لم يرد ذكر علقمة للخمى هذا على صورة صريحة في مراجعنا الإسلامية. ولكن وجود ابنه عبد الرحمن وتمام يزيد وجوده في الأندلس أوائل أيام الفتح، فقد كان أولها قائداً لقوات المسلمين في جنوبى غالة وكان من كبار اليمية، وقد قام بدور كبير في الحروب بين الشاميين والبلديين. وهو الذى قتل بلع بن بشر في معركة «أقوة برطورة»، ويصفه صاحب «الأخبار المجموعة» بأنه كان: «بعد فارس أهل الأندلس» وأنه «كان فارس نجدة مع جودة الاتقاء، وعليه سلاح كريم لا يبيك فيه سيفٌ حصين (بن الدجن العقيل)، وانظر الأخبار المجموعة ص ٤٣-٤٤. وكان الثاني من كبار موالى بنى أمية في الأندلس، وكان من الأعمدة التى أقامت ملك عبد الرحمن الداخل، راجع نفس المصدر: ص ٧٥ وما بعدها.

وابن الأبار: الحلة السبراء، ص ٣٣ وما بعدها.

(٢) هذه هى الصورة العربية لاسم Oppas كما أوردتها صاحب الأخبار المجموعة (انظر ص ٨) وهو أحد ابني غيبيشة Witiza ملك القوط الذى غصبه لذريق العرش. وقد سباه ابن القوطية «عباس».

(٣) AMBROSIO HUICI: Las Cronistas de la Reconquista, I (Valencia 1913). Sebastiani(3) Chronicon. Pelagius p. 206.

(Liebana) إذ انهار عليهم الجبل بإرادة الله^(١).

وورد ذكر الواقعة كذلك في « مدونة سيلوس » ، ولكن ما فيها إن هو إلا تكرار لما قاله سبستيان السلمنتي و« راهب البلدة » مع إضافات يسيرة . منها أن ثورة بلاى حدثت في بلدية (Cangas) ، وهو يسمى علقمة (Alchaman) ويقدر العرب ببائة وسبعة وثلاثين ألفاً ، ويذكر أن معجزة انهيار الجبل حدثت على مقربة من نهر الديفا بناحية ليانا ، وأن مونوسة كان مقيماً ببلدة خيخون فهرب عندما سمع بخبر الهزيمة ، وقتله أهل هذه النواحي في قرية أولاليس (Olalies)^(٢).

وتكتفى مدونة كمبستيلة (Compastela) بالقول بأن بلاى طرد المسلمين من هذه الناحية واحتلها^(٣) ، في حين لا تزيد مدونة « شرطانية » على أن المسلمين سادوا شبه الجزيرة كله إلا « مغارة مارية المقدسة »^(٤).

أما مراجعنا الإسلامية فقد أشارت إلى وثوب بلاى بالمسلمين في ناحية « الصخرة » ومحاولتهم القضاء عليه وهزيمته إياهم . وإشاراتها كلها موجزة غير دقيقة التحديد ، ولكنها تدل على فهم أصحابها لأهمية الدور الذي لعبه بلاى في تاريخ دول إسبانيا النصرانية والإسلامية أيضاً ، وما ترتب على نهوضه في وجه المسلمين وحره معهم من النتائج البعيدة في تاريخ شبه الجزيرة كله : فعيسى بن أحمد الرازى يقول : « وفي أيام عنبسة بن سحيم الكلبى قام بأرض جليقية عالج خبيث يقال له « بلاى » من وقعة أخذ النصرارى بالأندلس ، وجدَّ الفرنج في مدافعة المسلمين عما بقى بأيديهم ، وقد كانوا لا يطمعون في ذلك »^(٥) مما يُفهم منه أن الرازى كان يعتبر « بلاى » منشئ حركة المقاومة النصرانية ومجدد دولة النصرانية في الأندلس من جديد بعد تفرُّق أمرها على أول أيام الفتح ، وأن نهوضه بأمرها كان الحجر الأول في بنائها الجديد ، فقد قوى شأنها بعد ذلك ، ونهض أهلها إلى مدافعة المسلمين عما استولوا عليه ، بعد أن كانوا لا يطمعون في ذلك قبل ظهور « بلاى » .

ولابن حيان - عميد المؤرخين الأندلسيين - رواية أخرى أدل على شخصية بلاى وقدره

(١) A. HUICI : op. cit. Chronicon Albeldense . I.p. 159.

(٢) A. HUICI : op. cit. Monachi Silensis Chronicon, II,p. 50 .

(٣) A. HUICI : op. cit.Chronicon ex Historiae Compostellanae Codice I,P.80.

(٤) A. HUICI : op. cit.Chronicon Cerratensis, I,p.90 .

(٥) عيسى بن أحمد الرازى برواية القرى : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٦٧١ .

يقول فيها : « أنه في أيامه - أي أيام عنبة بن سحيم الكلبى - قام بجليقية عالج خبيث يدعى «بلاى» ، فعاب على العلوج طول الفرار ، وأذكى قرائحهم حتى سما بهم إلى طلب الثأر ، ودافع عن أرضه ، ومن وقته أخذ نصارى الأندلس في مدافعة المسلمين عما بقى بأيديهم من أرضهم والحماية عن حريمهم ، وقد كانوا لا يطمعون في ذلك . وقيل : إنه لم يبق بأرض جليقية قرية فما فوقها لم تفتح إلا «الصخرة» التى لاذ بها هذا العالج ، ومات أصحابه جوعاً ، إلى أن بقى في مقدار ثلاثين رجلاً ونحو عشر نسوة ، وما لهم عيش إلا من غسل النحل يجمعونه في جباخ معهم ، في خروق الصخرة . وما زالوا ممتنعين بوعرها إلى أن أعى المسلمين أمرهم واحتقروهم ، وقالوا : ثلاثون علجاً ما عسى أن يجيء منهم .. »^(١) مما يُفهم منه أن «بلاى» كان شهياً شجاعاً ، فهاله تراجع قومه المستمر أمام المسلمين ، فنهض يستنهض همهم «ويذكى قرائحهم حتى سما بهم إلى طلب الثأر» وهى عبارة عظيمة المعنى والدلالة ، بل إن أحداً من مؤرخى إسبانيا النصرانية القدماء لم يقل مثل هذا القول الذى يحدد دور «بلاى» كواضع أساس حركة «الاسترداد» وصاحب الفضل الأول فيها .

وربما كان مؤرخانا الأندلسيان الكبيران - الرازى وابن حيان - أصدق نظراً وأصح تقديراً لبلاى من عامة من تناول الحديث عنه من أصحاب المدونات النصرانية ، الذين لا تخرج رواياتهم عن مبالغات وتفصيل بعيدة التصديق عن انتصار بلاى على المسلمين عند مغارة أونجا عند سفح جبل أوسبة (Auseva) ، وهو انتصار محقق لا تنكره الرواية الإسلامية ، ولكن مبالغات الروايات النصرانية تلقى عليه ظلاً من الشك ربما قلل من قيمته .

يقول صاحب «الأخبار المجموعة» بعد أن يشير إلى ظهور بلاى في ناحية الصخرة : « .. وغزاه أهل أستورقة زماناً طويلاً ، حتى كانت فتنة أبى الخطار وثوابة ، فلما كان في سنة ثلاث وثلاثين ومائة هزمهم وأخرج (يريد : أخرجهم) عن جليقية كلها ، وتصر كل مذذب في دينه وضعف عن الخراج^(٢) . وقُتل من قتل ، وصار قُلُوبهم إلى خلف الجبل إلى أستورقة ، حتى استحکم الجوع فأخرجوا أيضاً المسلمين عن أستورقة وغيرها ، وانضم المسلمون إلى ما وراء الدرب الآخر ، وإلى قورية وماردة في سنة ست وثلاثين » . ويقول بعد

(١) رواه المقرئ في نفع الطبيب ، ج٢ ، ص ٩ - ١٠ .

(٢) هكذا في الأصل ، ولا يستقيم المعنى إلا إذا استغنيا عن حرف الجر « عن » .

قليل: « وكاد أن يغلب عليهم - أى على المسلمين - العدو، إلا أن الجوع شملهم »^(١).
ونستخلص من روايته هذه الحقائق الآتية:

أولاً - أن « بلاى » خرج على المسلمين في ناحية الشتريس واستقل بها في ولاية عنبسة بن سحيم الكلبي .

ثانياً - أن جند المستلمين القائم في أستورقة حاولوا إخضاعه « زماناً طويلاً » دون أن يُوفقوا .

ثالثاً - أن حركة الرجل أخذت في النمو، حتى إذا وقعت فتنة أبي الخطار، واشتغل المسلمون بحربه مع يوسف الفهرى والصميل بن حاتم انتهز الرجل الفرصة وضاعف جهده، فهزم المسلمين هزيمة أخرجتهم عن جليقية جملة .

رابعاً - أن صدى هذه الهزيمة تردد في نواحي جليقية كلها، فعاد بعض من كان أسلم من أهلها إلى النصرانية، وضعف الخراج تبعاً لذلك .

خامساً - أن أهل هذه الناحية انقلبوا على المسلمين فقتلوا منهم من استطاعوا قتله، وفرَّ الباقى إلى أستورقة، ليحتموا بالعسكر الإسلامى المقيم هناك .

سادساً - ولم يُضِع بلاى الفرصة، فتقدم وأخرج المسلمين من أستورقة واستولى عليها .

سابعاً - وانسحب مسلمو هذه النواحي عن طريقين: طريق الغرب إلى إقليم سرقسطة وطريق الجنوب إلى ماردة وقورية .

وسنرى بعد قليل أن صاحب « الأخبار المجموعة » خلط بين أعمال « بلاى » وأعمال « أذفونش الأول »، وأن عمل بلاى لم يتعد الحقائق الأربع الأولى .

ويقول صاحب فتح الأندلس: « وقام عليج خبيث من أعيانهم في أيام عنبسة هذا بأرض جليقية اسمه بلايه بن فافلة على من كان يملك أطراف جهته من العرب، فنفاهم عنها . فملك سنتين، ثم ملك ابنه فافلة يعده إلى سنة ثلاث وثلاثين ومائة، ثم هلك فاستولى على أهل جليقية بعده أذفونش بن بيطره جد بنى أذفونش هؤلاء الذين اتصل أمرهم إلى اليوم »^(٢).
وهى رواية مختصرة فيها خطأ كثير في نسب بلايه وفي تحديد التواريخ، ولكنها تقرر أن بلاى

(١) الأخبار المجموعة، ص ٦٢ .

(٢) فتح الأندلس، ص ٢٩ .

كان مستقلاً بناحيته عن المسلمين ثم ثار على من بأطراف هذه الناحية من العرب ، فهزمهم وطردهم عنها .

وللمقرى رواية لا تقل عن هذه أهمية ، وإن لم يسندها إلى أحد ، وذلك حيث يقول :
 «قال غير واحد من المؤرخين : أول من جمع قل النصرارى بالأندلس بعد غلبة العرب لهم عالج يقال له «بلاى» من أهل اشتريس من جليقية ، كان رهينة عن طاعة أهل بلده ، فهرب من قرطبة أيام الحرب بن عبد الرحمن الثقفى ، الثانى من أمراء العرب بالأندلس ، وذلك فى السنة السادسة من افتتاحها ، وهى سنة ثمان وتسعين من الهجرة ، وثار النصرارى معه على نائب الحرب بن عبد الرحمن فطردوه ، وملكوا البلاد ، وبقي الملك فيهم إلى الآن»^(١).

وهى إشارة هامة تعيننا على تكوين فكرة عن حياة بلاى قبل لجوئه إلى الصخرة وقيامه بالثورة على المسلمين ، وهى تحدد هروب بلاى من أيدي المسلمين بسنة ٩٨هـ / ٧١٨م وهو تحديد سيعيننا على ربط أحداث حياته بعضها ببعض .

وقبل أن نستخلص من هذه الروايات كلها سلسلة واحدة مترابطة الحلقات عن حياة «بلاى» وحركاته ، يجدر بنا أن نناقش التواريخ التى تقدمها لنا هذه الروايات .

ليس من اليسير مناقشة التواريخ المتضاربة التى يقدمها إلينا المؤرخون عن هذه الحوادث ، لأن المؤرخين النصرارى الذين يتحدثون عنها يختلفون فيما بينهم اختلافاً عظيماً ، فيجعلها «سبستيان» فى أوائل أيام الفتح ، لأنه يذكر أن قائد البعث الإسلامى المهزم كان «علقمة» وهو من قواد طارق بن زياد ، فى حين يجعلها صاحب «مدونة البلدة» فى ولاية يوسف الفهرى ، أى بين سنى ١٢٩-١٣٨هـ / ٧٤٦ و٧٥٦م . أما مؤرخونا الإسلاميون فلا يكادون يتفقون هم الآخرون فيما بينهم ، فابن حيان والرازى يجعلان ثورة «بلاى» أثناء ولاية عنبسة بن سحيم (١٠٣-١٠٧هـ / ٧٢١-٧٢٥م) ، فى حين يجعلها صاحب «الأخبار المجموعة» فى بدء ولاية عقبه بن الحجاج السلولى (١٢٢هـ / ٧٤٣م) ويكتفى المقرى بالقول بأن بلاى هرب من قرطبة سنة ٩٩هـ / ٧١٧م ، وأنه كان فى اشتريس فى العام التالى (١٠٠هـ / ٧١٨م) ، دون أن يزيد على ذلك شيئاً . أما هزيمة بلاى للعرب فيجعلها صاحب الأخبار المجموعة وصاحب فتح الأندلس فى أثناء ثورة البربر على العرب أى فى أوائل فتنه أبى الخطار والسميل ، أى بعد سنة ١٣٣هـ / ٧٥٠-٧٥١م.

(١) المقرى : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٦٧١ .

وقد حاول إدواردو سافدرا أن يستخلص من هذه التواريخ المتناقضة رأياً لا بأس من إيراده ، لأنه يمثل الرأي المتبع بين عامة المشتغلين بتاريخ هذه الأحداث من الإسبان المحديثين .

يقول « سافدرا » : إن رواية المقرئ صريحة في أن بلاى هرب إلى صخرته (picos de Europa) في سنة ٧١٧م ، وأنه كان هناك فعلاً في سنة ٧١٨م في ولاية الحر بن يوسف ، ويعود ابن حيان والرازي فيؤكدان أن بلاى قام بثورته في ولاية عنبسة ، أى بين سنتي ٧٢١-٧٢٥م ، وهذا تاريخ معقول ، لأن بلاى لابد أن يكون قد أنفق هذه السنوات في جمع الأنصار والقيام بغارات صغيرة ومناوشات مع المسلمين أقلقت بهم ، فكفروا في إرسال بعث لتأديبه والقضاء على حركته .

وحيث إن سبستيان يذكر أن وقعة « كوفادونجا » كانت في أوائل أيام الفتح ، لأنه يذكر اسم القائد علقمة - الذى تؤيد المراجع العربية وجوده في هذه الأيام - فإن أقرب الفروض إلى الصحة أن علقمة هذا سار لحرب بلاى في ولاية عنبسة ، وهناك حدثت الوقعة ، وانهمز هذا البعث الإسلامى ، واستشرى أمر بلاى بعد ذلك ، ولكن ظروف المسلمين لم تسمح بإرسال قوة لتأديبه إلا بعد ذلك بنحو اثنتى عشرة سنة ، أى في ولاية عقبه ، وهذا ما أشارت إليه المراجع الإسلامية من قيام عقبه بن الحجاج بحملة تأديبية تبعت بلاى ورجاله بالحرب حتى كادت تفنيهم ، ورجعت وهى تظن أن الرجل وأنصاره لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة ، ولهذا اختفى اسم بلاى حتى من المراجع النصرانية ، فلم نجد له ذكراً إلا سنة ٧٣٧م ، وهو عام وفاته الذى تحدده المراجع النصرانية^(١).

ولنا على هذا الرأي استدراك:

ذلك أن سبستيان السلمتى لم يحدد تاريخاً لواقعة « كوفادونجا » وإنما ذكر أنها كانت في أوائل أيام الفتح ، فليس هناك ما يدعو إلى القول بأنها حدثت أثناء ولاية عقبه بن الحجاج بالذات . وربما كانت أيام عقبه هى أبعد الأيام احتمالاً لوقوع هزيمة إسلامية على يد النصارى فى الأندلس ، لأن الرجل كان محارباً لا يمل القتال ، وقد استفد أيامه فى الحروب مع النصارى ، وظل يتبع الثائرين فى جليقية حتى خيل إليه أنه قضى على كل أمل لهم فى القيام على المسلمين من جديد ، ثم انصرف بعد ذلك إلى الناحية الشمالية الشرقية ودخل

بنبلونة^(١) وما يليها من البلاد شمالاً ، ولو قد هزم له بعث على يد بلاى لما انصرف عنه ولو اصل قتاله . والثابت من الروايات النصرانية والإسلامية أن بلاى تتبع المسلمين بعد انتصاره عليهم حتى أخرجهم من بلاده ، ولا يمكن أن يكون ذلك قد وقع على أيام عقبة . والمراجع الإسلامية صريحة كذلك في أن بلاى طارد المسلمين وأخرجهم من بلاده أثناء فتنة أبي الخطار والصبيل أى : بعد سنة ١٣٣هـ / ٧٥٠-٧٥١ ميلادية .

بيد أن هذا لا يتفق وما تجمع عليه الروايات النصرانية من أن « بلاى » توفي سنة ٧٣٧ ميلادية ، وهى فى مجموعها لا تستند على دليل واحد يؤيدها فى هذا التحديد . بل إن الفونس العاشر يجعل وفاته قبل ذلك بست سنوات أى سنة (١٢١هـ / ٧٣١م) أى أثناء ولاية عقبة ابن الحجاج السلولى ، مما يدلنا على أن تحديد تاريخ وفاة بلاى بهذه السنة لم يخل من أن يناقضة مؤرخ مطلع كهذا الملك العالم ، الذى قرأ كل التواريخ التى كُتبت قبله ولم يقر ما أجمعت عليه .

ثم إن ابن خلدون - وقد اعتمد على الرازى وابن حيان فيما كتب من تاريخ ملوك الجلالقة - يجعل وفاة بلاى سنة ١٣٣هـ / ٧٥٠-٧٥١م أى فى نفس السنة التى يؤكد صاحب الأخبار المجموعة أن بلاى هزم المسلمين فيها وأخرجهم من جليقية . ولما كان الرازى وابن حيان وصاحب الأخبار المجموعة هم أقدم من حفظ لنا أخبار هذه الفترة البعيدة ، فإننا أميل إلى الأخذ برأيهم ، ومتابعتهم فى القول بأن واقعة كوفادونجا وقعت سنة ١٣٣هـ / ٧٥٠-٧٥١م أثناء فتنة أبي الخطار والصبيل ، وأن « بلاى » لا بد أن يكون قد توفي بعد ذلك بقليل ، فى أواخر ٧٥١م على الأرجح^(٢).

وقد لاحظ دوزى أن التواريخ التى تحددها المدونات اللاتينية لأحداث هذه الفترة

(١) يقول ابن عذارى عن أعمال عقبة الحربية : « وهو الذى فتح مدينة أربونة ، وافتح جليقية وبنبلونة وأسكنها المسلمين . وسمت فتوحاته جليقية كلها غير « الصخرة » ، فإنه لجأ إليها ملك جليقية وكان بها ثلاثمائة راجل فما زال المسلمون يضيقون عليهم حتى صاروا ثلاثين رجلاً وحتى نبت أزودتهم ، ولم يتقنوا إلا بعسل يجذونه فى خروق الصخرة ، وأعصى المسلمين أمرهم فتركهم ، وأقام عقبة بالأندلس بأحسن سيرة وأجملها وأجمل طريقة وأعدفا إلى أن غزا أرض إفرنجة ... - البيان المغرب ، ج٢ ، ص ٢٩ ، وليس فى هذا كله إشارة إلى هزيمة ، ولا احتمال انكسار أى بعث إسلامى .

(٢) نذهب « مدونة البلدة » إلى أن كوفادونجا وقعت سنة ٧٥٦م أى : أثناء الصراع بين عبد الرحمن الداخل وبوسف القهرى ، وقد أخذ بروايتها ماسديو ، فذهب إلى أن الواقعة حدثت فى تلك السنة .

لا يمكن تأييدها، وفضل عليها روايتي الرازي وابن حيان، ولم يرض كذلك عن التواريخ التي قدمها ابن خلدون، وختم كلامه عن موضوع تاريخ حوادث هذه الفترة بقوله: «إنه لمن العسير جداً - إن لم يكن من المحال - أن نحل إشكالاً من هذا النوع، إذ ينقصنا الخيط الذي يدلنا على طريق الخروج من هذه المتاهة»^(١).

وهو على حق، فليس لدينا ما يقنعنا بقبول ما تجمع عليه غالبية المراجع النصرانية من جعل وقعة كوفادونجا سنة ٧١٨م وجعل وفاة بلاي سنة ٧٣٧م ولا يذكر لنا مؤرخونا الإسلاميون هذه الواقعة محددة باسم أو بتاريخ ولو تقريبيين لها. ثم إن منطق الحوادث لا يستقيم إذا نحن فرضنا أن بلاي هزم المسلمين على أيام عنبة أو على أيام عقبة: فلو قلنا إن الهزيمة وقعت في أيام عنبة لضاعت قيمتها كنصر حاسم رد المسلمين عن بلاد أشتريس، لأن عقبة أتى بعد ذلك وغزاها حتى ألجأ بلاي إلى «الصخرة» ولم يبق له إلا على عدد قليل من الأنصار، أي أن «كوفادونجا» لم تكن الوقعة الفاصلة التي ردت المسلمين عن تعقب النصارى، بل عادوا إليها وأوغلوا أكثر مما فعلوا من قبل، وانصرفوا عنها بعد ذلك بسنوات من تلقاء أنفسهم، لأن عقبة اضطر إلى مغادرة الأندلس إلى إفريقية، كما يقول باليسترورس^(٢)، فلا يكون والحالة هذه لكوفادونجا ولا لبلاي فضل في ارتدادهم أو في ميلاد أشتريس، ولا تكون «كوفادونجا» والحالة هذه إلا مناوشة خسرها المسلمون وعادوا بعدها إلى الظفر.

ولما كانت الروايات النصرانية وما بين أيدينا من الروايات الإسلامية تُجمع على أن انتصار بلاي على المسلمين كان حاسماً، وأنه أعقبه إخراجهم من جليقية، فلا مفر لنا من القول بأن هذا الانتصار حدث بعد أيام عقبة، وفي أوائل فتنه أبي الخطار وثوابه بن سلامة العاملي أي في سنة ١٣٣هـ/ ٧٥٠-٧٥١م أو فيها بعدها، ولا محيص لنا في هذه الحالة من جعل وفاة بلاي بعد ذلك بقليل في نفس السنة، تمشياً مع تحديد ابن خلدون لسنة وفاته.

فإذا انتهينا من تقرير أحداث حياة «بلاي» وتحديد تواريخها، فلنعرض حياته وما قام به من الأعمال مستخلصة من مجموعة ما لدينا من المراجع الإسلامية والنصرانية.

DOZY, Recherches, I, p.96.

(١)

BALLESTEROS, Historia ..., II, p. 181.

(٢)

وهو خطأ: لأن عقبة أقام بالأندلس حتى انتهت ولايته نهاية غير واضحة، وقد تبعت مرجعه الذي أشار إليه، وهو الأخبار المجموعة، فلم أجد فيه ذكراً لهذا، لا في الأصل ولا في الترجمة الإسبانية ولا في التعليقات عليها: الأصل العربي: ص ٢٨، الترجمة الإسبانية: ص ٣٨ - ٣٩.

نستطيع أن نقبل ما يذكره ألفونس العاشر - الملك العالم - من أن « بلاى » كان ابناً لفافيلادوق كنتبرية ، وأن فافيلاد (Fafila) هذا كان قد استقر في توده (Tuy=Tude) - عاصمة كنتبرية في ذلك الحين - بعيداً عن البلاط القوطى في طليطلة ، لأن نزاعاً قام بينه وبين الملك « اجيكا » (Egica) فلما مات هذا الأخير وخلفه غيطةشة ، تجدد النزاع بينه وبين « فافلة » ، إما لأن غيطةشة طمع في زوج فافلة (أم بلاى) أو لسبب آخر ، والمهم هو أن النزاع ثار بين الرجلين ، وفرّ فافلة مرة أخرى إلى كنتبرية حيث مات هناك مخلفاً ابنه « بلاى » .

فلما وثب لذريق بغيطةشة وآله ، انضم إليه « بلاى » وأعان على إدراك العرش ، فكافأه على ذلك بأن جعله « حامل سيفه » (spatarius) واستمر « بلاى » على هذا حتى فتح العرب الأندلس ، فكان ممن وقعوا في أيديهم أسرى ، فاحتفظوا به لديهم في قرطبة رهينة .

ولما كانت أيام الحر بن عبد الرحمن بن يوسف الثقفى ، عامل الأندلس بين سنتى ٩٧ و١٠٠هـ / ٧١٧-٧١٩م. أمكتت بلاى الفرصة ، وفرّ من قرطبة ، وتشرّد في نواحي شهل الأندلس فترة من الزمن ، وتقل في أشتريس حتى استقر به المقام في بليدة « كانجادى أونيس » ، وهناك التف حوله نفر من القوط المهاربين من المسلمين ونفر من الإيبيريين الرومان المقيمين في هذه الناحية ، فأخذ يحرضهم على الوثوب بالعرب ، ويعيب عليهم طول الاستسلام والتراجع أمام المسلمين حتى استنهضهم ، وجمعهم على الوثوب بهم .

وكان عامل المسلمين على نواحي أشتريس القائد البربرى « مونوسة » ، فوقعت بينه وبين بلاى مناوشات ، وظل مونوسة يحاربه ويطارده حتى ألجأه إلى التحصن « بالصخرة » في عدد قليل جداً من أنصاره ، ولو ظل مونوسة مكانه لفضى على بلاى في ذلك الحين ولكن نزاعاً وقع بينه - أى بين مونوسة - وعبد الرحمن الغافقى ، فحاربه وما زال به حتى قتله على يد قائده البربرى « ابن زيان » سنة ١١٣هـ / ٧٣١م.

وخلا الجو أمام « بلاى » بذلك ، فتشجع وخرج من « الصخرة » وأخذ في التوسع حتى استولى على خيخون التى كان « مونوسة » يقيم فيها ، وبسط سلطانه على إقليمى أشتريس وكنتبرية ، واتسع ملكه ، وأخذ ينازع من جاوره من الأذواق ، حتى شمل سلطانه جزءاً من جليقية وناحيتى أشتريس وكنتبرية .

فلما ولى الأندلس عقبه بن الحجاج السلولى (١١٦-١٢٣هـ / ٧٣٤-٧٤١م) تجرد

للقضاء على هذه الدولة التي قامت في وجه المسلمين في شمال الأندلس وأخذت تنتقص من سلطانهم على شبه الجزيرة ، فما زال يحارب بلاى ويقطع أراضيه جزءاً جزءاً حتى رده إلى « الصخرة » كما كان ، وأدخل الكثيرين من أهالي أشتريس في الإسلام ، وكادت الدولة الناشئة أن تنهار وينتهى أمرها .

ثم ساعفتها المقادير بما وقع من الخلاف بين اليمنيين والقيسيين في الأندلس عقب وثوب عبد الملك بن قطن ومن معه من اليمنية بعقبة وانتزاعهم الأمر من يده ، فتنفس بلاى ومن معه الصعداء ، وأخذوا يغادرون الصخرة ويتشرون فيها والاهما من نواحي أشتريس .

ووقعت في أثناء ذلك الفتنة البربرية ، واشتد الصراع بين العرب والبربر في نواحي شبه الجزيرة كلها ، وكان عقبه قد خلف على أشتريس علقمة اللخمي ومعه قوة من الجند تقيم في استورقة (Astorga=Asturicum) أو في ليون (Leon=Legio) فهال علقمة ومن معه ما رأوا من تقدم بلاى وأصحابه في أرض المسلمين ، فنهضوا إليهم في قوة يسيرة ، وتوغلوا في بلادهم حتى أدركوا الصخرة ، وتحصن بلاى منهم في جبل أوسبة (Auseva) واحتفى نفر من أنجاد جنده في مغارة كبيرة تسمى « مغارة أونجه » (Covadunga = Cova de Onga) أو « مغارة مارية المقدسة » ، فلما أراد العرب اقتحام الجبل والصعود إلى المغارة هبط عليهم بلاى وأصحابه فهزموهم ، وقتلوا علقمة ، وارتد المسلمون مسرعين نحو استورقة وشردت جماعة منهم ، ومضت تضرب في نواحي اشتريس القاحلة حتى نزلت ناحية ليبانا Liebana حيث هلكوا ، إما على يد الجلالقة أو لسبب آخر . وتشجع بلاى وأصحابه فتقدموا واستعادوا ما كانوا فقدوه ، وعاد أمرهم كما كان ، وأتاح المسلمون لهم هذه الفرصة بما انشغلوا فيه بعد ذلك من فتنة أبي الخطار والصميل ، فاطمأن بلاى وأصحابه ، وقوى مركزهم وثبتت أقدام الدولة الجديدة .

١٣٦- أهمية هذه هي خلاصة ما بين أيدينا من النصوص عن « بلاى » ومعركة « كوفادونجا كوفادونجا دونجا » . وواضح جداً أن هذه المعركة لم تكن في واقع الأمر أكثر من مناوشة انهزم فيها المسلمون لأسباب أخرى غير ما تزعمه الروايات النصرانية من تفوق بلاى وأصحابه في الشجاعة والنجدة ، أو من تدخل قوى علوية حفّت لئجدة التصارى في اللحظة الحاسمة . ولم يعد المسلمون إلى مهاجمة هذه النواحي الشمالية القاصية إلا في أيام المنصور بن أبي عامر ، فظلت منذ يوم « كوفادونجا » مهداً لدولة اشتريس الناشئة ، فثبتت

قواعدها وورست أصولها على نحو لم يستطع المسلمون معه إزالتها بعد ذلك أبداً، أى أن هذه الواقعة كانت إيداناً بميلاد اشتريس وبدءاً حاسماً لحركة المقاومة النصرانية في شبه الجزيرة، وهى على هذا الاعتبار حادث فاصل من حوادث التاريخ الإسباني .

وربما بدا لنا أن التواريخ الإسبانية تبالغ في تعظيم هذه الواقعة، وربما كان مرد هذه المبالغة إلى « بلاى » وأصحابه ومعاصريهم من القصاص . بيد أنه لا حرج على بلاى وأصحابه، ولا حرج كذلك على الروايات النصرانية في مثل هذه المبالغة، لأن هذه المناوشات، التى وقعت بين المسلمين والنصارى في نواحي اشتريس وانتهت بانتصار هذه الجماعات النصرانية التى اختارت العيش في هذه الناحية القاصية القاحلة - مستقلة عن سلطان المسلمين - على العيش في ظلهم، قد وضعت أساس الدولة الإسبانية النصرانية التى سيتاح لها أن تناوىء المسلمين قرناً بعد قرن حتى تتيح الظروف لها فرصة إخراجهم من البلاد .

والتاريخ الصحيح يعتبر «كوفادونجا» ميلاداً لهذه الحركة التى ستصل حلقات تاريخ إسبانيا النصرانية وتعيد البلاد إلى النصرانية وإلى ميدان الحضارة الغربية من جديد . وليس إلى الشك سبيل في أن حركة بلاى تعد حادثاً رئيسياً في تاريخ إسبانيا كله، لأن العبرة في أمثال هذا الحادث ليست بالتفاصيل الدقيقة ولا بالأرقام الصغيرة أو الكبيرة، بل العبرة فيها بالمعنى التاريخى الذى يستتر خلف الحادث نفسه . « ونحن - كما يقول المؤرخ باليستروس - بعيدون جداً عن الحادث بدرجة لا تسمح لنا بأن نزعّم أننا نستطيع أن نقدر أعداد المقاتلين أو أن نصف الحركات الحربية على وجه الدقة، ثم إن هذا ليس هو الأساس ولا المهم، فسواء أُوّجِد في هذه المعركة هذا العدد أو ذاك من المقاتلين، وساء أكانت وقعت في هذا المكان بعينه أو في مواقع أخرى، فإن الأمر المهم هو أن بعثاً إسلامياً - ربما كان صغيراً - أراد أن يقضى على مركز حركة ثورية، وحاول الوصول إلى الموضع الذى اعتقد رجاله أنه وكر رجال العصابات والثائرين، ففشل في إدراك ما طلب بسبب النخوة والشجاعة التى أبدتها حفنة من الرجال كانوا يقاتلون قتال اليائس منافعهم عما بأيديهم، وأنقذوا بهذا الكفاح ما هو أغلى مما كانوا يملكون في ذلك الحين، وهو الاستقلال عن السيادة الأجنبية . وقد أقاموا بعد ذلك محافظين على كرامتهم وممتلكاتهم محتلمين ما كلفتهم هذه المحافظة من باهظ التكليف » .

« ثم إن ازدياد الإجلال لكوفادونجا مع مرور الزمن ، واتجاه الأنظار خلال الأعصر إلى هذه البقعة من الجبل التي أشرنا إليها بالذات ، ليدلان على أنه قد وقع فيما يحيط بها ويقار بها حادث باقى الأثر من حوادث الصراع الذى أراد خلفاء من حضوره وشهده أن يخلدوا ذكره . فكيف وبين أيدينا وثائق تؤيد وقوع هذا الحادث بالفعل ؟ ولسنا نريد بهذه التأكيدات كلها أن نقول - بأى حال - أن الموقعة كانت من الكبر بما يتفق مع هذه المعانى التى ذكرناها ، وليس معناه كذلك أن الكارثة التى نزلت بالعدو كانت بالشدة التى يصفها بها الرواة الذين استرسلوا مع خيالهم وحماهم أكثر مما ينبغى ، وإنا معناه أن النقد السليم يقرر الصفة الرمزية للموقعة ، فقد كانت بدءاً لعمل مجيد ، وكانت أول حجر فى بناء ضخم . وكانت هذه الهزيمة الصغيرة وذلك الفشل اللذان أصابا القوة الحربية الإسلامية عوامل أفهمت النصرارى أن أعداءهم لم يكونوا معصومين من الهزيمة ، وذلك وحده يوضح لنا كيف أن الحادث الصغير أصبح منذ هذا التاريخ معتبراً فى نظرهم رمزاً وهدفاً وغاية بعيدة عالية ، أى أنه إنما كان فى الواقع الملموس بدء استقلالهم وبدء التحرر من السلطان الإسلامى . وهذا أمر ذو قيمة لا تقدر»^(١).

وأما من وجهة النظر الإسلامية فهذه الحادثة فى ذاتها لم تكن تعنى شيئاً لو لم يعقبها من الأحداث ما زاد فى قيمتها وأهميتها ، فلو لم يختلف المسلمون على أنفسهم وينقسموا شعباً لما كان لكوفادونجا ولا لبلاى نفسه أهمية كبرى ، فإن انهزام الجيوش الإسلامية لم يكن بالأمر النادر ولا الحاسم ، وقد انهزمت هذه الجيوش فى إفريقية مثلاً عشرات المرات ، وكانت الهزائم فى بعض هذه الحالات قاسية بل قاصمة ، ولكنها لم تكن حاسمة ، لأن المسلمين استطاعوا أن يجمعوا صفوفهم بعد كل هزيمة ويعودوا للقتال حتى يقضوا على الحركة ويستعيدوا ما يكون قد ضاع منهم . فأما فى هذه المرة فقد عجز المسلمون عن إخضاع هذه الناحية ، وقامت فيها الدولة النصرانية ولم تختف من التاريخ بعد ذلك أبداً ، فأصبحت لهذا حادثاً حاسماً له خطره فى تاريخ إسبانيا الإسلامية .

والثابت على أى حال أن المسلمين لم يتركوا هذا الركن القصى من جليقية دون فتح لأنهم هُزموا أمام بلاى أو غيره ، أو لأنهم احتقروا هذه البقية الباقية من الثائرين ، بل لأنهم انصرفوا عنها إلى التافه من منازعات الجنس والعصية ، فأضعفوا أنفسهم من جهة .

وأعطوا رجال الحركة فرصة كانوا في أشد الحاجة إليها ليثبتوا أقدامهم ولتحولوا من جماعة من الثائرين المطاردين إلى دولة مستقرة لها كيان ولها سيادة على ما تملكه من الأرض من جهة أخرى.

ومن الواضح جداً أن هذه الحركة وانصراف العرب عن القضاء عليها قد أنشأ في شبه الجزيرة وضعاً جديداً سيكون محوراً من محاور التاريخ الأندلسي كله وهو: أن إسبانيا لن تكون من ذلك التاريخ قطراً إسلامياً خالصاً ، وإنما ستكون قسمة بين الدولة الإسلامية والدولة النصرانية ، وأن كلاً من هاتين الدولتين ستسير في طريقها ، وأن النزاع بينهما سيستمر ، وأن هذا النزاع سيتهى بعد قرون طويلة برجحان الكفة النصرانية وزوال أمر المسلمين والإسلام من البلاد .

ولم يخف هذا المعنى على مؤرخينا الإسلاميين ، فهذا ابن حيان يقول عن جماعة بلاى :
 « ... وما زالوا ممتنعين بوعرها - أى بوعر الصخرة - إلى أن أعشى المسلمين أمرهم واحتقروهم ، وقالوا ثلاثون علجاً ! ما عسى أن يحيى منهم ؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك من القوة والكثرة والاستيلاء إلى ما لا خفاء به . وملك بعده - أى بعد بلاى - أذفونش جد عظماء الملوك المشهورين بهذه السمة ... »^(١) . وهذا ابن سعيد يقول : «قال احتقار تلك الصخرة ومن احتوت عليه إلى أن ملك عقب من كان فيها المدد العظيمة ، حتى أن حاضرة قرطبة في يدهم الآن ، جبرها الله ، وهي كانت سرير السلطنة لعنبة»^(٢) .

وينبغي كذلك أن نقرر أن هذه الحادثة أخذت جانباً عظيماً من قيمتها من طبيعة هذه الطوائف القوطية والإيبيرية الرومانية التي اعتصمت بهذا الركن ، فقد كانت طبيعة صلبة مثابرة لا تكف عن القتال ولا تخشاه ، وهي لم تقنع بالسلامة من أيدي المسلمين ، وإنما عولت على الاستمرار في مناجزتهم ، ومضت في ذلك بصبر وجهد يستوفقان النظر . وأحسن رجالها الاستفادة من هذا الوضع الذي كانوا فيه على بساطة شأنه ، وما زالوا يجاربون ويجالدون ، لا يتركون غرة من العرب إلا انتهزوها ، حتى أصبحوا مع الزمن قوة يُحشى بأسها .

فإذا صح هذا استبان لنا القيمة الحقيقية لشخصية بلاى في التاريخ الإسباني عامة ،

(١) المقرئ : فتح العليب ، ج ٢ ، ص ١٠ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

فهو واضح أساس الدول النصرانية الشمالية الغربية التي ستحمل لواء المقاومة على الجبهة الشمالية الغربية « وهو أبو بنى أذفنش هؤلاء » كما يقول مؤرخونا الأندلسيون ، وقد رأينا أن معظم أحداث حياته لا زال نهياً موزعاً بين القصاص وأصحاب الملاحم الشعرية الأسطورية ، ولكن المهم أن التاريخ الصحيح يعترف له بجمع شمل النصارى المتفرقين وقيادتهم في حرب المسلمين قيادة موفقة ، وفي هذا كفاية ، فلا معنى إذن لإنكار وجوده كما فعل بعض المسرفين في الشك من المؤرخين^(١) ولا معنى للإصرار على أنه ينحدر عن صلب البيت الحاكم القوطى القديم ، لأن الواقع أن الرجل سما إلى أوج الملوك بما قام به من دور كبير : « وربما كان بلايو هذا ، منشاء الأسرة الأشتورية رجلاً عادياً من العوام ، رجلاً بسيط الأصل رقيق الحال ، ولكنه امتاز على أى حال بخصال ممتازة أهلته للرياسة . وسواء أكان قوطياً أم إيبرياً رومانياً ، فقد استطاع أن يضع نفسه على رأس المغلوبين في لحظات الخطر المحيق ، وحاز لنفسه القيادة عن جدارة » كما يقول باليستروس^(٢) ، فذلك لا يغير من الواقع شيئاً ، لأنه يبقى لبلاى بعد ذلك فضل إقامة دولة للنصرانية في الشمال وتعزيزها أمام الفتح الإسلامى الجارف ، وفضل تكوين هذه النواة التى تكونت حولها فيما بعد دول استطاعت أن تسير بالتاريخ الإسباني إلى الأمام حينما عجز المسلمون عن الاستمرار في القيادة بعد انهيار دولة الخلافة الأموية وفشل كل المحاولات الجليلة التى قام المسلمون بها لجمع الكلمة وإعادة سيادة الإسلام على شبه الجزيرة .

هذا ، وليس بين مؤرخى الإسبان المحدثين إجماع على إقرار ما تذهب إليه الروايات النصرانية من انحدر بلاى عن صلب قوطى - ملكى أو غير ملكى - بل منهم من يذهب إلى أنه من أهل أشتريس الأصلاء ، أى كلتى أو إيبرى رومانى ، وأن اسمه الأصلى ليس بللاجيوس (Pelagius) كما تورده المدونات النصرانية بل بلايو (Pelayo) بدليل وجود ألفاظ كثيرة في اللغة الأشتورية تنتهى بالياء والواو (yo) منها أسماء أعلام مثل (Volcayo) و (Poyayo) و (Olayo) و (Ubayo) وألفاظ مثل (orvayo) و (carbayo) و (bor-gayo)^(٣) و (argayo)^(٣) .

(١) مثل MASDEU, MAYANS (يقرر وجوده ولكنه يشك في نسبة الكثير من أعماله إليه) SARMIENTO و NOGUERA و CASIRI, PELLICER

cf : BALLESTEROS : op. cit. p. 194 .

BALLESTEROS : op. cit. p. II. 174 .

RICARDO BURGUETE : Rectificaciones historicas , p. 284.

(٢)

(٣)

بل من علماء الإسبان من يقرر أن أصل بلاى من ناحية ليانا بالذات^(١) ، ومراجعتنا العربية تؤيد هذا الرأي ، وهى أقدم من المراجع النصرانية ، فهى تسميه بلاى وهى تسمية أقرب إلى بلايو منها إلى بلاجيوس ، ثم إن أوثق مؤرخينا الإسلاميين يؤكدون أن الرجل كان جليقياً على ما سبق ذكره .

وقد كانت عاصمته طول حياته بليدة كانيكاس اللاتينية (Can- Cargas de Onis) (icas) الإسبانية ، وأغلب الظن أنه دفن بها مع زوجته جاوديوسا (Gaudiosa) ، وخلفه ابنه فافلة (Fafila) على ما تُجمع عليه المراجع النصرانية (يؤيدها في ذلك ابن خلدون) ، ولم يكن على شيء من خصال أبيه ، وإنما كان مولعاً بالصيد ، وقتله دب أثناء الطرد بعد أن حكم سنتين لم يكده يفعل خلالها شيئاً ذا بال كما يقول سبامتيان السلمنتي^(٢) ، ويجعل المؤرخون وفاته في سنة ٧٣٩م ، وذلك لا يتفق مع ما ذكرناه ، والأصح أن يكون قد توفى سنة ٧٥٢م أى : قبل قيام الدولة الأموية بأربع سنوات ، ودفن مع زوجته فروليا (Frole- Froila) أو (Froiliuba) في كنيسة سانتا كروث في كانجاس .

وقد انتهت ولاية عقبة بن الحجاج الذى كان يرجى أن يتم القضاء على حركة بلاى على يديه نهاية غير واضحة ، فمن قائل إنه مات حتف أنفه إثر مرض ألم به ، وأنه أوصى لعبد الملك بن قطن بالولاية من بعده^(٣) ، ومن قائل إن اليمينين انتهزا فرصة ثورة بربر إفريقية على العرب أثناء ولاية عبيدة بن عبد الرحمن ، فعزلوه وولوا شيخهم عبد الملك بن قطن مكانه^(٤) ، وهكذا اختفت هذه الشخصية العربية المجاهدة في « ليل الزمان » كما يقولون ، ولو قد أتاحت له فرصة أطول لترك أثراً بعيداً في تاريخ الغرب الإسلامى .

وكان من سوء طالع الدولة الإسلامية الأندلسية الناشئة أن الأمور صارت إلى عبد الملك ابن قطن من بعده ، إذ أن عبد الملك كان يمينياً شديد العصية قليل السياسة فلم تلبث الأمور أن ساءت بين يديه ، واشتعلت نيران الثورة البربرية في الأندلس ، وأعقبها قدوم طالعة بلج من الشاميين إلى الأندلس واحتدام الخصومة بين هؤلاء الشاميين ومن كان في الأندلس من

(١) BALLESTEROS : op cit.p. 182 .

(٢) cf:jos AMQZA GARCIA SALA : Gijon en La Historia general de Asturias II pp. 445 - (٢) 499.

(٣) ابن القطان ، في البيان المغرب لابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٩ .

(٤) الرازى في نفع الطب للمقرى ، ج ٢ ص ١١ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ص ٢٩ .

قدماء الفاتحين والمهاجرين من العرب والبربر الذين يطلق عليهم لفظ « البلديين » ، مما جعل الأندلس الإسلامي شعلة نار ، فهلكت من العرب أعداد كبيرة ، وفيتت من البربر جماعات ، وعادت جماعات أخرى منهم إلى مواطنها الأولى في إفريقية ، فلم يقف تراجع المسلمين عند حدود أشتريس كما رأينا ، بل خلت المساحة الواسعة الواقعة بين نهري المنهو ودويره من سكانها المسلمين ، وأصبحت أرض فضاء حازجة بين الدويلة النصرانية في أقصى الشمال والدولة الإسلامية التي أصبحت تُحد من الشمال بخط يبدأ من إفراغه على ساحل المحيط الأطلسي ويمتد إلى قورية فطليطة ، ثم يصعد حتى لارده في ناحية الشرق . ولم يوقف هذا التقلص إلا قدوم عبد الرحمن الداخل وإقامته صرح الدولة الأموية في سنة ١٣٤ هـ / ٧٥٦ م .

١٤٠-أذفونش وكان من حظ الإمارة النصرانية الناشئة في نواحي جليقية أن صارت قيادتها ابن بطره بعد فايفيلا إلى زعيم قوى نشيط هو أذفونش (ألفونسو) الملقب بالأول . ولم (ألفونسو الأول) يكن من بيت بلاى ، وإنما كان ابناً لبطره (Pedro) دوق كنتبرية ، وكان أذفونش قد تزوج بنتاً لبلايو تسمى ارمنسندا Ermensinda ، وارتقى العرش بعد موت فافله ، مما يُتهم منه أن فافله بن بلاى مضى صغيراً دون أن يتخلف عقباً^(١) .

تولى أذفونش بن بطره دوق كنتبرية شئون إمارة بلايه الصغيرة فأضاف إليها دوقية كنتبرية ، فاتسعت حدودها اتساعاً طيباً مكَّنها من الخروج من صخرتها القاحلة التي كانت حروب عقبة بن الحجاج السلولى قد ألجأتها إليها .

ويُجمع المؤرخون على أن أذفونش الأول كان زعيماً واسع النشاط بعيد المطامع : تولى وقد انزاح عن الإمارة النصرانية خطر المسلمين إلى حين ، وشغلتهم عنها حروبهم سنوات طوالاً ، فعجل أذفونش بانتهاز الفرصة ، واستغلها أحسن استغلال لصالحه ، فلم يتخلف العرش إلا وهذه الإمارة النصرانية الصغيرة دويلة ذات حدود ومعالم وأسباب من القوة تمكّنها من الحياة والاستمرار في التقدم ، ولم يستطع المسلمون بعد ذلك القضاء عليها ، فلا غرابة أن يعتبر الإسبان حكومة أذفونش الأول الميلاد الحقيقي لإسبانيا النصرانية .

وقد اختلفت آراء المؤرخين في أعمال بطره كما اختلفت في بلاى وأعماله ، فذهب هر كولانو إلى أنه لم يكن أكثر من زعيم جماعة من رجال العصابات^(٢) ، وذهب ساموذا إلى

BALLESTEROS : op.cit.II. p. 184

(١)

ALEJANDRO HERCULANO : Historia de portugal (Lisboa, 1863 IV).

(٢)

أنه كان مجرد نهاب يباغت المواضع العامرة لينهب ما فيها ، دون أن يجد حرجاً فى ذلك^(١) ، فقد كان أمثاله من القادة يعيشون على السلب فى هذه الأعصر ، وربما حرّكته إلى القيام ببعض غاراته عوامل دينية . ومهما يكن من أمر فقد كان الرجل صاحب فتوح وحروب ، وقد اقترن عصره باتساع مفاجئ ، لدولة أشتريس الناشئة أصبحت بعده تسيطر على نحو خمس شبه الجزيرة كله ، وقد ذهبت المدونات النصرانية ومن تابعها من المؤرخين مذاهب شتى فى تفصيل حروبه وفتوحه التى قام بها حتى بلغ بدولته الصغيرة هذا المبلغ^(٢) .

١٤١- المسلمون لم يكد أذفونش يستقر فى الإمارة ويوطد أمورها بعد اتساعها الحديد حتى يغفلون الركن وجد البربر الذين كانوا يحتلون نواحي أشتريس وكتبرية وجليقية وعمامة الشمال الغربى النواحي التى يسميها صاحب الأخبار المجموعة « خلف الدروب »^(٣) لشبه الجزيرة يهجرون مساكنهم وأوطانهم وينحدرون إلى الجنوب ، ووجد أن الهجرة لا تقتصر على البربر بل تشمل العرب كذلك ، فقد انجفل الذين كانوا يقيمون منهم فى هذه النواحي القاصية إلى نواحي وسط الأندلس وجنوبها ، وأن الكثيرين منهم هلكوا فى الفتنة التى وقعت بينهم . وقد كان انجفال المسلمين - ما بين عرب وبربر - من هذه النواحي حادثاً خطيراً يصفه صاحب الأخبار المجموعة بقوله : « ففضى أن بربر الأندلس لما بلغهم ظهور بربر العدو على عربها وأهل الطاعة ، وثبوا فى أقطار الأندلس فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم ، وأخرجوا عرب أسترقه والمدائين التى خلف الدروب ، فلم يرغ ابن قطن إلا فلهم قد قدم عليه ، وانضم عرب الأطراف كلها إلى وسط الأندلس ، إلا ما كان من عرب سرقسطة وثرغهم ، فلإنهم كانوا أكثر من البربر ، فلم يهج عليهم البربر ، فأخرج إليهم عبد الملك (بن قطن) جيوشاً فهزموها وقتلوا العرب فى الآفاق^(٤) . وبهذا لم تبق منهم فى هذه الناحية بقية ، ولم يعد العرب إلى الاستقرار فى « المدائين التى خلف الدروب » بعد ذلك ،

SAMOZA, op. cit. p.431-504 .

(١)

MASDEU, op. cit. XII pp. 60 sqq .

(٢)

(٣) الدروب هى الطرق التى كان المسلمون يسلكونها فى طريقهم من سهول الجنوب والوسط إلى النواحي الساحلية العامرة فى أقصى شمال الأندلس ، ومعظمها طرق رومانية قديمة بين المضاب والجبال وأهمها دربان : درب شرقى من طليطلة إلى وادى الحجارة إلى حوض إيره ، ثم يسير بمحاذاة ماراً بقلهرة ونخره حتى بنبلونة Pampelona ومن ثم يقضى إلى إلبه Alava والتلاع Castilla وأشتريس Asturias . ودرب غربى يبدأ من الجوف El Al-garve ويسير إلى ماردة Merida وقورية Coria ثم طليطلة Talavera فطليطلة Toledo ومنها إلى سلمتقة Salca manca وسمورة Zamora فجليقية .

(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .

وكان ذلك آخر عهدهم بها : زالت آثارهم منها على الرغم مما بذلوا من جهد في فتحها والاستقرار فيها ، زالوا منها لا على يد القوط أو الإيبيريين الرومانيين بل على يد البربر شركائهم في الدين وحلفائهم في هذا الفتح الكبير .

١٤٢ هـ هجرة وليت البربر حينما فعلوا ذلك استقروا في مواضع العرب وأقاموا يعمرن أعداد كبيرة من هذه النواحي ، بل اتجهت همتهم إلى التجمع في جيوش والسير إلى الجنوب البربر إلى إفريقية للقضاء على العرب جملة ، فترحل مركز العرب ، ولم يجد عبد الملك بن قطن شيخ اليمانيين وسيد الأندلس إذ ذاك بدأ من الاستعانة ببلج بن بشر ومن معه من الشاميين الذين كانوا محصورين في سبتة لكي يخلصوهم من البربر (١٢٣هـ / ٧٤١م) فعبروا ونازلوا البربر وانتصروا عليهم في مواقع حاسمة عند شذونة وعلى مقربة من قرطبة وعلى وادي سليط El Rio Salado (أوائل ١٢٤هـ / منتصف ٧٤١م) وقتلوا منهم أعداداً عظيمة . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعقبوهم بالأذى والقتل في نواحي الأندلس كلها « فلم ينج منهم إلا الشريد ، فركب أهل الشام ولبسوا السلاح ، ثم فرّقوا الجيش في الأندلس ، فقتلوا البربر حتى أطفأوا جمرتهم»^(١).

١٤٢ هـ المجاعة ولما كان البربر هم غالبية من استقر في نواحي الشمال الغربي للأندلس تحتاح شبه الجزيرة وريفها من المسلمين ، فقد بدأت هذه الأرياف والمزارع تخلو من العنصر الإسلامي ، وكانت الحروب بينهم وبين العرب ، وبين العرب وأنفسهم قد خربت الزرع وحالت بين المزارعين من أهل البلاد ، وبين مواصلة عملهم الآمن في الحقول ، فأخذت المحاصيل تقل من منتصف سنة ١٢٤هـ (٧٤١م) ، وتوالى ذلك خلال السنوات التالية ، فلم تحل سنة ١٣٣هـ / ٧٥١م حتى شملت الأندلس جميعه المجاعة الكبرى التي أشرنا إليها ، انضافت مساءتها إلى مساءات الحروب والمنازعات فقَلَّ العمار في النواحي وضربت المجاعة بجرانها ، حتى تقطعت أوصال البلاد ، « وكانت البرد قد قطعها الجوع فلا بريد » كما يقول صاحب الأخبار المجموعة^(٢) . وهبطت البلاد كلها خلال السنوات التي أعقبت هذه الثورة البربرية هبوطاً بالغاً خيف منه على مصير الإسلام في البلاد جملة .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٠ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٧٨ .

١٤٤- إخراج المسلمين من جليقية وما يجاورها النواحي الشمالية من الإيبيريين الرومان فوثبوا بالعرب في نواحي جليقية وما يصاحبها، ويشير إلى ذلك صاحب الأخبار المجموعة إشارة فيها خطأ في تحديد التواريخ ولكنها تصور الحال تصويراً حسناً بقوله: « وغلظ أمر علج يقال له بلاى قد ذكرناه في أول كتابنا، فخرج من الصخرة، وغلب على كورة (كلمة ناقصة) واسترس (خطأ من الناشر وصحتها أشتريس) ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل أستورقة حتى كانت فتنة أبى الخطار وثوبة، فلما كان في سنة ثلاث وثلاثين (ومائة) هزمهم وأخرجهم عن جليقية كلها، وتصر كل مذبذب في دينه وضعف عن الخراج، وقُتل من قُتل، وصار قُلُهم إلى خلف الجبل إلى أستورقة حتى استحکم الجوع، فأخرجوا أيضاً المسلمين عن أستورقة، وغيرها، وانضم الناس إلى ما وراء الدرب الآخر وإلى قورية وماردة في سنة ست وثلاثين (٧٥٤م). واشتد الجوع، فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر مجتازين ومرتحلين، وكانت إجازتهم من واد بكورة شذونة يقال له وادى برباط، فحفّت سكان الأندلس وكاد أن يغلب عليهم العدو إلا أن الجوع شملهم^(١). مما يُفهم منه أن نصارى الأندلس استغلوا الفرصة استغلالاً كاملاً، فلم يدعوا وسيلة يمكنهم أن ينالوا فيها من المسلمين إلا ابتدروها، ولو لم تشملهم هم الآخرين المجاعة لكان بلاؤهم في المسلمين أشد وأبعد مدى.

١٤٥- حدود دولة الإسلام أذفونش بن بطره، وهي لا تذكر أنه وجد هذه النواحي خالية أو شبه خالية تتراجع إلى نهر دويره فدخلها، وإنما تذكر أنه فتحها على المسلمين بحد السيف وانتزعها من أيديهم، وهذا خطأ كما رأينا. وفي نصوص هذه المدونات النصرانية تفصيل لما أوجزه صاحب الأخبار المجموعة من قوله « فأخرجوا أيضاً المسلمين عن أستورقة وغيرها» لأن « غيرها » هذه كانت مدائن كثيرة لا تقل أهمية عن أستورقة مثل افراغه Praga وبورتو Oporto وفيزيو Visiu والنواحي المحيطة بهذه البلاد حتى نهر دويره Duero^(٢).

(١) الأخبار المجموعة، ص ٦١-٦٢.

(٢)

أما قول صاحب الأخبار المجموعة : « وانسحب المسلمون إلى ما وراء الدرب الآخر » فمعناه انسحابهم عن طريق الدروب الشرقية المفضية إلى حوض ابره وإقليم سرقسطة الذى لم تنله المجاعة خصبه ، وقد استطاع المسلمون الثبات أخيراً عند قورية وماردة في الغرب مخلصين وراءهم مراكز هامة مثل ليون Leon وسمورة Zamora ولدسما Ledesma وشلمنقة Salamanca وسلدانيا Saldana وسيماناس Simancas وشقوية Segovia وأبله Avila وأوكا Oca وأوسا Osa وميراندا^(١) ، وكلها مراكز هامة فتحتها الجيوش الإسلامية بعد العناء والنصب وفقدتها هؤلاء العرب والبربر بسبب منازعات قبلية عنصرية عمياء لا معنى لها .

وأصبحت حدود الأندلس الإسلامية الشمالية قبيل مجيء عبد الرحمن الداخل تبدأ من ناحية الشرق عند بنبلونة في أقصى الشمال الشرقى ثم تنحدر إلى تطيلة على الابره ومنها إلى وادى الحجارة إلى الشمال من طليطلة بين حوض الابره والتاجه ، ثم طليطلة وطلبيرة في حوض التاجه ، ثم قورية وتنتهى الحدود عند قلمرية على ساحل المحيط الأخضر . أى أن الأندلس الإسلامية فقد ربع شبه الجزيرة على وجه التقريب قبيل مقدم عبد الرحمن الداخل (١٣٨هـ / ٧٥٦م) .

وقد لاحظنا أن مؤرخينا الإسلاميين لا يؤيدون دوزى في هذا رأى الذى انتهى إليه من أن أذفونش أخذ هذه النواحي دون قتال مع المسلمين وأن هؤلاء انسحبوا منها قبل اقترابه منها ، وهم يستعملون عبارة « أخرجهم منها » وهى واضحة الدلالة . وتفسير ذلك يسير ، وهو أن الذين هجروا النواحي بسبب المجاعة وحروب العرب والبربر كانوا جند المسلمين ورجال حامياتهم وغالبية المستقرين منهم في هذه النواحي ، وقد بقيت خلف هؤلاء جماعات من المسلمين معظمهم من البربر لم يستطيعوا الرحيل وأقاموا في منازلهم خلف الدروب على رغم الخطر المحيط ، فاستقروا عليهم أذفونش حينما وجدهم دون حماية وأخرجهم مما كانوا

DOZY: op.cit.p. 123 .

(١)

وقد جعل المقرئ فتح بعض هذه النواحي في أوائل أيام عبد الرحمن الداخل وفي عهد فرويلة الثانى ابن أذفونش بن بطرة ، وقال : « وعندما شغل المسلمون بعد الرحمن وتمهيد أمره ، قوى أمر الجلائفة واستفحل سلطانهم ، وعمد فرويلة ابن أذفونش ملكهم إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها وملكها من أيديهم ، فملك مدينة لكة وبرتقال وسموره وشلمنقة وقشتالة وشقوية ، وصارت الجلائفة حتى افتتحها المنصور بن أبى عامر آخر الدولة ... » نفع الطيب ، ج١ ، ص ٢١٧ . ولكن إجماع المؤرخين متعدي على أن هذه المادائ سقطت في أيدي النصارى في أيام أذفونش .

BALLESTEROS : op.cit . II . p. 185 .

انظر :

قد استقروا فيه ، وقد بقيت من البربر رغم ذلك كله بقية في بعض النواحي القاصية ، وتكاثر فيها وتركت أسماها على بعض المواضع في أقصى نواحي جليقية وأستريس .

١٤٦- ما بين نهري المنهو والديوره منطقة فسرغ وليس معنى ذلك أن مملكة أشتريس الناشئة اتسعت حتى شملت ذلك كله، لأن الواقع أن أذفونش الأول لم يستول بالفعل إلا على النواحي المحيطة بأشتريس أي ناحية لِيَبَانَا ويردوليا Vardulia وساحل جليقية ، وليس من المؤكد أنه احتل ليون . وأما الباقي وهو المساحة الواسعة الممتدة بين حوضي المنهو والتاجه فكانت في ذلك الحين أرض فضاء فاصلة بين إسبانيا الإسلامية في الوسط والشرق والجنوب والغرب ودولة أشتريس النصرانية في أقصى الشمال^(١).

وتؤيدنا المراجع النصرانية في هذا القول لأنها لا تقول أن أذفونش استقر في هذه البلاد الكثيرة التي تعددها ، وإنما تكفي بالقول بأنه خربها وأفقر أريافها (Eremavit cam pos)^(٢).

تذهب التواريخ الإسبانية إلى أن أذفونش الأول حكم عشرين سنة امتدت من ٧٣٩م إلى ٧٥٧م^(٣) ، ويقرر ابن خلدون أنه لم يحكم إلا ثماني عشرة سنة ويجعلها من ١٣٥هـ إلى ١٤٢هـ / ٧٥٢-٧٦٠م وهو خطأ ظاهر في الحساب ، والغالب أنه أراد أن يقول ثماني سنوات فقط ، ونظن أن حكومة أذفونش لم تزد على هذه السنوات الثمان تبعاً للحساب الذي قدمناه . وتوفي في أوائل حكم عبد الرحمن الداخل ، فكانها أرادت المقادير أن تتدارك المسلمين في هذا القطر الواسع برجل يعيد إليهم ما فقدوا على يد أذفونش الأول^(٤).

BALLESTEROS : op. cit . p. 185 .

(١)

MANUEL RISCO : Espana Sagrada, XXXVII.p.93.

(٢)

DOZY : Recherches I.p.95 .

(٣)

(٤) انظر نص ابن خلدون الذي أورده دوزي ذيلاً لأبحاثه :

DOZY, op . cit . appendice III p. XII.

وإليك قائمة ملوك أشتريس الأول وتواريخ حكمهم كما أوردها المدونات اللاتينية مقارنة بما أورده ابن خلدون (ص ٩٥ من الأبحاث) :

ابن خلدون
٧٥١-٧٣١هـ/١١٤-١٣٣
٧٥٣-٧٥١هـ/١٣٥-١٣٣
٧٦٠-٧٥٣هـ/١٤٢-١٣٥
٧٦٩-٧٦٠هـ/١٥٢-١٤٢
٧٧٥-٧٦٩هـ/١٥٨-١٥٢
٧٨٥-٧٧٥هـ/١٦٨-١٥٨
٧٩٢-٧٨٥هـ/١٧٥-١٦٨

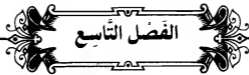
= المدونات اللاتينية
بلاى Pelayo ٧٣٧-٧١٨
فانلة Fafila ٧٣٩-٧٣٧
أذفونش بن بطرة Alfonso I ٧٥٧-٧٣٩
فرويلة بن أذفونش Froila ٧٦٨-٧٥٧
أورال بن فرويلة Aurelio ٧٧٤-٧٦٨
شيلون Silon ٧٧٣-٧٧٤
مورقاط Mauregatos ٧٨٣-٧٨٩

١٤٧-آراء وقد اختلفت أحكام المؤرخين الإسبان على أذفونش الأول ، فمن قائل إنه لم المؤرخين في يكن إلا رئيس عصابات يفجأ بها الأماكن الآمنة العامرة ويخربها ، ومن قائل إنه أذفونش لم يكن يرمى من وراء هذا الجهد كله إلا إلى السلب والنهب ، ومن قائل إنه كان يسعى واعياً إلى استرجاع إسبانيا من المسلمين . وربما كان أصح الآراء فيه أنه كان يغاور كل من جاوره طمعاً في الغنائم التي لم يكن ليستطيع تسيير أموره في دولته بدونها ، وطمعاً في توسيع رقعة مملكته الصغيرة .

أما القول بأنه كان يسعى لاسترجاع البلاد من المسلمين فمبالغة في التقدير لا يؤيدها الواقع ، لأن الرجل كان يغاور جيرانه النصارى ويُنزِل بهم من البلاء أشد مما أنزل بالمسلمين ، ثم إنه - آخر الأمر - لم يلق المسلمين في موقعة واحدة ولم يفكر في السير إلى نواحيهم ، وإنما اقتصرته جهوده على النواحي الحالية التي لم يكن ليتوقع فيها مقاومة . ثم إنه لم يحتل من البلاد التي خلت من أهلها المسلمين إلا ما ذكرنا من نواحي أشتريس وليبانا ويردوليا ، أما الباقي فقد قام بإخراج بقية المسلمين منه أهل البلاد من الإيبيريين الرومان ، بعد أن أخرج المسلمون أنفسهم بأنفسهم منها .

ومهما يكن من الأمر فقد انتقلت دولة النصارى في الشمال في عصره من طور إلى طور : اتسعت حدودها واطمأنت أمورها وابتعد عنها الخطر الإسلامي ، فأتيح لها الفرصة للتكؤن والسير نحو القوة ، وأصبحت نواة صلبة لن يستطيع المسلمون القضاء عليها بعد ذلك ، بعد أن كانت قد قاربت الزوال خلال ولاية عقبة بن الحجاج السلولى ، قبيل الثورة البربرية المشنومة .

إلى هنا نقف بهذه القطعة من تاريخ الولايات النصرانية الشمالية خلال عصر الولاة ، بعد أن حددنا الوضع السياسى العام في شبه الجزيرة الإيبيرية في مطالع الإمارة الأموية الأندلسية على يد صقر قریش .



الفصل التاسع

المجتمع الأندلسي
(١) العرب والبربر والموالي



دامت فترة الولاية ستة وأربعين عاماً هجرياً ، تبدأ من رجب سنة ٩٢هـ (إبريل - مايو ٧١١م) وتنتهى في العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨هـ (١٠ مايو سنة ٧٥٦م) وهو اليوم الذى أعلنت فيه إمارة عبد الرحمن بن معاوية الداخل على الأندلس جميعه وولدت فيه الدولة الأموية الأندلسية . وقد جرت العادة بأن ينظر المؤرخون إلى هذه الفترة على أنها فترة تمهيد قصيرة لا أهمية لها في تاريخ الأندلس الإسلامى ، بل نظر إليها بعض المؤرخين على أنها فترة عابرة أنفقها العرب في منازعات قبلية وعبث لا طائل تحته . ولعلنا رأينا فيها مر بنا من أحداثها أنها أهم من أن ينظر إليها هذا النظر السطحي ، لأن ما عبر بها من الأحداث كان له من النتائج البعيدة ما سلاحظ أثره في كل دور من أدوار تاريخ المسلمين في شبه الجزيرة الأندلسية بعد ذلك .

فقد قام المسلمون خلال هذه الفترة بأعظم جهود حربية قاموا بها فيها وراء البرتات خلال تاريخهم الطويل ، ووضعت في أثنائها أسس النظم الإدارية والمالية التى ستجرى الأمور بمقتضاها حتى قيام الخلافة الأموية على يد عبد الرحمن الناصر في أواخر سنة ٣١٦هـ (أوائل سنة ٩٢٩م) ، وفي خلالها أيضاً ولدت الولايات النصرانية الإسبانية في شمال غربى الجزيرة وشمالها ، ونشأت كذلك عداوة العرب والبربر ، وكلها ظواهر تاريخية ذات آثار ومضاعفات تاريخية دائمة . وقد عرضنا هذه الظواهر كلاً على حدة بحسب ما اقتضاه المقام ، وبقي أن نلقى نظرة عامة على الفترة كلها ، لنكوّن لأنفسنا فكرة صحيحة عن الأندلس الإسلامى في فجر تاريخه .

أ - العرب

١٤٨ - طالعة دخل العرب الأندلس على هيئة تيار متصل لم تسجل المراجع من موجاته
موسى إلا عدداً قليلاً تسميه « الطوالع » جمع طالعة ، وهى الجماعة من العرب الذين
دخلوا الأندلس . وأول هذه الطوالع طالعة موسى^(١) ، لأن الجيش الذى أقبل مع طارق لم

(١) المقرئ: نفع ، ج ١ ، ص ١٤١ - ١٤٤ .

يكن يضم إلا طائفة قليلة من العرب ، ورجاله على هذا لا يسمون بطالعة طارق . كانت طالعة موسى تضم نحو اثني عشر ألفاً من العرب ، معظمهم من القيسية واليمينية وموالى بنى أمية ومن لحق بهذه الطوائف الثلاث من البربر المتتمين إلى موسى بن نصير ، وقد كانوا في حكم العرب رغم أصلهم البربري .

وقد استقرت هذه الطوائف في كل ناحية على طول الطريق الذي سار فيه موسى ، أى في نواحي الجزيرة الخضراء وإشبيلية وسرقسطة وبعض نواح متفرقة في أقصى الشمال والشمال الغربي ، فيها تسميه المراجع « ما وراء الدروب » . والأدلة كثيرة عن أن معظم اليمينيين استقروا في ناحية سرقسطة ، وتناثرت جماعات منهم في قرطبة وحواليها وفي إقليم إشبيلية ومرسية ، وكان القيسيون قلة في هذه الطالعة استقر معظمهم في نواحي الجنوب .

وحينما أقبل الحر بن يوسف الثقفي إلى الأندلس في ذى الحجة سنة ٩٧هـ (أغسطس سنة ٧١٦م) استصحب معه أربعائة من « وجوه أهل إفريقية » ، ويبدو أنهم كانوا نخبة عربية ممتازة لأن صاحب فتح الأندلس يصفهم بأنهم كانوا « أول طوابع الأندلس المعدودين » ، ولما كان معظم عرب إفريقية من اليمينيين ، فإننا نستطيع أن نقول إن معظم هذه الطالعة كانوا من اليمينيين ، ولما كان الحر قد قدم بهم ليشدوا أزره فقد أقاموا في قرطبة وما حوالها^(١) .

وأهم هذه الطوابع - بعد طالعة موسى - هي طالعة بلج بن بشر القيسى في ١٤٩ - طالعة بلج ذى القعدة سنة ١٢٣هـ (يناير سنة ٧٤١م) الذين نجوا من مذبحه العرب في موقعة الأشراف ، ولجأوا إلى سبتة وتحصنوا بها حتى عبروا إلى الأندلس في ولاية عبد الملك ابن قطن الفهري الثانية على ما فصلناه ، وكان عدد هذه الطالعة يقارب العشرة آلاف غالبيتهم العظمى من القيسيين .

ولما كان أهل الطوابع السابقة على طالعة بلج قد استقروا في البلاد وتقسما ١٥٠ - البلديون خير نواحيها فقد كانوا يعتبرون أنفسهم أهل البلد وأصحابها ، وتسموا بالبلديين وكرهوا أن يقبل إليهم مثل هذا العدد العظيم من الشأميين ويقاسمهم خيرات البلد بل يحاول أن يغلبهم عليها ، فنفروا من هجرتهم وانبروا ينازعونهم السيادة على البلاد .

(١) فتح الأندلس ، ص ٢٣ .

١٥١- الشاميون ومن تاريخ نزول بلج وجماعته القيسية بدأ النزاع بين اليمنية والقيسية في الأندلس ، لأن الأقلية القيسية التي كانت هناك لم تلبث أن انضمت إلى القيسية المقبلة بنازعة العصبية القبلية ، وقد أظهرت هذه الجماعة القيسية من الشجاعة والنجدة ما مكَّنها من القضاء على ثورة البربر في زمن قليل ، فارتفعت بمقدمهم أسهم القيسيين وبدأ الصراع المحزن بين جذمى العرب الكبيرين ، واحتدمت نيران هذا الصراع بينهما خلال ولايتي بلج وثعلبة بن سلامة العامل (ذو القعدة ١٢٣هـ / يناير ٧٤١م إلى رجب ١٢٥هـ / مايو ٧٤٣م) لأن بلجاً وثعلبة كانا من أعنف القيسيين .

انتزع بلج ومن معه من الشامية الولاية من اليمنيين ، وما زالوا بشيخ الأندلس إذ ذاك - عبد الملك بن قطن - حتى تخلصوا منه . ولم يكن عبد الملك يعنياً صرفاً بل كان فهيرياً ينتسب إلى مُضَر ، ولكنه كان يمثل البلديين ، فما زال الشاميون برئيسهم حتى قتله . ولما كان عبد الملك يمثل زعامة البلديين - ومعظمهم يمنيون - فقد ثارت اليمن على كلمة واحدة في كل ناحية يقودهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي «صاحب أربونة» أي حاكم الثغر الأعلى (إقليم سرقسطة وما يليه شمالاً حتى أربونة) وأمية وقطن ابنا عبد الملك بن قطن في ناحية ماردة .

• وحشدوا من أقصى أربونة وراجعوا أهل البلد والبربر وسيوفهم تقطر من دماء البربر ، فرضيت البربر أن تنال ثأرها من أهل الشام ، فإذا فرغوا كان لهم في أهل البلد رأي^(١) ، وانضمت إليهم جماعة قليلة من اليمنيين كانت في جيش بلج يتزعمها عبد الرحمن ابن حبيب رأس العرب البلديين في إفريقية فيما بعد ، ونهضت هذه الجماعة كلها لتحارب القيسيين الدخلاء لتستعيد منهم الزعامة وتخرجهم من البلاد جملة .

١٥٢- النزاع بين البلديين والشاميين وقد احتدم الصراع بين العرب في شبه الجزيرة ، وينبغي أن ننبه إلى أمر هام ، هو أن ما تلا ذلك من أدوار الصراع بين العرب لم يكن في حقيقة الأمر صراعاً خالصاً بين كلب وقيس بقدر ما كان صراعاً بين عرب الأندلس القدماء (البلديين) والعرب الدخلاء الذين أخذوا يُعرفون من ذلك الحين بالشاميين ، وهي تسمية دقيقة تدلنا على أنهم لم يكونوا قيسيين خالصين ، بل كانت فيهم قلة يمنية ، بل سيتطور وجه النزاع بعد قليل ، ولن يصبح مجرد صراع بين البلديين والشاميين بل صراعاً بين حزبين

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٣ .

كبيرين غالبية الأول من القيسية وغالبية الثاني من الكلبيّة ، وتنضم إلى كل من الحزبين جماعات من طوائف متفرقة من العرب تميل بها مصالحتها الخاصة إلى هذا الحزب أو ذاك .

وقد بلغ هذا الصراع بين هذين الحزبين الكبيرين أقصاه في شوال سنة ١٢٤هـ / أغسطس سنة ٧٤٢م ، حينما التقى رجالها في موقعة أقوة برطورة التي انتصر الشّاميون فيها انتصاراً حاسماً وصارت إليهم قيادة الأندلس من ذلك الحين إلى قيام الدولة الأموية ، ولم يرفع البلديون رأسهم من جديد إلا بفضل عبد الرحمن الداخل وقيام دولته بعد ذلك بأربع عشرة سنة . ولما كانت غالبية الشّاميين قيسية ، فإن هذه الفترة كلها تعتبر فترة سيادة القيسية على الأندلس .

١٥٣- سيادة الشّاميين على الأندلس وأثرها
ولم ير الأندلس فترة هي أسوأ من هذه قبل وقوع الأزمة الكبرى التي تعرض الشّاميين على أمر الإسلام خلالها للضياع مدى إمارات محمد والمنذر وعبد الله ، لأن الأندلس والشّاميين أوقدوا البلد ناراً ونشروا بين أهلها روحاً من التقلقل والاضطراب لا سبب لها في الواقع إلا ما جُبل عليه القيسيون من ميل إلى الفوضى واستهانة بالدماء وإسراف في الخصومة .

وقد بدأت هذه الفترة المظلمة بولاية ثعلبة بن سلامة العاملي (شوال ١٢٤هـ / أغسطس ٧٤٢م) ، فقد كان قيسياً جافياً غليظاً لا تكاد تخالط خلقه رحمة أو رفق ، ومما رواه المؤرخون من أفاعيله هذه السوق التي أقامها عند « المصاراة » لبيع أعدائه من العرب المغلوبين في موقعة أقوة برطورة ، فيقول صاحب الأخبار المجموعة : « ولقد بلغنا أنه باع أشياخهم لمن ينقص بهم ، لقد قيل إنه صاح على ابن الحسن - رجل كان بالأندلس من أهل المدينة - وعلى الحرث بن أسد - من جهينة من أهل المدينة - فأن : من يخسر على هذين الشيخين؟! فقال قائل : أحدهما عندي بعشرة دنانير ! فقال الصائغ : من ينقص ؟ فلم يزل يصيح : من ينقص ؟ حتى باع أحدهما بكلب والآخر بعود .. » (١) .

ولم يتخذ البلديين - واليمنيين خاصة - إلا قدوم أبي الخطار الحسام بن ضرار الكلبي والياً من قبَل حظظة بن صفوان عامل إفريقية ، وكان الناس قد استغاثوا به وكتبوا إليه يقولون : « أعنا بوال يجمعنا ويأخذ بيعتنا له ولأمير المؤمنين ، حتى يصير الشام والبلدان على دعوة واحدة ، فقد أفنانا القتل وخفنا العدو على ذرارينا » . فوصل أبو الخطار في

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٥ .

للحظة المناسبة ، وأتخذ اليميين من الذل والفناء ، ورضيه عرب الأندلس جميعاً ، ولهذا يسمى عسكره عسكر العاقية^(١) .

١٥٤- تفريق الشامية في النواحي اليمينية ولا من القيسية ، فاستشار أرتباس شيخ أهل الذمة ، وكان رجلاً عاقلاً مجرباً كما سيجيء ، فأشار عليه بتفريق الشاميين في النواحي ، لأن بقاءهم إلى جواره في العاصمة وضواحيها خطر على الحاكم والمحكومين ، فعمل على تفريقهم في الكور التي لم يكن فيها من البلديين أحد ، وأنزلهم في هذه النواحي مع أصحابها من أهل الذمة ، على أن يكون لهم ثلث الخراج وللدولة الثلثان . ويبدو أنه وجد صعوبة في إقناعهم بقبول ذلك ، لأنه اضطر إلى إخراج ثلاثة من زعمائهم من البلاد هم : ثعلبة بن سلامة العامل ، والوقاص ابن عبد العزيز الكنانى ، وعثمان بن أبى نسعة الخثعمى ، لأنهم كانوا سبب فساد الأندلس ، ووكل بهم من أخرجهم من البلاد^(٢) . وأبى الباقون منهم بعد ذلك إطاعة أمره ، فلم يزل أبو الخطار يلاطفهم حتى استأمنوا إليه وأقاموا معه ، وتوسع لهم في البلاد ، فأنزل كل قوم على قدر منازلهم في الشرق^(٣) .

وقد فرّقهم أبو الخطار على الكور على أساس لطيف : تخير لكل قوم ناحية تشبه من حيث المناظر والبيئة المحيطة بها الناحية التي أتوا منها من الشرق على النظام التالى:

جند مصر : في كورة أكشونية وباجه وبعض نواحي كورة تدمير .

جند الأردن : في كورة ريه .

جند دمشق : في كورة البيرة .

جند قسرين : في كورة جيان .

١٥٥- خصوصية القيسية واليمينية تعود ولو قد استمر أبو الخطار على هذه السيرة لدام السلام وعاد إلى البلاد هدوؤها ، ولكن أبا الخطار لم يلبث أن نبض فيه عرق اليمينية ، فهال إلى قومه وحاباهم وأخذ يعسف القيسيين ، وكان من سوء حظه أن كان بين هؤلاء

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٥ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٠ .

(٣) فتح الأندلس ، ص ٣٦ .

القيسيين رجل من طراز الصميل بن حاتم الذي أشرنا إليه ، وكان بدياً جلفاً من جند قنسرين ، وكانت إليه زعامة القيسية بعد إخراج زعمائهم الآخرين ، وبلغ من سلطانه على قومه أنهم كانوا يطيعونه في كل ما يريد دون أن يسأله السبب ودون أن تكون هناك حاجة ظاهرة إلى ذلك. فلم يلبث أن تصدى لأبي الخطار ، وذهب إليه مرة يشكو إليه أمراً لحق بيمني ، فتعمد أبو الخطار الإسراف في إهائته فلُكز وُسُتْم ، فخرج عنه ، فأتى داره ، وبعث إلى خيار قومه ، فشكا إليهم ما لقي ، فقالوا له : نحن لك تبع .. (١).

هكذا ثارت نيران العصبية مرة أخرى : أثارها أبو الخطار بسوء سياسته والصميل بعنفه وبدائوته وجهله ، وانقسمت البلاد حزينين من جديد ، واثارت بينهما حرب مخربة لم يتقذ مصير الإسلام في الأندلس منها إلا قدوم عبد الرحمن بن معاوية .

١٥٦- تحول لم يكن هذان الحزبان الجديدان هما المضرين والقيسيين كما كان الحال قبل الصراع من القبلة قدوم طالعة بلج ، ولم يكونا كذلك البلديين والشاميين كما كان الحال منذ إلى الحزبية دخول بلج إلى مجيء أبي الخطار ، بل تكوَّنا من جماعتين من القبائل ألقت بين عناصر كل منهما عوامل المصلحة وحب البقاء : ذلك أن أبا الخطار لم يعسف القيسيين كلهم ، فبقيت منهم جماعة إلى جانبه تؤيده ، ولم ينصف اليمينيين كلهم فانضمت جماعة منهم إلى الصميل ، ولا نستطيع أن نسمي هذين الحزبين إلا بحزب أبي الخطار وحزب الصميل ، وإن كانت اليمينية أغلب على الأول ، والقيسية أغلب على الثاني . وإليك التكوين القبلي لكل من الحزبين - على قدر ما تعيننا المراجع على تصوره :

حزب الصميل

حزب أبي الخطار

معظم قبائل : لخم (يمن)

طوائف من : جذام (يمن)

جذام (يمن)

فهر (عدنان)

قيس (عدنان)

قضاة

غطفان (قضاة) (٢)

جند حمص (خليط)

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٦ .

(٢) جاء في الأخبار المجموعة أن الصميل بن حاتم قرر عصا صفة أبي الخطار قال لقومه : « والله ما أحب أن أعرضهم للقضاة والبيان ، ولكن اللطف ندعو بالله مرج راطع ، وندعو لخمياً وجذاماً ، وندخل منهم رجلاً تقدمه يكون له الاسم ولنا الخط . قال : فكتبوا إلى ثوبة بن سلمة الجذامي وكان من أهل فلسطين ، ثم ساروا حتى وفدوا عليه فأجابهم ، وأجابتهم لخم وجذام ... (ص ٥٦ - ٥٧) .

أى أن الأمر لم يعد عصية قبلية بل عصية حزبية ، وربما عصية موطن . فسرى عند بياننا لمنازل القبائل العربية في شبه الجزيرة أن هذه الجماعات التي تألفت كانت متجاورة المواضع ، ولا يعزى انضواء بعض جند حمص إلى حزب أبي الخطار إلا إلى أن إقليم حمص الذى كانوا فيه ، وهو إقليم إشبيلية ، كان يضم مواطن القبائل التى انضموا إليها .

وقد رشح الصميل بن حاتم ، وهو قيسى ، لرياسة حزبه رجلاً من جذام ، أى من اليمن ، هو ثوبة بن سلامة الجذامى ، وهو ما كان ليفعل ذلك إلا وقد تبين أن معظم المنضوين تحت رايته كانوا من اليمن . ثم إننا نستنتج من قبول القيسية الذين كانوا مع الصميل لذلك الوضع أن العصية القبلية لم تعد المحرك الرئيسى لجماعات العرب ، بل عصية المصلحة والموطن ، أى العصية السياسية . وقد كان الصميل نفسه رجل سياسة ودهاء قبل أن يكون رجل قبائل : كان رجلاً واقعياً لا يؤمن إلا بما يتفعه ، وربما كان خلقه هذا هو الذى أخرج الصراع من الميدان القبلى الصرف إلى ميدان السياسة والمصالح .

وتولى حزب الصميل الحكم ، وقام ثوبة بن سلامة بالأمر ، ولم تطل مدة ولايته أكثر من عام ، وكاد الانشقاق يقع في صفوف الحزب ، إذ تنازع الرياسة عمرو بن ثوبة ويحيى بن حريث ، ولكن الصميل تدارك الأمر بذكائه واختار رجلاً من محارب بن فهر ، أى من قريش الظواهر ، وكانت بطون قريش الظواهر كلها أشبه بالحاوية بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، فكان اختيار الصميل لهذا المحاربى - وهو يوسف النهري - حسناً للنزاع وإرضاءً للفرقتين ، ودليلاً على مهارته السياسية .

ومن دلائل غلبة الروح السياسية على عرب الأندلس خلال هذه الفترة الأخيرة من عصر الولاة أن الذين تحركوا لاستنقاذ أبي الخطار من سجنه لم يكونوا أهله من اليمن ، بل كانوا من قضاة ، وقضاة على ما نعرف مشكوك في موضعها من عدنان وقحطان ، فبعضهم يجعلها من العدنانية وبعضهم يجعلها من القحطانية ، وإن كان الأخيرون أكثر : قامت جماعة من القضاة قوامها مائتا راجل وأربعون فارساً واختطفوا أبا الخطار وفروا به إلى منازل بعض القبائل اليمنية بناحية إشبيلية .

وكان يقود أولئك القضاة عبد الرحمن بن نعيم الكلبي (يمن) فبدأ حزب أبى

= وانظر تعليق دوزى على هذا الوضع :

الخطار ينهض من جديد ، واشتد ساعده عندما أخطأ الصميل فعزل يحيى بن حرث شيخ لحم عن كورة ريه . فنفر يحيى بن حرث ومن تابعه من لحم وانضموا إلى حزب أبي الخطار . وشيثاً فشيثاً انفصلت بقية القبائل اليمينية التي كانت في حزب الصميل وانضمت إلى أبي الخطار ، فلم يبق مع الصميل إلا قيس . وهكذا وقف قيس وكلب مرة أخرى وجهاً لوجه ، وهوى عرب الأندلس إلى ذلك النزاع القبلي الخالص من جديد ، وانضم البلديون - ومعظمهم من يمن - إلى الكلبية حزب أبي الخطار ، ووقف اليمينيون في جانب والقيسيون في جانب على النحو التالي :

اليمينيون يرأسهم ابن حرث

حمير + كندة + مذحج + قضاة

القيسيون يرأسهم يوسف الفهري والصميل

مضر + ربيعة

ومن غريب ما وقع أن أهل بعض القبائل المتجاورين الذين عاشوا إلى ذلك الحين في سلام ووثام ، جعل بعضهم يودع بعضاً ثم يخرج كل منهم ليأخذ مكانه في صفوف الجبهة التي سيقاتل فيها دون أن تكون لديه أى دوافع خاصة لهذا الخروج . وليس أنصع من هذا دليلاً على أن العرب ظلوا ، رغم الإسلام ورغم ما نالوا من خبرة ، بدواً جاهليين في أعماق نفوسهم لا يكاد اختلاف الأحوال والظروف يغير من طبيعتهم الأصيلة شيئاً^(١) .

وقد سدر العرب في هذا الصراع وكأنهم كانوا يعيشون وحدهم في ذلك القطر ، أو كأن جماعاتهم فيه بلغت من الكثرة بحيث غطت على ما عداها . ولكن الواقع - وهذا أغرب ما في الموضوع - أنهم لم يكونوا إلا قلة بالنسبة لبقية سكان الجزيرة . وعلينا أن ندرس الآن توزيع القبائل العربية في شبه الجزيرة في هذه الفترة ، فلعل ذلك يعيننا على تفهّم ذلك الوضع الذي يبدو من الغرابة بمكان .

١٥٧- تكاثر العرب في الأندلس
وإذا أخذنا بالمعلومات القليلة التي لدينا عن أعداد العرب الذين نزلوا الجزيرة لم نستطع أن نقدرهم إلا ببضعة آلاف : فقد كانت طالعة موسى تضم ١٢ ألفاً وطالعة بلج ١٠ آلاف واصطحب الحر بن عبد الرحمن الثقفي معه

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٨ - ٥٩ .

أربعائة ومجموع هؤلاء ٢٢٤٠٠، فإذا افترضنا أن بضعة آلاف آخرين دخلوا الجزيرة فرادى أو جماعات لم نستطع تقدير أعداد من دخلوا الجزيرة من صرحاء العرب بأكثر من ثلاثين ألفاً. فإذا حسبنا من قُتلوا في حروب العصابات ومن استشهدوا في الفتح وراء البرت تينا أن بقية هذا العدد القليل لا يمكن أن تغمر شبه الجزيرة الواسع على هذه الصورة التي رأيناها.

بيد أننا ينبغي أن نلاحظ أن جميع العرب الذين دخلوا الجزيرة دخلوها رجالاً بدون نساء، ثم اتخذوا النساء من أهل البلاد، وقد توسعوا في ذلك، فكثرت نساؤهم وكثر عيالهم أيضاً. ولكي نعطي القارىء فكرة عن خصوبة أولئك الداخلين نذكر جانباً من نسل عبد الرحمن الداخل وبنيه، وقد أحصاهم ابن حزم في جمهرة أنساب العرب. وقد اخترناهم لأنهم الوحيدون الذين لدينا إحصاء بالأرقام عنهم وعن أولادهم وأعقابهم، وينبغي أن نلاحظ أن ابن حزم لم يذكر إلا الظاهرين من بنى أمية، أى أنه ترك الخاملين، والخاملون في العادة أكثر أولاداً، وقد ترك كذلك ذكر الخلف من الإناث في الغالب.

أعقب عبد الرحمن بن معاوية سبعة ذكور، وهشام ابنه ستة، والحكم الرضى ثمانية عشر، وعبد الرحمن الأوسط مائة ولد، منهم خمسون ذكراً وخمسون أنثى، والأمير محمد نيافاً وثلاثين ذكراً، والأمير عبد الله أحد عشر ذكراً، وعبد الرحمن الناصر أحد عشر ذكراً... إلى آخره^(١).

فإذا نحن أحصينا الذكور فقط تينا أن ستة من رجال البيت الأموي أنجبوا ١٤٤ ولداً ذكراً، أى بمتوسط ١٩ ولداً للواحد، وذلك غير البنات. وإذا اعتبرنا هذا العدد أعلى من الطبيعي، لأن عبد الرحمن الأوسط أدخل بالتوازن الطبيعي وجاوز الحد المألوف، أمكننا الاجتزاء من ذلك العدد بعشرة لكل شخص، وأمكننا أيضاً أن نطبق نسبة التكاثر هذه على بقية العرب، فقد كانوا جميعاً في سعة من النساء والعيش في ذلك البلد الطيب الرخى.

ومعنى ذلك أن أولئك الثلاثين ألفاً من العرب أصبحوا بعد عشرين سنة من دخول العرب الجزيرة ٣٠٠ ألف، غير من انضم أو انتسب إليهم من مواليهم ممن أتى معهم من المشرق أو المغرب أو انضم إليهم من أهل البلاد.

(١) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب (طبعة بروفنسال، القاهرة ١٩٤٨)، ص ٨٦ - ٩٣.

وهذا التقدير لا يحل تلك المعضلة التاريخية حلاً تاماً ، ولكنه يجعلها أقرب إلى المعقول والممكن . وربما زادت وضوحاً إذا ذكرنا أن العرب انتشروا في شبه الجزيرة انتشاراً واسعاً بحيث لم تخل منهم ناحية من نواحي الشرق (من شماله إلى جنوبه) والجنوب والوسط والغرب حتى نواحي قلمرية وشتترين وأشبونة . وقد كان العرب ، رغم ما رأيناه فيهم من العنف في خصوماتهم بين بعضهم البعض ورغم اعتزازهم بعصبهم العربي قوماً يحسنون العشرة ، بعيدين ، كأفراد أو جماعات صغيرة ، عن نزعات السيادة والتعالى التي تمسك بها من سبقهم من الرومان والقوط .

ثم إن مطاعمهم في أموال أهل البلاد المفتوحة كانت قليلة ، وسنرى عند دراستنا للناحية المالية ، أن الإدارة العربية لم تكلف أهل البلاد شيئاً ثقیلاً . ومن ثم فقد كان العرب لا يحلون في ناحية من نواحي الأندلس حتى تتصل العلاقات بينهم وبين من حولهم من أهل البلاد ، خاصة وأن العرب كانوا يعاهدونهم ويرتبطون معهم بأواصر القرى ، أى أنهم لم يكونوا سادة أو حكاماً بقدر ما كانوا مساكين أو معاشين ، فأمن إليهم الناس وأقبلوا عليهم ، واختلطوا الحيتان ، وبدا وكأن العرب أكثر من عددهم الحقيقي .

ولدينا عن منازل العرب في شبه الجزيرة معلومات طيبة في معظم ما لدينا من مراجعتنا ١٥٨- عن منازل العرب المراجع ، وقد أورد المقرئ في نفع الطيب صفحات من « فرحة الأنفس » بالأندلس لمحمد بن أيوب بن غالب الغرناطي من أهل القرن السادس الهجري ، وأورد أبو محمد على بن حزم في تضاعيف « جمهرة أنساب العرب » معلومات وبيانات مستفيضة عن منازل العرب في الأندلس ، نستطيع إذا نحن جمعناها وأضفنا إليها ما لدينا من بيانات ابن غالب وغيره أن نحدد منازل العرب في شيء كثير من الدقة ، بل نستطيع أن نرسم خريطة ديموجرافية لعرب الأندلس .

ومن الواضح أن معلومات ابن حزم وابن غالب لا تنصب فقط على الفترة التي ندرسها ، وأن بعض من ذكرنا من العرب دخلوا الجزيرة فيما بعد ، وخاصة أيام عبد الرحمن الداخل وابنه هشام الرضى ، ولكننا نستطيع الأخذ بها دون التعرض لخطأ كثير ، لأن الذين دخلوا الأندلس بعد فترة الولاة لا يمكن أن يكونوا إلا شيئاً ضئيلاً بالنسبة لمن دخلوها في تلك الفترة . ثم إن الداخلين أيام الإمارة الأموية كانوا يفدون فرادى أو في جماعات صغيرة ، وكانوا في الغالب ينزلون قرطبة أو يقصدون أهل قبائلهم في النواحي ، أى : أن دخولهم لم

يغير الوضع العام ، وفي إمكاننا أن نعتمد على تفصيلات ابن حزم وابن غالب في شىء كثير من الاطمئنان .

وواضح مما بين أيدينا من النصوص أن جماعات العرب التي دخلت الأندلس كانت تضم أعداداً طيبة من فحول العرب ممن يمثلون الخصال الرئيسية الأصيلة لهذا الجنس خير تمثيل . وسواء نظرنا إلى الأعمال الإيجابية كعملية الفتح نفسها ومواصلة الفتوح فيها وراء الأندلس ، أو إلى النشاط السلبى كحروب العصية ومنازعات الرياسة ، فإننا ننتين هذه الفحولة العربية بصورة لا نجد لها فيها شبه الأندلس من حيث الوضع العام مما فتحه المسلمون من البلاد . وقد أشار إلى ذلك المقرئ بقوله : « فاعلم أنه لما استقر قدم أهل الإسلام بالأندلس وتام فتحها صرف أهل الشام وغيرهم من العرب مهمهم إلى الحلول بها ، فنزل بها من « جراثيم » العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم ، إلى أن كان من أمرهم ما كان »^(١) ،... والمراد بـ « الجراثيم » هنا الأصول .

ويتفق ابن حزم وابن غالب وابن سعيد على أن هؤلاء الأعقاب الذين يشير إليهم المقرئ كانوا كثيرين ، وأن هذه الكثرة لم تقتصر على فريق دون فريق : ففي الحديث عن المنتسبين إلى محارب بن فهير (من قريش الظواهر) يقول ابن حزم - برواية المقرئ - : « ولهم بالأندلس عدد وثروة ، وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير ، وجلتهم في طليطلة وأعمالها »^(٢) . وفي الحديث عن تميم (مضر) يقول ابن غالب : « إنهم خلق كثير بالأندلس »^(٣) ، وهكذا الأمر مع معظم القبائل التي يذكرها أولئك المؤرخون .

وقد كانت جماعات اليمنية تفوق العدنانية كثرة عدد وسعة أقاليم ، قال القحطانيون ١٥٩ - القحطانيون المقرئ في الكلام عن القحطانية : « وهم الأكثر في الأندلس ، والمملك فيهم أرسخ إلا ما كان من خلفاء بنى أمية ، فإن القرشية قدمتهم على الفرقتين... »^(٤) . ويقول ابن غالب : « ومن الأزدي من ينتسب إلى الأنصار على العموم ، وهم الجمل الغفير بالأندلس . قال ابن سعيد : والعجيب أنك تعدم هذا النسب بالمدينة ، وتجد منه بالأندلس ما يشذ عن العدد كثرة . ولقد أخبرني من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد إلا شيخاً

(١) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٢٧١ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٧٢ .

(٣) نفس الموضوع .

(٤) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٢٧٤ .

من الخزرج وعمجوزاً من الأزد»^(١)، وهي مبالغة من ذلك الداعية الأندلسي البارع، يخفف من غلوها ما يصرح به ابن غالب أن من الأزد - أزد الأندلس - من يفضل الانتساب إلى الأنصار، لأن هذا الانتساب كانت له قيمته الاجتماعية في الأندلس، ولهذا كان يلجأ إليه «الجم الغفير» من الأزد فيما نظن.

غير أننا عندما ننظر فيما لدينا من البيانات نلاحظ أن القبائل اليمية التي نزلت الأندلس لم تكن تزيد على العدنانية هذه الزيادة التي تتحدث عنها النصوص، فقد أحصينا مجموع ما ذكره ابن حزم وابن غالب وابن سعيد من هذه وتلك فكانت العدنانية ٤٢ قبيلة واليمن ٥٢، ولا تُفسر الغالبية اليمية إلا على أحد وجهين: فإما أن تكون أعداد من دخلوا الأندلس من القبائل اليمية أكثر بكثير من أعداد من دخلوا من القبائل العدنانية، أو أن يكون «الجم الغفير» من العرب الداخلين قد زعموا لأنفسهم أنساباً أنصارية - ما بين أوس وخزرج - التماساً للمكانة والمنزلة، وقد يكون الأمران قد حدثا معاً.

وإذا نحن أمعنا النظر فيما لدينا من البيانات عن منازل العرب في الأندلس لاحظنا ما يلي:

١٦٠- ملاحظات على منازل العرب في الأندلس
١ - أن ما يقال من أن العرب اختصوا أنفسهم بأغنى نواحي الأندلس وتركوا للبربر النواحي القاحلة التي لا خير فيها غير صحيح، فقد ترك العرب لغيرهم نواحي من أخصب ما في الأندلس، فقد تركوا مثلاً أحواض الواديانة والتاجة ونهر شقورة (نهر مرسية) ونهر شقر (نهر بلنسية) والوادي الأبيض ووادي لكة وغيرها كثير، ولم تكثر منازلهم بشكل واضح إلا في حوضي الوادي الكبير ووادي ابره الأوسط وفروعها الكثيرة. بل هم لم يحمروا من وادي ابره إلا النهر الرئيسي والفروع الجنوبية، أما الشمالية فتركوها دون سكنى، ونزل البربر فيما عدا ذلك كله. ولو أننا وازنا بين ما احتله العرب وما احتله البربر، لوجدنا الكفتين متعادلتين تقريباً.

١٦١- استقرار العرب على طول خطوط الفتح الأول، فترى منازلهم تنتشر ابتداء من الجزيرة الخضراء، وتغلب معظم خطوط الفتح المنطقة الواقعة جنوب نهر شنيل وحوض الوادي الكبير، ثم تكثر بصورة ظاهرة في إقليم إشبيلية، وتستمر على طول الوادي الكبير وفروعه. وعند إقليم إشبيلية

تنتشر منازل العرب في نفس الاتجاه الذى سار فيه موسى ، وتكثر في نواحي أونية ولبلة وباجة ، وتتصل حتى بطليوس ثم نواحي طلبيرة وطليلة فوادى الحجارة وقلعة أيوب ودروقة وحوض ابره الأوسط حول سرقسطة في منطقة واسعة تشمل حوض نهر جَلْق Gallego ونهر الحَمَّه Rio Alhama .

ومن أحواز قرطبة يمتد خط عربى آخر ، على طول طريق طارق بن زياد حتى طليلة ماراً بقلعة رباح .

ومن حوض الوادى الكبير انساح العرب شرقاً ، فملأوا نواحي ما يُعرف عادة بشرق الأندلس ، وهى نواحي بلنسية وتدمير (مرسية) ولقنت والمرية ومالقة . ويبدو أن هذا الامتداد متأخر قليلاً عن عصر الولاة ، ولكنه لا يتعدى أيام هشام بن معاوية ، لأننا سنجد الجماعات العربية التى استقرت بشرق الأندلس قد تأصلت فيه على أيام الحكم الربضى . وقد زحف العرب مع السهل الساحلى الشرقى حتى وصلت بعض جماعاتهم إلى برشلونة ، فاستقرت فيها بطون من تجيب (كندة) .

٣ - أن واحداً من جِذْمَى العرب الكبيرين (عدنان وقحطان) لم ينفرد بالسكنى في ناحية بعينها إلا في قليل من المواضع ، بل الأغلب أن نجد قبائلها متجاورة في كل ناحية تقريباً .

١٦٢ - منازل العرب في الأندلس ويمكن إجمال توزيع قبائل عدنان وقحطان فيما يلى :

أ - مواضع سكنتها مجموعات متساوية تقريباً من قحطان وعدنان :

قحطان

عدنان

إشبيلية ونواحيها

مرة بن ذبيان - غطفان - عك - غافق - هوازن - جذام - الأشعر - جزيلة - نوبة
هوازن بن عكرمة .
بلى - لحم - مراد - لَبْص - الحيار بن مالك - الأنصار^(١) .

(١) كانت كتلة اليمنين في ناحية إشبيلية وغرب الأندلس أقوى مجموعاتهم وأكثرهم نظاماً ، وكان لها شيخ يرأسها هو « أبو الصباح » شيخ اليمانية في غرب الأندلس ، ومسكنه قرية مورة من شرف إشبيلية (ابن القوطية ، ص ٢٠) .

البيرة وغرناطة

خزيمة - أسد - مرة بن ذبيان - نمير بن طيء - همدان - غسان - الحضارمة ^(١) .	مضر .
واذى أش	خويلد
سعد العشيرة	
بظليوس	زهرة
حضارمة	

ب - مواضع غالبية من نزلها من قحطان (اليمينيون) :

قحطانعدنان

سرسطة ونواحيها

خزرج - عذرة - قضاة - نجيب - كندة - جذام .	
تدمير	
جذام - دوس - غافق - حضارمة	ربيعة
ريه	
جزيلة - خزرج - ذورعين	نهد
مالقة	
حضارمة	خزيمة
شذونة	
جزيلة - عرمرم - جذام	كنانة
استجة ومورور	
لخم - خشعم	غافق
الجزيرة الخضراء	
خولان - بنو عذرة - لخم - جذام	كنانة

(١) يؤيد كثرة اليمينيين في إقليمى البيرة وجبان ابن القوطية بقوله : « ثم خاطبوا القحطانيين بالبيرة وجبان مثل جد بنى أضحى بالهمدانيين (يغلب أن هذا اسم قرية) وجد [بنى] حسان وبنى عمر أصحاب وادى أش الغسانيين وميسرة وقحطبة الطائين بجبان » - ص ٢٢ .

ج - مواضع غالبية من نزلها من عدنان :

قحطان

عدنان

جيان

ملكان - مزينة - شوذر - ربيعة - غنم - بنو منخل - جذام - مرة - عنس (١) .

أقصى

باجة ولبلة

عوف - زهرة (٢) .

أونيه

سلول - الطماح - مطروح

حُشَيْن

طليطلة

الأنصار

الزبارقة (تميم) - باهلة - كنانة

د - مواضع لم يسكنها إلا قحطانيون :

قحطان

عدنان

قلعة رياح

خزرج - جذام .

دلايبة

عذرة - قضاة .

قرية صالحة (قرب مالقة)

غان

قلعة خولان

خولان

برشلونة

نجيب

دار بلن (شمالي قرطبة)

بلن

(١) انظر الهامش السابق .

(٢) جاء في افتتاح الأندلس لابن القوطية : « وكانت الرياسة بلبلة لعبد الغفار ابن عم أبي الصباح ، وبياجه لابن عمه أيضاً عمرو بن طالوت وكلم بن يصب » (وكلهم يمن) .

هـ - مواضع لم يسكنها إلا عدنانيون :

قحطان

عدنان

مدينة مرسية

ملكان - أفصى بن مضر

طلبيرة

عوف

بلنسية

هوازن

وينبغي أن ننبه إلى أن هذا الإحصاء تقريبي ، فقد اعتمدنا فيه على ابن حزم وابن غالب وابن سعيد وبعض مؤرخين آخرين وردت في ثنايا كلامهم إشارات لمنازل العرب في الأندلس . وقد أدخلنا قضاة في جملة اليمن ، مع اختلاف النسابة في جعلها من عدنان أو قحطان ، لأن الرأي الأغلب هو أنهم قحطانيون^(١) .. وينبغي أن نلاحظ أن معظم ملاحظات ابن غالب لا تشير إلى المواضع ، فهو يقول مثلاً : «ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى الأوس أخى الخزرج ، ومنهم من ينتسب إلى غافق بن عك بن عدنان بن أزان بن الأزد ..»^(٢) .

٤ - أن هناك نواحي معينة حبيت إلى العرب سكنها ، فتكاثروا فيها . ونستطيع أن نعتبر هذه المواضع مراكز العروبية في الأندلس ، فقد كانت هي المهاد التي تكاثروا فيها وانتشروا منها إلى غيرها من النواحي . وقد ظل العنصر العربي غالباً على هذه النواحي حتى نهاية تاريخ المسلمين في الأندلس ، وكانت إلى نهاية القرن الخامس الهجرى نقط ارتكاز للإسلام الأندلسي ، ومن هذه المواضع قرطبة مثلاً - ولم نذكرها في الإحصاء السالف الذكر لأن العرب من كل قبيلة نزلوها ، بحيث لا تجد قبيلة عربية إلا كان منه في قرطبة - وإشبيلية ونواحيها . واستجة وريه وقبرة والجزيرة الخضراء والبيرة وجيان ومالقة وتدمير وسر قسطة وشذونة وقرمونة ولبله وباجة وأوبنة .

(١) وقد كان القضاة في الأندلس يعتبرون أنفسهم من اليمن ، جاء في الأخبار المجموعة : « فأصفت يمن الأندلس ، خيرها وكنتها ومذحجها وقضاعتها ، واحتازت مضر وربيعة إلى يوسف ، وربيعة بالأندلس قليل » (ص ٥٨) .

(٢) القرى : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

٥ - ويقول المقرئ : « وكان عرب الأندلس يتميزون بالعرائر والقبائل والبطون والأفخاذ ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر ، الداهية الذى ملك سلطنة الأندلس ، وقصد بذلك تشتيتهم ، وقطع التحامهم وتعصبهم في الاعتزاء »^(١) ، ومعنى ذلك أن كل قطعة من العرب نزلت بناحية ظلت محتفظة بكيانها القبلى ، رغم تزواجهم مع أهل البلاد . وقد حافظت الدولة على هذا الكيان القبلى إلى أيام المنصور ، لأن هذه القبائل كانت - كما سنرى عند كلامنا على التنظيم الإدارى - أساساً من أسس تكوين الجيش الأندلسى ونظام الضرائب .

٦ - ويبدو أن الكثير من القبائل التى نزلت مواضع في الريف بعيدة عن المدن اتخذت لأنفسها حصوناً تعتصم بها ، وقد ظهرت أهمية هذه الحصون أثناء الفتنة التى شملت عهود الأمراء محمد والمنذر وعبد الله ، فقد تحولت الحصون والقلاع أثناءها إلى مدن ظلت تحمل أسماء أصحابها ، ومثال ذلك حصن مراد (بين إشبيلية وقرطبة) وقلعة بنى سعيد (أو قلعة بحصب) في إقليم غرناطة ، وقلعة خولان (بين الجزيرة الخضراء وإشبيلية) .

ومنهج من أنشأ قرى كاملة ظلت تحمل أسماء أصحابها ، مثل منزل همدان (على ستة أميال من غرناطة) ومنزل طيء (جنوبى مرسية) ودار بلّ (شمالى قرطبة) وغيرها .

وكانت هذه المواطن العربية كلها في دور التكوين خلال الفترة التى نتحدث عنها: كانت كسر القبائل الوافدة من المشرق تتجمع إلى ذوى قرباها وتكوّن العصبيات التى لعبت الدور الخطير الذى فصلنا تاريخه . وسنرى فيما بعد أن قبائل العرب لم تغير مواضعها إلا في النادر ، وإن كان كل مركز قد مد له فروعاً فيما بعد وأنشأ مراكز أخرى تنتمى إلى نفس الأصل .

وقد ذكرنا أن العرب كانوا يدخلون الأندلس رجالاً فقط ، ثم يتخذون النساء من أهل البلاد ، وعلى هذا فالأجيال الثانية من هؤلاء العرب جميعاً لا يمكن أن يكونوا عرباً من ناحية الدم ، بل ربما جاز اعتبارهم مؤلّدين ، حتى البيت الأموى نفسه كان بيتاً مولداً ، إنها كانوا عرباً بالإحساس والاتجاه واللغة إلى حد كبير .

ويدهى أن أولئك جميعاً لم يعودوا يتكلمون العربية في حياتهم العادية بعد الجيل الثانى ، فقد غلبت عليهم في المخاطبة والمعاملات لغة أهل البلاد ، اختلطت بها لغة العرب ونشأت

(١) المقرئ : نفع ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

عن ذلك « عجمية أهل الأندلس » أو « اللطينية » كما يسميها ابن حزم ، وقد بلغ من غلبة هذه « العجمية » أن ابن حزم يذكر جماعة من العرب بالذات فيقول : « دار بلّ بشمال قرطبة ، وهم هناك إلى اليوم على أنسابهم لا يحسنون الكلام باللطينية ، نساؤهم ورجالهم ، ويقرون الضيف ، ولا يأكلون إلية الشاة إلى اليوم ، ولهم دار أخرى بمرور »^(١) ، مما يُفهم منه أن كلام عرب الأندلس « باللطينية » كان أمراً عاماً شذت عنه هذه القبيلة . وبطبيعة الحال لم يكن لسان عرب الأندلس قد استعجم بعد في فترة الولاة ، ولكن العملية كانت قد بدأت على أي حال^(٢) .

ب - السجبر

١٦٣- تيار من الواضح أن أعداد من اشترك من البربر في فتح الأندلس وفي فتوح غالة الهجرة البربرية كانت تزيد على أعداد العرب أضعافاً ، وأن هذه الأعداد لم تقتصر على من إلى الأندلس اشترك في الجيوش الغازية ، إذ أن تياراً من الهجرة البربرية اتصل واستمر عقب الفتح مباشرة ، وأن شبه الجزيرة لم يلبث أن امتلأ بهؤلاء المهاجرين . قال المقرئ في نفع الطيب : « وتسامع الناس من أهل بر العدو بالفتح على طارق ، وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ، فلحقوا بطارق »^(٣) .

وبين أيدينا نص يؤيد غلبة البربر على العرب أول الأمر ، لا من حيث العدد فقط ، بل

(١) ابن حزم : جهرة أنساب العرب ، ص ٤١٥ .

(٢) اعتمدنا في هذه المعلومات ، كما أشرنا آنفاً على :

جهرة أنساب العرب لابن حزم (نشر ليفي بروفنسال) ، القاهرة سنة ١٩٤٨ .

ابن غالب : فرحة الأنفس ، مقتطفات أوردتها المقرئ في نفع الطيب (القاهرة ١٩٤٩) ج١ ، ص ٢٧١ - ٢٧٩ .

ابن سعيد : مقتطفات من المغرب في الأغلب ، أوردتها المقرئ في نفع الطيب ، نفس الجزء والصفحات السابقة .

المقرئ : نفع الطيب ، ملاحظات للمؤلف في نفس الصفحات .

الأخبار المجموعة : طبعة لاقوينتى إى ألكنترا ، مدريد ١٨٦٧ .

ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، طبعة جايانجوس وسافيدرا وكوديرا ، مدريد ١٩٢٦ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، طبعة ليفي بروفنسال وكولان ، لايدن ١٩٤٧ .

L'ÉVI - PROVENÇAL, Histoire de l'Espagne Musulmane (2e. éd. vol. I, Paris 1951) pp. 71 Spp.

ELIAS TERES : Linajes Arabes en Al - Andalus, Segun la "Jamhara" de Ibn Hasrn, Al - Andalus vol. XXII fasc. I pp. 55- 113.

(٣) المقرئ : نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٦٣ .

من حيث القوة أيضاً ، قال ابن القوطية بعد فراغه من أخبار عبد العزيز بن موسى : « ومكتوا سنين لا يجمعهم وال ، إلا أن البربر قدموا على أنفسهم أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير » مما يدل على أن البربر هم الذين اختاروا ثاني ولاية الأندلس ، وقد رضى به بقية مسلمي الجزيرة وظل في الولاية حتى ولي الحر بن عبد الرحمن الثقفي . ولو لم يكن البربر غالبين على الأمر في الأندلس حينذاك لما استطاعوا تولية وال يرضاه جميع المسلمين^(١).

وقد أمدنا ابن حزم في الجهمية بمعلومات غاية في الأهمية تلقى ضوءاً على الهجرة البربرية إلى الأندلس . ومن الواضح أن كلام ابن حزم يتعلق بمنازل البربر في الأندلس على أيامه ، ولكننا نستطيع بمقارنة هذه المعلومات بما لدينا من أخبار فترة الولاة أن نتبين من أولئك البربر نزل الأندلس في ذلك الزمن المتقدم .

وينبغي أن نلاحظ أن التحديد فيما يتصل بالبربر أعسر منه فيما يتصل بالعرب ، لأن الهجرات العربية الكبيرة انتهت بنهاية عصر الولاة ، فلم يفد منهم على الأندلس بعد ذلك إلا أفراد أو بيوت أو جماعات قليلة ، أما البربر فقد كان تيار هجرتهم متصلاً ، بحكم الجوار أولاً ، وبحكم الجاذبية الخاصة التي كانت لشبه الجزيرة الأندلسية على بربر الشمال الإفريقي ثانياً ، ولأسباب سياسية ثالثاً . ومن ثم فإن القطع بشيء في هذه الناحية لا يخلو من مجازفة ، وكل ما سنذكره فيما يتصل بمنازل البربر خلال عصر الولاة ينبغي أن يؤخذ بحذر .

١١٤ - جماعات يذهب ابن خلدون إلى أن جموع البربر التي دخلت الأندلس مع الفتح وبعده البربر الأولى بقليل كانت من قبائل مطغرة ومدبونة ومكناسة وهوارة^(٢) ، وهذه القبائل كلها من زناتة أو من البربر البتر ، وكل منها أشبه بالشعب الكبير الذي تنفرع عنه القبائل الصغيرة ، وكانت بطونها متفرقة في نواحي المغرب ، ولكن كتلة هوارة ونفوسة كانت منتشرة على سواحل البحر الأبيض من حدود مصر إلى طرابلس ، أما مدبونة فكانت منازلها على ساحل البحر من نواحي المغرب الأوسط إلى سبتة ، ومطغرة كانت تحتل إقليم طنجة وتمتد على ساحل المحيط الأطلسي .

ومن هذه الأصول الأربعة كان جيش طارق بن زياد ، وكانت الأمداد البربرية التي أتت

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٣ - ١٤ .

(٢) ابن خلدون ، طبعة بولاق ، ج ٦ ، ص ١٠٦ وما يليها .

عقب الفتح وشاركت في إتمامه وفي فتوح غالة . ويضيف ابن حزم إليها نفزة ، وهم أولاد نفزاو أكبر أبناء لاوى الأكبر جد اللواتين جميعاً . ونفزة قبيل ضخم لا يقل عن مطغرة وهوارة ونفوسة ومديونة ، ويذكر أيضاً مغيلة وملزوزة وهما بطنان صغيران من بطون البتر يتسبان إلى صرّى بن مادغيس أخى لاوى الكبير ، ومعنى ذلك أن أولئك البربر الذين دخلوا الأندلس أول الأمر كانوا جميعاً بترأ ، وفيهم زناتية مثل مكناسة والباقي من بطون بترية أخرى .

ولم يكن البربر إذ ذاك يقسمون أنفسهم هذا التقسيم الحاد إلى بتر وبرانس ، لأن ذلك ظهر فيما بعد ، عندما سرت عدوى العصبية القبلية من العرب إلى البربر ، وعندما بدأ البربر يستقلون بأنفسهم وقيمون الدول معترزين بالعصبيات والأصول : بدأت ذلك صنهاجة من البرانس ثم تلتها زناتة من البتر . أما في الفترة التي نحن فيها ، فلم يكونوا جميعاً إلا بربراً إلى جوار العرب . وتدل الدلائل على أنه كانت فيهم جماعات مصمودية ، فيحدثنا صاحب «فتح الأندلس» أنه كان يرأس جماعة البربر بتاكرنا « في جبال رندة » زعيم يسمى عبد الرحمن بن عوسجة^(١) ، وهو جد بنى عوسجة المصموديين (من البتر أى البرانس) الذين كثروا فيما بعد في الأندلس وعمرروا نواحي جنوب شتيرية الغرب ، حتى صارت تسمى «بلاد عوسجة» ، وإليه أيضاً ينسب دانس بن عوسجة الذى أنشأ قصر أبى دانس Alcocer de Sal على مقربة من قلنبرة Colenbeira^(٢) في البرتغال الحالية .

ويذكر ابن القوطية أن رئيس بربر ناحية مورور أثناء دخول عبد الرحمن بن معاوية كان إبراهيم بن شجرة^(٣) ، وهو من المصامدة . ويذكر ابن القوطية أيضاً أن جماعة من الهواريين نزلت خلال عصر الولاة على مقربة من جيان ، والهواريون مختلف في نسبهم ، فهم من البتر حيناً ومن البرانس حيناً ، كما يختلف العرب في نسبة قضاة^(٤) .

وقد ذهب سيزار دوبلر في بحث قيم عن « منازل البربر في الأندلس » يبحث عن أسماء المواضع الإسبانية التي يمكن ردها إلى أصل بربرى . واستنتج من هذه الأسماء أن البربر لا يبد أن يكونوا قد سكنوها وأعطوها أسماءهم . واستطاع بذلك اكتشاف الكثير من منازل

(١) فتح الأندلس ، ص ٥٣ .

(٢) ابن حزم : الجمهرة ، ص ٤٦٥ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ٥٣ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

البربر مما لم يسجله المؤرخون ، ولا نستطيع القطع بأن هذه المنازل ترجع إلى عصر الولاية ، لأن تيار البربر لم ينقطع عن الأندلس طوال العصور الإسلامية ، ولكننا نستطيع القول بأن المواضيع التي ذكرها دوبلر في أقصى الشرق أو في الشمال أو قاصية الغرب يمكن اعتبارها منازل قديمة ترجع إلى عصر الفتح الأول ، لأن البربر الذين نزلوا الأندلس ابتداء من عصر الناصر كانوا يستقرون في الجنوب والوسط والشرق ، دون أن يستقروا في أماكن متطرفة كانت في ذلك الحين ميدان حرب . واعتاداً على ذلك يمكن القول بأن مواضيع مثل التالية يمكن اعتبارها من منازل البربر الأول في الأندلس :

Villa Nova de Ourem في البرتغال الحالية نسبة إلى بربر وهران .

Tunis في البرتغال الحالية نسبة إلى بربر تونس .

Alquerubim في البرتغال الحالية نسبة إلى بربر القيروان .

Arzila في البرتغال الحالية نسبة إلى بربر أرزيلا ، وهي أصيلا .

Adzenata في الشرق على مقربة من قسطليون Castellon نسبة إلى زناته .

Sanet أو Senet قرب لاردة نسبة إلى زناته .

Benisanet قرب طركونة نسبة إلى زناته .

Butsenit قرب لاردة نسبة إلى زناته .

Barasal قرب جواردا في البرتغال نسبة إلى بنى برزال (زناته) .

Mequinenza في الشغر الأعلى عند ملتقى الابره بنهيره الأشقر (Segre) نسبة إلى

مكناسة .

Ceneja قرب قسطليون نسبة إلى صنهاجة .

Cenija ضاحية من ضواحي سرقسطة نسبة إلى صنهاجة .

Azinhaga في البرتغال نسبة إلى صنهاجة .

Cotanes قرب بلد الوليد نسبة إلى كنامه .

- Cotanillos حتى من أحياء شقوبية نسبة إلى كتامة .
 Cotimos و Alcoutim في البرتغال نسبة إلى كتامة .
 Benigomar بناحية انكا نسبة إلى غمارة .
 Gómarra بناحية صورية Soria نسبة إلى غمارة .
 Gomeris و Gomeriz في جليقية نسبة إلى غمارة .
 Albornos بناحية أبله نسبة إلى البرانس .
 وغير ذلك كثير (١) .

وقد ذكرنا هذه المواضيع على سبيل المثال لا على سبيل الحصر لنستنتج أن البربر انتشروا منذ العصر الأول في نواحي شبه الجزيرة كلها . وقد اكتفينا بذكر المواضيع المتطرفة في أقصى الشمال الشرقي والشمال والغرب وتركنا غير ذلك من مواضع الوسط والجنوب والجنوب الشرقي والجنوب الغربي ، إذ لا تكاد تخلو ناحية من هذه النواحي أو مدينة من مدنها من منازل بربرية . ثم إننا - كما قلنا - لا نستطيع القطع بأن البربر نزلوا مواضع الجنوب والوسط والجنوب الشرقي والجنوب الغربي من أول الأمر (٢) .

بيد أننا نستطيع القول بأن المواضيع التي قامت فيها إمارات بربرية فيها بعد أو التي ولى عليها أمراء بنى أمية وخلفاؤهم ولاة من البربر كانت منازل بربرية من قديم الزمان ، لأن الأمراء لا يولون أميراً بربرياً على ناحية معظم سكانها عرب أو من أهل البلاد . ومن غير

(١) انظر :

CÉSAR E. DUBLER : Ueber Berbersiedlungen auf der Iberischen Halbinsel.

وقد نشره في " Romanica Helvetica " ، وهو عدد من " SACHE und ORT, Festschrift Jakob Jud " Band 20, pp. 183 - 203. Zuerich. Genf. 1942 في مجلة الأندلس .
 العدد الأول سنة ١٩٤٣ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٧ .

(٢) ودليل ذلك ما يذكره صاحب الأخبار المجموعة ، حيث يقول في كلامه عن الصراع بين العرب والبربر في الأندلس : « وكانت قد رأست البربر على أنفسهم ابن [بياض بالأصل] وحشدوا من جليقية وأستورقة وماردة وقرورية وطلبية ، فأقبلوا في شىء لا يحصيه عدد حتى أجازوا نهراً يقال له تاجه « (ص ٤٠) وهي عبارة تدل على أن جماعات البربر في النواحي التي ذكرها كانت كثيرة قبل هذه الفتنة حتى استطاعوا أن يحشدوا منها أعداداً لا تحصى . وقد هجر الكثير من أولئك البربر مواضعهم بعد ذلك على ما فصلناه ، ولكن بقيت منهم في كل من هذه النواحي جماعات قليلة . أما في نواحي طلمبية وماردة وقرورية فقد ظلت جماعات كثيرة منها على طول العصور الإسلامية .

التي ذكرها ابن حزم تكون خطأ واحداً يبدأ من نواحي جبال البرت عند لاردة ووشقة ثم ينحدر إلى ناحية مدينة سالم (قاعدة الثغر الأوسط فيما بعد) فقد نزلها بنو سالم من البرانس وأعطوها اسمهم، وسكن إلى جوارهم بنو الفرج وبنو عوسجة.

وفي الدائرة الواسعة التي تحيط بمدينة سالم والتي تضم شنتبرية والسهلة ووادي الحجارة نجد كتلة بربرية ضخمة تعمر هذه النواحي كلها إلى أحواز طليطلة، وهذه الكتلة تتكون من بنى الفرج وبنى سالم وبنى عوسجة وبنى صبرون وبنى شبيب وآل وهب بن عامر الهواريين، وكل هؤلاء من البرانس، ثم بنى عزون وبنى بلال وبنى نعمان وكلهم من البرت. وتمتد هذه الكتلة البربرية شرقاً فتشمل تيروال حيث نزل بنو غزلون وناحية البونت حيث نزل بنو قاسم، ثم تتصل هذه السلسلة البربرية، بناء على البيانات التي يقدمها صاحب الأخبار المجموعة، فتشمل مناطق طليطلة (جنوبى طليطلة) وماردة وقورية بين التاجه والدويره ثم تصل إلى ساحل المحيط عند قلنبرية حيث نجد فرعاً من بنى عوسجة وبنى دانس عند قصر أبى دانس.

ويذكر ابن حزم فرعاً من بنى الفرج استقروا في طرسونة أى فيما يلي جبال البرت من نواحي غالة، وهذه الجماعة إن هي إلا بقية من البربر الذين كانوا يعمرون النواحي القصية من الأندلس والذين كانوا يمتدون بحذاء خليج بسكاية ويعمرون حوض نهر المنبو ويتوغلون في جليقية، وقد اكتشف سيزار دوبلر - كما رأينا - مواضع ذات أسماء بربرية كثيرة في هذه النواحي القاصية.

وقد رأينا في كلامنا عن البربر والعرب كيف انسحب معظم البربر الذين كانوا يعمرون «ما وراء الدروب» أى شمالي نهر الدويره إلى الجنوب وعاد بعضهم إلى إفريقية، ورأينا كيف أن جمعهم أزعجت العرب واضطرت عبد الملك بن قطن إلى السماح لجند بلج بدخول الأندلس لينتقوا من فيه من العرب، ولولا أن أعداد أولئك البربر كانت كثيرة جداً لما أفرغت العرب إلى هذا الحد. ومعنى هذا أن ما يلي نهر دويره شمالاً والحوض الأعلى لنهر ابره ثم ما بين نهر الدويره وتاجه، هذه النواحي الفسيحة كلها كانت عامرة بالبربر وكانت لهذا دار إسلام في ذلك الوقت المبكر، ولم يخرجها من بلاد الإسلام ويجعلها بلاداً نصرانية أو بلاداً خلاء مفتوحة للامتداد النصراني من الشمال، إلا هذه الفتنة العمياء التي وقعت بين شعبي الإسلام الكبيرين اللذين فتحا هذا البلد وأدخلاه في نطاق الدولة الإسلامية

الواسعة^(١).

والأدلة كثيرة على أن البربر الذين دخلوا الجزيرة أول الأمر اختلطوا بعرب الطالعة الأولى المسَمَّين بالبلديين وأصبحوا معهم حزباً واحداً لا فرق فيه بين عربي أو بربري، بل كان الجانبان البياً واحداً على الشَّاميين أو عرب الطالعة الثانية. قال ابن القوطية في «افتتاح الأندلس»: «وتولى أمر قرطبة والشَّاميين والأمويين ثعلبة بن سلامة العامل، وانصرف عبد الرحمن بن علقمة إلى الثغر، وبقي عرب الأندلس وبربرها يحاربون الأمويين والشَّاميين ويتعصبون لعبد الملك بن قطن الفهري ويقولون لأهل الشام: بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا»^(٢). وقال في خبر ولاية أبي الخطار: «فلما أشرف من فح المائدة والحرب قائمة بين الشَّاميين والأمويين وبين البلديين والبربر ونظر الفريقان إلى اللواء خلوا الحرب ..»^(٣). وقال بعد ذلك: «فقال أهل البلد والبربر: سمعنا وأطعنا، ولكن لا محل لنا لهؤلاء الشَّاميين فيخرجوا عنا»^(٤). وقال بعد خبر تفريق الشَّاميين في الكور: «وبقى البلديون والبربر على غنائهم لم يتتصمهم شيء»^(٥). وقد ظل هذا الخلف بين البلديين والبربر قائماً حتى نهاية عصر الولاة، بل إن «الموالي» أنفسهم - وستحدث عنهم - كانوا يتقسمون قسمين: البلديين والبربر في ناحية والشَّاميين في ناحية أخرى، وكانت الصدارة بين الموالي للشَّاميين منهم.

ويؤيد صاحب الأخبار المجموعة ما قلناه عن اتحاد العرب البلديين مع البربر بقوله في سياق الحديث عن الصراع بين بلج وأصحابه والعرب البلديين: «فيناها محصوراً قد نزل أهل البلد من البربر والعرب وجلهم البربر على ماردة إذ حضرهم عيد فطر أو أضحى»^(٦) ثم يقول بعد ذلك: «فجمع له أهل البلد - العرب والبربر - جمعاً»^(٧).

(١) هذه البيانات مستقاة من «جمهرة» ابن حزم، ص ٤٦١ - ٤٦٧. وعبارة «الأخبار المجموعة» التي أشرنا إليها وأردت في ص ٤٠ وقد أوردناها بنصها فيما سبق.

(٢) ابن القوطية: افتتاح، ص ١٧.

(٣) نفس المصدر، ص ١٩.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) نفس المصدر، ص ٢٠.

(٦) الأخبار المجموعة، ص ٤٤.

(٧) نفس المصدر والصفحة.

١١٦- هل وقد كثر كلام المؤرخين المحدثين في أن العرب اختصوا أنفسهم بأحسن نواحي الأندلس ، فلم يتركوا للبربر إلا النواحي الجبلية أو القاحلة أو القصية نواحي الأندلس؟ في الشمال ، وأن ذلك كان من أكبر أسباب الثورة البربرية . ولكننا رأينا في كلامنا على هذه الثورة أن الذي أغضب البربر لم يكن احتجاج العرب لأحسن المواضع ، وإنما لسوء سياسة العرب جملة ، فقد تخاصم العرب فيما بين بعضهم وبعض بسبب سوء هذه السياسة لا بسبب انفراد فريق منهم دون آخر بخيرات البلاد . ذلك أن شبه الجزيرة الأيبيرية فسيح يتسع لأضعاف من نزل هناك من العرب والبربر معاً . ثم إن العرب لم يختاروا مواضعهم ، فهم لم يدرسوا شبه الجزيرة وبتبينوا الطيب من أرضها وغير الطيب ، ولكنهم استقروا حيث شاءت لهم المقادير على طول خطوط الفتح ، أي في النواحي التي عرفوها لأول دخولهم البلاد .

وقد فرَّق أبو الخطار عدداً عظيماً من الشَّاميين في الكور ، التي عرفت فيما بعد بالكور المجندة ، واختار لهم هذه الكور بنفسه ، أي أن الذين نزلوا لم يختاروها هم بأنفسهم ، أي أن العرب لم يكونوا يتخيرون بل كان استقرارهم في الغالب نتيجة مصادفات ، فقد رأينا مثلاً كثرة العرب وتزاحمهم في منطقة جيان ، والسبب في ذلك واضح يفسره قول ابن الخطيب في كلامه عن فتح جيان والبيرة ومالقة أن طارقاً «سار في معظم الناس إلى كورة جيان يريد طليطلة»^(١) . فلو لم يكن «معظم الناس» قد مروا بهذه الناحية لما كثر العرب فيها ، ولو أن العرب مروا أول الأمر بناحية قطلونية ورأوا خصب أراضيها لتزاحموا فيها ، ولكن لم يعرفها منهم إلا القليل في زمن متأخر فظلت شبه خلاء منهم ، لم يسكنها إلا جماعة من تُجَيِّب ، وقد أشرنا إلى ذلك .

ولدينا دليل واضح على أن العرب الأوَّل لم يختصوا أنفسهم دون البربر بأحسن الأراضين ، وهو أن عرب الطالعة الأولى ، طالعة موسى ، كانوا دائماً أحرافاً للبربر على الشَّاميين لأنهم تقاسموا معهم ما نزلوا به من البلاد ، وساءهم جميعاً - عرباً وبربراً - أن يحاول الشَّاميون مشاركتهم في هذه الأراضى فنفروا يدافعونهم عنها ، واشتدت الخصومة بين الجانبين .

(١) ابن الخطيب : الإحاطة (طبعة محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥) ، ج١ ، ص ١٠٧ . وقد نسب ابن الخطيب فتح هذه الناحية أول الأمر إلى طارق ثم عاد فصحيح ذلك في نفس الصفحة فقال : إن هناك من يقول إن ذلك الفتح تم في أيام موسى بن نصير سنة ٩٣ على يد ابنه عبد العزيز بن موسى أثناء ولايته على ما قلناه .

وحقيقة الأمر أن المسلمين الأوّل الذين دخلوا البلاد، عرباً وبربراً، استقروا حيث نزلوا أو ساروا، ولجأ كل فريق منهم إلى ما يناسب مزاجه من النواحي: فأما العرب فكانوا يفضلون دائماً البساتن والمنخفضات والنواحي الدافئة والقليلة المطر في الجنوب والشرق والغرب وناحية سرقسطة، وأما البربر فكانوا في بلادهم يعيشون في بلاد جبلية عالية، فألفوا مثل هذه البلاد في الأندلس، فاستقروا فيها باختيارهم.

ففي الجنوب مثلاً استقر العرب في شذونة واستجة، واختار البربر منطقة رندة الجبلية فسكنوها، وسميت تآكراً باسم بعض قبائلهم، وأعجبتهم نواحي قبرة ومورور وأشونة فنزلوها واختلطوا مع العرب في بقية نواحي الجنوب، ثم إن جماعات من البربر أحببت الانفراد بنواح يكونون فيها مستقلين، على مثل أحوالهم في بلادهم الأولى في إفريقية، فاستقروا فيما بين نهري دويره وتاجه، وهي نواحي هضاب مرتفعة تناسبهم من كل وجه.

١٦٧- تحول استقر البربر إذن إلى جانب العرب في بعض النواحي، ومنفردين بأنفسهم البربر إلى بلديين في نواح أخرى، واختلطوا في كل ناحية بالأهلين وارتبطوا معهم بروابط وأثره الزواج وتحولوا مع الزمن إلى « بلديين » أي أندلسيين. وقد كان هؤلاء البربر أثر عظيم جداً في انتشار الإسلام في الأندلس، فإن البربري قريب جداً من حيث المزاج والطبع - والأصل أيضاً - من أهل البلاد الأصليين، وخاصة أولئك الذين كانوا يعمرن الأرياف منهم، فامتزجوا بهم دون تكلف. ثم إن البربر لم يعرفوا عصبية الجنس التي أفسدت على العرب الكثير من أمورهم، وكانوا شديدي الحماس للإسلام، فقد كان الإسلام بالنسبة لهم رمز سيادة، فأظهروا العصبية له، واجتهدوا في نشره، وأعانهم على ذلك أنهم بطبعهم جنس متدين شديد التعلق بعقيدته، فلا غرابة والحالة هذه أن تكون هذه الجماعات البربرية التي انبثت في نواحي البلاد من أكبر العوامل في تحوّل أهلها إلى الإسلام.

ولو درسنا طبيعة الإسلام الأندلسي حتى نهاية القرن الرابع اهجري على الأقل، لتيينا أنها تشبه طبيعة الإسلام المغربي عامة من حيث التمسك الحرفي بأهداب العقيدة والتزام مذهب واحد والتعصب له، والحرص على تبجيل رجال الدين، والمتصوفين منهم بصفة خاصة، والميل إلى تقديس الأولياء وحب الجهاد في سبيل الدين وما إلى ذلك. وقد أشار ليفي بروفنسال إلى غلبة الطابع البربري على الأندلس بقوله: « وفي هذا الصدد، ربما كان

«الطابع البربري» أظهر وأوضح اليوم في إسبانيا وجنوب البرتغال من «الطابع العربي» بالمعنى الدقيق لهذا اللفظ، وذلك في كثير من ظواهر الحياة الريفية، والنشاط الزراعي» (١).

١٦٨ - غلبة
الزناتيين على البربر
الأول في الأندلس
وكان معظم من أقبل إلى الأندلس خلال هذه الفترة الأولى من الزناتيين، وكان زعماءهم كذلك زناتيين، فقد كان أبو زرعة طريف وطارق بن زياد زناتيين، وكان زعيم البربر في ثورتهم الكبرى التي أشرنا إليها زناتياً، وكان بنو الخليل وبنو وانسوس الذين أعانوا عبد الرحمن الداخل على إقامة إمارته زناتيين، وقد رأينا أن معظم أسماء الأماكن البربرية في نواحي أشتريس وجليقية زناتية. ثم إن البتر (ومنهم زناتة) كانوا أول أهل إفريقية إسلاماً، وقد انضمت جماعات منهم إلى المسلمين منذ أيام عقبة بن نافع وأسلمت واشتركت في فتح المغرب الأوسط والأقصى، وكان ولاية إفريقية يتخذون منهم حرسهم وخاصة جندهم (٢). وكان منهم زعماء الثورة في إفريقية، مثل ميسرة المطغرى وخالد بن حميد الزناتى. وذلك كله يؤيد غلبة العنصر الزناتى على من دخل الأندلس من البربر خلال هذه الفترة الأولى.

ومن المعروف أن الزناتيين كانوا أقرب إلى العرب وأشبه بهم من الصنهاجيين، فقد كانوا بدواً مثلهم، ثم إنهم كانوا على الوثنية حتى دخول المسلمين البلاد، ففتح لهم الدين الجديد أبواب التحضر والانتظام فساروا جنباً إلى جنب مع العرب الأول، وخاصة البلديين منهم. وكان هؤلاء البربر في مجموعهم أبسط طبعاً وأكثر سذاجة من العرب، وأقرب إلى تذوق بساطة الإسلام من كثيرين من العرب الذين أقبلوا إلى الأندلس بعد قلب طويل في الفتن في المشرق، ولهذا كان أولئك البربر يصرون على التمسك بمبادئ العقيدة، وكانوا يحاجون العرب ويتقدون تصرفاتهم معهم مستندين إلى أصول الشريعة، كما كان يلقتها لهم دعاة إسلاميون انبثوا بين صفوفهم. ولهذا أيضاً سهل اجتذاب الكثيرين من أولئك البربر إلى مبادئ الخارجية، الإباضية والصفوية بصفة خاصة، لأن دعواتها بين البربر كانوا كثيرين ولأن ظاهر هذه المبادئ، كما كان أولئك الدعاة يشرحوها، أقرب إلى مبادئ الإسلام الصحيح.

LÉVI - PROVENÇAL, Hist. de l'Espagne Musulmane (2e. éd. Paris, 1950) vol. I p. 880. (١)

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٤.

١٦٩- البربر وإلى هذه الجماعات البربرية يرجع جانب كبير من دافع العرب إلى الفتح في غالة الاسترسال في الفتوح في غالة ، كانت جماعات البربر تجوز إلى الأندلس وقلوبها معلقة بالفتح والجهاد وما يتعلق بهما من مغنم وأسلاب ومكاسب ، وكانوا يتجمعون في الأندلس فلا يستطيع العمال تركهم دون عمل يتسكعون في العاصمة وحوها ، فكانوا ينهضون معهم للغزو . ولا شك أن حملات واسعة المدى ، كتلك التي قام بها السمع ابن مالك أو عنبسة بن سحيم ، ما كانت لتتم لولا وجود هذه الجماعات البربرية المتفوزة المتعطشة للفتح ومغانمهم . وكلما زاد نشاط الفتح زاد هؤلاء البربر ضراوة على الحرب وطمعاً في المغنم ، وربما اشتد طمع بعضهم في الأسلاب فكان ذلك من أسباب فشل بعض الحملات .

كان في هؤلاء البربر إذن قوة تدفعهم إلى الاسترسال في الفتوح ، كما كانت شعوب المتبربرين يدفع بعضها بعضاً نحو أراضي الدولة الرومانية .

هكذا يمكننا تعليل جانب من هذا النشاط الحربي العظيم الذي أبداه المسلمون في فتوح الأندلس وغالة .

ومن العسير جداً أن نقدر أعداد العرب والبربر الذين اشتركوا في هذه الأعمال الحربية ، لأن أعداد من اشترك منهم في الجيوش الرسمية - وهي الأعداد التي رواها المؤرخون - لا تكون إلا نسبة ضئيلة من العرب والبربر الذين هاجروا إلى الأندلس على حياة تيار متصل : فقد كانت الاضطرابات السياسية في المشرق ، وميل خلفاء بني أمية إلى القيسية حيناً وإلى اليمينية حيناً ، سبباً في هجرة جماعات من العرب معظمهم من اليمينيين والمدنيين إلى الولايات وخاصة المغرب والأندلس ، وقد استقر نفر قليل من هؤلاء العرب في إفريقية واستمر الأكثرون في طريقهم حتى حطوا رحالهم بالأندلس ، أما البربر فكان تيارهم أقوى وأعدادهم أكبر ، ولا يمكننا تصور تحول بلد كالأندلس إلى الإسلام هذا التحول السريع إلا بافتراض أن أعداد المهاجرين المسلمين كانت كبيرة فعلاً^(١) .

(١) ويؤيد ذلك بروح قول الرازي : « إن الذي أزعج موسى من الأندلس أبو نصر رسول الوليد ، فقبض على عاتقائه وثناء قافلاً ، وقل معه من أحب إلى المشرق ، وكان أكثر الناس قطنوا ببلاد الأندلس لطبيعتها فأقاموا فيها » مما يدل على أن عدداً قليلاً جداً ممن ورد البلاد من الفاتحين المسلمين قد غادرها وعاد إلى إفريقية أو إلى المشرق . وستلاحظ أن معظم من يقبل إلى الأندلس يستقر فيه ولا يعود يفارقه أبداً (المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٧) .

ومن الطريف أن نلاحظ أن البربر - على حداثة عهدهم بالإسلام - كانوا أكثر تمسكاً بالإسلام وحامساً للفتح من العرب ، لأن الإسلام كان وسيلتهم الأولى في النهوض بأنفسهم والاحتفاظ بحقهم كأنداد للعرب وسادة في البلاد المفتوحة وأصحاب حق في الغنائم والأرضين ، ولهذا نراهم يحتجون دائماً على العرب ويتهمونهم بمخالفة الدين ويطالبونهم بتنفيذ أشراته . وكانوا إذا استقروا في الأرياف استمسكوا بالإسلام حتى يميزوا أنفسهم عن أهل البلاد ، ولهذا لا نبالغ إذا قلنا إن جانباً عظيماً من الفضل في إسلام أهل الأندلس يرجع إلى هؤلاء البربر الذين آمنوا بالدين الجديد في سذاجة وقوة ، واحتفظوا بهذا الإيمان لأنه يكسبهم حقوقاً معنوية ومادية لا يبلغونها بدونه .

وقد أساء العرب معاملة هؤلاء البربر من أول الأمر كما رأينا ، ففنا في نفوسهم شعور من الخوف من العرب ، حتى إذا قامت الثورة البربرية في إفريقية وانتقلت إلى الأندلس وقعت القطيعة بين الحيين وصار الأمر بينهما إلى عداة سافر خطر . وقد انتهى الدور الأول من الصراع بانتصار العرب ، فهاجر من البربر من هاجر ، وأقام على خوف من أقام ، حتى بدأت بشائر الدولة الأموية فانضموا إلى عبد الرحمن ، وهم لا يكادون يثقون في حسن نواياه ، وكان لابد له من أن يخوض صراعاً طويلاً معهم - كما فعل مع غيرهم - حتى يخضعهم للدولة الجديدة ، وانتهى الأمر بهم إلى الطاعة والاستقرار .

١٧٠- البربر ولا نزاع في أن البربر انضموا إلى البلديين وكوّنوا حزباً واحداً منذ بدء والعرب البلديون الصراع بين هؤلاء وبين الشاميين كما قلنا ، ولكن انضمامهم هذا لم يكن خالصاً ولا صادقاً ، لأنهم عرفوا من ويلات البلديين إلى ذلك الحين ما نفّرهم من العرب جملة ، ولصاحب الأخبار المجموعة عبارة عظيمة الدلالة ذكرها أثناء روايته للنزاع بين بلج ابن بشر والبلديين ، قال : « فلما بلغ ابنه (ابن عبد الملك بن قطن وهما أمية وقطن) ما كان ، حشداً من أقصى أربونة ، وراجعا أهل البلد والبربر وسيوفهم تقطر من دماء البربر ، فرضيت البربر أن تنال ثأرها من أهل الشام ، فإذا فرغوا كان لهم في أهل البلد رأى » (١) مما يدل على ما كان يخامر نفوس البربر جميعاً نحو العرب - بلديين وشاميين - من الكراهية والخوف .

وقد أشرنا إلى ما خلفه القيسيون من الأحقاد في قلوب البربر بسبب أفاعيلهم فيهم

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤١ - ٤٢ .

عندما نزلوا البلاد بقيادة بلج ، ورأينا أن البلدين انضموا إلى الشأميين أثناء هذه المحنة ، فلما انتهت بالقضاء على البربر وتقتيلهم في كل ناحية زاد نفور من بقي منهم ، وأخذوا ينظرون إلى العرب نظرهم إلى عدو ، فكانوا لا يسرون معهم إلا على خوف ، ومن دلائل ذلك ما يرويه ابن القوطية في أخبار عبد الرحمن بن معاوية الداخل وإنشائه دولته ، قال : « فلما كان بالعشى ركب مع ثقات من مواليه ورجاله ونفر من العسكر ، فسمع البربر يتكلمون في العسكر بالبربرية ، فدعا بمواليه من البربر مثل بنى الخليل وبنى وانسوس وغيرهم وقال لهم : خاطبوا بني عمكم وعظومهم وأعلموهم أنه إن تغلب العرب وقطعوا دولتنا فلا بقاء لهم معهم ، فلما أظلم الليل دنوا من العسكر ، وخاطبوهم بالبربرية فأجابوهم إلى ما أحبوه ووعدهم ، إلى أن انحرفوا عن عسكرهم ، فلما أصبح لهم (كذا) قالوا للعرب : إننا لا نحسن الحرب إلا فرساناً فاحملوا من بقي منا على الخيل ، فأرجلوا العرب وحملوا البربر على خيلهم . ودخلوا رجالة فخرقوا إلى عبد الرحمن ، ووقعت الهزيمة على عبد الغفار » (١)

مما يدل على أن بعض البربر الذين كانوا في صفوف عبد الرحمن كانوا متخوفين مترددين يفكرون في الانقلاب عليه ، وأنه استعان على كسبهم بتخويفهم مما سيصيبهم على أيدي العرب إذا هو انهزم ، وكان هذا التخويف كافياً لتغيير رأيهم فأخلصوا في القتال في صفوفه ونصروه .

١٧١ - جماعات
السودان في
الأندلس

وينبغي أن نذكر أنه كانت هناك إلى جانب البربر الذين هاجروا إلى الأندلس واشتركوا في الفتح جماعات من السودان أو السود ، فقد قال صاحب « فتح الأندلس » مثلاً في كلامه عن غزوات موسى : « وقدم السودان بين يديه للفتح والغارة » (٢) ، ويبدو أن أعدادهم كانت قليلة ، ولهذا كان أثرهم قليلاً . والغالب أنهم ظلوا مجرد جنود يحاربون إلى جانب هؤلاء وأولئك ، ثم اندرجوا في جيوش الدولة الأموية بعد ذلك ولم نعد نسمع عنهم .

١٧٢ - تأثر
البربر بالبيئة
المحلية

تأثرت جماعات البربر المستقرة في الأندلس بالبيئة الجديدة تأثراً عظيماً ، فكان الجيل الأول منهم لا يكاد يتقضى حتى يطلع الجيل الجديد أندلسياً قد أنسى أصله واتخذ الأندلس وطناً ، فأما من الناحية العقلية المعنوية فكانوا يجتهدون

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٢ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٥ .

في التعرب : يتعلمون العربية ويقبل من له ميل منهم على دراسة الإسلام والتفقه فيه ، وأما من الناحية المعاشية فوجد البربر قد ارتبطوا بمن يجاورونهم من أهل البلاد بالصحراء والقرابة ، وأخذوا عن أمهاتهم الإسيانيات لغتهم في الحديث ، أى أن شأن أولئك البربر كان شأن غيرهم من مهاجرة العرب ، طوهم البيثة الأندلسية الغلابة في ثناياها ، فأصبحوا أندلسيين ، ومنهم من اتخذ لنفسه اسماً عربياً زيادة في التعرب ، ومن هنا كانت أسماء جماعاتهم ذات الأسماء العربية التي ذكرنا بعضها . ومن الواضح أن البربر كانوا أسرع اندماجاً من العرب في البيثة الجديدة ، فقد حالت بين العرب وبين الاندماج السريع الكامل عصبيتهم ولغتهم العربيتان ، أما البربر فلم يكن هناك ما يحول بينهم وبين الاندماج ، لا عصبية ولا لغة مكتوبة . ثم عمل الإسلام عمله فيهم ، فانتظموا وتحضروا ، وأصبحت غالبيتهم مع الزمن في جملة العرب الأندلسيين . وقد كان هؤلاء الأندلسيين الذين رجعوا إلى أصل بربري أعظم الأثر في بناء الأندلس الإسلامي من كل ناحية .

وقد أشار ليفي بروفنسال إلى أن الزواج بينهم وبين العرب كان قليلاً أو منعديماً ، وليس لدينا ما يؤيد ذلك ، لأن العرب مها قبل في اعتزازهم بأنفسهم لم يكونوا يعتبرون أنفسهم جنساً متميزاً بدمه عن غيرهم ، كما كان الحال مع الرومان أو القوط ، بل كانوا من أكثر الشعوب امتزاجاً بغيرهم . وللإسلام في ذلك أثر واضح .

جـ - المسوالي

ولا يكتمل الكلام على العرب والبربر بدون الإشارة إلى الموالى ، فقد كانوا خلال هذه الفترة كلها عاملاً من أكبر العوامل في توجيه تيار الحوادث ، ثم كانت لهم بعد ذلك اليد الطولى في إقامة دولة عبد الرحمن الداخل .

١٧٢ - موالى - مذكورين باسم « موالى بنى أمية » - لأول مرة في حديث ابن
بنى أمية القوطية عن بلج بن بشر وفراره إلى ناحية طنجة بمن نجا من العرب من
« معركة الأشرف » ، وذلك حيث يقول : « وانخذل بلج بن بشر في عشرة آلاف حتى نزل
بمدينة طنجة : منهم ألفا مولى وثمانية آلاف عربى » (١) . ولسنا نجد هؤلاء الموالى قبل ذلك

(١) وهؤلاء الموالى جزء من عدد عظيم من الموالى كان هشام بن عبد الملك قد بعث بهم إلى إفريقية . قال ابن القوطية : « فقدم كلثوم (بن عياض) إفريقية ومعه ثلاثون ألفاً من موالى (بنى أمية وعشرون ألفاً من بيوتات العرب » ، وقد انبزم هذا الجيش أمام البربر في موقعة بقندورة (أو بقندورة) ولم ينج من الجيش العربى إلا بلج وأصحابه ، ثم « انخذل بلج بن بشر في عشرة آلاف حتى نزل بمدينة طنجة ، وهى المعروفة بـ « الحضراء » ، منهم ألفا مولى وثمانية آلاف عربى » ، ص ١٥ .

ذكر أكتلة «متاسكة» ، وإنما نجد أفراداً منهم مذكورين هنا وهناك مما يسمع لنا بالقول بأن قيام «موالى بنى أمية» كحزب أو كقوة سياسية في الأندلس يرجع إلى تاريخ دخول بلج ابن بشر الأندلس ، وقد انضم إليهم بعد ذلك من كان في الأندلس من موالى بنى أمية ومن دخلها بعدهم ، ثم من دخل في ولاء البيت الأموى من أهل البلاد .

ولا يتضح من إشارة ابن القوطية هذه ما إذا كان أولئك الموالى من موالى بنى أمية في المشرق أو من دخل في ولائهم من أهل المغرب ، ولكن ما لدينا من أخبارهم بعد ذلك يدل على أن عدداً قليلاً منهم كان من موالى المشرق وأن أكثرهم كانوا من أهل المغرب الذين دخلوا في ولاء بنى أمية أو عيالهم . ومن الجدير بالملاحظة أننا نجد فيهم قبيلتين بربريتين كاملتين ، هما بنو الخليل وبنو وانسوس (١) .

ولا نزاع في أن إفريقية كانت تضم عدداً عظيماً من موالى البيت الأموى الذين كان الخلفاء يبعثونهم مع الجيوش ، فحينما خرج كلثوم بن عياض من المشرق لقتال البربر مثلاً كان جيشه يتكون من «عشرة آلاف من بنى أمية وعشرين ألفاً من بيوت العرب» (٢) ، والمراد ببنى أمية هؤلاء موالىهم من أهل الشام أو العراق وفارس ، ومن البلى أن الكثيرين من هؤلاء الموالى المشاركة قد شاركوه في فتح الأندلس واستقروا فيه ، وتكونت منهم ، ومن انضم إليهم من دخل في ولاء بنى أمية من أهل المغرب والأندلس ، هذه العصبة القوية التى سيكون لها أعظم الأثر في مجرى الحوادث فيما بعد . وقد دخل في ولاء بنى أمية نفر كبير من أهل المغرب ودخل في ولاء عيالهم ، وخاصة موسى بن نصير ، عدد عظيم كذلك ، وقد ارتبط هؤلاء جميعاً برابطة الولاء نحو البيت الأموى حتى البربر الذين دخلوا في ولاء بنى أمية كانوا أقرب إلى إخوتهم في الولاء منهم إلى بنى عمومهم من البربر ، مما يدل على أنهم كانوا يعتبرون رابطة الولاء الجديدة أقوى من رابطة العصبة الأولى (٣) .

ويبدو أن التفرقة بين الموالى وغيرهم كانت واضحة في ذلك العصر ، وأن الموالى كانوا معتبرين في مركز اجتماعى ومعنوى لا يقل عن العرب ، بل إننا نلاحظ أن العرب كانوا يميلون إلى أن يعتبروا أنفسهم موالى ، فقد ذكر ابن القوطية في أخبار أرتباس أنه «دخل

(١) كان بنو وانسوس موالى عبد العزيز بن مروان . (ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢١) .

(٢) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ١٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

وقد كان بنو وانسوس موالى عبد العزيز بن مروان . نفس المصدر ، ص ٢١ .

عليه عشرة من الشّاميين فيهم أبو عثمان وعبد الله بن خالد وأبو عبدة ويوسف بن بخت والصميل بن حاتم ، فسلموا وجلسوا على الكراسى المحيطة بكرسيه ، فلما أخذوا مقاعدهم وحيّا بعضهم بعضاً دخل ميمون العابد ، جد بنى حزم البوابين ، وهو أحد الموالى الشّاميين.. فقال الصميل : يا أرتباس ، ما يعجزك من سلطان أبيك إلا نفاذ الطيبة : أدخل عليك ، وأنا سيد العرب بالأندلس ، ويدخل أصحابى هؤلاء معى ، وهم سادات الموالى بالأندلس ، فلا تزيدنا من الكرامة على القعود على العيدان .. « (ص ٣٨-٣٩) .

أى أن الصميل وصف العشرة الذين كانوا معه بأنهم من الموالى ، وابن القوطية يقول إنهم كانوا عشرة من الشّاميين فقط ، مما يُفهم منه أن الشّاميين جميعاً كانوا يعتبرون وصفهم بالموالى شرفاً لهم ، ويؤيد ذلك أن الصميل قال لهم بعد ذلك : « أنتم ملوك » ولم يكن ليصفهم هذا الوصف لو لم يكونوا من سادات العرب جملة ، لا من الموالى فحسب .

وظاهر أن أعداد هؤلاء الموالى زادت في الأندلس زيادة عظيمة ، بدليل أن بلج بن بشر عندما سار للقاء اليمينة الذين كان يقودهم عبد الرحمن بن علقمة وأمية وقطن ابنا عبد الملك بن قطن خرج في « عشرة آلاف من الأمويين والشّاميين »^(١) . ثم تزايدت أعدادهم بعد اضطراب الأمر على الأمويين في المشرق ، ومصداق ذلك ما يذكره صاحب الأخبار المجموعة من أن « الطلب حينما اشتد على بنى أمية هربوا إلى الآفاق ، وكانوا يسمعون في الرؤية أن مستراحهم بالمغرب ، فنزع أكثرهم إلى إفريقية»^(٢) ، ولا بد أن الكثيرين منهم عبروا إلى الأندلس ، وسرى براهين ذلك فيما يلي من الأحداث .

١٧٥-الموقف وكان هؤلاء الموالى يعتبرون أنفسهم تابعين للبيت الأموى أو لمن عهد إليه السياس للموالى الأمويون بالولاية ، وهم لهذا لم ينضموا إلى عبد الملك بن قطن لأنه انتزع الأمر من الوالى الرسمى الذى سلفه وهو عقبية بن الحجاج ، وحينما أقبل بلج بعهد خاله كلثوم بن عياض عامل هشام انضموا إليه ، فلما قُتل بلج انضموا إلى خليفته ثعلبة بن ثوبة ، وكانوا لهذا يجاربون البلديين لأنهم كانوا يعتبرونهم ثائرين على بنى أمية ، ومصداق ذلك ما يقوله ابن القوطية : « وانصرف عبد الرحمن بن علقمة إلى الثغر ، وبقي عرب الأندلس وبربرها يجاربون الأمويين والشّاميين ، ويتعصبون لعبد الملك بن قطن الفهري ، ويقولون

(١) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ١٥ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٥٠ .

لعرب الشام : بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا ..» (١).

وبقى هؤلاء الموالى إلى جانب الشّاميين حتى أقبل أبو الخطار ، ولا نسمع لهم ذكراً في عهده ، والظاهر أنه فرّقهم في النواحي فيمن فرق من الشّاميين ، لأننا سنجد جماعات منهم عند مجيء عبد الرحمن متفرقة في نواحي ريه وشذونة وتاكرنا ، ولكن غالبيتهم العظمى بقيت في قرطبة وفيها زعماءهم من أمثال يوسف بن بخت ، وأمّية بن يزيد ، وتمام بن علقمة ، وأبو فرّجة .

وحيثما انتصر يوسف الفهرى على أبى الخطار وتحلص منه ، بمعاونة الصميل بن حاتم ، اعتبر نفسه الموالى الشرعى وحاول لهذا أن يضع يده على موالى بنى أمية ، فجعل يسميهم «موالينا ويظهر الميل إليهم» (٢) على اعتبار أنه الموالى الشرعى للأندلس والنائب عن خلفاء بنى أمية وصاحب حق الولاء على مواليتهم . ولو قد كان يوسف صاحب رأى وسياسة لأفاد منهم ولقوى مركزه بهم في صراعه المقبل مع عبد الرحمن بن معاوية ، ولكنه كان ضعيف الرأى بعيداً عن السياسة ، وكان أمره كله بيد وزيره الصميل بن حاتم ، فاستطاع هذا أن يكسبهم إليه ، فكانوا إلى جانبه إلى أن ظهر عبد الرحمن الداخل .

ولم يعلُ أمر موالى بنى أمية في فترة كما علا خلال الفترة التى سبقت قدوم عبد الرحمن ، فقد كانوا كتلة طيبة متناسقة من الرجال الأشداء . وقد أيدوا يوسف الفهرى والصميل لتحاملها على القحطانية (٣) ، لأنهم كانوا يكرهون هؤلاء القحطانيين (اليمنيين) ورؤساءهم ، فكانوا خير نصير ليوسف والصميل في صراعها مع أبى الصباح وغيره من كبار اليمنيين . قال صاحب الأخبار المجموعة : « وكان لبنى أمية يومئذ بلاء عظيم معروف وصبر محمود ، فكانوا من يوسف بأشرف المنازل ومن الصميل وجميع قيس ومضر ، فخرجوا مع قيس فيمن قوى من بنى أمية » (٤) .

فلما أقبل بدر مولى عبد الرحمن واتصل بهم بدأ موقفهم من المضرة يتغير، لأن
بدرأ خاطبهم بأحب لغة إلى نفوسهم ، وأفهمهم أن انضمامهم للأمر الجديد
إنها هو إنقاذهم من فوضى العصبيات فى الأندلس . والمراجع فى خلاف على

١٧٦- للوالى
وقيام الدولة
الأموية

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٠ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢١ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢١ .

(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٦٦ .

ما اتفق معهم عليه : هل طلب منهم العمل على « إجارة » عبد الرحمن وإيوائه لإنقاذه من البربر فقط ، أو تحدث إليهم في تحويل السلطان إلى عبد الرحمن وإقامة دولة جديدة . والرأى الثانى أصح ، لأن تطور الحوادث يؤيده ويدل على أنهم كانوا يسعون لتمهيد السلطان لعبد الرحمن لا مجرد إيوائه وتأمينه .

ولم يُخَفَّ ذلك على الصميل ، رغم محاولة موالى بنى أمية خداعه ، وكان الرجل رغم إسراره فى الشراب وتشعث ذهنه ذكياً يفهم بواطن الكلام ، ولهذا لم يكذب يوافق على إيواء عبد الرحمن ويعد موالى بنى أمية بإرغام يوسف على إجارته وتزويجه ابنته ، حتى روى الأمر على نفسه وتبين خطورته ، فبعث من استوقف رسوليهم فى منتصف الطريق ، وأسرع بنفسه على فرسه الأبيض « الكوكب » وقال لها : « إني منذ أتيتموني برسول ابن معاوية وكتابه لم أزل فى إدارة ، فاستحسنتم ما دعوتما إليه ، ثم كان منى إليكما ما كان . فلما فارقتما رؤيت فيه ، فوجدته من قوم لوبال أحدهم فى هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم فى بوله . وهذا رجل قد حكمنا عليه ، مع ما له فى أعناقنا (يريد يوسف الفهرى) ... وأنا أعلمكما أن أول سيف يسلم عليه (أى على عبد الرحمن) فسيفى ، فبارك الله لكما فى رأيكما .. »^(١)

وهى عبارة خطيرة الدلالة ، لأن الصميل كشف بها عن أعمق ما كان يدور بنفوس الموالى ، وأعلن إليهم عدااه الصريح لما يريدون ، ومن هذه اللحظة فهم هؤلاء الموالى ألا خير هناك يرجونه من يوسف والصميل والمضرية جملة ، وبدأت أفكارهم تنجس وجهة أخرى . اتجهوا نحو اليمانيين الذين كانوا يكرهونهم ويحاربونهم حتى هذه اللحظة ، وقد جاء هذا التغير الحاسم دليلاً على ما كان يمتاز به هؤلاء الموالى من تمام المعرفة بأحوال البلد وسلامة حسهم السياسى ، فقد سارت قضية مولاها عبد الرحمن من ذلك الحين صعداً ، وقد قال أبو عثمان عبيد الله بن عثمان أحد كبار هؤلاء الموالى يصف هذا التحول : « فانقطع رجاؤنا من مضر وربيعة بأسرها ، ورجع رأينا إلى أطباء اليمن وإدخالهم فى رأينا ، ففعلنا ذلك من قورنا : لم نمر بيهانى له بال وقتنا به إلا عرضنا عليه أمر ابن معاوية ودعوانه إليه ، فألفينا قوماً قد وغرت صدورهم يتمنون شيئاً يجدون به سبيلاً إلى طلب نأرهم ، ورغبوا فى عقد بنى أمية بالأندلس ، ثم رجعتنا إلى جندنا وقد يتسنا من مضر فابتعنا مركباً .. »^(٢)

(١) الأبحار المجموعة ، ص ٧٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٤ .

ولصاحب « فتح الأندلس » عبارة على جانب عظيم من الأهمية تبين موقف هؤلاء الموالى وعلاقتهم بعبد الرحمن وبنى أمية ، وذلك حيث يقول : « وشاور (عبد الرحمن) كل من معه من الأمويين فقالوا : إنها يرضى لك هذا الفهرى ببعض أعماله التي هي أعمالك وأعمال جدك ، وإنها هو عامل لعامل ابن عمك ، فيخرج عهده الذي يحاجنا به ، فإنها هو من عمال جدك أمير المؤمنين هشام ، فلا والله لا نرضى لك بهذا حتى نكافحه دونك ويعود إلى حالته الأولى ويترك الأمر لك » (١) . أى أن قدوم عبد الرحمن قد حل رابطة الولاء التي تربطهم إلى هذا الفهرى الذى هو فى الواقع عامل لعامل إفريقية ، وعامل إفريقية من عمال بنى أمية ، فما معنى الولاء له وعبد الرحمن حفيد هشام مقيم بينهم ؟

والواقع أن موالى بنى أمية قاموا بدور خطير جداً فى إقامة أمر عبد الرحمن وتحويل تاريخ الأندلس كله وجهة جديدة ، ولولا مؤازرتهم له والتفافهم حوله لما قام أمره ، ولولا إخلاصهم له ولبنيه لما استطاعت الإمارة الأموية أن تسير على هذا النحو الموفق الذى سارت عليه .

١٧٧- مسوال وقد دخل الكثيرون من أهل الأندلس فى ولاء بنى أمية بعد الفتح ، فقد من أصول إسبانية قال ابن حزم مثلاً فى « الجمهرة » فى سياق الكلام عن بنى قسى : « كان قسى قومس الثغر فى أيام القوط ، فلما افتتح المسلمون الأندلس لحق بالشام وأسلم على يدي الوليد بن عبد الملك ، فكان ينتمى إلى ولاته ، ولذلك كان بنو قسى فى أول أمرهم ، إذا وقعت الفتنة بين المضرية والبيانية يكونون فى جملة المضرية ، فولد قسى : فُرْتُون وأبو نور وأبو سلامة ويونس ويحيمى » (٢) وتحدثنا الحوليات الأندلسية عن عدد كبير من هؤلاء الموالى الأندلسيين وبيوتهم : بنو بارون ، بنو غومس ، بنو غرسية ، بنو قارله ، بنو مرتين ، وغيرهم . فقد دخل آباء هذه البيوت أول الأمر فى ولاء بنى أمية فى المشرق ، ثم انتقل ولاؤهم إلى بنى أمية الأندلسيين ، وظل بعضهم محتفظاً بهذا الولاء ، واندرج بعضهم الآخر فى عداد المولدين . ولا شك أن هذا الولاء سار على نفس الأسس التى جرى عليها نظام الولاء فى المشرق ، مع فرق واضح : هو أن الموالى فى الأندلس كانوا موالى البيت الأموى لا موالى قبائل عربية ، كما كان الحال مع الكثير من الموالى الفرس ، فلم تذكر الحوليات الأندلسية

(١) فتح الأندلس ، ص ٥٢ .

(٢) ابن حزم . الجمهرة ، ص ٤٦٧ .

ولاء قوم لقبيلة إلا نادراً ، فقد ذكر ابن حزم مثلاً في « الجمهرة » من بيوت البربر بنى سالم وبنى الفرج وقال إنهم موالى بنى مخزوم^(١).

١٧٨- طبيعة وليس لدينا نص يثبت أن هؤلاء الموالى الأندلسيين أو بعضهم كانوا موالى ولاء الأندلسيين عتاقة إلا في حالات قليلة ، فقد ذكر المؤرخون أهل ناحية من نواحي ماردة باسم « موالى موسى » وهم موالى موسى بن نصير ، ويغلب على الظن أنهم دخلوا في ولاء موسى بعد فتح الناحية عنوة فأعتقهم وصاروا مواليه . وذكر ابن الفرضى في حديثه عن بعض علماء الأندلس مثل سعدان بن إبراهيم .. بن زياد وابنه قاسم أن الأب كان « مولى الإمام عبد الرحمن بن معاوية ولاء عتاقة »^(٢) . ولو قد كان سعدان هذا وأمثاله من موالى بنى أمية الذين أتوا من المشرق لاكتفى ابن الفرضى بالقول بأنه مولى بنى أمية ، كما هي عادته ، أما وقد ذكر أنه مولى عتاقة فلا يفسر إلا بأنه كان ممن صاروا إلى ملكية الأمويين من أهل البلاد أو البربر ثم أعتقوهم فصاروا مواليتهم بالعتاقة.

ويؤيد هذا ما يذكره ابن الفرضى عن عالم آخر هو إسماعيل بن بدر بن إسماعيل بن زياد إذ يقول إنه « مولى نعمة لبنى أمية من أهل قرطبة »^(٣) ، وموالى النعمة هم موالى العتاقة مع اختلاف يسير ، هو أن مولى النعمة لا ينبغي أن يكون رقيقاً ثم أعتق ، بل قد ينعم عليه بالولاء كشارة من شارات الإعزاز والتقدير . وهم في الأندلس يختلفون عن الموالى إطلاقاً ، لأن ابن الفرضى يذكر الكثير من الموالى محدداً ولاءهم الأول أو مكتفياً بالقول بأنهم موالى بنى أمية ، مثال ذلك : إسماعيل بن خلف المعروف بابن الحيازة من أهل سرقسطة « وينسب إلى ولاء بنى أمية »^(٤) ، وإسماعيل بن القاسم بن عبدون « مولى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان من أهل قاليقلا »^(٥) ، وأسلم بن عبد العزيز بن هاشم « مولى عثمان بن عفان رحه الله »^(٦) ، وحرث بن أبى سعد « مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية »^(٧) ، وحسن بن عبيد

(١) نفس المصدر ، ص ٤٦٥ .

(٢) ابن الفرضى : علماء ، ترجمة رقم ٥٤١ ، ١٠٧٠ .

(٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس (طبعة كوديرا ، مدريد ١٨٩٢) ترجمة رقم ٢١٤ .

(٤) نفس المرجع ، رقم ٢٢٠ .

(٥) نفس المرجع ، رقم ٢٢١ .

(٦) نفس المرجع ، رقم ٢٧٨ .

(٧) نفس المرجع ، رقم ٣٢٤ .

الله بن محمد .. بن رافع «مولى رسول الله ﷺ» (١)، وزكريا بن يحيى بن عايذ بن كيسان «مولى هشام» (٢)، وسليمان بن عبد الرحمن بن يزيد «مولى معاوية بن أبى سفيان» (٣)، وهكذا.

وقد يكتفى المؤرخون بقولهم: «من الموالى» (٤)، كما هى الحال مع سعيد بن حميد بن عبد الرحمن، أو بقولهم: «مولى لهم» (٥) كما هى الحال مع سعيد بن عثمان بن سليمان التجيبى. وقد يذكر الولاء محددأً فى دقة كقول ابن الفرضى فى ترجمة شمر بن نمير: «مولى بنى أمية ثم لآل سعيد بن العاصى» (٦). وقد يرد ذكر الولاء فى صورة غير واضحة، كقول ابن الفرضى فى ترجمة سهل بن إبراهيم بن نوح: «نسبه فى البربر ويوالى بنى أمية»، وقد أشرنا فيها سبق إلى دخول أعداد من البربر فى ولاء الأمويين، فقد رأينا أن بنى وانسوس يعتبرون أنفسهم موالى عبد العزيز بن مروان.

١٧٩- موالى وإذن فقد عرف الأندلس فى هذا الرقت المبكر نظام الولاء، وكان الموالى الاصطناع إما مشاركة أقبلا إلى الأندلس مرتبطين بروابط ولاء قديمة للبيت الأموى أو لأفراد منه، أو مغربيين دخلوا فى ولاء بنى أمية أو قوادهم أو بعض قبائل العرب، وانتقلوا إلى الأندلس محتفظين بهذا الولاء، أو إسباناً دخلوا فى ولاء بنى أمية أو قوادهم وظلوا محتفظين، هم وأبناؤهم، بهذه العلاقة.

والتصوص التى بين أيدينا لا تسمح لنا بالحكم على طبيعة ولاء الإسبان، ولكن الأحداث لا تدل على أنهم كانوا موالى عتاقة، بل موالى اصطناع، دخلوا فى ذلك الولاء التماساً للحماية أو شرف المنزلة، كما رأينا فى حالة بنى قسى.

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن معظم أولئك الموالى كانوا موالى اصطناع، أن عبد الرحمن الداخل عندما أراد أن يكسب يوسف الفهري بعث إليه وفدأً من مواليه، «وبعث معهم بكسا وفرسين وبغلين ووصيفين وألف دينار، وكتب إليه يذكر له اصطناع آبانه جد يوسف

(١) نفس المرجع، رقم ٣٤١.

(٢) نفس المرجع، رقم ٤٤٣.

(٣) نفس المرجع، رقم ٥٥٧.

(٤) نفس المرجع، رقم ٤٨٢.

(٥) نفس المرجع، رقم ٤٨٤.

(٦) نفس المرجع، رقم ٤٩٥.

(أى اصطناع بنى أمية لعقبة بن نافع جد يوسف الفهري) ولأهله ، ويدعوه إلى الصهر والتوسعة (١) مما يدل على أن الاصطلاح المستعمل في الأندلس للولاء هو الاصطناع .

وكان أهل الأندلس يرعون حرمة الولاء ، ويحافظون الخلف منهم على ما ارتبط به السلف منهم ، فقد ذكر ابن القوطية كيف أن محمد بن موسى - وكان من بيت من العرب يقال لهم بنو موسى ، وكان بنو عبد الرحمن الغافقى عامل الأندلس المتقدم ذكره يدعون أنهم مواليه - عندما تولى الوزارة أيام الأمير محمد ، « بعث في بنى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، وكان لهم عدد وثروة بمرنانة الغافقيين من شرف إشبيلية ، فقال لهم : إنكم تدعون أمراً لو كان حقاً وعلمناه لم نجعل لنا الانتفاء عنه ، فهل إلى أن تخلصونا بأنفسكم وتدعون أهلاً ، فإن كنا مواليكم كما تقولون فنحن منكم ، وإن كنا من العرب فنحن بنو عمكم ، فأجابهم القوم وشكروا على ذلك ، وصاروا أهلاً وصاهر بعضهم بعضاً ، وانقطعت تلك الدعويات من يومئذ (٢) .

وعلى أى الأحوال لم يكن الموالى في الأندلس في هذه الفترة وما بعدها ، في
١٨٠- أهمية الموالى في تاريخ الأندلس
نفس الوضع الذى كان فيه موالى المشرق ، فهناك كان المولى في وضع اجتماعى أقل من وضع الحر ، أما هنا فقد كان الولاء شارة امتياز ، ولم يحدث إلا نادراً أن ترفع العرب على الموالى ، فقد ذكر ابن القوطية أن العرب احتجوا عندما عين عمرو بن عبد الله بن الليث - وكان مولى - قاضياً للجماعة في قرطبة (٣) ، وفيما عدا ذلك كان الموالى في مركز اجتماعى لا يقل في شيء عن مركز الأحرار . وعندما أتى عبد الرحمن وأعوانه على إقامة الدولة أصبحوا في مركز أعلى من مركز العرب الأحرار ، فقد أصبحت الوظائف الكبرى مقصورة عليهم ، وحرص أمراء بنى أمية على الاحتفاظ ببيوت الموالى وإعطائهم مكاناً ممتازاً في الإدارة والمجتمع ، فلم يكونوا يعتمدون إلا عليهم .

وقد أخلصت بعض بيوت أولئك الموالى للبيت الأموى إخلاصاً عميقاً مستمراً ، وحملت عن البيت الأموى جانباً كبيراً من المسئولية ، بحيث لا يمكن التأريخ للبيت الأموى بدون التأريخ لهذه البيوت إلى جانبه ، ومن أكبرها بنو أبى عبدة وبنو خديرة وبنو شهيد وبنو

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٧٦ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٧٣ .

عبد الرؤف وبنو فطيس وبنو مغيث^(١) - وأصلهم كلهم من موالي بنى أمية ، بعضهم موالي البيت الأموي نفسه ، وبعضهم موالي قوادهم ؛ وقد كان موالي البيت الأموي يسمون بموالي فريش ، وكانت لهم الصدارة على غيرهم من الموالي . وفي عهد عبد الرحمن الناصر زاد مركزهم ارتفاعاً حتى صاروا يسمون بالأبناء^(٢) .

فأما بنو أبي عبدة فهم أبناء حسان بن أبي عبدة مولى مروان بن الحكم ، وقد دخل جدهم الأندلس سنة ١١٣هـ / ٧٣١م مع ابنه عبد الغافر الذي أصبح فيما بعد وزيراً لعبد الرحمن الداخل . وقد ظل أبناء هذا البيت يتولون كبار المناصب إلى أيام المنصور بن أبي عامر ، وقد تفرغ عن هذا البيت بعد ذلك بيت أبي الحزم بن جهور أصحاب قرطبة في عصر الطوائف^(٣) .

وبنو حدير هم أبناء مولى من موالي عبد الرحمن الداخل ، ولا شك أن أصلهم من موالي بنى أمية في الأندلس ، لأن المراجع لا تذكر أن عبد الرحمن أتى بمولاه هذا من المشرق . وقد أظهر أمر بنى حدير عندما نبغ منهم موسى بن محمد بن حدير الذي تولى أمر قرطبة أيام الأمير محمد ، وقد ظل بنو حدير يتقلبون في كبار الوظائف حتى أيام الناصر^(٤) . أما بنو شهيد فهم أبناء مولى من موالي عبد الرحمن الداخل ، وقد ظلوا في الوظائف إلى أيام الدولة العامرية . وكذلك كان الأمر مع بقية البيوت التي ذكرناها^(٥) . ومن الطريف أن بعض مؤسسي هذه البيوت دخلوا الأندلس عرباً أحراراً ثم دخلوا هناك في ولاء بنى أمية المشاركة ، ثم انتقلوا إلى ولاء بنى أمية الأندلسيين ، ومثال ذلك بنو شهيد وبنو عبد الرؤف .

وفي عداد هذه البيوت من موالي بنى أمية ذوات الأصول الشرقية تدخلت بيوت الموالي ذوات الأصول البربرية ، مثل بيت الزجالي ، وذات الأصول الإسبانية كبيت بنى قسى ، وإن كان وضع هذه البيوت الأخيرة يختلف عن وضع الموالي المشاركة والمغاربة من حيث

(١) هم أولاد مغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك (أخبار مجموعة ، ص ١٠) وأول من امتاز منهم في الأندلس عبد الكريم بن مغيث . وقد قتل مغيث في معركة القرن بإفريقية (أخبار ، ص ٣٤) .

(٢) LÉVI - PROVENÇAL : L'Espagne Musulmane au Xe. Siècle (Paris, 1932) p. 106.

(٣) LÉVI - PROVENÇAL: Histoire de L'Espagne Musulmane. 2e. éd. II, p. 126, III, p. 194.

(٤) ابن الأبار : الحلة السراء ، ص ١٣٢ - ١٣٣ .

LÉVI - PROVENÇAL, L'Espagne Musulmane. II, p. 101.

(٥) الحلة السراء ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

LÉVI - PROVENÇAL, Op. cit. pp. 99 sqq.

(٥)

الوظائف ، فقد قصرها أمراء بنى أمية على الموالى البلديين والشاميين ؛ ولكن مركز الموالى الإسباني الاجتماعي كان عظيماً ، فقد كانوا سادة في نواحيهم (١) .

وقد بلغ من اختصاص أمراء بنى أمية هذه البيوت بالوظائف أن كان أفرادها يتنافسون على الوظائف حتى يتحير الأمراء ، ومع ذلك كانوا لا يفكرون في إخراجها عنهم ، كما حدث أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فقد « تنافس الوزراء كلهم في خطة الحجابة ، واضطره كل واحد منهم إلى ألا يولى غيره ، فأخذته ضجيرة ، فأقسم ألا يولى واحداً منهم ، وأمر بالإقراع بين الخزان ، (خزان الأموال) وكان الخزان يومئذ موسى بن حدير شيخ الخزان ، وابن بسيل الملقب بالغاز وطاهر بن أبي هارون (وكلهم من أهل بيوت الموالى هذه) ومهران بن عبد ربه لا قديم له ، وكان له به اتصال وهو ولد فخرت إليه القرعة فولى الحجابة أعواماً .. ثم مات .. » . وقد وضعت خطأ تحت « لا قديم له » لأن ابن القوطية أراد بها أن مهران لم يكن من أهل هذه البيوت القديمة ، وقد كانت توليته الحجابة مصادفة ، ثم عادت بعد ذلك إلى آل غانم ثم إلى آل شهيد وهم من موالى البيت الأموي .

١٨١- آراء حول أصل ولاه الاصطناع
 الأندلس الإسلامي ونظام الانتفاع Behetoria أو Benefactoria الذي عرفته الدولة اللبونية الأشتورية الإسبانية ، و « البنفاكتوريا » أقرب إلى نظام « الإلجاء » الذي عرفته الدولة الإسلامية في المشرق ابتداء من القرن الرابع الهجري ، ومعناه أن يلتجئ مالك صغير إلى مالك كبير و « يلجئ » إليه أرضه ويصبح من أتباعه في نظير قيام المالك الكبير أو الإقطاعي القوي بحمايته ؛ فكان الرجل يعتبر « لاجئاً » والأرض « ملجأة » ، وهذا بالضبط هو ما يعنيه المصطلح الروماني Beneficium الذي أصبح فيما بعد لوناً من ألوان الإقطاع الأوروبي . وقد لاحظ ليفي بروفنسال أن صاحب القاموس اللاتيني العربي المعروف بالفوكابولستا Vocabulista يترجم كلمة Benefacere بلفظ « اصطنع » بل إن لفظ « مولى » انتقل كما هو إلى المصطلح القانوني في تلك المملكة النصرانية ، فكانوا يقولون Maullatus .

وقد ذهب الذين يُرجعون نظم الدولة اللبونية الأشتورية كلها إلى أصول رومانية ، إلى أن مسلمي الأندلس أخذوا نظام الاصطناع عن نظام الولاء الروماني Patrocinium وهو

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٦٢ .

رأى معقول إذا نحن اعتبرنا الظروف الخاصة التي أحاطت بتكوين النظم الإسلامية في الأندلس ، فقد يكون أولئك الأندلسيون الذين دخلوا في ولاء بنى أمية من الداخلين في ولاء البيت القوطى ، فلما صار الأمر للمسلمين انتقلوا بولائهم إلى بنى أمية ليحتفظوا بها كان لهم من ميزات اجتماعية واقتصادية . وهذا هو التفسير المعقول لما فعله قسى عندما ذهب إلى المشرق ليدخل في ولاء الخليفة الأموى مباشرة^(١) .

١٨٢- ملاحظات ومهما يكن من أمر فقد عرف الأندلس الإسلامى في ذلك العصر نظام أخيرة على السواى الموالى ، وكان هؤلاء أنواعاً وطبقات : منهم موالى رسول الله ﷺ ، وموالى فى الأندلس عثمان بن عفان ، وموالى خلفاء بنى أمية ، ثم موالى بعض موالى البيت الأموى مثل مغيث الرومى وموسى بن نصير ، ثم موالى بعض القبائل العربية ؛ وقد كان عددهم جميعاً قليلاً بالنسبة لعدد السكان ، ولكن عددهم كان محترماً بالنسبة لعدد العرب . وقد كان من الممكن أن يظل الموالى في نفس الوضع الذى كانوا فيه في المشرق ، ولكن الظروف المضطربة التى أحاطت بالعرب خلال فترة الولاة ، وانصرافهم إلى التحارب فيما بين بعضهم وبعض أعطت هؤلاء الموالى مركزاً ممتازاً ، إذ ظلوا كتلة واحدة يسعى اليمينيون والشاميون إلى كسب تأييدها ، ثم سححت لهم الفرصة بدخول عبد الرحمن بن معاوية فاجتهدوا في إقامة دولته ووضعوا أنفسهم تحت تصرفه ، ومن ذلك الحين أصبحوا أهل الدولة وأصحاب اليد العليا ، فارتفع بارترفاعهم معنى الولاة في الأندلس ، وأصبح وسيلة من وسائل علو المنزلة في المجتمع وعلو المرتبة في الإدارة ، وأصبح أقرب إلى « الاصطناع » منه إلى الولاة الصرف . وأفاد من ذلك الإسبان الذين نقلوا ولاءهم من البيت القوطى إلى البيت الأموى ، أو الذين دخلوا منهم في ولاء الأمويين على أساس الباتروسيونيوم الرومانى، فاحتفظوا بمكانتهم وثرواتهم وزاد مركزهم قوة كلما طال بالبيت الأموى الأيام في الأندلس^(٢) .

وسيجرى على اصطناع الموالى كل أمراء البيت الأموى وخلفائهم ، فقد اتخذ كل منهم لنفسه موالى انضموا إلى طبقة الموالى ، حتى المنصور بن أبى عامر اتخذ لبيته موالى عُرفوا بالموالى العامريين .

LÉVI - PROVENÇAL. Hist. de l'Esp. Mus. III. p. 210 - 213.

(١)

(٢) ويؤيد ذلك أن أولئك الموالى أصبحوا يسمون « بالأبناء » أى أبناء بيت الإمارة أو « أبناء نعم الخلفاء » كما يقول ابن القوطية (ص ٨٣) ، بل كان كبارهم يسمون خلفاء الأمراء . وقد كان الواحد منهم يسمى « خليفة » (انظر : ابن القوطية ، ص ٦٩) .

وأساس هذا الاختلاف بين وضع الموالى فى المشرق ووضعهم فى الأندلس يرجع إلى الظروف الخاصة التى أحاطت بهذا البلد خلال الفترة التى نتحدث عنها . ولو لم تكن هذه الظروف لظل موالى الأندلس فى نفس وضع أشباههم فى المشرق ، بل ربما تلاشوا كقوة سياسية ، كما كان الحال فى مصر الإسلامية مثلاً . وهذه الناحية تبين الأهمية الخاصة لعصر الولاية ، فلولا ظروفه الخاصة لما كانت نظم الأندلس على النحو الفريد الذى نعرفه ، وسنرى مصاديق ذلك عند دراستنا لنواحٍ أخرى من النظم الأندلسية التى وُضعت أسسها فى عصر الولاية .

* * *

الفصل العاشر

المجتمع الأندلسي
(٢) المولدون والمستعربون

تحدثنا في الفصل السابق عن عناصر السكان التي دخلت الأندلس بالإسلام أو مع الإسلام ، ووضعت أساس إسلام الأندلس وعروبه ، وبدأت في تاريخ شبه الجزيرة اليبيرية صفحة « الأندلس » ذات الحضارة الزاهرة والشخصية الفريدة في بابها بين صفحات التاريخ . تحدثنا عن العرب والبربر والموالي ، وقصرنا الكلام عنهم على فترة التأسيس التي تعيننا في هذا الكتاب . وبقي الآن أن نتكلم عن الجزء الأكبر من عناصر سكان الأندلس : المولدين وأهل الذمة من نصارى ويهود .

١٨٢- إسبانيا وسنرى في سياق كلامنا على هذين العنصرين أن الإسلام والعروبة قد أثرا في النطاق الغربي فيهما تأثيراً لا نكاد نجد له مثيلاً في غير الأندلس مما دخل في رحاب قبل دخول العرب الإسلام ، فهذا الشعب اليبيري الذي دخل عليه المسلمون كان قبل دخولهم شعباً أوروبياً نصرانياً في غالبيته العظمى ، يضم مجموعات قليلة من اليهود ، وكان داخلاً في نطاق الغرب الأوروبى الذى نشرت فيه روما حضارتها ولغتها ، وكان متجهاً بإيمانه نحو روما عاصمة المسيحية الغربية ، وكان يدين بالولاء للكنيسة الكاثوليكية^(١) ، ويتحدث لغة رومانية ييبيرية يغلب عليها الطابع الرومانى ، سماها العرب لأول سماعهم إياها بالعجمية أو عجمية أهل الأندلس ، وعندما زادت معرفتهم بها سموها اللطينية^(٢) . وكان هذا الشعب - نتيجة لذلك كله - يدور في فلك الحضارة الغالبة على غرب أوروبا إذ

(١) انظر : MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES : La Iglesia en la Espana Visi-goda (en Historia de Espana dirigida por RAMON MENÉNDEZ PIDAL) tomo III. pp. 265. sqq.

(٢) انظر : RAMON MENÉNDEZ PIDAL : Origenes del Espagnol (3a. éd. Madrid, 1950.) مقدمة الكتاب ، حيث يقول إن اللغة التي كان يتكلمها أهل إيبيريا قبل القرن الحادى عشر الميلادى لا يمكن تعرفها إلا على وجه التقريب ، نظراً لقلة الأصول التي يعتمد عليها ، وكل ما يمكن قوله إنها كانت تضم ألفاظاً قليلة من لغة الفوط، أما بقيةها فكانت لهجات مختلفة من اللاتينية العامة Latin Vulgar . ولا زالت الدراسات مستمرة لتعرف هذه اللغة . انظر : ISIDIRO DE LAS CAGIGAS, Los Mozárabes (Madrid, 1947) p. 58 - 59 . Y nota 42 p. 73.

ذاك ، وهى حضارة لاتينية متأثرة بها حملته جماعات المتبريرين إلى غرب أوروبا من ثروة لغوية جرمانية تختلف من قبيل لقبيل ، ونظم سياسية جرمانية بدائية كان لها أبعاد الأثر في تكوين النظم السياسية وقواعد القانون التى جرت عليها ممالك الجرمان جميعاً في غرب أوروبا فيما بعد (١).

١٨٤ - طبيعة حركة الامتداد الإسلامي
 ثم دخل المسلمون هذه البلاد : لم يدخلوها كما دخل القوط سادة حكاماً ياعدون بين أنفسهم وبين عامة الناس حفاظاً على سلامة عنصرهم أو صيانة لهية سلطانهم ، بل دخلوها أثناء حركة الامتداد الدينى الفكرى البشرى التى بعثها الإسلام في عالم القرن السابع الميلادى . وإنه لمن مخالفة الواقع مخالفة مقصودة أن يقال إن امتداد الإسلام كان حركة فتوح أو غزوات ، أو أنه كان إنشاء لامبراطورية سياسية يسودها جنس بعينه ، وإنما كان في الواقع حركة استيقاظ تمتد من شعب لشعب كأنها أمواج يدفع بعضها بعضاً ، فلا يكاد الإسلام يقبل على بلد حتى يستيقظ أهله ويهتفوا ليحملوا رايته بأيديهم . فقد فتح عرب الجزيرة الشام والعراق ومصر ، ثم انتقلت الراية -فيا يتصل بنا هنا - إلى الشام ، ففتح الشام المغرب ، ثم فتح المغرب الأندلس . وكان العرب يقومون في تلك الحركة كلها بدور الدافع الأول أو المحرك الأول ، فلا تزال هذه الشعوب تنظر إليهم وتلتفت بقلوبها نحوهم ، لا على اعتبار أنهم شعب بعينه ، بل على اعتبار أنهم رمز الحركة كلها ، فصاحب الدعوة ورسولها عربى ، وكتاب الدعوة ودستورها - وهو القرآن - عربى ، والمثل الأخلاقية التى أدت إلى النصر عربية .

ومهما كان حكمنا اليوم على المثل الأخلاقية الجاهلية ، فلا نزاع في أنها بدت لأهل هذه الأعصر شيئاً عظيماً شديد الجاذبية ، ولا نزاع كذلك في أن العربى الذى حمل عبء الفتح الأول ، وشارك في بقية الفتوح ، وهاجر إلى البلاد - المفتوحة ، كان - مهما حكمنا على تصرفاته الشخصية في تلك البلاد - شخصاً ممتازاً جديراً بأن يقلد ، فقد كان على الجملة شجاعاً لا يهاب شيئاً ، دهباً لا يمل السعى ، كريماً لا يظن بذات يده ، عنيماً - إذا استثيرت عواطفه - عنفاً جاهلياً كان أهل تلك الأيام يرون فيه صورة جميلة من صور الرجولة . وكان إلى جانب ذلك رقيقاً تهفو نفسه إلى كل ما هو رقيق جميل ، حتى لقد يحركه

(١) سندرم هذه الناحية فيما بعد .

بيت من الشعر إلى ما لا يحركه إليه الخطر الداهم^(١).

وكان ألوفاً بسيطاً لا يستقر إلى جانب قوم حتى يأخذ منهم ويعطى ، ويصاهرهم . وتمتزج دماؤهم بدمائه ويشركهم في أصله وحسبه . وكان رغم أصله البدوي القاسى يجب اللين والترّف ويستطرف الجمال في شتى صوره ، ويستطيب الحياة الناعمة ، ومن ثم فإننا نجد هذا العربي الذى أشعل الأندلس ناراً ، كما رأينا ، لم يخرب ما نزل به من مدائن ، وما مر به من منشآت . فعلى الرغم مما رأينا ، من احتراب عرب الأندلس بعضهم مع بعض ، وإسرافهم في الخصومة على هذا النحو الذى رأيناه ، ظلت المدن التى نزلوها قائمة عامرة تدور الحرب بظواهرها أو بعيداً عنها وهى آمنة ، بل هم اعتبروا هذا الصراع أمراً خاصاً بهم لا شأن لأهل البلاد به ، فلم يؤذوهم أو يسيئوا إليهم .

ومن أعجب ما يقرأ الإنسان في حوليات هذه الأيام أن الصميل بن حاتم ، هذا البدوي الجاقى ، على ما رأيناه من عنفه وجاهليته وقسوته على خصومه من العرب ، ذهب إلى أربطاس كبير عجم الأندلس على أيامه في رفقة عشرة من رؤساء عرب الأندلس ومواليهم ليطلب إليه أن يمنحهم شيئاً من الأرض ، ولقد حاوره أربطاس محاورة ند لند ، بل أخذ يُقرّعه ويقول له : « يا أبا جوشن ، إن أهل ديانتك يخبروننا أن أديهم لم يأخذك ، ولو أخذك لم تنكر علئ بر من بررت ! ثم مضى يلقي عليه درساً في الإيثار فقال : « إنكم بإكرامكم [من أكرم] الله ، إنما تكرمونه عز وجل . وقد رويانا عن المسيح صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أكرم الله من عباده ، وجبت كرامته على جميع خلقه » . ثم يعلق ابن القوطية على ذلك بقوله : « فكأننا ألقمهم حجراً ! ثم « وهبهم » مائة ضيعة ، صار لكل واحد منهم عشر

(١) مثال ذلك أن أبا الخطار كتب إلى هشام بن عبد الملك بأبيات جعله بغير سياسته نحو البيعة ، مما كان له أبعاد الأثر في تاريخ الأندلس في هذه الفترة ، وهذه الأبيات هى :

أفأنتم بنى مروان قياً دمانا	وفى الله - إن لم تصنفوا - حكّم عدل
كأنكم لم تشهدوا مرج راعط	ولم تعلموا من كان تم له الفضل
وقيناكم حمر الوغى بصدورنا	وليس لكم خيل تعد ولا رجل
فلما رأيتم واقعد الحرب قد خبا	وطاب لكم منها المثارب والأكل
تعاقلتم عسا كأن لم يكن لنا	بلاء وأنتم - ما علمت - لها غفل

.... إلى آخره .

قال ابن القوطية : « ولما وردت الأبيات منه ولّى حنظلة بن صفوان الكلبي على إفريقية ، وأمره أن يولى عمه أبا الخطار الأندلس »

ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٨-١٩ .

ضياح»^(١).

فهذه صورة من المعاملات بين العرب « الفاتحين » وأهل البلاد ، وإذا كان هذا هو موقف الصميل ، على عتوه وجبروته ، فمن باب أولى يكون التعامل بين عامة العرب وعامة الناس أبسط وأقرب إلى التعامل بين ناس لا يختلف أحد منهم عن أحد بشيء . وبرهاننا على ذلك أن نفس الخبر يقص أن واحداً من كبار صالحى العرب ، وهو ميمون العابد ، أتى ليطلب من أرتباس أن يعطيه ضيعة من ضياعه يعتمرها بيده ويؤدى إليه الحق عنها ويأخذ الحق ، فقال له أرتباس : « لا والله ما أَرْضى أن أعطيك ضيعة مناصفة » ودعا بوكيل له فقال له : « ادفع إليه المجشر الذى على وادى شوش وما فيه من الغنم والبقر والعييد وادفع إليه القلعة بجيان ، وهى المعروفة بقلعة حزم ، فملكها... »^(٢).

١٨٥-العرب واذن فلم يستقر العرب فى الأندلس سادة مترفعين ، وإنما نزلوها ناساً عاديين
وأهل البلاد يطلبون العيش فى سلام إلى جانب أهل البلاد . وربما كان هذا السلوك العربى
أثراً من آثار البيثة الأندلسية فيمن نزلها من العرب والبربر ، فقد كان الإيبيريون الرومان
شعباً مسالماً مجدداً بحسن العشرة ، لم يلبث أن أنس إلى العرب وأنسوا إليه . ولدينا صورة
طريفة جداً عن الحياة العائلية فى بيوت العرب بعد أن اتخذوا النساء من أهل البلاد ، قال
صاحب « الأخبار المجموعة » فى أخبار عبد العزيز بن موسى : « ثم إن ابنه عبد العزيز
تزوج امرأة للذريق يقال لها أم عاصم ، فَهَمَّ بها ، فقالت له : إن الملوك إذا لم يتزوجوا فلا
ملك لهم ، فهل لك أن أعمل لك مما بقى عندى من الجواهر والذهب تاجاً ؟ فقال لها : ليس
هذا فى ديننا ! فقالت له : من أين يعرف أهل دينك ما أنت عليه فى خلوتك ؟ .. فلم تزل به
حتى فعل . فبينما هو يوماً جالس معها ، والتاج عليه ، إذ دخلت امرأة كان قد تزوجها زياد
ابن النابغة التميمي ، من بنات ملوكهم ، فرأته والتاج على رأسه ، فقالت لزياد : ألا أعمل
لك تاجاً ؟ فقال : ليس فى ديننا استحلال لباسه ، فقالت : فوَدَّين المسيح إنه لعلى إمامكم !
فأعلم بذلك زيادُ حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ، ثم تحدثا به حتى علمه خيار الجند ،
فلم تكن له همة إلا كشف ذلك حتى رآه عياناً ، ورآه أهله صدقاً ، فقالوا : تنصر ! ثم
هجموا عليه فقتلوه... »^(٣).

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٩ .

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ .

وربما تكون يد القصاص قد فعلت فعلها في هذا الخبر ، ولكن مغزاه في جملة عظيم القيمة ، فهو يدل على روح المودة العائلية التي كانت تسود بيوت العرب بعد استقرارهم في الأندلس واتخاذهم النساء من أهل البلاد ، وهو كما رأينا جو عائلي فيه ألفة وفيه محبة وفيه دعاية ذات معان عظيمة بالنسبة لمن يؤرخ لذلك المجتمع العربي الأيبيري ، أو الأندلسي بتعبير أصح ، الذي نشأ عن الفتح الإسلامي للبلاد^(١).

١٨٦- التزاوج لقد اتجه اهتمام خليان ريبيرا ، عندما أراد دراسة موضوع التزاوج بين العرب وأهل المسلمين وأهل البلاد ، إلى الجوارى ، ومضى يلتمس في مجموعات الوثائق المستعملة - كمجموعة أبي جعفر أحمد بن محمد بن مغيث - نصوصاً تثبت إقبال العرب على شراء الجوارى الجليقيات والقطلونيات ومن إليهن^(٢) ، ولكن فاته أن الزواج بالجوارى كان قليلاً بالأندلس ، فقد كن غاليات الثمن في تلك البلاد . قال الإصطخرى : « والذي يقع من المغرب الخدم السود من بلاد السودان والخدم البيض من الأندلس والجوارى الثمنات ، تأخذ الجارية والخدام عن غير صناعة على وجوهها ألف دينار وأكثر »^(٣) . ولم يكن يستطع دفع هذا الثمن إلا القليل ، أما بقية العرب والبربر فكانوا يصاهرون أهل البلاد مصاهرة عادية كالذي رواه ابن القوطية عن زواج سارة القوطية ابنة المُنْدُ بن غيطشة ، من تزويج هشام بن عبد الملك إياها من عيسى بن مزاحم « فقدم معها الأندلس وقبض ضياعها ، وهو جد ابن القوطية ، وولد له منها ولدان : إبراهيم وإسحاق ، ثم توفي عنها في العام الذي دخل فيه عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ، فتنافسها حيوة بن ملامس المذحجي وعمير بن سعيد اللخمي ، فعنى ثعلبة بن عبيد الجذامي بعمير بن سعيد عند عبد الرحمن بن معاوية ، فأنكحه إياها ، وولدت له حبيب بن عمير جد بني سيد وبني حجاج وبني مسلمة وبني حجر الجرّز ، وهؤلاء أشرف ولد عمير بإشبيلية ، إذ كان له أولاد من غيرها ، ولم يشرفوا شرف هؤلاء ، وهذا الخبر في كتاب عبد الملك بن حبيب في فتح الأندلس في أرجوزة تمام بن علقمة الوزير أو أكثره^(٤) .

JULIAN RIBERA Y TARRAGO, Disertaciones Y Opúsculos (Madrid 1928) tomo I. p. (١) 122 .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٥ وما يليها .

(٣) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالإصطخرى : مسالك الممالك ، طبعة دي خويه ، ليدن ١٩٢٧ .

(٤) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٦ .

ولقب بني حجر الوارد هنا : الجرّز ، يغلب أنه لفظ عجمي : el gordo ، أى : السمين . وينو سيد الوارد ذكرهم في النص يمكن أن تكون صحة اسمهم بنو سعيد .

وإذن فقد ارتبط الكثيرون من العرب والبربر بعلاقات المصاهرة مع أهل البلاد وعاشوا معهم متجاورين متساوين ، وعن طريق هذا التجاور انتشر الإسلام بين أهل الجزيرة . ومن الواضح أن المسلمين لم يحاولوا إرغام الناس على دخول الإسلام ، لا عن عدم اهتمام بنشر الإسلام ، أو عن كراهة لانتشار الإسلام بسبب إضراره ببيت المال كما يقول ليفي بروفنسال^(١)، بل لأن هذا كان أسلوب العرب الذي جروا عليه في نشر الإسلام في كل بلد دخلوه : كانوا - على الأغلب - يدعون الناس حتى يتبينوا فضائل الإسلام بأنفسهم ويدخل منهم فيه من يريد ، بل ليس صحيحاً أن الجيوش الفاتحة لم تكن تعنى بالدعوة إلى الإسلام ، لأن الحقيقة أنها كانت تضم دعاة للدين ، بل كان الفاتحون أنفسهم يحرصون على إدخال الناس في الإسلام ، ومثال ذلك : « أن الناس قحطوا بإفريقية عاماً فخرج [موسى ابن نصير] فاستسقى ، فأمر رجلاً فقص على الناس ورقّتهم ، فجعل يذكّر ... »^(٢).

وذكر أن عقبة بن الحجاج السلوي كان « صاحب جهاد ورباط وذا نجدة وبأس ورغبة في نكاية المشركين ، وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام حيناً ويرغبه فيه ويشره بفضله ، ويبين له عيوب دينه الذي هو عليه ، فيذكر أنه أسلم على يده بذلك الفعل ألف رجل »^(٣).

ولا نملك من النصوص ما يمكننا من تتبع انتشار الإسلام في الأندلس ، ولكن ابن القوطية وابن عذارى يؤكدان انتشار الإسلام وقوته في الأندلس في أول ولاية السماح بن مالك (١٠٠هـ / ٧١٩م) ، قال ابن القوطية : « كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله قد عهد إلى السماح بإخلاء الأندلس من الإسلام ، إشفاقاً دخل عليهم (كذا) إذ خشى تغلب العدو عليهم ، فكتب إليه السماح بن مالك يعرفه بقوة الإسلام وكثرة مداينهم وشرف معاقلهم ، فوجه حينئذ جابراً مولاه ليخمس الأندلس .. »^(٤).

أما ابن عذارى فيقول إن السماح كتب إلى عمر بن عبد العزيز يقول : « إن الناس قد

(١) LÉVI - PROVENÇAL, Hist. de L'Espagne Musulmane (2e. éd. Paris, 1950) tome I, p. 74.

وقد قال ذلك أيضاً في كتابه عن « إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر » ص ٣٢-٣٣.

(٢) انظر القطعة التي أوردتها خليان ريبيرا بتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، ويغلب أنها مقتطعة من « الإمامة والسياسة » ، ص ١٨٤ .

(٣) المقرئ : نفع الطيب ، طبعة عمى الدين ، ج٤ ، ص ١٨ .

(٤) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٢ .

والعبارة التي كتبنا إلى جوارها (كذا) يمكن تقويمها : إشفاقاً [عما] دخل عليهم ...

كثروا بها وانتشروا في أقطارها ، فأضرب عن ذلك «^(١)» ، والمراد بالناس هنا المسلمون . ثم إن الأندلس يبدو لنا ، عند دخول عبد الرحمن الداخل ، بلداً إسلامياً استبحر الدين واستقرت قواعده فيه ، وتلك ظاهرة فريدة في بابها ، فإن الفتح الإسلامي للأندلس لم يكن قد مر به نصف قرن ، ومع ذلك فهي حقيقة واقعة لا مناص من قبولها وانتظار ما عسى أن نعر عليه من نصوص تفسرها وتقدم لنا تفاصيلها .

١٨٧ - عجم وقد كان المسلمون يطلقون على أهل الأندلس جميعاً اسم العجم أو عجم الأندلس وربما أطلق اسم الروم ومفرده رومي ، وإن كانت هذه التسمية نادرة الاستعمال . فلما تمكن سلطان المسلمين أصبحوا يسمون عجم الذمة أو الذمة أو أهل الذمة ، فمن كان لهم عهد منهم سموا المعاهدين ومفرده المعاهد ، وربما قالوا المعاهدة من النصراري أو النصراري المعاهدون : أما اليهود فكانوا يسمون اليهود فقط أو الذميين^(٢) .

فلما بدأ أهل البلاد يدخلون في الإسلام أطلق على من أسلموا منهم المسالمة - مفردة مُسالِم - أو الأسالمة - مفردة أسلمى - ثم أطلق على أولادهم الذين نشئوا على الإسلام اسم المولّدين - مفردة مولّد - واستمرت هذه التسمية تطلق عليهم حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، ثم تلاشت بسبب اختلاط الناس وتحول أهل المملكة الإسلامية في الأندلس إلى أندلسيين دون تمييز^(٣) .

١٨٨ - خطأ أما لفظ «مستعرب» ، وجمعه مستعربون ، فلم يظهر في النصوص تسميتهم أو الكتابات الرسمية إلا في زمن متأخر على خلاف ما يظن ، وربما كان بالمستعربين اللفظ جارياً على الألسن في اللغة الدارجة ، كما تقول نحن «إفرنجى» فإذا كتبناه قلنا فرنسى أو إنجليزى أو أوربى أو أمريكى . ودليلنا على ذلك أن اللفظ لا يظهر فيما لدينا من كتب المؤرخين والجغرافيين والفقهاء وأهل الأدب ومن إليهم ، ولكنه ظهر في وثائق العقود الجارية بين الناس ابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى ، ثم في كتابات

(١) ابن عذارى : البيان المغرب (الطبعة الثانية ، لايدن ١٩٤٨) ، ص ٢٦ .

(٢) انظر البيان الذى أورده سيمونيت .

FRANCISCO JAVIER SIMONET. Historia de los Mozárabes de España (Madrid, 1897 - 1903) pp. VII- IX del Prólogo.

(٣) انظر : سيمونيت : نفس المصدر ، ص ١٦ من المقدمة .

LÉVI - PROVENÇAL. Hist. de l'Espagne Musulmane (2e. éd.) I. pp. 74 - 75.

نصارى الأندلس سواء باللاتينية أو الإسبانية القديمة (عجمية الأندلس) ابتداء من القرن الحادى عشر أيضاً .

ففى الوثائق اللاتينية كانوا يقولون : *Castellanos, Mozárabes atque Francos* ، وذلك تمييزاً للنصارى الأندلسيين من أهل النواحي التى استولى عليها ملوك إسبانيا النصرانية عن القشتاليين والفرنجة وهم المهاجرون إلى إسبانيا النصرانية من أهل غالة ، ممن أقبل للاشتراك معهم فى حرب المسلمين ، ثم استقر فى النواحي التى استغلبها النصارى وأصبح من أهلها . وكان ملوك النصارى يميزون رعاياهم من القشتاليين وحلفاءهم من الفرنجة عن نصارى الأندلس الإسلامى الذين دخلوا فى طاعتهم . فقد كان أولئك الأخيرون مستعربين ثقافة ولساناً وأسلوب حياة ، وكانت لهم طقوسهم الدينية الخاصة بهم المسماة *El Rito Mozárabe* ، وكان لهم رجال دين خاصون بهم يقيمون صلواتهم على أسلوب خاص وبلغه خاصة هى عجمية أهل الأندلس ، وهى خليط من الايبيرية الرومانية القديمة واللاتينية الدارجة والقوطية والعربية ، ثم ألغيت هذه الطقوس فيما بعد ، وفرضت الطقوس الكاثوليكية واللغة الكاثوليكية على نصارى إسبانيا جميعاً .

ويبدو أن هذه التسمية كانت شائعة على ألسن نصارى الأندلس فقط ، وأن استعمالها فى إسبانيا النصرانية لم يبدأ إلا عندما استولى ملوك النصارى على بلاد فيها إسبان نصارى مستعربون ، لأن إحدى الوثائق التى صدرت عن الامبراطور ألفونسو السابع حوالى سنة ١١١٨ تقول : *quos vacabunt Mozárabes* (= الذين يسمون مستعربين) ، وفى خطاب وجهه البابا يوجين الثالث إلى أهل طليطلة سنة ١١٤٦م (سقطت طليطلة فى أيدي النصارى سنة ١٠٨٥م) يقول : *quidam Muzárabes Noncupantur* (= أولئك الذين يسمون مستعربين) ، وجاء فى تاريخ حياة القديس تيوتونيوس *Teotonius* التى كتبت فى نفس العصر : *quandam christianorum gentem quos vulgo mozárabes vo-* *cant* (= وأولئك النفر من المسيحيين الذين يسمون فى اللغة الدارجة مستعربين) وفى منشور صدر عن الامبراطور ألفونسو السابع إلى أهل وادى الحجارة سنة ١١٣٣ يقول :

ad vos totos christianos Muzarabis quos ego traxi cum Dei auxilio de potestate sarracenorum...

(= إليكم يا جميع النصارى المستعربين الذين استخلصتهم بفضل الله من سلطان العرب) . ونصوص ذلك العصر كله تفرق بينهم وبين نصارى قشتالة والفرنجة تفريقاً واضحاً كما رأينا ، بل كانت النصوص تؤكد اختلافهم عن بقية النصارى في طقوس العبادة ، بسبب اختلاطهم بالعرب واستعراهم ، فقد جاء في كتاب عن الراهب شيمينيوس أسقف طليطلة:

*Ergo ejusmodi homines quod arabibus permixti viverent Mistárabes
appellati sunt et illorum ecclesiasticus ritus officium Mistárabum*

(= ولهذا يسمى الناس الذين عاشوا مع العرب مستعربين ، وطقوسهم الكنسية تسمى الطقوس المستعربية)^(١).

وخلال القرن الثاني عشر ظهرت الكلمة في وثائق النصارى الأندلسيين في البلاد التي استولى عليها النصارى ، وكانوا يكتبون هذه الوثائق بالعربية ، فكانوا يقولون مثلاً : « دون يوان مستعرب » (= السيد خوان - أيام العرب كان يسمى يحيى - المستعرب) . وفي بعض الأحيان كانت الكلمة تكتب بصيغتها العجمية ، مما يدل على أن اللفظ لم يكن يكتب قبل ذلك بالعربية ، فقد جاء في إحدى الوثائق « دون يوان - مستازب » . ولكن الأغلب أن ترد الكلمة في هذه الوثائق في صورتها العربية الصحيحة : « دون يطره بن مرتين مستعرب » و« دون لب بن بيطره مستعرب » و« من كبار مدينة طليطلة من المدرجين والمستعربين والقشطنين » و« دون دُمَنُقه (Domingo) ابن بيطره الذي كان أميناً للحصارين » . بل كانوا يستعملون اللفظ في صيغته الإسبانية : « .. بقرية عين الديك المسماة بيال دى مستعربش في شِشْلة مدينة طليطلة » ، أى أن قرية عين الديك كانت تسمى *Val de*

(١) أورد هذه النصوص كلها سيمونت في مرجعه الذي أشرنا إليه (ص ٨ وما يليها من المقدمة) .

وقد جرت عادة المؤرخين المحدثين على تسمية أهل الدمة من النصارى الذين عاشوا في ظلال الحكم الإسلامي بالمستعربين ، وهي تسمية خاطئة كما رأينا . وأول من وقع في ذلك الخطأ هو سيمونت نفسه ، فإنه لم يعن بدراسة تاريخ هذا اللفظ ، وإن كان هو صاحب الفضل في اكتشاف أصله العربي ، فقد كان الناس قبله في حيرة من هذا الأصل ، وجعله بعضهم عرفاً عن *Mixtarabes* أى المختلطين بالعرب . ونلاحظ أننا نقراً اللفظ « مستعرب » بكسر الراء وصحته فتحها ، لأن أهل الأندلس كانوا يقولون « موزاراب » لا موزاريب . وقد جرى على نفس الخطأ فسمى نصارى الأندلس الإسلامي مستعربين ليبي بروفنسال وإيزيدورو دى لاس كاخيجاس وبقية مؤرخى إسبانيا الإسلامية من الأوربيين . وقد عتينا نحن هنا بالبحث عن هذا اللفظ في كتب المسلمين قبله نجده ، فرجع لدينا أنه كان لفظاً دارجاً جرى على السنة الناس في الأندلس للدلالة على الذميين الذين استعربوا لساناً وأسلوب حياة ، وأنه لم يظهر في الكتابات إلا من القرن الثاني عشر الميلادي أو أواخر الحادى عشر على الأكثر : ظهر في الكتابات اللاتينية أولاً ثم انتقل إلى كتاب الإسبان أنفسهم كما هو وارد في النص .

Mozárabes (وادي المستعربين) في ناحية طليطلة^(١).

وإذن فلفظ مستعرب لم يستعمل عند عرب الأندلس بصورة رسمية، وإنما كان الجارى قولهم: «العجم» أو «النصارى» أو «نصارى الذمة»، ترفيقاً لهم عن أسلم منهم حديثاً (الأسئلة والمسألة) أو أبناء هؤلاء (المولدين). فابن حيان يقول: «حصون المسألة والنصارى» و«تحزبت المسألة مع المولدين» وابن الأبار يقول: «فصب على المولدين والعجم منه».

ويبدو أن الاستعراب كان يسبق الإسلام في معظم الحالات، فقد اختلط العجم بالمسلمين وأخذوا لغتهم وأسلوبهم في الحياة، ثم كان يسلم منهم من يسلم شيئاً فشيئاً، بل كان بعض أولئك العجم ما يكادون يسلمون حتى يظهروا تفوقاً في العربية، بل منهم من تفوق في الفقه، فقد جاء في «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضى في ترجمة عبد الله بن عمر بن الخطاب، من أهل إشبيلية أنه كان «من مسألة الذمة، فملاً إشبيلية علماً وبلاغة ولساناً، حتى شرقت به العرب، فلما حدثت الثائرة بينها وبين الموالي قتل يومئذ، وذلك سنة ٢٧٦»^(٢).

وكان هذان الفريقان: أهل الذمة والمسألة، ثم أبناؤهم من المولدين، يكوّنون معظم سكان الأندلس، ابتداء من نهاية الفترة التي نتحدث عنها. وكان عدد أهل الذمة أكثر بكثير من المسألة والمولدين أول الأمر، ثم لم يزل عدد هؤلاء الأخيرين يزيد حتى أصبحوا معظم سكان الأندلس.

١٨١- المسألة فأما عن المسألة والمولدين فواضح من النصوص أنه لم يكن هناك فرق ما بين والمولدون وضعهم العام ووضع العرب والبربر المسلمين أصلاً، فقد كان الذمي إذا أسلم انتقل إلى وضع المسلمين دون تفریق أو تمييز، وهذه ظاهرة أخرى يختلف فيها الأندلس عن سائر نواحي الدولة الإسلامية، بل ليس لدينا دليل واحد على أن الأندلس عرف التمييز بين الصلح والعنوة. نعم شرع بعض الولاة في إحصاء نواحي الأندلس وتعرف ما فتح منها صلحاً وما فتح عنوة، كما سنرى، ولكن هذه العمليات لم تتم، وبقي الحال في الأندلس مبهماً في هذه الناحية، فأصبح غير المسلمين كلهم ذمة دون تمييز، ومن أسلم منهم دخل المجموعة الإسلامية، وتلاشى كل شيء يتصل بأصله تماماً.

F. J. SIMONET, op. cit. pp. XIV - XV.

(١)

(٢) ابن الفرضى: علماء الأندلس، ترجمة ٦٤٧.

وربما كان السبب في ذلك هذه القلقة التي سادت عصر الولاية كله ، فلم يتسع وقت الولاية لتنظيم شيء أو لتحديد وضع ، فسارت الأمور على عواهنها ، وسنرى مصاديق ذلك في كلامنا عن الإدارة والمال في الفصل التالي ، وستبين أن ذلك كان من حسن حظ الأندلس ، ورب ضارة نافعة ! فلو أن « جهنزة » الولاية والعمال عملت في هذا البلد عملها الذي عملته في غير الأندلس من بلاد الإسلام لما أسلم أهله واستعربوا بهذه السرعة ، ولما كانت لأهله هذه الصفحة المشرفة في تاريخ الإسلام .

وربما كانت الجماعات الأولى من أولئك الذين أسلموا من العبيد ورقيق الأرض ، فقد رأينا أن إسبانيا القوطية ضمت من الأولين آلافاً كثيرة ، ثم إن حالة رقيق الأرض كانت من السوء بحيث بدا الإسلام لأولئك الناس وكأنه خلاص من المتاعب والشقاء . وسنرى أن الجبايات في الأندلس كانت أخف بكثير من مثيلاتها في الأمصار الأخرى ، وأن أهل الأرياف كانوا أحراراً ، سواء أسلموا أم لم يسلموا ، وأنهم تمتعوا في ظل هذا العهد الجديد الذي طلع عليهم بأمان ورفاهية لم تعرفها أوروبا إلى أواخر القرن العاشر الميلادي على الأقل .

١١٠- رأى كان أولئك المسالمة والمولدون إذن من طبقات اجتماعية شتى قبل إسلامهم ، بروفنسال كان منهم العبيد ورقيق الأرض والزراع وأهل المدن بشتى صنوفهم : الأشراف والأوساط وأهل الأسواق ، وكان فيهم موالٍ وغير موالٍ ، فتساووا جميعاً في رحاب الإسلام . وجددير بنا أن نلاحظ أن الأندلس لم يعرف التشدد والتعصب حتى إمارة الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ، عندما قامت دولة الفقهاء وتسلطوا على العامة ونصبوا أنفسهم حكاماً إلى جانب الأمراء .

ويؤيد الأستاذ ليفي بروفنسال ما ذهبنا إليه من إقبال أهل الجزيرة على الإسلام ويقول : « وقد أصبح نفر من أبناء أولئك المسلمين الجدد من مياسير أهل الطبقة الوسطى ، بل منهم من أصبحوا سادة أغنياء عن طريق التجارة أو الزراعة ، وقد مضوا في هذا المضمار حتى غاب عنهم أن أجدادهم كانوا مستقرين في إسبانيا قبل الإسلام بزمن طويل ، وذهب بعضهم إلى ادعاء نسب عربي - دفعوا في تليفقه مالأ كثيراً - يسمح لهم بالزهو بأنهم من أصول عربية ، واحتفظ بعضهم بعد إسلامهم بأسمائهم القديمة ، وظلوا يعرفون بها مثل

بنى أنجلين Angelino وبنى شَبْرِيْقُ Savarico الإشبيليين ، وفيما بعد ذلك بزمن طويل ، بنى لُنْتُ Longo وبنى القَبْطُرُهُ Kabtumo وآخرين كثيرين .

ولقد فخر أحد مؤرخي إسبانيا الإسلامية ، وهو ابن القوطية ، الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى ، بأصله الذى يرجع به إلى بيت الملك غَيْطِثَةَ ، وهذا هو السبب فى تلقيه بابن القوطية . ولكن الذى كان يحدث فى غالب الأحيان أن التزاوج بين المولدين والمسلمين الداخلين كان يقضى عند بيوت هؤلاء المولدين على ذكريات أصولهم الإسبانية البعيدة . وقد حدثت على عجل حركة اختلاط بشرية واسعة المدى بين عناصر سكان أهل الجزيرة الأندلسية ، وأصبح من العسير شيئاً فشيئاً تمييز أهل البلاد الأصليين من الداخلين عليهم .

« ومهما يكن من أمر فإنه - حتى فى حالة أولئك الإسبان الذين تخلوا عن دين آبائهم واتخذوا أسلوب حياة المسلمين الداخلين ، واندرجوا فى نطاق نظامهم الاجتماعى - لم يفقد المولدون أبداً شخصيتهم الخاصة بهم ، وإنه ليرجع إلى وجود أولئك المولدين فى ذلك البلد - ووضعه متطرف وجزرى منعزل بالنسبة لبقية بلاد الإسلام - أن تميز الأندلس فى نواح كثيرة بأنه قطعة فريدة فى بابها فى عالم الإسلام ، سواء أكان ذلك التفرد فى صور حياته السياسية أو كان فى مثله الأعلى الحضارى والثقافى .

ومن المهم ألا ننسى أنه ابتداء من القرن الثامن (الميلادى) أو التاسع على الأكثر ، حتى القرن الخامس عشر ، لم تكن اللغة العربية قط هى اللغة الوحيدة المستعملة فى الأندلس ، وأنه كانت هناك عناصر كثيرة من سكانه تتحدث بلهجات دارجة عجمية مشوبة بالايبيرية والعربية ولكنها مشتقة قبل كل شىء من اللاتينية ، وليس هناك ما يمنع من القول بأنه إلى عصر متأخر من عصور التاريخ الأندلسى ، غلبت على ألسنة أهل الأندلس رطانة عامة إسبانية^(١) فى كل مكان تقريباً ، وتحدث بها الناس أكثر مما كانوا يتحدثون بالعربية ، ومن الطبيعى أن يكون ذلك أظهر فى الأرياف منه فى المدن ، وقد غلبت هذه الرطانة بصورة أوضح على اللهجات البربرية^(٢) .

(١) استعمل المؤلف هنا لفظ *κοίτη* اليونانى . والكويته كانت لغة دارجة مستعملة فى البلاد التى على شواطئ البحر الأبيض كلها ، وكانت جارية على ألسن التجار والملاحين فى نواحي هذا البحر كلها .

LÉVI - PROVENÇAL, Hist. de l'Espagne Musulmane (2e. éd.) Paris, 1950 Vol. I, pp. 76 - (٢) 77.

وقد علق المؤلف على هذه العبارة فى الهامش بالإشارة إلى ما سبق أن ذكرناه من قول ابن حزم أن عرب دار بل

١٩١- آراء في وفي موضع آخر من « تاريخ إسبانيا الإسلامية » يقول ليفي بروفنسال :
 «تعتبنا عبارة لم تشر بعد لمؤلف أندلسي نجهل اسمه ، أوردتها في سياق
 الأندلس رسالة قديمة عن كبار بيوت أهل فاس^(١) بياناً بالغ الغرابة عن التكوين
 البشري للمجتمع الأندلسي وعن اختصاص كل عنصر من العناصر التي كان يتألف منها
 السكان المسلمون في الجزء الذي سادته الإسلام من شبه الجزيرة في نهاية الخلافة بشيء من
 الأعمال الزراعية أو الصناعات اليدوية : ويمكن تقسيم هؤلاء السكان بناء على ما ذكره
 ذلك المؤلف المجهول إلى أربعة أجناس : البربر الذين دخلوا الأندلس من المغرب
 أو إفريقية ، وأهل البلاد من النصارى الذين دخلوا الإسلام ، واليهود الذين أسلموا ، ثم -
 بطبيعة الحال وفي المكان الأول - العرب ، ويضمون الهاشميين وبقية العرب الذين هاجروا
 إلى الأندلس من جزيرتهم بكل جراثيمهم (= أصولهم) . وقد انضافت لكل من هذه
 الأجناس جماعات من الموالي » .

« واستناداً إلى المعلومات التي يوردها هذا المؤلف ، كان العرب الذين دخلوا إسبانيا من
 الحجاز أو اليمن أو الشام أو مصر أو ليبيا أو إفريقية وحتى من السوس الأقصى ،
 يتجمعون في المدن الكبيرة ، حيث كانوا يتجنبون قدر المستطاع الاشتغال بالحرف البسيطة
 ويحتلون أعلى الوظائف في خدمة الدولة أو القضاء ، واشتغل بعضهم بالتجارة أو عنوا

= شمالي قرطبة كانوا إلى عصره لا يتحدثون « اللطبية » (الجمهرة ٤١٥) مما يدل على أن ذلك الفريق من العرب كان
 شيئاً نادراً .

(١) اسم هذا الكتاب « ذكر مشاهير أهل فاس في القديم » ، وقد ألف في القرن الخامس عشر . انظر :

LÉVI - PROVENÇAL : Islam d'Occident. I p. 39 note 45.

وتوجد نسخة من هذا المخطوط في المكتبة الشريفة في رباط (رقم ١٣٩٤) والنص المشار إليه في الورقة ٢١ .
 وإليك نص التعليق الذي يشير إليه بروفنسال في هذا المرجع: ورد هذا المخطوط من مكتبة البعثة العلمية القديمة
 في مراكش ، وهو موجود في المكتبة الشريفة في رباط تحت رقم د ١٣٩٤ (D. 1394) وقد نسب هذا المؤلف الصغير
 إما إلى عبد القادر الفاسي المتوفى سنة ١٠٩٠هـ / ١٦٨٠م - انظر عنه كتابي (كتاب بروفنسال) تاريخ الشرفاء
 264 - 265 - Historiens des Chorfa. pp. 264 - 265 - أو إلى أبي الوليد إسماعيل بن الأحمر مؤلف كتاب « روضة السنين »
 المتوفى في فاس عام ٨٠٧ / ١٤٠٤ - ١٤٠٥ . ويبدو أن نسبة الكتاب إلى المؤلف الثاني أقرب إلى المعقول ، بشرط أن
 يُفهم أن الإشارات المتعلقة بحوادث وقعت بعد وفاة ابن الأحمر قد أُضيفت فيها بعد ، وهي إشارات كثيرة تتعلق
 بحوادث القرن التاسع الهجري . انظر : عبد الحى الكتاني : فهرس الفهارس ، فاس سنة ١٣٤٦ للهجرة ، ج ١ ،
 ص ١٠١ .

Actes du VIIIe. Congrès de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, dans Hespéris, t. XIX.
 1934 p. 196.

وقد اطلعنا على هذا المخطوط والفقرة المشار إليها وأبدنا آراءنا فيها في المتن .

باستثمار أراضيهم . وليس في هذه العبارة - أى عبارة المؤلف الأندلسي - شىء جديد لم نكن نعلمه . ويكفى أن نلقى نظرة على خريطة توزيع السكان في الأندلس في القرن التاسع ، لكي نتيقن أن المهاجرين العرب لم يعقدوا صفقة خاسرة عندما استقروا في الأندلس في المناطق الأوفر غنى أو الأكثر خصباً أو التي حبتها الطبيعة بخيراتها من الجزء الساحل والذي يليه إلى الداخل في جنوبي الجزيرة أو شرقها . فقد كانوا يختصون أنفسهم في هذه النواحي بأحسن الأراضي ، ويضمنون لأنفسهم بذلك دخولاً تسمح لهم بالعيش عن سعة سواء في ممتلكاتهم ، أو - وكان هذا هو الأغلب - في عواصم النواحي أو في كبار المدن ، وخاصة إشبيلية وبلنسية وسرقسطة ، وحتى في العاصمة (قرطبة) في القرن العاشر ، إذ اجتذبتهم إليها لطائف الحياة المترفة التي كان يجيهاها أشرف قرطبة حول بلاط الخليفة...»^(١).

وقد عاد بروفنسال ففسر كلام ذلك المؤلف الأندلسي وذهب إلى أن سكان الأندلس يُسمون ، بناء على ذلك الكلام ، كما يلي :

(أ) أبناء الإسبان الذين دخلوا في طاعة المسلمين صلحاً ودخلوا في الإسلام وأقاموا في مواضعهم التي كانوا فيها .

(ب) أبناء الإسبان الذين دخلوا في طاعة المسلمين عنوة ، فأصبحوا بحكم الفتح أسرى ثم أسلموا وأقاموا في مواضعهم .

(ج) أبناء المستعربين الذين أسلموا بعد الفتح ، وأبناء أسرى النصراري الذين أنت بهم الفتح والغزوات ، ثم اعتنقوا الإسلام واستقروا نهائياً في الأندلس^(٢).

ثم قال : « إن هذا التقسيم يبدو مطابقاً للواقع إذا عرفنا أن دخول الإسلام لا يستتبع من تلقاء نفسه المساواة في الحقوق الكاملة بين من أسلموا صلحاً ومن أسلموا عنوة . وعلى أى الأحوال ، فقد اقتصر أولئك المسلمون الجدد - الذين كانوا يُعرفون كما رأينا بصورة عامة بالمولدين والمسألة (أو الأسالة) ، وبحسب هذا النص - على تربية الماشية والزراعة في الأرياف وعلى صيد السمك والأعمال البحرية على الساحل . أما في المدن فقد زاووا ، هم ومواليهم حرفاً وأشغالاً يدوية واشتغلوا كذلك بالتجارة الصغيرة ، وذلك كله على وجه

LÉVI - PROVENÇAL, op. cit. III pp. 172 - 173.

(١)

LÉVI - PROVENÇAL, op. cit. III p. 180.

(٢)

التقريب . وهذه الملاحظات ، مهما بدا لنا من قلة أصالتها لا تخلو من قيمة . فهي تؤكد الدور العظيم الذى قام به المولدون - الذين كانوا يؤلفون أكثر أهل الأندلس من ناحية العدد والأهمية - فى الحياة الاقتصادية فى البلاد ، فقد كانوا فى هذه الناحية أوفر العناصر نشاطاً وأكثرهم تلازماً مع ظروف الحياة فى شبه الجزيرة ، مثلهم فى ذلك مثل المستعربين ثم البربر إلى حد معين .

وقد دل الأمويون (الأندلسيون) على أحسن صور الحكمة السياسية عندما شجعوا هذه العناصر على النهوض ، وذلك بإطلاق الحرية للكثيرين منهم فى أن يتمولوا ويندرجوا أكثر فى الجماعة الإسلامية ، حيث كان العنصر الفاتح يكون أرسقراطية قليلة العدد جداً . وكذلك دل الذين سبقوهم إلى حكم الأندلس فى القرن الثامن على مقدرة سياسية عندما احتضنوا المولدين ، فحلوا - على الصورة الوحيدة المعقولة - تلك المشكلة التى واجهتهم كما واجهت غيرهم من حكام المسلمين فى كل البلاد التى استقر فيها أمر الإسلام ، وذلك الحل هو السيطرة - بمساعدة سادة البلاد القدماء أنفسهم - على بلاد واسعة لم يكن الفاتحون وحدهم ليملكوا من قوى الاحتلال ما يكفى للمحافظة عليها ولواجهة موقف العداء الذى اتخذته أهل البلاد الذين كانوا ينتظرون أول فرصة ليحرروا من سلطان كانوا يرون أنه يجاوز حد الاحتمال^(١) .

١١٢- خطاهه هذه الأحكام العامة كلها لا تخلو من أخطاء : فأما عبارة ذلك المؤلف الآراء والأحكام المجهول فواضح أنه لم يعتمد فيها على معرفة صحيحة بأحوال الأندلس خلال تلك العصور الأولى ، فلم يكن سكان الأندلس يتألفون من العناصر الأربعة التى ذكرها أولاً وهى : العرب والبربر والنصارى واليهود الذين أسلموا ، أو من العناصر الثلاثة التى ذكرها ثانياً وهى : الإيبان الذين فتحت نواحيهم صلحاً ثم أسلموا ، والذين فتحت نواحيهم عنوة ثم أسلموا ، ثم أبناء المستعربين الذين أسلموا بعد الفتح ، ويُضاف إليهم أولاد أسرى الغزوات والفتوح الذين استقروا فى الأندلس .

فأما تقسيمه الأول فواضح منه أنه أسقط النصارى الذين ظلوا على دينهم ، وكانوا كما سرى يمثلون نسبة عالية من سكان البلاد ، وأما تقسيمه الثانى فظاهر أنه مضطرب غير مستقيم . ثم إن تفريقه بين من فتحت نواحيهم صلحاً ومن فتحت نواحيهم عنوة لا محل له

هنا ، فإن مسلمى الأندلس لم يستطيعوا أبداً تمييز أرض صلح من أرض عنوة في هذه البلاد ، وانتهى بهم الأمر إلى اعتبار من أسلم منهم جميعاً مسلمين يتمتعون بنفس الحقوق ، ومن لم يسلم منهم أهل ذمة ، وطبقوا عليهم أشراف الشريعة في أبسط صورها .

وينبغي أن نلاحظ أن صدر الإسلام لم يعرف ما عرفته العصور المتأخرة من مضايقات أهل الذمة ، كاختصاصهم بملابس خاصة وتحريم ركوب بعض الدواب عليهم وما إلى ذلك ، إنما كان الإسلام إذ ذاك سمحاً طلقاً يترك الناس وشأنهم ما أدوا الأموال المفروضة عليهم ، وهذه الساحة هي التي حبيت الناس فيه وجعلتهم يقبلون عليه ، وكأنها اجتذبتهم إليه عدم إصرار المسلمين الأوّل على إدخالهم في الدين ، فلما أقبل الفقهاء وأخذوا يقتنون ويشرعون ويخرّجون ويستعينون بالعوام على إقامة جاه لهم لا يقل عن جاه الدولة - إن لم يزد عليه - ظهرت هذه المضايقات التي ازدادت ثقلًا كلما بعد العهد بساحة الإسلام الأولى وبساطة من حملوا لواءه . وكلما زاد الفقهاء إنقالاً على من بقوا على دينهم من أهل البلاد ازدادوا تمسكاً به ونفوراً من الدخول في الإسلام ، لأن المسألة لم تصبح مسألة دعوة سمحة وإنما تحدياً وتهديداً ، والتحدى من جانب يبعث تحدياً في الجانب الآخر كما يقول آرنولد توينبي في دراسته الجليلية للتاريخ .

وأغلب الظن أن أحكام هذا المؤلف مستقاة من بعض افتراضات المؤرخين المتأخرين ممن كانوا ينظرون في كتب الفروع والأحكام والفتاوى ويستخرجون منها أحكاماً يطلقونها على الماضي ، ظناً منهم أن الإسلام كان هكذا دائماً ، أو رغبة منهم في توجيه سياسة أهل الحكم في أيامهم حيال الذميين وجهة خاصة بالزعم بأن ذلك كان الحال أيام « السلف الصالح » .

ولقد تابع بروفنسال هذه الآراء فقال بأنه كان هناك في الأندلس تمييز بين أهل الصلح وأهل العنوة ، وسنرى أن شيئاً من هذا لم يكن في الأندلس ، ثم اعتبر اليهود جنساً قائماً بذاته ، ولم يكونوا إلا قلة اندرج معظمها في عداد المسلمين . ثم ذهب يقول من عنده إن العرب كانوا يكونون أرستقراطية خاصة ، والواقع أنهم لم يكونوا كذلك ، وإنما كانت الأرستقراطية الحقيقية في بيوت الموالى ولم يكونوا عرباً على ما رأيناه في الفصل السابق ، وقد ظل الجاه والسلطان في هذه البيوت إلى آخر أيام الخلافة الأموية ، أما العرب فقد اندرج منهم في أهل البلاد من اندرج ، وبقى منهم

١١٢- هل كان
العرب أرستقراطية
مترفعة عن غيرها
في الأندلس؟

في العواصم نفر يطلبون العيش كغيرهم، وبقيت منهم في الأرياف جماعات محتفظة بأراضيها كما احتفظ غيرهم من غير العرب بأراضيهم ، فيما عدا عرب الكور المجندة ، وكان هؤلاء وضع خاص كما سنرى ، إذ كانوا نواة القوة العسكرية للدولة أول الأمر ، وكان لهم من الامتياز والاعتزاز بأنفسهم ما كان لأمثالهم من العسكريين في كل مكان في تلك العصور .

وعندما استبدل أمراء بنى أمية جند الصقالبة بجند العرب وجعلوا أولئك الصقالبة نواة جيشهم انحدر جند العرب إلى المكان الثاني ، فأحفظهم ذلك ، وكان من أكبر أسباب الفتنة الكبيرة التي أشعلت العرب نارها من أوائل حكم الأمير محمد إلى أوائل عهد الناصر . ويلاحظ بصفة خاصة أن ثورة العرب هذه وغضبهم على الأمراء ، الذين أحلوا غيرهم مكائهم في الجيش واعتمدوا على الموالى في شئون الدولة ، كانا السبب الأول في اتجاه العرب إلى أذى المولدين والمعجم ، وهذا الأذى بدوره هو الذى روع هؤلاء واستنهضهم إلى المقاومة ، فكان ذلك عصب ثورة عمر بن حفصون وغيره ممن قادوا ثورات المولدين ومن انضم إليهم من نصارى الذمة ، ولم يكن سبب ثورتهم سوء المعاملة أو قتل الجبايات ، ولم يكونوا ينتظرون أول فرصة للتحرر من نير كانوا يرون أن احتياله يجاوز الطاقة كما قال بروفنسال.

* * *

١٩٤- أهل الذمة من الطبيعي أن يكون أهل الذمة معظم أهل الأندلس الإسلامى خلال السنوات الأولى التى أعقبت الفتح ، وأن يقل عددهم شيئاً فشيئاً كلما قدم عهد الإسلام في البلاد حتى يصبحوا أقلية بالنسبة إلى العرب والبربر والمسالمة والمولدين . ولقد بينا فيما سبق كيف أنهم كانوا يعيشون على اتصال مباشر بالمسلمين ، ما بين عرب وبربر في الريف والمدن ، وأشرنا كذلك إلى أن التمييز الواضح بينهم وبين المسلمين في الوضع والمعاملة ، لم يظهر إلا في عصر متأخر ، عندما تمكن أمر الفقهاء ووضعوا ما شاءوا من القيود لا على الذميين فحسب ، بل على المسلمين أيضاً .

ولقد أخطأ كثير من الباحثين الذين تعرضوا لدراسة أحوال الذميين في الأندلس وغيره من بلاد الإسلام ، عندما التمسوا الحدود والقواعد التى وضعت لهم من كتب الفقه والنظم الإسلامية ، وفاتهم أن هذه الكتب كلها وضعت في زمن متأخر عن عصر صدر الإسلام ،

فهي لا تمثل الوضع في صدر الإسلام ، بل هي لا تمثل الوضع في العصور التي كتبت فيها ، فالكثير مما تحويه من قواعد وأحكام إنما تمثل « أمانى » مؤلفيها ، وما كانوا يرون أن يكون عليه أهل الذمة بحسب ما انتهى إليه تصورهم وتفسيرهم للأيات والأحاديث وآراء كبار الأئمة .

ونحن إذا قرأنا اليوم كتاب « الخراج » لأبى يوسف ، أو كتاب « الأموال » لأبى عبيد ، أو « الأحكام السلطانية » للمهاوردي إنما ندرك أن ما في كتبهم إنما هو « المثل الأعلى » للنظم الإسلامية كما ارتآه أولئك الفقهاء ، وليس هناك مؤرخ محقق يقول بأن هذا هو النظام الذى كان جارياً بالفعل : إذ الواقع أن أحوال المسلمين كانت أسوأ بكثير ، وأحوال الذميين أحسن بكثير عما في هذه الكتب ، وكان هدف الفقهاء من هذه المبالغة هو طلب الرفق بالمسلمين والتشديد على الذميين ، حسباناً منهم أن هذا يسرع بإسلامهم ؛ ولم يتحقق شيء مما رجوه : لا المسلمون تحسنت أحوالهم ، ولا الذميون أسرع إسلامهم .

ولقد رأينا فيما سبق كيف كان لون العلاقات بين كبار عرب الأندلس والذميين في المجمع الأندلسي خلال هذه الفترة

وكبير نصارى الذمة أرتطباس ، ورأينا كيف كان الأمر صداقة بين الجانبين لا سيادة جانب على جانب ، وأن ميمون العابد ، وكان قطباً من أقطاب الإسلام الأندلسي في ذلك العصر ، ذهب يطلب إلى هذا الذمى قطعة أرض ليزرعها على أساس المزارعة ، أى اقتسام الثمر بينه وبين صاحبها ، ولو أن العرب كانوا غاصيين مستبدين - كما زعم خافيير سيمونيت ، وايزيدورو دى لاس كاخيخاس - لما احتاج هذا الرجل إلى أن يطلب أرضاً من أرتطباس على هذه الصورة .

ولا نزاع في أن العرب لم يمسوا النصارى الذين صالحوا على أنفسهم بسوء ، فقد روى صاحب « فتح الأندلس » أن موسى بن نصير رأى النبى ﷺ أثناء عبوره إلى الأندلس فنصحه « بالرفق بالمشركين » (١) ، وهى رواية أسطورية في الغالب ، ولكنها على أى حال تدل على اتجاه المسلمين حيال غير المسلمين أثناء الفتح وبعده بقليل . وما يؤيد ذلك عبارة للرازى يقولها في سياق الحديث عن أم عاصم (إيلونا) زوج لذريرق : « وكانت قد صالحت عن نفسها وأموالها وقت الفتح ، وباءت بالجزية ، وأقامت على دينها في ظل نعمتها ، إلى أن

(١) فتح الأندلس ، ص ٥ .

نكحها الأمير عبد العزيز فحظيت عنده ، ويقال إنه سكن بها في كنيسة بإشبيلية ^(١) ، مما يدل على أن من كان يصلح على نفسه من النصارى ويقبل دفع الجزية كان يضمن حرية دينه والبقاء ^(٢) في ظل نعمته .

وسرى أن ذلك كان صحيحاً في جملته وتفصيله ، وأن كل ناحية من نواحي الأندلس صالحت على نفسها بمعاهدة خاصة ، وأن هذه المعاهدات اختلفت فيما بين بعضها وبعض ، من حيث الصيغ والتفاصيل واتفقت في الروح والأساس ، بل إننا نلاحظ أن الفاتحين كانوا يتصرفون تصرفاً واسعاً فيما يعقدونه من عهود مع أهل النواحي ، بل ذهب بعضهم إلى حد «الابتكار» الذي يتجاوز ما تبيحه السوابق والقواعد ، ومن أمثلة هذا ما يرويه صاحب فتح الأندلس من أنه « عندما وصل موسى إلى الفجج المنسوب إليه انقطع إليه أهل ذلك الموضع ، فأقرهم على حالهم ، فسموا موالي موسى » ^(٣) .

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما حكاه الرازي عن فتح طارق لاستجة ، قال : « ثم نازل أهل استجة ، وهم في قوة ومعهم فل عسكر لذريق ، فقاتلوا قتالاً شديداً ، حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين ، ثم إن الله تعالى أظهر المسلمين عليهم ، فانكسروا ، ولم يلق المسلمون بعد ذلك حرباً مثلها ، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بالعلج صاحبها ، وكان مغتراً سىء التدبير ، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحده ، فصادف طارقاً هناك قد أتى لمثل ذلك ، وطارق لا يعرفه ، فوثب عليه طارق في الماء ، فأخذه وجاء به إلى العسكر ، فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة ، فصالحه طارق على ما أحب ، وضرب عليه الجزية وخلق سبيله ، فوفى بها عاهد عليه .. » ^(٤) . وقد كان المسلمون مجرّسون على الوفاء بعهودهم ، حتى في الحالات التي يبدو لهم أنهم خدعوا فيها ، كحالة تدمير الذي احتال على جند المسلمين بحيلة بارعة فصلنا أمرها في كلامنا عن الفتح ، وقد وفي المسلمون رغم ذلك لتدمير ، قال الرازي : « فمضوا على الوفاء له ، وكان الوفاء عادتهم » ^(٥) .

١٩٦- عهود
المسلمين للنواحي من النواحي ، ولكن بقي لنا النص الكامل لمعاهدة عبد العزيز بن موسى مع

(١) رواه المقرئ في فتح الطيب ، ج١ ، ص ١٧٨ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ١٤ .

(٣) رواه المقرئ في فتح الطيب ، ج١ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٤٧ .

تدمير وقطعة هامة من عهد موسى بن نصير لأهل ماردة أوردها الرازي فى القطعة الباقية من تاريخه فى ترجمتها الإسبانية ونصها : «... فذهبوا (يريد أهل ماردة) إليه ، وقالوا إنهم يتركون له كل ما كان لمن مات منهم ومن جرح (فى القتال بينه وبينهم) وممتلكات الكنائس وما فيها ، وكذلك ما تحويه من الأحجار الكريمة وغيرها من الأشياء الطيبة وكل ممتلكات رجال الدين . وبعد أن تم التوقيع على ذلك فى عهد صحبحة (مؤكدة) فتحوا له الأبواب وأدخلوه البلد وأسلموه إياها ، ولم يمس المسلمون من أقام فى البلد من النصارى بأذى ، وأما من أراد ترك البلد منهم فتركوه يمضى دون أذى .. » (١).

وأما نص الأمان الذى أعطاه عبد العزيز بن موسى لصاحب تدمير فقد أورده الضبى فى « البغية » ، ووردت ترجمته الإسبانية فى قطعة الرازي المشار إليها ، وقد أوردنا نصه فى كلامنا عن فتح الأندلس وسنعرض له فى الفصل التالى عن الإدارة ، ويمتأ فى هذا المقام أن نص على ما فيه من الضمانات التى منحها للذميين .

وقد اعتمد نفر من الباحثين الإسبان فى دراسة أحوال أهل الذمة فى الأندلس على وثيقة تسمى « عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه للنصارى » . وهى وثيقة ظاهرة الوضع ، إذ أنها تشير إلى إلزام النصارى بملابس خاصة منها « القلنسوة » و « العمامة » وهى ملابس لم يعرفها المسلمون فى أيام عمر رضى الله عنه ، وتحرم عليهم كذلك ركوب الخيل وما إلى ذلك ، ولم يُعرف عن عمر أنه نهى النصارى عن ذلك . والحقيقة أن هذا « العهد » من وضع فقهاء العصور المتأخرة ، ولا يجوز اتخاذه أساساً لدراسة أحوال أهل الذمة فى عصر صدر الإسلام (٢).

(١) النص :

"...Et fueronse para el, et pleitaron que le diessen todo el aver de los muertos, et de los feridos, et de las iglesias, et de lo que en ellas estaba, ansi como piedras preciosas et otras nobles cosas, et todo el aver de los clerigos. Et despues que esto fué firmado por buenas cartas abrierronse las puertas, et acogieronlo dentro, et entregaronlo de ella. Et aquellos christianos que hi moravan nos les facian mal, et los que irse querian ibanse, et non les facian mal ..."

PASCUAL DE GAYANGOS, Memoria sobre la autenticidad de la crónica denominada del Moro Rasis. p. 78.

(٢) نشر هذا النص المستشرق بيلان فى المجلة الآسيوية الفرنسية . انظر :

BELIN, Fetoua relatif à la condition des dzimmis, et particulièrement des chrétiens, en pays musulmans, dans Journ. Asiat. tome XVIII de la 1Ve. serie. pp. 126 sqq et 138 sqq.

وترجمه سيمونيت فى كتابه الأنف الذكر . ملحق ٢ ، ص ٨٠١ وما يليها .

١٩٧- تطور ويبدو أن مؤرخي الإسلام جميعاً ، ما بين قدامى ومحدثين ، مسلمين وغير النظم الإسلامية مسلمين ، يغيب عنهم أن النظم التي جرى المسلمون عليها في حكم الأقاليم والمعاملة التي اختصوا بها أهل الذمة لم توضع كاملة من أول الأمر ، وإنما تكاملت شيئاً فشيئاً مع الزمن ، وخضعت في كل مكان للظروف المحلية . ومن أمثلة ذلك أن أبا يوسف يذهب في كتاب « الخراج » إلى أن تقدير الجبايات تقديراً إجمالياً ودفع الخراج جملة واحدة غير جائزين ، في حين أن الوثائق البردية التي عثرنا عليها تدل على أن حكام المسلمين جروا على ذلك أول الأمر : ففي مصر مثلاً اتفق عمرو بن العاص مع ممثلي القبط على أن يؤدوا ما عليهم جملة واحدة تشمل الجزية والخراج جميعاً ، وقد جرى الأمر على ذلك أيام عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي السرح ، ثم كان التقسيم والتقنين بعد ذلك ^(١).

بل إن تحديد معنى الجزية والخراج غير واضح ، فتسمى الجزية في بعض الأحيان « خراج الرؤوس » ويسمى الخراج « جزية الأرض » . ذلك أن الذين عقدوا العهود مع أهل البلاد المفتوحة هم الفاتحون ، وهم رجال عسكريون عمليون ، كل ما كان يعينهم إقرار الأمن وضمان طاعة البلاد المفتوحة وإشعار أهلها بساحة الإسلام وعدل الدولة الإسلامية ، ثم ضمان حق الدولة في الجبايات ، وهم لهذا كانوا لا يدققون في طريقة الجباية ولا يتدخلون في شئون أهل البلاد إلا بالقدر الذي يضمن حقوق الدولة . ولم ينتقل الأمر إلى أيدي الفقهاء والمقننين إلا فيما بعد ؛ وقد بدأ الفقهاء عملهم على أسلوب علمي : يسألون عن الصلح والعنوة ، ويلتمسون الأحكام من القرآن الكريم والسنة ، ويتصرفون فيما يصدرونه من أحكام تصرفاً واسعاً ذكياً يدل على إدراك وسعة فهم ، كما نرى في موطأ مالك وما استند عليه مثل مدونة سحنون .

ثم مضى عهد كبار الفقهاء وأئمة الشرع في منتصف القرن الثالث الهجري تقريباً ، وبدأ عهد « الفقهاء السياسيين » أي الفقهاء الذين طمحووا إلى السلطان عن طريق التقرب من الحكام حيناً أو الاستعانة بالعوام حيناً آخر لإقامة جاه يستندون إليه . ولا نجد هذه الظاهرة

(١) انظر مناقشة ذلك في :

C. H. BECKER, Beitrage zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam. II, p. 83 sqq, 124 sqq.

-Die Entstehung von Ustr und kharagland in Aegypten in Zeitschrift der Assyriologie, XVIII (1904 - 1905) 301 - 319.

-Papyri Schott Reinhardt, I (Heidelberg, 1906) S. 37 sqq.

على صورتها الواضحة ، التي يمكننا تأريخها ، إلا في المغرب والأندلس ، وفي هذا البلد الأخير بصورة خاصة ، حيث نجد دولة الفقهاء وجهاً لوجه أمام دولة الأمراء ، ونجد دولة الفقهاء تبنى جاهها على إيمان العوام ، وتشرع بما يرضيهم ويستثير عواطفهم ، ومن هنا كانت مناداتهم بكل ما يرضى مشاعر الجماهير ، ومن ذلك التشدد مع الذميين ، وتحريض الأمراء عليهم وتحريض العامة على الأمراء إذا هم قربوا رجالاً منهم^(١) . وكان الفقهاء حريصين على أن يؤيدوا مذاهبهم بتفسيرات خاصة لأحكام الشرع ، وربما ابتكروا وثائق ونسبوا إلى رجال الدولة الإسلامية الأولى ، كما رأينا في الوثيقة المنسوبة إلى عمر بن الخطاب وكما نرى في الوثيقة المنسوبة إلى عبد الرحمن الداخل وغير ذلك كثير^(٢) .

والحقيقة أن المسلمين الأولين كانوا يجرون على تسامح كريم صادر عن إدراك فطري أن هذه هي السياسة المثلى لاجتذاب الناس إلى الإسلام وإقناعهم بعدالة الدولة الإسلامية . وذلك أمر لا ينبغي أن يغيب عنا عند التأريخ للنظم الإسلامية : ينبغي أن نقف عند ما لدينا من الوثائق الأصلية وشواهد المؤرخين الموثوق فيهم دون محاولة إكمال الفجوات من أحكام أبي يوسف ، وقدامة بن جعفر ، ويحيى بن آدم ، وأبي عبيد بن سلام .



ضمن المسلمون للنصارى واليهود من أهل البلاد حريتهم ، وأدخلهم
 ١٩٨ - المسلمون
 يدعون أهل النعمة
 أحراراً
 في ذمتهم مقابل الجزية والخراج على ما تقضى به الشريعة الإسلامية .
 وسنرى في الفصل التالي أن المسلمين في الأندلس لم يفرقوا كثيراً بين
 الصلح والعنوة ، فنال كل المسيحيين تقريباً نفس الحقوق ، ولم يمس المسلمون من
 الممتلكات إلا ما كان ملكاً لبيت لذريق وأفراده أو للذين قتلوا في الحرب مع المسلمين ،

(١) انظر مثلاً تحريض الفقهاء للعامة على الحكم الرضي لأنه أطلق يد ربيع القومس متولى المعاهدين بالأندلس من النصارى في المعاون والمغارم على المسلمين (أعمال الأعلام ، لابن الخطيب ، طبعة بيروت بعنوان : إسبانيا الإسلامية ، بيروت ١٩٥٦) ، ص ١٥ . وتحريض هاشم بن عبد العزيز للأمير محمد على قومس بن اثنتان بسبب توليته إياه الكتابة (ابن القوطية : افتتاح ، ص ٨٢ - ٨٣) .

(٢) أورد سيمونت نص هذه الوثيقة الموضوعة المنسوبة إلى عبد الرحمن الداخل ، وهو : « بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى الأندلسيين أهل قشتالة ومن تبعهم من ساير البلدان ، كتاب أمان وسلام ، وشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب وعشرة آلاف رطل من الفضة وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل ومثلها من البغال مع ألف درع وألف بيضة ومثلها من الرماح في كل عام إلى خمس سنين . كتب بمدينة قرطبة ، ثلاثة من صفر عام الثين وأربعين ومائة » .

وكذلك أملاك الكنيسة ، فاعتبرت هذه كلها غنيمة أُخرج خسها فجُعل ملكاً للدولة ، وتُرِكَ الباقي بيد من كانوا يزعمونه يؤدون عنه خراجه فيئاً للجماعة الإسلامية كلها . ولما كانت أملاك الكنيسة والبيت المالك كثيرة جداً ، فإن الدولة لم تستطع إحصاءها كلها ، بسبب اشتغال الأمراء بالحروب والفتن ، فوضع الكثير من أفراد الجيوش الغازية أيديهم على أرض كثيرة واستقروا فيها على أن يؤدوا للدولة ما لها من مال . بل إن المسلمين أطلقوا أسرى النصارى في أراضي الخمس ليعمروها ، فكأنهم اعتبروهم مزارعين كغيرهم ممن استسلم وباء بالجزية والأمان .

١٩٩- النصارى وقد ترك المسلمون نصارى الأندلس أحراراً ينظمون أمورهم على النحو يتفاوضون بقانونهم الذى أرادوه ، ما داموا على الطاعة يؤدون ما عليهم من الأموال ، فظلوا يفصلون في أفضيتهم وفقاً للقانون القوطى القديم^(١) ، وظلت علاقاتهم بكنائسهم وقساوستهم على ما كانت عليه قبل الفتح . وكان يدير أمور الجماعات المسيحية الكبيرة في المدن والأرياف رجال من نصارى عجم الأندلس يسمون بالقمامسة ، وواحدهم قومس Comes ، وهو لقب كبير كان مقصوراً قبل ذلك على القوط ، فلما أزال العرب أمر القوط صار القمامسة من أهل البلاد ، فكأن الفتح الإسلامى رد إليهم اعتبارهم من هذه الناحية^(٢) .

٢٠٠- الجماعات النصرانية تنظم أنفسهم وقد ترك العرب للجماعات النصرانية نظامها المدنى الذى كانت جارية عليه أيام القوط ، وهو نظام مدنى وإدارى أيضاً ، أى أن القائمين بأمره كانوا مسئولين عن كل ما يتصل بأمر رعاياهم فيما بين أنفسهم ، كانوا يجمعون ضرائبهم ويؤدونها إلى بيت المال نيابة عنهم ، وكانوا يعينون لهم القضاة الذين يفصلون في منازعاتهم بحسب القانون القوطى ، وكانوا يشرفون على كنائسهم ويتولون أمور قساوستها ، أى أنه وُجد من أول الأمر نظامان إداريان جنباً إلى جنب : واحد للمسلمين وواحد للنصارى . أما في القضايا التى تقع بين المسلمين وغير المسلمين ، فكان ينظر فيها قضاة المسلمين ويحكمون فيها بشريعة الإسلام ، ولهذا جاء في أحد كتب الفقه الأندلسية : « ويستحب للقاضى الجلوس للحكم في رحاب المسجد الخارجة عنه من غير تضييق عليه في جلوسه في غيرها ، ليصل إليه اليهودى والنصرانى والضعيف وهو أقرب

(١) المعروف باسم Forum Judicum وفي الإسبانية Fuero Juzgo ويعرف باسم Lex Gothorum أو Lex Judicorum cum

SIMONET. op. cit. pp. 106 - 107.

(٢)

المواضع ،^(١).

٢٠١- التشريع الإسلامي والقانون القوطي
وسرى في الفصل التالي أن مسلمي الأندلس في ذلك العصر كانوا يجرّون فيها يتصل بالتشريع والتنظيم على مذهب الأوزاعي ، وهو مذهب أهل الشام في ذلك العصر ، يعتمد على القرآن والسنة ، ويفسح مجال الرأي ، فيعتبر ما فعله الصالحون من خلفاء بنى أمية من الآثار الصالحة التي يمكن القياس عليها ، وقد كان العصر الأموي كله عصر فتوح وحروب وتوسع كثرت فيه المشاكل والمسائل الناجمة عن الحروب والفتوح ودخول أمم جديدة في الإسلام ، وكان لابد من القضاء فيها برأى سريع حازم عمل ، ولهذا قيل إن فقه الأوزاعي فقه عسكري ، وكان معظم امتداد الإسلام إذ ذاك في بلاد جرى أهلها على التشريع البيزنطي أو الروماني ، فدخل تشريع خلفاء بنى أمية ورجلهم الكثير من أصول القوانين البيزنطية والرومانية ، ولهذا قيل إن فقه الأوزاعي تأثر بالتشريع الروماني^(٢) ، وقد رفض الكثيرون من المفكرين المحدثين هذا الرأي اعتزازاً منهم بأصالة التشريع الإسلامي^(٣).

ونظن أن الوضع في الأندلس يعطينا رأياً نافعاً في هذا الموضوع ، فها نحن أمام حالة فريدة في بابها : تشريعان ساريان جنباً إلى جنب تقر الإدارة الإسلامية ما يصدر عنهما : تشريع إسلامي يطبق على المسلمين ، وغير المسلمين في حالات خاصة ، وتشريع قوطي روماني نصراني يطبق على النصارى . والتشريعان يسيران جنباً إلى جنب . فإذا ذكرنا أن معظم أهل الأندلس في الفترة الأولى بعد الفتح كانوا نصارى ، أي يطبق عليهم القانون القوطي ، وأن القاضى المسلم كان إذا جلس للحكم ، جلس في موضع يصل إليه فيه النصارى واليهود ، وأنه كان يستمع إلى متخاصمين قد يكون بعضهم مسلمين وبعضهم نصارى ، ويجتهد في أن يصدر حكماً يرضاه المتخاصمون ويكون في نفس الوقت متمشياً مع أحكام الشريعة الإسلامية ويكون قابلاً للتنفيذ في نفس الوقت - أفليس من المعقول في هذه الحالة أن يستمع القاضى وهو في مجلسه إلى ما يقوله النصراني معتمداً فيه على ما جرى عليه العمل من القانون القوطي ، ولم يكن كله متعارضاً أو بعيداً عما يقول به الشرع الإسلامي ؟

SIMONET, op. cit. p. 99.

(١)

(٢) انظر :

JOSEPH SCHACHT, the Origins of Mohammedan Jurisprudence; 72. 288 -289.

(٣) أحمد أمين : فجر الإسلام ، الطبعة الخامسة ، ص ٢٤٨ .

لقد كان القاضى المسلم فى ذلك الحين قاضى المسلمين ، وكان يسمى لهذا « قاضى الجند » لأن المسلمين جميعاً كانوا إذ ذاك معتبرين جنداً ، ولم يسم به « قاضى الجماعة » إلا فى زمن متأخر (١) ، عندما صارت الجماعة الأندلسية كلها جماعة إسلامية ، وتضاهل نفوذ « قاضى العجم » حتى اقتصر على الأقلية المسيحية . وكان « قاضى الجند » هذا مضطراً إلى الاستماع إلى حجج المتخاصمين ، والكثيرون منهم نصارى أو مسالمة ، ومنهم من يطالبون بحقوق أقرها لهم القانون القوطى ، فهل يستبعد والحالة هذه أن يجتهد القاضى فى العثور على رأى يضمن للناس حقوقهم ويربطه بطريقة ما بأصول التشريع الإسلامى ؟ (٢).

لقد جاء فى وصية عقبة بن الحجاج السلولى إلى قاضيه مهدى بن مسلم - وهى دستور القضاة فى الأندلس إذ ذاك ، وكان مهدى بن مسلم من أبناء المسالمة ، أى من المولدين ، أى نشأ فى بيت يتحدث أهله بالعجمية ويجرون على ما جرى عليه قومهم من قوانين القوط - : « ... وأمره أن يساوى بين الخصوم بنظره واستفهامه ولطفه ولحظه ، وأن يفهم من كل أحد حجته وما يدلى به ، ويستأنى بكل عى اللسان ناقص البيان ، فإن استقصاء الحجة ما يكون به لحن الله تعالى قاضياً وللواجب فيه راعياً ، فقد يكون بعض الخصوم لحن بحجته وأبلغ فى منطقته وأسرع فى بلاغ المطلب ، والطف حيلة فى المذهب وأذكى ذكاء وأحضر جواباً من بعض ، وإن كان غير الصواب مرماه ... » (٣) . والإشارة هنا - كما يغلب على الظن - إلى أولئك الذين لا يحسنون الإبانة عما فى نفوسهم بالعربية ، إذ هم حديثو عهد بها ، فإذا ذكرنا أن مهدى بن مسلم هو الذى كتب عهده بنفسه عن الأمير عقبة بن الحجاج تأكد فى نفوسنا هذا المعنى (٤).

ولدينا أمثلة قليلة جداً من قبول قضاة الأندلس لأشياء مما جرى به العرف أو القانون الجارى فى تلك البلاد بين أهل البلاد . قال الحشنى : « ومن ذلك أن أحمد بن خالد سمع محمد بن عمر بن لبابة يقول : حضرت وقد خاصم إليه رجل فى قرن بناء صاحبه فأضر الدخان به وبالخيران ، وهذه المسألة يقول [فيها] ابن قاسم أن ذلك من الضرر الذى يجب

(١) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٢١ .

(٢) راجع ما يقوله جوزيف شاخت عن فقه الأوزاعي وحركة إدخال بعض قواعد التشريع التى وجدها المسنونون فى البلاد المفتوحة فى الفقه الإسلامى :

JOSEPH SCHACHT, op. cit. pp. 288 - 289.

(٣) الحشنى : قضاة الأندلس ، ص ٢١ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٠ .

قطعه، ولا يباح اتخاذه، فقصى سليمان بن أسود بغير ذلك: أن يجعل أنبوباً في أعلى الفرن، فيخرج الدخان من أعلاه فلا يضر ذلك بمن جاوره، فكان محمد بن عمر [بن لبابة] يفتي بهذا ويحمل الناس عليه فيما أخبرني أحمد بن خالد^(١).

وهناك مثل آخر يحكيه الحشني في ترجمة القاضي الحبيب بن أحمد بن زياد اللخمي، فقد ذكر أن جماعة حدثت في أيام الأمير محمد، فكثرت التناول من المفسدين، « فولى السوق حيثند إبراهيم بن حسين بن عاصم، وأمره بالاجتهاد، وعهد إليه بالتحفظ وأذن [له] بالتنفيذ في القطع والصلب بلا مؤامرة منه ولا استئذان، فكان إبراهيم يجلس في مجلس نظره في السوق، فإذا أوتى بالفساد المدفح قال له: اكتب وصيته! ودعا له بشيوخ فأشهدهم على ما يوصى به، ثم صلبه ونحره؛ فكان بين يديه من المصلوبين عدد عظيم. فأتاه قوم بنفر من جيرانهم فشكوا إليه تطاولاً على ما يكون من أشرار الأحداث، وهم لا يشكون أنه سيزجره الزجر القوي، وإن أفرط في عقابه فالسجن، فقال لشيخ منهم: ما يستحق عندك؟ فقال - على وجه المثال - : ما استحق هؤلاء! وأشار إلى المصلبين، فقال إبراهيم بن حسين [له] ولأصحابه: انصرفوا، فانصرفوا. ثم قال للفتى: اكتب وصيتك! فقال له: اتق الله في، فإنه لم يبلغ ذنبي أن أستحق القتل والصلب. فقال له: بذلك شهد عليك الشهود، فقتله وصلبه. فلما بلغ الشهود ذلك أتوه فقالوا له: لم نشهد عندك على الفتى بذنوب يجب فيه القتل! فقال: أو لم يقل قائلكم إنه يستحق ما يستحق هؤلاء؟ فقالوا له: « على المثل! »، قال: فإثم ذلك في رقابكم، إذ لم تحسنوا الإبانة من أنفسكم^(٢).

وظاهر أن هذين الحكيمين مستقيان من جاري العرف والقانون القوطي، فوضع المداخن أمر لم يكن معروفاً في المشرق، والحكم به يعتبر تجديداً مقبلاً من البيئة الأندلسية، وقتل الحدث للذنب البسيط غير جائز في الشريعة الإسلامية، ولكنه جائز في شريعة القوط. بل إن القضاة أنفسهم كانوا يميزون لأنفسهم ما لا يميزه أهل التقى والورع في المشرق، فقد خطب زياد بن عبد الرحمن - الذي أصبح قاضياً فيما بعد - ابنة القاضي معاوية بن صالح، وأحب رؤيتها قبل البناء بها « على ما يفعله بعض الناس، فتحيل النساء عليه في ذلك وأتبن به عند العشاء الآخرة، فصار في الأسطوان، فنفرت دابة معاوية منه واشتد قلقها من أجله،

(١) نفس المصدر، ص ١٣٧.

(٢) الحشني: فضاة الأندلس، ص ١٧٨ - ١٧٩.

حتى خرج معاوية إلى الصلاة فسمع حس الدابة فراه ذلك ، فدعا بالمصباح ، فوجد زياداً في مذود الدابة في بعض زوايا الأسطوان ، فما زاد على أن قال له : استوصوا [بحرمات المسلمين يستوص الله] بكم خيراً ، ثم خرج إلى الصلاة^(١) . وأمر كهذا ما كان يجيزه عرف أهل التقى والعلم في المشرق ، ولو فعله رجل لما ولى القضاء أبداً ، ولكن زياد بن عبد الرحمن ولى القضاء بعد ذلك وصار من كبار أهل العلم والفتيا ، وهذا أثر من آثار البيئـة الأندلسية في تصرفات شيوخ الأندلس وحكمهم على الأشياء .

وروى الخشني أن القاضي محمد بن زياد اللخمي كان يتساهل مع السكارى ويتغافل عنهم ، حتى لقد أتوه برجل « يتهايد سكرأ » فأمر القاضي بأخذه ليقيم عليه الحد ، وكان يرافقه القاضي صديق له فقيه هو محمد بن عيسى الأعشى ، فلما كان في موضع ضيق . « تقدم القاضي وتأخر الأعشى ، فنى تأخره عن القاضي التفت إلى الذي كان يمسك السكران فقال : يقول لك القاضي : أطلقه ! فأطلقه ، ثم افترقا جميعاً . ونزل القاضي ودعا بالسكران ، فقيل له : أمرنا عنك أبو عبد الله الفقيه أن نطلقه ، فقال : وفعل ؟ قال : نعم ! قال : أحسن ! » . وقد علق الخشني على ذلك محتجاً ، وقال : « وما أتى عن القضاة في هذا المعنى خاصة من الإغضاء عن السكارى والتغافل لهم والرقعة عليهم ، فلا أعرف لذلك وجهاً من الوجوه يتسع لهم فيه القول ويقوم لهم فيه العذر ، إلا وجهاً واحداً ، وهو أن حد السكر من بين الحدود كلها لم ينصه الكتاب المنزل ، ولا أتى فيه حديث ثابت عن الرسول ﷺ .. إلى آخره »^(٢) .

وقد فات الخشني ، وهو من فقهاء القرن الرابع الهجري ، أن قضاة الأندلس أيام محمد ابن زياد ، أى منتصف القرن الهجري الثاني ، لم يكونوا يحكمون بالنصوص فقط ، بل كانوا يجتهدون ويراعون البيئـة المحلية ، ويتأثرون بما حولهم ، وأن القانون كائن حتى يفتنى بما حوله وينمو ويتطور ، وإذا كان تاريخ أى جماعة يتجلى بأصدق صورته في تاريخ تشريعها ، فلا شك أن المجتمع الإسلامي والشرع الإسلامي لا يشدان عن هذه القاعدة ، وأن التشريع في صدر الإسلام كان حياً متطوراً متقبلاً لكل جديد ، مثله في ذلك مثل الجماعة الإسلامية في ذلك العصر ، فلما جمدت هذه الجماعة جمدها الآخر ولم يعد يتطور .

(١) نفس المصدر ، ص ٣٥ .

(٢) الخشني : قضاة ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

وقد جهد التشريع الإسلامي ووقف عن التطور عندما تحول إلى علم ثابت الأصول والفروع على أيدي الفقهاء ، ولا يبدو ذلك في صورة هي أوضح مما ظهر به في الأندلس والمغرب ، فقد كان التشريع في هذين البلدين أول الأمر سهلاً مرناً يأخذ من البيئة المحلية كثيراً ويطوع ما يأخذه لأصول الإسلام ، بل اشترك نفر من أهل المغرب والأندلس مع مالك بن أنس في تكوين مذهب ، فأهل الأندلس يذهبون إلى أن مالكا روى عن قاضيهم معاوية بن صالح^(١) ، وأهل المغرب يقولون إن سحنوناً كان صاحباً لابن القاسم بجالسه ويشاوره^(٢) ، واستمر ذلك حتى اكتمل مذهب مالك وأقبل إلى المغرب والأندلس تلاميذ مالك ونشروا مذهبهم وحلوا الناس عليه وكرهوا كل تجديد أو ابتكار . هنا جهد التشريع ولم يعد له سبيل إلى التطور ، وأخذ باب الرأي يضيق شيئاً فشيئاً حتى أصبح « رأى مالك » فقط وأصبح الفقهاء هم أهل الحديث ، وتلاشى مذهب الأوزاعي وقامت دولة المالكية وقتهااتها.

ومن للمحقق أن تشريع قضاة الأندلس الأول قد ضاع معظمه ، قال الخشني : « وذكر محمد بن وضاح قال : قال لي يحيى بن معين : جعتم حديث معاوية بن صالح ؟ قلت : لا ! قال : وما منعكم من ذلك ؟ قلت : قدم بلداً لم يكن أهله يومئذ أهل علم ! قال : أضعتم والله علماً عظيماً ! »^(٣) . وقال محمد بن عبد الملك بن أيمن أنه بحث عن كتب معاوية بن صالح فلم يجدها ، قال : « فلما انصرفت إلى الأندلس طلبت أمهاته وكتبه ، فوجدتها قد ضاعت بسقوط هم أهلها »^(٤) . ويؤكد الخشني أن أحد قضاة ذلك العصر الأول في الأندلس ، وهو المصعب بن عمران ، لم يكن « بالمتسع في علم السنن ولا في رواية الأخبار » فبماذا كان يحكم ؟ ثم يقول بعد ذلك أن « زياد بن عبد الرحمن أول من دخل الأندلس بالفقه والحلال والحرام »^(٥) مما يفهم منه أن أحكام الأندلس لم تكن تجرى قبل ذلك على فقه ثابت معروف ، بل على الاجتهاد والرأي والقياس .

وربما كان المراد هنا أن زياداً أول من دخل الأندلس بفقه مالك ، وهو أمر لا يغير من

(١) نفس المصدر ، ص ٣٠ .

(٢) المالكي : رياض النفوس (قام على نشره حسين مؤنس سنة ١٩٥١) ج ١ ، ص ٢٥٠ وما يليها .

(٣) الخشني : قضاة الأندلس ، ص ٣١ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) نفس المصدر ، ص ٥٠ .

الوضع كثيراً، ولدنيا براهين تؤيد ذلك، فمن ذلك ما يحكيه ابن القوطية من أن عيسى بن مزاحم عندما تزوج سارة القوطية قدم معها إلى الأندلس « وقبض ضياعها»^(١)، والزوج في الشريعة الإسلامية لا يقبض أملاك زوجته إلا بشروط، ولكن القانون القوطي يقره مبدأ عاماً. ويؤيد ما نقوله النباهي في حديثه عن المصعب بن عمران القاضي، قال: « وكان يروى عن الأوزاعي وغيره، وكان لا يقلد مذهباً، ويقضى بما يراه صواباً »^(٢).

ومن الثابت أن قضاة الأندلس في ذلك العصر لم يكونوا يرون بأساً بمخالفة ما ينص عليه الأئمة، ومن ذلك أن القاضي محمد بن بشير كان « لا يميز الشهادة على الخط في غير الأجلس، ولا يرى القضاء باليمين مع الشاهد »، وقد علق على ذلك محمد بن عمر بن نُبابة بقوله: « قد علم القاضي - حفظه الله - اختلاف أهل العلم، وما ذهب إليه مالك وأصحابه من اليمين مع الشاهد، وما ذهب إليه قضاة بلدنا منذ دخلته العرب، من أنهم لا يرون اليمين مع الشاهد ولا يقضون به .. »^(٣) مما يدل على أن قضاة الأندلس كانت لهم آراء خاصة يجرون عليها.

٢٠٢- عمل ومن الثابت أيضاً أنه كان لقضاة قرطبة فقه خاص يجرون عليه وينكره غيرهم
قرطبة من قضاة المغرب والشرق، وهذا الفقه القرطبي يسمى بتسمية خاصة تدل على أنه مستقى من جاري العرف وأعمال الناس بحكم العادة، فكان يسمى « عمل قرطبة»، وللمقرى رواية طويلة في هذا الباب لا بأس من إيرادها على تواليها لأهميتها. قال المقرى: « واعلم أنه لعظم أمر قرطبة كان عملها حجة بالمغرب، حتى أنهم يقولون في الأحكام: هذا مما جرى به عمل قرطبة. وفي هذه المسألة نزاع كبير، ولا بأس أن نذكر ما لا بد منه من ذلك. قال الإمام ابن عرفة رحمه الله تعالى: في اشتراط الإمام على القاضي الحكم بمذهب معين - وإن خالف معتقداً المشتراط اجتهاداً وتقليداً - ثلاثة أقوال: الصحة للباحي، ولعمل أهل قرطبة، ولظاهر شرط سحنون على مذهب من ولاة الحكم بمذهب أهل المدينة، قال الماذري: مع احتمال كون الرجل مجتهداً. الثاني: البطلان للطرطوشى، إذ قال: في شرط أهل قرطبة هذا جهل عظيم. الثالث: تصح التولية ويبطل الشرط، فخرجياً على أحد الأقوال في الشرط الفاسد في البيع للماذري عن بعض الناس، انتهى مختصراً.

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٦.

(٢) النباهي: قضاة الأندلس، ص ٤٧.

(٣) نفس المصدر، ص ٥٠.

قال ابن غازي : أن ابن عرفة نسب للطرطوشي البطلان مطلقاً ، وابن شاس إنما نسب له التفصيل ، انتهى .. ولما ذكر مولاي الجلد الإمام قاضي القضاة بفاس سيدي أبو عبد الله المقرئ التلمساني في كتابه القواعد شرط أهل قرطبة المذكور ، قال بعده ما نصه : وعلى هذا الشرط ترتب عمل القضاة بالأندلس ، ثم انتقل إلى المغرب ، فبينما نحن ننازع الناس في «عمل المدينة» ونصيح بأهل الكوفة مع كثرة من نزل بها من علماء الأمة كعلي وابن مسعود ومن كان معها : ليس التكحل في العينين كالكحل ، سنح لنا بغض الجمود ومعدن التقليد!

الله أخطر مدتسى فتأخرت حتى رأيت من الزمان عجائباً

يا الله والمسلمين ! ذهبت قرطبة وأهلها ولم يبرح من الناس جهلها ! ما ذاك إلا لأن الشيطان يسعى في نحو الحق فينسيه ، والباطل لا زال يلقيه ويلقيه . ألا ترى خصال الجاهلية - كاليانحة والتفاخر والتكاثر والطعن والتفضيل والكهانة والنجوم والحظ والتشاؤم وما أشبه ذلك - وأسماها - كالعتمة ويثرب - وكذا التنازع بالألقاب وغيره مما نهى عنه وحذر منه كيف لم تنزل من أهلها (يريد أهل قرطبة) وانتقلت إلى غيرهم مع تيسر أمرها ، حتى كأنهم لا يرفعون بالدين رأساً ، بل يجعلون العادات القديمة أساً ، وكذلك حجة الشعر والتلحين والنسيب وما انخرط في ذلك السلك ثابتة الموقع من القلوب ، والشرع فينا منذ سبعمائة سنة وسبع وستين لا نحفظه إلا قولاً ، ولا نحمله إلا كلاً ؟ .. انتهى » (١).

وهذه عبارة لا تحتاج إلى تعليق ، فهي تُجمل كل ما قلناه من تأثير التشريع في الأندلس بالبيئة المحلية ، وجرى القضاة في قضائهم «على العادات القديمة» واعتبارهم ما يصدر من أحكام «عملاً» خاصاً بهم يلتزمون ولو اشترط الأمير الذي يوليه أن يحكموا بمذهب معين . وذلك هو الأمر الطبيعي المعقول ، لأن القانون جزء من الحياة العامة يتأثر بها فيها ويجاريه ولا مفر للقضاة من إفساح المجال لما جرى عليه الناس ، ما دام لا يتعارض مع الأصول ، وما دام مالك قد اعتبر عمل أهل المدينة أساساً من أسس تشريعه ، وأبو حنيفة قد خضع للبيئة العراقية وصاغ في حدودها مذهبه ، فقد كان من الطبيعي أن يكون لقضاة الأندلس فلسفة خاصة في أحكامهم ، فلسفة قائمة على قبول جاري العرف والقانون والتقليد ، وإن وصف الفقهاء ذلك بأنه «جهل عظيم» .

(١) المقرئ : نفع الطيب ، طبعة محي الدين ، ج ٢ ، ص ٩٣ - ٩٤ .

٢٠٣ - اختلاف نظم القضاء في الأندلس عن مثيلاتها في المشرق
 وإنما استطرادنا هذا الاستطراد لأن منطق التاريخ - إلى جانب ما أوردناه من البراهين - يؤيد ما ذهبنا إليه من تأثير التشريع في الأندلس بالتشريع القوطي الذي كان العمل جارياً به في الأندلس قبل أيام المسلمين : وإذا كان هناك قاض للعجم يحكم بـ « سنة النصارى » ، وقاض للمسلمين يحكم بسنة الإسلام ، جنباً إلى جنب ، وكلما انقضى حين دخل نفر من النصارى في الإسلام وصار منهم قضاة وفقهاء ، فإن تسرب أشياء من « قضاء العجم » إلى قضاء المسلمين أمر طبيعي . بل بلغ من ذلك التأثير أن أخذ تنظيم القضاء العام في الأندلس صورة يختلف فيها عن نظم القضاء في المشرق جملة وتفصيلاً ، فظهر نظام القضاة المشاورين وتألفت منهم هيئة تسمى « المَشُورَة » وهي صورة « الكوريا » Curia القضائية في نظام القضاء الروماني ، وهذه « المشورة » أو الكوريا هي التي تضع القواعد الفقهية وتحدد المبادئ ، في حين اقتصر أمر القضاة على التطبيق ، مما لا يتسع المجال لدراسته في العصر الذي نؤرخ له ^(١).

٢٠٤ - العرب يحرمون نظم البلديات
 وقد وجد العرب في الأندلس مدناً كبيرة كثيرة منظمة أمورها تنظيمياً طيباً ، وصادفوا لأول مرة نظم البلديات وحكومات المدن ، ووجدوا كل مدينة وحدة قائمة بذاتها ولها زمام حولها يتبعها . وقد كانت أحوال المدن الرومانية في

(١) ليس هنا مجال الكلام عن وجوه اختلاف نظم القضاء في الأندلس عن مثيلاتها في المشرق . وقد أشار إلى ذلك خليان ريبيرا في مقدمته لتاريخ القضاة للحارث بن أسد الخنسي ، واعتمد على كلامه ليبي برونسال فيها أورد من مادة طيبة عن القضاء في الأندلس في الجزء الثالث من « تاريخ إسبانيا الإسلامية » . وقد قدمت مادة طيبة عن الموضوع في بحث عن « سقوط خلافة قرطبة » (بالفرنسية) ويحتمى أن أشير هنا إلى بعض المراجع الهامة لدراسة هذا الموضوع لم يشر إليها أحد ممن اشتغل به ، وهي :

JOSÉ LOPEZ ORTIZ . La recepción de la Escuela Maliqui en España.

- La Curia Musulmana.

SANCHEZ ALBORNOZ . Los Arabes y las orígenes del feudalismo.

LACARRA : Fueros navarros del siglo XII.

GONZALEZ PALENCIA : El Fuero latino de Albarraçin

SALVADOR VILA : El capitulo del matrimonio del formulario notorial de Aben Moguit.

وكلها ظهرت في حوليات تاريخ القانون الإسباني :

Anuario de Historia del Derecho Español.

ابتداء من المجلد السابع سنة ١٩٣٠ وما يليه .

وفي كتاب « المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب » لأبي العباس أحمد بن يحيى التلمساني الوشتريشي (أو الوشتريسي) طبع حجر ، فاس ، ١٣١٤ و ١٣١٥ ، مادة طيبة وناقعة ابتداء من الجزء الخامس .

غرب أوروبا قد اضطرت واضمحلت بسبب غارات الجرمان وما أحدثته من الفوضى والاضطراب والفقر، ولكن هيكل التنظيم المدني كان باقياً ما يزال^(١). وقد احترم العرب هذا التنظيم على اعتبار أنه جزء من احترامهم لعهودهم مع أهل الذمة، وكانوا أول الأمر معظم أهل المدن. وقد أفاد العرب من احتفاظهم بهذا النظام فيما بعد، إذ أنه عندما أسلم معظم أهل المدن وتعربوا اتسعت حدود هذا النظام فشمل المسلمين أيضاً من أهل المدن، وعُرب وأصبح جزءاً من النظام العام للأندلس.

٢٠٥- قوس أقام العرب على أهل الذمة والنصارى رئيساً منهم ولقبوه بقومس الأندلس الأندلس أو زعيم نصارى الذمة، وجعلوه مسئولاً أمامهم عن كل ما يتصل برعاياهم من النصارى، وأحاطوه بما يليق به من الاحترام. وكان أول القيامسة هو ارطياس، وستحدث عنه بعد قليل. حقيقة أن هذا اللقب لم يظهر في النصوص إلا أيام عبد الرحمن الداخل، ولكن صورة الخبر الذي يتضمن هذا اللقب عند ابن القوطية تدل على أن الوظيفة كانت قديمة والجليد هو اللقب^(٢). ومستمر الوظيفة بهذا اللقب بعد ذلك.

٢٠٦- العرب ويذكر الراهب الذي كتب مدونة البلدة Chronicon Albeldense أن يتركون لأهل الذمة حرية اختيار حكامهم ومنظمي أمورهم رؤسائهم

" .. Et unusquisque ex illorum origine de semit epsos comites eligerent, qui per omnes habitantes terrae illorum pacta Regis congregarentur"^(٣)

(١) لم يدوس أحد إلى الآن تطور أحوال المدن الإسبانية خلال العصور الوسطى، وكل ما لدينا معلومات عامة مستخلصة من تطور أحوال المدن في غالة وإيطاليا. والرأى الغالب هو أن الاضمحلال العام الذي شمل المدن الرومانية جميعاً خلال العصر الروماني المتأخر أدى إلى تدعور المدن، فاخشي بعضها وتحول الباقي إلى قرى، وأصبح التقسيم الإداري زراعياً خالصاً يقوم على وحدات ضرائبية تعرف الواحدة منها باسم territoria وإن ظل الناس يطلقون لفظ المدينة على التيريتوريا وموضع المدينة القديمة civitas وزمامها urbs. انظر:

MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES : en Historia de España dirigida por D. Ramon Menéndez Pidal. Vol. III (Madrid, 1940) p. 220.

والأراء التي يبدونها المؤلفان حافلة بالأخطاء. وقد أتى الخطأ من أن هذين الباحثين الإسبانين نقلوا أقوال مورخين ألمان وفرنسيين حاسين أن مثل ذلك قد حدث في إسبانيا، وفاتهما أن الفتح الإسلامي أوقف اضمحلال المدن في إسبانيا كما سترى فيما يلي.

(٢) انظر عن لقب قوس Comes في إسبانيا القوطية :

MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES, op. cit. p. 221

SIMONET, op. cit. p. 108.

(٣)

وورود هذا اللفظ بصيغة الجمع في هذا النص يُفهم منه أنه كان هناك أكثر من قوس ، والأقرب إلى المعقول أنه كان على رأس النصارى في كل ناحية قوس ، لأن كل ناحية في إسبانيا كان لها قوس على أيام الرومان ثم القوط من بعدهم ، فأقر العرب هذا الوضع ^(١) ، واشتروا - كما هو واضح في النص - أن تنتخبه الجماعة النصرانية بنفسها ، على خلاف ما كان الحال عليه أيام القوط ، إذ أن ملك القوط كان يعين القمامسة من أصحابه والمقربين إليه ، إذ أن المعنى الأصلي للفظ Comes هو رفيق أو صاحب . وهذا التغيير في طريقة تعيين القمامسة طبيعي ، لأن مُلك القوط قد زال ، فانتقل حق اختيار الحكام إلى الجماعة النصرانية ، واكتفى العرب باختيار القوس الأعلى وهو الملقب بقوس الأندلس ، ولم يروا أن يتروكوا له حق تعيين قمامسة النواحي ، لأن ذلك كان يعطيه سلطاناً واسعاً خطراً ، إذ أن الغالبية العظمى من أهل البلاد كانت نصارى . وسنرى بعد قليل كيف أن قوس الأندلس أسماء التصرف مع إخوانه في الدين ، حتى في الحدود التي وضعها العرب لسلطانه .

ويذهب سيمونيت إلى أن سلطان قمامسة المدن كان لا يقتصر على المدن التي يتخبرهم أهلها ، بل يمتد إلى كل الناحية الداخلة في زمامها ، ويقول : « ولا شك أنه كان يعاون القمامسة موظفون آخرون أصغر منهم ، كانوا يعملون تحت إدارتهم خاضعين لسلطانهم في المدن ، وينوبون عنهم في القرى الداخلة في زمام ناحيتهم ، وكانوا يتولون الأعمال المختلفة من إدارية ومالية وقضائية » ^(٢) .

٢٠٧-الوظائف القوطية تدخل في النظام العرسي العام
وكان أصحاب وظائف أهل الذمة يلقبون أول الأمر بألقابهم اللاتينية التي عرفت بها أيام الرومان والقوط ، ثم عرّبها الناس عندما غلبت العربية على غيرها في شبه الجزيرة ، ثم أخذت اللفظة العربية على ألسنة

(١) يبدو أن هناك شيئاً من الالتباس في قول مانويل توريس في الموضوع الذي أشرنا إليه في المامش قبل السابق أن القوس في أيام القوط كانت له سلطات عسكرية ومالية وقضائية ، ولهذا كان يسمى Comes civitatis (قوس المدينة) أو Comes territorii (قوس الناحية) أو Comes provinciae (قوس المديرية) أو Comes exer-citus (قوس الجيش) إذ يغلب على ظننا أنه كان هناك أكثر من قوس ، لكل منهم اختصاص ، وفوق هؤلاء جميعاً كان الدوكس dux أى القائد أو الحاكم الأعلى ، وهذا هو الذي كانت له الاختصاصات المتعددة . ويبدو أن القمامسة كانوا قد أصبحوا في أواخر أيام القوط مجرد موظفين ، كل منهم يوكل بناحية من نواحي الإدارة ، وصغر شأنهم تبعاً لذلك ، لأننا لا نجد القمامسة يتصدون للعرب دفاعاً عن نواحيهم . حقيقة أنهم كانوا جميعاً قوطاً ، وقد هربوا بعد واقعة وادي لكة ، ولكن يمكن أن يقال أيضاً أن أمرهم كان قد ضعف ، فلم تعد لهم القيادة ، ولهذا لم نذكرهم بالتفصيل .

الناس صورة إسبانية عندما جرت في الاستعمال الدارج ، وقد صحب هذا التطور اللفظي تطور في معنى الوظيفة واختصاصها في بعض الأحيان .

٢٠٨- قاضي العجم كان القاضي يسمى أولاً « يودكس Judex » ، ثم حلت محلها لفظة « القاضي » العربية ، ثم صارت هذه اللفظة على ألسنة الناس ألكاليد Alcalde ، وبهذه الصورة دخلت اللغة القشتالية وظلت فيها إلى اليوم ، وتطور معنى الألكاليد أيضاً مع الزمن فصار إلى ما يشبه « العمدة » عندنا (في المدن الصغيرة والقرى) ، والأغلب أن هذا التطور حدث عندما أسلم معظم الناس وتضاءل بذلك اختصاص قاضي العجم في الفصل في القضايا ، وأصبح أشبه برئيس شرفي تنتخبه الجماعة النصرانية من غير اختصاص واضح ، كما هي حالة العمدة في المدن الصغيرة .

وقد حدث تطور شبيه بذلك أيام القوط في اختصاصات القضاة : فقد كان للقوط قضاة من أنفسهم يسمون في اللاتينية Millenarii وفي الداريجة Theofadi إلى جانب قاضي الأهالي من الأيبيريين الرومان الذي كان يسمى Judex ، ثم غلب اختصاص هذا الأخير حتى أصبح قاضي الأيبيريين الرومان والقوط جميعاً وتحول قاضي القوط (الميليناريوس أو الثيوفادوس) إلى موظف عسكري (١) .

٢٠٩- صاحب المدينة وإلى جانب القومس ، وهو حاكم المدينة وزمامها ، وهو ما عُرف في النظام للمدينة الإسلامي بالكورة ، كان يوجد في النظام الروماني ثم القوطي حاكم خاص للمدينة Defensor Civitatis أى حامى المدينة أو حارسها ، فبقيت هذه الوظيفة وعُزيت إلى « صاحب المدينة » ، وصارت في عجمية أهل الأندلس Zahalmedina

(١) يستعمل لفظ يودكس (Judex = قاض) في التشريعات القوطية استعمالاً واسعاً ، فيطلق على القاضي وعلى الموظف بصورة عامة ، وربما أطلق لفظ يودكس على حاكم الناحية بدلاً من Comes ، ومن ثم فإن ما يذكره القانون القوطي Liber Judicium من وجود iudex provinciae أو iudex civitates ليس معناه قاضي المديرية أو قاضي المدينة بل يراد به الحاكم . وكان هؤلاء اليوديسيس iudices نواب في النواحي . وكان يشترط في اليودكس أن يكون من القوط في حين كات النواب Vicarii من أهل البلاد . ويلاحظ أن هذا الاضطراب في استعمال لفظ يودكس لم يقتصر على اللفظ بل شمل الاختصاصات أيضاً ، فأصبح حاكماً أو موظفاً كما رأينا . وقد انتقل هذا إلى قضاة العجم في الأندلس الإسلامي ، فهم يسمون في بعض الأحيان « الوزير القاضي » ولفظ وزير هنا ليس مجرد لفظ تشريف ، بل يدل على أن قاضي العجم كان يتمتع بسلطات تنفيذية إلى جانب وظيفته القضائية . ولا نجد قضاة مسلمين يلقبون بالوزير القاضي إلا في الأزمنة المتأخرة عندما انحط معنى لفظ وزير ، وأصبح مجرد لقب تشريف .

انظر : MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES : ibidem. و PEDRO AGUADO : BLEYE, Manuel de Historia de España, tomo I (Madrid, 1947) p. 368.

أو Zafalmedina أو Zalmedina ، وستدخل هذه الوظيفة في النظم الإسلامية الأندلسية ، وسيتولاها مسلمون فيما بعد ^(١) .

٢١٠- المشرف وكان هناك موظف يوكل بشئون المال في الناحية ، يعرف قبل العرب باسم Praefectus aerarii فعربها العرب إلى « المشرف » وانتقل هذا اللفظ إلى عجمية أهل الأندلس في صور شتى : almosarife و almosarife و almoxarife ، وهذه الصورة الأخيرة بقي اللفظ في اللغة القشتالية.

٢١١- مستخرج الخراج أما قوسم الخزانة Comes thesaurorum فقد حل محله « مستخرج الخراج » أو مستخرج خراج الذمة ، إلى جانب عامل الخراج المعروف في النظم الإسلامية ، وقد تضاءلت أهمية « مستخرج الخراج » مع الزمن .

٢١٢- صاحب الشرطة وكان هناك موظف مكلف بالأمن في المدينة يعرف باسم praetor urbanos فحل محله «صاحب الشرطة » ، وقد انتقل هنا اللفظ إلى عجمية أهل الأندلس في صور مختلفة مثل Sahba Seorta و Sachascorta ، ودخلت الوظيفة في النظام الإسلامي كما هو معروف . ومن الطريف أن العرب أخذوا نظام الشرطة ولفظها في المشرق من البيزنطيين (شرطة = Securitas) ثم حلوا الوظيفة بلفظها إلى الأندلس حيث أخذ اللفظ صورة عربية في العجمية الأندلسية.

٢١٣- الأمين وكان العمال في المدن منظمين منذ العصر الروماني على صورة هيئات تشبه النقابات تعرف كل منها بالكلية collegia ^(٢) ، وكان لكل منها رئيس مسئول عن أهل الحرفة وضرائهم أمام الدولة ، وقد اضطرب نظام هذه النقابات على أيام القوط ، فلما أقبل العرب أعادوا تنظيم هذه النقابات ، وجعلوا على رأس كل منها رئيساً من أهلها يسمى «الأمين» ، وقد انتقل هذا اللفظ إلى عجمية الأندلس ، فكان يقال el alamin .

(١) ذهب سيمونت في كتابه المعروف Historia de los Mozárabes (ص ١٠٨ - ١٠٩) إلى أن تعريب هذه الوظائف كان كما يلي :

judex = القاضي

praetor urbanus = صاحب المدينة

praefectus acrarri = المشرف

وقد خالفناه في ذلك كما يرى في النص

وقد خلط بين المحتسب والأمين والعريف ، وصوبنا ذلك في كلامنا .

١١٤- العريف وكان لهذا التنظيم أثره في استقرار أحوال المدن وأهلها ، وكان معظمهم كما قلنا من أهل الذمة . وقد ظهرت نتائج هذا الاستقرار بصورة خاصة بين الصناع ، إذ تحسنت أحوالهم بصورة لم تكن قبل أيام المسلمين ، وظهر من بينهم أساتذة مهرة في صناعاتهم عُرف الواحد منهم بالعرف والجمع عرفاء ، وقد انتقل لفظ عرف إلى عجمية أهل الأندلس في صورة alharif (وتحرف إلى alhariz) ومنها إلى القشتالية-el al arife واقصرت بعد ذلك على رؤساء البنائين ، ولا زال اللفظ باقياً في الإسبانية إلى اليوم .

وقد تطورت هذه المصطلحات بعد ذلك تطوراً أوقع الكثير من الباحثين في الخطأ ، فخلط بعضهم بين الأمين والمحتسب ، وستحدث عن هذا الأخير في كلامنا على التنظيم الإسلامي العام للأندلس ، وخلطوا بين القاضى والوزير ، لأن الوزير أخذ معانى خاصة في الأندلس ، منها معنى الأستاذية أو التمكن من صناعة ما ، بل أصبح لفظاً من ألفاظ التشريف ، يقال : الوزير القاضى فلان ، أو الوزير المشرف فلان ، أو الوزير الكاتب وما إلى ذلك . ويبدو أن هذا الترخص في استعمال لفظ الوزير ، والقاضى كذلك ، بدأ أولاً بين جماعات أهل الذمة ، فكانوا يخاطبون قاضيهم بقولهم : «الوزير القاضى الأفضل دون ملنده ابن لَبْنَطَار رحه الله » أو «الوزير القاضى دُمَيْنَةُ أَنْتَلِينَ » ، ومن الغريب أن لفظ القاضى في الإسبانية وهو Juez لقى أيضاً مثل ذلك الانحدار ، فقد جاء في قاموس بطرس القلعى (Pedro de Alcala) في تعريف لفظ alarife : Juez albañir (= قاض بناء ، يريد معلم بناء) ، و juez de edificios (= قاضى مبان ، يريد معلم مبان)^(١) .

٢١٥- الزراع وستحدث في الفصل التالى عن تنظيم العرب للسكان عموماً ، ولكن ما دمنا بصدد الكلام عن أهل الذمة ، فلنقل شيئاً عن الزراع ، وكان معظمهم أول الأمر من أهل الذمة . لقد أزال العرب النظام الذى كان سائداً أيام القوط والذى كان يجعل الزراع جميعاً إما رقيق أرض Servi ، أو عمال أرض أحراراً أقرب إلى الرقيق-ingenui in feriores ، أو عبيداً esclavi فأزال العرب ذلك كله ، فلم يبق إلا الأحرار والعبيد أو الأرقاء ، فإذا أسلم الرقيق صار حراً ، له ما للأحرار من حقوق ، أما رقيق المسلمين الأندلسيين فحكمهم حكم الرقيق كله في العالم الإسلامى ، وهو معروف . وقد احتفظ العرب بالتنظيم العام للزراع في قرى أو ضياع aldeas .

٣١١- للمسلمون يحلو لبعض المؤرخين أن يصوروا ما أصاب الكنيسة الإسيانية من الأذى
 وكنيسة على أيدي المسلمين ، ويظيل بعضهم - مثل سيمونيت ولاس كاخيجاس -
 الحديث بالتفصيل عن الكنائس التي تدمت والمتاعب التي لقيها بعض النصارى على أيدي
 المسلمين ، ولا يسع القارىء وهو يتتبع ما يقولونه إلا أن يأسف إذ يجد مؤرخين محدثين
 لا زالوا يجرون في مضمار عصب الدين في حديثهم عن أشياء وقعت قبل قرون متطاولة ،
 خاصة وقد عادت إسبانيا نصرانية ، وأصبح كل ما يتصل بإسبانيا الإسلامية تاريخاً ماضياً ،
 وأصبحت المبالغة في المعصية الدينية أو العنصرية مجرد تشويه للتاريخ .

ومن الغريب أن هذه المعصية تشمل عصور ما قبل الإسلام ، قضى كل ما لدينا من
 التواريخ التي كتبت حديثاً لإسبانيا يحاول المؤرخون أن يشبوا أن إسبانيا كانت على الأقل
 منذ المجمع الدينى الطليطلى الثالث الذى عقد فى سنة ٥٨٩ بلداً كاثوليكياً خالصاً لا شبهة
 فيه للمذهب مسيحى آخر ، ولا صوت يعارض قواعد هذه العقيدة كما قررها ذلك المجمع ،
 بل إننا لنجد مفكراً طائر العصيت مثل مارثيلينو منندى اى بلايو يتصدى لنقد المذهب
 الأريوسى فى حماس البشر الذى يخشى خطر أقوال أريوس المصرى على العقيدة الكاثوليكية
 الراهنة ، هذا وقد ذهب أريوس وذهبت أيامه منذ نيف وثلاثة عشر قرناً (توفى أريوس سنة
 ٣٣٦ م) ولم يكن الرجل إلا مفكراً مسيحياً حاول جهده أن يصل إلى الحق بحسب ما انتهى
 إليه فهمه لنصوص الكتاب المقدس .

والمؤرخون المنصفون ينظرون إليه بإجلال ، لا تقديراً لرأيه ، بل لأنه كان أحد الباحثين
 عن حقيقة العقيدة المسيحية فى عصر كان البابوات والأساقفة وغيرهم من رجال المسيحية
 يحاولون فهمها وتوضيح قواعدها . وإذا ذكرنا أن أريوس ولد سنة ٢٨٠ وأبضع وأخذ
 يتعرف عقيدته المسيحية حوالى سنة ٣٠٠ وأن المسيحيين جميعاً كانوا إذ ذاك يطلبون النجاة
 فى باطن الأرض ، ويقومون كنائسهم فى السرايب والمغاور ، إذا ذكرنا ذلك قدرنا جهده
 كمفكر وكمؤمن مسيحى ، لأن المسيحية لم يُعترف بها ديانة كغيرها من ديانات
 الامبراطورية الرومانية إلا بعد صدور منشور ميلان فى سنة ٣١٢ ، ثم إن الذى دحض آراء
 أريوس وقطعه بالحجة كان مفكراً مصرياً آخر هو أنثاسيوس المعروف باسم الأنبا طناش ،
 فقد تولى بطريركية الإسكندرية بعد الأنبا إسكندر ، ونحن عندما نؤرخ للكنيسة المصرية إنها
 نظرت لأريوس - رغم إنكار الكنيسة المصرية له - على أنه مفكر جدير بالتقدير ، وشخصية

لها قيمتها في تاريخ الفكر المسيحي والإنساني عامة دون أن يملكنا الخوف من أن تعود آراؤه فتشوب عقائد الكنيسة القبطية المصرية .

ولكن منذد بلايو وأجوادو بلاي من مؤرخي إسبانيا المحدثين يميلان عليه حملة عنيفة، ويرددان كلام القديس إيزيدور الإشبيلي في حماس كأننا لا زلنا اليوم في معركة الأريوسية والكاثوليكية^(١) .

٢١٧- المسيحية وهذه الروح نفسها هي التي تسود ما لدينا اليوم عن أحوال الكنيسة أيام في إسبانيا القوطية القوط ، فلم تكن المسيحية الإسبانية أيام القوط كتلة واحدة : كانت هناك نزعات وآراء معارضة ينادى بها جماعات من الناس ، ولم تكن كلها رحمة وسلاماً ، فقد كانت هناك اضطهادات ومحاکمات وكان هناك ضحايا ، ولكن هذا كله يسدل عليه ستار كثيف ، فلا نظفر إلا بإشارات عابرة عنه ، والهدف من ذلك فيما يبدو هو تصوير هذه الكنيسة على أنها كانت رمزاً لوحدة الوطن الإسباني وسلامه ، مما يجسم بطبيعة الحال ما أصاب إسبانيا بدخول الإسلام فيها ودخولها في الإسلام ، ويعظم بالتالي قيمة عودتها إلى المسيحية .

٢١٨- الكنيسة بل إن أجوادو بلاي ، وهو مؤرخ معاصر له مكانة ، يحاول أن ينفي عن والدولة أيام القوط: الكنيسة القوطية خضوعها للدولة ، وهي حقيقة بسيطة يسلم بها المؤرخون المنصفون لا تضير الكنيسة الكاثوليكية في شيء ، وإليك مثلاً من حديثه :

« إن الاتحاد الوثيق بين الكنيسة والدولة ، ابتداء من المجمع الطليطلي الثالث ، لا يسمح بالقول بأن الكنيسة القوطية كانت كنيسة قومية (يريد أنها كانت كاثوليكية أى عالمية) ، ذلك لأن الملك كان لا يوجهها ولا يحكمها ، ولا يجوز كذلك أن نسمى الدولة القوطية حكومة شيوقراطية ، لأن الكنيسة لم تكن تسود الدولة . حقيقة كان الملك يتدخل في الشؤون الكنيسة ، ولكن هذا التدخل يرجع في أصوله إلى أيام الامبراطورية وأيام الأريوسية . كان ملوك القوط يدعون المجامع الدينية للانعقاد ، كما كان يفعل ذلك قبلهم الامبراطوران

(١) MARCELINO MENENDEZ y PELAYO, Historia de los Heterodoxos Españoles, tomo I (١) (Madrid, 1946) pp. 306 sqq.

AGUADO BLEYE, op. cit. I p. 363.

وانظر ص ٣٤٧ حيث يقرر بلاي أنه غير آسف على إحراق كتب الأريوسيين وغيرهم من المخالفين ويسخر من أحرار الفكر الذين يأسفون على ضياعها !

قسطنطين وثيودوسيوس . بل إن ملوك القوط لم يكونوا يدعون إلى عقد المجامع فقط ، بل كانوا يحضرون جلسة الافتتاح للمجمع الطليطلي يحيط بهم نفر من الحاشية الملكية- aula regia ، وكانوا يقرأون الكتاب الملكي tomo regio وهو برنامج الموضوعات التي سيجريها المجمع . وكانت قرارات المجمع توقع بإمضاءات من حضر من رجال الحاشية إلى جانب إمضاءات الأساقفة والقساوسة ورعاة الكنائس .

« ولم يكن لمجامع طليطلة سلطة تشريعية فيما يتصل بالشئون المدنية ، بل في الشئون العقيدية فحسب . ولم يكن للقرارات المتصلة بالعقيدة أثر في الشئون المدنية إلا إذا أقرت ذلك القوانين التي يصدرها الملوك . كانت القرارات في هذه الحالة تعتبر قوانين ، لا بمحض صدورها عن المجامع ، وإنما بإقرار الملوك إيها . كان الأساقفة بصفتهم من كبار أهل الدولة يعتبرون جزءاً من الحاشية الملكية ، وكانوا تبعاً لذلك جزءاً من المحكمة التي تنظر في الجرائم السياسية والمخالفات التي يرتكبها أهل الطبقة العليا . وقد شاعت هذه الصور من تدخل الملوك في شئون الكنيسة بعد ذلك بقليل في كل الدول الأوروبية في العصر الوسيط . إن تأثير الكنيسة في قرارات الملوك لم يكن ناشئاً عن أن القانون يقرر ذلك ، ولم يكن قائماً على أساس من النظام العام ، بل كان سببه الامتياز الفكري الذي تمتع به رجال الدين ، ولم يقتصر هذا الامتياز على إسبانيا ، بل كان شائعاً في كل بلاد غرب أوروبا . »

ثم يقول بعد ذلك : « ... إن مجمع طليطلة ، بعد انعقاده الرابع في سنة ٦٣٣ ، وبسبب اعتبار لعنة الكنيسة مبدأ سياسياً ، أصبح محكمة عليا ، ضماناً للملك ورعاياه ، وكانت هذه المحكمة تفرض على الناس احترام شخص الملك ، وأقامت من نفسها سلطاناً معدلاً لسلطان الملك ، وأوجدت نوعاً خاصاً من الجرائم ضد الوطن يعاقب بعقوبتين : عقوبة مدنية ولعنة الكنيسة . وقد قال متتذبيدال : إن هذه الملكية الكاثوليكية التي كان للأخوين ليندرو وإيزيدرو عليها أثر عظيم لا يمكن أن تكون ثيوقراطية . لم يكن رجل الدين يحكم بل يوجه ، وكان يتفجع الحاكم كما يتفجع المحكوم : إن التداخل والتشابك بين الكنيسة والدولة كانا أقوى في إسبانيا منها في أي بلد آخر معاصر ، لأنها كانا من صنع المجامع » (١) .

وهذا الكلام - الذي اجتهد العالمان الجليلان في صياغته على هذا النحو الذي يبدو

MENENDEZ PIDAL. Historia de España. tomo III (Madrid, 1940) Introducción, p. XLI. (١) AGUADO BLEYE, op. cit. p. 366.

وكانه « تأملات » أكثر مما هو حقائق تاريخية - يحاول الرد على حقيقة تجمع عليها كتب التاريخ غير الإسبانية ، وقد أوجزها جيون في عبارة بسيطة عندما قال إن إسبانيا القوطية كانت : a priest ridden state « دولة يركبها القساوسة » ، وربما كانت خلاصة ما أراد أجوادو بلاى الرد عليه في عبارته الأنفة الذكر .

لقد عرفت الكنيسة كيف تستغل نصرها بتحويل ريكاريدو إلى الكاثوليكية وفرض سلطانها على الدولة ، فاستولت على أرضين وعقارات بلغت خمس الأرض الخصيبة في إسبانيا كلها ، وقامت سيفاً مسلطاً على رعوس الناس ، كما ستصبح المالكية فيما بعد ، فحرقت كتب المذاهب المخالفة ، وفي مقدمتها المذهب الأريوسى ، وعوقب المعارضون بالقتل والنفى والتشريد وانتزاع أبنائهم منهم وما إلى ذلك من العقوبات^(١) .

٢١٩- رأى ولسنا نريد أن نجارى المؤرخ رابنهارت دوزى في مبالغته في تصوير سوء دينهارة دوزى حالة الكنيسة وما جر إليه اتحادها مع الدولة في ذلك العصر ، فقد كان دوزى ملحداً يجب أن حرية الفكر معناها مهاجمة رجال الدين أياً كانوا ، ولقد قسا في « تاريخ إسبانيا الإسلامية » على رجال الدين جميعاً نصارى ومسلمين . ولكننا نكتفى من كلامه بعبارة تغنى عن كلام كثير ، فقد قال بعد أن سخر ما شاء له أسلوبه اللاذع من رجال الدين عندما صاروا إلى القوة والسلطان : « ... ومن الآن فصاعداً ، وبعد أن أصبحوا ملاكاً لأراض فسيحة تعمرها أعداد غفيرة من رقيق الأرض ، وأصحاباً لقصور فاخرة تعج بالعبيد ، تيين القساوسة أنهم أسرفوا في المسير ، وأن زمان تحرير الرقيق لم يحن ، وأنه لن يحن إلا بعد انتظار قرون لا أدرى عددها » . لقد دهش القديس إيزيدور الفرمى^(٢) وهو متأيد في صحارى الصعيد ، من أن مسيحياً يستطيع أن يملك عبداً ، في حين أن قديساً آخر يحمل اسم إيزيدور أيضاً ، هو أسقف إشبيلية المشهور ، الذى كان خلال زمن طويل روح مجامع طليطلة الدينية و« فخر الكنيسة الكاثوليكية » كما قال الآباء الذين اجتمعوا في المجمع الثامن ، لا يردد عندما يتحدث عن الرق آراء سمية وإنما آراء حكماء الأعصر القديمة ، آراء أرسطو وشيشيرون . لقد قال الفيلسوف الإغريقى : « إن الطبيعة خلقت بعض الناس ليحكموا وبعضهم الآخر ليطعوا » ، وقال الفيلسوف الرومانى : « ليس هناك ظلم في أن

MENENDEZ PELAYO, op. cit. I p. 352.

(١)

وهذا الفكر الجليل يبرر ذلك كله ويدافع عنه .

(٢) هو القديس Sanctus Isidorus Pelusi نسبة إلى بلوزيوم وهى الفرما . ولهذا سميته الفرمى .

يقوم بالخدمة أولئك الذين لا يعرفون كيف يحكمون أنفسهم ، « وإيزيدور الإشبيلي يقول نفس الشيء :

acqus Deus ideo discrevit hominibus vitam, alios servos constituens, alius dominos, ut licentia male agendi servorum potestate dominantium restringatur.

(= ... ولهذا السبب أيضاً مَيَّرَ الله مصائر الناس بعضهم على بعض : فصار بعضهم عبيداً ، و صار بعضهم سادة ، وذلك حتى يكون سلطان السادة مانعاً لسريان الشر الذى يصدر عن العبيد) .

ولكنه يناقض نفسه ، لأنه يقرر أن كل الناس سواسية أمام الله وأن خطيئة الإنسان الأول ، وهو يعتبرها أصل العبودية ، قد زالت بالخلاص (بدخول المسيحية) . « وإنما لبعيدون كل البعد عن الرغبة في لوم رجال الدين إذ لم يعتقدوا العبيد ، وعن الرغبة في مجادلة رأى أولئك الذين يؤكدون أن العبد غير قادر على عبء الحرية . نحن لا نجادل، وإنما نكتفى بأن نقرر حقيقة كان لها نتائج هامة ، وهى أن رجال الدين بسبب تناقضهم، لم يحققوا آمال الرقيق . وقد ساء حال أولئك المساكين بدلاً من أن يتحسن ، لقد اتخذهم الجرمان - مثلهم في ذلك مثل غيرهم من الشعوب الجرمانية في ولايات الدولة الرومانية الأخرى - خدماً خاصاً لهم وفرضوا عليهم السخرة . وجدير بنا الإشارة إلى عُرف جدِّ ولم يكن معروفاً أيام الرومان فيما يبدو ، وهو أن تُلْزَم أسرة من الرقيق بأداء خدمة معينة إلى السيد بصورة وراثية ، فتقوم أسرة بعينها بزراعة الأرض للسيد ، ويخلف الآباء الأبناء في ذلك ، وتقوم أسرة أخرى على نفس المنوال بالصيد ، وثالثة بحراسة قطعان الماشية ، ورابعة بأعمال التجارة ، وخامسة بالحدادة وهكذا (١) .

« ولم يكن الرقيق أو العبد ليستطيع الزواج بدون موافقة سيده ، فإذا تزوج دون أن يحصل على هذه الموافقة اعتبر زواجه كأن لم يكن ، وفصل بينه وبين زوجته بالقوة ، وإذا تزوج رجل من طبقة الرقيق امرأة من ملك سيد آخر تقاسم السيدان الأولاد مناصفة . واذن فقد كان قانون القوط في هذه الحالات أقل إنسانية من قوانين الامبراطورية الرومانية ، لأن الامبراطور قسطنطين حرم التفريق بين النساء وأزواجهن وبين الآباء وأبنائهم والإخوة

وإخوتهم^(١) وعلى العموم لا يمكن الشك في أن حالة طبقة الرقيق لم تكن بالغة القسوة تحت سلطان القوط ، [ويتبين ذلك] عندما تأمل القوانين العديدة القاسية التي أصدرها القوط ضد الرقيق والعبيد الآبقين ، وعندما نرى رقيق أشتريس - وكانت أحوالهم فيها قد بقيت على ما كانت عليه في إسبانيا كلها دون تغيير - يقومون بثورة عامة ضد سادتهم^(٢) .

ثم يستطرد دوزي قائلاً : « وإذا كان القساوسة لم يحسنوا بصورة ما أحوال الرقيق ، فإنهم لم يفعلوا شيئاً أيضاً للطبقة الوسطى ، ظل أهل هذه الطبقة (الكوريالس Curiales) على ما كانوا عليه : تابعين للأرض التي يعيشون عليها . وعلاوة على ذلك ، لم يعد من حق أى مواطن أن يبيع ممتلكاته . لقد انتقل الحرص على جباية أموال الدولة من أباطرة الرومان إلى ملوك القوط ، ضمن ما انتقل إليهم من تقاليد الرومان ، بل إنه يبدو أن التلاميذ (وهم القوط) لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم (وهم الرومان) في هذا المضمار . ظلت الطبقة الوسطى إذن في شقائها وسوء أحوالها ، ولا تنكر قرارات مجامع طليطلة ذلك » .

« وبقيت كل الجروح التي كان الناس يننون منها في العصور الرومانية : ظلت الملكية محصورة في أيدي قليلة (في صورة إقطاعيات ضخمة) ، وبقي الرق بصورة عامة ، ونتيجة لذلك ظل العمل في الأرض نصيب الزراع وملك الأراضي نصيب الملاك »^(٣) .

٢٢- الحالة العامة بعد اتحاد الكنيسة والدولة
يوجب معه السلام واتحاد الشعب كما يتصور بعض المؤرخين ، ولم يأت وصول رجال الدين إلى السلطان إلا بالتناجح الطبيعية التي نتجت عن مثل هذه الظاهرة على طول التاريخ : اضطهاد المخالفين والقسوة عليهم والمحاکمات الدينية وإثراء رجال الدين وتحول الدين إلى أداة للحكم ، وتعرض لكل ما يتعرض له أدوات الحكم كلها من نزوع إلى الاستبداد ، وأخطاء في السياسة ، وتعرض رجال الدين للتقذ والمخاصات ونفور الناس . وقد حدث مثل ذلك في الإسلام ، عندما وصل المعتزلة إلى السلطان أيام المأمون ، وعندما قامت دولة المالكية في الأندلس ابتداء من أيام عبد الرحمن الأوسط .

(١) انظر :

MUÑOZ, Del Estado de las personas en los reinos de Asturias y Leon

Forum Iudicum, V, 4, 19 : De non alienandis privatorum et curialem rebus.

(٢)

وهذه التعليقات الثلاثة الأخيرة واردة بنصها على هامش كلام دوزي الذي نتابعه :

Cf : R. DOZY, Histoire des Musulmans d'Espagne (2e éd. dirigée par LÉVPROVENÇAL- Leyde, 1932) vol. I, p. 265 - 266.

DOZY, Ibidem.

(٣)

ومع ذلك ، فإن الاتجاه الغالب على التأريخ الإسباني للعصر القوطي ينكر هذه الحقيقة ، ويتصدى لدحضها بالحجاس والبلاغة والقسوة في الحكم على المخالفين ، لا بحقائق التاريخ. ويبدو هذا الاتجاه في أظهر صورة في كلام كاتب إسبانيا الأكبر في العصور الحديثة منذد بلايو ، وإليك مثلاً من كلامه الذي يُذكرنا بعنف أبي محمد على بن حزم في مجادلاته مع خصومه : « يقولون إن المجامع الدينية اغتصبت اختصاصات ليست من حقها . من الذى يستطيع تأييد هذا السخف ؟ فى أى ناحية كان المعلم وفى أيها كان الجهل ؟ لمن كانت الكنيسة تتنازل عن وظيفة تعليم أبنائها وتوجيههم ؟ أكانت تنزل عنه لأتباع وبتريك (Los Witericos) ووخشندش Los Chindasvintos أو إريفيج Los Ervigios الذين وصلوا إلى الحكم عن طريق قتل الملك السابق أو بواسطة حيلة حقيرة نحرمه من التاج ؟ لقد كانت الإنسانية تستطيع أن تحقق تقدماً واسعاً فى حكم أمثال أولئك الأمراء ! إن وصاية المجامع على الدولة لم تُفرض فرضاً ولم تُنتزع انتزاعاً ، وإنما ساقها القانون الإلهى وسعى إليها ملوك القوط أنفسهم . »

« لم يوافق كل الشعب الأريوسى على الانقراض عن عقيدته ، وذلك لسوء حظه وحظ الملكية القوطية ، فبالإضافة إلى بعض الدخلاء من الأساقفة ، كان هناك عنصر محارب معاد (للكاثوليكية) ولا يمكن التفاهم معه ، عنصر لم ينسجم مع الحضارة الإسبانية الرومانية ، التى لم يستطع إدراك كنهها ، ولم يستمع إلى تعاليم الكنيسة ، بل تصدى لاضطهادها قدر ما استطاع عن طريق مؤامرات أو ثورات ضد الملوك الذين كانوا يؤيدونها . هذه المعارضة العسكرية الكافرة تمثلت أولاً فى صورة وبتريك Witerico وتمثلت ظاهرة إلى حد ما فى اغتصاب وخصندش Chindasvinto للعرش ، وفى الحرب التى شنها هيلديريك وبولس (Hilderico y Paulo) على الملك « وأمبيا » ، وتمثلت قبل كل شىء فى موقف غيطشة وأولاده ، أو أولئك الخونة - أياً كانوا - الذين فتحوا للعرب أبواب الزقاق . وقد وصلوا دون شك إلى إدراك ما طلبوا من الانتقام الوضيع ، وزالوا من الوجود كشعب جزاء وفاقاً لهم على ما كان من شرهم وخبيثهم . إن الشعب الذى نهض لاسترداد أرض الوطن شبراً شبراً كان شعباً إسبانياً رومانياً ، إذ اندمج فيه القوط الطيبون اندماجاً تاماً ، أما عصابة النبلاء الذين باعوا وطنهم فقد أغرق الله ذكرهم فى بحر التاريخ » (١).

وهذا الكلام يفتح لنا باباً في تفسير سرعة انتشار الإسلام في الأندلس ، فهو
 ٣٣١ - الخلافات
 الدينية والفتح
 الإسلامي
 - على ما فيه من مجافة «السياسة العلم» كما يقول أصحابنا الأندلسيون في
 نقدهم لابن حزم - يربط بين تصرف غيطشة وأولاده والنفور الذي ساد
 بعض جماعات من أهل إسبانيا القوطية من استبداد الكنيسة واستعانتها بسلطان الملوك .
 وعلى ضوء هذه الإشارات نفهم أن عداة غيطشة لإينجيكيا كان من بعض نواحيه نفوراً من
 سلطان الكنيسة واتجاهها إلى فرض مذهبها بالقوة . وإذا نحن ذهبنا تعمق الأمر تبين لنا أن
 الأمر في إسبانيا قبيل الإسلام كان يشبه إلى حد بعيد الموقف في مصر قبيل الفتح ، فقد كانت
 منازعات المذاهب في مصر على أشدها ، وكانت مصر ابتداء من القرن الثالث المسيحي في
 صراع متصل مع الدولة البيزنطية ، وكان المصريون - قبل أن تتدخل الدولة البيزنطية في
 نزاع العقائد - يسوون مشاكلهم بأيديهم ، كما حدث في الصراع بين الأريوسية
 والأثناسيوسية ، إذ انتصرت الأخيرة وتلاشى مذهب آريوس ، وتفرق الباقيون من المتأثرين
 به ، ومنهم أوريجانوس ، الذي ذهب إلى أنطاكية حيث تكونت حوله مدرسة كان لها في تاريخ
 المسيحية الشرقية تاريخ طويل ، واتحد المصريون مع أهل الإسكندرية في محاربة كل بدعة
 تناقض المذهب الأرثوذكسي كما تقرر في مجمعي نيقية وافيسوس الأول .

فلما تدخلت الدولة وتصدت لحماية الأرثوذكسية ، وأخذت تفرض على الناس مذاهب
 معينة ، كما حدث في مجمع افيسوس الثاني ، بدأ المصريون وأنصارهم يتخذون موقفاً
 معارضاً للدولة ، بدافع التحدي لسلطانها في صورة معارضة لسلطانها السياسي ، وظهر
 هذا بصورة واضحة في مجمع خلقيدونية الذي تصورت كنيسة القسطنطينية أنها قضت فيه
 على منافستها كنيسة الإسكندرية فخاب ظنها ، لأن النزاع تحول بعد ذلك إلى نزاع قومي ،
 وصعد المصريون وتحولوا شيئاً فشيئاً نحو المونوفيزية وثبتوا عليها رغم اضطهاد قيُرس ، ثم
 انضم قيرس إلى أقباط مصر ، ولم يجد مخرجاً من أذى الدولة إياه إلا بالاتفاق مع العرب ، إذ
 رجا أن يجد في حكمهم خلاصاً من اضطهاد الدولة وتدخلها الدائم في شئون العقيدة .

وقد درجنا في دراستنا لتاريخ مصر على أن ننظر إلى الخلافات المذهبية التي كانت
 متأججة بين مصر والدولة البيزنطية على أنها من آكد الأسباب في تيسير فتح مصر على
 العرب أولاً ، وفي دخول المصريين في الإسلام بعد ذلك . فأما عن أثر هذه الخلافات في
 تيسير الفتح فأمر ظاهر لا يحتاج إلى شرح طويل ، وأما عن تيسيرها دخول المصريين في

الإسلام فنقول فيه إن مناقشات رجال الدين في موضوع طبيعة المسيح واجتهاد كل صاحب مذهب في اجتذاب الناس إلى رأيه وتغيير الناس من مذاهب الآخرين ، ثم تدخل الدولة وحرصها على فرض آراء معينة في ذلك الموضوع ، كل ذلك أوقع الناس في حيرة كبرى من أمر دينهم ، وتضاربت الآراء في أذهانهم ، فلم يعرفوا أيها الصحيح ، ولم يعرفوا كذلك بأيها يأخذون ليضمنوا سلامة عقيدتهم من ناحية وسلامة أبدانهم من أذى الحكام من ناحية أخرى . فإذا هم في ذلك إذ دخل عليهم العرب بالإسلام ببساطته ويسر أصوله ، فبدا لهم وكأنه مخرج من ذلك الحرج كله ، ووجدوه يقرر نبوة عيسى عليه السلام ويلغى مسألة الطبيعتين باستنكاره نبوة المسيح لله وتقريره أنه نبي كغيره من الأنبياء ، وتأكيده ذلك بغية مسألة صلب المسيح مما يتقضى نظرية الخلاص نقضاً مبرماً . وكان القول « بالخلاص » عبئاً ثقيلاً على نفوس الناس ، إذ لم يتصوروا كيف يخلق الواحد منهم مهنماً بآثام خطيئة الإنسان الأول ، وكيف يبنى عليه أن يسمي في خلاص روحه بالإيمان بالصلب أولاً ثم بشراء نصيبه من الخطيئة بالأوان من الحرمان والعذاب من بينها لتلقى الشهادة ثانياً .

ويبنى أن تذكر ذلك كله عند دراستنا لفتح المسلمين للأندلس ودخول أهله في الإسلام ؛ فأما عن أثر الأحوال في إسبانيا في تيسير الفتح فقد فسرناه عندما قلنا إن القوط كانوا طبقة حاكمة متعالية منفصلة عن الناس ، وكان حكمهم ثقيلاً على الناس ، فلما كسر العرب القوط دانت لهم البلاد ، كما دانت لهم مصر بهزيمة البيزنطيين . ولا عبرة بالقول بأن القوط غيروا سياستهم حيال الناس بعد قرارات مجمع طليطلة الثالث في سنة ٥٨٩ وبعد إلغاء الملك رِخِسْفِنْتُو للقانون الذي يحرم زواج القوط بأهل البلاد بعد ذلك بسنوات قليلة ، فإن سلوك الناس لا يتغير بالقوانين بل بفعل الزمن ، وكان ما بين هذه التشريعات الطليطلية ودخول الإسلام زمناً قصيراً لا يسمح بحدوث هذا التغيير الحاسم الذي يتغنى به منتدذ بلايو^(١) .

فقد ظل القوط حكاماً معترزين بالسلطان وإن أشركوا معهم رجال الدين فيه ، ولو أن أيام القوط طالعت لكان من الطبيعي أن يحدث التمازج الذي افترضه منتدذ بلايو ، ولكن العرب دخلوا الأندلس والقوط على ما هم عليه من الانفراد بالسلطان ، فكانت المعركة بينهم وبين القوط لا بينهم وبين الإيبيريين الرومان ، ولهذا كانت قصيرة المدى ، وساعد على

تقصير مداها ما كان من ضعف القوط واختلافهم فيما بين بعضهم وبعض . ويقرر ذلك منذذ بلايو يقول: «لقد كان لحرص نبلاء القوط على الانتقام (بعضهم من بعض) ثمراته الطبيعية ، وربما لم يكن أولئك النبلاء يحسبون أن عملهم هذا سيؤدى إلى هذه النتائج البعيدة ، فقد توجت الغارة العربية التى قام بها طارق وموسى بنصر سريع عجيب ، وذلك بفضل العناصر المعادية التى كانت تغلّى في إسبانيا ، وفُتحت المدن والحصون عنوة أو صلحاً ، واستسلمت في أوريولة المقاومة الضعيفة التى حاولها تدمير، وهو القوطى الوحيد الذى حاول أن يرفع رأسه وسط الدمار العام ، وقامت الحاميات العربية واليهودية في إشبيلية وقرطبة وطليلة وباجة...»^(١) .

وإذن فقد كان للخلافات الدينية أثر بعيد في تيسير الفتح الإسلامى
 الخلافات الدينية
 للمسيحية
 رأى في
 للأندلس ، كما كان لها نفس الأثر في فتح مصر . والمؤرخون الإسبان
 يستنكرون هذه الخلافات ويحملون حملة بالغة على ما خالف العقيدة
 الكاثوليكية منها ، ويصفون أصحابها بالخيانة والإجرام والمروق وما إلى ذلك ، ولكنهم لو
 أمعنوا النظر لبدأ لهم الأمر أهون من ذلك بكثير . فإن المسيحية نفسها كانت إلى ذلك الحين
 موضع مناقشات ، وكانت أصولها غير واضحة أو محدودة ، وكانت المجامع الدينية في
 الشرق والغرب تجتهد في تحديد أركان العقيدة ، وكل مجمع ينشر على الناس رأياً يقرر أنه
 الصحيح ويحاول أن يحمل الناس على الأخذ به ، وكان الخلاف بين ما تصدره هذه المجامع
 يبدو في بعض الأحيان وكأن كلاً منها ينادى بدين مختلف عما ينادى به الآخر .

كانت الكنيسة الشرقية تعتبر مذهبها هو المذهب القويم (أورثوذكس) ، والكنيسة
 الغربية تعتبر مذهبها عالمياً (كاثوليكي) ، وكانت كل منهما تكفر الأخرى ، بل كان في
 داخل كل منهما أكثر من مذهب ، ففي الشرق كانت عشرات المذاهب أظهرها النسطورية
 والمونوفيزية والخلقيدونية ، وفي الغرب كانت الحرب المذهبية بين الأسقفيات بعضها
 وبعض ، وبينها وبين البابوية ، وقد كانت هذه الأخيرة لا تعنى عقيدة فقط وإنما عقيدة
 ودولة ، فقد كان بابوات روما يرون إذ ذلك أنهم ورثة الرسول بطرس من ناحية وورثة
 أباطرة الرومان من ناحية أخرى ، ولم يكن ذلك خافياً على أحد ، فكان الملوك يؤيدون
 بابوات روما أو يناهضونهم تبعاً لمصالح عروشهم ، فقد أيدهم الفرنجة وحاربهم

اللومبارد ، وكانت علاقاتهم بكنيسة طليطلة علاقة ولاء يشوبه الحذر ، وبين الحين والحين ، كانت الخلافات تقع بين البابوات ومطارنة طليطلة ، فقد كتب يولييانوس مطران طليطلة إلى البابا في سنة ٦٥٣ يصفه « بجهل مخجل » وكانت الخلافات على أشدها في مسائل العقيدة داخل الكنيسة الإسبانية : حول مسألة الرؤيا Apocalipsis أو مركز كنيسة روما (كنيسة الرسول بطرس) أو قداسة التعميد de sacramento bapntismatis وما إلى ذلك ، وكانت المناقشات بين الأساقفة حول هذه الموضوعات تطول وتشتد ، وتنتهى عادة بقرار من مجمع طليطلة يُفرض على الناس فرضاً .

فإذا كان هذا حال البابوات والمطارنة والأساقفة من الخيرة في مسائل العقيدة فما بالنا بغير رجال الدين من عامة الناس ، وكانت غالبيتهم العظمى لا تقرأ ولا تكتب ولا تفهم من اللاتينية حرفاً ؟ كيف نتظر أن تكون أمور العقيدة مقررة في أذهانهم بهذه الصورة التي يفترضها مؤرخو إسبانيا ؟ إنها الطبيعي أن تكون أذهانهم مبليلة كما كانت حال غيرهم من علماة المسيحيين في ذلك العصر ، وليس أدل على ذلك من انتشار السحر والكهانة والشعبذة في إسبانيا وغالة ، وهى ظواهر لا تعم إلا في أزمنة الاضطراب السياسى وانتشار المخاوف وضعف الإيمان وهبوط مستوى العقائد . ولم يقبل عليها عامة الناس فقط بل الملوك والنبلاء وبعض رجال الدين ، وابتداء من المجمع الطليطلى الثالث لا تخلو قرارات مجمع منها من بضع مواد تحرم السحر والكهانة والتوسل بالأشجار والأحجار وما إليها لكفّ أذى الأرواح الشريرة ، بل إن المجمع الخامس اعتبر من يمارس السحر أو يلجأ إلى الكهان ملعوناً من الكنيسة محروماً من رحمة الله ، وإننا لنلمح في بعض قرارات المجمع ضد السحر أن بعض الناس كانوا يلجأون إليه ليتخلصوا من الحكام ، وأن بعضهم الآخر كان يقدم القرابين للشياطين ، بل انحدر الناس إلى الوثنية الصريحة حتى اضطر المجمع الطليطلى الثانى عشر عام ٦٨١ إلى حفز همم القساوسة على القضاء على عبادة الأصنام ، ولم ينحسم الأمر مع ذلك فنجد المجمع السادس عشر يجرم من رحمة الله عبدة الأوثان والأحجار وعيون الماء والأشجار والعرافين والسحرة ، وقرر المجمع الحادى والعشرون طرد القساوسة الذين يصنعون الأحجبة والرقي (١) .

لم تكن النصرانية في إسبانيا القوطية إذن بالشمول الذى نتصوره ، ولم تكن العقيدة

المسيحية واضحة ومحددة المعالم لعامة الناس ، وإنما كانت القلوب في حيرة والعقول تتلمس طريقها لتضمهم ما يلقي إليها ، وكانت الخلافات المذهبية كثيرة متضاربة ، وقد قامت مجامع طليطلة بجهد عظيم في سبيل تحديد أصول العقيدة ، وقامت تفرض رأيها بالقوة والعنف ، فكان لذلك أثره الطيبي : نفر الكثيرون منها وأخذوا يعارضونها ، ولما كان الملوك يؤيدون الكنيسة ويأتمرون بأمرها ، فقد أصبحت المعارضة الدينية معارضة سياسية أيضاً . ولا شك أن الخلاف بين بيتي غيطة واخيكا كان له وجهه الديني ، والأسقف لذريق الطليطلي يؤيد ذلك فيقول : « إن غيطة لم يكن طاغية بغياً فحسب ، بل كان ملكاً منشقاً على الكنيسة وثائراً ، يؤيد اليهود ويمحابيهم ، ويجمع مجلساً في طليطلة ، ويصدر قرارات منكرة ، ويرد على تحذيرات البابا بفصل مملكته عن البابوية ، ويصدر قراراً يحرم به على رعاياه الاعتراف بسلطان البابا ويشتر غضب الكنيسة بتعيين قريبه أوبه Oppas مطراناً لطليطلة فقد حشره في هذه الوظيفة حشراً روع الناس ، وكان يحتل كرسى المطرانية قبل ذلك سيندرد (الذي عاه إليه عندما اعتلى لذريق العرش) وقتل فافله Fávila دوق كنتبريه وسمل عيني ثيودوفريدو Theodofredo وهدم أسوار المدن وأحرق السلاح ، لا حياً في السلام ، كما زعم بعض المولعين بالمتناقضات ، ولكن ليحول دون قيام الثورات على سلطانه المستبد»^(١).

ولقد أعفى أصحاب هذه المذاهب والأراء من اضطهاد الكنيسة والدولة
عندما صار الأمر للمسلمين، فقد دخلت الغالبية العظمى من أهل البلاد في
الإسلام ، إذ وجدت فيه حلاً سعيداً مريحاً للمشكلة العقيدية . وتلك
ظاهرة واسعة المدى لا ينبغي أن تغيب عن نظر أحد ممن يدرسون تاريخ
انتشار الإسلام : كانت المشكلة الدينية همأ ناصباً لكثيرين جداً من المسيحيين في تلك
الأمصر . فأما العوام والبسطاء فقد أراحوا أنفسهم من العناء ولم يتبعوا أنفسهم في مسائل
الطبيعة والطبيعتين وما يترتب عليهما ، ونجوا بأجسامهم كذلك من سلطان الحاكمين الذين
كانوا يخرجون كل يوم برأى جديد في هذه المشاكل، وأخذوا يرددون ما يقال لهم أو صاغوا
العقيدة الجديدة في قالب الوثنية القديمة . وأما الأقلية المفكرة فكان بلاؤها عظيماً ، إذ كانت
تصر على أن تفهم دينها في حين أصر رجال الدين على أن يفهموه نيابة عنهم وما عليهم إلا
التصديق والترديد... وهذا الكلام ينطبق على كل بلاد المسيحية في ذلك العصر .

ثم جاء الإسلام يقدم لهم حلاً يطمئن إليه معظم الناس وينجو به معظم القلقين ، بل جاء يعرض حماية لمن أراد أن يقول قولاً لا ترضى عنه الكنيسة ، فأمنت البقية الباقية من النساطرة في العراق وبعض نواحي الشام ، وأمن المونوفيزيون في مصر والشام ، وأمن أصحاب الأقوال المختلفة في إسبانيا . وفي ظلال الخلفاء قال يوحنا الدمشقي ما شاء له القول ، وتفلسف اسبيريندوس في الأندلس ما شاءت له الفلسفة ، دون أن يخشى أحد منهم أن يحدث له ما حدث لجريجوريوس حاكم قرطاجنة إفريقية البيزنطي سنة ٦٤١ ميلادية ، فقد كان رجلاً متديناً وأرثوذكسياً مخلصاً ، وكان يعارض كل رأى يناقض المذهب الأرثوذكسي كما أقرته الدولة أيام قسطنطين الثالث ، ثم قتل قسطنطين هذا فجأة في مايو سنة ٦٤١ وتولى العرش هرقلوناس وقامت بالوصاية عليه أمه مارتينه ، فأصدرت أمرها بالارتداد إلى مذهب هرقل ، وكان مونوثلياً ، ووصل الخبر إلى جريجوريوس فأنكره ، حاسباً أنه إشاعة ، وقام في الناس يؤكد لهم أن الأوامر بمطاردة الأرثوذكسية إن هي إلا وسيلة يراد بها النيل من الامبراطورية المؤمنة الطاهرة الذليل ، وأراد أن يؤكد للناس مقالته ، فحضهم على الاجتهاد في تتبع المونوثيليين واضطهادهم ، غير عالم أن اليوم يومهم ، فلم تكذ الأخبار بأفاعيله تصل القسطنطينية ، حتى دعى إلى هناك ليحاسب أعرس الحساب على ما اقترف من جرم ، فرحل الرجل إلى القسطنطينية ، وهو - من حيرته - لا يكاد يعرف لنفسه مصيراً^(١) .

وربما بدا غريباً أن يقال إن دخول المسلمين هذه البلاد كلها قد وضع حداً للاضطهادات الدينية فيها ، ولكن هذا هو الواقع . فإن المسلمين تركوا المسيحيين الذين أرادوا أن يظلوا على دينهم أحراراً يفعلون ما يشاءون ، ولم تجذب البابوية ولا رجال الدين وسيلة لأذى المخالفين ، فقعت بالشئ الوحيد المعقول: المجادلة والأخذ والرد ، فبينما كانت اللعنة الأبدية والقتل والسجن والتشريد نصيب من يخالف الرأي الرسمي للبابوية والمجامع أيام القوط ، نجد البابا ورجاله يكتفون بخطابات يدحضون بها آراء البياندوس **Elipandus** مطران طليطلة الذي قال بعد الفتح العربي بقليل إن المسيح ، من الناحية البشرية ، كان ابناً لله بالتبني فحسب :

" (Christus) Unigenitus autem vocatur secundum divinitatis excellen-

(١) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب (القاهرة ١٩٤٧) ص ٤٥ .

tiam, quia sine fratribus. Primogenitus secundum susceptionem hominis, in qua per adoptionem gratiae fratres habere dignatus est, de quibus esset primogenitus ".

وهي مقالة لو نطق بها أحد في أيام القوط لكان جزاؤه القتل، ولكن البابا هديران الأول ورجاله لم يستطيعوا إلا حرض المخلصين لهم من رجال الدين على مطاردة هذا الرأي الذي انتشر حتى آمن به نفر من نصارى أشتريس وكتتيرية ممن كانوا خارجين عن طاعة المسلمين، وكتب ايتريوس Heterius كتاباً في الرد عليه :

Liber Etherii adversus Elipandum, sive de adoptione Christi filii dei.

وقد استمرت هذه الآراء تظهر وتختفي خلال العصور الإسلامية، ولم يكن لأحدها من الصدى أكثر مما يكون لرأي يطرح للناس، فيؤيده من يريد وينصرف عنه من يريد، ولا يبقى آخر الأمر إلا الرأي الذي يقبله العقل ويطمئن إليه القلب، ولو كانت هناك المجمع وسلطان الدولة لأصبح لكل رأى منها فرقة كما كان الأمر أيام الدولة البيزنطية، إذ أنه لا يحى الآراء ويقوى المذاهب شيء كالاضطهاد. وقد وقتت الدولة الإسلامية في الأندلس موقف الحيايد الكامل، ولم تفعل فعل الدولة العباسية مثلاً عندما ناصرَت النساطرة على من سواهم. وقد بلغ من عدم حقل الدولة الإسلامية في الأندلس لهذه المذاهب، ولآراء نصارى الأندلس جملة، أن ضاق ذرع المظْهَرِين من رجال الدين بهذه الذولة التي تغرى المسيحيين بتسامحها على دخول الإسلام، ولا يقرأ أحد من أهلها شيئاً مما كان رجال الدين هؤلاء يكتبونه في نقد الإسلام ويملاؤونه بالطعن الجراح !

لقد شكَا الراهب ألبُرُّ القرطبي من أن أحداً من إخوانه النصارى لا يقرأ اللاتينية أو يلقى بالألى الكتب المقدسة المكتوبة بها، لأن الناس في الأندلس كانوا في شغل عن ذلك بالعربية ودراستها ومحاولة التمكن منها، فلما لم يستمع أحد لشكاته أخذ يجرى المسيحيين على التحرش بالإسلام والقرآن والرسول ﷺ، فجعل نفر من النصارى يفعلون ذلك ويعرضون أنفسهم للأذى، فكانت محنة نصارى قرطبة أولاً ثم طليطلة ثانياً، وهي الفتنة الوحيدة من نوعها في التاريخ، لأن الغالب أن تضطهد الأكثرية الأقلية، أما هنا فقد شاء طموح رجال الدين إلا أن تُضطهد الأغلبية الحاكمة بالطعن في مقدساتها، ولم يدفع هذا

النفر من رجال الدين المسيحيين إلى تحريض الناس عليها إلا هذا التسامح الذي جرى عليه أمراء بنى أمية في الأندلس . وهو تسامح بلغ حد الإهمال ، حتى شعر رجال الدين أن أمرهم قد ضاع فلا هم يجدون سبيلاً إلى الحكم ، ولا هم يملكون الوسيلة إلى السيطرة على عقول الجماهير بإظهار براعتهم في مسائل الدين ، فلم يجدوا طريقاً للخروج من ذلك الخمول إلا بركوب هذا المركب الوعر .

٢٢٤- آثار الإسلام في نصراية الأندلس خلال العصور الإسلامية من الآراء المخالفة لرأى كنيسة روما الأندلس
إنها كان أثراً من آثار الإسلام في نصارى الأندلس، وليس ذلك من الضروري، لأن المسيحية نفسها ضمت كل لون من المذاهب والآراء قبل ظهور الإسلام ، مثال ذلك أن مذهب اليبانديوس - الذى أشرنا إليه - أقرب ما يكون إلى قول النسطورية ، وقد عرفت إسبانيا النسطورية قبل مجيء الإسلام^(١) ، ومثال ذلك أيضاً أن القس اسبيرائندوس Espiraindus وكان من شيوخ الكنيسة الإسبانية في أوائل القرن التاسع الميلادى (أى في أيام الأمير الحكيم بن هشام المعروف بالربضى) ، كتب رسالة صغيرة ضد بعض المذاهب المنحرفة التى ظهرت في هذه الفترة التعيسة ، يقول أصحابها بإنكار سلطان أنبياء الكنيسة وعلمائها ، وجرءوا على أن يضعوا ألوهية المسيح موضع الشك ، وعلى إنكار عقيدة الثالوث ، إذ أضلتهم الآراء الإسلامية كما يقول سيمونيت في أسلوبه المقذع الجاف ، وعنوان رسالة اسبيرائندوس :

Speraindeo Abbas contra haereticos quosdam negantes trinitatem personarum in unitate substantiae atque divinitatem in Christo (٢).

ولا نستطيع القطع بأن هذه المذاهب كانت أثراً من آثار الإسلام ، لأن هذه الآراء نفسها ظهرت في المسيحية في المشرق والمغرب قبل ظهور الإسلام ، ولا يستبعد أن يكون وجود الإسلام في الأندلس قد أعطى أصحابها حججاً وآراء وقوى مركزهم .

* * *

(١) انظر عن النسطورية في إسبانيا :

MENÉNDEZ PELAYO, op. cit. I p. 313 sqq.
SIMONET, Mozárabes, p. 341 - 342.

(٢)

وإذن فلم تكن المسيحية في إسبانيا قبل دخول الإسلام ثابتة الأركان ولا موحدة الكلمة ولا متمكنة في قلوب الناس جميعاً على النحو الذى يصوره المؤرخون عادة ، بل لم يكن كل النصرارى بآمنين على أنفسهم ولا راضين عن الوضع الذى كانت عليه . ومن هنا فإنه يبدو لنا أن ما يسرف فيه بعض المؤرخين من الكلام عما أصاب المسيحية على أيدي المسلمين مبالغ فيه إن لم يكن مناقضاً للحقيقة والواقع . حقيقة أن المسلمين اعتبروا أملاك الكنائس التى تركها أساقفتها وقساوستها وفُزوا ملكاً للدولة ، وقصروا نفوذ رجال الدين على الدين ، وذلك لا يعنى أذى المسيحية والمسيحيين، فقد كانت الكنيسة كما رأينا تملك نحو خمس الأرض العامرة ، وكان رجال الدين يتولون الحكم باسم الملوك ، ويتعرضون لكل ما يتعرض له أصحاب الحكم من أخطاء وعداوات ، وليس ذلك من صالح الدين فى شىء . بل من الغريب أن أولئك الذين يتهمون العرب بأنهم خربوا عشرين أو ثلاثين كنيسة يفعلون ذلك باسم حرية الفكر وحرية العقيدة ، ونحن جديرون بأن نسألهم : كم مسجداً بقى في إسبانيا بعد أن أصبحت السيادة فيها للنصرانية ؟

كان في إسبانيا على أيام القوط ست كنائس جامعة على رأس كل منها مطران ، وكانت هذه الكنائس الست تقوم في قواعد الأقسام الإدارية الكبرى كما كانت على أيام الرومان ، وهى : طركونة وماردة وإشبيلية وافراغة وقرطاجنة وطليلة ، ويبدو أن مجمع طليطلة الثانى عشر قد اعتبر مطرانية طليطلة رأس المطرانيات جميعاً .

ثم تلى ذلك الأسقفيات وعددها إحدى وعشرون في إسبانيا القرطاجنية ، ومن المفيد أن نذكرها هنا ، لأن معظمها سيكون قواعد كور في التنظيم الإدارى الإسلامى ، وسنذكرها بأسماها اللاتينية وتنبع كل اسم بمقابله العربى إن وجد ثم القشتالى الذى أُخذ عن الصيغة العربية في بعض الحالات ، وبقي إلى اليوم :

Guadix Acci وادى آش

Arcábica Arcávida أركيكة

(عاصمة إقليم كونكة البونانى)

Baeza Biatia أو Beacio بياسة

Baza	بسطة Boasti
Bigastro	(في مرسية) Bigastra
Cartagena	قرطاجنة Cartago
Cazlona	قَسْطُلُونَة Castulo
Alcalá de Henares	مدينة المائدة Compluto
Denia	دانية Diania
Elche	إلش Illici
La Guardia, Jaen	مَنْتَيْشَة Mentesa
Granatula, Ciudad Real	أوريط Oreto
Osma	أشونة Oxuma
Palencia	- Palentia
Játiva	شاطبة Setabis
Segovia	شقبوية Segobia
Segorbe	- Segòbriga
Sogüenza	- Segontia
Valencia	بلنسية Valentia
en Cuenca	(في قونقة) Veleria
Villaricos	على مقربة من Urci
	وفي ولاية بيطي عشر أسقفيات هي :
Sevilla	إشبيلية Hispalis
Medina Sidonia	شذونة Asidonia
Ecija	استجة أو إسجة Astigi
Córdoba	قرطبة Córdoba

Cabra	قبرة Egabro
Niebla	لبلة Elepla
Elvira	إلبيرة أو Eliberis إلبيري
Italica	طالقة Italica
Malaga	مالقة Malaca
Martos	- Tucci
وفي لشدانية (Lusitania) - وهي البرتغال الحالية - ثلاث عشرة أسقفية هي :	
Mérida وهي القاعدة	Emerita ماردة
Avila	أبله Abela
Visco	بيزو Beseo
	(Cuidad Rodrigo من عمل مقربة من Caliabria)
Coria	قورية Cauria
Coimbra	قلمرية Conimbria
Evora	يابرة Ebbora
Idania la Vieja	- Egitania
Lamego	- Lameco
Lisboa	الأشبونة Olisipone
Oxonoba (Faro)	أكشونة Ossonoba
Beja	باجه Pax Julia
Salamanca	سالمنفة Salamantica
	وفي جليقية تسع أسقفيات هي :
Braga	- Braga

Astorga	استرقه Asturica
Orense	- Auriense
Santa María de Breto (cerca de Mondeñeds)	- Britonia
Padron (Coruña)	Braga قرب Dumio
Lugo	- Iria
Meinedo o Oporto	لُكُ Lucus
Túy	Magneto أو Portucale برتقال
	Tude توده

وفي إسبانيا الطرق كونيّة (الشرق) ١٥ أسقفية هي :

القاعدة Tarragona	Tarracona طركونة
Oca	Auca أوقه
Osona (ق مقاطعة)	Ausona أشونة
(Vich فيش)	
Barcelona	- Barcimona
Zaragoza	Caesaraugusta سرقسطه
Calahorra	Calagurris قلهره
Tortosa	Dertosa طرطوشه
Tarrasa	- Egara
Ampurias	Empurias امبرياش
Gerona	Gerunda جرنده
Lerida	Ilerda لارده
Huesca	Osca وشقه
Pamplona	Pampitona بنبلونه

Tarazona	Tirassona طرسونة
Urgel	- Urgello
وفي المقاطعة التريونية ثمان أسقفيات هي :	
Narbonne وهي القاصدة	Narbona أربونة
Agde	Agatha أجدة
Beziers	- Beterres
Carcassonne	Carcassona قرقشونة
Elna - Perpignan	- Elena
Ludève	- Luteba
Magallon Montpellier	Magalona مجلونة
Nime	Neumaso نيمه

فمجموع المطرانيات والأسقفيات على هذا كان ٧٧ ، منها ٨ خارج شبه الجزيرة و٦٩ في شبه الجزيرة^(١) . ومن هذا العدد الكبير يذهب أصحاب المدونات النصرانية ، ويتابعهم المؤرخون المحدثون ، إلى أن العرب خربوا عدداً يبلغ الأربعين ، وهذا القول مبالغه نعرفها من أولئك الرهبان ، لأن المعروف أن المسلمين لم يخربوا في الشام أو مصر كنيسة واحدة ، فلا يعقل والحالة هذه أن يخربوا في إسبانيا نحو نصف الكنائس والواقع يدحض هذا الزعم ، وأبسط الدلائل على ذلك أن المسلمين لم يخربوا كنيسة قرطبة ، مع أنهم استولوا على البلد عنوة ، بل اكتفوا بمشاركة المسيحيين إيها ، وعندما انتشر الإسلام في البلد ، وضاق نصف الكنيسة بالمصلين اشترى عبد الرحمن الداخل النصف الآخر من النصارى ، وأذن لهم في بناء كنيسة أخرى بدل القديمة التي أصبحت كلها مسجد قرطبة الجامع .

بيد أننا لا نستبعد أن يكون بعض الأذى قد أصاب الكنائس الواقعة في الأقاليم التي ظلت خلال الفترة التي نتحدث عنها دار حرب ، وهي كنائس أقاليم جليقية والولاية

التربوية والجزء الشالى من إسبانيا الطركونية وولاية لشدانية . فقد ظلت هذه النواحي ميدان صراع ينال التخريب كل ما فيها : كنائس وغير كنائس ، وهى لم تتخرب لأن المسلمين أرادوا تخريبها ، بل لأن هذا فعل الحرب فى كل زمان ومكان .

وربما كان الذى أوقع أولئك الرهبان من أصحاب المدونات النصرانية فى الخطأ هو أن الكثيرين من الأساقفة تركوا أسقفياتهم وهربوا أمام الجيوش الإسلامية ، ظناً منهم أن المسلمين سيفتكون بهم ، ولجأوا إلى بلاد الشمال القصى ، فظن الرهبان أن هروب الأسقف والقساوسة معناه تخريب كنيستهم . وقد عاد الكثيرون منهم إلى كنائسهم بعد أن رأوا أن المسلمين لا يعتدون على الكنائس أو رجال الدين ، ويؤيد ذلك القول سيمونيت كبير الحاملين على الإسلام والمسلمين بين المؤرخين الإسبان المحدثين^(١) .

وعلى أى الأحوال ، فإن المراجع النصرانية نفسها تذكر أن الأسقفيات والكنائس الآتية بقيت وعاش أهلها فى سلام مع المسلمين :

مطرانبات طليطلة وماردة وإشبيلية ،

وأسقفيات وادى آش - اَرْكِيْقَة (فى ولاية قونقه) - شذونة - استجه - برشلونة - بَسْطَه - بياسة - بيجاسترُ (نقلت فيما بعد إلى قرطاجنة) - قَلْهَرة - قورية - سرقسطة - مدينة المائدة (Compluto - Alcalá de Henares) - قلمرية - قرطبة - قبرة - لبله - البيرة (غرناطة) - جَرْنُدة - الش - مالقة - ارجلُو (Urgel) - اوسمه - سِجِيَّة (Exea) (Segia - سِجُونثيا (Siguenza) - توكى (Martos) - أُرشى (Úrci ، على مقربة من المرية) - طالِقَة - بلنسية .

المجموع إحدى وثلاثون مطرانية وأسقفية .

فإذا ذكرنا أن عدد هذه الكراسى الكنسية داخل شبه الجزيرة كان أيام القوط تسعة وستين ، منها تسعة فى جليقية فى ناحية لم تخضع للمسلمين ، ومثلها سبعة لم تخضع لهم من كراسى الولاية الطركونية الخمسة عشر ، وخمسة من كراسى ولاية لشدانية فى نواح لم تدخل فى طاعة المسلمين ، ومثلها أربعة من كراسى ولاية إسبانيا القرطاجنية - إذا استبعدنا هذه الكراسى التى كانت واقعة فى نواح خارجة عن دار الإسلام وعددها خمسة وعشرون

كرسياً ، كان الباقي الذى دخل في ديار المسلمين من قواعد الكراسى الكنسية أربعاً وأربعين. وقد ذكرنا أن المراجع النصرانية نفسها تؤكد وجود واحد وثلاثين ، أى أن الذى اختفى من الكراسى الكنسية أحد عشر .

نقول « اختفى » ولا نقول أزيل أو محى ، لأن هناك ظاهرة هامة لا ينبغي أن نهمل أمرها في ذلك الحساب ، وهى أن قيام دولة الإسلام في الأندلس اقتضى تغييرات إدارية استدعاها وضع الدولة الجديدة : أعيد تنظيم بعض الأقسام الإدارية القوطية عند تحويلها إلى كور ، فأخرجت من بعضها بلاد ضمت إلى أقسام أخرى ، ونقلت قواعد بعض أقسام إلى مدن أخرى أكثر مناسبة للمطالب الإدارية الإسلامية وهكذا ، فكانت النتيجة أن حمل بعض المدن فلم يعد يستحق أن يقوم فيه كرسى كنسى . ولم يقتصر هذا الأمر على الأندلس الإسلامى بل حدث مثله في إمارة أشتريس التى أصبحت مملكة ليون فيما بعد ، فقد ضم مثلاً كرسى افرافه (Braga - Bracara) إلى كرسى لوك (Lugo - Lucus) ونتيجة لذلك قل عدد الكراسى الكنسية في الأندلس الإسلامى . وعندما كانت تعمر ناحية وتمتد قاعدتها - أى تصبح مدينة - كان المسلمون لا يمانعون في إنشاء كرسى كنسى فيها ، ومثال ذلك ما حدث لبطليوس عندما عمرت وكبرت وأصبحت قاعدة كورة : أنشأ المسيحيون فيها كرسياً كنسياً رغم قربها من قورية وماردة . وكان في كل منها كرسى ، بل كانت الأخيرة مطرانية^(١) .

وربما كان أهم تغيير في النظام العام للنصرانية في الأندلس هو انتقال مركز الثقل من طليطلة إلى قرطبة . لم ينقل المسلمون كرسى المطرانية الكبرى من طليطلة إلى قرطبة ، بل تركوه كما كان مراعاة لمشاعر النصارى ، ثم حرصوا على أن يكون المطران قريباً منهم في العاصمة ، بل عقدت مجامع طليطلة في قرطبة^(٢) ، وذلك إجراء بسيط لم يؤثر في أحوال النصارى ولم يمس نظام الكنيسة ، بل استدعاه الصالح العام ، وربما يكون رجال الدين أنفسهم هم الذين حرصوا على أن يكونوا على مقربة من الأمراء والخلفاء ، ولكن مؤرخى إسبانيا النصرانية يتفدون ذلك ويعتبرونه عدواناً على كنيستهم وتعصباً على النصرانية ، وهذا أغرب ما يمكن سماعه من قوم لم يبقوا في الأندلس

SIMONET, op. cit. p. 122 - 123.

(١)

SIMONET, op. cit. p. 123 - 124.

(٢)

كله - عندما صار الأمر إليهم - على مسجد واحد أو مسلم واحد ! ومهما يتأمل الإنسان في منطق أولئك المؤرخين لا يسعه إلا أن يأسف أن يكون هذا مبلغ نفر من أهل الديانة والفكر والعلم في عصرنا هذا من الإحساس الإنساني .

٢٢٧ - الكنيسة الأندلسية في النطاق الشرقي
حل أمراء قرطبة محل ملوك القوط ، فانقل إليهم بذلك الإشراف الأعلى على شئون الكنيسة في بلادهم ، وجعلوا قرطبة المركز الفعلي للنصرانية الأندلسية ، واحتفظوا لأنفسهم بالحق في تعيين المطران - أو إقرار انتخابه بقول أصح - وفي الموافقة على الدعوة لعقد المجامع الدينية . وكان هذا في ذاته تغييراً حاسماً في تاريخ الكنيسة الإسبانية ، لأن مطرانية طليطلة كانت معتبرة قبل الفتح تابعة لكنيسة روما روحياً وأديباً ومالياً أيضاً من بعض الوجوه ، فقطع العرب هذه العلاقة وجعلوا للنصرانية الإسبانية كياناً مستقلاً ، فلم يعد النصارى المقيمون في النواحي الخاضعة للمسلمين يرسلون شيئاً من أموالهم إلى روما ، وانقطع مجيء القساوسة والرهبان ورسل البابوية من غالة وإيطاليا بصفة رسمية ، أي أن هؤلاء النصارى انفصلوا تماماً عن إخوانهم النصارى في إيطاليا وغالة وبقية أوروبا ، وتغير اتجاه أولئك النصارى من الغرب إلى الشرق ، واندرجت النصرانية الأندلسية في عداد النصرانية الشرقية وإن كانت كاثوليكية ، وأخذت تتأثر تبعاً لذلك بمؤثرات نصرانية - وإسلامية - آتية من الشرق . ومن هنا فقد أخذت طقوس هذه الكنيسة الأندلسية تختلف عن الطقوس التي سادت الكنيسة الكاثوليكية عامة . وقد أتى هذا الاختلاف نتيجة لدخول الكنيسة الأندلسية في النطاق الشرقي ، ونتيجة لثبات هذه الطقوس على ما كانت عليه أيام دخول المسلمين ، في حين ظلت بقية الكنائس الكاثوليكية التي كانت على اتصال دائم مباشر مع البابوية خاضعة لكل ما تقرره البابوية من تعديلات وتحديثات تصدرها أوامر من المجمع الكنسي العام أو مجمع الكرادلة في روما .

٢٢٨ - الطقوس القوطية الكنسية
ويذهب مؤرخو الكنيسة الإسبانية إلى أن أول من أدخل هذه الطقوس إلى إسبانيا كان القديس الرسول سان توركوواتوس Sanctus Torcuatus مؤسس كنيسة وادي آش ، ثم حدد أصولها وشعائرها القديسان لياندروس وأخوه إيزيدور ، ولهذا يسميها الأسقف رودريجو خيمينيث شعائر إيزيدور ولياندروس Officium Isidori et Leandri ، ويسميها بعضهم الإيزيدورية فحسب Isidoriano . ثم شاعت وجرى بها العمل أيام القوط ، ومن هنا أطلق عليها اسم الطقوس القوطية - Offi-Oficio Góteco .

Oficio Toledano ، وربما سميت الطقوس الطليطلية لأن مجمع طليطلة الرابع قرر تعميمها في كنائس إسبانيا وغالة النربونية كلها . وقد جرى بها العمل في الكنائس في الأندلس الإسلامي دون أن يتعرض لها المسلمون بشيء ، وعندما بدأ ملوك ليون يتغلبون على بلاد المسلمين ، أطلق الليونيون على من كان في هذه البلاد اسم المستعربين كما قلنا ، وأطلق هذا الوصف أيضاً على شعائهم فسميت بالشعائر المستعربية Oficio Mozárabe .

٢٢٩ - البابوية وما كادت البابوية تقف على أقدامها في حماية الدولة الكارولنجية الفرنجية والطقوس القوطية حتى أخذت تلقى الشكوك في قيمة هذه الطقوس وكاثوليكيته ، فبدأت بإرسال حبرين أيام البابا يوحنا العاشر لينظرا في أمر هذه الطقوس ويعرضا عليه رأيهما فيها ، فذهب الحبران إلى كنائس ممالك إسبانيا النصرانية وعادا ليقررا أنها شعائر كاثوليكية سليمة . ولكن البابوية أصرت رغم ذلك على إلغاء هذه الشعائر وإحلال الشعائر الرومانية (نسبة إلى روما) محلها ، وما زال البابا جريجوريوس السابع حتى حمل شأنه ملك نبره وألفونسو السادس ملك قشتالة وليون على الاستجابة لما يريد ، فألغيت الشعائر المستعربية في نبره وقشتالة وليون فيما بين سنتي ١٠٧٧ و ١٠٧٨ رغم معارضة شديدة من نصارى هاتين المملكتين (١) .

ثم جاء دور نصارى الأندلس الإسلامي عندما بدأوا يدخلون في طاعة ملوك إسبانيا النصرانية بعد استغلاب بلادهم . لقد ظلوا آمنين على شعائهم ما داموا في حمى المسلمين ، فلما صاروا إلى حماية ملوك النصرانية بدأت متاعبهم وعادوا إلى ما كانوا فيه في العصر القوطي ! وقد تحول الأمر إلى صراع دموي اشتبك فيه أنصار الشعائر المستعربية مع أنصار الشعائر الرومانية ، ولو أن أمراً كهذا حدث أيام المسلمين لما وسعت الكلمات غضب المتحاملين على الحكم الإسلامي ، ولكن ما أشد اختلاف معايير القيم في أبدي أولئك الناس ! لقد جمع الامبراطور ألقونسو السادس مجمعا في برغش عام ١٠٨٥ ، وألغى الشعائر

(١) يجتج سيمونيت على موقف البابوية من الطقوس القوطية ، ولكن احتجاجه رقيق لطيف لا يقاس بحملاته المقذعة على المسلمين ، ولو أن المسلمين مساو طقوس الكنيسة لما وجد في ألفاظ العنف - بل البذاءة - ما يكفي . وقد رأيت الإشارة إلى ذلك لبيان روح التعصب الشديد الذي كتب به هذا المؤرخ ومن تابعه ، وهو تعصب يشوه الصورة التاريخية للأندلس الإسلامي تنويعاً تاماً .

المستعربية التي حافظ عليها المسلمون وأحل محلها شعائر فرضت على الناس فرضاً بسلطان الرهبان الكولونيين ، وهم أجناب عن إسبانيا ، كانوا يدخلونها إذ ذاك سادة لأهلها وقساوستها أيضاً .

ولم يرض الشعب عن ذلك ، وسرت في صفوفه روح المقاومة ، وقال قائلهم : « نموت أو نستبدل هذا الملك بملك آخر قبل أن نقبل هذا التغيير » . ووقف الملك وحيداً أمام رعيته كلها . وتدخل نفر من الوسطاء في الأمر ، واستقر الرأي أخيراً على تحكيم القدرة الإلهية جرياً على شريعة العصور الوسطى : اتفق الطرفان على أن يوقدوا ناراً ثم يلقى فيها بكتاب صلوات وفق الطقوس المستعربية ، وكتاب صلوات آخر وفق الطقوس الكاثوليكية ، وما يحترق منهما فهو الباطل . ويقص ردريجو الطليطلي هذا الخبر ويؤكد أن النار أكلت كتاب الشعائر الرومانية في حين بقى كتاب الشعائر القوطية سليماً لم يمس ! ويؤكد صاحبنا سيمونيت هذا الخبر ، ويروي رواية أخرى يتهم أصحابها بأنهم ممالئون للبابا ، إذ أنهم يقولون إن كتاب الصلوات الروماني عندما طرح لم يقع في النار ، أما القوطي فوقع فيها ولم يصب بأذى وهكذا ثبت أن الاثنين على حق ! (١) .

ويقولون إن الطقوس المستعربية سلمت من الأذى نتيجة لهذا الحكم الإلهي ، ولكن ذلك لم ينفعها طويلاً ، فما زال البابوات يؤيدهم الملوك يلحون عليها حتى تلاشت آثارها خلال القرن السابع عشر .

وإنما استطردهنا مع تاريخ هذه الطقوس لكي نؤكد ما قلناه ، وهو أنها كجزء من التقاليد الإسبانية القومية عاشت في سلام طالما كان الأمر للمسلمين ، فلما انقضت أيامهم زالت واختفت في ليل التاريخ مع ما ذهب من آثار المسلمين .

* * *

٢٢٠-وظائف الكنيسة بعد الفتح سلباً دون تغيير ، كل ما حدث هو أن أسماء الوظائف تغيرت تبعاً لاستعراب ألسنة الناس ، وظهرت لها أسماء هي مزاج من أسمائها الأولى وألفاظ عربية ، وإليك بياناً بأهم هذه الوظائف كما وردت في كتابات نصاري الأندلس ، نوردها على سبيل المثال :

مطران أو مطروبول (Metrópol).	Metropolitanus
أشقف أو أسقف .	Episcopus
أرج برشيطر ، وربما سموه بالتسمية الإسبانية Arcipreste فقالوا أُرْجَبْرِشْت أو أرسبرشت . وقد يضعون له اسماً مركباً Archi اليونانية الإغريقية «وقس» العربية ، فقالوا : أرج قس .	Archi - presbiter
أرجدياقن أو أرسدياقن (إسبانية : Arci- diacono أو Arcediano) .	Archidiaconus

وقد أبقى المسلمون على كل المؤسسات ذات الصبغة الدينية دون أن يمسوها بأذى، كأديرة الرجال والنساء والبيع الصغيرة والمصليات العامة والخاصة Capellas، واحتفظ رجال الدين بملابسهم وأزيائهم^(١)، ثم غيروها شيئاً فشيئاً من تلقاء أنفسهم عندما أخذهم تيار الحضارة المشرقية واستعربوا لساناً وأسلوب حياة، بل الكثيرون منهم أخذوا أسماء عربية يُعرفون بها بين الناس، وإن كان لكل منهم اسمه الكنسي اللاتيني أو الإسباني الأصل.

٢٣١- المسلمون
وأملاك الكنيسة

وقد وضع المسلمون أيديهم على جزء كبير من أملاك الكنيسة الواسعة، واستولوا كذلك، أيام الفتح فقط، على الكثير من ذخائر الكنائس وخاصة تلك التي تركها رجالها وسدنتها وهربوا. وعندما استقر الأمر لم يعودوا يمسون ذخائر الكنائس. وقد اعتبر المسلمون ما وقع في أيديهم من ذلك غنائم يجرى عليها حكم الخمس، فأما خمس أراضي الكنيسة فقد اعتبر ملكاً للدولة ووزع الباقي بين الفاتحين، وكان الجند في الغالب يتركون الأرض بيد زراعها يؤدون إليهم عنه مالاً، ويدفعون منه ما يشاءون لكنائسهم، فكان الأمر لم يتغير كثيراً بالنسبة لهذه الأرضين، وأما الذخائر فأخذت الدولة خمسها وتوزع الجند الفاتح الباقي. وكانت الأديرة النصرانية طوال الأعصر الإسلامية آمنة لا يروع أصحابها شيء، وقد درج المسلمون على التردد عليها لانتهاج النيذ الطيب على

SIMONET, op. cit. p. 127.

(١)

ISIDORO DE LAS CAGIGAS, Los Mozárabes, I. p. 65.

عادة مُجانّ المشرق في هذا الباب ، وقد بلغ من تسامح المسلمين مع نصارى الذمة أن أذنوا لهم في قرع النواقيس .

وظلت الجماعات النصرانية في المدن والأرياف ملتفة حول أساقفتها وقسوسها ورعاعها ، لم يتدخل المسلمون في شيء من علاقاتها بهم ، فظلت الكنائس تؤدي وظائفها الاجتماعية إلى جانب وظائفها الدينية ، فكان القساوسة يعقدون الزيجات ويعمدون المواليد ويختارون لهم الأسماء ، ويسجلون المبيعات والعقود بين الناس . وليس بصحيح أن المسلمين خصصوا للنصارى أحياء خاصة يقيمون فيها كما يذهب بعض المؤرخين ، فليس لدينا دليل واحد على ذلك ، ثم هو ليس بمعقول ، وقد كانت عملية دخول النصارى في الإسلام على قدم وساق . والآن وقد ألمنا بأحوال أهل الذمة من النصارى ، فلنمر سراعاً بتاريخ جالياتهم خلال عصر الولاة .

٣٣٢ - سياسة
أمراء المسلمين
تجاه أهل الذمة

كان عهد عبد العزيز بن موسى - ثاني عمال الأندلس المسلمين - عهداً من وخير للنصارى الإسبان ، فقد كان الرجل سمحاً ليناً لا يميل إلى الشدة إلا حيث لا يجد لنفسه محيصاً عنها ، وقد تزوج أيلونة Egilona زوج لذريرق (فيما يقال) وسأها أم عاصم ، وكان بينه وبينها ود كريم كانت نتيجته وبالأعلى عليه ، لأنه أسرف في الانتقاد لها وأحب أن يرضيها باتخاذ سيات ملوك القوط ، فأنكر العرب عليه ذلك وقتلوه^(١) . ولم ينفرد عبد العزيز بن موسى بهذا الزواج بل فعل ذلك غيره من كبار العرب ، وقد ذكر لنا الرواة منهم زياد بن النابغة التميمي ، مما يدل على أن حركة الامتزاج بين العرب والبربر والإسبان بدأت من زمن مبكر جداً ، وهذا طبيعي ، لأن المسلمين حينما دخلوا هذا البلد دخلوه رجالاً بغير نساء ، فلا بد أنهم اتخذوا نساءهم من أهل البلد ، أي أن الجيل الثاني من مسلمي إسبانيا كان هجيناً ، ولما كان ورود العرب إلى الأندلس قليلاً جداً نظراً لبعده المسافة ، فإن الدم العربي الصريح تلاشى في هذا القطر على عجل ، ولن نجد عند قيام الإمارة الأموية عربياً صريحاً إلا في النادر ، حتى عبد الرحمن الداخل نفسه كان هجيناً^(٢) ،

(١) ابن عبد الحكم ، ٢١٢ .

الأخبار المجموعة ، ص ٢٠ .

SIMONET, op. cit. p. 149.

(٢) انظر عن ذلك :

JULIAN RIBERA, Disertaciones y Opúsculos I, p. 4 - 15.

إذ كانت أمه بربرية من نفزة ، وهذا في ذاته من غرائب المقادير : أن تكون أمه من المغرب ، وأن تقسم له الحظوظ سيادة الأندلس حيث كان الكثيرون من رعاياه هجاء من نفس الجنس . وقد أمن نصارى الإسبان في عهد عبد العزيز وبدأوا يطمثون إلى حكامهم الجدد ، ويبالغ بعض مؤرخى الإسبان في التعليق على سياسة عبد العزيز ، فيذهبون إلى أنه مال إلى النصرانية وأنه كان يفضل الإسبان على العرب ، ولكن هذه مبالغات لا يؤيدها نص ولا منطوق ، وكل ما في الأمر أن دواعى الشدة قد انقضت وهذأت البلاد فلم يبق إلا اللين والمحاسنة ، وقد فعل ذلك غير عبد العزيز من فاتحى المسلمين كعمرو بن العاص في مصر (١) .

ولم يصادر المسلمون في ذلك العهد المبكر من كنائس إشبيلية - وكانت عاصمتهم إذ ذاك - إلا واحدة هي كنيسة القديسة ريفينا Santa Ruffina وتسميها بعض المراجع كنيسة رُبينه ، ولم يأخذوها كلها بل جزءاً منها جعلوه مسجداً ، وبقيت بعد ذلك كنائس كثيرة مثل « كنيسة الماء » وغيرها ، مما يدل على أن المسلمين لم يمسؤوا عقيدة الإسبان في كثير (٢) .

وفي ذلك العهد المبكر وجدت أسر مختلطة فيها مسلمون ونصارى كبنى المُنْدُ ٢٣٣- بيوت فيها مسلمون أخى غيطشة ، فقد كان حليفاً للمسلمين وتوفى عن ولدين و بنت ، فأما ونصارى الولدان فهما أبه (أو عباس) الذى قُتِلَ في واقعة كوفنا دونجا وأصبح الثانى مطراناً لإشبيلية ، وأما سارة فقد اختلفت مع عمها أرطباس فذهبت تشكوه إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ، فأنصفها من عمها ورد عليها ضياعها وزوّجها عربياً هو عيسى بن مزاحم « فقدم معها الأندلس وقبض ضياعها ، وهو جد ابن القوطية (المؤرخ) وولد له منها ولدان : إبراهيم وإسحاق ، ثم توفى عنها في العام الذى دخل فيه عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ، فتنافسها خيوة بن ملامس المذحجى وعمير بن سعيد اللخمى ، فعنى ثعلبة بن عبيد الجذامى بعمير بن سعيد عند عبد الرحمن بن معاوية ، فأنكحه إياها وولدت له حبيب ابن عمير جد بنى سيد (لعل صحتها سعيد) وبنى حججاج وبنى مسلمة وبنى حجر الجرُزُ .» أى أن إسحاق وإبراهيم ابنى عيسى بن مزاحم (٣) المسلمين كان لهما خال نصرانى

SIMONET, op. cit. p. 152.

(١)

SIMONET, op. cit. p. 151.

(٢)

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٥ - ٦ .

هو مطران إشبيلية . ولا نزاع في أن مثل هذا حدث في أسر كثيرة ، ونحن إذ نشير إلى هذا إنما نضع أصبعنا على بدء حركة « ذوبان » العنصر العربي في العنصر الإيبيري ، هذا الذوبان الذي نتج عنه شعب إسبانيا الإسلامية حاملاً خصائص العرب والبربر والإسبان .

وتذهب المراجع النصرانية إلى أن خلفاء عبد العزيز وهم أيوب بن حبيب
٢٣٤ - خلفاء
عبد العزيز بن
موسى وأهل الذمة
 اللخمي والحر بن يوسف والسمح بن مالك كانوا معادين لنصارى
 الأندلس حاملين على النصرانية ، وليس ذلك صحيحاً ، لأن ثلاثتهم
 أنفقوا خير أيامهم في الجهاد فيها وراء البرتات ، وربما يكونون قد عسفوا نصارى النواحي
 التي ذهبوا لفتحها ، فحسب الرهبان المؤرخون أنهم فعلوا بالإسبان مثل ذلك (١) ، وليس
 ذلك صحيحاً ولا نملك نصاً واحداً يشير إليه ولو عن طريق غير مباشر . بل الثابت أن كبار
 القساوسة كانوا نشطين في ذلك العهد في تجديد الكنائس ، ويذكر إيزيدور الباجي أن
Freduarus, Accitanae sedis Episcopus . وادى آس
 وأربانس أسقف طليطلة *Urbanus, Toletanae sedis urbis Regiae cathedralis*
 عمرا كنيسة وادى آس في ذلك الحين واشتهر أمرهما وانجفل الناس إليهما دون أن يتعرض
 المسلمون لهم في ذلك بشيء ، ويذكر سيمونيت - رغم تعصبه - أمثلة كثيرة تدل على أن
 النصرانية الإسبانية انتعشت بعد الفتح الإسلامي - كما حدث لنصرانية مصر - انتعاشاً
 ظاهراً (٢) بعد دخولها في طاعة المسلمين أيضاً .

وكان سندريدو *Sindredo* مطران طليطلة قبيل أيام الفتح قد هجرها وفرّ حيناً أقبل
 المسلمون (٣) ، وصالح نصارى البلد على أنفسهم بشروط خاصة احتفظوا فيها ببلدهم شبه
 مستقل : احتفظوا بحكومة محلية يقيمونها بأنفسهم ، واحتفظوا بمعظم كنائسهم وبرجال
 الدين الذين بقوا فيها بعد فرار المطران وبعض رجاله . فظل هذا البلد عامراً بالكنائس
 الكبيرة ، أعظمها كنيسة « جميع القديسين » *Omnium Sanctorum* ، وظلت الأديرة التي

SIMONET, op. cit. p. 156 - 157.

(١)

SIMONET, op. cit. p. 160 - 162.

(٢)

(٣) التاريخ المنسوب لإيزيدور الباجي ، فقرة ٣٥ .

SIMONET, op. cit. p. 163.

في أرباض البلد قائمة لم يمسهها المسلمون بأذى كبير ، وإن كانوا قد استولوا على الكثير من ذخائرهما كمذبح كنيسة طليطلة الكبيرة المشهور في النصوص العربية بإئدة سليمان .

أما الكنيسة الجامعة السابقة ، وهي كنيسة القديسة مريم (ساننا ماريا) التي كانت معتبرة قبل ذلك قاعدة المسيحية الكبرى في إسبانيا فقد حوّلها المسلمون إلى مسجد جامع ، وانتقل مركز المطرانية إلى كنيسة أخرى كبيرة تسمى كنيسة القديسة ماريا دي ألفيثين Santa María de Alficen ، وقد نقل النصراري إلى هذه الكنيسة أوراقهم ووثائقهم وكل ما كان في الكنيسة القديمة من الذخائر ، وظلت على ذلك طوال العصور العربية (١) .

وكان العرب قد أقاموا حليفهم أبه (عباس) (٢) مطراناً للبلاد خلفاً لسندريدو ، ولكن أهل البلد لم يرضوا به وتركوه في مطرانيته ، وأقاموا لأنفسهم مطراناً آخر يسمى أوربانو Urbano وكان قبل ذلك مرتلاً في الكنيسة ، ولم يعترض المسلمون على ذلك .

وكان المسلمون بعد أن فرغوا من تثبيت أمرهم في البلاد وإخضاع مراكز أكويلوا واستسلامه المقاومة فيها ، قد مضوا في احتلال بقية النواحي التي كانت قد تركت على حالها لانعدام المقاومة فيها . مثال ذلك أن طركونة وإقليمها تم احتلالها على يد الحر بن يوسف ، وكانت طركونة عاصمة ولاية إسبانيا الطركونية ، وكانت فيها كنيسة جامعة على رأسها مطران ، وكان يقيم فيها أحد أبناء غيطشة المسمى أكويلوا Aquila ، فحسب أن العرب يتكون هذه الناحية له كما ظن غيره من آل غيطشة أن العرب يتكون البلاد لهم ، فلما استبان أن العرب مقيمون في البلاد وأنه لن يصل إلى العرش على أيديهم حاول الوثوب بهم في طركونة ، فسار إليه السمع وأخضع البلد وأنزل به شيئاً من التخريب . فلما قتل السمع بعد ذلك في وقعة طولوشة حاول أكويلوا الثورة من جديد ، ولكن عنبسة بن سحيم قضى على حركته ونهب البلد نهباً ذريعاً ، واستسلم أكويلوا وانتقل إلى طليطلة فأقام فيها ، ولم يحاول الثورة بعد ذلك ، وقد استعرب أبناؤه من بعده وحفظت لنا النصوص اسم أحد أحفاده وهو حفص بن ألبُرُّ ALvaro قاضي العجم (٣) .

SIMONET, op. cit. p. 166.

(١)

(٢) هكذا كتب ابن القوطية اسمه ، انظر ص ٤ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٥ .

سيمونيت ، ص ١٧٠ - ١٧١ .

٢٣٦- نصارى
الأندلس يحجون
إلى بيت المقدس
ومن طريف ما يلاحظ أن نصارى الإسبان انتهزوا فرصة دخولهم في طاعة الدولة الإسلامية لكي يذهبوا إلى بيت المقدس للحج ، ويذكر لنا الرواة النصارى قصة قس يسمى القديس فيليبالدو San Willibaldo ذهب للحج إلى الأراضى المقدسة ، ووصل إلى الرُّها ليزور كنيسة القديس توماس فيها ، فاشتبه عامل البلد العربى في أمره وسجنه ، ثم أطلق سراحه حينما استبان أنه من أهل الذمة في الأندلس ، ويبدو أن هذا الحادث أخاف فيليبالدو فلم يعد إلى بلده وإنما إلى دير مونت كاسينو في إيطاليا ، ومنها انتقل إلى روما سنة ٧٤١ حيث أقامه رجال الكنيسة أسقفاً لمدينة أَيْخُنْتَات في ألمانيا ^(١) . ولكن يبدو أن عدد هؤلاء الحجاج النصارى لم يكن كبيراً .

٢٣٧- عبد
الرحمن الغافقي
وأهل الذمة
عبد الملك بن قطن ، ولا نملك من النصوص العربية ما يؤيد هذا أو ينفيه وإن كانت الدلائل كلها تدل على أن عبد الرحمن اشتد مع نصارى الركن الشمالى الشرقى من شبه الجزيرة بسبب احتناء مونوسة بهم ، وكان بطبعه رجلاً عسكرياً عنيفاً ومسلماً متفانياً لا يكاد يحفل لغير الإسلام والمسلمين . ويؤكد ايزيدور الباجى أن عبد الملك بن قطن عسف النصارى عسفاً شديداً في ولايته الأولى ^(٢) .

٢٣٨- موقف
عبد الملك بن قطن
من أهل الذمة
وقد أراد عبد الملك أن يعتدى على تدمير صاحب ناحية مرسية الذى عقد العرب معه الصلح المعروف على يد عبد العزيز بن موسى ، ووضع ابن قطن يده على بعض أراضيه ، فلم يسع تدمير إلا الرحيل إلى المشرق حيث لقي هشام بن عبد الملك وشكا إليه عامله عبد الملك بن قطن ، فأحسن هشام لقاءه وأكد له شروط الصلح الذى عقده عبد العزيز بن موسى وأقره أخوه سليمان بن عبد الملك ، وانتهاز تدمير الفرصة واتصل بنصارى الشام حيث لقي منهم إكراماً عظيماً ، ثم عاد إلى بلاده حيث أقام في إقليمه آمناً حتى توفى سنة ٧٤٣م ^(٣) .

SIMONET, op. cit. I. 175.

(١)

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ١٤٩ .

سيمونيت ، ص ١٨٣ .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ١٤٩ .

سيمونيت ، ص ١٨٣ .

٢٢٩- المسلمون وكان المسلمون حينها فتحوا نواحي الغرب قد قبلوا من أهل قلمرية Co-
 ونصارى قلمرية nimbria صلحهم وأقروا البلد على حاله ، وأقام عبد العزيز بن موسى
 عليه حاكماً عربياً تسميه وثيقة لاتينية Alboacem ibn Mahamat Alhamar ibn
 Tarif - وربما كانت صحة الاسم العربي أبا عاصم بن محمد الأحمر بن طريف - في سنة
 ٧١٦م . وكانت المدينة إذ ذاك عامرة وبها كنيسة كبيرة ، فأقام أبو عاصم على عجم البلد
 قوماً يسمى آيدولفو Aidulfo ، فلما مات خلفه ابنه أتاناجيلدو Atanagildo وأعقبه
 ابنه تيودوس Theodus ، وأقام على الأسقفية قساً يسمى لوربان Lorban .

واستمر أمر البلد على هذا الحال من الاستقلال تحت السيادة الإسلامية العليا حتى
 سقطت في يد النصارى سنة ١٠٥٨ ميلادية ، وحول هذا البلد تكونت فيما بعد إمارة
 البرتغال وحلت محل ولاية لشدانية (لوزيتانيا) الرومانية ، وإنما أشرنا إلى ذلك لنضع أيدينا
 على أوائل احتلال المسلمين للبرتغال وحكمهم إياها . وقد أحسن أبو عاصم معاملة
 نصارى ناحيته وارتبط مع أهلها بأواصر الود وصار يخرج للصيد - وكان مولعاً به - معهم ،
 وكان يوقر الرهبان ويقربهم ، وتذهب الوثيقة التي أشرنا إليها إلى أنه ألزم نصارى قلمرية
 بأن يدفعوا جزية مقدارها ضعف ما كان يدفعه المسلمون النازلون فيها ، وجعل على كل
 كنيسة جزية قدرها خمسة وعشرون مثقالاً Pesanta من الفضة ، وعلى كل أسقفية مائة
 مثقال وعلى كل دير خمسين مثقالاً ، واستثنى من ذلك دير لوربان فقد أعفاه من كل شيء ،
 لأن رئيسه كان حليفاً للمسلمين^(١) ، وترك رهبانه أحراراً. وتذكر المراجع حاكماً مسلماً آخر
 لقلمرية في هذه الفترة يسمى مروان بن موسى ، حكمها بعد أبي عاصم وسار على طريقته
 في التودد إلى الأهلين والإحسان إليهم والولع بالصيد .

٢٤٠- عقبة وتختلف المراجع فيما بينها على موقف عقبة بن الحجاج السلوي من النصارى
 ابن الحجاج وأهل الذمة وحالمهم في أيامه ، فأما القطعة الإسبانية التي بين أيدينا من تاريخ الرازي
 فنقول في حوادث سنة ٧٣٤م : « وقد وضع عقبة هذا أموره كلها في أيدي
 النصارى ، فأراحوه وأعانوه ، وكانوا معه بالليل والنهار »^(٢) . وأما إيزيدور الباجي فيقول
 عنه إنه « رآك البلاد روكاً جديداً وأحصى كل ما فيها ، وطالب النصارى بأن يؤدوا ما

SIMONET, op. cit. p. 182.

(١)

SIMONET, op. cit. p. 184 - 185.

(٢)

عليهم بأشد ألوان العنف ، ولم يغادر أى وسيلة تمكنه من ملء خزانة الدولة بالمال من أى طريق^(١) . ولكنه يقرر في نفس الوقت أن عقبة لم يختص النصارى وحدهم بهذه الشدة ، بل عامل بها المسلمين كذلك ، أى أنه اشتد على الناس أجمعين . والواقع أن عقبة كان رجلاً حازماً شديد الحرص على حقوق الدولة ، دائم المواظبة على القيام بواجباته . وقد روينا أخبار اجتهاده في محاربة النصارى في الشمال وفي غالة ، وكان إلى ذلك مولى بعيداً عن نزعة العصية العربية ، فلا يبعد أن يكون قد قرّب أهل البلاد وسوّى بينهم وبين العرب في المعاملة ، وبهذا تصدق الروايان وتضيفان شيئاً جديداً هاماً عن عقبة بن الحجاج وحكمه في الأندلس .

وتذكر الروايات النصرانية أن الراهبين الأخوين فوتو Voto وفيلكس Felix أنشأ في عهد عقبة دير سان خوان دي لاينايا San Juan de la Peña في لطف جبل أورويل Oruel في أقصى الشمال ، وقد ازدهر هذا الدير فيما بعد وكان له أثر بعيد في التاريخ الأندلسي بعد ذلك بثلاثة قرون : إذ اتخذه أنييجو خيمينيث Iñigo Jiménez المعروف باسم أريستا Arista وكرأ وعاصمة لإمارة بنبلونة التي أنشأها وكان لها دور عظيم فيما بعد في حركة الاسترداد ، وقد أصبح اسم هذه الإمارة حينما اتسعت بعض الشيء مملكة شُبرب El Reino de Sobrarbe ودخلت بعد ذلك في مملكة نبرة . وكان الأخوان فوتو وفيلكس من أغنياء النصارى في سرقسطة ، فلما رأيا تكاثر المسلمين في هذه الناحية وانتشار الإسلام بين أهلها باعاً ممتلكاتها وقرّقاها على الفقراء ومضيا إلى جبل أورويل حيث أنشأ دير بينيا هذا ، مما يدلنا على أن المسلمين حينما نزلوا هذه الناحية لم يستولوا على ما بيد أهلها النصارى من الأملاك ، بل تركوهم على حالهم ، وكانت سرقسطة قد صالحت عن نفسها بشروط طيبة ضمنت لأهلها الحرية في كل شيء ، وقصة هذين الأخوين ترينا كيف كانت عناصر المقاومة النصرانية تتكون في بطن منذ أوائل أيام الحكم الإسلامي ، وتدل كذلك على أن المسلمين تركوا النصارى من أهل البلاد أحراراً في إنشاء ما يريدون من الأديرة^(٢) .

فلما وقعت الثورة البربرية أثناء ولاية عبد الملك بن قطن واشتدت المجاعة في الأندلس ، أخذ بعض النصارى الإسبان يهاجرون إلى نواحي الشمال القاصية : إلى أشتريس وكنتبرية ،

(١) إيزيدور ، فقرة ٦١ .

SIMONET, op. cit. p. 190 - 191.

(٢)

ويبدو أن أعداد هؤلاء المهاجرين لم تكن كثيرة ، لأن مراجعتنا العربية لا تشير إليها (١) .

وقد عرفنا فيما سبق أن أبا الخطار فرَّق الشَّاميين وأنزلهم في بعض كور الأندلس «وكان إنزالهم على أموال أهل الذمة من العجم» (٢) ، «وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة طعمة» . وقد حاول سيمونيت أن يفسر هاتين العبارتين بأن أبا الخطار فرض على النصارى الإسبان الذين أنزل العرب في كورهم ضريبة جديدة مقدارها ثلث أموالهم ، وهو تفسير خاطيء ، إذ لم يزد على أهل الذمة شيء جديد ؛ وإنما أخذ الشَّاميون ثلث الجباية ، ومن هنا لا محل لما يذهب إليه سيمونيت من القول بأن حال أهل الذمة ساء في أيام أبي الخطار بسبب هذه الزيادة المزعومة .

يبد أن أبا الخطار أخطأ في إنزال بعض الشَّاميين في نواحي تدمير التي ضمن العرب سلامتها بصلح أوريولة الذي عقده تدمير مع عبد العزيز بن موسى ثم عاد هشام بن عبد الملك فأكدته . وكان صاحب تدمير إذ ذاك أتاناجيلدو Atanagildo الذي خلف أباه تدمير سنة ٧٤٣م ، فلم يكده يسمع بتصرف أبي الخطار حتى اعترض عليه وأعلن أن ذلك يخالف نصوص معاهدة أوريولة ، وكانت العلاقات بين أتاناجيلدو والنازلين في أرضه من البلديين طيبة ، فنهضوا ينتصون أبا الخطار بالعدول عن ذلك ، فغضب أبو الخطار ، وأراد عقاب أتاناجيلدو ، ففرض عليه غرامة قدرها سبعة وعشرون ألف قطعة من الذهب ، وسببه وأهانته ، فمضى أتاناجيلدو يتحجب إلى جند مصر من الشَّاميين الذين كانوا بأرضه ، واجتذبه بإحسانه ، فتوسطوا له عند أبي الخطار ، وما زالوا به حتى أسقط الغرامة ورد على الرجل اعتباره واحترام حقوقه (٣) . وإنما ذكرنا هذه الحكاية لكي نستدل منها على أن علائق من الود كانت قد تأصلت بين العرب النازلين في الأرياف وأهلها من النصارى الإسبان ، فهذا أتاناجيلدو يعاونه البلديون والشَّاميون على رفع الظلم عنه ، وسنرى في تاريخ كبير نصراني آخر - هو أرطباس - أمثلة أخرى كثيرة تؤيد ذلك .

SIMONET, op. cit. p. 193.

(١)

إيزيدور فقرة ٦٣ - ٦٦ .

(٢) ابن القوطية ، ص ٢٠ .

ابن عذاري : البيان ، ص ٢٠ ، ص ٣٤ .

فتح الأندلس ، ص ٣٦ - ٣٧ .

SIMONET, op. cit. p. 199 - 200.

(٣)

ويذهب الإصطخرى إلى أن المسلمين وضعوا يدهم على نصف كنيسة قرطبة الجامعة (١٣١هـ / ٧٤٨م) أى في هذه الفترة التى نتحدث عنها . ذلك أنهم كانوا قد عاهدوا أهل قرطبة على أول الفتح بأن يدعوا لهم هذه الكنيسة الجامعة المعروفة بكنيسة القديس بجنت أوبرنت San Vicente (Sanctus Vicentius) وأقاموا لأنفسهم مساجد صغيرة . فلما نقلوا مركز الدولة إلى قرطبة وكثر المسلمون فيها وفي أرباضها ، ضاقت بهم هذه المساجد الصغيرة واحتاجوا إلى مسجد جامع ، فقاموا النصارى كنيستهم الجامعة كما فعلوا في دمشق والرُّها ، فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة في كنيستهم العظمى التى كانت بداخلها ، وابتنى المسلمون في ذلك الشطر مسجداً جامعاً ، وبقي الشطر الثانى بأيدي الروم وهدمت عليهم سائر الكنائس^(١) .

ويذهب مؤرخونا إلى أن ذلك تم على أول زمان الفتح، والواقع غير ذلك ، لأن الثابت من صلح قرطبة مع المسلمين أن هؤلاء تركوا للنصارى كنيسة سان بجنت الجامعة ، ولدينا نص من الأخبار المجموعة يدل على أنها كانت لا تزال كنيسة في سنة ١٣٠هـ / ٧٤٧م^(٢) ، وللرازي رواية تدل على أن ذلك حدث في ولاية أبى الخطار ، وبعد سنة ١٣٠هـ / ٧٤٧م على الأغلب^(٣) .

وفي هذه الفترة تظهر شخصية أرطباس Ardabast زعيم عجم الذمة وابن ٢٤١-أرطباس غبطشة إلى جانب كبار الشخصيات العربية في أيام أبى الخطار ومن جاء بعده. ويبدو لنا أرطباس رجلاً مهذباً حسن التصرف واسع الخيلة ، ينصح عمال الأندلس في شئون سياسة بلاده ويعامل زعماء العرب بكياسة تدعو إلى الإعجاب . ومن أمثلة ذلك رواية ابن القوطية التى أتينا بطرف منها ، وهى رواية تدل على حسن تصرفه وتلقى ضوءاً على أسلوب حياة العرب والإسبان والنصارى في ذلك العصر ، وقد ذكرنا فيها سبق فقرة منها ولا بأس من إيرادها على تواليها هنا ، يقول : « وحكى الشيخ ابن لبّابة رحمه الله عن أدركه من الشيوخ أن أرطباس كان من عقلاء الرجال في أمر دنياه ، وأنه دخل عليه عشرة

(١) ابن عذارى : بيان ، ج١ ، ص ١٤٤ .

ابن بطوطة : رحلة ، ص ١٩٨ .

ابن جبير : رحلة ، ص ٢٦٣ .

(٢) الأخبار المجموعة : ص ٦١ .

(٣) المقرئ : نفع ، ج١ ، ص ٣٦٨ .

من الشّاميين فيهم أبو عثمان وعبد الله بن خالد وأبو عبدة ويوسف بن بخت والصمّيل بن حاتم ، فسلموا وجلسوا على الكرسي المحيطة بكرسيه . فلما أخذوا مقاعدهم ، وحيّاً بعضهم بعضاً ، دخل ميمون العابد جد بنى حزم البوابين ، وهو أحد الموالى الشّاميين ، فلما رآه أرطباس داخلاً قام إليه والتزمه وجعل يقوده إلى كرسيه الذى قام منه ، وكان مصمّداً بالذهب والفضة ، فأبى الرجل الصالح من الجلوس عليه ، وقال له : لا يجلى لى هذا ! فجلس على الأرض وجلس معه ، ثم قال له : ما جاء بمثلك إلى مثل ؟ فقال ميمون : قدمنا إلى هذا البلد وظننا أن ثوانا لا يطول فيه ، ولم نستعد للمقام ، فحدث من الاضطراب على موالينا بالمشرق ، ما نتوهم به أنّا لا نعود إلى موضعنا معه ، وقد وسع الله عليك ، فأريد أن تعطينى ضيعة من ضياعك أعتمرها بيدي ، وأؤدى إليك الحق منها وأخذ الحق . فقال له أرطباس : لا والله ما أرضى أن أعطيك ضيعة مناصفة ! ودعا بوكيل له فقال له : ادفع إليه المجشر الذى على وادى شوس وما فيه من الغنم والبقر والعيبد ، وادفع إليه القلعة ببيان ، وهى القلعة المعروفة بقلعة حزم ، ملكها [بياض] فشكر وقام ، وعاد أرطباس إلى مقعده ، فقال له الصمّيل : يا أرطباس ! ما يعجزك من سلطان أبيك إلا نفاذ الطيبة ! أدخل عليك ، وأنا سيد العرب بالأندلس ، ويدخل أصحابى هؤلاء معى ، وهم سادات الموالى بالأندلس ، فلا تزيدنا من الكرامة على القعود على العيدان ! ويدخل هذا السوّال ، فتصير من إكرامه إلى حيث صرت ! فقال له أرطباس : يا أبا جوشن ! أهل ديانتك يخبروننا أن أدبهم لم يأخذك ! ولو أخذك لم تنكر علىّ برّ من بررت ! وكان الصمّيل أمياً لا يقرأ ولا يكتب : إنكم أكرمكم الله ، [وأنتم] إنها تكرمونه عز وجل [إذا أكرمتم الصالحين] . وقد روينا عن المسيح صلّى الله عليه وسلم أنه قال : من أكرم الله من عباده وجبت كرامته على جميع خلقه ، فكانها ألقمه حجراً . فقال له القوم : دع هذا وانظر فيما قصدنا له ، حاجتنا وحاجة الرجل الذى قصدك وأكرمته واحدة ، فقال : أنتم ملوك ، وليس يرضيكم إلا الكثير ، فوهبهم مائة ضيعة ، صار منها لكل منهم عشر ضياع ؛ منها طُرُش لأبى عثمان ، والفُتّين لعبد الله بن خالد ، وعُقدة الزيتون بالمدوّر للصمّيل بن حاتم ؛ وهى حكاية حافلة بكل ما يعيننا على تصور العلاقات بين العرب ونصارى الإسبان فى ذلك العصر ^(١) .

ولم يكن أرطباس رجلاً كريماً كيساً فى كل حال ، بل ذكر المؤرخون ما يدل على جشعه

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

وقد حرّف سيمونيت هذه العبارة عند ترجمتها ، انظر ص ٢٠٥ .

وطمعه ، فقد انتهز فرصة وفاة أخيه المُنْدُ وتركه ابنة واحدة هي سارة وابنين صغيرين ووضع يده على أملاكهم وكانت ألف ضيعة ، فذهبت سارة إلى المشرق ، وعادت منه وقد حكم لها هشام باسترداد ضياعها ، وزوجها عيسى بن مزاحم^(١) . وكان أرتباس يتخذ هيئة الأمراء فيجلس على كرسي مَصَّمَد بالذهب والفضة كما رأينا في الفقرة السابقة ، ويضرب لنفسه قبة عظيمة إذا خرج مع الأمير « وحوها من الهدايا غير قليل ، إذ كانت الهدايا تتلقاه في كل محلة من ضياعه . فنفس عليه الأمير [عبد الرحمن بن معاوية] ... »^(٢) .

المطران - ref وتدل الدلائل كلها على أن النصارى لم يصبهم شيء من الأذى أثناء الحروب سيثيليا العنيفة التي دارت بين العرب ، بين أبي الخنطار والصميل ، فقد ازدهر أمر مطرانية طليطلة ورأسها حبر جليل ضليع له صيت في الخوليات النصرانية وهو سيثيليا Cixilia ، كان دائم الحرص على سلامة العقيدة النصرانية ، حتى لقد كان يشتد مع أصحاب المذاهب الخارجة على الكاثوليكية ، وكان يعمر ما يبني من الكنائس ، وكتب النصارى في امتداحه القصائد اللاتينية^(٣) .

ومن دلائل الحرية التي كان النصارى يتمتعون بها في هذه الفترة تمكنهم من نقل الكثير من الأشياء المقدسة التي انتشرت من الكنائس التي تهدمت إلى كنيسة أبيط الجامعة ، حتى لقد عمرت هذه الكنيسة لهذا العهد وانتقلت من بيعة صغيرة إلى كنيسة كبيرة عامرة ، ولم يتعرض المسلمون للنصارى في شيء من ذلك ، مما يدل على أنهم تمتعوا بحرية كاملة في كل ما يتصل بأمرهم الدينية^(٤) .

ويذكر ابن حيان في عداد الثوار الذين خرجوا على يوسف الفهري رجلاً يسمى عروة ابن الوليد « ثار في مدينة باجة في أهل الذمة وغيرهم ، فملك إشبيلية وكثر جمعه ، إلى أن خرج عليه يوسف فقتله »^(٥) ولم يذكر لنا ابن حيان شيئاً نتعرف منه شخصية الوليد هذا ، ولكن الغالب أنه لم يكن نصرانياً مستعرباً ، وإنما عربياً جمع نغراً من العرب وأهل الذمة وثار بهم في هذه الناحية .

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤ - ٥ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٦ - ٣٧ .

(٣)

SIMONET, op. cit. p. 207.

Xixilianus, Cixilianus, Cigilia : ويكتب اسمه في النصوص بصور مختلفة

SIMONET, op. cit. p. 211 - 212.

(٤)

(٥) المقرئ : نفع ، ج ٢ ، ص ١٣ .

وربما كان دافع هؤلاء النصارى إلى الاستجابة لدعوة رجل كالوليد هو الزيادة التي فرضها يوسف على أهل الذمة ، ذلك أن الجباية نقصت بسبب هلاك الكثيرين من النصارى أو فرارهم من أرضهم نتيجة للحروب العنيفة التي دارت بين العرب أيام يوسف ، فطالب يوسف الباقيين منهم بأداء المبالغ التي كانت قد تقررت عليهم في اتفاقات الصلح ، فنقل ذلك على أفرادهم وترددت شكواهم منها^(١).

٢٤٣- النصارى وحينما ازدادت الحروب بين العرب حدة ، وضربت المجاعة بجرانها على بمعمرون بعض الأندلس بين سنتي ١٣٣ و ١٣٨ هـ / ٧٥٠ - ٧٥٥ م ، وعادت جماعات البلاد الخالية البربر التي كانت تعمر النواحي الشمالية الغربية من شبه الجزيرة واستولى أذفونش الأول على الكثير منها ، كثرت هجرة النصارى من البلاد التي كانت خاضعة لحكم المسلمين إلى هذه النواحي الخالية الفاصلة بين دار الإسلام وبلاد مملكة ليون ، فيما بين نهري تاجه ودويره لتعميرها ، فعمرت لك وليون وسلمنقة وأبله وأوكا وشقوبية وأمايا ، وقد كان المهاجرون إلى هذه النواحي من كل طبقات النصارى : أشرافاً وغير أشراف- tam no biles quam ignobilis . وعمرت لك بالنصارى وقام على تعمير كنيستها حبر كبير هو أدوارويس (Odoario في النصوص الإسبانية) وكان قد فر منها حينما دخلها العرب ، فعاد إليها مع أذفونش الأول واستقر فيها ومضى يقيم شعائر النصرانية فيها من جديد وجعلها أسقفية عامرة ، واتخذ لقب مطران .

٢٤٤- تمعير وكذلك عمرت شقوبية بعد أن كان الكثيرون من أهلها قد تركوها وهربوا إلى شقوبية الجبال على أوائل أيام الفتح ، ولكن معظم المماريين عادوا بعد أن صالح الباقون منهم على أنفسهم بصلح طيب ضمن لهم حرية تامة في كل شيء لقاء دفع جزية مقررة ، وكانت المدينة قبل الفتح عامرة بالكنايس الكبيرة ، مثل سانتا ماريا دلوس هويرتوس Santa Maria de los Huertos وسان فيسنت San Vicente ولاترينيداد La Trinidad وسان خيل San Gil وسان أنطون San Antón وكلها قديمة ترجع إلى ما قبل عصر ريكاويدو^(٢) . وقد اطمأن النصارى في بلادهم هذا بعد أن تأكدوا أن العرب لن يصيبوهم بضرر ، فمضوا يقيمون كنائس جديدة أهمها سان ماركوس San Marcos وسان بلاس San Blas وشنت ياقب Santiago .

SIMONET, op. cit. p. 217.

(١)

SIMONET, op. cit. p. 223.

(٢)

وكان العرب يتزلون كثيراً بهذه المدينة في غزواتهم نحو الشمال ، ثم تخوفوا من كثرة النصرارى فيها ، فأخرجوا الكثير منهم إلى الأودية المحيطة بها لكي يجعلوا البلد ثغراً . ويبدو أن مقامهم بها لم يطل ، لأنهم لم يخلفوا فيها إلا أثراً قليلاً جداً ، ولم يرد لها ذكر كثير في التواريخ الإسلامية ، وقد احتفظت لنا الروايات النصرانية بأسماء ثلاثة من أحبار هذا البلد لقبوا بالمستعربين الثلاثة *Los tres Santos mozárabes* كانوا على جانب عظيم من الزهد والصلاح ، حتى لقد فرقوا أملاكهم في الفقراء وخرجوا إلى بادية عند مصب نهر الدوراتون *el Rio Duratón* وخف إليهم الناس وعمرت بهم هذه الناحية الفاحلة من برديل *Bardulia* ، وهكذا نلاحظ أن الفتح الإسلامي أدى - بطريق غير مباشر - إلى تعمير الكثير من نواحي الأندلس الحالية ، وكانت هذه الناحية من أعمار نواحي برديل حينما تكونت فيها إمارة قشتالة خلال القرن التاسع الميلادى ^(١) .

وعندما اشتد ساعد الإسلام وانتظمت أموره في خلال الدولة الأموية استعاد المسلمون المنطقة الواقعة بين نهري التاجه ودويره ، ووضعوا أيديهم على كبار مدائنها مثل أبلة وشقوية . وقد ثبتت حدود الإسلام فيما بعد عند خط في منتصف المسافة بين الدويره وتاجه ، فبينما كانت أبلة وشقوية من بلادهم نجد شلمتقه خارج عنها . ولم يحاول المسلمون الوصول إلى نهر الدويره والثبات عنده بصورة دائمة .

٢٤٥ - ميلاد إمارات شبرب وأرغون ونبرة
 وفي خلال السنوات الأخيرة من فترة الولاة تقلص سلطان المسلمين عن كثير من نواحي الشمال الشرقى القاصية في جهة انبشكنس *Vasconia* كما تقلص ظلهم من ناحية الشمال الغربى على ما رويها ، وإلى هذه الفترة يرجع ميلاد إمارات شُبرب *Sobrarbe* وأرغون *Aragon* ونبرة *Navarra* في ناحية انبشكنس وجبال البرت ، وكانت هذه الناحية قبيل دخول العرب البلاد مقسمة إلى ثلاث مقاطعات صغيرة هى *Calagurri* (قلهرة) في الجنوب و *Segia* (*Exea de los la balleros*) في الشمال الشرقى و *Pamplona* (بنبلونة) في الشمال ^(٢) . وكلها واقعة في سهل ريوخه *Rioja* وكانت قلهرة مركز أسقفية عامرة ، فلما افتتحها العرب هرب كبار الدين فيها إلى غالة أو إلى جليقية ، وأقام بعضهم في أبيت (*Oviedo*) .

IBID, p. 226.

(١)

IBID, p. 227.

(٢)

وفي هذه السنوات أيضاً عاش ذلك الراهب الذي كتب الحوليات التي نسبت زماناً طويلاً إلى إيزيدور الباجي Isidorus Pacensus ، إذ حسب الناس أنه كان أسقفاً لباجه (Pax - Julia) في البرتغال الحالية . وقد ثبت بعد أبحاث طويلة أن هذه الحوليات لم تكتب في باجه وإنما في طليطلة ، ولم يكتبها إيزيدور ولكن راهب غير معروف . وهذه الحوليات تاريخ طيب جداً لأحداث الأندلس في هذه الفترة ، ولأحداث الخلافة الأموية المشرقية كذلك . مما يدل على أن نصارى تلك الأيام كانوا يعرفون الكثير عن أحوال المسلمين عامة وتاريخهم كذلك (١) .

أشرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى سياسة القوط حيال اليهود ، وبيّنا في إسبانيا قبل الفتح كيف كانت هذه السياسة بعيدة الأثر في موقفهم من الدولة القوطية جملة ، وفي موقفهم من العرب الفاتحين .

وعلينا الآن أن ندرس موقف المسلمين منهم بعد الفتح ، وأن نرى كيف كان دخول المسلمين خيراً عليهم ، وسنرى في غضون الكلام كيف كان موقف المسلمين حاسماً في تاريخ اليهود جملة ، وأن المسلمين لو واصلوا سياسة القوط والكنيسة الطليطلية من اليهود لما كان لهم اليوم شأن في الوجود .

كان موقف الدولة الرومانية من اليهود موقف عداً واضطهاد ، وما زال ذلك العداً يشتد حتى قضى الرومان على دولة اليهود في فلسطين وخربوا بيت المقدس وهدموا معبد سليمان سنة ٧٠ ميلادية ، ففرق اليهود في نواحي الأرض . وبلغ من كراهة الرومان لليهود أنهم حسبوا أول الأمر أن النصارى يهود ، وإلى هذا الظن الخاطيء يرجع السبب في الاضطهادات الأولى التي لقيتها النصرانية من الرومان .

وقد ورثت الكنيسة المسيحية عن الدولة الرومانية هذه الكراهة ، وفي تلك العصور الأولى من تاريخ المسيحية كانت جرائم اليهود حيال المسيح وأصحابه ماثلة أمام المسيحيين جميعاً ، فحرص المسيحيون على تتبع اليهود طلباً للثأر . وقد كان هذا التتبع هادئاً غير ملحوظ في المشرق ، وأما في الغرب ، فقد ثابتت كنيسة روما على تتبع اليهود وتشريدهم ، فهربوا إلى النواحي التي كان سلطان هذه الكنيسة فيها ضعيفاً ، هربوا إلى إسبانيا والشمال

الإفريقي وبلاد الشرق ، وربما أوغل نفر منهم في بلاد الجرمان حتى أدرکوا سواحل البلطيق ، وفي بلاد الصقالبة حتى الفولجا وشواطئ البحر الأسود .

٢٤٧- اضطهاد القوط لليهود وقد كثرت جماعاتهم في إسبانيا حتى أننا لنجد مديناً كاملة يعمرها اليهود في أواخر العصر القوطي ، ومن تلك المدن اليسانه Lucena والبيره Ileberis من مدن الجنوب . وعندما وصل رجال الدين إلى السلطان على عهد ريكايدو ، بدأت المجامع الطليطية تضيق الخناق عليهم ، فأصدر المجمع الطليطلي الثالث قراراً بضرورة تعميم الأولاد الذين يولدون من زيجات يهودية نصرانية ، ثم أصدر ششوتو سنة ٦١٣ قراراً بخير اليهود بين التنصر أو الهجرة من البلاد . وقد عارض القديس إيزيدورو هذا القرار ، وأيد مجمع طليطلة الرابع قرار ششوتو فاضطر الكثيرون من اليهود إلى الهجرة وتظاهر بعضهم الآخر باعتناق المسيحية ، وهؤلاء هم الذين يسمون باليهود المستترين Judaizantes . وقد ضاق القوط بهم ذرعاً فقرر المجمع الطليطلي الثامن ضرورة تعميمهم من جديد ، وامتحان نصرانيتهم بتقديم لحم الخنزير إليهم ليأكلوا منه . ثم حرمت إقامة الشعائر الدينية اليهودية ، وصودر ربع أملاك من ظلوا على اليهودية ، وصبت لعنة الكنيسة على المسيحيين الذين يعاونون اليهود على إقامة شعائرهم ، وقد تتبع القوط اليهود حتى طردوهم من أربونة .

وبلغ هذا التعقب مداه على أيام الملك ايرفيج حيث قرر المجمع الطليطلي الثامن عشر إرغام اليهود جميعاً على التنصر أو مبارحة البلاد في مدى عام ، فكانت النتيجة أن زاد عدد اليهود المستترين . وبدأ اليهود يتحركون سراً للقضاء على الدولة القوطية ، وأحس القوط بما كانوا يدبرون ، فقرر المجمع الطليطلي السادس على أيام اخيكا اعتبار اليهود جميعاً رقيقاً وتوزيعهم على المسيحيين ، وحرم على هؤلاء الأخيرين عقبتهم ، وتقرر فصل أولادهم عنهم ، وتنصير الأولاد وتربيتهم تربية مسيحية ، واستثنى من ذلك يهود سبتانية^(١) .

وقد حاول اخيكا أن يخفف الوطأة عن اليهود ، فأزال عنهم بعض ما كانوا يلقونه من إرهاب ، ولم يكد اليهود يتنفسون الصعداء حتى بدأوا يكيدون للقوط ، ونمى إلى اخيكا أنهم يتصلون بأبناء عمومته في المغرب ويحاولون إغراء العرب بفتح إسبانيا ، فانقلب عليهم ، وأصدر المجمع الطليطلي السابع عشر قراراً في سنة ٦٩٤ بالعودة إلى الاضطهاد السابق .

وليس لدينا - من مراجعنا العربية - دليل على اتصال اليهود بالعرب وتحريضهم إياهم على السير إلى إسبانيا ، وإن كنا لا نستبعده ، لأننا سنجد اليهود إلى جانب العرب أثناء الفتح وبعده (١) .

٢٤٨ - المسلمون وقد رأينا كيف وقف اليهود إلى جانب المسلمين أثناء الفتح ، وكيف كانوا يدلونهم على عورات البلاد وثلمات الأسوار وما إلى ذلك ، وكان من الطبيعي أن يكافئهم المسلمون على ذلك ، فاتخذوا منهم حرساً لما يفتحونه من البلاد إلى جانب الحرس الإسلامي . وقد لقي اليهود بعد ذلك تسامحاً مطلقاً من العرب ، سواء خلال عصر الولاة أو ما بعده ، فكانت لهم بيعهم ورجال دينهم يمارسون شعائرتهم ما أحبوا ، ولا نسمع خلال العصور الإسلامية باضطهاد اليهود إلا ابتداء من القرن الحادى عشر ، أى بعد سقوط الخلافة وافتراق الكلمة وشيوع الفوضى .

ولقد كانت الأندلس جنة اليهود خلال العصور الوسطى كلها : بلغ بعضهم مبلغ الوزارة ، ونظر إليهم المسلمون نظرهم إلى إخوان ، حتى أصبح الأندلس موئلا اليهود ، بل إن حركة بعث اللغة العبرية والأدب العبرى بدأت في إسبانيا ، نشأت ونمت بين أظهر المسلمين وتحت أعينهم ، بل كان بعض علماء المسلمين يعينون اليهود على إنشاء نحو لغتهم . ولقد استعرب اليهود منذ زمن مبكر ، فأخذوا لغة العرب وملابسهم واندرجوا في غمارهم (٢) .

٢٤٩ - تنظيم جماعات اليهود ليست لدينا مراجع عربية أو عبرية عن أحوال جماعات اليهود في الأندلس الإسلامية ، ولكن القوانين والمنشورات التى أصدرها ملوك إسبانيا النصرانية عندما سقطت بلاد الأندلس الإسلامية في أيديهم واحدة بعد أخرى ، تعطينا فكرة عن تنظيم هذه الجماعات في ظلال الإسلام . وجددير بالملاحظة أن أمراء المسلمين وخلفاءهم لم يصدروا تشريعات خاصة باليهود ، مما يفهم منه أنهم كانوا متساوين مع بقية السكان ، فلم تكن هناك حاجة إلى تشريعات خاصة لهم ، بعكس ما حدث عندما سيطرت النصرانية على البلاد ، إذ أُفرد اليهود بمعاملة خاصة ، ومضايقات انتهت بالقضاء عليهم في إسبانيا كلها . وهذا وحده يكفى للدلالة على فضل المسلمين على يهود إسبانيا ، وهو فضل لم

IBIDEM. III, 132.

(١)

LÉVI - PROVENÇAL, Histoire..., I, p. 80 - 81.

(٢)

يُغن مؤرخ يهودى واحد بالإشارة إليه : لقد أظلمهم الإسلام واستنقذهم من أذى القوط والكنيسة ، وبسط عليهم أمراء المسلمين أمانهم ، فلما زال أمر المسلمين من إسبانيا كان ذلك إيذاناً بزوال أمر اليهود أيضاً .

وتبدو لنا جماعات اليهود ، في الوثائق الإسبانية ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادى، منظمة تنظيمياً دقيقاً . وليس من المعقول أن جماعات اليهود كانت على هذا التنظيم من أول الأمر ، ولكن الطبيعي أن يكون قد بدأ في صورة بدائية ، ثم تكامل مع الزمن ، وقد أتاح له الحكم الإسلامى فرصة هذا التكامل ، بما ضمن من حقوق الذميين ، ومنهم اليهود .

رأينا في كلامنا عن الفتح كيف أن المسلمين كانوا إذا وجدوا في بلد يهوداً جعلوهم في جملة حرس المدينة ، و« ضمواهم إلى القصبه » أى أنهم أوسعوا لهم مكاناً في الجزء المحصن من البلد ، وهو القصبه . ومن الطبيعي أن يتجمع اليهود في جزء معين من القصبه ، وهذا الجزء هو الذى أصبح مع الزمن حى اليهود أو حارة اليهود ، وحارة هنا تعنى حياً أو قسماً من المدينة ، كما هو الحال في المغرب إلى اليوم ، إذ تقسم المدينة إلى حارات ، وهذا الحى أو الحارة هو الذى عُرف فيما بعد باسم اليهودية أو الخودية *Judería* في مصطلح إسبانيا النصرانية .

٢٥٠- حكومة وتسمى جوالى اليهود في النصوص الإسبانية باسم عربى : *aljama* الجماعات اليهودية (الجماعة) ، ويغلب أن يطلق هذا الاسم على جماعة اليهود في النواحي الداخلة في دولة الإسلام ، أو في نواحي قشتالة وليون التى تأثرت بالحضارة العربية بصورة ظاهرة ، أما النواحي التى لم تتأثر بالحضارة الإسلامية إلا قليلاً ، مثل قطلونية ، فالغالب أن تسمى باسم عبرى : *Kahal* . وكان يرأس كل جماعة نفر من الظاهرين منهم يسمى الواحد منهم « *البرور* » ، وكان لهذا النفر مجلس يسمى « *البروريم* » (*البرورين*) وقد يسمى البرور مُقَدِّماً (الجمع في العبرية مقدميم = مقَدِّمين) أو نعمان (والجمع نعمانيم *Ne'emanim*) . وكان لكل جماعة نفر من المستشارين يُعرفون عادة باليوعاظيم (الواعظين) ، ويغلب أن لفظ مُقَدِّم غلب في جماعات اليهود التى أقامت في البلاد الإسلامية ، وقد تُرجم هذا اللفظ إلى الإسبانية عندما زال أمر الإسلام ، فأصبح المُقَدِّمون في المدن التى استغلبها النصارى يعرفون باسم أدلانتادوس (*adelantados*) أو (*Adenatados*) .

وكان البرورون والمقدمون والنعمانون يُنتخبون أول الأمر ، ثم أصبح السابقون منهم يعينون من يخلفهم ، وكانت مدة ولايتهم عاماً ، وقد اختلف عددهم من مدينة لأخرى بحسب حجم الجماعة اليهودية وأهميتها . وكانوا مسئولين أمام الحكومة الإسلامية عن كل ما يتصل بالجماعة من ضرائب والتزامات أخرى .

وكما كانت للنصارى قوانينهم ، فكذلك كانت لليهود قوانينهم وقضاةم ، وكانت الإدارة الإسلامية لا تتدخل في شئونهم ، بل كان للجماعة اليهودية الحق في تطبيق ما تصدره محاكمها من عقوبات . وفي الحالات التي كان الخلاف فيها يقع بين مسلمين ويهود ، كان الأمر يُرفع لقاضى المسلمين .

وكانت لليهود يتبعهم التي تُقام فيها صلواتهم ، وكانوا أحراراً في ذلك لا يعرض لهم المسلمون في شيء ، وليس لدينا دليل على أن حى اليهود كان يحاط بأسوار في البلاد الإسلامية ، بخلاف الجودريات في البلاد النصرانية ، فقد كانت لها أسوار عالية . وكذلك كان الحال في بقية بلاد النصرانية ، فقد عرفت في بولندا وألمانيا باسم الجتو Ghetto . وكانت العلاقات بين المسلمين واليهود متصلة مطلقة من كل قيد ، مما جعل اليهود يسرعون بالاندماج في الجماعة الإسلامية ، فاستعربت ألسنتهم وأخذوا لباس المسلمين ، وأسلمت منهم جماعات كثيرة مع الزمن^(١) .

وبعد ، فهل أجدى ذلك على الإسلام والمسلمين شيئاً ؟

كانت النتيجة أن وقف اليهود إلى جانب النصارى عندما بدأ الصراع بين الجانبين على مصير إسبانيا ، ووضعوا أنفسهم في خدمة الغزاة يقومون لهم بنفس المهمة التي قاموا بها

(١) اعتمدنا في جمع هذه المعلومات على ما كتبه اليهود عن تاريخهم في إسبانيا ، ومن الغريب أن نقرأ منهم يستطرد عن أحوال اليهود في الأندلس الإسلامي كأنهم يتهربون من الاعتراف بفضل المسلمين ، وفريق آخر منهم ينكر الواقع ويتحامل على المسلمين . وجدير بالملاحظة أن كثيراً جداً من هذه المؤلفات كتب قبل اعتداء اليهود الحالى على العرب واختصاصهم قطعة من فلسطين لإنشاء دولة فيها ، مما يدل على أن اليهود - حتى علماءهم - كانوا يضررون العداوة والكيد للمسلمين منذ زمن طويل . انظر .

ABRAHAM A. NEUMAN, The Jews in Spain. (Philadelphia. The Jewish Publication Society of America) 2 volumes. 1948.

FRITZ BOER, Die Juden in Christlichen Spanien.

JACOB, Sources of Spanish _ Jewish History (New York 1894).

J. PERLES, Rabbi Salomo ibn Abraham ibn Aderth. (Breslau 1863).

للمسلمين . وإذا نحن فرسنا موقف اليهود من الدولة القوطية بما كانوا يلقون منها من العنت ، فما تفسير خيانتهم للمسلمين ولم يلقوا منهم إلا خيراً ؟ لقد أحسن المسلمون في القرن الحادى عشر بخطأ أجدادهم فيما جروا عليه من تسامح وإكرام مع اليهود ، ولكن الوقت كان قد فات ! بيد أن الإسبان أنفسهم تكفلوا بسداد الدين لليهود ، فما كاد الأمر يستتب لهم حتى بدأوا يطاردون اليهود قبل أن يطاردوا المسلمين ، وما زالوا يلحون عليهم حتى استأصلوا شأفتهم من البلد الذى تحنونه أكثر من مرة . وفرَّ من نجا بحياته منهم إلى المغرب ونواحي البحر الأبيض وهم اليهود السُّفَراديين ، وهم نصف يهود العالم اليوم . والنصف الآخر هم الأشكنازيون ، وهم سلائل أولئك الذين ذكرنا أنهم فروا أمام اضطهاد الرومان والكنيسة الكاثوليكية إلى بلاد الجرمان والصقالية ، تكاثروا هناك وانضمت إليهم جماعات من الهارين من انفجارات العداوة التى كانت تثور بهم في بلاد أوروبا الغربية ، وفي ألمانيا وبولندا ونواحي روسيا ، عاشوا في مخابىء وأحياء مقفلة تسمى الجُتُّ ، ولم ييارحوها إلا مع العصور الحديثة . ثم تجمع اليهود جميعاً على أيامنا ونسوا ما أسلف إليهم الناس جميعاً من أذى ، ولم يصحح لهم هدف في الحياة إلا القضاء على العرب والمسلمين ، وما أحسن إليهم في التاريخ أحد يمثل ما أحسن العرب والمسلمون ..

* * *

الفضل الحادي عشر

الإدارة والمال

٢٥١- قلة لم تصمت مراجعنا العربية - الأندلسية وغير الأندلسية - عن ناحية من المراجع عن شؤون الإدارة والمال . فعلى طول التاريخ الإسلامي وعرضه ، ليس لدينا بيان رسمي واحد عنيت دولة من الدول الإسلامية بوضعه ، تورد فيه النواحي الداخلة تحت سلطانها وحدودها ، وما يتبع كلاً منها من المدن والقرى بوصفها وحدودها ، وما يتبع على أهلها من مال ، وما كان لهؤلاء الناس من حقوق مختلفة الأوضاع القانونية على الأرض وما فيها ، كما هو الحال فيما يتصل بنظم الدولة الرومانية . واعتادنا فيما يتصل بالمشرك على بضعة بيانات نقلها بعض المؤرخين والجغرافيين ، عن أوراق وقعت بين أيديهم بطريق المصادفة ، تحدد دخل جزء من الدولة أو نفقاته في فترة معينة ؛ ومثال ذلك البيان الذي أورده ابن خلدون في « المقدمة » ، نقلًا عن خط رجل يسميه أحمد بن محمد بن عبد الحميد « بما يحمل إلى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي ، نقلته من جراب الدولة »^(١) . وهو بيان ناقص لا يبين إلا دخل جزء من أجزاء الدولة ، وهو بعد ذلك حافل بالمشاكل ، سواء فيما يتصل بأسماء النواحي وتقسيمها ، أو معاني المصطلحات التي يستعملها .

ومثال ذلك أيضاً البيان الذي أورده قدامة بن جعفر في جزء من « كتاب الخراج » نشره دى خويه في ليدن سنة ١٨٨٩ ، عن دخل الدولة العباسية أيام المعتصم^(٢) ، وهو بيان مضطرب في حاجة إلى دراسة طويلة . وهناك بيان ثالث وصل إلينا عن طريق المصادفة البحتة ، فقد أراد الوزير على بن عيسى بعد عزله أن يقدم للخليفة المقتدر « حساباً » عما وصل إليه من أموال الجباية وما أنفق منها ، وقد عثر البارون ألفريد فون كريمر على ذلك الحساب ونشره ؛ وهو بيان خاص لا نستطيع الاعتماد على ما فيه اعتماداً تاماً ، نظراً لأنه صادر عن وزير في موقف الدفاع عن نفسه^(٣) .

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ط. بولاق ، ص ١٥٠ - ١٥١ .

(٢) أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي : نبد من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، لايدن ١٨٨٩ ، ص ٢٣٧ - ٢٤٠ .

ALFRED VON KREMER, Einnahmebudget des Abbassiden Reiches.

(٣)

وهذه البيانات كلها لا تعيننا على رسم صورة كاملة لتقسيم الدولة الإداري وشؤونها المالية، حتى إذ استعنا في فهمها بالشروح التي أوردها الخوارزمي في كتابه القيم «مفاتيح العلوم»^(١) للمصطلحات المالية، وبالتفصيل الطيب للمصطلحات الجغرافية والإدارية الذي أورده ياقوت في مقدمة «تقويم البلدان». وربما كانت مصر أوفر البلاد الإسلامية حظاً من هذه الناحية، نظراً لما لدينا من الوثائق البردية ذات القيمة العظيمة، ونظراً لاهتمام بعض مؤرخي مصر، كالمقريزي في «خططه» والقلقشندي في «صبح الأعشى»، والنويري في «نهاية الأرب»، بالكتابة في مسائل الإدارة والتقسيم الإداري وشؤون المال.



ولكننا لا نملك، فيما يتصل بالأندلس، شيئاً يشبه ذلك. وبين هذا الحشد الإداري - tot - التقسيم الحافل من المؤلفات الأندلسية في كل فن، لا نجد مؤلفاً عنى بناحية كالتى عنى بها المقريزي والقلقشندي والنويري؛ حتى ابن حيان، أمير مؤرخى الأندلس، لم يجِدْ علينا الزمان بنسخة كاملة من تاريخه، وليس في القطع التى بين أيدينا منه شئ يتناول التقسيم أو التنظيم الإداري، بل لم يورد لنا بياناً شافياً عن نواحي الدولة وأموالها، مع أنه وأباه كانا من كُتَّاب الدولة ورجال الدواوين، ومع أنه كان ينقل عن أحمد بن محمد الرازي وابنه عيسى بن أحمد، وكان كلاهما من عمال الدولة وخواص الأمراء.

ولا يعلل هذا الصمت إلا بافتراض أن التقسيم الإداري للأندلس والجبليات التى تقررت على النواحي لم تكن، بالنسبة للأمراء أو كتابهم، مسألة تستوقف الاهتمام والنظر، كأن العرب حينما دخلوا البلد وجدوا فيه نظاماً إدارياً جارياً ثابتاً صالحاً فجروا عليه، دون الحاجة إلى إعادة التخطيط والتنظيم، وكان الظروف العامة في الأندلس، إلى سقوط الخلافة الأموية على رأس المائة الخامسة للهجرة، كانت مستقرة بصفة عامة، وكان مقادير الجبليات كانت وافرة طوال هذه الفترة، فلم تقع الدولة في أزمات مالية وإدارية كالتى تعرضت لها دولة العباسيين، أزمات جعلت الناحية المالية هى المشكلة الرئيسية للخلافة العباسية من أواخر القرن الهجرى الثالث، ولم يتورط الأمراء والخلفاء الأندلسيون في تلك الأخطاء الفادحة التى زعزعت الأسس العامة التى قامت عليها دول المشرق، فاضطرت إلى إعادة التنظيم والروك، وزيادة الجبليات وابتكار الجديد منها، وما إلى ذلك.

(١) الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب: كتاب مفاتيح العلوم (صهنة سنة ٣٦٦هـ) القاهرة ١٣٤٤هـ، ولابن ١٨٩٥.

٢٥٢ - كتاب وهذا - على الأقل - هو ما يبدو لنا مما بين أيدينا من تاريخ الأندلس . فعلى الأندلس وتقسيمه الإداري الرغم مما يجعل به هذا التاريخ من أخبار الفتن والثورات ، فإن الحال كان دائماً رخياً والناس في سعة ، وبيت المال عامراً بالدخل والمدخر ، حتى في أيام فتنة العرب وأهل الذمة التي شغلت الأندلس من أواخر إمارة محمد إلى منتصف عصر عبد الرحمن الثالث ، لا نسمع عن إفلاس بيت المال أو مصادرات العمال والوزراء والتجار التي يجعل بها تاريخ دول المشرق ، وهذا أمر لا يمكن أن يتج إلا عن رخاء شامل جعل عامة السكان بنجوة من الفقر المدقع الذي يؤدي إلى الثورة ، ولا يمكن أن يكون إلا إذا كانت هناك موارد مستمرة منتظمة لثروة الأفراد والدولة ، مما لا يمكن أن يتحقق إلا مع افتراض وجود نظام إداري سليم وتنظيم مالي صالح ، هذا بالإضافة إلى الحكمة الإدارية التي اتصف بها الأمراء والخلفاء ، والتزاهة - النسبية - في شؤون المال والحكم التي اتصف بها الوزراء والعمال ورجال الدولة في العاصمة والنواحي .

وهذا الاستقرار الإداري والاقتصادي ، هو الذي صرف المؤرخين والجغرافيين عن الموضوع ، لأن مؤرخ التاريخ الإسلامي إنما يؤرخ عادة للحوادث الجسيمة والثورات والفتن والاضطرابات ، فإذا لم يجد من ذلك شيئاً ملاً فراغ صفحاته بأخبار الشعراء والكتّاب والفقهاء ومن إليهم . وإن الناظر إلى تاريخ دول المشرق في موجز تاريخي جامع ، مثل « الكامل » لابن الأثير ، ليجد أن المشكلة الرئيسية التي دار عليها تاريخ المشرق حتى نهاية العصر العباسي الأول هي مشكلة الحكم : من يحكم ومن لا يحكم؟ من يرث الخلافة ومن لا يرثها؟ وابتداء من خلافة الواثق تختفي مشكلة الحكم لتحل محلها المشكلة المالية ، فقد كانت الدولة في حالة إفلاس حقيقي من عهد المتوكل ، وعلى صخرة الأزمة المالية تتهاوى الخلفاء والوزراء والكتّاب ، وعجز الجميع عن أن يجدوا لها حلاً ، وانتهى الأمر بزوال الدولة كلها جملة .

وواضح أن المشكلة المالية بدأت من أول يوم قامت فيه دولة بني العباس ، فقد تربيع خلفاؤها على امبراطورية واسعة تضم ولايات فسيحة ، لكل منها طبيعة وأحوال خاصة ، فكان لا بد من وضع نظام إداري وآخر مالي ، ولم يوضع هذا ولا ذلك . ومضت الأيام والخليفة لا يعرف ما عنده وما ليس عنده ، والرعية لا تعرف ما عليها ، ولم يتبته إلى الأمر أحد طالما كانت الدولة في سعورها والجباية وافرة ، ولكن الإنفاق كان دائماً أكثر من الوارد ،

وقد أحسن بذلك هارون الرشيد فطلب إلى أبي يوسف القاضي أن يضع له دستوراً إدارياً مالياً، فوضع له مبحثاً فقهياً لم يتتبع به الرشيد أو من جاء بعده. وجاء يوم وجد الخليفة فيه بيت المال خالياً، فبدأ في مصادرة أموال الناس، ونظر الوزراء والكتّاب إلى المكوس والمغارم والمعاون يقتضونها من الناس قسراً، فثبّت المهتم وأخذت الثروة القومية تتلاشى، ونزر الوارد إلى بيت المال شيئاً فشيئاً، حتى وصلت الدولة إلى الإفلاس، وبدأت مأساة تصفية الدولة العباسية من القرن الرابع الهجري.

أما في الأندلس فلم يحدث من ذلك شيء، وهذا ما يجدوننا إلى القول بأنه لا بد أنه كان هناك نظام إداري مالي ثابت سليم، لأن الثروة الطبيعية للبلاد لا تغنى شيئاً إذا كان النظام فاسداً. فقد كان «ارتفاع» الأهواز مثلاً مضرِب المثل، ولكن سوء النظام وفساد ذمم العمال هبطها إلى حضيض الفقر البالغ. ومصر كذلك كانت من أغنى بلاد دولة الإسلام في المشرق، ولكنها أفلست تماماً في منتصف العصر الفاطمي بسبب سوء الإدارة وفساد النظام المالي، وتوالت عليها المجاعات والغلوات والمحن التي يُفصّلها ويشرح أسبابها المقرئ في كتابه الفريد في بابه «إغاثة الأمة وكشف الغمة». ولستنا نجد في الأندلس شيئاً يشبه ذلك: لا نجد أميراً أو خليفة يمسح أراضى الدولة أو يعيد تحديد الأقسام الإدارية، لا نجد كوراً يُجمع بعضها إلى بعض أو تقسم تقسيماً جديداً لمواجهة ظروف إدارية طارئة، ولا نجد جبايات ثقيلة تُفرض على الناس فيشكون منها. وهذه ظاهرة لا تُفسّر إلا بما قلناه: وجد العرب تقسيماً إدارياً مستقراً صالحاً، فأخذوه كما هو، ووضع العرب من أول الأمر نظاماً مالياً لم يحتاجوا بعد ذلك إلى تغييره، ومضى العمل به على ما هو عليه، ولم يتعرض واحد من النظامين لشيء من التغيير الحاسم يستوقف انتباه المؤرخين.

ثم إننا نجد أن كل التفاصيل التي لدينا عن تقسيم الأندلس إلى كور وأقاليم تتفق فيما بينها اتفاقاً واضحاً مع اختلاف العصور التي كتبت فيها، وحتى مع افتراض أن كل ما كُتِبَ بعد الرازي أخذ عنه، فلا يعقل أن ينقل عنه أحمد بن عمر بن أنس العذري المتوفى سنة ٤٧٨ / ١٠٨٥، وأبو عبيد البكري المتوفى سنة ٤٨٧ / ١٠٩٤، ومحمد بن أيوب بن غالب الغرناطي المتوفى في أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، وأبو الحسن علي ابن سعيد المتوفى سنة ٦٨٥ / ١٢٨٦، ومحمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري الذي كتب في سنة ٨٨٦ / ١٤٨١، وغيرهم كثيرون، دون أن يشير واحد منهم إلى تعديل أو تغيير

أصاب نظام الكور وحدودها وما يتبعها من المدن رغم اختلاف الأعصر التي كتبوا فيها . ولقد زار الأندلس رحالة كابن حوقل ، وكتب عنه جغرافيون كابن الفقيه وابن رسته والإصطخرى والمقدسى ، وهم جميعاً ممن يهتمون بالتقسيمات الإدارية ونظم المال ، فلم يبين أحد منهم حقيقة ذلك التقسيم أو التعديلات التي أدخلت عليه ، بل وقف ياقوت طويلاً عند مصطلحات الأندلسيين الإدارية ، وبيّن الفروق بينها وبين ما يستعمله أهل المشرق ، دون أن يشير إلى أصول هذه المصطلحات وما يمكن أن يكون قد نالها من التغير والتعديل . وكل ذلك يلقي في الروع أن الرازي ، عندما كتب « صفة الأندلس » ، إنما كان يكتب عن نظام مقرر ثابت لم يتكلف العرب في وضعه مشقة . وليس في ما بين أيدينا من كتب التاريخ إشارة إلى وضع هذا النظام أو من وضعه أو في أي وقت كان وضعه ، مما ينتهي بنا إلى القول بأن العرب وجدوا في الأندلس عند دخولهم تقسيماً إدارياً ثابتاً للبلاد ، فساروا عليه مع بضعة تعديلات شكلية اقتضتها الأحوال الجديدة - وسنشير إليها - واستبدلوا ما وجدوا من التسميات والمصطلحات بما حملوه معهم من المشرق ؛ وثبت الأمر على ذلك .

فإذا صح هذا الرأي ، فما هو هذا التقسيم ؟ هل هو تقسيم إسبانيا الإداري على عهد القوط ؟ ثم ، ما هو هذا التقسيم القوطي ؟ ما أصله وما حدوده ، وما هي درجة انطباقه على ما بين أيدينا من تقسيم الأندلس الإسلامي إلى كور وأقاليم ؟ .. أم هل هو التقسيم الكنسي إلى مطرانيات وديقونيات ؟

٢٥٤ - أصول التقسيم الإداري الإسلامي في الأندلس

من الثابت أن القوط لم يضعوا لإسبانيا تقسيماً إدارياً ، وأنهم قنعوا بالتقسيم الروماني الذي وجدوه في البلاد عند دخولهم ، فلنرجع إلى العصر الروماني لنتبع هذا التقسيم من أوله .

كانت للرومان عناية خاصة بالتنظيم الإداري ، فلا تكاد ناحية من النواحي تدخل تحت سلطانهم حتى يخضعوها للنظام الإداري العام لدولتهم ، ويجددوا وضعها السياسي داخل الدولة أو علاقتها بها إذا كانت مخالفة أو صديقة ؛ وكان مجلس الشيوخ لا يتفك بعيد النظر في النظم ويعدها أو يعيد وضعها بما يتفق مع الظروف القائمة . فلما اختفت الجمهورية وجاء عصر الامبراطورية تابع الأباطرة هذا الاهتمام ، ومن هنا كان لكل ولاية من ولاياتهم تاريخ إداري حافل بالتطورات . وفيما يتصل بإسبانيا سار هذا التطور جنباً إلى جنب مع امتداد سلطان الرومان على الجزيرة وتمكّن قبضتهم منها ، وتأثر إلى جانب ذلك بما قام في

البلاد من ثورات أو حركات معادية للرومان . وبينما من هذه التقسيمات كلها التقسيم الأول الذى وضع سنة ٢٠٦ قبل الميلاد ، والتقسيم الأخير الذى تم فى عهد دقلديانوس ، والذى يسمى عادة تقسيم قسطنطين أو « قسمة قسطنطين » كما يقول كُتَّابنا الإسلاميون .

٢٥٥ - تقسيم دقلديانوس المعروف بقسمة قسطنطين

فأما التقسيم الأول فهو الذى يجعل إسبانيا قسمين إداريين كبيرين ، يحكم كلاهما براتور Praetor فيما بعد ؛ هذان القسمان هما إسبانيا الدنيا - Hispania Ci-terior وإسبانيا القصوى Hispania Ulterior . وقد كان هذا التقسيم أساساً لكل تقسيم جاء بعده فى الفترة الرومانية ، فانقسمت إسبانيا القصوى فى عهد الامبراطور أجريتا سنة ٢٧ قبل الميلاد إلى ولايتى بيطى Betica ولشداية Lusitania . وفى أيام كاراكالا ظهرت ولاية إسبانيا الدنيا الجديدة الأنطونية Hispania Nova Citerior Antoniana وتضم إقليمى جليقية وأشتريس ، وفى عهد دقلديانوس ظهرت ولايتا إسبانيا الطركونية Hispania Tarraconensis وإسبانيا الفرطاجنية Hispania Cartaginensis^(١) . وهذا يصل بنا إلى تقسيم دقلديانوس الأخير الذى يُنسب إلى قسطنطين ، وبمقتضاه أصبحت إسبانيا ديقونية Diocesis - أى عملاً كبيراً بالمصطلح العربى - تابعة لمديرية الغالتين Praefectura Galliarum داخله فى القسم الغربى من الدولة الرومانية ، وهو التقسيم الذى وصل إلينا فى وثيقة رسمية اسمها : بيان بالوظائف الجليلة فى الدولة وغير ذلك Notitia dignitatum utriusque imperii^(٢) . وتضم إسبانيا بحسب هذا البيان ست ولايات Provinciae ، هى : باطقة Betica ، ولشداية Lusitania ، وجليقية - أشتريس Calicia Astúrica ، والولاية الطركونية ، والولاية الفرطاجنية ، ثم أضيفت إليها مرطانية الطنجية Mauretania Tingitana والجزائر الشرقية Provincia Balearica .

MANUEL TORRES. La Peninsula Hispanica, Provincia Romana. En Historia de España (١) dirigida por R. MENÉNDEZ PIDAL, II Madrid, 1935. p. 371 - 372.

(٢) نشرهذه الوثيقة الهامة seeck سنة ١٨٧٦ ، وانظر عنها أيضاً :

TH. MOMMSEN, Verzeichniss der römischen Provinzen aufgesetzt um 297. Abhandlungen der Berliner Akad. d. Wiss. Phil. Hist. Kl. 1862. S. 489 - 518. Gesammelte Schriften, vol. V. 1908, S.S. 561 - 588.

C. JULLIAN, De la réforme provinciale attribuée à Diocletien. Rev. Hist. XIX, 1882, p. 331 - 374.

وقد ذكر كُتَّابنا العرب هذه التسميات مع تحريفات ظاهرة ستحدث عنها فيما بعد ، فقال أحمد بن عمر بن أنس العنزي : « ... تمَّ ذِكر الأندلس الأول على قسمة قسطنطين ، وهو الذى جَزَّأها على ستة أجزاء : أضاف الثلاثة فسماها بالأندلس الأدنى ، وذلك من قرطاجنة الحلفاء ، وهى لورقة ، وجعل معها مدينة بلنسية ومدينة شاطبة ، لى أقصى الغرب ، وأضاف الثلاثة أيضاً فسماها بالأندلس الأقصى ، وذلك من أوربولة لى سرقسطة وما وازاها . وسماها غير قسطنطين بالأندلس الغربى وبالأندلس الشرقى ، وذلك بجزى الأنهار ؛ فما جرى منها لى الغرب سماه الغربى ، وما جرى أنهاره لى الشرق سماه بالشرقى . والقسمة من تدمير ، ونهرها جارٍ لى الشرق » (١) . وإذا نحن نظرنا لى التقسيم الرومانى الأول لى إسبانيا الدنيا وإسبانيا القصى تينا أنه ينطبق تماماً مع كلام العنزي ، فبما عدا المدن التى يذكرها ، فإن الحد الفاصل بحسب التقسيم الرومانى هو نهر تدمير بالفعل ، أما قوله إن بعضهم يسمى القسمين الأندلس الشرقى والأندلس الغربى فيفسره تصور الجغرافيين المسلمين للهيئة العامة لشبه الجزيرة الأيبيرية ، وهو تصور يجعل الساحل الشرقى لشبه الجزيرة كله ساحلاً جنوبياً تقريباً .

٢٥٦- قسمة ولأبى عبيد البكرى نص أكثر تفصيلاً وأهمية ، لا بالنسبة للتقسيم الإدارى قسطنطين كما أيام الرومان ، بل أيام المسلمين كما سنرى ، قال : « وَحَدَّتْ الأوائل الأندلس يعرضها البكري بعبارات مختلفة . وَحَدَّها قسطنطين حدوداً ستة : جعل الجزء الأول من حدودها من مدينة نربونة ، وهو حد ما بين غالوش (Gallos = الغاليون) وبين الأندلس (إسبانيا) وأضاف إليها سبع مدن مما حوالىها وهى بَطْرَش (Béziers = Betteris) بيزيه ، وطلُيُوشة (Tolosa = تولوز) ومَقْلُونَة (Maguelonne = Magallona) ، ونومشو (Nîmes - Nemauso) وقرقشونة . وفى قرقشونة هذه الكنيسة العظمى عندهم ، تسمى سُنْت مَرِيَّة غرائية (Sainte Marie de Grâce) وفيها سبع سوار من فضة ، ولها يوم عيد ترده العجم من الأفاق ، وبينها وبين برشلونة ٢٥ يوماً .

وجعل الجزء الثانى من مدينة براقرة (Braga = Bracara) ، وهو حوز جليقية

(١) أحمد بن عمر بن أنس العنزي : نظام المرجان فى المسالك والممالك (مخطوط بمعه للنشر الدكتور عبد العزيز الأهوانى) ورقة ١٧ .

وإسبانيانة (Celtiana) وهو بلد ابن غومس^(١)، وجعل لها اثنتي عشرة مدينة مما حوالها، منها: مدينة برطقال (Portus Gallensis = بورتو)، ومدينة تُوْدَى (Túy = Tude) ومدينة أُورِيَّة (Orense = Auria = Sedes Auriensis)، ومدينة لُكُّه (Lugo = Lucus Asturicum) ومدينة برطانية (Santa Maria de Bretoña = Bri- tonia)، ومدينة أشرقة (Astorga = Asturica)، ومدينة شنت ياقو (Santiago)، ومدينة كنيسة الذهب^(٢)، ولها يوم يرد فيه من أفرنجة ومن رومة ومن جميع نواحيهم كلها. ومدينة إيرية (Iria = Iria Flavia وتسمى اليوم Padrón)، ومدينة بطقة، ومدينة شازة (Sarría).

وجعل الجزء الثالث من مدينة طركونة (Tarragona - Tarracona) وأضاف إليها مدينة سرقسطة وأشقة (Huesca = Osca) وتسمى أيضاً وشقة (ولاردة وطرطوشة وتطيلة، وأعمال بلدان ابن شانجو كلها^(٣)، وبلد بليارش (Pallars)، وبرشلونة وجرندة (Gerona)، ومدينة أنبورش (Ampurias)، ومدينة بنبلونة ومدينة أوقه (Oca = Auca) ومدينة قلهرة (Calagurris = Calahorra)، ومدينة طرسونة (Tarazona)، ومدينة أماية (Amaya) وتكتب أيضاً أمايا).

وجعل الجزء الرابع عشرين مدينة، قاعدتها مدينة طليطلة، وأضاف إليها مدينة أوريط (Oreto = Oretum)، ومدينة شقوية (Segovia)، ومدينة أركبيقة (Ercávica)، ومدينة وادي (الحجارة)، ومدينة شغونسة (Sigüenza)، ومدينة أكشومة (Osma = Oxuma)، ومدينة بلنسية، ومدينة بلازيا (Palencia = Palentia?)، ومدينة أوربولة، ومدينة ألش (Elche)، ومدينة شاطبة، ومدينة دانية، ومدينة بياسة (Baeza)، ومدينة قسطلونة (Cazlona = Castulona)، ومدينة منتيشة (Mentesa)، ومدينة وادي آش

(١) في القرن الحادي عشر كان الإقليم الواقع في الركن الشمالي الغربي من إسبانيا فيما بين شنت ياقب والبحر يسمى بلاد الكلكت Celticos.

أما ابن غومس، فالمراد به على الأغلب غرسية بن فرناندو الأول ملك جليقية في أيام البكري (ملك من ١٠٦٥ إلى ١٠٧١).

Cf: LÉVI - PROVENÇAL, La Péninsule Ibérique, p. 247, n. 3 - 4.

(٢) يبدو أن هنا اضطراباً في سياق الكلام. وقد يستقيم المعنى إذا قلنا: و [هي] مدينة كنيسة الذهب ...

(٣) المراد هنا شأنه الرابع ملك نبرة، وقد حكم بين سنتي ١٠٥٤ و ١٠٧٦.

Cf: LÉVI - PROVENÇAL, La Péninsule Ibérique, p. 248. n. 1.

(Guadix) ، ومدينة بسطة (Baza) ومدينة أرش (Urci) وهي بجانة (Pechina) (١) .

وجعل الجزء الخامس قاعدته مدينة ماردة ، وأضاف إليها اثنتى عشرة مدينة، وهي: باجه (Beja) ، مدينة أكشونيه (Ocsonoba) ، ويابره (Evora) وشنتره (Cintra) ، وشنترين (Santarem) ، والأشبونة وقلمرية (Coimbrá) ، وقورية (Coria = Cauri) ، وشلمنتقة (Salamanca = Salamantica) ، وضموره (Zamora) وهي معدثة برأ إلى شنت ياقوب .

وجعل الجزء السادس قاعدته مدينة إشبيلية ، وأضاف إليها لبله (Niebla) وقرطبة وقرمونة ومورور (Moron) ومرشانة والجزيرة (Algeciras) وتاكرنا وريه وأشونه (Osuna) واستجه (Ecija = Astigi) وقبره وأعماها إلى بجانة ، واليرة وجيان ومنتيه (?) وباكرته (?) وأبذه (Ubeda) وبياسة (Baeza) (٢) .

وخلاصة كلام أبي عبيد البكري أن تقسيم قسطنطين يجعل إسبانيا ستة أقسام كبرى يسميها أجزاء ، وكل قسم يتبعه عدد من المدن كما يلي :

١ - قسم نربونة : ويتبعه ٧ مدن لم يذكر البكري منها إلا خمساً ، هي : بطرش - طليبوشة - مقلونة - نومشو - قرقشونة .

٢ - قسم برافرة : وهو حوز جليقية وبلاد الكلث ، وتتبعه ١٢ مدينة لم يذكر البكري منها إلا ١١ هي : برطقال - توذي - أوربة - لكة - برطانية - أشترقة - شانت ياقو - مدينة كنيسة الذهب (كذا) - إيربة - بطقة - شارة .

٣ - قسم طركونة : ويتبعه ١٤ مدينة هي : سرقسطة - أشفه - لاردة - طرطوشة - تطيلة - بلياراش - برشلونة - جرنده - أنبورش - بنبلونة - أوقة - قلهرة - طرسونة - أماية .

(١) يلاحظ أن الإقليم المجاور للعرية وبجانة كان يسمى أرش اليمن ، وقد ذهب ابن عبد المنعم الحميري في مادة بجانة إلى أن الأرض من الأرض وهو العطية أي التُّخلة ، أي أن أرش اليمن معناه الإقليم الذي منح لليمنين ، وهذا غير صحيح ، وأصل أرش هنا لفظ Urci القديم ، وهو موضع قديم في تلك الناحية .
انظر : الترجمة الفرنسية للروض المعطار ، ص ٤٧ ، هامش ٣ .

(٢) أبو عبيد البكري : قطع من جغرافية البكري نشرها ليفي بروفنسال ذليلاً على ترجمته الفرنسية لـ «الروض المعطار» .
LÉVI - PROVENÇAL, La Péninsule Iberique, pp. 246 - 249.

وأدخل في ذلك الجزء « أعمال بلد ابن شانجه كلها » أى نيره (نافار) .

٤ - قسم طليطلة : ويتبعه ٢٠ مدينة ذكر منها ١٨ هى : أوريط - شقوية - أركييقة - وادى الحجاره - شغونسة - أكشومة - بلنسية - بلازيا - أوريوالة - ألس - شاطبة - دانية - بياسة - قسطلونة - متيشة - وادى آس - بسطة - أرش (بجانة) .

٥ - قسم ماردة : ويتبعه ١٢ مدينة ذكر منها ١٠ هى : باجة - أكشونة - يابرة - شترة - شترين - الأشبونة - قلمرية - قورية - شلمتقة - صمورة .

٦ - قسم إشبيلية : ويتبعه ١٧ مدينة هى : لبله - قرطبة - قرمونة - مورور - مرشانة - الجزيرة الخضراء - تاكرنا - ريه - أشونة - استجة - قبرة (وأعمالها) - البيرة - جيان - متيتة (?) - باكرتة (?) - أبذة - بياسة .

ونلاحظ ما يلى :

١ - أن البكري لا يعطى الأجزاء أسماء واضحة ، ولا يضع لها حدوداً بل يكتفى بالقول : « جعل الجزء الأول من حدودها من مدينة نربونة » و « جعل الجزء الثالث من مدينة طركونة » ، والمراد بهذا على الأغلب : « من حد مدينة نربونة » و « من حد مدينة طركونة » ، ويراد بذلك الزمام الذى يتبع المدينة بحسب النظام الرومانى كما سنرى .

٢ - أنه لم يذكر قواعد الأجزاء إلا فى ثلاث حالات : الرابع وقاعدته طليطلة ، والخامس وقاعدته ماردة ، والسادس وقاعدته إشبيلية .

٣ - المفهوم ضمناً أن لكل مدينة مما يذكر أعمالاً تابعة لها ، فهو يقول مثلاً : « وقبرة وأعمالها إلى بجانة » ، ويقول مرة أخرى : « وصمورة وهى محدثة برا إلى شنت ياقوب » ، وهى عبارة جعلها ليفى بروفنسال فى ترجمته الفرنسية :

Zamora (Samura) ville de fondation moderne, dédiée à Saint Jaques.

أى أنه قرأ برا بكسر الباء ، وفسر « إلى شنت ياقب » بقوله : « بشت ياقوب » . ونفضل نحن أن نقرأ العبارة : « وصمورة ، وهى محدثة ، [وأعمالها] برا إلى شنت ياقوت » قياساً على « وقبرة وأعمالها إلى بجانة » .

٤ - وقد سميت الأجزاء إما باسم القاعدة ، كما هو الحال فى الأجزاء الرابع والخامس

والسادس ، أو بالنسبة إلى المدينة الرئيسية فيه ، التى يميزها بقوله مثلاً : «جعل الجزء الأول من حدودها من مدينة نربونة » ، أو « وجعل الجزء الثانى من مدينة براقرة » ، ويريد أن الجزء يُحكم من المدينة التى يذكرها .

* * *

وإذا نظرنا إلى هذا التقسيم وجدناه ينطبق تماماً من حيث الأجزاء على تقسيم دقلديانوس البرونسيات (ولايات) تماماً أجزاء قسطنطين بحسب رواية البكرى ، وينطبق كذلك على تقسيم دقلديانوس الذى وصل إلينا فى وثيقة سنة ٢٩٧م التى أشرنا إليها ، وإليك جدولاً مقارناً يوضح هذه الحقيقة:

تقسيم دقلديانوس برونسيات (ولايات)	تقسيم قسطنطين أجزاء	التقسيم الكنسى مطرانيات	قواعد الأجزاء
جلبقية أشتريس	ما بين جاليوش والأندلس	أربونة	نربونة
طركونة	حوز جلبقية	جلبقية	براقرة
قرطاجنة	طركونة	طركونة	طركونة
لُشدانية	طليطلة	قرطاجنة	طليطلة
باطقة	ماردة	لُشدانية	ماردة
	إشيلية	باطقة	إشيلية

ويلاحظ أن تقسيم دقلديانوس لا يجعل ولاية نربونة داخله فى ديقونية إسبانيا وإنما فى ديقونية غالة ، وكانت الاثنان تكونان مديريةية الغاليتين Praefectura Galliarum كما قلنا.

وقد أضيفت إلى ديقونية إسبانيا فى نفس عهد دقلديانوس ولاية مرطانية الطنجية (Mauretania Tingtana) ، وهى إقليم طنجة أو ما عرف فيما بعد باسم العدوة الإفريقية. وفيما بين ٣٧٠ و ٤٠٠ ميلادية أضيفت إلى إسبانيا ولاية الجزائر الشرقية (Provincia Balearica).

وستقف عند هذا التقسيم قليلاً ، لأنه فيما نعتقد الأساس الذى قام عليه كل تقسيم إدارى آخر لشبه الجزيرة ، بما فى ذلك التقسيم العربى ، لأن شبه الجزيرة الإيبيرية مقسم

طبيعياً إلى أقسام تصلح بهيتها الجغرافية لأن تكون أقساماً إدارية ، وخاصة بالنسبة للأقسام الصغيرة . وإذا كان تقسيم إسبانيا إلى عمالات كبيرة ، ثم تقسيم هذه العمالات إلى مديريات قد مر في أودار مختلفة ، حتى انتهى إلى الصورة التى ثبتت عندها في تقسيم دقلديانوس سنة ٢٩٧ ميلادية ، فإن تقسيم هذه المديريات إلى أقسام إدارية أصغر لم يكلف الرومان أى عناء ، بل يبدو أن الرومان وجدوا هذه الأقسام الصغيرة قائمة ، فلم يكن عليهم إلا أن يثبتوا حدودها الجغرافية ويضعوها في الوضع القانونى الذى ينسجم مع نظمهم الخاصة بالمدن والأقاليم . وهذه التقسيمات نفسها هى التى أخذتها الكنيسة وجعلتها أساساً لتقسيم المطرانيات إلى ديقونيات ، مع بعض تغييرات طفيفة اقتضتها مطالب التنظيم الكنسى (١) ، وأخذها العرب بعد ذلك مع إدخال تغييرات محلية في الغالب اقتضتها طبيعة النظام الإسلامى العام ، وستحدث عن ذلك في حينه .

* * *

ومن الواضح أن هناك تشابهاً بين الأسس العامة التى سار عليها كل من ٢٥٨ - المدينة
الرومان والعرب في تقسيماتهم الإدارية . فقد كانت « المدينة » هى الأساس أساس للتنظيم
الذى قام عليه التنظيم الإدارى السياسى الرومانى (٢) ، وكانت المدن هى الإدارى الرومانى
المراكز التى اعتمد عليها العرب أيضاً في الحكم والإدارة . ولقد انتفع العرب باهتمام الرومان بالمدن وتنظيمهم إياها وعنايتهم بإتقان بنائها وتزويدهم إياها بما استطاعوا تزويدها به من وسائل العمران المدنى ، ولا يبدو ذلك بصورة هى أوضح مما يبدو بها في الشام والأندلس . ففي الشام تعلق العرب بالمدن وتجمعوا فيها وجعلوها مراكز عسكرية ، وألحقوا بكل منها جانباً من الريف اعتبروه حوزاً للمدينة أو زمناً ، وهذا هو ما عرف بالأجناد . أما في الأندلس ، فكان شأن المدن أهم ، وكان الرومان عندما دخلوا البلاد ، قد وجدوا فيها مراكز ومواقع عامرة بالناس ، بعضها يلتف حول مدن كبيرة - (Civitas Civitates) وبعضها يلتف حول مدن بدائية أقرب إلى القرى (Gens - Gentes) .

MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES, en Hist. de España, dirigida por R. (١) MENÉNDEZ PIDAL, III, Madrid 1940. pp. 276 - 279.

MANUEL TORRES, en Hist. de España, dirigida por R. MENÉNDEZ PIDAL, II Madrid 1935, p. 379.

وكان مفهوم المدينة عند الرومان مفهوماً سياسياً واجتماعياً خاصاً ، أخذوه عن الإغريق وأضافوا إليه وعدلوه بما يناسب الطبيعة العسكرية السياسية الخاصة بدولتهم. وأصبحت المدينة مرادفاً لنظام سياسى يتضمن حريات وحقوقاً وواجبات معينة يعتبر الحصول عليها حصولاً على حق المواطنة الرومانية . فإذا دخل الرومان بلداً قسموه أقساماً بحسب طريقة دخول نواحيه في حوزتهم : عنوة أو صلحاً أو بمحالفة أو ما إلى ذلك . وقد يرفع الرومان مستوى بعض النواحي بعد زمن ويمنحونها حق المدينة أى حق المواطنة . ولم تكن المدينة عندهم مجرد مدينة ، بل كان لها زمام محيط بها (Orbs - is) تابع لها حكمه كحكمها وسكانه مواطنون فيها ، لهم ما لأهلها من حقوق وعليهم ما عليهم من واجبات . وإذا كان هذا الزمام واسعاً قسم إلى أقسام ، لكل قسم اسم ينسب إلى قرية كبيرة أو إلى زراعة غالبية عليه أو إلى ظاهرة معينة تميزه كسند جبل أو جبل أو ساحل أو سهل أو ما إلى ذلك . فلم تكن هناك نواح لا تتبع مدينة ما ، وإذا ذكرت مدينة قصد في نفس الوقت ما يتبعها من النواحي وقد ثبتت الرومان زمامات المدن وفضلوا أمرها فيما أصدروه من وثائق خاصة بها^(١).

وعندما ظهر نظام الولايات (Provinciae) في نهاية أيام الجمهورية الرومانية نشأت المديریات عن مجموعات من المدن وزماماتها ، وحددت مساحة كل منها بمعرفة لجنة خاصة من عشرة رجال ، وأصدر بمديریات كل ناحية من أملاك الرومان قانون خاص يحدد ما يتبع كلاً منها من المدن وأحوازها ، وفيما يتصل بإسبانيا لدينا قانون أو قائمة ولايات إسبانيا (Lex o Formula Provinciae Hispaniae) الذى يحدد ما يتبع كل مديرية من المدن والنواحي . وإذا كانت المديریات قد تكونت من زمامات ما أدخل في حوزها من مدن ، فإن الأساس الثابت للتقسيم الإدارى في إسبانيا كان المدينة وحوزها ، فقد تغيرت حدود المديریات من عصر لعصر ، أما زمامات المدن فقد ظلت ثابتة وظلت هى الأساس ، ومضى الأمر على ذلك بقية أيام الرومان وأيام القوط أيضاً .

وقد تحددت أحواز المدن بالوثائق التى كان يصدرها الرومان ، فقد كانوا أهل تنظيم وترتيب ، وعناية بتسجيل كل شىء ، وقد كانوا إذا فتحوا بلداً اجتهدوا في ترتيب أرضه وأهله : فأما الأرض التى وجدوها أو أدخلوها في حوزة مدينة فاحتفظ أهلها بالحقوق التى منحها الرومان للمدينة ، واعتبرت هذه الأرض (Municipia) من الناحية القانونية. وأما

الأرض التي استصفوها أو وجدوها طلبة لا تتبع أحداً فقد أنشأوا فيها المستعمرات (Co-loniae) وجلبوا إليها المعمرين (Coloni) لتعميرها لقاء ضريبة يؤديونها على أساس ما يمتلكه كل معمر من أرض . أما المدن نفسها فقد اختلف وضعها بحسب علاقتها بالرومان ، فهناك مدن دخلت في طاعة الرومان صلحاً ، وهناك مدن دخلت في طاعتهم عنوة . وكانت للرومان أسس قانونية معقدة خاصة بهذه المدن ، فمنها ما صالح الرومان بعقد صلح يجعلها حليفة لهم (Foedera) ، ومنها ما منحه الرومان وضع الخليفة (deditio) ، ومنها ما كان يمنح حق إنشاء مجلس بلدي له حق التصويت في المسائل الهامة ، ومنها ما لم يكن له هذا الحق (sine sufragio) ، ومنها ما كان يدفع للرومان جزية معينة (Stipendium) أو (Tributum) ، ومنها ما كان مُعْفَى منها . وكان للوضع الخاص بكل مدينة أثر عظيم في تاريخها خلال العصرين الروماني والقوطي ، سواء فيما يتصل بمركز البلد في الإقليم الذي يقوم فيه أو بطريقة حكمته لنفسه والحوز التابع له أو بعلاقته بالدولة المركزية : الرومانية أولاً ثم القوطية بعد ذلك .

والمهم لدينا أن هذا كله كان عظيم الأثر بالنسبة لوضع هذه البلاد ونواحيها في الدولة الإسلامية . فنلاحظ مثلاً أن معظم نواحي إسبانيا لم تقاوم الفاتحين المسلمين ، لأنهم عقدوا مع أهلها محادثات عملية تشبه تلك التي كانت قائمة بينهم وبين الرومان ، فلم يتغير عليهم شيء بدخول المسلمين ، ومن ثم فلم يكن هناك ما يدعو إلى المقاومة ، واستقر معظم هذه النواحي داخل الدولة الإسلامية استقراراً سلمياً قائماً على تعاقد مكتوب ، عقد حفظ لها حقوقها وحدد التزاماتها حيال الدولة الإسلامية . وقد احترم العرب هذه العهود ، حتى في أيام الفتن التي فصلتنا أمرها حرص العرب على ألا يمسوا المدن وأهلها ، وتبعت المدن نواحيها ، فكان ذلك من أوكذ أسباب الاستقرار والرخاء في الأندلس الإسلامي فيما بعد .

ومن المعروف أن أوضاع المدن قد تقارب بعضها من بعض خلال القرون الرومانية المتأخرة ، وأن أوضاع الناس قد تقاربت كذلك ، فلم يعد هناك إلا الأحرار والعبيد ، فأما الأحرار فكان منهم أهل المدن الأصلاء (Cives) وأهل النواحي التابعون لبلديتها (Muni-iceps) والمعمرين (Coloni) والزراع (Inculae) . وكانوا كذلك إما مدنيين تابعين لمشيخة البلد (Curia) أو أهل قبائل جرمانية لم يستقروا بعد تابعين لمشيخة القبيلة ، وكانت تكون من المشيختين هيئة تسمى (Comitia Tributa) أو (Comitia Curiata) تقوم

بحكم البلد والحوز التابع له ، يتقاسم رجال المشيختين الوظائف فيها^(١).

* * *

٢٥٩- القوط ولم يُدخِل القوط تغييراً ذا بال على هذه الأوضاع ، فقد حلوا في البلاد محل والتقسيم الروماني الرومان^(٢) ، وكانوا من الناحية القانونية معتبرين مجرد نازلين في البلاد بمقتضى العرف الروماني المسمى (Hospitalitas) وهو لفظ عسير الترجمة ، فمن الناحية اللغوية معناه « الضيافة » ، أما في الواقع فأخذ معنى الاستيلاء على نسبة معينة من الأرض والعقار ، أى أن الهوسبيتاليثاس كانت أول الأمر إذناً للقوطى في أن ينزل وعائلته « ضيفاً » على مزارع روماني مع إعطائه حق الملكية على ما يتنازل له عنه المزارع الروماني ويتزله فيه من بيت أو أرض. ثم أصبحت هذه الضيافة حقاً مقررراً للجرماني، يستولى بمقتضاه على أراض وعقارات . وربما أقطعت الدولة لحلفائها من الجرمان ناحية بأكملها ينزلونها مزارعين مع أهلها ويكون لهم في الواقع حق ملكيتها ، ومهما كانت الصورة التي نزل بها القوط أرض الدولة ، فإن الأمر انتهى بتملك القوط لما نزلوا به من النواحي على صورة تعبر عنها إحدى المدونات بقولها فيما يتصل بإنزال الدولة الرومانية للقوط في أقطانية : « إن أقطانية سلمت للقوط Aquitania Ghotis tradita » .

وكانت القاعدة في مثل هذه الحالة أن القوط كانوا يستولون على ثلثي الأرض ، ويتركون للمزارع الروماني أو اللاتيني أو الإيبيري الروماني الثلث فحسب ، أى أن كل قرية أو ناحية كانت تسلم ثلثي أرضها للنازلين بها من القوط ، وكانت القسمة تحدد تحديداً دقيقاً في حالة نزول الجرمانى الأرض واشتغاله بالزراعة بيده أو بواسطة عبيده ، أما في حالة عدم اشتغال الجرمانى بالزراعة ، فكانت القاعدة أن يفلح الناس الأرض ويسلموا ثلثي الغلة للقوط ، وكانت حصص القوط تسمى الأنصبية ، واحدها نصيب (Sors, sortes) ، أما الباقي بيد أهل البلاد فكان يسمى بالأنثلاث (Terciae)^(٣) . ولم تكن القسمة لتقتصر على الأرض ، بل كانت تشمل ما عليها من الدور والماشية والرقيق أيضاً. وخرجت من القسمة أراضي الغابات (Compascua) وأراضى المراعى، فقد تركت مشاعاً . أما الأراضي التي

(١) MANUEL TORRES, op. cit. p. 384.

(٢) ANTONIO BALLESTEROS y BERETTA, Historia de España y su influencia en la historia universal, tomo I (2a. ed Madrid, 1934. p. 909) .

(٣) MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES, op. cit. III. p. 151.

كانت تملكها الدولة فقد وضع ملوك القوط أيديهم عليها ، في حين دخلت الضياع الكبيرة (Latifundiae) في القسمة أيضاً ، وانتقلت ملكيتها لكبار القوط (١) .

وقد دخل القوط غالة وإسبانيا قبائل ، يرتبط أفراد كل قبيلة منها برابطة تقابل العصبية العربية تسمى (Sippe) وتسمى في المصطلح الروماني (Centena) ، لأن الغالب أن كل قبيلة كان عليها أن تقدم للجيش القوطي مئة من المقاتلين . وقد انحلت روابط العصبية القبلية القوطية بتقادهم عهدهم في البلاد ، وخاصة فيما يتصل بالزارعين منهم .

٢٦٠- اضمحلال المدن في الدولة الرومانية كلها اضمحلال عام ، حتى ليذهب المدن خلال بعض الباحثين إلى أنها أخذت تتلاشى ابتداء من القرن الرابع الميلادي ، العصر القوطي نتيجة لغارات الجرمان واضطراب أمور الدولة وضياع الأمن ، وقد تحول بعضها إلى قرى أو حصون ، واختفى بعضها الآخر تماماً ، وتحول غرب أوربا كله إلى عالم زراعي قروي ، وانحطت فيه كل الظواهر المتصلة بالمدن كالتجارة والصناعة المنظمتين ، وتحول المجتمع الأوربي إلى مجتمع زراعي ، وهي الصفة الغالبة التي يوصف بها المجتمع الأوربي في العصور الوسطى المبكرة .

ولما كان العرب قد دخلوا إسبانيا أوائل القرن الثامن الميلادي ، أي في الوقت الذي كانت المدن تتلاشى فيه في بقية غرب أوربا ، فقد وجدوا فيها كثيراً من المدن باقية في حالة اضمحلال شديد . وذكرها قليل في النصوص على أي حال ، وتذكرها النصوص أيام القوط بالتسميات الثلاث التي كان الرومان يستعملونها : (Civitas, Civitates) (Oppidum, Oppida - Urbs, Urbis) دون تفريق بين أنواعها أو أهميتها ؛ والثابت أنهم كانوا يطلقون هذه التسمية على كل موضع مأهول مسور ، وكان لها نظام خاص لحكومتها هو نظام المشيخة (الكوريا) الذي أشرنا إليه . وتذكر النصوص أيضاً قرى كبيرة غير مسورة وتسميها (Vicos) ، وتذكر القلاع (Castillos) ، ولم تكن مجرد قلاع بل كان يعيش الناس فيها وحولها ، وتذكر الباجي (Pagi) - مفردها باجوس - ويراد بها الدوار الريفي ، أما المدينة المحصنة القائمة على مرتفع من الأرض فتسمى (Castrum) ، وتذكر المراجع البرج (Burgos) وهي معسكرات القوط التي تحولت إلى مدن أو قرى كبيرة ، والفيلا (Villa) وهي الدوار يقيمه المالك الكبير وسط أرضه ، ثم يتحول إلى قرية وربما مدينة وربما سورت

ANTONIO BALLESTEROS, op. cit. I. p. 913.

(١)

وحصنت . وهذه المواضع كلها سيسمها العرب مدناً دون تمييز أول الأمر ، ثم يميزون بعضها عن بعض بمرور الزمن .

٢٦١ - الكنيسة تحتفظ بالتقسيم الروماني

وإذا كانت أحوال الدولة الرومانية في عصورها المتأخرة قد أدت إلى اضمحلال المدن واختفائها شيئاً فشيئاً ، فإن الكنيسة احتفظت بالهيكل العام للتنظيم الروماني القديم ، فجعلت المديریات على تقسيم دقلديانوس وقسطنطين مديريات كنسية (Provinciae Ecclesiasticae) يمتد سلطان مطران كل منها على جميع النواحي التي كانت داخله فيها في التقسيم الروماني ، وجعلت المدن الكبيرة الواقعة في الولاية ديقونيات (Diocesi) يتولى كلاً منها أسقف (Episcopus) ، وجعلت الأقاليم التابعة لكل مدينة من هذه أبرشيات (Parrochiae) يتولى كلاً منها برشبطر (Presbiterus) يعينه الأسقف ويناوله كتاب الصلوات (Liber Officialis) وهو شهادة التعيين . وقد أحكمت الكنيسة هذا التنظيم واحتفظت به قائماً ، وإن تعارض مع الواقع^(١) ، فقد تضاءلت مدن كانت كبيرة في العصر الروماني ولم تصبح غير قرى ، ومع ذلك ظل لأهلها الحق في أن يكون لهم أسقف ، وتلاشت مدن أبرشية تماماً ، ومع ذلك كان لها برشبطر يمثلها ويتحدث باسمها ، وأصبح هذا التقسيم النظري هو التقسيم الإداري في نظر الناس . ولم يحدث هذا في إسبانيا وحدها بل في كافة بلاد الامبراطورية الغربية ، التي دخلت شيئاً فشيئاً تحت سلطان كنيسة روما . وظل هذا الوضع قائماً حتى أقبل العرب وقضوا على القوط واتصلوا بالناس رأساً ليستعينوا بهم على تنظيم البلاد ، وأخذوا عنهم هذا النظام وأعطوه صفة إدارية مع تعديلات اقتضتها ظروف الدولة العربية الإسلامية .

وهذه الظروف تلتخص في أن مركز الثقل في الأندلس الإسلامي كان في الجنوب ، في حوض الوادي الكبير وجنوبه بصورة خاصة وما يوازي حوض هذا النهر في شرق الأندلس وغربه ، فتزاحم الناس هناك وتزايد العمران وأزهرت المدن القائمة ، ونمت قرى وعمدنت وأصبحت مدناً مما اقتضى إنشاء كور جديدة صغيرة حول المدن التي كبرت وعظم شأنها . فبينما كان مركز الثقل أيام الرومان في الشمال الشرقي حول طركونة ونربونة (ولم تنشأ ولايات باطقة وجليقية ولشدانية وما إليها إلا فيما بعد) ، وبينما كان مركز الثقل أيام القوط هو الوسط حول طليطلة ، نجد أن اهتمام العرب انصرف معظمه إلى الجنوب .

وكان الاتجاه الإداري في الأندلس الإسلامي يميل نحو الأقسام الإدارية الصغيرة تيسيراً لضبط الأمن وربط المال ، بل يبدو أن ذلك هو الاتجاه في الإدارة الإسلامية عامة ، فحوض الدجلة والفرات مثلاً كان يضم ما لا يقل عن خمس عشرة كورة ، ولا يشذ عن ذلك إلا الشام ، فقد قسم إلى مناطق عسكرية كبيرة تسمى « الأجناد » كما قلنا .

ثم إن النظم الإدارية الإسلامية كانت لا تميل إلى تجزئة الوحدات الإدارية إلى أجزاء والأجزاء إلى أجزاء صغيرة كما رأينا في النظام الروماني والنظام الكنسي الذي قام على أساسه . فاكثى المسلمون بالكور ، كل كورة تتبعها مدن وكل مدينة تتبعها أقاليمها أو زماماتها ، وقد أدى ذلك إلى تبسيط السلم الإداري ، فالإدارة المركزية تتبعها عمال الكور ، وعمال الكور يتبعهم عمال المدن وهم المسئولون عن زمامات المدن أو أقاليمها ، وجزت العادة أن يعين عامل المدينة عاملاً خاصاً بالمدينة نفسها يسمى صاحب المدينة . ومن هنا فقد كان عدد الموظفين في الإدارة الإسلامية لا يبلغ خمس عدهم في الإدارة الرومانية ، وخاصة منذ أيام دقلديانوس الذي زحم الإدارات بالموظفين وجعلهم طبقات بعضها فوق بعض ، فنقل عبئهم على الخزانة من ناحية واتسع المجال لأكل أموال الدولة من ناحية أخرى .

وقد عرف الأندلس الإسلامي نظام الأجناد أو الكور المجتدة . وقد أخذ العرب هذا النظام عن البيزنطيين ، والمراد بها ولايات عسكرية ينزلها « جند » والجند خمس فرق من المحاربين ، وهي تقابل (Tema) في التنظيم البيزنطي ، ويسمىها العرب البند والجمع بنود ، وهي تقابل الثغور ويحكمها قائد عسكري . وكان الجند أول الأمر تنزله قبيلة واحدة أو عدة قبائل متحالفة ، ويكون لها خراج الناحية في مقابل تقديمها لجند كامل أي خمس فرق من المحاربين . ولم يعرف نظام الأجناد إلا في الشام ، إذ قسمها المسلمون إلى أجناد خمسة هي : فلسطين والأردن ودمشق ومحس وقسرين (وتبعها أول الأمر بلاد الجزيرة) . وقد كان نظام الأجناد من أوكد أسباب قوة الدولة الأموية ، إذ ضمن لها المحاربين ^(١) . ومن الشام انتقل نظام الأجناد إلى الأندلس على أيام أبي الخطاب الحسام ابن ضرار سنة ١٢٥ / ٧٤٣ مع اختلاف واحد ، هو أن الجند في الشام كان يضم كوراً كثيرة أما في الأندلس فكان يقابل كورة واحدة . ومن هنا يغلب على الظن أن أجناد الأندلس كان

(١) ياقوت : معجم البلدان ، طبعة الخانجي ، ج١ ، ص ٣٨ .

عليها أن تقدم أعداداً من الجند أقل من خمس فرق . وقد ظلت هذه الأجناد عصباً من أعصاب القوة العسكرية الأندلسية إلى منتصف حكومة عبد الرحمن الناصر على الأقل . ولدنيا من عهد الأمير محمد بيان بأعداد من كانت بعض النواحي تقدمه من الفرسان إلى جيش الدولة . وإذا نظرنا إلى هذا البيان تبيناً أهمية نظام الأجناد بالنسبة للقوة العسكرية للإمارة الأموية الأندلسية :

كورة البيرة ٢٩٠٠	فارس	جيان	٢٢٠٠	فارس
كورة قبرة ١٢٠٠	»	باغاة	٩٠٠	»
كورة تاكرنا ٢٩٩	»	الجزيرة	٢٩٠	»
كورة استجة ١٢٠٠	»	قرمونة	١٨٥	»
كورة شذونة ٦٧٩٠	»	ريه	٢٦٠٠	»
كورة فحص	٤٠٠	مورور	١٤٠٠	»
البلوط				
كورة تدمير ١٥٦	»	ريينة	١٠٦	»
قلعة رباح				
وأوريط	٣٨٧			(١)

وهذا البيان ناقص ، والكور المخطوط تحتها هي من الكور المجندة ، ويلاحظ بوضوح أن أربعاً من الكور المجندة كانت تقدم من الفرسان أضعاف ما تقدمه عشر كور غير مجندة . وذلك يعطينا فكرة عن الأهمية العسكرية لنظام الأجناد . ولم يبين لنا أحد من المؤرخين النظام المالى الخاص بالأجناد في الشام والأندلس ، ولكننا نستنتج ذلك من البيان المقارن الذى أوردناه ، إذ لا يفسر أن كورة شذونة تقدم أضعاف ما تقدمه كورة أكبر منها وهى تدمير إلا بأن هذه الكور كانت تقدم فرساناً بدلاً من الضرائب ، ويؤيد ذلك قول المؤرخين أن الشاميين الذين نزلوا هذه الكور « كان إنزالهم على أموال العجم من خير ونعم » (٢) ، أى

(١) ابن حيان، برواية ابن عفارى : البيان المغرب، طبعة برونسال وكولان (لايدن ١٩٥١) ج٢، ص ١٠٨ - ١٠٩ .
 (٢) ابن عفارى : البيان المغرب (نفس الطبعة) ص ٣٣ . وقد نقل لنا ابن الخطيب كلام ابن حيان في هذه المناسبة ، فقال إن الذى أشار على أبى الخطار بذلك كان أربطاس ، أشار عليه « بتفريق القبائل الشاميين الغالبيين على البلد من دار الإمارة قرطبة ، إذ كانت لا تحملهم ، وإنزالهم بالكور ، على مثل منازلهم التى كانت في كور شامهم ، ففعل ذلك عن اختيار منهم ، فأنزل جند دمشق كورة البيرة ، وجند الأردن كورة جيان ، وجند مصر كورة باجه ، وبعضهم بكورة تدمير ، فهذه منازل العرب الشاميين ، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة ، وبقي العرب والبلديون والبرابرة شركاؤهم ...» - الإحاطة ، طبعة محمد عبد الله عنان (القاهرة ١٩٥٦) ج١ ، ص ١٠٩ . =

في مقابل تملكهم لجزء معين من أملاك العجم ونعمهم ، ويؤيده أيضاً أن عرب الكور المجندة بالذات هم الذين قاموا بالثورة الكبيرة التي شغلت عصرى محمد وعبد الله وجزءاً من عصر الناصر ، وأسبابها ترجع إلى تمسك العرب النازلين بهذه النواحي بها كان لهم من حق التملك والاستقلال بنواحيهم ثم ميلهم إلى عسف من كان يسكنها من أهل البلاد ، ونفور هؤلاء لمحاربتهم ، ورفض أولئك العرب لطاعة الإمارة القرطبية ، اعتزازاً منهم بما كانوا فيه من استقلال بنواحيهم وما اجتمع لهم من الثروة نتيجة لذلك الاستقلال .

ومن طريف ما يلاحظ أن ثورات العرب ووثباتهم بالدولة في الأندلس وغيره كانت تقع في كثير من الأحيان نتيجة للخفاء والثروة وشعور العرب بقوتهم ، ونزوعهم إلى التخلص من السلطان . وهذا سبب من أسباب الثورات فات بيكون أن يذكره ضمن ما ذكر من أسباب الثورات .

ولسنا نجد فيما بين أيدينا من نصوص التاريخ إشارة واحدة إلى قيام واحد من الولاة أو الأمراء أو الخلفاء بتكوير الأندلس ، أو تقسيمه إلى أقسام إدارية ، حتى أحمد بن محمد الرازى صاحب أول وأوفى تاريخ للأندلس لم يشر إلى ذلك . ونحن نجد الأندلس في كلامه مقسماً تقسيماً إدارياً ثابتاً منذ زمن طويل ، فهو يذكر ما يذكر من الكور على اعتبار أنها أشياء معروفة . أما في جغرافيته فهو يعطينا بياناً كاملاً لا يضم إشارة واحدة إلى تغيير أو تعديل والاستنتاج البسيط من ذلك هو أن أحداً من المسلمين لم يضع هذا النظام وإنما وجدوا تقسيماً قائماً فأخذوه .

ولم يتحدث من الجغرافيين المشرقيين عن تقسيم الأندلس إلى كور إلا المقدسى في «أحسن التقاسيم» ، أما الإصطخرى وابن حوقل فكلماهما عام غير دقيق ولا يمكن التعويل عليه في هذا المطلب . فإذا نظرنا في كلام المقدسى بشيء من التدقيق وجدناه حافلاً بالمشاكل ، وخاصة إذا قارنناه بكلام الرازى ، والمصطلح الذى يستعمله مضطرب ، ولا غرابة في ذلك ، فهو رجل مشرقى على علم تام

٣٦٤ - المقدسى
والتنظيم الإدارى
للأندلس

« ويلاحظ أن هذه هي أول مرة تنزل الدولة الإسلامية فيها عرباً على أموال العجم من رعاياها وتعطيهم الحق في تملك ثلث أملاك هؤلاء الأخيرين . وفي النسختين المخطوطتين اللتين نشر عنها الأستاذ عنان « ثلثا أموال أهل الذمة » ، وقد استبعد الناشر هذه الصورة وأثبت « ثلث » من عنده ، ونظن أن الثلثين أصح لأنها تقابل أنصبة القوط من الأرض (Sors - Sortes) على ما ذكرناه ، ثم إن صاحب الرأى في إزال هؤلاء الشاميين على أموال العجم قوطى هو أرتباس . وستعود للكلام على هذه الناحية عند الحديث عن الناحية المالية .

بأقاليم المشرق ، وخاصة خراسان وهيتل ، وهو يحاول أن يطبق على الأندلس ما وجد من القواعد هناك ، فشاب كلامه ليس شديد . ولكننا لا نستطيع إلا أن نضعه موضع الاعتبار ، نظراً لقلّة ما لدينا من المعلومات عن هذا الموضوع .

يجعل المقدسى قرطبة كورة كبيرة ، ويسمى أقاليمها الرساتيق ، ويقول في رواية المعلومات التي أخذها عن « بعض الأندلسيين » : « قلت : هل بقى لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن ؟ قال : لا ، قلت : فإشبيلية وبجانة ، وذكرت عدة من البلدان ، قال : هذه نواح لها أقاليم ، كما تقول : القيروان وتاهرت وسجلماسة ، وهم يسمون الرساتيق إقليمياً ، فعلمت أنها كور على قياسنا ، وأنها إن لم تكن أجل من كور هيتل ، فلبست بأقل منها ، فيحصل القول وأثبت الدلائل على أن مثل المغرب كمثل المشرق ، كل واحد منهما جانبان ، فكما أن المشرق خراسان وهيتل يفصل بينهما جيحون ، فكذلك المغرب والأندلس يفصل بينهما بحر الروم . غير أنّا نعجز عن تكوير الأندلس ، فتركناها على الجملة ، ووصفنا كورة قرطبة لما كثر المخبرون عنها واتضح عندنا أمرها . وعرضت كتابى على شيخ من مشايخهم ، فقال : على هذا القياس يجب أن تكون الأندلس ثمانى عشرة كورة ، فعَدَّ : بجانة - مالقة - بلنسية - تدمير - سرقوسة (كذا وصحتها سرقسطة) - يابسة (كذا ، وربما كانت صحتها يابسة) - وادى الحجارة - تطيلة - وشقة - مدينة سالم - طليطلة - إشبيلية - بطليوث - باجه - قرطبة - الجزيرة الخضراء . وسألت آخر ، فقال : صدق ، وزاد ليرة - حُشْبَنَة . ويجوز أن يكون بعض هذه البلدان نواحى قياساً على ايلاق وكُشْ والصَّغَانِيَان ، والله أعلم بالصواب » (١) .

ولو عددنا الكور التي يذكرها لوجدناها ١٧ لا ١٨ ، فإذا أضفنا إليها الاثنتين اللتين يذكرهما بعد ذلك كان الحاصل ١٩ كورة ، ثم إنه يذكر كوراً مثل سرقوسة ويابسة ، ليست من كور الأندلس ، ونظن أنه ينبغي تصحيح الأولى إلى سرقسطة والثانية إلى يابسة . ومعلوماته كلها في هذا الصدد غير دقيقة ، وعذره واضح . ولكن له عبارة تستوقف النظر لعظيم دلالتها ، وذلك حيث يقول : « وأما الأندلس ، فنظيرها هيتل من جانب المشرق ، غير أننا لا نقف على نواحيها فنكورها ، ولم ندخلها فنقسمها ، ويقال إنها ألف ميل » (٢) ،

(١) شمس الدين المقدسى : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، (طبعة دى غوييه) لايدن ١٩٠٦ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٢ .

وموضع الغرابة في هذه العبارة أن الإصطخري كتبها بينما كان كتاب الرازي في جغرافية الأندلس ذاتعاً بين الناس منذ أمد طويل . ومن عجب أن مثل الإصطخري - على تدقيقه وسعة اطلاعه - لا يستأنس بمثل هذا المرجع . وهذا القول يصدق كذلك على ابن حوقل ، وإذا كنا نستتج من ذلك شيئاً ، فهو أن كتاب الرازي لم يكن متداولاً بالصورة التي نتصورها إلى نهاية القرن الرابع الهجري ، أما بعد ذلك فقد كان المرجع الأول لمن كتب في صفة الأندلس .

ويذهب المقدسي إلى أن الكورة في الأندلس تعادل الرستاق والإقليم في المشرق ، وعبارته هنا مضطربة لا نستطيع الاعتداد عليها ، فهو يقول : « وهم يسمون الرستاق إقليمياً ، فعلمت أنها كور على قياسنا » ، ثم إنه يقول : « قلت : وهل بقي لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن ؟ قال : لا » ، ونخلص من ذلك بأن المقدسي يرى أن الأندلس تنقسم إلى كور ، والكور تنقسم إلى رساتيق ، أي أقاليم ، وهذا ينطبق على تعريف ياقوت الحموي للكورة وللرستاق (١) .

والغالب على الجغرافيين المسلمين فيما يتصل بالأندلس أن يكتفوا بذكر المدن كناية عن الكور التي هي قواعدها ، فيقولون مثلاً : جيان وماردة ويريدون كورتى جيان وماردة . وقد وقعوا بسبب ذلك في أخطاء واضحة ، لأن الكورة في الأندلس كانت تضم أكثر من مدينة كبيرة ، وليست كل مدينة كورة ، وإنما جاء الخطأ من أن المدن في الأندلس كانت لها أحواز تابعة لها ، وهي التي سميت أقاليم ، فنظر الجغرافيون فوجدوا مدناً لها أقاليم ، فحسبوا أن كل مدينة كورة .

٣٦٥-نصوص وبين أيدينا الآن ثلاثة نصوص جديدة غاية في الأهمية بالنسبة لموضوعنا جديدة الأولى : أصل كامل للترجمة البرتغالية لجغرافية إسبانيا للرازي ، والثاني : مختصر لجغرافية الرازي وضعه ابن غالب وضمّنه كتابه « فرحة الأنفس » ، والثالث : قطعة سالحة من جغرافية أحمد بن عمر بن أنس العذري للأندلس .

٣٦٦-ترجمة فأما الترجمة البرتغالية لنص جغرافية أحمد بن محمد الرازي فهي أكمل ما كاملة لجغرافية لدينا من النصوص المترجمة لهذه الجغرافية التي ضاع أصلها العربي ، وقد الرازي عشر عليها الأستاذ البرتغالي لويس لندلى سنترام ضمن نسخة كاملة من ترجمة

(١) ياقوت : معجم البلدان ، (طبعة الخانجي) ، ج ١ ، ص ٢٦ - ٢٨ .

برتغالية كاملة لتاريخ إسبانيا العام الذى صنفه الملك العالم ألفونسو العاشر ، وترجم القطعة الجغرافية إلى الفرنسية الأستاذ ليقى بروفنسال ونشرها فى مجلة الأندلس ، وقدم لها بمقدمة قال فيها إن هذه النسخة أكمل من كل ما لدينا من ترجمات جغرافية الرازى ، وذكر كيف أن هذه الجغرافية - فى صورتها العربية - هى الأصل الذى نقله عدد عظيم من الجغرافيين وأولهم فى المغرب أبو عبيد البكرى وابن عبد المنعم الحميرى ، وفى المشرق القزوينى . وقال إن هذا النص يدل على أن الناقلين عن الرازى قد أفسدوا هيكل جغرافيته بما أدخلوه من معلومات جغرافية ، ظنوا أنها تضيف شيئاً ، واستطرادات تاريخية ضيعت الكثير من نظام الأصل وتناسقه (١) .

وأما قطعة محمد بن أيوب بن غالب فقد نشرها الدكتور لطفى عبد البديع
 ٢٦٧ - تعليق
 متقى من فرحة فى مجلة معهد المخطوطات العربية ، وهى ليست نص ابن غالب بل «تعليقاً
 الأنفس لابن
 غالب متقى» منه كما يدل على ذلك العنوان . ولكننا ما تكاد نطالعه حتى نتبين أن
 ابن غالب قد نقل جغرافية الرازى نقلاً حرفياً فى معظم المواضع ، وأفسد
 هذا النقل هنا وهناك باختصاصات أدخلت بالسياق وإضافات من عنده . غير أننا نستطيع
 بمقابلة النص المترجم لجغرافية الرازى بهذا النص أن نستخرج جغرافية الرازى كاملة مع
 الاستعانة بالفقرات التى نقلها عنه البكرى وابن سعيد والمقرى وابن الخطيب وغيرهم .
 وقد كوناً نحن هذا النص الكامل للاستعانة به فى هذا الفصل عن تقسيم الأندلس الإدارى
 وسنرى فى الفصل التالى أن الرازى اعتمد فى تصنيف جغرافيته على صفة للأندلس صنعها
 المؤرخ اللاتينى الإيبانى بولوس أوروذيوس المعروف عند العرب بهرويش (٢) .

LÉVI - PROVENÇAL, La description de l'Espagne d'Ahmad al - Razi. al - Andalus, vol. (١)
 xviii 1953, fasc. I pp. 51 sqq.

وهى ترجمة فرنسية للنص الذى نشره لويس لندلى سنترأ .

Crónica Geral de Espanha de 1344, edição critica de texto português por LUIS F. LINDLEY
 CINTRA. II, Lisboa 1952 (Academia Portuguesa de Historia).

ونص جغرافية الرازى يقع فى صفحات ٣٩ - ٧٥ من هذه الطبعة .

(٢) الدكتور لطفى عبد البديع : نص أندلسى جديد . قطعة من كتاب « فرحة الأنفس » لابن غالب عن كور الأندلس
 ومدنها بعد الأربعمائة . وعنوان القطعة : تعليق متقى من [فرحة] الأنفس فى تاريخ الأندلس ، للحافظ محمد بن
 أيوب بن غالب الأندلسى ، مجلة معهد المخطوطات العربية مجلد ١ ، جزء ٢ (القاهرة نوفمبر ١٩٥٥) ، ص ٢٧٢
 وما يلبها .

٢٦٨ - قطعة من جغرافية العذرى
والقطعة الثالثة نص فريد في بابه لأحمد بن أنس العذرى في جغرافية الأندلس ،
عثر عليه الدكتور عبد العزيز الأهواني وتفضل فأذن لنا في الاستفادة منه .
ومن أسف أن النص ناقص ، فهو لا يتناول إلا بضع نواح من الأندلس ،
ولكنه تناوّلها تناولاً شاملاً عظيم القيمة بالنسبة لموضوعنا^(١) .

وإذا نحن درسنا المعلومات التي تتضمنها هذه الأصول الثلاثة على ضوء البيانات القيمة التي يقدمها لنا ياقوت في مقدمة « معجم البلدان » وفي تضاعيف موادها الخاصة بالأندلس خرجنا بنتائج إيجابية تمكنتنا من تصور التقسيم الإداري للأندلس الإسلامي تصوراً لا يبعد عن الحقيقة كثيراً . وأول ما يستوقف نظرنا أن الأندلس كان له من أول الأمر نظام خاص يختلف كثيراً عن النظم التي جرى عليها العمل في الدولة الإسلامية . وإذا كان المسلمون قد جروا في التقسيم على أساس الكورة والرساق في بلاد الجزيرة وما يليها شرقاً ، ونظام الكورة فقط فيما يتصل بمصر ، ونظام الأجناد فيما يتصل بالشام ، فإن الأندلس لم يعرف هذه التقسيمات المشرقية إلا في صورة معدلة تتفق مع ظروفه الخاصة ، بل هو لم يعرف نظام الرساتيق أصلاً ، وكان تطبيق نظام الأجناد فيه تطبيقاً محدوداً من حيث المساحة التي طبق عليها ومن حيث طبيعته ذاتها كما رأينا .

ونبدأ فنلاحظ أن الترجمات التي لدينا لجغرافية الرازي تقسمها إلى أقسام تسميها (Dis- tritos) أو (Districts) وهي لفظة يجعلها ليفي بروفنسال معادلة للفظ كورة . فإذا قارنا ذلك بنص ابن غالب ، لاحظنا أن هذا الأخير يذكر نوعين من الأقسام الإدارية : الكورة والمدينة ، ولكي نستطيع تبيين المراد بهذين المصطلحين والفرق بينهما نذكر ما يورده من الكور والمدن :

الكور : قبرة - البيرة - جيان - تدمير - بلنسية - ماردة - باجه - لبله - قرمونة - إشبيلية - مورور - شدونة - الجزيرة الخضراء - ريه - استجة .

(١) عثرت على ترجمة العذرى واسم كتابه عند ياقوت ، فقد قال في مادة الرية : « وينسب إليها أبو العباس أحمد بن عمر ابن أنس العذرى ، ويعرف بالذلائى المرى . رحل إلى مكة ، وسمع من أبي العباس أحمد بن الحسين الرازى وطبقته ، وبمصر جماعة أخرى . وهو مكث ، سمع منه الحميرى وابن عبد البر وأبو محمد بن حزم ، وكاتباً شجاعاً ، سمع منها ، وكان قديماً كلما رجع من المشرق سمعاً منه . وله تأليف حسان ، منها « كتاب أعلام النبوة » وكتابه المسمى « نظام المرجان في المسالك والممالك » . ومولده في ذي القعدة سنة ٣٩٣ وتوفى سنة ٤٧٦ وقيل ٧٨ ببلنسية » .
ياقوت : معجم البلدان ، طبعة الخانجي ، ج ٨ ، ص ٤٣ .

المدن: طرطوشة - طركونة - لاردة - بريطانية - أشقة - تطيلة - سرقسطة - مدينة سالم - شتبرية - طليلطة - قلعة رباح - أوريط - فريش - شترين - أشبونة - أكشونية - قرطمة - حصن بيستر .

وهذا بخلاف قرطبة ، وكان لها وضع خاص ستتحدث عنه .

ونلاحظ أن صاحب « التعليق المتقى » من « فرحة الأنفس » قد وقع في أخطاء في عملية التلخيص ، فقد ذكر مثلاً « لبله » تحت اسم حصون لبله ، والحقيقة كما يتبين من « ياقوت » أن لبله كورة ، وكذلك جعل « قرطمة » مدينة قائمة بذاتها مع أنها عند الرازي وياقوت مدينة من مدن كورة رية . ويلاحظ أيضاً أن « الانتقاء » من « فرحة الأنفس » عمد إلى اختصار مغل في بعض الأحيان ، فقد روى ياقوت عن ابن غالب نفسه قطعاً كبيرة هامة ساقطة من التعليق الذي بين أيدينا . وسنشير في بعض تعليقاتنا إلى أخطاء أخرى وقع فيها صاحب التعليق .

أما النص المترجم لجغرافية الرازي ، فواضح أن المترجم أدخلوا يدهم فيه ، فأضافوا أشياء جديدة لا يمكن أن تكون عند الرازي ، وفي بعض الأحيان تكون الإضافة خفية يعسر تبيئها ، وفي أحيان أخرى تكون واضحة يلحظها القارئ وهو يتصفح ، ومن ذلك إضافة كورة باسم إشتانيا (Exitania) بين قلمرية ولشبونة ، وجعله بطليوس كورة ، وكذلك باروشة ورقوبل (Racupel) وسرته (Zorita) . وواضح أن الذين قاموا بالترجمة لألفونسو العاشر حاولوا تعديل تقسيم إسبانيا على الصورة التي كانت عليها أيام هذا الملك . ومن هنا فإن ذلك النص قد يفيد الذين يدرسون نظم إسبانيا النصرانية في القرن الثاني عشر الميلادي فائدة لا يجودونها في أصل آخر . وستظهر هذه الإضافات كلها في جغرافية الإدريسي ، مما يدل على أن هذه الترجمة المحرفة كانت بين يديه وهو يؤلف كتابه .

* * *

٣٦٩ - التقسيم وبعد ذلك نسأل: ما السر في التقسيم إلى مدن وكور؟ إذا نظرنا إلى «المدن» إلى مدن وكور وجدناها تشبه الكور إلى حد بعيد ، فلكل مدينة منها حوز واسع فيه أقاليم ومدن أخرى وقرى ، فمدينة طرطوشة لها حصون كثيرة وأقاليم واسعة^(١) ، ومدينة

(١) ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ٢٨٦ .

لاردة « لها حصون كثيرة »^(١) ، ومدينة بريطانية لها أحواز ومدن ، « فمن مدنها بيشر وهي من أمهات مدن الثغر » ، « ولها حصون كثيرة »^(٢) ، وكذلك مدينة وشقة ، ومدينة تطيلة لها مدائن كبيرة مثل طرسونة وأرنيط وفارة وناجره^(٣) ، ومدينة فريش « لها من الأقاليم إقليم لواته وإقليم المرج وإقليم السند وإقليم قسطانية وإقليم موالى موسى »^(٤) ، وهكذا . بل إن « ياقوت » يتحدث عن لاردة كما لو كانت كورة ، فيقول : « ينسب إلى كورتها عدة مدن وحصون ، تذكر في مواضعها »^(٥) ، ويقول إن فريش « لها رستاق يكون فيه قرى »^(٦) ، وهو يتحدث عن شلون ويقول : « ناحية بالأندلس من نواحي سرقسطة نهرها يسقى أربعين ميلاً طولاً »^(٧) ، والناحية هنا هي الإقليم ، لأنه يقول إن أهل الأندلس « يسمون الناحية إقليماً » ، أى أن ناحية واحدة من نواحي مدينة سرقسطة تبلغ ٤٠ ميلاً طولاً ، وهو يذكر أوقانية (Ocaña) ويقول : « جبل من أعمال طليطلة بالأندلس من ناحية القاسم فيه قرى وحصون »^(٨) ، ويذكر أشقة ويقول : « مدينة بالأندلس متصلة الأعمال بأعمال بريطانية »^(٩) . وعندما يتحدث عن طرطوشة يقول : « مدينة بالأندلس تتصل بكورة بنسية ، ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تعد في جملتها »^(١٠) . ويقول عن مدينة قلعة أيوب : « مدينة عظيمة جلييلة القدر بالأندلس بالثغر .. من أعمال سرقسطة ، ولها عدة حصون »^(١١) ، ويقول عن قلعة « مدينة من أعمال تطيلة في شرق الأندلس » ، أى أن مدينة تطيلة تتبعها مدينة أخرى هي قلعة « مدينة من أعمال سرقسطة »^(١٢) . ويقول عن بقيرة (viguera) : « مدينة في شرق الأندلس معدودة من أعمال تطيلة ، بينها أحد عشر فرسخاً »^(١٣) .

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٨٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٥) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٣١٣ .

(٦) ياقوت ، ج ٦ ، ص ٣٧٤ .

(٧) ياقوت ، ج ٥ ، ص ٢٩٠ .

(٨) ياقوت ، ج ٢ ، ص ٣٧٦ .

(٩) ياقوت ، ج ١ ، ص ٢٩٥ .

(١٠) ياقوت ، ج ٦ ، ص ٤٢ .

(١١) ياقوت ، ج ٧ ، ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(١٢) ياقوت ، ج ٧ ، ص ١٥٤ .

(١٣) ياقوت ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .

ويُفهم من ذلك كله أن هناك أقساماً إدارية تسمى مدناً أو تنسب إلى مدن ، أقسام واسعة لها أحواز فسيحة فيها مدن كبيرة وقرى وحصون . وهذا شيء لا شبه له في المشرق . فإن المدينة هناك مدنية ولا زيادة ، لها خطتها وأرباضها ، وهي بدورها تتبع الكورة التي تقع فيها . أى أن نظام المدن كأقسام إدارية لم يُعرف إلا في الأندلس .

فإذا نظرنا إلى هذا النوع من المدن وجدناه كله في الثغور الشمالية والغربية . كلها تقع في حوض نهر ابره ، وما بين ابره وتاجه ، وفي حوض تاجه ، ثم ما بين المجرى الأدنى للوادي آنه وساحل المحيط ، فيما عدا فريش ، وستحدث عنها فيما بعد ، أى أنها كانت النواحي الثغرية ، السياج الذي يحمي الأندلس الإسلامى . وهذا السياج يبدأ عند طرطوشة في الشرق ثم طركونة فلاردة - بريطانية ، وشقة ، تطيلة - سرقسطة - مدينة سالم - شتيرية - طليطلة وقلعة رباح - شترين - أشبونة - أكشونة .

وهناك ثلاث من هذه المدن تستوقف انتباهنا بصورة خاصة ، هي قرطبة وطليلطة وسرقسطة . فأما قرطبة فلا تذكر النصوص أنها كورة ، بل مدينة تتبعها أقاليم ومدن أخرى ، بل إن ابن عبد المنعم الحميرى يقول عن قرطبة : « وهى فى ذاتها مدن خمس يتلو بعضها بعضاً ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز ، وفى كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات »^(١) ، وليس فى تخطيط قرطبة كما نعرفه ما يؤيد أنها كانت تحيط بها خمسة أسوار ، وإنما الذى يُفهم من ذلك أنها كانت مدينة ذات حوز واسع فيه خمس مدن تتبعها ، ويفسر ذلك قول المقدسى فى « أحسن التقاسيم » : « وسألت بعض العقلاء منهم على الرساتيق المحيطة بقرطبة والمنسوبة إليها والمدن فقال: إننا نسمى الرستاق إقليمياً ، فالأقاليم المحيطة بقرطبة ثلاثة عشر مع مدنها ، فذكر أرجونة ، قسطلة ، شوذر ، مارتش ، قباناش ، فح ابن لقيط .. الخ »^(٢) ، أى أن المراد بمدن قرطبة أقاليمها ، وسنعود إلى هذه العبارة بعد قليل . بل يبدو أن ابن عبد المنعم الحميرى اختلط عليه أمر أبواب قرطبة فحسبها أسواراً ، فقد ذكر المقدسى أن « للمدينة خمسة أبواب : باب الحديد ، باب العطارين ، باب القنطرة ، باب اليهود ، باب عامر » . وليس لدينا فى أى مرجع ذكر لكورة تسمى كورة قرطبة ، مما يُفهم منه أنها كانت « مدينة » على النظام الأندلسى الذى ذكرناه .

(١) ابن عبد المنعم الحميرى : الروض العطار ، ص ١٥٣ .

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٢ .

وينطبق ذلك أيضاً على سرقسطة وطيطة ، فهما إما تُذكران دون صفة معينة ، أو يقال « مدينة » . ومع ذلك فقد كانت كل منها ذات « ولاية واسعة » تتبعها مدن وحصون وقرى ، فسرقسطة « لها مدن ومعاقل ، منها مدينة قلعة أيوب ، عظيمة جليظة القدر ، ولها من الأقاليم عدة »^(١) . وكذلك طليطة فهي « من أجل المدن قدراً وأعظمها خطراً وأشدّها حصانة .. ولها من الأقاليم إقليم شاقرة وفيه حصون عدة ، ثم إقليم شِشلة ، ومدينة وقش ، ثم إقليم الاشبورة وإقليم القاسم وغير ذلك »^(٢) . وابن عبد المنعم الحميري يذكر طليطة على أنها مدينة ، ويقول : « ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وقلاع منيعة ، وعلى بعد منها في جهة الشمال الجبل المعروف بالشارات »^(٣) ، وياقوت يقول : « طليطة مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس ، يتصل عملها بعمل وادي الحجارة من أعمال الأندلس ، وهي غربي ثغر الروم وبين الجوف والشرق »^(٤) .

وأما فريش ، فهي درع قرطبة ، فهي بأقاليمها الواسعة تقوم إلى الشمال الغربي من العاصمة ، وتمتد أقاليمها شمالاً وشمال شرقيها ، وهذه الأقاليم كثيرة يذكر منها ابن غالب خمسة ، هي « إقليم لواته وإقليم المرج وإقليم السند وإقليم قسطانية وإقليم موالى موسى »^(٥) ، فهي إذن في عداد الثغور ، ولهذا ظل حكمها حكم الثغور ، واعتبرت مدينة .

وإذا تذكرنا قسمة قسطنطين التي حدّت الأندلس حدوداً ستة هي : نربونة وجليقية وطركونة وطيطة وماردة وإشبيلية ، والتي قام على أساسها التقسيم الكنسي إلى ست مطرانيات هي : جليقية وقاعدتها براقرة ، ولشداية وقاعدتها ماردة ، وباطقة وقاعدتها إشبيلية ، وقرطاجنة وقاعدتها طليطة ، وطركونة وقاعدتها طركونة ، وأربونة وقاعدتها أربونة لاحظنا أن اثنين من هذه الأقسام خرجا من أول الأمر عن نطاق الأندلس الإسلامي هما جليقية وأربونة ، فالباقية هي لشداية وباطقة وقرطاجنة وطركونة ، وإذا ذكرناها بقواعدها قلنا ماردة وإشبيلية وطيطة وطركونة ، وقد استبدل المسلمون إشبيلية بقرطبة وطركونة بسرقسطة ، أي أن الباقية على هذا الأساس هي أقسام ماردة وقرطبة وطيطة

(١) ابن غالب : فرحة الأندلس ، ص ٢٨٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٣) ابن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار ، ص ١٣٢ .

(٤) ياقوت ، ج ٦ ، ص ٥٦ - ٥٧ .

(٥) ابن غالب : فرحة الأندلس ، ص ٢٩٠ .

وسرقسطة . وهذا يفسر لنا بقاء الثلاث الأخيرات من هذه مدناً ، فقد كانت كل منها على أيام الرومان فالقوط قاعدة قسم إداري كبير يعدل سدس البلاد ، أو قاعدة ولاية كبيرة تضم عدداً من الديقونيات على النظام الروماني حسب تقسيم دقلديانوس ، والديقونية ليست ولاية، وإنما هي مدينة لها حوز أو زمام ، وقد أصبحت هذه المدن تسمى دوقيات أو كونتيات على أيام القوط ، وعلى هذه الهيئة دخلت في التنظيم الإسلامي ، فبقيت مدناً لها أحواز^(١) .



٢٧٠- المدينة والخلاصة أنه كانت هناك كور ومدن ذات أحواز واسعة حتى اشتبهت
كقسم إداري بالكور . وقد عبر عن ذلك ابن حوقل بقوله : « فيها - أي في الأندلس - مدن يزيد بعضها على بعض في المحل والجبابة والارتفاع والولاية والقضاة والمخلفين على رفع الأخبار ، ويقال لأحدهم مخلف ، وليس بها مدينة غير معمورة ذات رستاق فسيح إلى كورة ، فيها ضياع عداد وأكوة وسعة وماشية وسائمة وعدة وعتاد وكراع^(٢) ، وإذن فليس في الأندلس - على قول ابن حوقل - إلا مدينة ذات رستاق فسيح أو كورة ، وهذا هو الذي قلناه .

وهذا هو الذي حَيَّرَ الجغرافيين المشاركة في أمر تقسيم الأندلس ، فالإصطخري يقول : « والأندلس بلدان عريضة كثيرة المدن خصبة واسعة ، ومدينتها العظمى تسمى قرطبة^(٣) ، ثم يمضي في وصف الأندلس فلا يذكر غير المدن ويقول مثلاً : « ثم إلى بلاد مرسية على مدينة لقنت ، إلى بلاد بلنسية » ، ثم يقول : « وهذه المدن التي ذكرناها على الشط كلها مدن كبار عامرة » ، ثم « ومن مشاهير مدن الأندلس جيان وطليطلة ونغزة وسرقسطة ولاردة ووادي الحجارة وتُرْجاله وقورية وماردة وباجة وغافق وليلة وقرمونة ومورور واستجة وريه ، وكلها مدن عظام^(٤) » ، ثم « ووادي الحجارة مدينة ، وهي وما حوالها من المدن والقرى تُعرف بمدن بنى سالم » . وهو لا يذكر « الكورة » في الأندلس إلا في ثلاث حالات : « وريه كورة عظيمة خصيبة ومدينتها أو جذونة ، ومنها كان عمر بن حفصون ، الذي خرج

(١) LÉVI - PROVENÇAL. Hist. de l'Espagne Musulmane, tome III (Paris, 1953) p. 48.

(٢) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ، الطبعة الثانية ، لايدن ١٩٣٨ ، ج١ ، ص ١١٦ .

(٣) الإصطخري : مسالك الممالك ، ص ٤١ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٤١ - ٤٢ .

على بنى أمية بها ، وفحص البلوط كورة خصبة واسعة ، ومديتها غافق ، وقورية مدينة كانت كبيرة إلا أنها خربت بعصية وقعت بينهم .. وماردة من أعظم مدن الأندلس وكذلك طليطلة .. وشتريين كورة عظيمة ومديتها قلمرية ..^(١) ، أى : أن الأمر مختلط عليه ، فمعظم الأندلس عنده مدن لها بلاد ، فيها عدا ثلاث يجعلها كوراً مع خلط واضح . هذا مع علمنا باهتمام الإصطخرى بالتقسيمات الإدارية ، وذكره الكور والرساتيق بالتحديد في كل ناحية يتحدث عنها^(٢) .

وموقف المقدسى ، وهو لا يقل عن الإصطخرى اهتماماً بالتقسيمات الإدارية ، لا يختلف عن موقف الإصطخرى ، فهو يقول : « وأما الأندلس فنظيرها هيطل من جانب المشرق ، غير أننا لا نفق على نواحيها فنكورها ولم ندخلها فنقسمها ، ويقال إنها ألف ميل ، وقال ابن خرداذبة : الأندلس أربعون مدينة ، يعنى المشهور منها ، لأن أحداً لم يسبقنا إلى تفصيل الكور ووضع القصبات ، فبعض المدن التى ذكر قصبات على قياس ما رتبنا . وسألت بعض العقلاء منهم على الرساتيق المحيطة بقرطبة ، والمنسوبة إليها ، والمدن ، فقال : إننا نسى الرستاق إقليمياً ، فالأقاليم المحيطة بقرطبة ثلاثة عشر مع مدنها ، فذكر أرجونة ، قسطلة ، شوذر ، مارتش ، قباناش ، فج ابن لقيط ، بلاط مروان ، حصن بلكونة ، الشنيدة (السند ؟) ، وادى عبد الله ، فريش ، المائدة ، جيان ، وعلى ما دل آخر الاسم ، هى ناحية مدنها : الجعز ، ببيغوا ، مارتش ، قانت (يريد لقنت) ، غرناتة ، متيشة ، بياسة ، وسائر مدن الأندلس المذكورة : طرطوشة ، بلنسية ، مرسية ، بجانة ، مالفقة ، جزيرة جبل طارق ، شذونة ، إشيلية ، أخشنية ، مرية ، شنترين ، باجة ، لبله ، قرمونة ، مورور ، استجة^(٣) ، وهذا كلام مختلط بعض الشيء ، ولكننا نخرج منه بما يلي :

- ١ - أن ابن خرداذبة يقول إن الأندلس أربعون مدينة .
- ٢ - أن أحداً من الجغرافيين والكتّاب لم يسبق المقدسى إلى ذكر كور الأندلس وقصبات هذه الكور .

٣ - أن أهل الأندلس يسمون الرستاق إقليمياً .

(١) نفس المصدر ، ص ٤٣ .

(٢) لاحظ مثلاً دفته في الكلام عن فارس وعمايته الشديدة بتقسيماتها الإدارية ، ص ١٠٠ وما بعدها .

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

٤ - أن أقاليم قرطبة ١٣ .

٥ - سائر مدن الأندلس المذكورة ١٦ ذكرها بأسماؤها ، وجعلها كلها مدناً ليس فيها كورة واحدة .

وللإصطخري نص آخر طويل ، ملخصه ما يلى :

١ - أن لقرطبة ١٣ رستاقاً هى :

أرجونة على ١٥ ميلاً .

قسطللة على ١٣ ميلاً من أرجونة .

شوذر على ١٨ ميلاً من قرطبة .

مارتُش على ١٥ ميلاً من قرطبة .

قَتْبَانْش على ١٥ ميلاً من قرطبة بموضع يقال له قنباية .

مرج ابن لقيط على ٢٥ ميلاً من قرطبة .

بلاط مروان على ٣٠ ميلاً من قرطبة .

بُرْيَانَة

حصن بلكونة على ٤٠ ميلاً من قرطبة .

الشنيذة (السند) على يومين من قرطبة ، المنزل فج ابن لقيط .

وادى عبد الله على ٤٠ ميلاً من قرطبة ، المنزل وادى الرمان .

فريش على ٦٠ ميلاً من قرطبة .

جيان على ٥٠ ميلاً من قرطبة ، اسم الرستاق أولية .

٢ - يعتبر الإصطخري جيان كورة ، ويقول إن « بكورتها حر هو فى عداد نواحيها » .
ومن رأينا أن « حر » ينبغى أن تقرأ : جزء .

ومدنها ، أى مدن جيان :

الجَعَز على ١٠ أميال من جيان .

بيغوا .

مارتش في قنباية .

متيشة .

غرناطة ، على وإد به مئبة طوله ١٣ ميلاً فيه للسلطان كل عجيبة .

بياسة .

٣- ويقول : قلت : هل بقى لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن ؟ قال : لا ، قلت : فأشيبيلية وبجانة ، وذكرت عدة من البلدان ، قال : هذه نواح لها أقاليم ، كما تقول : القيروان وتاهرت وسجلهاية . وهم يسمون الرستاق إقليمياً ، فعلمت أنها كور على قياسنا .

٤- عرض المقدسى كلامه على شيخ من مشايخهم ، فقال : على هذا القياس يجب أن تكون الأندلس ١٨ كورة ، فعد : بجانة - مالقة - بلنسية - تدمير - سرقسطة - يابسة ؟ - وادى الحجارة - تطيلة - وشقة - مدينة سالم - طليلطة - إشبيلية - بطليوث - باجة - قرطبة - شذونة - الجزيرة الخضراء .

وزاد آخر : ليرة - خشنية (١) .

وغريب أن يخلط المقدسى هذا الخلط مع أنه كتب كتابه بعد الرازى بنحو قرن ، فإن جغرافية الرازى كتبت حوالى سنة ٨٩٠ م . فى حين أن المقدسى كتب كتابه سنة ٩٨٥ . ومن الواضح أنه لم ينظر فيه واكتفى بالاعتماد على معلومات أخذها عن بعض الأندلسيين مشافهة ، وربما كانت لمعلوماته لهذا السبب أهمية خاصة .

والمهم لدينا أن أولئك الأندلسيين قالوا إن بلادهم أقاليم ، وأنهم يسمون الرستاق إقليمياً ، والمعروف أن الرستاق جزء من الكورة ، وعندما أرادوا أن يطبقوا تقاسيم المشرق على الأندلس قالوا إن الأندلس يجب أن تكون على ذلك ١٣ كورة . وبهنا فى كلامه ما نقله عن ابن خرداذبة أن الأندلس ٤٠ مدينة ، وحقيقة قال ابن خرداذبة ذلك ، وقد ألف ابن خرداذبة كتابه بين سنتى ٢٣٠ و ٢٣٤ / ٨٤٤ - ٨٤٨ ، وقال ذلك أيضاً يعقوبى الذى كتب بعد ذلك بخمس عشرة سنة ، والهمدانى وقد كتب بعد يعقوبى بثلاثين سنة . أما

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٤ - ٢٣٦ .

معاصره ابن رسته فحديثه عن الأندلس قليل القيمة^(١).

فإذا كان أوائل الجغرافيين - من أمثال ابن خرداذبة واليعقوبي والهمداني وابن رسته - لا يشيرون صراحة إلى أن الأندلس كان مقسماً إلى كور، وإنما هو عندهم مقسم إلى مدن، ولا يذكرون « الكورة » إلا نادراً وعلى سبيل التجوز لا التحديد، وإذا كان متأخروهم - كالإصطخرى وابن حوقل والمقدسى - ينصّون على « المدن » نصاً صريحاً، فلا تذكر الكورة عندهم إلا على سبيل الشرح والتوضيح، كما رأينا في حالة المقدسى، فإن ذلك يدل على أن الأساس الأول الذي اتخذ لتقسيم الأندلس كان الأساس الروماني والقوطي من بعده، وهو نظام المدن ذات الحوز. فإذا قالوا مدينة تطيلة مثلاً أرادوا بذلك « ولاية » واسعة منسوبة إلى تطيلة. ولم نأت بلفظ « الولاية » هنا من عندنا، بل إنه مصطلح يستعمله الجغرافيون كقول ياقوت. « طرطوشة، مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تعد في جملتها^(٢). وقوله: « كركي، اسم حصن من أعمال أوريط بالأندلس له ولاية وقرى^(٣). » و« ولاية » هي الترجمة الاصطلاحية لفظ (Provincia)، وقد سميت الديقونيات الرومانية ولايات دوقية (Provincia Ducado) ودوقية كونتية (Provincia Condado)^(٤) بحسب رتبة القائد الذي كان يتولاها، لأن الأقسام الإدارية كلها أصبحت وحدات عسكرية، فقد كان القوط شعباً محارباً. وحلّ محلهم العرب، وكانوا شعباً محارباً أيضاً، فمضوا على هذا النظام، واعتبروا الأندلس كله مدناً لا كوراً.

* * *

٢٧١ - ظهور أما مصطلح الكورة فلم يظهر إلا بعد سنوات، وظهر على سبيل التجوز مصطلح الكورة لا على أنه مصطلح إداري. وأول ما نسمع به في سنة ١٣٥ / ٧٥٢ في خبر تفريق أبي الخطار الحسام بن ضرار الكلبي للشامية على ست كور مذكورة بأسماها وهي: البيرة وريه وشذونة وإشبيلية وجيان وباجة^(٥). وتذكر أيضاً تدمير ولكنها لم تكن إذ ذاك

Cf: JOSÉ ALEMANY BOLUFER, La geografía de la Peninsula Iberica en los escritores (١) árabes (Revista del Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino) tomo IX 1919 n. 3 - 4 pp. 119 sqq.

(٢) ياقوت، ج٦، ص ٤٣.

(٣) ياقوت، ج٧، ص ٢٤١.

(٤)

LÉVI - PROVENÇAL, op. cit. III, p. 48.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص ٣٣.

كورة ، وإنما كانت ناحية معاهدة بيد صاحبها تدمير ، ولم تصح كورة إلا في عهد عبد الرحمن الداخل .

ونلاحظ أن هذه الكور كلها في الجنوب والجنوب الغربي ، وأنها كانت كوراً مجندة على نظام أجناد الشام الخمسة ، ولم تكن أجناد الشام « كوراً » ككور مصر مثلاً ، بل كانت مناطق عسكرية كما قلنا . على أن لفظ الكورة استعمل بعد ذلك ، فقد ذكر صاحب «الأخبار المجموعة» أن الصميل بن حاتم ويوسف الفهري ومن معها «اجتمعوا على يوسف بأن تركوا كورة ربه ليحيى بن حريث» (١) .

ويبدو أن نظام الكور فيها يتصل بنواحي الجنوب عُمَم من أيام عبد الرحمن الداخل ، أما نواحي الثغور التي ذكرناها فقد ظلت مدناً ذات أحواز حتى نهاية أيام الخلافة .

بهذا يكون العرب قد أخذوا - فيما يتصل بالتقسيم الإداري - بالنظام الروماني القوطي الذي وجدوه ، ثم عدّلوه بعض الشيء بحسب ما اقتبسوه من نظم المشرق ومؤثراته ، ولكنهم تركوا نواحي الحدود والثغور كما هي : مدناً عسكرية ذات أحواز (٢) .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٧ .

(٢) ويلاحظ أن مصطلح الكورة لم يكن في بلاد الإسلام محدد المعنى بالشكل الذي تنصوره ، خذ مثلاً تعريف ياقوت للكورة ، وهو أدق ما لدينا : « ذكر حمزة الأصفهاني أن الكورة اسم فارسي بحت (كذا) يقع على قسم من أقسام الآستان . وقد استعارها العرب وجعلتها اسماً للآستان ، كما استعارت الإقليم من اليونانيين ، فجعلتها اسماً للكشغر . فالكورة والآستان واحد ... قلت أنا : الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من نصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة ، كقروم : دارابجرد ، مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته كورة دارابجرد ، ونحو نهر الملك ، فإنه نهر عظيم يخرج من القرات ، ويصب في دجلة ، عليه نحو ٣٠٠ قرية ، ويقال كذلك جميعه نهر الملك ، وكذلك ما أشبه ذلك » - (ياقوت ، ج ١ ، ص ٣٦) .

وهذا كلام غير متناسق لا يخرج الإنسان منه بمفهوم واضح للكورة . وربما كان سبب ذلك الغموض أن «الكورة» كمصطلح إداري لم تستعمل بصورة منتظمة إلا في مصر ، أما في العراق وما يليه شرقاً فكان المصطلح يستعمل مجزئاً ، وقد استعمله الجغرافيون من أمثال المقدسي والاصطخري للتسهيل . وهما يخلطان بين الكورة والريستان والآستان والزَّيم وما إلى ذلك من المصطلحات الإدارية . أما في الأندلس ، فلم يستعمل لفظ «كورة» استعمالاً دقيقاً ، وأظهر مثال لذلك استعماله في الروض المطعار . مثلاً : أفلش : « ... وهي فاعلة كور شتيرية » (ص ٢٨) - أئش : « ... من كور تدمير » (ص ٣١) - أندة : « ... مدينة من كور بلنسية » - أوربولة : « ... حصن بالأندلس ، وهو من كور تدمير » (ص ٣٤) ، ومثل هذا كثير جداً . وقد ذهب ليفي برونسفال إلى أن كور هنا معناها كورة ، أي : أن الجميع يستعمل في معنى المفرد .

LÉVI - PROVENÇAL. Hist. de l'Esp. Mus. III, 48.

ولكننا نرجح أنه يستعمل الكورة هنا بمعنى الإقليم .

٢٧٢ - التقسيمات الفرعية : الإقليم ولكنهم لم يتابعوا المشرق في التقسيمات الفرعية للكور والمدن . فهم لم يقسموا الكورة والمدينة إلى رساتيق أو ما يشبهها . لأن الرستاق - كالكورة - قسم زراعى يشتمل على مساحة مزروعة فيها قرى . ولم تكن المساحات الأرضية هى أساس التقسيم فى الأندلس ، بل كانت المدن وما يتصل بها من أحواز . وإذا كانت المدينة تابعة للكورة فى المشرق ، فإن الكورة هى التى تتبع المدينة فى الأندلس . ولهذا فقد قُسمت الكورة أو المدينة فى الأندلس إلى مدن أو نواح ، لكل مدينة أو ناحية حوز يسمى الإقليم . قال ياقوت فى تعريف الرستاق : « قلت : الذى عرفناه وشاهدناه فى زماننا فى بلاد الفرس أنهم يعنون بالرستاق كل موضع فيه مزارع وقرى . ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد (أى أرض زراعية) عند أهل بغداد ، وهو أخص من الكورة والاستان » (١) .

وقال فى تعريف الإقليم عند الأندلسيين : « الاصطلاح الثانى لأهل الأندلس خاصة ، فإنهم يسمون كل قرية كبيرة جامعة إقليمياً . وربما لا يعرف هذا الاصطلاح إلا خواصهم ، وهذا قريب مما قدمناه عن حمزة الأصفهاني ، فإذا قال الأندلسى : أنا من إقليم كذا ، فإنها يعنى بلدة أو رستاقاً بعينه » (٢) . وهذا تعريف واضح يدل على أن الأندلسيين يعنون بالإقليم القرية الكبيرة أو البلدة وحوزها المتصل بها طبعاً . قارن ذلك بمعنى الإقليم عند المشاركة : « كل ناحية مشتملة على عدة مدن وقرى إقليم ، نحو الصين وخراسان والعراق والشام ومصر وأفريقية ونحو ذلك » (٣) فالإقليم فى الأندلس بلدة تتبعها أرض ، وفى المشرق أرض تتبعها بلاد ، والفرق واضح لا يحتاج إلى بيان . فى الشرق أخذ العرب الأساس الفارسى وهو الأرض ، وفى الأندلس أخذوا الأساس الرومانى وهو المدينة .

ولا عجب والحالة هذه أن كانت مدن الشرق جميعها قرى كبيرة فى اضمحلال متصل ، ومدن الأندلس مدناً حقيقية ذات نظام وتخطيط وهينة ، وكانت فى صعود دائماً . ولا غرابة فى أن يفاخر المشرقى المشاركة بمدن الأندلس ، ويقول إننا نجد فى الأندلس المدينة الكبيرة إلى جانب المدينة الكبيرة . ولا غرابة أيضاً فى أن نجد فكرة أمراء الأندلس فى إنشاء المدن أقرب إلى المفهوم الصحيح للمدن ، وما من ناحية اختطوها هناك إلا بقيت إلى يومنا هذا ، وأماننا

(١) ياقوت : معجم ، ج ١ ، ص ٣٧ - ٢٨ .

(٢) ياقوت : معجم ، ج ١ ، ص ٣٩ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

مرسية والمرية وتظيلة ومدينة سالم وقلعة أيوب وما إليها ، نستطيع أن نقارنها بالبصرة والكوفة وواسط والأنبار والفسطاط والمهدية وما إليها مما دثر وذهب أمره ، لأنها إما كانت معسكرات أو مراكز زراعية .

وقد أوردنا فيما سبق أمثلة من الأقاليم التي تنقسم إليها الكور والمدن ذات الأحواز ، ولكن العذرى يقدم لنا خصوصاً تزييد معنى الإقليم الأندلسى وضوحاً ، وبهنا بصفة خاصة حديثه عن أقاليم قرطبة ، قال :

عدد أقاليم قرطبة ، وهى خمسة عشر إقليماً :

إقليم المدور :

عدد قرأه فى المغارم ^(١) تسعون قرية ، منها فى العشور ثلث [...] .

القمح : ٨٥ مدياً و٤ أفضة .

الناض ^(٢) : ٣٩٨٠ مثقالاً .

الطبل ^(٣) للعام : ٤١٤٠ ديناراً .

الصدقة والبيزرة : ٤١٢ ديناراً و٤ دراهم .

إقليم القصب :

القرى فى الوظائف ٨٧ ، منها فى العشور ٥٦ قرية .

القمح : ١٤٢ مدياً .

الشعير : ١١١ مدياً .

الطبل للعام : ٢٧٠٠ دينار و٤ دراهم .

الناض للحشد : ٤٧٧٢ مثقالاً .

الصدقة والبيزرة : ٢٠٣ دينار و٤ دراهم .

(١) المغرم : تسمية عامة تطلق على الضرائب غير الشرعية ، والجمع مغارم .

(٢) كانت الضرائب على المتقولات فى الأندلس تجبى نقداً أو عيناً ، فإذا بيعت نقداً سميت الناض ، وإذا بيعت عيناً سميت وظيفاً ، وكان الناض يعتبر فى الأندلس ضريبة خاصة بالجيش ، وهذا يسمى أحياناً الناض للحشد .

(٣) الطبل ضريبة شخصية ، كان الناس يؤدونها عيناً ، وتعتبر معونة مالية للدولة فى مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية .

إقليم لُؤرة :

٦٤ قرية ... منها للعشور ...	القرى
١٧٣ مدياً و١٠ أفقرة	القمح
٣٠٠ ... و ... قفيز	الشعير
٢٤٧٢ مثقالاً	الناض للحشد

إقليم الصَّدَف :

٢٨ قرية ، منها للعشور ...	القرى
٨٩ مدياً و١١ قفيزاً ...	القمح
١٩٣ مدياً ...	الشعير
[...] ٤٧٥ مثقالاً	[الناض]
[...] :	الصدقة
[...] ٥٥ [...] و $\frac{1}{4}$	الطبل للعام

إقليم بنى مُرة :

١٧ قرية	القرى
١١٧ مدياً [...] أفقرة	القمح
٢٥٤ مدياً و٣ أفقرة	الشعير

إقليم مَيَّانة :

٢٦ قرية	القرى
١٢١ مدياً [...] قفيزاً	القمح
٢٢٨ مدياً و٦ أفقرة .	الشعير
٧٠٠ مثقال	الناض للحشد

إقليم كُرْتَش :

٦٠ قرية ، منها للعشور ٣٠ قرية	القرى
-------------------------------	-------

القمح	: ٢٢٠ مدياً [...] أفضزة
الشعير	: ١١٦ مدياً و٦ أفضزة
الناض للحشد	: ٧٣٠ مثقالاً
الطيب للعام	: ١٧٨٢ ديناراً ، و٤ دراهم
الصدقة والبيزرة	: ٤٩ ديناراً و٤ دراهم

وهكذا بالتفصيل في بقية الأقاليم ، وهذه هي أسماؤها مع عدد قراها :

إقليم الفتل	: ٤٨ قرية
إقليم الهزهاز	: ٧٣ قرية
إقليم وإيه الملاحة	: ٨٤ قرية
إقليم وإيه الشغراء	: ٩٤ قرية
إقليم أولية السهلة	: ١٠٢ قرية

ولى هنا ينتهى بيان الأقاليم كما يورده العذرى ، أى أنه يذكر أن عدد الأقاليم ١٥ ولا يذكر إلا ١٢ (١).

ونخرج من هذا البيان القيم بأن الأقاليم كانت محددة تحديداً دقيقاً بما على كل منها أن تؤديه من الجبايات ، وهذا التحديد لا يذكر ما على كل قرية أن تؤديه بل تذكر جملة ما ينبغي أن يؤديه كل إقليم في مجموعه من أصناف الضرائب . أى أن الإقليم كان وحدة مالية في نظر الدولة ، وهذه هي الحقيقة الأولى التى تهمنى ملاحظتها هنا .

ثم نعود فنسأل : ما هو الأساس الذى عمل عليه هذا التقسيم ؟ لو أن المسلمين هم الذين وضعوه للاحتظنا بين الأقاليم لونا من التناسب في عدد القرى على الأقل ، فلا نجد

(١) قال أبو عبيد البكري : « وبقرطبة أقاليم كثيرة وكور جليبة ، وكانت جباية هذه الأقاليم في إمام الحكم بن هشام :

الحشد وناض الطبل وناض البيزرة للعام ١٤٢٠٠٠

ومن وظيفة القمح ، مدياً ٥٣٠٠٠

ومن الشعير ٧٣٠٠٠ ... ٤

أوراق من جغرافية البكري جمعها ليفى بروفنسال ذيلاً على ترجمته الفرنسية للروض المعطار :

إقليمياً ١٧ قرية وإقليمياً ١٠٢ ، ثم إن أساء معظمها ليس عريباً عما يدل على أن الإقليم بحدوده واسمه كان موجوداً قبلهم ، كما حدث في مصر ، عندما أخذ العرب الباجركيات البيزنطية (Pagarchoi) وسموها كوراً ، وتلك هي الحقيقة الثانية التي يحتمل النص عليها .

وإذن فالأقاليم وحدات إدارية مالية وجدها العرب بحدودها عند دخولهم ، فتبنوا هذه الحدود وحددوا ما عليها من المال . كل إقليم يضم عدداً من القرى ، فهناك قرى تدفع العشور ، وهي بطبيعة الحال قرى الحبوب ، والزراعات ، وقرى تؤدي جبايات تحدد بحسب طبيعة إنتاجها ، وهي نواحي الثمار والأشجار والزيتون والغابات والصيد والمعادن وما إليها . والقرية في ذاتها ليست وحدة ، بل الإقليم هو الوحدة .

وللعزرى نص آخر يذكر الأقاليم بحدودها الجغرافية ، وإذا ضمنا هذا النص إلى النص السابق ازداد معنى الإقليم عندنا وضوحاً . يقول العزرى :

أقاليم سرقسطة :

إقليم المدينة : وهو من باب سرقسطة ، قبلتها منها إلى عقبة مليلة .

إقليم قصر عباد : وهو متصل بإقليم المدينة . وقصر عباد مجاور لطرطوشة ، وهو في هذا العصر منصرف إلى طرطوشة .

إقليم قُنْدَة : وهي على ستين ميلاً من مدينة سرقسطة . وفي هذا الإقليم يخرج نهر بلطش (Pleitos) من فج يُعرف بفج بذره (Pedro ?) .

إقليم زيدون : وهو مجاور لطرطوشة ، ومجاور لبلسية ، ومجاور لتدمير ، ومجاور لشتت بريه . وفي هذا الإقليم من ناحية مدينة غَلُوَاذه يتفجر نهر شليقَه (Jalico) ثم يمضي حتى يواقع نهر شلون (Jalón) .

إقليم بَلْطُش (Pleitos) : ونهره يسقى من قرية مواله (Muela del Ebro) إلى مدينة سرقسطة ، طول ٢٠ ميلاً ، غرب عن عين بلطش .

إقليم قَنْتَش : وله عين ، يسقى من ناحية بلد نوبه (Villa Nueva) إلى أن ينصب ماؤها في نهر ابره ، طوله ٢٠ ميلاً .

إقليم شَلُون : وهو غربي من سرقسطة ، ونهره يسقى من قرية قبائس (Cabañas de

(Ebro) وركله (Riela) . وحكى بعض من يعرف نهر شلون أنه يعم بالسقيا نحو ثمانين قرية .

إلى آخر هذه الأقاليم ، وواضح أن هذه التحديدات كلها زراعية ، تُعنى بالرى والأنهار والعيون وما تسقيه . والتقسيم الزراعى فى أساسه مالى ، لأن الذين يرسمونه ينظرون إلى ما يغله كل قسم وما يؤديه من جباية . ثم إن التحديدات الجغرافية تحديدات ثابتة لا تتغير بتغير الأعصر ، أى أن حدود الأقاليم كما أقرها المسلمون كانت موجودة قبلهم ، فأخذوها كما هى ، بأسائها فى معظم الحالات ، وترجموها أو أعطوها أسماء عربية فى أحوال قليلة .

وليس معنى ذلك أن كل الأقاليم أخذها العرب كما هى ، بل الحكم هنا على الأمر الغالب ، لأن استقرار قبائل العرب والبربر فى بعض النواحي أوجد أقاليم جديدة تنسب إلى من سكنها ، كإقليم القاسم أو بنى القاسم الداخلى فى حوز مدينة سالم ، فقد كان إقليمياً واسعاً نسب إلى أولئك القوم ، وهو الذى ذكره الإدريسى باسم إقليم القواصم وصحتها القواصم ، وإقليم بنى مرة فى حوز قرطبة ، وإقليم زناتة وإقليم كنانة فى حوز بلنسية ، وما إلى ذلك .

ويذكر العذرى إلى جانب الأقاليم أقساماً إدارية أخرى تسمى الأجزاء ، الجزء -tr٢
مفردها « جزء » . وهو يورد هذه الأجزاء بعد الأقاليم مباشرة ، مثال ذلك فى كلامه عن بلنسية يقول :

أقاليم بلنسية :

إقليم الميِّرة (Almenara) ، إقليم أنده (Onda) ، إقليم شُيْرِب ؟ ، إقليم زناتة (Za- nete) ، إقليم كنانة (Benicanena) ، إقليم شلينة ، إقليم أولهيل (Ollierea) ، إقليم لباه ، وله رتبة أولية ، إقليم مح ؟ ، إقليم شارقة (Jerica) .

ثم تلى ذلك الأجزاء دون أى تفصيل :

جزء الساحل ، جزء قلبيرة (Calavera) ، وجزء الجزيرة ، جزء البيضاء (Albayda) وغلثار ، جزء الأسد ، جزء فحص شاطبة ، جزء براكانه ، جزء مدينة التراب ، جزء مصمودة ، جزء بنى غتيل ، جزء قسطانية ، جزء فقيرة (Viguera) ، جزء مسل ، جزء مريبطر .

ونلاحظ أولاً أن عشرة على الأقل من هذه الأجزاء منسوبة إلى مدن من كورة بلنسية ، وأن اثنين منسوبان إلى أقوام : مصمودة ، بنو غتيل ؛ واثنين منسوبان إلى معالم جغرافية : الساحل ، الأسناد .

وليس هناك ما يدل على أن هذه الأجزاء كان فيها قرى . وقد وقع في ظني أنها قد تكون أجزاء من أقاليم ، فلم يصح ذلك ، ولم يصح أيضاً أن تكون أجزاء أو أحياء من مدينة بلنسية نفسها .

وقد وجدت عند ياقوت - وهو كثر الجغرافية الإسلامية ، ولم يُدرس بعد دراسة كافية - تعريفاً للجزء في الأندلس يعيننا بعض الشيء على فهم معناه ، فقد قال في كلامه عن مدينة رباح : « ولها عدة قرى ونواح ، ويسمونها الأجزاء ، يقوم مقام الإقليم ، كما ذكرنا في اصطلاحهم في لفظة الإقليم في أول الكتاب ، منها جزء البكرين ، وجزء اللخمين وغير ذلك »^(١) . وقال تحت لفظ « جزء » : « رمل الجزء بين الشحر وبيرين ، طوله مسيرة شهرين ، تنزله أفناء القبائل من اليمن ومعدّ ؛ وعامتهم من بنى خويلد بن عُقيل ، قيل إنه يسمى بذلك ، لأن الإبل تجرّأ فيه بالكلا أيام الربيع فلا ترد الماء »^(٢) . وهذا التعريف ينطبق على ما ذكر آنفاً من الأجزاء : « جزء البكرين وجزء اللخمين وغير ذلك » . ثم لاحظت أن الأجزاء لا توجد إلا في النواحي التي تكثر فيها أراضي المراعى مما نزلته بطون العرب بكثرة : إشبيلية وبلنسية وقلعة أيوب وما يشابهها ، ولا توجد في النواحي المحروثة المزروعة من قديم الزمان ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما لاحظناه من أن معظم الأجزاء ينسب إلى مدن ، خرجنا من ذلك بأن الأجزاء قد تكون مساحات من الأرض خصصت للإبل والماشية ، وينطبق عليها حكم أرض العشب والكلا في التشريع الإسلامي ، فلا تكون مملوكة لأحد ، وإنما مشاعاً للجماعة كلها ، ولا يجبي عنها مال . وقد كانت في شبه الجزيرة أراض كثيرة يجري عليها هذا الحكم من قديم الزمان ، وهي أراضي المراعى المشاع (Compascuas) التي ذكرناها آنفاً .

بهذا تكون قد اجتمعت لنا فكرة واضحة إلى حد ما عن الأساس الذي اتخذته العرب لتقسيم الأندلس تقسيماً إدارياً : ساروا على ما وجدوه قائماً في البلاد مع تكيفه على نحو

(١) ياقوت ، ج ٤ ، ص ٢٢٠ .

(٢) ياقوت ، ج ٣ ، ص ٩٣ .

يتفق مع ظروفهم في شبه الجزيرة دون أن يغيروا روحه : ظلت المدينة هي الأساس تتبعها الأرض ، وحينما حولوا بعض المدن إلى كور ظلت المدينة أساس الكورة ، ولم تكن الكورة هي الأساس تتبعها المدينة . ولم تكن المدينة في الأندلس بمعناها في المشرق : مجموعة من الأبنية يحددها سورها ، بل بالمعنى الرومانى : نواة لإقليم أو أقاليم كل أهلها يُعتبرون من أهل المدينة . وقد اقتضى الأمر اعتبار الكثير من مدن الجنوب وحدات مستقلة ، فجعلوها كوراً ، لأن مركز الثقل في الأندلس الإسلامى كان في الجنوب ، ولهذا صغرت مساحات الكور في الجنوب بينما اتسعت في الشرق والغرب . أما الوسط ونواحي الشمال فقد ظلت مدناً بالمعنى الرومانى القديم ، مدناً لها أحواز وفي أحوازها تقع مدن أخرى ذات أحواز .

٢٧٤- المدينة الأم وقد جرت العادة بأن تسمى المدينة الرئيسية بالأم والجمع أمهات ، والمدن الفرعية بالبنات مفردها بنت ، وقد تتحول الأم إلى بنت إذا زادت عليها في العمارة إحدى بناتها . قال ابن عبد المنعم الحميرى في كلامه عن طرسونة : « كانت مستقر العمال والقواد بالثغور . وكان أبو عثمان عبيد الله بن عثمان ، المعروف بصاحب الأرض ، اختارها محلاً وآثرها على مدن الثغور منزلاً . وكانت ترد عليها عُشُر مدينة أريونة وبرشلونة ، ثم عادت طرسونة من بنات تطيلة ، عند تكاثر الناس بتطيلة وإيثارهم إياها لفضل بقعتها واتساع خطتها » (١) . وكذلك حدث لالبيرة ، فقد كبرت بنتها غرناطة وأصبحت الأم وعادت البيرة من بناتها . ومثل ذلك حدث لبجاجة ، إذ اختطت وعمرت واتسعت حتى صارت أمّاً ، ثم خربت وانتقل أهلها إلى المرية وعادت المرية أمّاً .

وتسمى المساحة التى تشغلها المدينة نفسها بخطة المدينة ، وقد تكون الأم أكبر مدن الناحية وأمهما دون أن تكون القاعدة أو القصبه ، لأن القاعدة أو القصبه يُشترط فيها الحصانة والمنعة ، وخاصة في نواحي الثغور . فلم تكن قبرة مثلاً قصبه الكورة المنسوبة إليها ، بل كانت القصبه بيّانة ، لأنها - كما يقول ياقوت - « كبيرة حصينة على ربوة يكتنفها أشجار وأهبار » (٢) . وكذلك الحال مع قلب - وهى Calpe القديمة - فقد كانت أول الأمر قاعدة

(١) الروض الماطر ، ص ١٢٣ .

وقد يستعمل لفظ « الأم » للدلالة على أكبر مدن الناحية ، قال صاحب « الروض » في الكلام عن أولية السهلة (ص ٣٤) : « بالأندلس ، قرية من قرطبة ، تعرف بالرملة ، وهى أم الأقاليم ، كثيرة الأهل واسعة الخطة ، مشرفة الأرضين ، بها ديار للمعجم متفحة البنيان ... » .

(٢) الروض الماطر ، ص ١٦٢ والترجمة الفرنسية ، ص ١٩٤ وتعلقب ٣ .

كورة مورور^(١). وعندما اختط الأمير محمد مدينة مجريط جعلها قاعدة « مدينة » وادى الحجارة. وكذلك عندما اختط عبد الرحمن الأوسط مدينة مرسية، نقل إليها قاعدة كورة تدمير، وكانت قبل ذلك في أوريولة^(٢). وتسمى الضواحي بالأرباض، مفردها رِبَض، إذا كانت صغيرة متصلة بعمارة المدينة، فإذا كانت كبيرة منقطعة عن عمارة البلد سميت بالحاضر، مثال ذلك أن طرّبانة كانت «حاضراً من حواضر إشبيلية»^(٣).

٢٧٥- الحصون وكما تتبع المدينة مدن، فكذلك تتبعها حصون ومعقل. ويغلب على الظن والمعقل أن هناك فرقاً بين الحصن والمعقل. فالحصن موضع محصن مأهول يشبه أن يكون مدينة، وقد تتبعه حصون أخرى، وقد يكون له حوز. مثال ذلك حصن بيطرة فقد عرّفه ياقوت بقوله: « بلدة وحصن من أعمال سرقسطة »^(٤)، وقال عن كركى: « اسم حصن من أعمال أوريوط بالأندلس له ولاية وقرى »^(٥)، وقال ابن عبد المنعم عن قَيْشَاة: « حصن بالأندلس كالمدينة، بينه وبين شوذر اثنا عشر ميلاً، وفي قيشاطة أسواق وربض عامر وحمام وفنادق »^(٦). أما إذا اتسع الحصن عن ذلك فيصبح « قلعة مدينة » أى حصناً كبيراً ومدينة كبيرة أيضاً، ومثال ذلك قلعة أيوب وقلعة رباح. في حين أن المعقل لا يزيد عن أن يكون موضعاً محصناً يلجأ إليه المزارعون إذا دامهم خطر، أى أنه مجرد كراال (Kraal). وقد كانت المعقل كثيرة جداً في الأندلس، لا يشذ عن ذلك إلا معقل « رُندة » فقد تحول إلى بلد.

ومن غير المبسور الآن تقدير حوز كل كورة ومدينة، أو رسم خريطة دقيقة للأندلس الإسلامى وتقسياته الإدارية، لأن البيانين اللذين يقدمها نص جغرافية الرازى المترجم و« التعليق المنتقى » من « فرحة الأنفس » وما لدينا من جغرافية العنبرى وأوراق جغرافية البكرى، كل هذه لا تقدم إحصاءً بأقاليم كل كورة ومدينة وحدود هذه الأقاليم، ولعل

(١) ياقوت، ج٨، ص ٣٩٤.

(٢) ياقوت، ج٨، ص ٢٤.

(٣) ياقوت، ج٦، ص ٤٧.

(٤) ياقوت، ج٢، ص ٣٣٩.

(٥) ياقوت، ج٧، ص ٢٤١.

(٦) الروض المعطار، ص ١٦٥.

وراجع أيضاً كلامه عن حصن « جنجالة » (ص ٦٧) وحصن الثلج (ص ١٠٨) وحصن الكرس (ص ١٦٦) -

جغرافية العذرى لو كانت كاملة لأعانتنا على إدراك هذا المطلب ، ولكنها كما قلنا ناقصة ، فلم يبق لدينا إلا الاكتفاء بمعرفة الأسس العامة للتقسيم وإحصاء الكور والمدن على ما بيناه ، وربما أعاننا الحظ في المستقبل على إكمال الصورة .

وقد ذهب ليفى بروفنسال إلى أنه من الممكن رسم صورة كاملة للتقسيم الإدارى للأندلس بالاستعانة بكتب التاريخ ، وهذا صحيح ، ولكن ما بين أيدينا من أصول تاريخ الأندلس مبتور في مواضع شتى ، كما هو الحال مع جغرافية العذرى . وقد أحصى بروفنسال سبعاً وعشرين كورة غير الثغور . وهذه الكور هي : قرطبة - فحص البلوط - قبرة - استجة - إشبيلية - قرمونة - بلبة - أكثونية (شلب) - باجة - مورور - شذونة (فلسانة) - الجزيرة الخضراء - تاكرنا (رنذة) - ريه أو مالقة - البيرة - جيان - بجانة - تدمير (مرسية) - شاطبة - بلنسية - طليطلة - طليبة (أقلش) - ماردة - بطليوس - شترين - لشبونة - قلمرية^(١) .

وقد تكون هذه هي كور الأندلس في القرن العاشر الميلادى ، ولا نستطيع الآن أن نناقش هذه القائمة ، لأننا لا نملك إحصاء كاملاً لما في كتب التاريخ من معلومات .

* * *

٢٧٦ - تقسيم مجارى الأنهار وقد تبع اعتباراً المدن وأحوازها وحدات إدارية بضع صور إدارية لا نجد لها شبيهاً في المشرق ، كاتباع الأنهار أو أجزاء منها للمدن التي تقع عليها أو الأقاليم التي تقع فيها ، مثال ذلك قول العذرى في كلامه عن إقليم جَلَّقُ من أقاليم سرقسطة : « ونهره يسقى ما وأزى قنطرة سرقسطة عشرون ميلاً . ونخرج نهر جَلَّقُ (EI Gallego) من جبال السيرطانيين ، ثم يخرج إلى ناحية وشقة إلى سرقسطة ، ويقع في ابَّره ، والجزء الأعلى من نهر جَلَّقُ يروى من الصخرة إلى منزل حسان إلى قنطرة سرقسطة عشرون ميلاً »^(٢) . فهنا نرى بوضوح أن النهر تابع للإقليم ، بل إن الأجزاء التي يروها محددة تحديداً تاماً ، كما تحدد النواحي التي تروها الترع والقنوات في نظم الري الحالية . وتسمية النهر باسم الإقليم هنا ليست تسمية جزافية بل لها معنى التبعية الإدارية .

LÉVI - PROVENÇAL, Hist. de l'Espagne Musulmane, III pp. 49 - 51.

(١)

(٢) العذرى : نظام المرجان ، ورقة ١٦١ .

ومثال ذلك أيضاً قوله في الكلام عن إقليم شلون (El Jalón) : «وهو غربي من سرقسطة ، ونهره يسقى من قرية قبانش وركله إلى باب سرقسطة ٤٠ ميلاً ، وحكى بعض من يعرف نهر شلون أنه يعم بالسقيا نحو ٧٠ ميلاً» (١) . ومعنى ذلك أن أربعين ميلاً من مجرى شلون تبع لإقليم شلون ، والباقي خارج عن هذه التبعية . وعلى هذا الأساس قالوا نهر مرسية ونهر بلنسية وما إلى ذلك ، فقد كانت هذه الأنهار أساؤها الجغرافية وكان العرب يعرفونها ، ولكن نسبة النهر هنا تحمل معنى التبعية ؛ أى أن نهر مرسية داخل في حوز مرسية وأقاليمها ، ونهر بلنسية كذلك . بل إن مجارى الأنهار الطويلة كانت تقسم ، فدخل كل قسم منها في حوز مدينة ، ومثال ذلك نهر الوادى الكبير ، فهو في زمام إشبيلية نهر إشبيلية ، والجزء الداخلى من مجراه في حوز قرطبة يسمى نهر قرطبة ، وفي حوز جيان يسمى نهر جيان ، وقس على ذلك بقية كبار الأنهار .

وكانت لمسلمى الأندلس من أول الأمر عناية بالموانى ، نظراً لأهمية الصلات ٢٧٧-المراس مع العدو الأفریقیة . وكانوا يسمون الميناء مرسى ، وهى تسمية لها معناها بالنسبة لطبيعة الموانى الإسلامية في الغرب الإسلامى في هذه العصور الأولى . ويلاحظ أن أهل المغرب والأندلس دون غيرهم من أهل الدولة الإسلامية ، توسعوا في استعمال لفظ المرسى مقابلاً للميناء وخاصة فيما يتصل بها أنشأه المسلمون منها ، فهم يقولون «مرسى تونس» و«مرسى الخزر» و«مرسى الدجاج» و«مرسى المرية» و«مرسى بجانة» وما إلى ذلك ، وهذه كلها موانٍ جديدة نشأت بعد الفتوح الإسلامية ، أى أن الميناء كان يبدأ عادة بأن يكون مرسى للسفن ثم يتطور بعد ذلك كما تطورت تونس والمرية وبجانة ، فأصبحت مدناً ومراسى في نفس الوقت .

ويُفهم من كلام صاحب «الروض المعطار» أن الميناء قد يبدأ في أول أمره رباطاً بحرياً ، ثم ينشأ عنده مرسى ، ثم يتحول إلى مدينة ، كما حدث في المرية (٢) ؛ وقد يبدأ إقطاعاً بحرياً لقبيل من العرب في مقابل حفظ الساحل ، فينشأ فيه مرسى ثم ميناء كما كان الحال مع بجانة . وفي حالة هذه الأخيرة نضع أيدينا على «ميلاد» مدينة . قال صاحب «الروض» : «وبقرب بجانة كان جامع الإقليم الأعظم ، إلا أنها كانت حارات مفترقة ، حتى نزلها البحريون وتغلبوا على ما كان فيها من العرب ، وصار الأمر لهم ، فجمعوها وبنوا

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) الروض المعطار ، ص ٣٧ .

سورها»^(١) . وقد كانت بجانة - كما هو واضح هنا - قرية صغيرة (هي التي تعرف باسم Pechina) ، وكان حولها أحياء كثيرة أهلة متفرقة هي المسماة هنا بالحارات . وكان لأهل هذه الحارات مسجد جامع كبير يقرب بجانة ، فقام أولئك البحريون بجمع الحارات بعضها إلى بعض ، وأقاموا سوراً حولها وحول بجانة والمسجد الكبير ، فنشأت المدينة .

وتظهر « الضياع » في الأندلس الإسلامي من أول الأمر ، فقد ذكر ابن الضياع ٣٧٨ - الضياع القوطية أن أبناء غيطشة حالفوا طارق بن زياد على « أن يمضى لهم ضياع أبيهم وكانت ٣٠٠٠ ضيعة سميت بعد ذلك صفايا الملوك » ، وقد أجابهم طارق إلى ذلك ؛ وقد خص أرطباس منها ألف ضيعة كان يفرق منها على العرب . والضيعة الواحدة هي مقابل الفيلا (Villa) في النظم الرومانية ، والضياع الكثيرة المتجاورة تقابل اللاتيفونديوم (Latifundium) . وإذا كانت النصوص تدل على أن نظام الضياع استمر في الأندلس واتسع مداه ، كما كان الحال في المشرق أيضاً ، إلا أننا لا نملك ما يدل على بقاء نظام الملكيات الشاسعة (Latifundia) وربما لاحظنا تشابهاً بين الفيلا ، وهي القصر الرفي تحيط به ضيعة أو ضياع واسعة يملكها صاحب القصر ، ومصطلح « المنية » الذي كان شائعاً في الأندلس . فتعريف المنية عندهم قريب من تعريف الفيلا ، ولكن هناك فرقاً واضحاً بين الضياع والمنيات ، فالضياع قري تصير إلى ملك مالك كبير وربما أقام فيها ، في حين أن المنية ضيعة تنشأ حول قصر ريفي ينشئه المالك الكبير ، ولكن كليهما من حيث الهيئة والوضع يقابل الفيلات الرومانية ، ومعروف أن هذه الفيلات أيضاً كانت تختلف فيما بينها ، ففيها ما يشبه الضياع وفيها ما يشبه المنيات .

٣٧٩ - الفحص وهناك مصطلح آخر تحسن الإشارة إليه فيما ذكرنا من مصطلحات جغرافية إدارية ، وهو مصطلح « الفحص » وهو كثير الاستعمال في المغرب أيضاً حتى يبدو لنا أن أصله مغربي ، وقد وضع ياقوت تعريفاً للفحص ، قال : « وسألت بعض أهل الأندلس : ما تعنون به ؟ فقال : كل موضع يُسكن - سهلاً كان أو جبلاً ، بشرط أن يزرع - نسميه فحصاً ، ثم صار علماً لعدة مواضع »^(٢) وكانت الفحوص في الأندلس كثيرة ، ومعظمها أقاليم في كور ومدن ، فيقال إقليم الفحص من أعمال طليطلة أو من أعمال أكشونة أو إشبيلية . وأكبرها فحص البلوط الذي أصبح كورة فيما بعد .

* * *

(١) الروض المغطى ، ص ٣٧ .

(٢) ياقوت ، مادة فحص .

وقد يكون بعض الحقائق التي ذكرناها قد وقع فيها بعد ، ولكننا كما ذكرنا نؤرخ لنظام بدون تاريخ ، لم يذكر واحد من مراجعنا متى وُضع أو متى عُدل ، فلم يبق إلا أن نذكر ما لدينا من المعلومات مطلقة حتى تعيننا أصول جديدة على مزيد من التوضيح ، وإذا كان الرأى الذى ذهبنا إليه ، فيما يتصل بأصول هذه الأنظمة ، أن العرب أخذوها مما وجدوه جاريًا لدى دخولهم ، فليس هناك ما يمنع من القول بأن معظم ما أثبتناه من النظم حدث أثناء فترة الولاة التى نتحدث عنها ، ثم دخله الضبط والترتيب والتفصيل والتدقيق فيما بعد .

٢٨٠-الشيخة وقد بينا كيف كانت هذه النظم فريدة في باها في العالم الإسلامى كله ، ومن والكوريا الطيعى أن ينسحب هذا الحكم على ما بُنى عليها ، فإذا قلنا إن دخول العرب أحى المدن التى كانت تتلاشى رويداً رويداً في الأندلس قبلهم ، وأن ذلك الإحياء استيع انتعاش مشيخات البلاد أو الكوريات الرومانية المدنية القديمة ، فقد انبنى على ذلك تعميم فكرة المشيخات أو المجالس على كثير من النظم الإسلامية في الأندلس ، مما أدى إلى ظهور هيئات خاصة بالأندلس كهيئة « الفقهاء المشاورين » وجماعة الوزراء وما إلى ذلك مما جدد بعد الفترة التى نؤرخ لها من النظم .

ذلك أن لفظ مشيخة كان له معنى خاص في الأندلس ، فالمشيخة في المشرق هى الرئاسة أو هى الوظيفة أو الأستاذية ، فيقولون مثلاً إن فلاناً « تولى مشيخة دار الحديث » أو « مشيخة الحديث بترية أم صالح ومشيخة الرباط الناصرى ومشيخة المالكية » أو « ولى مشيخة المدرسة بالقدس ، ومشيخة الرباط الناصرى بالجليل » أو « برع في النحو وانتهت إليه المشيخة » ، أما في الغرب الإسلامى فكان له معنى المجلس أو الجماعة ، قال ابن خلدون : « واستبد مشيخة كل بلد بأمره » أو « وكانت مشيختها في القديم في بنى ورمان من أهلها بما كاثروا ساكنها وملكوا عامة ضياعها ، وكان مشيخة قابس لذلك العهد في بيوتات من أهلها » . والمعنى في هذه النصوص واضح ، فهو الجماعة من أعيان الناس يتولون أمر البلد .

ويفسر دوزى معنى المشيخة هنا بأنه « الحق الذى كان لعدد من الأسر الكبيرة في أن تؤلف مجلساً بلدياً لحكم البلد أو مجلساً جمهورياً » ، بل إن الكلمة وردت بمعنى المجلس البلدى أو أعضائه ، وذكر بطرس الكلاعى Pedro de Alcalá في قاموسه أن الشيخ هو

العضو في مجلس البلد (Jurado en la cibdad) والمشيخة هي الطائفة^(١). وهذه كلها معان لم تُعرف إلا في المغرب والأندلس، وفي هذا الأخير خاصة، وثابت على أي حال أن العرب عندما قضاوا على سلطان القوط عقدوا مع أهل كل بلد استسلم لهم عقداً أو معاهدة، وكان التعاقد يتم مع الكوريا القديمة، وترجمها العرب إلى المشيخة، وكانت هذه المعاهدات سبباً في إحياء مشيخات البلاد، فأصبح في كل بلد مشيخة من أهله هي التي تتخاطب مع العرب وتضمن لهم الأمن والأموال، فنشطت المشيخات وانتظم أمرها، وعندما أسلم أهل البلاد احتفظوا بمجالسهم وهي مشيخاتهم، ومن هنا كان للمدن في الأندلس نظام بلدي يرمي شئونها وشئون أهلها، وثبتت صلاحية هذا النظام فامتد حتى شمل الحرف، فأصبح لأهل كل حرفة مشيخة أو مجلس، ونشأت مشيخة الفقهاء، وهي جماعة من الفقهاء يتخدمهم الأمراء والخلفاء مستشارين وسموا «الفقهاء المشاورين»، ووزعت اختصاصات الوزيرين نفر من الوزراء كان لهم مجلس.

٢٨١- انفصال
العرب عن أهل
البلاد أول الأمر

وظاهر من النصوص أن أهل البلاد من النصارى واليهود عاشوا أول الأمر منفصلين عن العرب، مستقلين بحكومة أنفسهم، وكان لهم رئيس أعلى يسميه ابن حيان «قومس الأندلس وزعيم عجم الذمة ومستخرج خراجهم لأمراء المسلمين»^(٢). أى أنه هو الذي كان يتصل بأهل الذمة ويستخرج ما عليهم من الأموال ويؤديها للحكومة المركزية. وكان تعامله مع مشيخات البلاد، أى أن كل مشيخة كانت تجمع ضرائب بلدها وتؤديها إلى القومس. وقد أشرنا فيما سبق إلى حكومة البلد وذكرنا بعض ما عثرنا عليه من ألقاب موظفيها. وقد أقام العرب لكل ناحية حاكماً من المسلمين، فأما حاكم الكورة فكان يسمى العامل أو الوالي، وأما حاكم المدينة ذات الحوز فكان يسمى القائد، لأنه كان يُختار من العسكريين لأن هذه المدن كانت كلها ثغوراً أو مناطق عسكرية على ما قلناه، وكان حوز الكورة أو المدينة يسمى العمل أو النظر أو الولاية أو الحوز.

أما العرب فقد عاشوا أول الأمر مستقلين بأنفسهم، سواء من نزل منهم المدن أو من عاش منهم في الريف، وقد احتفظ لنا ابن الخطيب في الإحاطة بنص رواه عن ابن حيان

(١) انظر درزي: ملحق القواميس، مادة شيخ، ج١، ص ٨٠٩.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (طبعة محمد عبد الله عتات) الجزء الأول، القاهرة ١٩٥٦، ص ١٠٩.

والرازي يوضح أحوال المسلمين من عرب وبربر تمام التوضيح ، ونحن نورده هنا بنصه مع تقسيمه إلى فقرات زيادة في البيان :

١ - قال أبو مروان (بن حيان) : أشار على أبي الخطار أربطاس قومس الأندلس وزعيم عجم الذمة ومستخرج خراجهم لأمرء المسلمين - وكان هذا القومس شهير العلم والدعاء - لأول الأمر ، بتفريق القبائل الشاميين الغاليين ^(١) على البلد ، من دار الإمارة قرطبة ، إذ كانت لا تحملهم ، وإنزلهم بالكور على شبه منازلهم التي كانت في كور شامهم .

٢ - ففعل ذلك عن اختيار منهم ، فأنزل جند دمشق كورة البيرة ، وجند الأردن كورة جيان ، وجند مصر كورة باجة ، وبعضهم بكورة تدمير ؛ فهذه منازل العرب الشاميين ^(٢) .

٣ - وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة .

٤ - وبقي العرب البلديون والبرابرة شركاؤهم ، وسكنوا واغتبطوا وكثروا وتمولوا ، إلا من كان قد نزل منهم لأول قدمه في الفتح على غنائمهم ^(٣) لم يعرض لهم في شيء منها .

٥ - فلما رأوا (يعنى العرب الشاميين) بلداناً شبه بلدانهم بالشام نزلوا وسكنوا واغتبطوا ، وكثروا وتمولوا ، إلا من كان قد نزل منهم لأول قدمه موضعاً رصيناً فإنه لم يرتحل عنه ، وسكن به مع البلديين ، فإذا كان العطاء أو حضر الغزو لحق ^(٤) بجنده ، وهم الذين كانوا سموا الشادة ^(٥) حيثئذ .

٦ - قال أحمد بن موسى [الرازى] ^(٦) : وكان الخليفة يعقد [للشاميين] لواءين : لواء غازياً ولواء مقيماً .

(١) قرأها محمد عبد الله عنان : العَلَميين ، وشرحها في الغامش بأنها نسبة إلى علم مكان بالشام ، ولا محل لذلك التكلف لأن صحتها الغاليين كما أثبتناه .

(٢) النص هنا ناقص وغير دقيق ، وصحته ما أورده ابن عذارى إذ قال إن أبا الخطار أنزل أهل دمشق ببليرة ، وأهل الأردن بريئة ، وأهل فلسطين بشذونة ، وأهل حمص بإشيلية ، وأهل قسرين بجيان ، وأهل مصر بياجة وبعضهم بتدمير .

انظر ابن عذارى : البيان ، طبعة ليلى بروفنسال وكولان ، ليدن ١٩٥١ ، ص ٣٣ .

(٣) أثبتنا محمد عبد الله عنان : عنانهم ، وهي قراءة لا يستقيم بها المعنى ، والصحيح ما أثبتناه . وسنفصل فيما يلي كيف اعتبر جند الأندلس الأرض غنيمة بخلاف ما يقضى به تشريع عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٤) أثبتنا عنان : ولحق بجنده ، والواو زائدة .

(٥) أثبتنا عنان : الشادة بالبدال ، وهو خطأ . راجع دوزى : ملحق القواميس ، مادة شاذ ، ج ١ ، ص ٧٣٩ .

(٦) أضفنا ما بين الحاصرتين من عناننا ، لأن المراد أحمد بن محمد بن موسى الرازى ، لا أحمد بن موسى العدوى الذى ذكره عنان في الغامش نقلًا عن كشف الظنون .

- وكان رزق الغازي بلوائه (أى صاحب اللواء) ٢٠٠ دينار ويقيم المقيم (أى صاحب اللواء المقيم) بلا رزق ثلاثة أشهر ثم يدال (صاحب اللواء) بنظيره من أهله أو غيرهم .
- ٧ - وكان الغزاة من الشاميين ، مثل إخوة المعهود له (أى صاحب لوائهم) أو بنه أو بنى عمه يرزقون عند انقضاء غزاته ١٠ دنانير .
- ٨ - وكان يعقد المعقود له (أى صاحب اللواء) مع القائد (أى قائد الجيش المركزى ، ومعنى يعقد له أن يتعهد له) يتكشف عن غزا ويستحق العطاء ، فيعطى على قوله تكربة له .
- ٩ - وكانت خدمتهم (أى خدمة الشاميين) فى العسكر (أى الجيش العام للدولة) واعتراضهم إليه (أى أن قيادة الجيش هى التى كانت تستعرضهم قبل الخروج) .
- ١٠ - ومن كان من الشاميين غازياً من غير بيوتات العقد (أى من غير بيوتات أصحاب الألوية) ارتزاق خمسة دنانير عند انقضاء الغزو .
- ١١ - ولم يكن يعطى أحد من البلديين شيئاً غير المعقود له .
- ١٢ - وكان البلديون أيضاً يعقد لهم لواءان : لواء غازٍ ولواء مقيم .
- ١٣ - وكان يرتزق الغازي [بلوائه] مائة دينار وازنة . وكان يعقد لغيره إلى سنة أشهر، ثم يدال بنظيره من غيرهم .
- ١٤ - ولم يكن الديوان والكتبة إلا فى الشاميين خاصة .
- ١٥ - وكانوا أحراراً من العُشر ، معدين للغزو .
- ١٦ - ولا يلزمهم إلا المقاطعة على أموال الروم التى كانت بأيديهم .
- ١٧ - وكان العرب من البلديين يؤدون العشر مع سائر أهل البلد (= أهل البلاد) .
- ١٨ - وكان أهل بيوتات منهم (أى من أهل البلاد) يغزون كما يغزو الشاميون ، بلا عطاء ، فيسير بهم إلى ما تقدم ذكره ؛ وإنما كان يكتب أهل البلد فى الغزو .
- ١٩ - وكان الخليفة يخرج عسكريين إلى ناحيتين .
- ٢٠ - فيستتر بهم (أى يستعين بالمقيدين من أهل البلاد فى الغزو ليحتمى بهم أثناء غياب العسكريين الرسميين فى الغزو) .

٢١ - وكانت طائفة ثالثة يسمون « النظراء » من الشاميين والبلديين ، كانوا يغزون كما يغزوا أهل البلد من الفريقين « (١) .

وهذا نص واضح مفصل يلقي ضوءاً على أسلوب حياة العرب ووظيفتهم في المجتمع الأندلسي . وأهم ما يعيننا منه هو أن جماعات العرب انتشرت في البلاد ونزلت النواحي وملكت الأرض ، وكثرت وعملت . وغالية هؤلاء من البلديين ، أما الشاميون فقد كانت لهم الصدارة ، كانوا عماد الجيوش وأصحاب الديوان والكتابة فيه ، وكان عليهم أن يقدموا للجيش المركزي لواءين ، لواء يخرج للغزو ولواء يقيم على الأهبة ، واللواء الغازي لا يقيم في الغزو إلا ثلاثة أشهر ثم يعود ويخرج الثاني ، وكان لكل لواء أمير يرزق ٢٠٠ دينار عن كل غزوة ، أما الجند وأقارب صاحب اللواء فكان الواحد منهم يُرزق عشرة دنائير في نهاية كل غزوة . وكانوا في مقابل هذه الخدمة الحربية المستمرة يعفون من أداء العُشر ، ويستولون على ثلث أموال من نزلوا بأرضهم من أهل البلاد . أى أن الدولة منحهم حق ملكية ثلث هذه الأموال . فإذا ذكرنا أن القوط أيضاً كانوا يستولون على ثلث الأموال في مقابل الخدمة العسكرية ، تبين أن أولئك الشاميين حلوا في الواقع محل القوط في وضعهم وحقوقهم . وإقطاع المحاربين الثلث عُرف غير إسلامي ، وإنما هو استمرار لتقاليد القوط مع خلاف واضح استتبعته العدالة الإسلامية ، فإن القوطى كان يستولى على الثلثين (Sors - Sortes) ويترك لأهل البلد الثلث (Tercia) ، أما العرب فلم يسمحوا للمحارب منهم بغير الثلث وتركوا الثلثين لأهل البلاد .

أما العرب البلديون - وهم القدامى من اليمينين والشاميين ، ومعظمهم من اليمينين - فقد اختلطوا بأهل البلاد وزرعوا وحصدوا وسقط عنهم التكليف العسكرى ، غير أنهم كانوا يستطيعون الانخراط في ألوية خاصة بهم ، ولا يقدر عطاء إلا لرؤسائهم أصحاب ألويتهم ، أما المقاتلون منهم فلم يكونوا يعطون شيئاً ، وحسبهم ما كانوا يحصلون عليه من غنيمة ، وكانوا يدفعون العشر كغيرهم من زراع أهل البلاد ، في حين كان الشاميون معفين من العشور ، بالضبط كما كان القوط معفين من الضرائب .

٢٨٢ - اشترك أهل البلاد في الجيوش والإشارة إلى أهل البلاد هنا جديرة بالملاحظة ، والمراد بهم كما قلنا أهل البلاد الأصليون ، فهؤلاء لم يكونوا ملزمين بالغزو بل كان يتطوع منهم من يريد ،

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، ص ١٠٩ - ١١١ .

ويقيد اسمه في سجلات المعسكر ولكنهم كانوا لا يرزقون ، شأنهم في ذلك شأن البربر والعرب البلديين ، وكانت تؤلف منهم قوات احتياطية يستعين بها الحاكم إذا خرجت جيوشه للغزو .

٢٨٣- التقليد الشامي والخلاصة أن الشاميين الذين أتوا مع بلج أصبح لهم مركز ممتاز ، فهم رجال الأجناد وأهل الديوان ، وهم لا يدفعون العشور ، أى أن الدولة الإسلامية الأندلسية صارت شامية بعد مجيء طالعة بلج : أصبح أهل الشام أصحابها وذوى المكانة العليا فيها ، وهذا ما يعرف في تاريخ الأندلس بالتقليد الشامي ، وقد أيد أمراء بنى أمية هذه الشامية على طول تاريخهم ، حتى أن الأمير محمداً رفع الشاميين فوق غيرهم ، وقرر لهم ذلك الامتياز الذى سيحافظون عليه حتى منتصف إمارة عبد الرحمن الناصر على الأقل .

* * *

٢٨٤- الإدارة المركزية النظام الذى أدار العرب به شئون الأندلس خلال الأربعين سنة التى سبقت قيام الدولة الأموية ، وقد كان من الميسور أن نقول إن الأندلس أدير على النحو الذى أديرت به مصر مثلاً خلال القرن الأول الذى تلا الفتح ، لو كانت لدينا بضع معلومات رئيسية تؤيد القول بأن الأمر فى الأندلس كان كما كان فى غيره من البلاد التى فتحها المسلمون ، ولكن هذه المعلومات الرئيسية ليست بين أيدينا مع الأسف ، حتى الخراج الجزية - وكانا موضع اهتمام مؤرخى الفتح - لا نجد لها ذكراً واضحاً فى تواريخ الأندلس التى بين أيدينا ، بل ليس فيها ذكر لقدرة الخراج أو نظامه ولو مرة واحدة نستطيع القياس عليها ، ولو أننا قلنا إن الأندلس لم يرسل إلى دار الخلافة خراجه مرة واحدة لما بالغنا ، ويبدو من مجموع ما لدينا من المعلومات أن عرب الأندلس الذين فتحوه أداروه على غير نظام ثابت معروف كما سترى (١) . وسنورد فيما يلي ما لدينا من البيانات عن الإدارة المركزية .

* * *

(١) اكتفى صاحب « فتح الأندلس » فى بيان سياسة المسلمين فى الأندلس بقوله إن موسى غفت عنه أثناء العبور إلى الأندلس « رأى موسى ﷺ فبشره بالفتح ، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد للمشركين ... » ، وهذا هو كل ما نلجده فى هذا الكتاب عن حكومة المسلمين فى الأندلس فى عهد الولاة !
انظر : « فتح الأندلس » ، ص ٥ .

وقد اكتفى نفس المؤلف فى الكلام عن تصرف طارق فى الغنائم بقوله : « وجع طارق الغنائم وأخرج خمسها ، وقسم باقياها » دون أن يذكر لنا ماذا فعل طارق بهذا الخمس - (فتح الأندلس ، ص ٧) . ثم أكد بعد ذلك أمر تقسيم الغنائم بين الفاتحين وفصل تلك الغنائم بأنها كانت سبياً ومتاعاً وأرضين ورباعاً (أى يوتناً) - نفس المصدر ، =

٢٨٥- نظام ويبدو اضطراب هذا النظام في صورة واضحة جداً في طريقة تولي ولاية الأندلس مناصيهم، فقد فُتِح الأندلس على يد عامل إفريقية موسى بن نصير: بعث موسى من مواله البربر هو أبو زرعة طريف فاستطلعها له، ثم بعث موسى آخر بربرياً هو طارق بن زياد ففتحها، ثم عبر هو بنفسه فاتم هذا الفتح وأصبح أول ولائها، واعتبرت الأندلس جزءاً من المغرب يولي عليها عامل المغرب من يريد من رجاله، كما اعتبرت أفريقية ولاية تابعة لوالى مصر في أول أمرها، ولهذا ترك موسى عليها ابنه عبد العزيز بن موسى حينما رحل إلى المشرق في أواخر سنة ٩٥هـ. ولم يثبت الخليفة سليمان بن عبد الملك في الولاية، فظل والياً معتمداً على وصاية أبيه له بالحكم.

فلما قتل عبد العزيز بن موسى انفرد جند الأندلس بإقامة واليهم، فأقاموا أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير: لم يولّه والى إفريقية ولا الخليفة سليمان بن عبد الملك أيضاً، ويُفهم من النصوص أن البربر كانوا أصحاب اليد الطولى في قيامه بالولاية.

وأراد سليمان بن عبد الملك أن يصحح هذا الوضع الشاذ، فقرر أن يعيد هذا الحق إلى والى إفريقية، فلما ولى على إفريقية محمد بن يزيد عجل هذا فبعث إليها الحر بن عبد الرحمن، ويبدو أن الحر أحسن أن عرب الأندلس سيعارضون في ولايته وسيدافعون عن هذا الحق الذى كسبه لأنفسهم، فاستصحب معه أربعمئة من وجوه إفريقية ليؤيده، وقد قبله أهل الأندلس دون مقاومة، ولم يكد المقام يستقر به حتى عجل بنقل دار الإمارة من إشبيلية إلى قرطبة، وربما كان دافعه إلى هذا رغبته في الابتعاد عن جماعات العرب التى استقرت في إشبيلية وكثرت فيها، ورغبته في أن يكون بموضع أقرب إلى الجزيرة الخضراء والمغرب من إشبيلية، ولم يكن دافعه مجرد الرغبة في جعل دار الإمارة بمكان يتوسط شبه الجزيرة كما تقول المراجع، لأن قرطبة ليست في وسط الجزيرة على أى حال.

ولم تُطَل ولاية الحر على الأندلس أكثر من سنتين وثمانية أشهر (ذو الحجة ٩٧ - رمضان ١٠٠هـ / أغسطس ٧١٦ - مارس - أبريل ٧١٩م) لم يستطع خلالها أن يقوم بأمر ذى بال.

= ص ١٣. ويبلغ من اضطراب أخبار نصير خمس الدولة من المعانم أن ذهب نفس المؤلف إلى أن هشام بن عبد الملك وهبها لخفيده عبد الرحمن (كذا) فأرسل هذا من لدنه نائباً عنه ليجمعها له، وتلك أسطورة من غير ريب، يغلب أنها ظهرت بعد قيام الدولة الأموية الأندلسية - (فتح، ص ١٥).

٢٨٦- تفكير الخلافة في إخلاء الأندلس
 فإذا كانت خلافة عمر بن عبد العزيز وجدنا أنفسنا أمام أمر غريب لم نسمع بمثله في بلد آخر مما فتح المسلمون ، وهو رغبة الخلافة في إخلاء الأندلس واسترجاع العرب منها ، ولو ورد لنا هذا في مرجع واحد لما علقنا عليه أهمية كبيرة ، ولكن إجماع المراجع على ذكره يجعلنا نفكر في البواعث التي حدثت بعمر بن عبد العزيز إلى التفكير فيه ، وهو المتحمس للإسلام الراغب في بسط رواقه وإدخال الناس كلهم في رحابه . ولا شك في أن دافعه إلى ذلك كان إحساسه بأن أحوال المسلمين في الأندلس ليست على ما يرام ، وأن مستقبل الإسلام في هذا البلد القصى لا يبنىء بخير كثير ، ويبدو أن غرض عمر بن عبد العزيز الأول من إرسال السماح كان استطلاع أمر البلاد ، مما يدلنا على أن أخبار الأندلس كانت طوال الفترة الماضية منقطعة تماماً عن مركز الخلافة ، وأن عمر ابن عبد العزيز لم يكن يعرف عنها شيئاً ، ولم يكن يصل إليه شيء من أموالها ، ولهذا « أمره أن يحمل الناس على طريق الحق ، ولا يعدل بهم عن منهج الرفق ، وأن يجنح ما عُلب عليه من أرضها وعقارها ، ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهاها ، وكان رأيه نقل المسلمين منها ونقلهم عنها ، لانتقطاعهم عن المسلمين واتصالهم بأعداء الله الكفار ، فليل له إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها ، فأضرب عن ذلك » (١) .

يبد أن ارتباط فكرة إخلاء الأندلس بمجىء السماح وأمره بتخميس ما عُلب عليه من أرضها يلقي على الموضوع شعاعاً من النور ، ويُفهمنا أن الأندلس لم يكن قد تم تخميسه إلى ذلك الحين ، ولم يكن قد بعث إلى دمشق بشيء من أمواله ، فلا عجب أن وفر في أذهان الخلفاء أنه بلد لا خير للمسلمين فيه وليس لهم بين رحابه بقاء فأرادوا إخلاءه . ثم إن أمر المسلمين لم يستقر فيه خلال الولايات الثلاث الماضية على نحو يبعث على الأمل في صلاح مستقبله . فقد حاول عبد العزيز بن موسى الوثوب بالخلافة ، ووقع بينه وبين عرب الأندلس خلاف شديد ، فلما قتل قدم البربر على أنفسهم أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير ، فكان في توليته على هذا النحو ما أثار مخاوف الخلافة ، ثم خلفه الحر بن عبد الرحمن الثقفي ، ولم يوله سليمان وإنها ولاء محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان ، فلم يظهر كفاءة خاصة ؛ وكانت البلاد في حاجة إلى من يرتب أمورها ويضع أسس الإدارة العربية فيها ، ووجدت الخلافة نفسها بين أمرين في شأن الأندلس : إما إخلائه أو تنظيمه ، فلما استبانَت صعوبة الأمر الأول لم يبق إلا المضي في الثاني .

(١) ابن عذاري : البيان ، جـ ٢ ، ص ٢٥ .

وستحدث عن أعمال عمر بن عبد العزيز الإدارية في فقرة تالية ، وإنما يكفي أن نذكر هنا في حديثنا عن نظام الولاية ، أن السماح كان أول وال تقيمه الخلافة على الأندلس ، وأن عمر بن عبد العزيز حين استقر رأيه على المضي في تعميم الأندلس ، لم يعهد إلى واليه السماح ابن مالك في روك البلد وإحصاء أراضيه وتنظيم أموره على أسس الشريعة ، بل ندب لذلك مولياً من مواليه تسميه المراجع « جابراً » نستطيع القول إن الخلافة اعتبرته عامل خراج للأندلس ، وفصلت بذلك شئون الخراج عن الولاية العامة ، ولم يتح لجابر هذا أن يستمر في مهمته ، فقد رفع يده عن التخمس بمجرد أن وصله نبأ موت عمر بن عبد العزيز ، ولم تلبث ولاية السماح نفسه أن انتهت ، إذ قتل على ما روينا وعادت الأندلس إلى التبعية لإفريقية ، وقد حاول جند الأندلس انتزاع هذا الحق من عمال إفريقية ، فأقاموا عبد الرحمن الغافقي والياً ، وكانت تلك هي ولايته الأولى ولكنها لم تدم إذ أن بشر بن صفوان عامل المغرب ولي أحد رجاله - وهو عنبسة بن سحيم - على الأندلس .

ولم يجر الأمر على التبعية المطلقة للمغرب بعد ذلك ، لأن عرب الأندلس لم يدعوا فرصة تمكنهم من استعادة هذا الحق إلا انتهزوها ، فحينما مات عنبسة (شعبان ١٠٧هـ / فبراير - مارس ٧٢٦م) عجلوا بإقامة أحد رجالهم وهو عذرة بن عبد الله الفهري ، ولم تدم ولايته أكثر من شهرين ، لأن بشر بن صفوان عامل إفريقية عجل بإرسال يحيى بن سلامة عاملاً على الأندلس في شعبان من نفس السنة ، ولم تزد ولاية يحيى بن سلامة على سنتين وستة أشهر على أوسع الفروض ، إذ عزله والي المغرب الجديد عبيدة بن عبد الرحمن واستبدل به أحد رجاله وهو حذيفة بن الأحوص القيسي (ربيع الأول ١١٠هـ / يونيو - يوليو ٧٢٨م) (١) .

ولم تظل ولاية حذيفة إلا أشهراً ، إذ خلفه عثمان بن أبي نعدة الخثعمي (في شعبان ١١٠هـ / نوفمبر - ديسمبر ٧٢٨م) وكذلك وقع للواليين اللذين خلفاه وهما الهيثم بن عبيد الكلابي ومحمد بن عبد الله الأشجعي ، فلم تظل ولاية هؤلاء الأربعة عن ستة وخسة أشهر (شعبان ١١٠ - صفر ١١٢ / نوفمبر - ديسمبر ٧٢٨ - مارس - أبريل ٧٣٠) . وقد ولاهم جميعاً عمال إفريقية ، حتى عبد الرحمن الغافقي الذي أتى بعدهم فقد كان لا بد أن يقر عبيدة بن عبد الرحمن ولايته رغم ما كان بينهما من خلاف (٢) .

(١) انظر ثبت الولاية الذي ذيل به لافويتى إى الكانتر ترجمته الإسبانية للأخبار المجموعة ، ص ٢٣٣ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

وحينما استشهد عبد الرحمن الغافقي (رمضان ١١٤ / أكتوبر ٧٣٢م) وتلى جند الأندلس على أنفسهم عبد الملك بن قطن الفهرى ، وقد أقر عامل إفريقية هذا الاختيار، ولكن عبيد الله بن الحبحاب لم يلبث أن عزله بعيد ولايته على المغرب وولى مكانه عقبة بن الحجاج السلولى . ولا نزاع في أن عرب الأندلس - واليمنيين منهم بوجه خاص - لم يرضوا عن ذلك الإجراء ، فلم يزالوا يرقبون الفرصة حتى إذا سنحت لهم باشتغال عبيد الله بن الحبحاب بثورة البربر في إفريقية عجلوا فوثبوا بعقبة^(١) ، ويقال إن عقبة أوصى لعبد الملك ابن قطن قبل موته ، ومهما يكن من الأمر فقد تولى عبد الملك بن قطن للمرة الثانية بإرادة جند الأندلس .

ولم يتدخل عمال إفريقية ولا الخلفاء في تولية عمال الأندلس من ذلك الحين إلى قدوم أبي الخطار ، فقد وثب بلج بن بشر بعبد الملك بن قطن ، وزعم أن هشام بن عبد الملك أوصى له بالولاية وهو زعم لا نملك ما يؤيده ، وخلفه ثعلبة بن سلامة بإرادة القيسيين ، ولم يعد الأمر إلى عمال إفريقية إلا في رجب سنة ١٢٧هـ / أبريل ٧٤٥م حينما أتيح لحنظلة بن صفوان عامل إفريقية أن يولى على الأندلس أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبي (رجب ١٢٥هـ / مايو ٧٤٣م) .

ولا نزاع في أن أبا الخطار كان يتوقع معارضة القيسيين في ولايته ولهذا سار إلى الأندلس شبه مستخف ، وكان معه ثلاثون رجلاً من الشاميين أراد أن يستعين بهم على بنى عمومتهم ، وكان لواؤه في سِنِّ داخل عيبته ، فلما نزل على وادى شوش أصلح من شأنه وركب السن باللواء في القناة ، ثم تقدم . فلما أشرف من فج المائدة ، والحرب قائمة بين الشاميين والأمويين وبين البلديين والبربر ، ونظر الفريقان إلى اللواء حلوا الحرب وأسرع كل واحد من الفريقين إليه ، فقال لهم : « تسمعون وتطيعون ؟ فقالوا : نعم .. »^(٢) . وقد سمعوا بالفعل وأطاعوا أبا الخطار الذى أتاهم بسجل حنظلة بن صفوان بعهد أمير المؤمنين هشام إليه ، ولكن طاعتهم لم تطل إلا ريثما استبانوا في أبي الخطار بعض الميل إلى اليمانية فانقلبوا عليه وقتلوه ، وصار الأمر إلى يوسف الفهرى والصميل ، ولا زالا فيه حتى انتزعه منها عبد الرحمن الداخل .

(١) ابن الفوطية : افتتاح ، ص ١٤ .

(٢) ابن الفوطية : افتتاح ، ص ١٩ .

لم تسر الولاية في الأندلس إذن على قاعدة واحدة ، بل كانت في يد الخلافة المركزية حيناً ، ويبد عمال المغرب حيناً آخر ، ويبد مسلمى الأندلس أنفسهم في معظم الأحيان ، وكان هذا مظهراً من مظاهر الاضطراب الإدارى الذى ساد الأندلس خلال هذه الفترة .

ولسنا نستطيع أن نتعرف مدى السلطان الذى تمتع به كل واحد من هؤلاء الولاة ، فمن الثابت أن قيادة الجند كانت بأيديهم ، وأنهم كانوا يولون القضاة كذلك ، ولكن سلطانهم على مسائل الخراج موضع شك كبير ، وكل ما يمكننا أن نقوله هو أننا لم نسمع عن عامل خاص بالخراج والجباية إلا في حالتين : حالة جابر الذى تحدثنا عنه ، وحالة رجل يسمى أبا عثمان بن عبد الله « صاحب أزمّة الأرض والخراج »^(١) ، وربما جاز أن نقول إن شئون الخراج كانت بيد عمال الأندلس فكانوا يولونه من يشاءون ، وسنرى أن شئون المال كانت تزح تحت خلل شديد .

ولما كنا لم نسمع عن إرسال خراج من الأندلس إلى أفريقية أو إلى المشرق ، فالغالب أن عامل الأندلس كان ينفق بعضه على أجناده ويحتفظ بالباقي لنفسه : إما لينفق منه على الحملات والمرافق العامة أو لشئونه الخاصة .

ولم يرد في النصوص ذكر لبيت المال ، أو صاحب بيت المال ، وحتى في المناسبات التى كان الولى يُخرج فيها بعض المال لشئون الجند ، نجدته يخرج من عند نفسه لا من بيت المال ، مما يدل على أن عمال الأندلس لم يحفلوا بإنشاء إدارة خاصة لشئون الخراج .

ولم يمتد سلطان الولى على عرب الأندلس أجمعين إلا في النادر ، وكانت هناك دائماً جماعات كبيرة خارجة عن سلطانه بنواحيها ، ولم يزد سلطانه في أيام يوسف الفهرى على إقليم قرطبة ، وقد أدى ذلك إلى قلة ما لديه من المال ، فهبط سلطان الولى على البلاد خلال السنوات العشر التى سبقت قدوم عبد الرحمن الداخل هبوطاً بالغا .

وكان جهد الولاة الأول - قبل اندلاع نيران الثورة البربرية واشتداد منازعات العصية - منصرفاً إلى إتمام الفتح ، ومواصلة الغزوات فيها وراء البرانس ، وكان هذا هو عمل الولاة الأول حتى نهاية ولاية عقبة بن الحجاج السلولى^(٢) ، ثم انصرف عرب الأندلس عن ذلك

(١) فتح الأندلس ، ص ٥٤ .

LÉVI - PROVENÇAL. Hist. de l'Espagne Musulmane, I. p. 28.

(٢)

انصرافاً تاماً تقريباً ، ولم يعد أمراء الأندلس إلى الغزو إلا بعد أن قامت الإمارة الأموية على يدى عبد الرحمن الداخل .

أما اهتمام الولاة بشئون المرافق العامة فلم نسمع عنه إلا في مناسبة واحدة ، وذلك أثناء ولاية السمح بن مالك القصيرة ، فقد ابنتى قنطرة قرطبة على الوادى الكبير بناء حسناً أورد خبره صاحب « فتح الأندلس » بتفصيل لا بأس من إيراده فقال : « وقال ابن مفرج في تاريخه : أصاب المسلمون إذ فتحوا الأندلس بمدينة قرطبة آثار قنطرة رفيعة القدر معقودة فوق نهرها الجارى على عدة حنايا وثاق الأركان من تأسيس الأمم الماضية الدائرة ، لم يبق منها إلا رسوم ، ولا يصل الناس إلى قرطبة إلا في السفن ، فيلقون في ركوبها مشقة عظيمة ، فأمر عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك ببناؤها ، فصنعت على أتم وأعظم ما عقد عليه جسر في معمور الأرض من حجارة سور المدينة ، وكانت القنطرة القديمة موصولة الرقبة بباب المدينة القبلى المدعو بها ^(١) ، وهذا هو المرفق الوحيد الذى حرص ولاة هذه الفترة على الاهتمام به ، إذا استثنينا جبانة قرطبة التى أنشئت في زمن السمح بن مالك أيضاً ^(٢) .

٢٨٧- ثبت ونختم كلامنا عن عصر الولاة ببيت بولاء الأندلس من لدن الفتح إلى قيام بولاء الأندلس دولة عبد الرحمن بن معاوية الداخل :

١ - طارق بن زياد

من رجب ٩٢هـ / أبريل - مايو ٧١١م إلى رمضان ٩٣هـ / يونيو ٧١٢م

٢ - موسى بن نصير

من رمضان ٩٣هـ / يونيو ٧١٢م إلى صفر ٩٥هـ / أكتوبر - نوفمبر ٧١٣م

٣ - عبد العزيز بن موسى

من صفر ٩٥هـ / أكتوبر - نوفمبر ٧١٣م إلى رجب ٩٧هـ / مارس ٧١٦م

٤ - أيوب بن حبيب اللخمي

بعد شهور من مقتل عبد العزيز إلى ذى الحجة ٩٧هـ / أغسطس ٧١٦م

(١) فتح الأندلس ، ص ٢٥ .

والأخبار المجموعة ، ص ٢٤ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٥ .

- ٥ - الحر بن عبد الرحمن الثقفي
من ذى الحجة ٩٧ / أغسطس ٧١٦ - إلى رمضان ١٠٠ / مارس - أبريل ٧١٩
- ٦ - السمح بن مالك الخولاني
من رمضان ١٠٠ / مارس - أبريل ٧١٩ إلى ذى الحجة ١٠٢ / يونيو ٧٢١
- ٧ - عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (المرّة الأولى)
من ذى الحجة ١٠٢ / يونيو ٧٢١ - صفر ١٠٣ / أغسطس ٧٢١
- ٨ - عنيسة بن سحيم الكلبي
من صفر ١٠٣ / أغسطس ٧٢١ إلى شعبان ١٠٧ / يناير ٧٢٦
- ٩ - عُذرة بن عبد الله الفهري
من شعبان ١٠٧ / يناير ٧٢٦ إلى شوال ١٠٧ / فبراير - مارس ٧٢٦
- ١٠ - يحيى بن سلامة العامل الكلبي
من شوال ١٠٧ / فبراير - مارس ٧٢٦ إلى ربيع الأول ١١٠ / يونيو - يوليو ٧٢٨
- ١١ - حذيفة بن الأحوص القيسي
من ربيع الأول ١١٠ / يونيو - يوليو ٧٢٨ إلى شعبان ١١٠ / نوفمبر - ديسمبر ٧٢٨
- ١٢ - عثمان بن أبي نسعة الخثعمي
من شعبان ١١٠ / نوفمبر - ديسمبر ٧٢٨ إلى المحرم ١١١ / أبريل ٧٢٩
- ١٣ - المهيثم بن عبيد الكلابي
من المحرم ١١١ / أبريل ٧٢٩ إلى ذى القعدة ١١١ / يناير - فبراير ٧٣٠
- ١٤ - محمد بن عبد الله الأشجعي
من ذى القعدة ١١١ / يناير - فبراير ٧٣٠ إلى صفر ١١٢ / مارس - أبريل ٧٣٠
- ١٥ - عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (المرّة الثانية)
صفر ١١٢ / مارس - أبريل ٧٣٠ إلى رمضان ١١٤ / أكتوبر ٧٣٢

- ١٦ - عبد الملك بن قطن الفهري (المرّة الأولى)
من رمضان ١١٤ / أكتوبر ٧٣٢ - شوال ١١٦ / نوفمبر ٧٣٤
- ١٧ - عقبة بن الحجاج السلولي
من شوال ١١٦ / نوفمبر ٧٣٤ / صفر ١٢٣ إلى يناير ٧٤١
- ١٨ - عبد الملك بن قطن الفهري (المرّة الثانية)
من صفر ١٢٣ / يناير ٧٤١ إلى ذى القعدة ١٢٣ / سبتمبر ٧٤١
- ١٩ - بلج بن بشر القشيري
من ذى القعدة ١٢٣ / سبتمبر ٧٤١ إلى شوال ١٢٤ / أغسطس ٧٤٢
- ٢٠ - ثعلبة بن سلامة العاملي
من شوال ١٢٤ / أغسطس ٧٤٢ إلى رجب ١٢٥ / مايو ٧٤٣
- ٢١ - أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي
من رجب ١٢٥ / مايو ٧٤٣ إلى رجب ١٢٧ / أبريل ٧٤٥
- ٢٢ - ثوبة بن سلامة الجذامي
من رجب ١٢٧ / أبريل ٧٤٥ إلى المحرم ١٢٩ / سبتمبر - أكتوبر ٧٤٦
أعقبت موته أربعة أشهر من الاضطراب تولى الأمر خلالها عبد الرحمن بن كثير اللخمي
دون ولاية
- ٢٣ - يوسف بن عبد الرحمن الفهري
(بالاشتراك مع الصميل بن حاتم)
من ربيع الثاني ١٢٩ / ديسمبر ٧٤٦ ويناير ٧٤٧ إلى ١٠ ذى الحجة ١٣٨ / ١٤ مايو
٧٥٦ .
وهو تاريخ بدء إمارة عبد الرحمن بن معاوية الداخل .

٢٨٨- الناحية المالية بيد أن عقدة العقد في تاريخ عصر الولاة هي ناحية الخراج وتوزيع الأرض، وبين المراجع خلاف شديد حول هذا الموضوع ، والواقع الذي نستطيع استخلاصه من مجرى الحوادث هو أن هذه الناحية كانت مضطربة في الأندلس اضطراباً شديداً ، وأن ولاة الأندلس لم يستطيعوا أن يخضعوا أرض شبه الجزيرة وعقارها للقواعد التي تقررها الشريعة للأرضين والعقارات في البلاد المفتوحة ، هذا على الرغم من أن موسى ابن نصير قد حاول ذلك على أول الفتح ثم حاد عن النظم التي وضعها وأساء التصرف في الأموال ، وكان هذا من أسباب نكبته ، وكان كذلك من أسباب البلاء في الأندلس فيما بعد ، لأنها لم ترزق بعد ذلك بوالٍ أتاحت له مواهبه وظروفه إعادة الأمور إلى نصابها الذي كان ينبغي أن تكون عليه ، حتى قامت الدولة الأموية .

٢٨٩- أسس النظام المالي في الأندلس برواية محمد بن مزين وإليك أسس النظام المالي كما قررها موسى بن نصير بين يدي الفتح ، قال محمد [بن مزين] : وحين تم افتتاح المسلمين [الأندلس] قسمها موسى ابن نصير البكرى التابعي بين الجيوش الذين دخلوها كما قسم بينهم سببها وسائر مغانمها ، وأخرج من أرضها ورباعها الخمس كما أخرجه من سببها ومتاعها ، واختار من خيار السبى وصغاره مائة ألف وحملهم إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وترك سائر الخمس من كبل والسبى (كذا ، ولعل صحتها كبار السبى) ووخش الرقيق في الخمس من الأرضين يعمرونها لثالث مال المسلمين ، وهم أهل البسائط ، وكانوا يعرفون بالأخماس ، وأولادهم بنو الأخماس . قال : وأما سائر الناس النصارى الذين كانوا في المعازل المتبعة والجبال الشاخنة ، فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على جزء منها مع أداء الجزية ، في أرض الثمر وأرض الزرع على ما فعله خير من اقتدى به ﷺ بيهود خيبر في نخيلهم وأرضيهم .. « (١) » .

وهي عبارة يُقْهَم منها أن موسى بن نصير اعتبر الأندلس ، ما عدا نواحي الشمال ، قد (١) راجع نص محمد بن مزين الذي نشره دوزى كملحق لمباحثه .

Dozy, Recherches. I. Appendix pp. III - VI.

ويلاحظ أن هذه القطعة مأخوذة من الرسالة الشريفة ، وهي قطعة من « رحلة الوزير لانكناك الأسير » للغساني ، كما سنرى بعد قليل .

وانظر عن محمد بن مزين :

Dozy, Scrip. Ar. Loci de Abbad. II. 123.

فُتحت عنوة ، فأخذ خمسها لبيت المال ووزع الباقي بين الفاتحين ، وأخذ جزءاً من خمس السبي فبعث به إلى الوليد بن عبد الملك وأطلق الباقي في أرض الخمس ليزرعوه وليثالث مال المسلمين ، وهى عبارة غامضة لا يفهم المراد منها بالضبط : هل تركهم على أن يؤدوا ثلث المحصول أو ثلثيه للمسلمين ؟ ولم يعين لنا النص أرض الخمس هذه ، وربما استطعنا تحديدها على وجه تقريرى مستعنيين بما سنورد من النصوص القليلة التى عثرنا عليها .

وأما إشارته إلى الأراضى التى تُرِكَت بين يدى أهلها على شرط أداء الجزية عنها فإشارة لا تكاد تغنى ، لأنه يقرر أنها أرض « سائر النصارى الذين كانوا فى المعازل المنبوعة ، والجبال الشائخة .. بأرض الشمال » ، فأى أرض شمال ^(١) ؟ وهل لم تكن فى غير الشمال بلاد فتحت صلحاً على الإطلاق ؟

ثم يعود محمد بن مزين فيوضح ما قاله بعض الشىء ويقول : « فلم يبق بالأندلس بلدة دخلها المسلمون بأسياقهم وتصيرت ملكاً لهم إلا قسم موسى بن نصير بينهم أراضيها إلا ثلاثة بلاد هى شترين وقلنبرية فى الغرب وشية (Xea) فى الشرق ، وسائر البلاد حُتت وقسمت بمحضر التابعين الذين كانوا مع موسى بن نصير » أى أن هذا التقسيم لم ينطبق إلا على النواحي التى فُتحت بالسيف (عدا النواحي الثلاثة المذكورة) . أما ما فُتح صلحاً فقد تركه بيد أصحابه على أن يؤدوا الجزية ، ويعود فيناقض نفسه ويقول : « فقال بعض علماء السلف بأرض الأندلس أن أكثرها إنما فتح صلحاً إلا الأقل من مواضع معروفة ، وأنه لما هزم لذريق لم يقف المسلمون بعد ذلك ببلد إلا أذعنوا إلى الصلح ، وكذلك بقى الروم فيها على أرضهم وأموالهم يبيعون ويأخذ منهم » أى أن الذى فُتح عنوة وحُتس وقسم باقيه بين

(١) وردت هذه العبارة مفسرة بعض التفسير فى الرسالة الشريفة كما يلى : « قال محمد بن مزين : وجدت فى خزانة بإشبيلية سنة إحدى وسبعين وأربعمائة أيام الراضى بن المعتمد سفراً صغيراً من تأليف محمد بن موسى الرازى سماه بكتاب الريات ... وأما سائر النصارى الذين كانوا فى المعازل المنبوعة والجبال الشائخة فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على أجزاء منها مع أداء الجزية فى أرض الشجرة وأرض الزرع ، على ما فعله خير من أتى به ﷺ بيهود خمير فى نخبلمهم وأرضيههم... » - الرسالة الشريفة ص ١٩٩ .

و « الرسالة الشريفة » مخطوط صغير عثر عليه خيلان ريبيرا ونشره ذيلأ على « تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية » (مدرید ١٩٥٦) ، ص ١٨٩ وما يليها تحت عنوان « نبذة من أخبار فتح الأندلس ، وهى مأخوذة من الرسالة الشريفة إلى الأقطار الأندلسية » ، ثم تبين فيها بعد أن هذه الرسالة هى الكتاب المعروف باسم « رحلة الوزير لانكالك الأسير » لمحمد ابن عبد الوهاب القسطنى (وزير مولاى إسماعيل وسفيره إلى كارلص الثانى ملك إسبانيا عام ١١٠٢هـ / ١٦٩٠ - ١٦٩١م . توفي فى زقة الرطل من قانس القرويين عام ١١١٩هـ - ١٧٠٨م) . نشرها الفريد البستاني فى تلوان سنة ١٩٥١ . وتُعرف هذه أيضاً بالرسالة الشريفة ، والجزء الذى نشره ريبيرا منها يبدأ فى ص ١٠٧ من طبعة الفريد البستاني .

الفاطمين كان قليلاً جداً، وأما بقية المفتوح من أرض الأندلس فقد ترك لأصحابه من أهل البلاد يفعلون به ما يشاءون على أن يؤدوا عنه الخراج، وكذلك كان حال بعض أرض الشمال التي صالح عليها أهلها.

ثم يذكر بعد ذلك أن النواحي التي فُتحت صلحاً وتُركت بيد أهلها توارثها أصحابها، وأن المسلمين صالحوهم على أرضهم وشجرهم فقط لا سائر أموالهم، فهذه لم يمسها المسلمون بشيء.

ويقول محمد بن مزين بعد ذلك: « ولما وصل خبر فتحها إلى أمير المؤمنين الوليد ووفد عليه موسى وجماعة من المستنحين للأندلس معه يستأذنون في إخلاتها والرحيل عنها إلى أوطانهم، قُرِبهم وأنسهم وأقطعهم الإقطاعات فيها، وأقرهم على [بياض بالأصل] ^(١) ولم يجعل لهم سبيلاً إلى الخروج منها، ولا أوسعهم عذراً في إخلاتها ورددهم إليها وإلى جيرانهم ^(٢) بجوابه ». وطبيعي أن هؤلاء الذين عادوا إلى المشرق وأرادوا ترك الأندلس كانوا من العرب، زهدوا في البلاد لبعدها عن أوطانهم، فاستأمنهم الوليد إلى البقاء بإقطاعهم الإقطاعات، وطبيعي كذلك أن هذه الإقطاعات الجديدة كانت من أرض الخمس التي تخص بيت المال.

فلما كانت أيام عمر بن عبد العزيز، وواله على الأندلس السمع بن مالك، أقبلت معه جماعة من العرب من وجوه إفريقية، ولم يكن عددهم عظيماً لأن المراجع تحددهم بأربعائة فقط، « فأراد (أى جند السمع) النزول معهم في أموالهم ومشاركتهم فيها بأيديهم، فوفد لهم وفد على أمير المؤمنين عمر وشكوا إليه ذلك، ورجعوا إليه في الرجوع إلى بلادهم وإدانتهم بمن ورد مع السمع، فمَنعهم من ذلك وأنسهم وعقد لهم، وأشهد في عقدهم على إقرارهم في أموالهم، وأقطع الواردين مع السمع إقطاعات غيرها، وقال: هذه الثغور الهندية لولا إقطاعات عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجند فيها لم يسدها، فكيف بتلك الناحية؟ فإننا نستخير الله في إجلاء المسلمين عنها. ثم إنه لم يتفد ذلك ليلبغ الكتاب أجله ^(٣) ».

(١) بياض في النسخ الثلاث، ولكننا نفهم من بقية النص أن الكلمة الناقصة هي: أرضهم.

(٢) هذه الكلمة قلقة هنا، وقد وردت على هذه الصورة في النسخ المطبوعة الثلاث. وربما كانت صفة قراءتها:

حيزانهم، أى ما حازوه من أرض.

(٣) دوزى: نفس المصدر، ص ٥.

ورحلة الوزير لمحمد بن عبد الوهاب الغساني، ص ١١٣ - ١١٤.

ونستنتج من هذه العبارة ما يلي :

١ - أن عرب الأندلس الذين كانوا قد استقروا بها قبل سنة ١٠٠هـ / ٧١٨م كانوا أحرص ما يكونون على ما أصابوا من أرض ، وأن مجرد تفكير السماح في إشراك أربعائة فقط من العرب الجدد معهم في إقطاعاتهم كان كافياً لدفعهم إلى تقرير العودة إلى بلادهم وترك الأندلس جملة ، وهذه ملاحظة هامة تلقى ضوءاً على طبيعة عرب الأندلس في ذلك الحين ، ومقدار حرصهم على هذا البلد الكبير .

٢ - أن تفكير عمر بن عبد العزيز في إخلاء الأندلس كان راجعاً إلى شكوى هؤلاء العرب وتهديدهم بتركها .

٣ - وأن هؤلاء العرب كانوا قد استقروا فيما استقروا فيه من أرض على اعتبار أنها إقطاعات لهم ، وسنشرح فيما بعد طبيعة هذه الإقطاعات الأندلسية .

٤ - وأن عمر بن عبد العزيز اضطر إلى إرضاء العرب الجدد بمنحهم إقطاعات جديدة من أرض الخمس .

٥ - وأن هذا الإجراء كان كفيلاً بإقناع العرب بالبقاء في البلاد .

أى أن أرض الخمس أخذت تتناقص شيئاً فشيئاً وتتحول إلى إقطاعات للعرب ، وسنرى أنها ستلاشى تماماً .

ويُفهم من بقية حديث محمد بن مزين أن موسى كان قد بدأ بتخمس أرض الأندلس ، «وأعجلته حركته منها وإرسال أمير المؤمنين الوليد فيه عن استيفاء ذلك». وكان قد قسم الأخماس التي استطاع تحديدها بين من أقبل معه من العرب ، وكتب لهم سجلات بهذه الإقطاعات وأقر الوليد ذلك ، فلما أراد السماح بن مالك أن ينزل من معه من العرب « مع الأولين والمشاركة معهم في ربايعهم وأموالهم ، فشخصت منهم طائفة إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وأخبروه بما صنع موسى بن نصير من قسم الأرض بعد إخراج الخمس ، وإقرار الوليد لهم على ذلك ، واستظهروا بسجلاته التي سجلها لهم ، فأقرهم أمير المؤمنين رضى الله عنه على ما أقرهم عليه الوليد بن عبد الملك ، وعلى ما قسمه بينهم موسى ابن نصير ، وأمضى لهم ذلك من أمره وسجل لهم بمثله ، وكتب لهم إلى السماح بن مالك بالوقوف عند عهده وإمضاء ما أمر لهم به ، وانصرفوا إلى ما تحلفوه مسرورين ومبشرين بما

لقوه من فضله وعدله ، وكتب إلى السمع أن يدخل الجند الذين دخلوا معه من الأخصاس» (١).

وربما كان هذا هو الدافع لعمر بن عبد العزيز وواليه إلى النهوض لإتمام ما كان موسى ابن نصير قد بدأ به من تنظيم أرض الأندلس وتخميسها ، لكي يجد لبيت المال أرضاً غير التي استنفدتها إقطاعات العرب ، ولكي يجد أرضاً يقطعها للذين يقبلون منهم .

واستطاع السمع بن مالك أن يقوم بجزء من ذلك العمل ، وبدأ بإقليم قرطبة فأخرج خمسة فجعل جزءاً منه جباية للمسلمين ، ولا نعرف إن كان قد أقطع الباقي للعرب أو تركه ملكاً لبيت المال . ولم يفعل السمع أكثر من ذلك ، لأن مدته لم تطل ، وهكذا ظلت أرض الأندلس وأموالها دون تحديد أو تنظيم ، ولم يفعل أحد بعد ذلك شيئاً حتى قيام الدولة الأموية .

٢٩- رأى ونخرج من ذلك كله بأن أرض الأندلس لم تخضع في تقسيمها لما خضعت له ابن حزم بقية بلاد الدولة الإسلامية من تحديد أرض الصلح والعنوة وتقرير حكم كل منها من ناحية الوضع القانوني أو الجبايات ، ويؤيد ذلك نص لابن حزم على أعظم جانب من الأهمية لموضوعنا ، نوره فيما يلي مقسماً إلى فقرات زيادة في البيان :

١ - « هذا مع ما لم نزل نسمعه سماع استفاضة موجب للعلم الضروري أن الأندلس لم تخمس وتقسّم كما فعل رسول الله فيها فتح ، ولا استُطيت أنفس المستفتحين وأقرت لجميع المسلمين كما فعل عمر رضى الله عنه فيما فتح ، بل نُفد الحكم فيها بأن لكل يد ما أخذت .

٢ - ووقعت فيها غلبة بعد غلبة : البربر والأفارقة والمصريون ، فغلبوا على كثير من القرى دون قسمة .

٣ - ثم دخل الشاميون في طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيري ، فأخرجوا أكثر العرب والبربر المعروفين بالبلديين عما كان بأيديهم ، كما ترون الآن من فعل البربر ، ولا فرق ، وقد فشا في المواشي ما ترون من الغارات وفي ثمار الزيتون ما تشاهدون من استيلاء البربر والمتغلبين على ما بأيديهم إلا القليل النافه .. ظلم بظلم » (٢) .

(١) محمد بن مزين ، أبحاث دوزى ، ج ١ ، ملحق ١ ، ص ٦ ، ورحلة الوزير للغانى ص ١١٤ .

(٢) MIGUEL ASIN PALACIOS, Un códice inexplorado del Cordobés Ibn Hazm. Al - Andal-us, vol.

وكلام ابن حزم هذا يقطع كل شك ، ويؤيد ما تراءى لنا في النصوص التي سبق إيرادها ، فقد غلب الفاتحون الأول على ما وقع لهم من أرض ، سواء أكانوا عرباً أو بربراً أو أفارقة (أى من أهل السواحل الإفريقية) ثم جاء عرب الطالعة الثانية وغلبوا البلديين ، وانتزعوا منهم ما قدروا على انتزاعه من الأرض ، وقامت الفتنة بسبب ذلك حتى جاء أبو الخطار ونصح أوطباس بتفريق عرب الطالعة الثانية على نواح معينة ، وإنزالهم على أرض أصحابها من أهل البلاد على أن يكون لهم ثلثها طعمة ، أى ملكاً ، في مقابل الخدمة العسكرية كما بينا آنفاً .

أما ما يقوله محمد بن مزين من التخميس فأمر لم يصح ، ومن الطبيعي أن يكون موسى ابن نصير قد شرع بعد الفتح في إخضاع أرض الأندلس لشروط الشرع ، أو بدأ في التخميس ، ولكن الظروف لم تسمح له بالاستمرار ، ومضى إلى المشرق ، وحاول نفس الأمر بعض من أتوا بعده فلم يوفقوا ، وظلت الأرض في أيدي من غلبوا عليها ومضى الأمر على ذلك .

٢٩١- رأى وقد اعتبر العرب الفاتحون ما وقع لهم من الأرض غنيمة ، وهذا واضح من ابن الخطيب قول ابن الخطيب في العبارة التي رواها عن ابن حيان والرازي : «وبقى العرب البلديون والبربر شركاؤهم ، وسكنوا واغتبطوا وكثروا وتمولوا ، إلا من كان قد نزل منهم لأول قدومه في الفتح على غنائمهم لم يُعرض لهم في شيء منها»^(١) .

أما السبب في ترك الفاتحين يستولون على ما استقروا فيه من أرض كأنه غنيمة ، فيفسره قول محمد بن مزين : « فلما ولي أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الخلافة زاد اعتناؤه بها ، وأنزلها (كذا ، وربما كانت صحتها : وأزأها) عن عمال إفريقية ، وأفرد لها عاملاً ، فبعث إليها السمع بن مالك عاملاً ، فوردها في جند سوى جندها الأول ، فأرادوا النزول معهم في أمواهم ومشاركتهم فيما بين أيديهم ، فوفد لهم وفد على أمير المؤمنين عمر وشكوا إليه ذلك ، ورغبوا إليه الرجوع إلى بلادهم ، وإدائتهم بمن ورد معه (أى مع السمع) ، فمنعهم من ذلك وأنسهم وعقد لهم ، وأشهد في عقدهم على إقرارهم في أمواهم ،

= والمخطوط المشار إليه هو رقم ٢٧٠٤ بمكتبة جامع فاتح بالأستانة ، وقد نشر أسين بالاتيوس تحليلاً ودراسة له مع قطع من ذلك المخطوط ، والنص الذي أورده في ص ٣٦ من المقال المذكور .
(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

وأقطع الواردين مع [السمع] إقطاعات غيرها ، وقال : هذه الثغور الهندية لولا إقطاعات عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجند فيها لم يسدها ، فكيف بتلك الناحية ؟ فإننا نستخير الله في إجلاء المسلمين عنها ، ثم إنه لم يتفد ذلك ليبلغ الكتاب أجله ^(١) .

* * * *

وإذن فقد اعتبر عمر بن عبد العزيز أرض الأندلس ثغراً مثل الثغور الهندية ^{٢٩٢ - الحلقة} تعتبر الأندلس التي أقطع عمر - خطاب أرضها لجندها ، وبناء على ذلك فقد أعطى العرب ^{ثغراً} الأول سجلات به وسعوا أيديهم عليه من أرض على أنها إقطاعات ، بل أقطع جند السمع إقطاعات أخرى ، وأصبحت هذه قاعدة مقررة . وهذا يفسر لنا ما يقوله محمد ابن مزين من أنه « حين تم افتتاح المسلمين [الأندلس] قسمها موسى بن نصير البكرى التابعي بين الجيوش الذين دخلوها كما قسم بينهم سبئها ومتاعها وسائر مغانمها وأخرج من أرضها ورباعها الخمس ، كما أخرجه من سبئها ومتاعها ، واختار من خيار السبئ وصفاره مائة ألف وحملهم إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وترك سائر الخمس من كبل (صحتها كبار) السبئ ووخش الرقيق في الخمس من الأرضين يعمرونها ليلث مال المسلمين ، وهم أهل البساط ، وكانوا يعرفون بالأخماس وأولادهم بنو الأخماس » ^(٢) .

وواضح أن موسى لم يخصص إلا جزءاً قليلاً من أرض الأندلس ، وهو أرض ^{٢٩٢ - اعتبار} البساط في الجنوب ، ربما جنوبي الوادي الكبير ، فاستولى المسلمون الفاتحون ^{أراض الجنوب} على أربعة أخماسه واعتبروها غنيمة واعتبرتها الدولة إقطاعات ، وبقي ^{إقطاعات لمن} الخمس ملكاً للدولة فأطلقت فيه السبئ يزرعونه للدولة ، ويؤدون من أمواله ^{استولوا عليها} الثلث (ليلث مال المسلمين) وقد اعتبر هؤلاء زراع أرض الدولة وأطلق عليهم اسم الأخماس ، وأولادهم أولاد الأخماس .

ويتفق هذا الذي قلناه مع واقع الأحداث التاريخية ، فإن الجنوب بالفعل هو الذي فتحه المسلمون عنوة ، فقد قاتلوا في أقصى الجنوب (واقعة وادي لكه) وفتحوا استجة وقرطبة

(١) رواء محمد بن عبد الوهاب الغساني في « رحلة الوزير » طبعة المفريد البستاني ، تطوان ١٩٥١ ، ص ١١٣ . وقد نشر نفس النص خليان ريبيرا فيما نشر من ذلك الكتاب تحت عنوان « الرسالة الشريفة » ذيلاً على تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، ص ٢٠١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٢ .

عنوة ، فاعتبروا كل ما يقع جنوبي الوادى الكبير أرض عنوة وقسموه على النحو الذى قلناه. ولما كان المسلمون قد فتحوا ناحية ماردة عنوة فقد انسحب هذا الحكم على ما يقع بين الوادى الكبير ووادى آتة ، وما بين هذا النهر والمحيط ، فيها عدا شترتين وقلنبرية فقد استسلم أهلها وعقد المسلمون معهم عهداً فاستثنوا من ذلك الحكم . وكذلك مدينة صغيرة فى الجنوب الشرقى تسمى شية (Xea) فقد صالح أهلها . ولم يجزِ على إقليمها حكم العنوة .

وقد اعتبرت أراضي الجنوب والغرب التى تقاسمها العرب إقطاعات ملكاً لأصحابها يتوارثها الأبناء عن الآباء .

٢٩٤- بقية وأما بقية أرض الأندلس فقد اعتبرت أرض صلح صالح عليها أهلها ، قال أرض الأندلس محمد بن مزين : « وأما سائر النصارى الذين كانوا فى المعازل المنيعه والجبال أرض صلح الشاخنة فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على جزء منها (أى على أداء جزء من غلتها) مع أداء الجزية فى أرض الثمرة وأرض الزرع ، على ما فعله خير من اقتدى به ﷺ بيهود خيبر فى نخيلهم وأرضهم » (١) .

وقد رجحنا أن المراد بأرض الشمال هنا ، ما يقع شمالى الوادى الكبير من شبه الجزيرة ، وهذا معقول ، فقد فُتحت تلك النواحي كلها صلحاً ، وأخذ أهل كل ناحية لأنفسهم عهداً ، وهذا العهد يقرر ما عليهم من مال للدولة ، وواضح أن نصوص هذه المعاهدات لم تكن كلها واحدة فقد اختلفت بحسب الظروف ، قال محمد بن مزين : « فلما أكمل السماح ما أراد (أى إكمال تخميس أرض الجنوب) خاطب أمير المؤمنين بما عمله فى أرض العنوة وأرض الشمال وهى التى فُتحت صلحاً ، فإن أهلها صلحوا على الجزية مع أجزاء من الأرض (أى من غلة الأرض) ماثلة ومربعة كيفما كان طيب الأرض وغلتها ، حسبما فعله رسول الله ﷺ فى خيبر » (٢) .

وظاهر أن ما يقوله محمد بن مزين من أن أهل بلاد الشمال « صلحوا على الجزية مع أجزاء من الأرض ماثلة ومربعة ... حسبما فعله الرسول ﷺ فى خيبر » إنما هو اجتهاد منه ،

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٦ .

فإن الرسول لم يترك أرض خيبر لليهود على أن يؤدوا الثلث أو الربع بل النصف^(١)، وقد وجد الفقهاء أنفسهم أمام اتفاقات أقرها حكام المسلمين وخلفاؤهم تبيح لأهل بعض نواحي الأندلس التي فتحت صلحاً أن يؤدوا الثلث أو الربع، فحاولوا إعطاء ذلك صبغة شرعية، فقال بعضهم إن الذي جرى فيها كان قياساً على ما صنَّع بخيبر وفدك بعد ذلك وأنكره آخرون إنكاراً تاماً، فقالوا إن أرض الأندلس لم يجر عليها حكم الشرع كما رأينا في كلام ابن حزم الذي أتينا به، وكما قال فقيه آخر هو أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي فقد قال: «وأما أرض الأندلس فقد طعن فيها بعض الناس، وزعم أنها أو أكثرها فتحت عنوة، وأنها لم تخمس ولم تقسم، غير أن كل قوم وثب على طائفة منها من غير إقطاع من الإمام»^(٢).

وإذن فقد اعتبرت أراضي الجنوب أرض عنوة، واعتبرها من فتحوها غنيمة وتقاسمها بعد إخراج الخمس منها، وأيدت الدولة ذلك، فسجل الوليد بن عبد الملك لمن استولى عليها من المسلمين وأعطاهم سجلات بذلك، ثم جاء عمر بن عبد العزيز فأيد ذلك الحكم واعتبر ما استولى عليه المسلمون من الأرضين إقطاعات، وساوى بينها وبين ما فتح المسلمون من أرض الهند، فاعتبرها ثغراً يجوز للإمام أن يقطع أرضها لمن فتحوها ومن يقومون على حمايتها، فإذا كانت في الشرق ثغور هندية، ففي الغرب ثغور أندلسية.

أما أرض الشمال مما فتح صلحاً فقد اعتبرت أرض صلح، تجرى عليها أحكام الصلح التي عقدها المسلمون مع أهلها.

وهذا الذي حدث في الأندلس يشبه تماماً ما حدث في المشرق، فقد اعتبر المسلمون أرض السواد أرض عنوة، وأرادوا تقاسمها، فحال عمر بينهم وبين ذلك، ولم يسمح لهم

(١) قال الطبري في كلامه عن غزوة خيبر: «فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله أن يعاملهم بالأموال على النصف، وقالوا: نحن أعلم بها منكم وأمرنا بها، فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف، على أننا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، وصالحه أهل فدك على مثل ذلك...» تاريخ الأمم والملوك، القاهرة ١٩٣٩، ج ٢، ص ٣٠٢. وقال أبو يوسف (كتاب الخراج، القاهرة ١٣٥٢ هـ، ص ٥٠): «حدثنا مسلم الخزامي (أو الخزامي أو الخزامي) أن رسول الله ﷺ دفع خيبر إلى اليهود مساقاة بالنصف، وعن الحجاج بن أرطاة عن نافع عن عبد الله ابن عمر أن رسول الله ﷺ دفع خيبر إلى أهل خيبر بالنصف»، ويقول في ص ٨٥: «أولا ترى أن رسول الله ﷺ افتتح خيبر عنوة، ولم يجعل عليها خراجاً ودفعها إلى اليهود مساقاة بالنصف؟». بل إنه ثابت أن الرسول ﷺ كره المزارعة على الثلث والربع، قال أبو يوسف: «وكانوا يمتحنون أيضاً في المزارعة بالثلث والربع بحديث جابر أن رسول الله ﷺ كره المزارعة بالثلث والربع» - كتاب الخراج ص ٨٩.

(٢) رواه سيمونيت في «تاريخ المستعربين»، ص ٦٨ نقلاً عن مخطوطة الإسكريال رقم ١١٦٠.

باعتبار الأرض غنيمة لهم ، بل غنيمة لجماعة المسلمين ، وتركها لأهلها على أن يؤدوا للمسلمين جزءاً من غلتها ، أى صارت أرض فيء . أما ما يلى ذلك شرقاً ، فقد اعتبر أرض صلح ، إذ لم يفتحه المسلمون بحد السيف . وقد روى يحيى بن آدم خبراً يصور ذلك أحسن تصوير فقال : « أخبرنا إسماعيل ، قال : حدثنا الحسن ، قال : حدثنا يحيى ، قال : سمعت حسن بن صالح يقول : كنا نسمع أن ما دون الجبل من سوادنا فهو فيء ، وما وراء الجبل فهو صلح ، قال حسن : فمن كان منهم صلحاً فعليهم الذى صلحوا عليه ، فيخلى بينهم وبين أرضيهم ، ولا يوضع عليها شيء ما أقاموا بصلحهم يؤدونه للمسلمين » (١) .

٢٩٥- نزول
العرب في بعض
نواحي الشمال

أما من استقر من العرب في ريف بعض نواحي الشمال ، فالأغلب أنهم نزلوا مواضع لم تكن مأهولة أو في أرض الصوافي التي حددها أبو يوسف فيما يتصل بسواد العراق بقوله : « أصفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أهل السواد عشرة أصناف : أرض من قُتل في الحرب ، وأرض من هرب ، وكل أرض كانت لكسرى ، وكل أرض كانت لأحد من أهله ، وكل مغيض ماء ، وكل دير بريد » (٢) أى أنه ذكر ستة وترك أربعة ، وأضاف إليها في رواية أخرى أرض الآجام ، ونضيف نحن فيما يتصل بالأندلس أملاك الملوك وأهل بيوتهم وأملاك الكنائس ، وكان الموجود في الأندلس من كل صنف من أصناف هذه الأرض كثيراً فتجبح فيها من شاء الاستقرار في الأرض من العرب ، ووجدت لهذا جماعات منهم في كل ناحية تقريباً . وكانت هذه الأرضون كلها بمتزلة القطائع ، يؤخذ عليها العشر في الغالب ، ومنها في المشرق ما كان يؤدى عشرين ، وللإمام أن يُصيرها أرض خراج إذا كانت تُسقى من أنهار الخراج (٣) . ولما كنا لا نعرف ما كانت تؤديه في الأندلس ، فأسلم الآراء أن يقال إنها كانت تؤدى الحد الأدنى وهو العشر ، خاصة وأن العشر كان هو القاعدة السارية على من تملك الأرض من البلديين والبربر (٤) ،

(١) يحيى بن آدم القرشي : كتاب الخراج (بتحقيق أحمد محمد شاكر) القاهرة ١٣٤٧ هـ ، ص ٢١ .

(٢) أبو يوسف : كتاب الخراج ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) جاء في كتاب الخراج ليحيى بن آدم (ص ٨٠ - ٨١) : « أخبرنا إسماعيل ، قال : حدثنا الحسن ، قال : حدثنا يحيى ، قال : حدثنا قيس عن برد أبي العلاء عن مكحول ، قال : قال رسول الله ﷺ : جعل رزق هذه الأمة في سنابك خيلها وأزحة (نصال) رماحها ما لم يزرعوا ، فإذا زرعوا كانوا من الناس » .

وكانت القاعدة العامة ألا تترك أرض دون أن يعمرها أحد ، قال أبو يوسف : « ولا أرى أن يترك [الإمام] أرضاً لا ملك لأحد فيها ولا عجارة حتى يقطعها الإمام ، فإن ذلك أعمر للأرض وأكثر للخراج » ، ص ٦١ .

وأما عرب الشام فقد ذكرنا حكم ما كان في أيديهم ، ومن البديهي أن يكون زراع أهل البلد قد خضعت أراضيهم لأحكام الخراج عامة .

بهذا تنقرر الأسس العامة التي جرت عليها شئون الأموال في الأندلس على نحو مفهوم ، ولا تعيننا المراجع التي بين أيدينا على التدقيق أكثر من ذلك ، ولهذا فإننا نحجم عن محاولة تقدير أموال الأندلس في هذه الفترة ، خاصة وأن الاضطرابات الكثيرة التي وقعت بين العرب والبربر من ناحية ، وبين اليمنية والشامية من ناحية أخرى ، جعلت الواصل إلى بيت المال دائماً قليلاً . وقد أشرنا من قبل إلى ما ذكره صاحب « الأخبار المجموعة » من نقصان الخراج أثناء الفتنة الكبيرة التي وقعت بين العرب والبربر ^(١) ، ولم يتحسن الحال عندما انتصر العرب بفضل جند طالعة بلج فقد قطع البلديون الخراج ، وكان معظمهم من اليمنيين ، إذ عز عليهم أن يؤدوا الضريبة للشاميين الغالبيين ، وزاد الأمر سوءاً توالى سنوات القحط ، ودام ذلك حتى دخول عبد الرحمن بن معاوية ، فلم تقع في أيام الصميل بن حاتم ويوسف الفهري سنة رخاء إلا في النادر ، فلا عجب أن كان بيت المال خاوياً أو يكاد خلال هذه السنوات .



٣١٦ - التصرف في أموال الجبائية ومهما كان المال الذي يصل إلى العمال في قرطبة ، فلا بد أن نسأل : ماذا كانوا يفعلون به ؟ هل كانوا ينفقونه في الوجوه التي تقرر له من عمارة البلاد والقيام بشئونها وأداء الرواتب لأصحابها ثم إرسال الباقي إلى دمشق ؟ هنا نجد أنفسنا أمام حالة فريدة في بابها في أخبار تلك الأيام : ليس لدينا نص واحد صريح يدل على أن شيئاً من مال الأندلس كان يُرسل إلى المغرب أو المشرق ، وليس لدينا من أخبار التعمير إلا ما ذكرناه من إعادة بناء قنطرة قرطبة وإنشاء جبانة للمسلمين . بل ليس لدينا نص يشير إلى مطالبة عمال المغرب أو الخلفاء بأموال الأندلس كما كان الحال مع مصر مثلاً ، إذ كان خراج مصر موضوعاً هاماً تسهب المراجع في تفاصيله وذكر مقاديره ، بل تذكر المكاتبات التي دارت بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص بشأنه ، وكيف أن الخراج كان السبب في عزل ابن العاص واستبدال عبد الله بن سعد بن أبي السرح به .

وصمّت المراجع عن هذه الناحية صمتاً تاماً يبدو في نظرنا أمراً غريباً ، خاصة وأن الذين أروخوا لهذه الفترة - كصاحب « الأخبار المجموعة » وابن القوطية وأحمد بن محمد الرازي

(١) انظر « الأخبار المجموعة » ، ص ٦٢ .

وابن حيان - ومن نقل عن هؤلاء جميعاً من متأخري المؤرخين ، كانوا جميعاً ذوى عناية بشئون المال والخراج ، ومنهم من كان من كُتّاب الدولة . ولا يعلل هذا الصمت إلا بأن ولاية الأندلس لم يكونوا يرسلون إلى إفريقية أو إلى المشرق شيئاً من المال ، وأن الخلافة كانت يائسة من أمر الأندلس لا تنتظر منه مالأً ، حتى فكر عمر بن عبد العزيز في استرجاع العرب منه وتركه جملة . والراجح أن معظم ما كان يصل إلى عمال الأندلس كان يضيع بين أرزاق الجند وأعطياتهم ونفقات الجهاد فيما وراء جبال البرت واستكمال فتح شبه الجزيرة نفسها .

ثم إن الأندلس لم يبل أموره خلال هذه الفترة كلها إلا خمسة ولاية من الطراز الذى يرجى منه أن يقرر شئون الأندلس الخراجية على وجه الأحكام والضبط ، وهم : موسى بن نصير ، وابنه عبد العزيز بن موسى ، والسمح بن مالك الخولانى ، وعبد الرحمن الغافقى ، وعقبة ابن الحجاج السلولى^(١) . أما الباقر فكانت أشخاصهم من الضعف أو البعد عن التنظيم والميل إلى الفوضى بحيث نستبعد أن يكونوا قد استطاعوا أو اهتموا بأن يضعوا للبلاد ديواناً مالياً منظماً . ومن الغريب أن هؤلاء الخمسة قد عاقتهم ظروفهم عن أن يقوموا بشيء إيجابى فى هذه الناحية ، لأن موسى أعجله الوليد عن أن يفعل شيئاً ثم حاسبه بعد ذلك حساباً عسيراً جداً ، وعبد العزيز كان فى شبه خروج على الدولة طوال مدة ولايته ، وقد رأينا ما فعل السمع فى هذه الناحية ، وأما عبد الرحمن الغافقى وعقبة بن الحجاج فكانت لهما حروب طويلة تستنفد كل ما عسى أن يكونا جمعاه .

ثم إن أمر الأندلس كان خلال معظم هذه الفترة إلى عمال إفريقية ، ولم يكونوا هم الآخرون منظمين ممتازين ، ولم تكن ذمم الكثير منهم بعيدة عن النهم ، وشغلتهم إلى جانب هذا كله حروب مع البربر استنفدت مالأً كثيراً جداً ، فلعل ولاية الأندلس كانوا يبعثون بأموالهم إلى عمال إفريقية ، ولم يعن هؤلاء بفصلها عن أموال ولايتهم ، فلم يستطع الرواة العنور على شيء يحددها لهم ، ومن هنا كان إغفالهم الإشارة إليها^(٢) .

(١) وحتى هؤلاء الخمسة لم تحل تصرفاتهم من أخطاء ومخالفات أثارت غضب الخلفاء .

انظر : فتح الأندلس ، ص ١٩ .

(٢) ولم تكن أحوال إفريقية من هذه الناحية بأحسن من أحوال الأندلس ، قال ابن القوطية مشيراً إلى هزيمة كلثوم بن عياض القشبرى أمام البربر فى موقعة الأشراف : « فلما بلغ هشام بن عبد الملك التكية الدائرة على كلثوم وما اتصل بذلك من فساد إفريقية والأندلس شاوَر العباس بن الوليد أخاه ، وكان أحده فى الشورى محل أخيه مسلمة بعدد فى هذا الأمر ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، ليس يصلح هذا الأمر إلا بما صلح به أوله ، فاصرف نظرك وحسن رأيك إلى هذه القحطانية... » .

ابن القوطية : انتصاح ، ص ١٧ .

وبين أيدينا نصوص كثيرة تؤيد القول بأن شئون الأندلس المالية خلال هذه الفترة لم تضبط على الأسس الشرعية التي جرى العمل بها في الولايات الإسلامية إذ ذاك ، فقد اتهم موسى بن نصير صراحة بأنه لم يكن يخرج الخمس مما وقع في يده من الغنائم ، وكان هذا سبباً من أسباب نكبته ^(١) ، بل إن سليمان بن عبد الملك « أخذ موسى ومن كان معه من عمال المغرب لما بلغه من إقطاعهم الأخصاس فغرموا ، وغرم موسى مائة ألف » ^(٢) ، وهي رواية تدل على أن موسى بن نصير نفسه مد يده إلى أخصاس الغنائم ، وقد رأينا كيف تفرقت أرض الأخصاس في قبائل العرب إقطاعات ، أما ما كان يرد من أموال الخراج فقد كان جانب منه يُؤدّى إلى جند العرب كما رأينا ، والباقي - وكان قليلاً - كان يتصرف فيه العمال .

* * *

والدلائل كثيرة على أن العمال وكبار العرب كانوا على غنى عريض ، فقد كان ٢٩٧- نروات
العرب الأوّل في
الأندلس الصميل بن حاتم يمتلك داراً كبيرة « بعدوة النهر بقبلى قرطبة » ، وخلف داره كانت عقدة الزيتون المشهورة ، « كانت كلها له ، وكانت مائة صف ، في كل صف ألف أصل وسقى عظيم من عين هناك » ^(٣) ، أى أن هذا الشيخ البدوى كان يملك غابة واسعة من أشجار الزيتون فيها مائة ألف شجرة ، وكانت خزائنه عامرة بالمال ، حتى لقد وُجد في بيته تابوت « فيه عشرة آلاف دينار دراهم » ^(٤) . وكان عامر بن عدى من أشرف بنى عبد الدار بالأندلس يملك منية واسعة بغربى مدينة قرطبة ، وكانت تسمى « قناة عامر » ، وقد بلغ من سعتها أنه حينما استشعر الخوف من يوسف الفهرى وأراد التحرز منه « أغلق غلقة عظيمة همّ أن يجعلها مدينة ، وأراد أن يبتنى بها بنياناً ينضم إليه ويغاور يوسف حتى يأتبه إمداد اليمن » ^(٥) .

وأقطعت جماعة من بنى غافق قرية كاملة بشرف إشبيلية نسبت إليهم بعد ذلك ، وهي مرناة الغافقين ، ومنهم كان عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى الذى استشهد في بلاط الشهداء .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، ص ٢١١ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٢٠ .

(٣) فتح الأندلس ، ص ٣٨ .

(٤) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٩ .

(٥) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ .

وكان الكثيرون من رؤساء عرب الأندلس في هذه الفترة يملكون ضياعاً واسعة فيها قصور كبيرة ، وكانوا يسمون القصر والضيعة المحيطة به « البلاط » من (Palatum) اللاتينية حتى إنهم سموا قرطبة كلها « بلاط لذريق »^(١) لأنها كانت ملكاً له ، ومن أمثلة هذه البلاطات « بلاط الحر » بن عبد الرحمن^(٢) و« بلاط مغيث » الرومي ، وكانت داراً شريفة ذات سقى وزيتون وثمار يقال لها « اليسانة » كانت للملك الذي أسره (مغيث) وكان له فيها بلاط منيف شريف ، فهي تسمى بالأندلس « بلاط مغيث »^(٣) ، وكان عبد الله ابن خالد من كبار موالى بنى أمية يملك معظم قرية الغتين ، حتى ليقول ابن القوطية إنها كانت « منزل عبد الله بن خالد »^(٤) ، وكذلك كان أبو عثمان شيخ موالى بنى أمية يملك إقطاعاً كبيراً بقرية طرش من كورة قرطبة^(٥) ، بل كان يحدث أن ترك كورة كاملة لرجل واحد ، كما ترك يوسف الفهري كورة ربه لمنافسه يحيى بن حريث ليسكت عنه^(٦) ، بل كانت قبائل عربية تملك كوراً كاملة ، فقد ذكر صاحب الأخبار المجموعة أن « الثغر كان لليمن »^(٧) والمراد هنا ثغر سرقسطة .

وكان رجال مثل الصميل ينفقون عن سعة تدل على مال عريض ، قال صاحب الأخبار المجموعة يتحدث عن الصميل عندما سار إلى سرقسطة : « فأتى في مائتي رجل من قريش ومن كان معه من غلمانة وحشمه ومواليه ، فنال بها ملكاً وغنى ، ووفد عليه محابيح الناس ، فأعطاهم الأموال والرفيق ، ولم يأته صديق ولا عدو فخرمه ، فازداد سؤدداً »^(٨) . وقد روينا خبر دخول نفر من كبار العرب والموالى على أرطباس وإعطائه إياهم الضياع ، قال ابن القوطية : « فوهبهم مائة ضيعة صار لكل واحد منهم عشر ضياع ، منها طرش لأبي عثمان ، والغتين لعبد الله بن خالد وعقدة الزيتون بالدور للصميل بن حاتم »^(٩) . وقد روينا في نفس الخبر كيف أن أرطباس وهب ميموناً العابد « المجشر الذي على وادي شوش وما فيه

(١) القري ، ج١ ، ص ١٦٠ ، ج٢ ، ص ٢٣ .

(٢) القري ، ج٢ ، ص ٢٣ .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٢١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٤ .

(٥) نفس المرجع والصفحة .

(٦) نفس المصدر ، ص ٢٧ .

(٧) نفس المصدر ، ص ٦٢ .

(٨) نفس المصدر ، ص ٦٣ .

(٩) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

من البقر والغنم والعييد والقلعة (أى ضيعة القلعة) بجيان وهى المعروفة بقلعة حزم فملكها...»^(١). أما الرجال الذين مثل أبى الصباح اليحصى وحيوة بن ملامس - وكانا يُوصفان بأنها «سيدا الغرب» - فقد كانوا على ثراء واسع^(٢).

وهذه أمثلة قليلة تعيننا على تصور ثروات عرب الأندلس فى ذلك الحين ، فقد كانوا جميعاً بين مقطعين يملكون أرضاً كثيرة أو قليلة ، أو نازلين فى نواح يأخذون نسبة عالية من غلتها ، وكانت لهم إلى ذلك الأعطيات والأرزاق ، وقد أوجد فيهم ذلك الرخاء الذى كانوا فيه نوعاً من الأثنية جعلهم يتصورون أن الأندلس كلها طعمة لهم أو غنيمة وقعت فى أيديهم لا يملك أحد أن يشاركهم فيها ، فقد أبوا على عرب الطالعة الثانية نزول بلادهم وتركوهم محصورين فى ناحية سبتة حتى كاد يهلكهم الجوع ، وكانوا يقولون: « إن بلدنا لا يحملنا وإياهم » . نعم ، شبه الجزيرة الإيبيرية كله لا يتسع لبضعة آلاف من العرب ! وعندما وفد نحو ٤٠٠ عربى مع السمح بن مالك وطلبوا إلى عرب الأندلس أن يوسعوا لهم فى جانبهم ضاقوا بهم وبلغ بهم الأمر أن ذهبوا يشكون إلى الخليفة فى دمشق .



وإذا استثنينا بعض كبار الرؤساء الذين كانوا يملكون ضياعاً أو بلاطات
٢٩٨ - القبائل
تلك إقطاعها
ملكاً جماعياً لهم خاصة ، فالظاهر من النصوص أن حقوق العرب على النواحي التى
 نزلوا فيها كانت حقوقاً جماعية ، أى أن « الإقطاعات » كانت بيد رؤساء
 القبائل ، وهم الذين يتولون توزيع الحصص على أفرادها . وبغير هذا لا نستطيع تفسير قول
 المؤرخين أن « الثغر كان لليمن » ، أو أن أبى الصباح وحيوة بن ملامس كانا « سيدى
 الغرب »^(٣) ، بل لا يمكننا تفسير نزول أجناد الشاميين بالكور : كل جند بكورة يكون لهم
 ثلث أموالها إلا على هذا الأساس ، أى أن « الجند » بأسره كان ينزل الكورة ويعتبر رئيسه
 صاحب الأمر فيها ، وقد كان الأساس أول الأمر أن ينزل الجند فى الكورة دون أن يدعى
 أفراده من الحق أكثر من ثلث المحصول ، ولكن اضطراب الأحوال فى أواخر أيام الولاة
 جعل الأجناد ملكاً للنواحي وأصحاب الأمر فيها . وحيث إننا لا نسمع ولو مرة واحدة

(١) نفس المصدر ، ص ٣٩ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٥ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٥ .

عن عمال لكور الأندلس في هذه الفترة ، فأقرب الأمور إلى الصحة هو القول بأن العرب النازلين فيها - مقطعين أو مقيمين فقط - كانوا بالفعل أصحاب الأمر فيها .

وقد أصبح الأمران سواء مع الزمن كما رأينا ، فيقوم بالأمر رئيس القبيلة أو شيخ مجموع القبائل أو صاحب لواء الجند ، فيجمع الأموال بمعاونة رؤسائها من أهل الذمة ، ويقطع ثلثها ويؤدى الثلثين لبيت المال إن كان رئيس جند نازل أو يؤدى عرشها فقط إن كان مقطعاً ، وعليه لقاء ذلك أن يكون مستعداً برجال قبيلته للخروج إلى الحرب عندما يدعوه العامل حسب النظام الذى أوردناه . أى أن أرض الجنوب قسمت بين فاتحيها والمقبلين إليها من العرب والبربر ، لكل قبيلة ناحية هى صاحبة الأمر فيها ، لا يربطها بالحكومة المركزية إلا أداء ما ينبغى عليها من المال والاشتراف في الحرب لقاء الرزق والعطاء . وكان لكل قبيلة أو جماعة من القبائل «سجل» من عامل الأندلس أو من الخليفة نفسه ، تؤيد به حقها في ناحيتها . أى أن نواحي الأندلس الجنوبية كانت معتبرة ثغوراً أو ولايات حدود تقيم فيها «أجناد» تتصرف بجزء كبير من محصولها نظير ما تقوم به من خدمة عسكرية دائمة .

على هذا الأساس نستطيع أن نفسر قدرة عرب الأندلس وبربرها الأولين على القتال واستمرارهم فيه : مع النصارى الإسبان في الشمال ، ومع نصارى غالة في أول الأمر ، ثم فيما بينهم وبين أنفسهم بعد ذلك ، لأنهم كانوا جميعاً جنوداً لا عمل لهم إلا القتال ، ولو كانوا توزعوا الأرض قطعاً صغيرة فيما بينهم واشتغلوا بالزراعة لأصبح من الصعب اقتلاعهم منها وإرسالهم للحرب كما حدث للكثير من عرب مصر ، مثلاً ، ممن زرعوا واندرجوا في غمار الناس ، أما عرب الأندلس فلم يكن أحد منهم ليملك أرضاً لنفسه ، وإنما الأرض ملك القبيلة كلها ورئيسها يوزعها على أفرادها كما يرى ، فإذا ناداهم إلى الحرب لم يسعهم إلا التلبية ، وإلا ضاع حقهم في العطاء في آخر الغزاة . وبهذا نستطيع أن نفسر سهولة تداعيهم للحرب وخروج قبائلهم لها ، فإذا أهين شيخ قبيلة خرجت القبيلة للحرب ، وإذا استنجد رئيس عدد من القبائل بنى عمومته خفَّت قبائل بأسرها لعونه ، لأن رؤساء القبائل وأصحاب الألوية المعقود لهم كانوا يوجهون الأفراد كما شاءوا ، وكان ذلك من أشد ما أذى عرب الأندلس وعجّل بزوال السلطة من أيديهم وانتقالها إلى عبد الرحمن الأموى .

والنتيجة الطبيعية لهذا النظام هو فقر الإدارة المركزية وعجزها عن إدارة البلاد كلها إدارة

موحدة ، وهبوط أمر ولاية الأندلس واجتراء أجناد العرب في النواحي عليهم . فلم تكن الأندلس في واقع الأمر ولاية واحدة بل عدة ولايات تنفرد بالأمر في كل منها قبيلة أو عدة قبائل يجمعها لواء واحد ، ولم يرزق الله الأندلس خلال هذه الفترة بوال واحد تجرد من نزعات العصبية وطالت مدته حتى يقرر الأمور فيها على قاعدة تؤكد وحدة الولاية وتنزع من قلوب العرب ميول العصبية ونزعات الأنانية التي غلبت عليهم .

ثم إن الخلافة كانت أبعد من أن تستطيع القبض على شئون الأندلس وإخضاعها للنظم الإدارية الإسلامية المقررة ، فتركوها لعمال أفريقية ، ولم يكن هؤلاء من طراز المنظمين ذوى الشخصيات القوية الممتازة ، وشغلتهم إلى جانب ذلك شئون المغرب ، وما كان أكثرها ؛ فسارت الأمور في الأندلس خلال هذه الفترة سيراً ارتجالياً لا يكاد يخضع لنظام مقرر أو قاعدة ثابتة ، فاستبد بكل ناحية أصحابها ، وثارَت بينهم المنازعات .

ولعل أغرب ظواهر هذا الاضطراب هو أننا لا نجد ذكراً في مراجعنا لخراج هذا القطر الفسح ، كأنه كان لا يغفل شيئاً : لا نملك نصاً واحداً يذكر أن خراج الأندلس أُرسِل إلى إفريقية أو إلى المشرق ، بل لا نجد شيئاً يدل على أن الولاة كانوا يجمعون خراجاً منتظماً مقررأ ، اللهم إلا إشارات متناثرة كقولهم أن عقبه بن الحجاج « عدل في الخراج » أو أن الخراج « ضعف » في أوائل ولاية يوسف الفهري ، وهى إشارات لا نستطيع الاعتماد عليها في تكوين فكرة صحيحة عن هذه الناحية الهامة .



وإذ كان الأمر كذلك فإننا لا نستطيع تصوير الإدارة الإسلامية في الأندلس خلال هذه الفترة : لا نعرف أى الإدارات وُجِد وأيها لم يوجد ، وكل ما لدينا أساء بعض أشخاص يحتلون وظائف إدارية وردت من غير تحديد اختصاص ، كأبى عثمان بن عبد الله صاحب أزمة الأرض والخراج^(١) ، وعامر بن أبى عدى قائد الصوائف^(٢) ، ويحى بن يحيى التجيبى قاضى هشام بن عبد الملك على الشاميين^(٣) ، وجد بنى سليمان القرائين وكان صاحب الصلاة^(٤) ، ويحى بن أبى زيد

(١) فتح الأندلس ، ص ٥٤ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ .

(٣) ابن الفوطى : افتتاح ، ص ٣٤ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٨ .

التجيبى قاضى الجند^(١)، وعيسى بن عبد الله الطويل وكان على المغانم^(٢) وهذا هو كل ما لدينا، وهو لا يعيننا على تكوين فكرة عن الإدارة العامة في هذا العهد، وربما كان الأحجى أن ندع بحث هذه الناحية حتى تتجمع لدينا معلومات أوفى .

بيد أن هناك وظيفة كبيرة لدينا عنها من المعلومات ما يمكننا من الكلام عنها في أمان، هى وظيفة القضاء في الأندلس، وكان لها في عصر الولاة أهمية كبرى .

٣٠٠- القضاة كانت للقضاء أهمية خاصة في الأندلس، وربما لم يبلغ القضاء في بلد من بلاد الإسلام ما بلغوه من علو المكانة ووفرة السلطان وتعدد الجاه في الأندلس والمغرب، ولدينا لتاريخ القضاء في الأندلس كتابان أحدهما لمحمد بن الحارث بن أسد الحشنى^(٣)، والثانى لأبى الحسن النباهى^(٤)، وأورد ابن سعيد في «المغرب» تاريخاً لقضاء الأندلس يكاد يكون كاملاً، ومعظم من نجد أساءهم في تراجم علماء الأندلس إنما كانوا قضاة أو لهم بالقضاء صلة كالحسبة والمشاورة وما إلى ذلك، وأورد المقرئ في كتابه «نفع الطيب» و«أزهار الرياض» فصولاً وتراجم ضافية للقضاة، واختص ابن حيان مشاهيرهم بتراجم مطولة، أى أن المادة عن قضاء الأندلس وقضاة وفيرة لمن يشاء أن يدرس . وكان قاضى الجماعة في قرطبة شخصية لها أهميتها في مجالات العلم والسياسة في الأندلس، بحيث لا يمكن التأريخ للأندلس تاريخاً صحيحاً إلا إذا ألمَّ الإنسان بتاريخ قضاة وتبته للأهمية الكبرى التى كانت لهم في المجتمع الأندلسى^(٥) .

٣٠١- مسألة وكما كان موضوع قضاة الأندلس موضع اهتمام القدماء فقد كان موضع اهتمام المحدثين، فكتب فيه دوزى ورييرا وآسين بلاثيوس وليفى برونسال وغيرهم، وأثاروا مشاكل كثيرة يهمنها هنا موضوع قضاة الأندلس الثلاثة الأول، فقد كان موضوع درس وآراء ومناقشات . وأصل المشكلة أن أقدم تاريخ لقضاة

(١) فتح الأندلس، ص ٤٣، ويرجح أن صحة الاسم «عيسى بن يزيد» .

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢١١ .

(٣) كتاب القضاة بقرطبة، للحافظ العالم أبى عبد الله محمد بن حارث الحشنى القروى، نشره خليان ريبيرا، مدريد ١٩١٤ .

(٤) تاريخ قضاة الأندلس المسمى «كتاب الرقية العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا» لأبى الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهى المالقى الأندلسى . نشره إ. ليفى برونسال، القاهرة ١٩٤٨ .

(٥) انظر عن هذه الناحية كتابنا، (Le Caire) Essai sur la Chute du Califat Umayyade de Cordoue (1948) pp. 66 - 69.

الأندلس ، وهو كتاب « تاريخ قضاة الأندلس » الذى ألفه محمد بن الحارث بن أسد الحخشنى، وهو مغربى من تونس أورد أسماء ثلاثة رجال ذكر أنهم من قدماء قضاة قرطبة ، وهم مهدي بن مسلم وعنتر بن فلاح ومهاجر بن نوفل القرشى^(١) ، وذكر أنهم كانوا قضاة أيام الولاة أى قبل قيام الدولة الأموية الأندلسية، وذكرهم أيضاً أبو الحسن النباهى^(٢) ، وفيما عدا ذلك لم يرد لهؤلاء الثلاثة ذكر فى حوليات الأندلس ، ولم يشر إليهم أحد من أصحاب كتب التراجم ، حتى ابن الفرضى ؛ وكانت عناية بشؤون القضاة عظيمة ، ومعظم أخبارهم عند الحخشنى منسوبة إلى أحمد بن فرج بن مُتَيْل ، وهو شخصية قلقة من شخصيات التاريخ الأندلسى ، فقد ذكر ابن الفرضى أنه « كان ينسب إلى اعتقاد مذهب ابن مسرة »^(٣) ، وكان المسريون يُعتبرون فى عداد الزنادقة عند فقهاء الأندلس ، وأخبار ابن متيل لهذا مشكوك فيها لا يوثق فى صحتها .

وكان أول من قال بذلك دوزى فى حديثه عن المراجع العربية لفتح العرب للأندلس، وقد ذهب فى ذلك المقال إلى أن الكثير من أخبار الأندلس فى عصوره الأولى قد وضعها المشاركة والمصريون بنوع خاص ، وضرب لذلك مثلاً بمحمد بن الحارث بن أسد الحخشنى الذى يسند الكثير من أخباره إلى رجال لا يوثق فى صحة نقلهم^(٤) مثل ابن متيل هذا ومحمد بن وليد^(٥) وعلى بن شببة^(٦) وعثمان بن محمد^(٧) ، وهؤلاء أخذوا بدورهم عن أصول مشرقية ، فابن متيل مثلاً فى حديثه عن مهدي بن مسلم يروى عن رجل يسمى أبا العباس أحمد بن عيسى بن محمد المقرئ ، وأن هذا الرجل قد حدّثه بحديث مهدي فى مدينة تيس (بالمغرب) .

وبعد أن يورد نص عهد الولاة عقبه بن الحجاج إلى مهدي بن مسلم بولاية القضاء (وسنعرض له بعد قليل) يقول : « قال محمد (بن الحارث بن أسد الحخشنى) قال أحمد بن

(١) أورد الحخشنى تراجمهم ابتداء من ص ١٨ حتى ص ٣٠ .

(٢) النباهى : قضاة الأندلس ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٣) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ترجمة ١٢٧ .

(٤) DOZY, Etudes sur la conquête de l'Espagne par les Arabes dans Recherches (3e. éd 1881) (٤)

l p. 1 sqq.

والفقرة الخاصة بمحمد بن الحارث بن أسد الحخشنى فى ص ٣٤ - ٣٦ .

(٥) انظر ترجمته عند ابن الفرضى ، ترجمة ١١٧٨ .

(٦) ابن الفرضى ، ترجمة ٩١٨ .

(٧) ابن الفرضى ، ترجمة ٩٠٠ .

فرج ، فقلت لأحمد بن عيسى : لقد عظمت همتك إذ حفظت مثل هذا وشبهه من الأخبار القديمة ، فقال : حفظت هذا زمن الصبا عن جد لي عمّر نحو عمرى ، وكان من أحفظ الناس لأخبار المغرب وافتتاحه وأخبار بنى أمية عندكم ، ولقد كان عندي من كتبه أخبار حسان غربية ، فذهبت بحريق كان في منزلي ، ولقد بلغني أن بعض من عندكم من بنى الأغلب أو غيرهم من الشيعة ادعى هذا العهد ، وكتب به نصاً إلى بعض ولاة القضاة ، وما هو إلا لمهدى بن مسلم هذا عندي [كنت] قديماً أحفظه زمن الصبا عن جدى ، فهل عندكم له ذكر ؟ فقلت له : ما سمعت به عندنا ولا باسم مهدى هذا . فقال : قد سألت غريك من أهل بلدك ، فلم يكن يعرفه ، فيا عجبى ^(١) ! كيف درس خبره عندكم ؟ لكنى أظنه لم يعقب ، فاضمحل خبره بالفتن التى دارت في بلدكم ^(٢) ، وهو خبر طويل مفصل يلقي شكاً على ولاية مهدى بن مسلم ، ولكنه يدل على تدقيق أحمد بن فرج بن متيل .

وعندما يروى الخشنى أخبار القاضى الثانى عنتر بن فلاح يبدوه بقوله : «حدثنى أحمد ابن فرج بن متيل ، قال : حدثنى أبو محمد مسلمة بن زرعة بن روح بالعريش بالشام ، وكان شيخاً كبيراً قد نيف على المائة فيها ذكرى ، وأدرك حرمة صاحب الشافعى ، وحدثنى عنه وعن أمثاله ، وذكرى أنه من موالى بنى أمية ، وكان ذا علم بأخبارهم القديمة والحديثة مجاً لهم متشيعاً فيهم ^(٣) .

وما يورده الخشنى من أخبار القاضى الثالث مهاجر بن نوفل القرشى منسوب أيضاً إلى أحمد بن فرج بن متيل عن أبى محمد مسلمة بن زرعة هذا . أى أن أخبار القضاة الثلاثة مصدرها أحمد بن فرج عن راويتين أحدهما مغربى من تنيس والثانى مشرقى من العريش ، ولهذا فقد رفض دوزى أخبار هؤلاء القضاة الثلاثة ووصف الخشنى بقلة التدقيق وإيراده للأخبار دون تمحيص ^(٤) .

وتناول أسين بلاثيوس هذا الموضوع واتجه به اتجاهاً آخر ، ففى بحثه عن محمد بن مسرة ومدرسته قال إن أحمد بن فرج بن متيل قد اخترع أخبار هؤلاء القضاة اختراعاً ليؤيد بذلك مذهبه ومذهب أستاذه محمد بن مسرة ، وهذا المذهب فى نظر أسين لم يكن مذهباً فلسفياً

(١) وردت فى النص المطبوع : « يا عجبى » ورجحنا تصويبها هكذا .

(٢) الخشنى : قضاة ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٤) دوزى : نفس المصدر ، ص ٣٤ - ٣٦ .

بقدر ما كان اتجاهاً دينياً سياسياً يرمى إلى مناهضة الفقهاء وسلطانهم المطلق في الأندلس يؤيدهم البيت الأموي وما يسميه بالأرستقراطية العربية ، وهو يصف المرين بأنهم إسبان قوميون^(١) ، ومضى مجلل أسماء القضاة الثلاثة فقال إن الأول ، مهدي بن مسلم ، لا بد أن يكون لإسباني نصراني اعتنق الإسلام ، وترجمه هكذا : *un mesias hijo de un con- verso orenegado* ، وهو في رأيه ليس عالماً على شخص بل رمزاً لاتجاه ، أراد به أحمد بن فرج بن متليل أن يقول إن الإسبان تولوا القضاء في الأندلس من أقدم العصور ، وفعل آسين بالثاني كما فعل بالأول وترجم اسمه *un intrépido hijo de un labrador* وترجم اسم الثالث هكذا : *uno de la tribu de Coraix de los que salieron de la Meca* : *hijo de una calamidad* أي أن اسميها أيضاً مؤلفان كاسم الأول ، وقد وضعها المرليون رموزاً على معان عندهم . وقد أيد خليان ريبيرا هذا القول في مقدمته لتاريخ قضاة قرطبة للخشنى ، ولكنه عارض دوزي فيما ذهب إليه من أن الخشنى لا يوثق فيه ، وأنه حاطب ليل لا يدقق فيما ينقل^(٢) ؛ غير أنه أسرف في التفسير والاستنتاج حتى خرج بالموضوع إلى مجال التصورات والأوهام .

وعندما نشر ليفي برونسال تاريخ قضاة الأندلس للنباهي وجد أن هذا الأخير يذكر أسماء القضاة المشتبه في أمرهم ، فذهب إلى أن أخبار القضاة الثلاثة صحيحة ، وأغلب الظن أنه لم يقل ذلك استناداً إلى حجج جديدة ، بل لمجرد أن النباهي أيد الخشنى في هذا الموضوع . ومن الطريف أن كل ناشر يود أن يؤكد أصالة النص الذى ينشره ، فريبيرا يتهم أحمد بن فرج ابن متليل بالكذب ، ولكنه يؤكد دقة الخشنى وأصالة كلامه ، وبرونسال يتبنى كتاب النباهي ويدحض رأى دوزي ومن تابعه ، وهذه علة لم يسلم منها إلا القليلون من الناشرين .

وأياً كان نصيب أخبار أولئك القضاة الثلاثة من الصحة ، فمن الثابت أنه كان للأندلس على عهد الولاة قضاة ، وسواء أكانت أسماؤهم هي تلك التى ذكر بعضها الخشنى أم لم

MIGUEL ASIN PALACIOS, *Aben Masarra y su Escuela, Origenes de la Filosofia Hispa-ña no Musulmana* (1914)

وملاحظ أنه ترجم الأسماء على أنها رموز ، فعنتره عنده رمز على رجل شجاع ، ويترجمها بلفظ *intrépido* ، ونوفل رمز أيضاً ومعناه المصيبة *calamidad* ، وقد قرأ عنتره بن فلاح ، عنتره بن فلاح وترجمها *labrador* .

(٢) المقدمة الإسبانية لترجمة كتاب القضاة للخشنى ، ص ١٢ وما يليها .

تكن ، فقد قام فى الأندلس قضاء . قال الحشنى : « سمعت من أهل العلم سباعاً فأشياء أن عبد الرحمن بن معاوية الإمام دخل قرطبة وقام بالإمامة والقاضى يومئذ يحيى بن يزيد التجيبى ، فأثبت على القضاء ولم يعزله ، وكان من قبل ذلك يقال له وللقضاة قبله « فلان قاضى الجند » ، فلما امتنع الفهرى (يريد يوسف الفهرى) بغرناطة واضطره الأمير عبد الرحمن رحمه الله إلى النزول ، واشترط (أن يكون التنازل) بحضور القاضى يحيى ، فحضر وكتب فى كتاب المقاضاة : « وذلك بحضور يحيى بن يزيد قاضى الجماعة » (١) .

٢٠٢- قاضى الجند وقاضى الجماعة
وإذن فقد كان القضاء فى الأندلس يسمون قضاء الجند حتى أتى عبد الرحمن الجند وقاضى الجماعة ، فأصبح القاضى يسمى قاضى الجماعة ، وكان أول قاض للجماعة يحيى بن يزيد هذا ، ثم تلاه معاوية بن صالح ، وكان يلقب رسمياً بقاضى الجماعة . وهذا التطور معقول ؛ ففى فترة الولاة كان المسلمون هم الجند ، ولهذا كان القاضى قاضيهم ، فلما قامت الدولة الأموية واجتمع حولها الناس ، وكان الإسلام قد انتشر ، أصبح القاضى يسمى قاضى الجماعة . وهذا التطور شبيه بما حدث فى بلاد إسلامية أخرى ، مثل مصر . غير أننا ينبغي أن نفرق بين قاضى الجند وقاضى العسكر ، فإن وظيفة قاضى العسكر نشأت بعد تسمية قاضى الجند بقاضى الجماعة ، واضطراره إلى الاستقرار فى العاصمة ، ومست الحاجة إلى إقامة قاض خاص بالعسكر ، يخرج مع الجيش ويعود معه . وفيها يتصل بالأندلس لدينا مرحلة انتقالية ، فقد كان يحيى بن يزيد قاضياً للجند ثم صار قاضياً للجماعة مع احتفاظه بقضاء الجند ، فكان يخرج مع الأمير فى الغزوات ، واستمر ذلك أثناء قضاء معاوية بن صالح ، ثم اختص قاضى الجماعة بالحاضرة ، وأصبح أشبه بقاضى القضاء ، وأتاب عنه قاضياً آخر للعسكر .

وما دنا لم تنته إلى رأى فى موضوع القضاء الثلاثة الأول ، فلا بأس من أن نلم بذكرهم معتمدين على ما أورده الحشنى والنباهى من أخبارهم .

٢٠٢- عهد تولية القضاء لمهدى بن مسلم
يبدو أن حق تولية قاضى الأندلس لم يتقرر على وجه محدد فى فترة الولاة ، فقد كان عامل الأندلس يوليه أحياناً كما ولى عقبة بن الحجاج السلولى لمهدى بن مسلم القاضى مهدى بن مسلم ، وهو أول قاض نسمع به فى تاريخ الأندلس ، ويبدو أن العامل كان يقوم بالقضاء بين الجند بنفسه قبل ذلك ، يُفهم هذا من قول الحشنى :

(١) الحشنى : قضاء ، ص ٢٨ - ٢٩ .

« وكان - أى عقبة بن الحجاج - قد اتخذ بالأندلس مقراً مدينة يقال لها أربونة ، وكان قد عرف مهدى بن مسلم بالعلم والدين والورع ، فكان قد استخلفه على قرطبة وأمره بالقضاء بين أهلها ، أى أنه تركه قاضياً فى قرطبة وخسرج بالجند ليقوم بقضائهم بنفسه ، وهذا أمر لا يستبعد على عقبة بن الحجاج ، فقد كان رجلاً ذنباً فاضلاً عالماً ، ذكر الخشنى - رواية عن أحمد بن فرج بن متبل - أنه كان « صاحب جهاد ورباط وذا نجدة وبأس ورغبة فى نكابة المشركين ، وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام حيناً ويرغبه فيه ويبصره بفضله ويبين له عيوب دينه الذى هو عليه ، فيذكر أنه أسلم على يديه بذلك الفعل ألفاً رجلاً » (١) .

ويذكر الخشنى والنباهى أن عقبة بن الحجاج أمر مهدى بن مسلم أن يكتب عنه « عهداً لنفسه » أى أمر تعيين ، وقد أجاد مهدى كتابة ذلك العهد ، حتى أصبح أقرب إلى دستور للقضاة ، وقد رأينا فيما سبق كيف أن أحد ولاية إفريقية نقل نصه وأصدر به أمراً بتولية أحد قضاة ، مما يدل على مكانة هذا العهد وإحكامه ، وقد وصفه النباهى نقلاً عن الخشنى بأنه : « أصل من الأصول فى العهد بالقضاء » (٢) .

ويقول الخشنى : « وكان [عقبة] قد عُرف مع ذلك بالبلاغة والبيان ، فلما أراد تولية قال له : اكتب عهدك عنى لنفسك ، فكتب مهدى بن مسلم الكتاب على أنه صادر عن عقبة ابن الحجاج إلى القاضى (٣) ، فبدأ بنصحه بما هو معروف من ضرورة الطهارة والتقاء واتباع الكتاب والسنة والتفرب إلى الله « بإجراء الحدود مجارياً على من وجبت عليه وإعطاء الحقوق من وجبت له ... وأن يجاسب نفسه فى يومه وغده فيما تقلد من الأمانة الثقيل حملها الباهظ عبئها ، فإنه مُحاسب ومُوَعَد وموَعود » .

ثم يقرر بعد ذلك القواعد القضائية الآتية :

١ - التلطف مع الخصوم والاستماع لكل ما يقولون والانتباه له والصبر على عيبى اللسان ناقص البيان ، وملاحظة أن بعض الخصوم « ألحن بحجته وأبلغ فى منطقه وأسرع فى بلوغ المطلب واللفظ حيلة فى المذهب وإن كان غير الصواب مرماه » .

(١) الخشنى : فضاء قرطبة ، ص ١٩ .

(٢) النباهى : المرقبة العليا ، ص ٤٢ . وانظر : أبحاث دوزى ، ج ١ ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٣) الخشنى : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ١٩ وما يليها .

٢ - أن يتخير القاضى وزرءه وأهل مشورته والمعينين له من أهل العلم والأمانة . ولم تُشر إلى هذه الطوائف الثلاث ممن يستعين بهم القاضى استعانة خاصة في أداء عمله إلا لأنها ستطور إلى وظائف ثابتة فيما بعد هي وظائف الفتيا والمشورة وأعوان القاضى ، وينص الكتاب نصاً خاصاً على مسألة الشورى في الأحكام .

٣ - يجعل الكتاب القاضى مسئولاً عن حُجَّابه وأعوانه وكل ما يفعلونه ، « فإن أفعالهم منسوبة إليه ومنوطة بيديه ، فإذا أصلح ذلك لم يلحقه عيب ولم يعلق به ريب » .

٤ - وأن « يديم » الجلوس للناس بالمسجد والقعود للمتقاضين لا يسأم ولا يتبرم ، وأن يكون صبوراً عطوفاً على « الضعيف عن التودد والزمن الثقيل » وأن يكون عتيفاً مع أهل « التلدد والتحجم في ملتبسات الأمور » .

٥ - ويشير الكتاب إلى طائفتين أخريين من المعاونين للقاضى على أداء مهمته ، وهما طائفتا الشهود والمزكين . فأما الشهود فمهمتهم معروفة ، وأما المزكون فيوضح الكتاب مهمتهم بأنهم كانوا يزكون حجج الخصوم وبياناتهم ، وقد أصبح الشهود فيما بعد هيئة ثابتة معروفة للقاضى وهو مسئول عنهم ، في حين كان المزكون غير ثابتين : لكل خصم الحق في أن يأتي معه بمن يزكى حججه ويؤيده فيما يدعيه .

٦ - وفي الكتاب أمر للقاضى بأن يستشير إبراهيم بن حرب في كل ما أشكل عليه من المهات ، « ليرد عليه منه ما يعمل به ويمثله ويقتصر عليه ويصير إليه » . وليست لدينا أى معلومات عن إبراهيم بن حرب ، ولكن هذا النص يدلنا على أنه كان معتبراً كصاحب الفتيا فيما بعد ، وهو لهذا يضع أصبعنا على منشأ وظيفة كبيرة سيكون لها في تطور نظام الحكم في الأندلس أثر عظيم^(١) .

والكتاب مصوغ في أسلوب رصين بليغ ، يدلنا على أن مهدياً كان عالماً فاضلاً بليغاً ، ويصفه الخشنى بقوله إنه كان من « أبناء المسألة من أهل الدين والعلم والورع » ، ولسنا نعرف بالضبط ما عناه بقوله « المسألة » : لقد حكم عقبة بن الحجاج بين سنتى ١١٦ و ١٢٣ هـ / ٧٣٤ و ٧٤١م أى أن مهدى بن مسلم كان رجلاً ناضجاً ممن يعهد إليهم في القضاء بعد نزول العرب الأندلس بنحو ثلاثين سنة ، ولا يعقل أن يكون أبوه قد أسلم وأنجبه وبلغ هو مبلغ النضج وسن القضاء في هذه الفترة ، فلا بد أن يكون مهدى من أبناء مسألة إفريقية .

(١) انظر نص الكتاب عند الخشنى ، ص ١٩ - ٢٣ ، وربما كانت بعض عبارات قد أضيفت إلى الكتاب فيما بعد ، ولكننا لا نستطيع القطع بذلك .

ولا نزاع في أن مهدي بن مسلم سار على القواعد التي قررها هو بنفسه في كتاب عهده ،
أى أن نظام القضاء قد تقرر على أصول منظمة من أول الأمر ، ولم تدخل فيه بعد ذلك إلا
تعديلات طفيفة ، وهذه الحقيقة تقرر لنا ناحية إيجابية جديرة بالإعجاب لعهد الولاة في
الأندلس ، ففي ذلك العهد كان قضاة إفريقية يجرون في أعمالهم على وجه مرتجل غير منظم .

وربما كان هذا البدء الحسن هو السبب فيما تمتع به قضاة الأندلس بعد ذلك من
عظمة المكانة . فقد كان القاضي الذي أتى بعد مهدي - وهو عنترة بن فلاح -
حريصاً على مصالح الناس لا يقصر عن التضحية في سبيلهم : حدث أن
أصاب الناس مغل ، فقام يخطب مستقياً ، فقام إليه رجل وقال : « أيها القاضي الواعظ ، قد
حسن ظاهرك فحسن الله باطنك .. » .

- أمين لنا أجمعين ، فهل أضمرت شيئاً يا ابن أخي ؟

- نعم ، بتفريغ أهرائك يكمل استسقاؤك ..

- اللهم إنني أشهدك أن جميع ما حواه ملكي من المأكول صدقة لوجهك ..

وقد كان ، ووزع القاضي ما في أهرائه على الناس . ويصور لنا هذا الحديث جانباً من
طابع الأندلسيين الصريحة التي لا تتردد في مجابهة الحكام وطلب الحق منهم ، وفيه كذلك
تعريض لاذع بالقاضي^(١) . وكان الأندلسيون من أقدر خلق الله على هذا التعريض اللاذع
الذي لا يخلو من عمق ...

وكان عنترة لا يحسن الارتجال ، حتى ليقال إنه كان إذا قام خطيباً أسدل على وجهه نقاباً
ويقول : « متى لحظت الناس لم أصل كلاماً » ، ولكن سخرية الأندلسيين أبت إلا أن تزعم
« أن خطبته كانت مكتوبة في صحيفة مشبكة في الثوب المسدول على وجهه .. » .

٢٠٥ - مهاجر
ابن نوفل القرشي لا أكثر ، إذا تخاصم الناس أمامه لم يزل يعظهم ويخوفهم ويتحسر على نفسه
ويبكي حتى ينصرفوا من عنده « باكين وقد تعاطوا الحقوق بينهم »^(٢) .

(١) الحشني : قضاة ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٧ .

وكان آخر قضاة هذه الفترة يحيى بن يزيد التجيبى ، وهو أول من تسمى بقاضى الجماعة كما قلنا ، وحينما دخل عبد الرحمن بن معاوية قرطبة ثبته فى مكانه . ولم يكن قيام يحيى بالقضاء من لدن أحد عمال الأندلس بل كان الذى أقامه قاضياً حنظلة بن صفوان عامل إفريقية وبعثه إليها مع أبى الخطار ، وكان قوى الشخصية لا يكاد يهاب أحداً ، فقد حدث أن يوسف الفهرى فجأ قرطبة فى غياب عبد الرحمن الداخل وظفر بجاريتين لعبد الرحمن فتعرض له القاضى وقال له : يا لثيم ! عبد الرحمن ظفر بيناتك وكرايمك ، فتلومّ عليهن حتى نقلن إلى دارك ، وأنت ظفرت بجاريتين له لم يستحقا منه حرمة فأخذتها ! فتذمّم الفهرى وقال : والله ما رأيت لواحدة منها وجهاً فاقبضها ، ويرى بها إليه . وحينما دخل عبد الرحمن الأندلس وقامت الحرب بينه وبين الفهرى وأنصاره اعتزل يحيى الجند ولم يغمس يده فى الدماء ، فلما قامت البيعة لعبد الرحمن أجاب إليها طامعاً^(١) .

٢٠٦ - يحيى بن
يزيد التجيبى

وكان يحيى بن يزيد مشاركاً فى السيامة ، فقد أخذ جانب عبد الرحمن بن معاوية الداخل وتصدى ليوسف الفهرى كما رأينا ، وكذلك كان القاضى الذى جاء بعده وهو معاوية بن صالح الحضرمى ، ولم يكن من قضاة عصر الولاة ، ولكنه دخل الأندلس فى ذلك العصر ، وكان طبقة عالية فى العلم حتى ليعد أعلم من دخل الأندلس إذ ذاك ، قال الحشى : وكان من جلة أهل العلم ورواة الحديث ، شرك مالك بن أنس فى بعض رجاله : يحيى بن سعيد وغيره ، وروى عن معاوية بن صالح جملة من أئمة أهل العلم ، منهم سفيان الثورى وسفيان بن عيينة والليث [بن سعد] وذكر أن مالك بن أنس روى عنه حديثاً واحداً ، وذكر أنه أتاه يوماً إلى داره ، فانصرف عنه دون أن يصل إليه .

٢٠٧ - معاوية بن
صالح الحضرمى

قال محمد [بن حارث بن أسد الحشى] وذكر محمد بن وضاح قال : قال لى يحيى بن معين : جمعتم حديث معاوية بن صالح ؟ قلت : لا ! قال : وما منعكم من ذلك ؟ قلت : قدم بلداً لم يكن أهله يومئذ أهل علم .. قال : أضعتم والله علماً عظيماً^(٢) وذكر الحشى بعد ذلك مكانة معاوية بن صالح بين محدثى ذلك العصر فى المشرق وقال : قال لى محمد بن

(١) الحشى : قضاة ، ص ٣٨ .

(٢) الحشى : قضاة ، ص ٣٠ - ٣١ .

أحمد بن أبي خيثمة : لوددت أن أدخل الأندلس حتى أفتش عن أصول كتب معاوية بن صالح ! قال ابن أيمن : فلما انصرفت إلى الأندلس طلبت أمهاته وكتبه ، فوجدتها قد ضاعت بسقوط همم أصحابها^(١) .

وكان معاوية بن صالح من أهل الشام من موضع قرب حمص يسمى غناة عبس ، وقد دخل الأندلس قبل دخول عبد الرحمن الداخل فنزل إشبيلية ، وقد ظهر قدره عندما أتى عبد الرحمن فاستقضاه ، واتخذ من رجال رأيه وثقته ، وندبه إلى المشرق ليأتي بأخته أم الأصبح ، فرحل إلى المشرق ولم يوفق في مهمته لأن أم الأصبح كانت قد كبرت سنها ولم تشأ الرحلة إلى الأندلس . وفي هذه الرحلة سمع من العلماء وسمعوا عنه ، وعاد إلى الأندلس وقد علا صيته وثبت قدمه ، وهو من غير شك أول هذه السلسلة الطويلة الجليلة من فقهاء الأندلس^(٢) .



وظاهر أن معاوية بن صالح كان من السائرين في طريق مالك بن أنس ، ولكنه ٣٠٨ - اتجاه
لم يكن مالكيًا ، لأن المدرسة المالكية لم تكن قد تكونت وانتظم أمرها بعد ، الأندلس نحو
صحيح أن مالكا وضع مذهبه كاملاً ، وصاغه على أسلوب يدل على أنه كان مذهب مالك
واعياً إلى أنه ينشئ تشريعاً كاملاً ، بخلاف أبي حنيفة الذي لم يكتمل مذهبه إلا على أيدي تلميذه محمد بن عبد الرحمن الشيباني وأبي يوسف القاضي ، وبخلاف الشافعي الذي يبدو أنه لم يكن واعياً أول الأمر إلى أنه يضع تشريعاً ، بدليل أن أصول مذهبه كما وضعها في الحجاز تختلف عن أصوله كما تحددت في صورتها النهائية في مصر . ولكن تكون المذهب لا يعنى قيام المدرسة ، لأن هذه تقوم بالاتباع والتلاميذ ، وقد كان مالك أكثر أصحاب المذاهب الفقهية الكبرى تنبهاً إلى أهمية تكوين المدرسة ، فكان شديد العناية بتلاميذه وأصحابه ، بل إننا نلمح في علاقته بأولئك أنه كان حريصاً على أن يكون له في كل قطر جماعة منهم ، وهذا ظاهر جداً فيما يتصل بالمغرب والأندلس ، وقد ذكر المالكي في « رياض النفوس » عدداً عظيماً من أهل المغرب وقال إنهم من تلاميذ مالك وأصحابه ، وحرص أهل الأندلس على أن يزيدوا في عدد تلاميذ مالك المباشرين من أهل بلدهم ، ولكن البحث

(١) نفس المصدر ، ص ٣١ . وانظر أيضاً النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٤٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

الصحيح أثبت أن جانباً عظيماً من هذه المعلومات مخترع في عصور متأخرة ، وقد دفعت إلى الاختراع الرغبة في تعظيم أمر المالكية في الأندلس (١) .

وكل ما نستطيع أن نقوله فيما يتصل بمعاوية بن صالح ومعاصريه أنه من الممكن أن يكونوا قد تتلمذوا للمالك فعلاً ، وأخذوا عنه وأخذ عنهم ، ولكنهم كانوا جميعاً محدثين ، ولم يتبهاوا إلا إلى ناحية الحديث عند مالك : سمعوا منه ونقلوا عنه على أنه فقيه محدث ، ودخلوا الأندلس ففحاء محدثين ، وهذه هي الصفة الحقيقية لمعاوية بن صالح ومن عاصره أو تقدم عليه أو تأخر عنه قليلاً ، من أمثال سعيد بن أبي هند ، ومحمد بن يحيى السبأى ، وداود بن جعفر ، ومحمد بن إبراهيم بن مزيّن ، وشبّطون بن عبد الله الطليطلى ، ومحمد بن بشير القاضي ، وعبد الرحمن بن موسى الهواري (٢) ، فهؤلاء جميعاً كانوا فقهاء محدثين وهم الذين وضعوا أسس الدراسات الفقهية في الأندلس ، ولكنهم لم يكونوا من مؤسسي المالكية الأندلسية .

ولكن حياة معاوية بن صالح تضع أيدينا على نقطة البدء للملكية الأندلسية ، ٣٠٩ - نقطة
فقد أصهر إليه أحد تلاميذه وهو زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبّطون ، البدء للملكية
وهو واحد من ثلاثة من الثابت أنهم مؤسسو المذهب في الأندلس ، وهم الأندلسية
الذين أدخلوا الموطن ونشروه بين الناس ، وعلى أيديهم أصبحت المالكية المذهب الغالب ، بل
الرسمى لأهل الأندلس ، أولهم الغازي بن قيس ، وثانيهم زياد بن عبد الرحمن هذا ،
وثالثهم يحيى بن يحيى الليثي .

وقد كان من الممكن أن تُتبع الكلام عن القضاة بالكلام عن الفقه والعلم في الأندلس خلال هذه الفترة ، ولكننا رأينا أن بحث هذا الموضوع في هذه الفترة لا يعدو أن يكون مقدمة لما سيظهر في عصور تالية ، ثم إن الأمر يتطلب دراسة الثقافة المحلية التي وجدها المسلمون في الأندلس وأخذوا منها وتأثروا بها ، أي الرجوع بالموضوع إلى أصوله البعيدة

(١) بحث هذا الموضوع بحثاً مستفيضاً الدكتور محمود علي مكي في بحثه الذي وضعه بالإسبانية وعنوانه: Estudio sobre las aportaciones orientales en la Espana Musulmana y su importancia en la formacion de la cultura hispano - musulmana.

وهو دراسة عظيمة القيمة نرجو أن تطبع وترجم إلى العربية ليفيد منها الدارسون . والجزء الخاص بموضوعنا ، ص ١٣٣ وما يليها ، وقد اعتمدنا عليه في هذا الجزء من كتابنا .

(٢) أورد تراجمهم جميعاً ابن القزويني في تاريخ علماء الأندلس ، انظر الفهرس .

أيام الرومان والقوط ، فقد كانت إسبانيا بلد علم وعلماء على أيام هؤلاء ، وكانت لمؤلفاتهم وأرائهم آثار بعيدة في تكوين العلم الأندلسي في شتى فروعه ، ثم إننا إذا قدمنا هذه المقدمات الطويلة لم نستطع الوقوف بالبحث عند حدود الفترة التي نتحدث عنها ، لأن الثمرات كلها لم تظهر إلا بعدها ، في عصور تالية ؛ ولهذا فقد رأينا أن نكتفى بهذه الإشارة ، حتى إذا أتاحت لنا الظروف دراسة العصر التالي عرضنا الموضوع كاملاً بمقدماته ونتائجه .

* * *

الفصل الثاني عشر

قيامُ الدولة الأمويّة

انتهى عصر الولاية على يد عبد الرحمن بن معاوية الداخل بإقامته الدولة الأموية الأندلسية ، وكان من الممكن أن ندع الكلام على قيام هذه الدولة لبحث خاص عن العصر الذي تلا عصر الولاية ، ولكن عبد الرحمن دخل الأندلس على أيام يوسف الفهري والصميل بن حاتم ، ودارت بينه وبينها رحى صراع طويل انتهى بانتصاره عليها وزوال أمرهما وزوال المعالم التي ميزت الفترة التي ندرسها ، فلم يكن هناك بد من الإلمام بسيرة عبد الرحمن ودخوله الأندلس وإقامته دولته فيه ، حتى نصل بعصر الولاية إلى نهايته ، ولهذا فإن حديثنا عنه يعتبر ختاماً لتاريخ عصر الولاية وبدءاً لتاريخ الإمارة الأموية القرطبية ، ولم نر بدأً من ذلك ، حتى تتجمع أطراف البحث ، وحتى تكون أمامنا صورة كاملة لعصر عظيم الأهمية كما رأينا ، وإن كان قصيراً في عدد سنواته ، فإذا تقرر هذا فلا بد أن ندرس سيرة عبد الرحمن من أولها .



وُلدت الدولة العباسية في الكوفة في ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ / يونيو ٧٤٩م في اليوم الذي بويع فيه لأبي العباس عبد الله بن محمد بعد دخول قائده أبي سلمة الخلال الكوفة قبل ذلك بأسابيع ، ولم تنقض أشهر حتى رفرت رايات العباسيين على دمشق، وفرّ مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية بمن معه من الجند، ولحق بهم عبد الله بن علي عم السفاح وأوقع بهم هزيمة كبيرة على نهر الزاب أحد فروع دجلة ، وفر مروان وطارده عبد الله بن علي حتى قتله في قرية بوضير بمصر ، وبذلك زالت الدولة الأموية في المشرق من الوجود ، وأعقبت ذلك مذبحة كبرى أنزلها العباسيون بالأمويين حتى لم يفلتوا منهم رجلاً عثروا له على أثر ، واستمرت المذابح بعد ذلك سنوات حتى لم ينج من بني أمية إلا أفراد شردوا في الأفاق .

وكان بيت معاوية بن هشام بن عبد الملك من أحفل بيوت بني أمية بالمصيبة ،
٣١٠ - فرار
عبد الرحمن إلى
المغرب
فقد خلف معاوية هذا عقباً وافرأ يذكر المؤرخون منهم أربعة ذكور وبنيتين ،
أما أولهم فهو أبان ، وقد وقع في يد العباسيين فقطعوا يده ورجله وطافوا به

في قرى الشام على ظهر حمار ومن خلفه مناد يصيح ، واستمر على هذه المحنة حتى هلك . ولما أعلن أبو العباس أماته المشهور واحتال به على الإيقاع بأكثر من سبعين أمويًا في دير الجهاجم ، كان من ضحايا هذا الأمان ابن ثان لمعاوية هو يحيى ، ولم يفلت أخوه عبد الرحمن إلا بأعجوبة ، إذ كان قد خرج في صيد له فلم يفجأه جند العباسيين ، ولم يكذب يعلم بها جرى لأخيه حتى استتر بالليل وفرّ إلى قرية كانت تقيم فيها أخته أم الأصيب وأمّة الرحمن وابن صغير له وأخ صبي له في الثالثة عشرة من عمره ، ولم يكذب عبد الرحمن يستقر في القرية ويشعر بشيء من الاطمئنان حتى رمدت عيناه ، فأقام حبيسًا في حجرة خوفًا من رجال العباسيين وطلبًا لشفاء عينيه .

فإذا كان في حجرته تلك يوماً فقد فاجأه العباسيون بقوة كبيرة وأقبلوا يحاصرون القرية، وشامت المقادير أن ينجو مرة أخرى ، لأن ابناً صغيراً له روعته خيل العباسيين وراياتهم السود فدخل عليه مُغولاً ، فكان هذا نذير الخطر ، ونهض عبد الرحمن معجلاً ، فأخذ ما استطاع أخذه من المال وودع أخته وابنه ، وطلب إليهما أن تبعنا إليه مولاه بدرًا في مكان عينه لهما في غابة قريبة من القرية ، ثم استصحب أخاه الصبي ومضى لا يلوى على شيء بعد السلامة . وانتظر عبد الرحمن وأخوه في مكان مجاور للقرية حتى وافاهما بدر مولاه بشيء من المال ، فمضوا حتى أتوا موضعاً على الفرات ، فطلب عبد الرحمن رجلاً يعرفه وأعطاه مالاً ليشتري له خيلاً وطعاماً ، ومضى الرجل يصحبه بدر مولى عبد الرحمن الأمين ؛ وكان من سوء حظ عبد الرحمن وأخيه أن عبداً لهذا الرجل علم بالخبر فأسرع به إلى عمال العباسيين ، فأسرعوا إلى الغابة وحاصروها ، وريع الأخوان فأسرعوا يعدوان حتى اختبأ في حديفة على ضفاف الفرات .

وأقبل العباسيون يحاصرونها وضيّقوا عليهما حتى كادا يقعان في أيديهم ، ولم يبق أمامهما إلا أن يلقيا بنفسيهما في عباب النهر ويسبحا إلى الضفة الأخرى ، وقد فعلا ، فإذا قطعاً من الشوط جانباً فقد تعب الصبي وترامى إلى سمعه نداء رجال العباسيين يعدونه بالأمان إذا عاد ، فانقلب الصبي راجعاً ، ولم يكذب يخطو على الشط حتى تقاسمته السيوف وأخوه يراه بعينه فيشد في سباحته . ووصل إلى بر الأمان سالماً ، ثم مضى ينهب الأرض حتى أدرك مكاناً من فلسطين كان قد ذكره لأخته ، وهناك أدركه مولاه بدر وسالم مولى أخته بهال وجوهر ليستعين بهما في محنته . ومضى الثلاثة معجلين فعبروا بمصر وأفضوا إلى إفريقية

حيث كان الحال مضطرباً ثائراً ، فأمنوا برهة في وديان المغرب وشعابه وبين قبائله وأهل الذين فرّقتهم الثورات وصرفتهم عن الالتفات إلى دعوة العباسيين ^(١) .

كانت سنة عشرين سنة ^(٢) حينما أقبل إلى إفريقية ، ولم يكن يؤمل إذ ذاك إلا في النجاة من رجال العباسيين الذين كانوا يتبعون كل أموى يعشرون له على أثر ، ولم تكن الظروف في إفريقية لتغذى فيه أى أمل في تحسن الحال ، لأن بربر إفريقية كانوا قد كرهوا العرب كراهة عميقة بعد الذى كان من عسفهم بالبربر وثورة هؤلاء عليهم هذه الثورة العنيفة التى تحدنا عنها ، وكان دعاة الخارجية وأعداء بنى أمية الماربيون قد ملأوا نفوس أهل البلاد كراهة للأمويين وسخطاً عليهم ، فلم يكن للفتى على ذلك بعد السلامة مطمع .

وكانت أمور إفريقية قد انتهت على ما ذكرنا إلى عبد الرحمن بن حبيب بن عقبة ^{٣١١ - المغرب} في فترة الانتقال ابن نافع الفهري ، وكان فهرياً من عرب إفريقية ، وكان واسع المطامع عظيم من الأمويين إلى النشاط حارب البربر في جيش كلثوم بن عياض . فلما انهزم كلثوم وفرّ ابن العباسيين أخيه بلج بن بشر في نفر من القيسيين إلى سبتة ، تركهم عبد الرحمن ومضى إلى الأندلس ليلقى قريبه عبد الملك بن قطن الفهري ، وجعل يجرّسه على القيسيين ، ثم سارت الأمور في الأندلس على عكس ما رجا ، وصار الأمر إلى بلج ثم إلى ثوابة ففر عبد الرحمن بن حبيب عائداً إلى إفريقية ، حيث جمع نفراً من عرب إفريقية اليميين واستطاع أن يطرد حنظلة بن صفوان وجنده من البلاد ويستقر في القيروان حاكماً بأمره ^(٣) .

ولكن باله لم يهدأ رغم استقرار الأمر له ورغم اضطراب الأمر على بنى أمية في المشرق، لأن جنده كان قليلاً ، ولأن قلوب البربر من أهل البلاد لم تكن معه ، لأنه كان في واقع الأمر

(١) انظر : الأخبار المجموعة ، ص ٤٦ - ٤٧ ، ٥٦ ، ٦٩ - ٧٥ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

ابن الأبار : الحلة السراء ، ص ٣٣ .

المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٢١٥ .

عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١١ .

النويرى : نهاية الأرب ، ص ١٥٤ .

(٢) ولد عبد الرحمن سنة ١١٣ هـ (٧٣١ م) في دير حُتَيْبَة أو دير حُتَيْبَة على مقربة من دمشق .

انظر ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

ابن الأبار : الحلة السراء ، ص ٣٣ .

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٣٨ وما بعدها .

مغامراً كثير الثقلب لا يكاد يقصد إلا لخير نفسه وحدها ، واضطربت البلاد عليه وتناوبتها الأوبئة ، « ثم ثار عليه عروة بن الزبير الصدفى واستولى على تونس ، ثم ثار عليه عرب الساحل ، وقام عليه ابن عطاف الأزدى حتى نزل بطُيُنَّاس ، وثار البربر من الجبال ، وثار ثابت الصنهاجى بباجة فأخذها ، وخرج بناحية طرابلس رجلاً يقال لأحدهما عبد الجبار والآخر الحارث ، وهما من البربر على مذهب الخوارج ، فقاتل عبد الرحمن بن حبيب كل من خرج عليه طائفة بعد أخرى ، حتى دوخ المغرب كله ، وأذل مَنْ به مِنْ القبائل ، ولم ينهزم له عسكرو ، ولا ردت له راية ، وخافه جميع أهل المغرب » (١) .

وأراد أن يؤيد سلطانه ، فكتب إلى مروان بن محمد الجعدى آخر خلفاء بنى أمية ، وحصل منه على ولاية المغرب والأندلس جميعاً . ثم قامت الدولة العباسية ، فعجل عبد الرحمن بالكتابة إلى أبى العباس بطاعته ، ثم كتب إلى المنصور كذلك وأهدى إليه شيئاً رجاء أن يشته في البلاد ، وخشى أن يرهقه المنصور بالمطالب ، فكتب يؤكد له أن إفريقية أصبحت إسلاماً كلها ، وأنه لن يستطيع إرسال سبأيا إليه ، فأغضب كتابه المنصور ، ووقعت النفرة بينها ، فخلع طاعة المنصور وأحرق الخلع التى كان هذا قد أرسلها إليه ، « وأمر كاتبه خالد ابن ربيعة أن يكتب كتاباً بخلعه ويقراً على المنابر في سائر بلاد المغرب » ، وبهذا خرج هذا الرجل عن طاعة الدولة وازداد مركزه في البلاد حرجاً (٢) .

وطبيعى بعد ذلك أن يظل متربصاً يتخوف على سلطانه من كل أحد ومن كل طارئ ، وتذهب الروايات الإسلامية إلى أن يهودياً أخذ علم النجوم عن مسلمة بن عبد الملك حذره من أموى اسمه عبد الرحمن يقيم ملكاً في الأندلس ، وطبيعى أن هذه أسطورة ابتدعتها مؤرخو الأمويين في الأندلس مبالغة منهم في تصوير حياة عبد الرحمن منشئ دولتهم ، والواقع أن عبد الرحمن بن حبيب كان متخوفاً مترقباً لكل أمير أموى هارب يصل إلى بلاده سواء أكان اسمه عبد الرحمن أم لم يكن .

وكان نفر من بنى أمية هؤلاء قد وفدوا عليه لاجئين ، فتزوج هو وأخوه إلياس من حريمهم ، ثم بدا له بعد ذلك أنهم يدبرون عليه فقتل منهم اثنين ، وكانت لها أخت تزوجها

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ص ٣٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٠ .

إلياس أخو عبد الرحمن بن حبيب فلم تزل تغريه بأخيه حتى دفعته إلى قتله ، ولم يَصْفُ لإلياس الأمر بعد قتله أخاه ، لأن حبيب بن عبد الرحمن ثار به ووقعت بينهما فتنة طويلة .

* * *

٢١٢- عبد الرحمن وصل عبد الرحمن بن معاوية إلى إفريقية أيام عبد الرحمن بن حبيب ، ومن ابن معاوية في الطبيعي أن يتخوفه على نفسه ، ولو قد كان هذا الأموي الشارد خامل المغرب النفس قنوعاً للرجاء إلى عبد الرحمن بن حبيب وعاش في ظله عيشة خمول لا تخلو من الاستمتاع كما كان غيره من أمراء بني أمية يفعلون ، ولكنه كان مغامراً بطبعه جرىء القلب ، ففَضَّل أن يعيش بين البربر حياة قلق واضطراب .

وتحدثنا المراجع أنه تقلب في نواحي إفريقية كلها دون أن يغادر منها ناحية لم يجرب فيها حظه : أقام ببرقة حيناً ، ثم مضى إلى تاهرت حيث استظل برعاية بني رستم حيناً... ثم اختفى في قبائل مكناسة ، ثم قضى ردحاً في صبرة ، وانتهى به الأمر بعد خمس سنوات من الحرب والتجوال والمغامرة إلى قبائل نفزة على مقربة من طنجة . وكانت أمه من سبيهم ، والظاهر ، أنه استطاع كسب ودهم لأن كثيراً منهم عطف عليه وقام برعايته . والظاهر كذلك أنه لم يقنع بحياة الخمول ، فجعل يدبر على عبد الرحمن بن حبيب ، واتصل أمره بهذا الأخير ، فبعث من يبحث عنه ؛ وكان الطلب عليه شديداً حتى أن امرأة أحد شيوخ نفزة اضطرت إلى إخفائه تحت ثيابها حتى لا يقع في أيدي عمال عبد الرحمن بن حبيب ، وكان يرافقه في هذه المغامرات كلها مولاه بدر ومولى أخته سالم ، وكان عبد الرحمن عتيفاً على موليه هذين لميل إلى الاستبداد كان فيه ، فأما سالم فقد غضب مرة وفارقه بعد أن احتمل شدته وحياة الشقاء معه زمناً طويلاً^(١) ، وأما بدر فقد أقام معه مخلصاً له ، وقد قُدِّر له أن يكون أخلص معاوينه في بناء مجده .

أقام عبد الرحمن عند قبائل مغيلة من ساحل طنجة في كنف شيخها أبي قره ، ولا شك أن شيئاً كثيراً من أخبار الأندلس وما كانت فيه من الاضطراب قد اتصل به ، ويغلب أن استقراره عند مغيلة هؤلاء كان حوالى سنة ١٣٦هـ (٧٥٣م) لأن المراجع تحدثنا بأن أمر الأندلس إذ ذاك كان قد استتب ليوسف الفهري والصميل بن حاتم ، وكان سالم مولى أخته

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٥ (وهو يذكر أن كنية سالم كانت أبا شجاع) .

قد حدثه بشيء عن خير الأندلس إذ كان قد قدمها مع موسى بن نصير ، فطلعت نفس هذا الفتى المغامر إلى هذا البلد الواسع الغنى الذى أفسد الاضطراب أمره (١) .

٢١٢ - تفكير
عبد الرحمن في أمر
الأندلس

ولسنا نعلم كيف نشأت الأطماع في ولاية الأندلس في نفس عبد الرحمن ، والثابت على كل حال أنه لم يحاول أن يبنى لنفسه ملكاً في أى مكان من إفريقية ، وأن الطمع في الإمارة نشأ في نفسه وهو مقيم بين مغيلة عند طنجة ، وربما نشأت في نفسه هذه الأطماع حينما علم أن في الأندلس جماعة لا بأس بها من الأموية تعيش في ناحيتي البيرة وجيان مشطورة بين جندى دمشق وقنسرين ، ولم تكن أحوالهم بالأمنة ولا المستقرة لأن أكثرية عرب الأندلس من اليمانيين كانت تنفس عليهم مكانهم وثروتهم ، وكانت كذلك لا ترضى عن تأييدهم ليوسف الفهرى وصاحبه الصميل ، ولا بد كذلك أنه تسمع بأن هؤلاء الأمويين في حاجة إلى شخصية قوية تجمع أمرهم وتقوى صفوفهم ، لا بد أنه تسمع بذلك وإلا لما بعث إليهم مولاه بدرأ برسالة خطيرة يعرض عليهم فيها رياسته ، وهو لم يفعل ذلك في إفريقية أبداً ، مع أن إفريقية لم تخل من جماعات من موالى بنى أمية وأنصارهم ، وكان مستطيعاً تجريب حظهم معهم ، لو كانت المسألة مجرد تجريب حظ ، بل قد كان أولى به أن يحاول في إفريقية لأن عرب نواحيها لم يكن فيهم من يقارب الصميل أو يوسف الفهرى أو غيرهما من كبار العرب الذين تحدثنا عنهم .

ثم إن بدرأ وموالى بنى أمية لم يكادوا يعرضون الأمر على الصميل حتى قبل ، مع علمه بأن هذا القبول يعنى ضياع سلطانه ، بل إننا نتساءل : لماذا قصدوا الصميل ولم يقصدوا يوسف وهو أضعف من الصميل وأكثر ليئاً ؟

هناك حلقة مفقودة تجعل السياق كله قلقاً غير منسجم . وليس لدينا في ذلك الصدد إلا أربع أو خمس روايات لا تكاد إحداها تزيد على الأخريات شيئاً ذا بال . وربما أعاننا على استجلاء هذا الأمر أن نقرر أنه كان هناك تفاهم واتفاق بين الصميل بن حاتم وجماعة موالى بنى أمية وزعمائهم من أمثال أبى عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت . ولسنا ندرى كيف تم هذا التقرب على الرغم مما تؤكدته المراجع من أن موالى بنى أمية

(١) ابن عذارى : البيان ، ج٢ ، ص ٤٢ - ٤٣ .

ابن الأثير : الكامل ، ج٥ ، ص ٢٣٨ .

البكري : وصف إفريقية (طبعة دى سلين ، الجزائر ١٩١١) ، ص ١٢٣ .

كانوا معتبرين موالى يوسف الفهري من يوم زالت الدولة الأموية في المشرق ، فقد اعتبر هذا الرجل نفسه وارث كل ما كان للأمويين في الأندلس ، بما في ذلك الموالى ^(١) ، وربما يكون هذا قد ساء هؤلاء الموالى فسعوا إلى الانضمام إلى الصميل بن حاتم للتخلص من سلطان يوسف. وسنلاحظ أن هذا الأخير لم يقطن إلى ذلك ومضى يعتبر موالى بنى أمية مواليه وأخصاه ، وكان ذلك من أخطائه الكبرى ، ولا يبعد أن يكون الصميل قد قرَّبهم إلى نفسه ليفيد منهم وقت الحاجة .

ولم تكن العلاقات بين الصميل ويوسف طيبة على كل حال ، فقد كان يوسف منكراً للسيطرة التي يفرضها عليه الصميل ، وقد رأينا يسعى للتخلص منه فبعته إلى سرقطة وكان كل أهلها يمتنين لا يطيقون هذا القيسى الجافي ، وقد ثاروا عليه وكاد يهلك على أيديهم كما رأينا ، ثم لم يكد الصميل ينجو حتى عاد يوسف يفكر في بعته إلى الثغر ، وسيكون ذلك دافعاً بالصميل إلى إلقاء يده إلى عبد الرحمن والدخول في دعوته . ولنلاحظ كذلك أن موالى بنى أمية في الأندلس لم يكونوا قليلين ، فقد كانوا موزعين بين جندين ، ولم يكن عددهم أربعمئة أو خمسمئة كما يظن ^(٢) ، بل كانوا أكثر من ذلك بكثير ، ولم يكن يربطهم إلى يوسف الفهري والقيسيين إلا الصميل ، فلما تحلى عنهم الصميل تخلوا عن القيسية ومالوا إلى اليمانية . على أساس هذه الملاحظات نستطيع أن نمضى في رواية الأحداث التي انتهت بإنشاء الإمارة الأموية الأندلسية على يد عبد الرحمن .

من الواضح أن عبد الرحمن حينما أرسل مولاه بدرأ ليبدأ العمل في الأندلس في ربيع سنة ١٣٦ هـ كان قد كوّن لنفسه فكرة واضحة عن الأحوال في البلاد ورسم لبد ر خطة العمل ، ودليلاً على ذلك أنه أعطاه خطاباً مكتوباً يعرض فيه على موالى بنى أمية أمره ويسألهم تأييده ، ولا شك في أنه عرض عليهم ترشيح نفسه أميراً على الأندلس مكان يوسف والصميل لكي يستطيع أن يضع حداً للقوضى الضاربة أطنابها ، ولكي يقيم أمر بنى أمية في البلاد من جديد ، وقد توجه عبد الرحمن بكتابه إلى جماعته موالى بنى أمية في البيرة وجيان . ونقول إنه حدثهم في أمر ترشيحه لولاية الأندلس ، لأننا سنرى من اجتهادهم في الأمر وإلحاحهم في إنفاذه أن المسألة لم تكن مجرد طلب أمان ، ولو كان قد سألهم إيواؤه فقط لما احتاج الأمر إلى هذا العناء كله .

(١) انظر الأخبار المجموعة ، ص ٧١ سطر ٥ وبقية السياق .

(٢) نذكر المراجع أن عددهم كان حوالي ٤٠٠ .

انظر الأخبار المجموعة ، ص ٧١ و ٧٢ .

ولم يُصِغ بدر وقته سدى ، بل اتجه إلى رؤساء موالى بنى أمية الثلاثة الذين ذكرواهم وأسلم إليهم خطاب مولاة ، واجتهد في إقناعهم ، ولم يلق صعوبة في ذلك ، لأنهم كانوا رغم اطاعتهم إلى الصميل لا يكادون يطعمون إلى بقية القيسيين . فلم يكذب أبو عشان عيد الله بن عشان وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت يستوثقون من أمر بدر وسيده حتى نهضوا يخاطبون فيه الصميل ، ولو لم يكونوا أخصاء وأصدقاء لما خاطروا بمثل ذلك ، ولكنهم ذهبوا وهم واثقون من أن الرجل موغر الصدر من يوسف وأنهم لا يكادون يعرضون عليه الأمر حتى يجيبهم إليه ، راجياً لنفسه من ورائه خيراً كثيراً . وكان موالى بنى أمية يعرفون الصميل وما به من نزوع إلى السلطان ، فتلطف رسولاهم في عرض الأمر عليه ، « وذكره آيادي بنى أمية عنده وعند سلفه ، وقالوا له : إن عبد الرحمن بن معاوية نجا إلى بلد البربر وهو مستتر فيه خايف على نفسه ، وأتتنا وصيته يسأل الأمان في نفسه ، ويتوسل إليك بما قد علمته ، وأنت ذاكر له ، فقال : نعم وكرامة ! ونضم يوسف هذا إلى أن يزوجه ابنته ويشركه في سلطانه ، وإلا ضربنا صلعتة بالسيف » مما يدل على أن مولى بنى أمية عرضا عليه الأمر كأنه طلب أمان فقط ، ولو كانا حدثاه في أن يصبح عبد الرحمن صاحب الأندلس لما قال أنه مستعد لإرغام يوسف على إشراكه معه في الأمر فقط^(١) .

ولنلاحظ كذلك أن الأمويين لقوا الصميل في لحظة كانت نفسه مفتحة فيها لقبوله ، فقد كانت نفسه راضية عن خلاصه مما كان اليمينيون يريدونه به ، وكان لفرط سروره يفرق الأموال في الناس من غير حساب ، ولما كان موالى بنى أمية من أكبر الناس فضلاً في خلاصه فقد كانت نفسه مفتحة لقبول أى رأى يتوجهون إليه به . وكانت الأحوال العامة قد تحسنت ، إذ انجابت المجاعة « وأربع الناس وحملت الأرض »^(٢) ، ولم ينتظروا حتى يستقر الرجل في قرطبة بل كلموه في الأمر وهو في طريق العودة من سرقسطة . عرضوا عليه أمر عبد الرحمن وما يطلب من القدوم إلى الأندلس والاستعانة بأهلها ، ويبدو أن عبد الرحمن تلطف في خطابه فلم يتحدث عن إمارة أو ملك وإنما عرض سوء حاله لكي يعطف القلوب على نفسه ، ولا نزاع في أن الصميل حسبه شاباً مسكيناً لا يطمع في أكثر من أن يكون من رجال الصميل وأنصاره وفي أن يشتد به ساعد القيسيين لانتسابه إلى بيت أمية ، على هذا الأساس وحده نستطيع تفسير قبول الصميل للدعوة وعدم نفوره منها على الأقل ، فسأل

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٣ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٧٠ .

الرسولين فترة يُروى فيها أمره ، فعجلا وجمعا بيدر ، فاستقبله الرجل استقبالا طيبا وأعطاه عشرة دنانير وشقة خز^(١) .

واستقر الصميل في قرطبة فلم يطمئن يوسف إلى ذلك ، فبدأ يلح عليه في العودة إلى الثغر ، لأن اليمانيين انتهزوا فرصة عودة الصميل إلى قرطبة وانقضوا على سرقسطة يقودهم زعاؤهم عامر وابنه وهب والحباب وتحصنوا بها وأعلنوا خروجهم على يوسف ، وتطلب الأمر القضاء عليهم . وأخذ يوسف يلح على الصميل والصيلم يُسوّف ، علما منه أن يوسف لا يرمى إلا إلى إبعاده عن قرطبة والتخلص من سلطانه .

وكان يوسف الفهري قد اعتبر موالى بنى أمية مواليه هو بعد زوال أمر مواليهم بنى أمية في المشرق كما قلنا ، فلما يش من الصميل بعث إلى رؤسائهم وأمرهم بأن يجمعوا رجائهم ويسيروا بهم نحو سرقسطة ، ولم يكونوا بالطبع راغبين في هذا المسير ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون رفض الأمر ، فجعل رؤسائهم يتعللون بأن رجائهم لا يستطيعون النهوض إذ أن كل من كان فيه منهض قد نهض إلى أبي جوشن ، فتقطعوا وأهلكهم الشتاء والسفر مع ما نال الناس من الجهد ، فصدّقهم الرجل وأعطاهم ألف دينار ليتقوا بها على النهوض ، فانتهزوا فرصة غفلته وحاولوا أن يكسبوا منه أكثر من ذلك ، وقالوا : « هم خسارة مدوّنة ، وأين تبلغ هذه منهم ؟ » ، فلم يزد . فانصرفوا من عنده وقد قرروا فيما بين أنفسهم أن يستخدموا هذا المال في تحقيق ما كانوا يدبرونه مع بدر والصيلم^(٢) .

وقرر يوسف الرحيل بنفسه بعد أن اطمأن إلى أن موالى بنى أمية موافوه ، فرحل في ذي قعدة سنة ١٣٧ ، وخرج معه الصميل يتلكأ ؛ فلما بلغ جيان نزل « بمخاضة الفتح » على مقربة منها حيث أقبل عليه بعض جنده ، ففرّق فيهم الأعطيات ، وجعل ينتظر موالى بنى أمية ؛ فلما أبطأوا عليه استدعى أبا عثمان عبيد الله بن عثمان ، وسأله عنهم ، فتعلل مرة أخرى ، وأكد له أنهم لاحقون به قبل أن يدرك طليطلة ، وإنما هم منتظرون حتى يجمعوا شعيرهم ليستقوا به ، فلم يشك الرجل في كلامه ، وأمره بالعودة إليهم والضغط عليهم في المسير .

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٧٠ . ويلاحظ أن عدد ٥٠٠ هو عدد المدونين منهم فقط ، لا شك أنه كان هناك عدد من غير المدونين .

ولكن عبيد الله لم يسر إلى البيرة ، بل عرج على الصميل في مؤخرة العسكر ، فلما خلا به ذكّره بأمر عبد الرحمن وسأله عما استقر عليه أمره ، ويبدو أن الصميل لم يكن فكر ولا رؤى وإنما فاجأه عبيد الله بذلك وهو على شرابه وقد رضيت نفسه ، فقال له : « أما إنني ما أغفلت ذلك ، ولقد روّيت فيه واستخرت الله وكتمت الأمر فما شاورت فيه قريباً ولا بعيداً ، وفاة بها جعلته لكما من ستره ، وقد رأيت أنه حقيق بنصرى حقيق بالأمر ، فاكثبا إليه على بركة الله ، فإن [أبى] هذا الأصلع (يريد يوسف) على أن يتخلى لي عن هذا الأمر ، وأزواجه من أم موسى (يريد ابنته أم موسى ، وكانت قد أرملت تلك الأيام من زوجها قطن بن عبد الملك) على أن يكون واحداً منا ، فإن فعل قبلنا منه وعرفنا حقه وميته ويده ، وإن كره هان علينا أن نقرع صلته بسيوفا ! »^(١) وخرج الأمويون من عنده وقد ملا البشر والتشاؤل نفوسهم .

ولم يكادوا يخرجون من حضرته وينطلقون بالبشرى إلى قومهم حتى بدأ الصميل يفكر في الأمر ويأخذها مأخذ الجد ، وهنا فقط أدرك خطورة الأمر وأحسن أن إقبال عبد الرحمن قد يعنى ضياع أمره ، فاجعل بإرسال رسول يستوقف رسل موالى بنى أمية في الطريق ، ثم لحق بهم على ظهر فرسه « الكوكب » مما يُفهم منه أن الأمر روعه ، وقال لهما في أسلوبه الطريف في الكلام : « إنني منذ أنتيتاني برسول ابن معاوية وكتابه لم أزل في إدارة ، فاستحسنت ما دعوتما إليه ، ثم كان مني إليكما ما كان ، فلما فارقتكما روّيت فيه ، فوجدته من قوم لو بال أحدهم في هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله . وهذا (يعنى يوسف) رجل قد حكمتنا عليه مع ما له في أعناقنا . والله لو بلغتنا بيوتكما ، ثم رأيتما هذا لظننت ألا أقصر حتى أرجع إليكما لتلا أغركما ، وإنما أعلمكما أن أول سيف يسلم عليه سيفي ! فبارك الله لكما في رأيكما ومولاكما »^(٢) فأسقط في أيديها وعلما أن الرجل جاد فيما يقول ، وأن لا رجاء لهما فيه بعد ذلك .

وهكذا اتبته هذا الرجل لأمر نفسه في آخر لحظة ، وعاد إلى بيته وهو لا يشك في أن أمر ابن معاوية هذا قد انتهى ، وكان قد أحب استرضاء أبى عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله ابن خالد فأكد لهما أنه يعطف على مولاها ، وأنه على استعداد ليعطف قلب يوسف عليه فيزوجه من بيته ويكرمه إذا تحلى عن طلب السلطان .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٣ .

ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٣ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٧٣ .

أراد الصميل شيئاً وأراد الله شيئاً آخر . أراد أن يقضى على آمال عبد الرحمن وموالى بنى أمية في السلطان في الأندلس ، فكانت إرادته تلك فتحاً لباب الأمل أمام وجوههم . فقد فكروا بعد بأسهم من المضربين المعديين في الاستعانة بالكليين اليمنيين ، فجمعوا في طريق عودتهم إلى البيرة لا يكادون يعرون بمنازل يمنية إلا حذّثوا أسيانها في الأمر ، وكانوا في ذلك أسعد حظاً من يوم توجهوا بآمالهم إلى الصميل والمضربة ، لأن اليمنيين كانوا منذ هزيمة شقندة ومنذ فشل ثورتهم في سرقسطة ينتظرون بفارغ الصبر فرصة يتصفون لأنفسهم فيها من أعدائهم المضربين ، فجمعوا ينضمون إلى دعوة عبد الرحمن جماعة بعد جماعة ، ولم يصل زعماء بنى أمية إلى البيرة حتى كانوا قد ملأوا أيديهم من أطباء اليمن ، وقرروا الإسراع باستدعاء عبد الرحمن والبدء في العمل قبل أن يفرغ يوسف والصميل من أمر سرقسطة ويعود إلى قرطبة .

عجل موالى بنى أمية فندبوا أحد عشر رجلاً منهم فيهم تمام بن علقمة الثقفي الذي شارك في الفتح وكان له فيه جهد مشكور ، وشاكر مولى هشام ، وأعطينا تمام خمسمائة دينار للنفقة منها ولافتداء عبد الرحمن من بربر مغيلة الذين كان يعيش عند شيخهم أبي قرة المغيلي . وكانت هذه الخمسمائة دينار هي كل ما كان قد بقي لهم من الألف دينار التي أخذوها من يوسف الفهري ليفرقوها فيما بينهم استعداداً للسير معه ، كانوا قد أعطوا كل جندي أموى عشرة دنائير ... أما الباقي فقد أراد الله أن يكون من نصيب عبد الرحمن هذا الذي سيكون على يديه زوال أمر يوسف والصميل معاً .

واشترى تمام وشاكر وبدر من المال مركباً وعبروا وتسعة آخرون للقاء عبد الرحمن الذي كان ينتظرهم بفارغ الصبر ^(١) .



٣٦٤- وصول اقرب رسل موالى بنى أمية بمركبهم من شاطيء إفريقية في إحدى أمسيات وفد موالى بنى أمية واليمنيين إلى عبد الرحمن فلما أبصرهم أسرع إليهم وقفز بدر إلى الماء لكي يسرع إلى مولاه بالبشرى ، ولم تكد الوجوه تتلاقى بعد طول انتظار حتى أفضى إليه بجلية الأمر وأنبأ

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٤ .

ابن الفوطية : افتتاح ، ص ٢٤ .

بتوقيفه مع موالى بنى أمية واليمنيين ، وبأن جماعات قوية من هؤلاء تنتظر لتسير في ركابه مؤيدة ، ثم أقبل تمام بن علقمة ، فلم يكذب عبد الرحمن يسأله عن اسمه وكنيته (أبو غالب) حتى استبشر به وعوّل على الإسراع في الرحيل . وأقبل برابر مغيلة يجاولون منعه من الرحيل إلا إذا افتدى نفسه منهم ، ففرّق عليهم تمام من المال الذى كان معه ، ولم يخلص عبد الرحمن مع ذلك منهم إلا بصعوبة ، واستوى هذا الفتى الموفق في القارب فانطلق به نحو الأندلس بعد ساعات قليلة من وصول البشرى إليه ، ووطئت قدمه شاطئ الأندلس عند المنكب في أخريات ربيع الثانى سنة ١٣٨ . نزل الأندلس لا تكاد تصاحبه غير آماله ، وتريد المقادير أن تكون ساعة نزوله تلك بدءاً لعصر جديد في تاريخ الأندلس بل في تاريخ الإسلام عامة .

لم يُرحب عبد الرحمن في المنكب ، بل سار منها رأساً إلى طُرُش حيث أراح في دار ٣١٥-دخول
عبد الرحمن لأبى الحجاج يوسف بن بُحْت (شيخ جند قنسرين) وأحد كبار موالى بنى الأندلس
أمية على ما ذكرنا ، « وهناك جاءتة الأموية كلها وجاءه جداد (كذا والأرجح جدار) ابن عمرو المذحجى من أهل رُبّه الذى كان بعد ذلك قاضيه في العسكر ، وجاءه عاصم بن مسلم الثقفى وأبو عبدة حسان فاستوزره ، وجاء أبو بكر بن الطفيل ، واختلف الناس إليه » . وهكذا أخذ معسكر عبد الرحمن يعنى بالمؤيدين والأنصار وبدأت طلائع النصر تهب عليه ، فحرص منذ اللحظة الأولى على تنظيم أتباعه هؤلاء وإعدادهم للصراع في سبيل الأمر العظيم الذى يطلبه ، وتناقل أهل الأندلس كلهم خبره ^(١) .

في هذه الأثناء كان يوسف والصميل قد وصلا سرقسطة وحاصرا اليمانيين والقرشيين الذين كانوا قد دخلوها وأعلنوا الثورة فيها يقودهم عامر بن عمرو القرشى وابنه وهب والحباب بن رواحة بن عبد الله الزهرى الكلابى ، وكان يوسف ينتظر مجيء أبى عثمان عبيد الله وابن خالد بفارغ الصبر على ما وعداه ، ولم يكن يخطر له على بال ما أحكمآ تدبيره من الأمر أو ما كانت تحبته له ظروف الأيام .

وفي أثناء هذا الانتظار استطاع الصميل أن يرغم اليمانيين الثائرين على التسليم ، فنزلوا له عن سرقسطة على أمان ، واستسلم قوادهم عامر وابنه وهب والحباب وأقاموا عند الصميل كرهائن ، ولو كان الأمر كله في ذلك ليوسف والصميل لقتلام ، ولكن نفرأ من

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٦ - ٧٧ .

القرشيين في معسكرهما على رأسهم سليمان بن شهاب والحصين بن الدجن حالوا بينهما وبين ذلك . فلما فرغ يوسف من أمر سرقسطة فكر في وسيلة يتخلص بها من سليمان بن شهاب والحصين بن الدجن وغيرهما من زعماء القرشية ، فانتهاز فرصة انقراض البشكنس فجمع جمعاً صغيراً من جنده ورماهم به وجعل على رأسه سليمان بن شهاب والحصين وأصبحها خيار القرشية « وبعثهم في ضعف ولم يكره عطبهم » (١) . فلم يكادوا يفضون إلى دار الحرب ويلقون البشكنس حتى انقض عليهم هؤلاء ومزقوهم وقتلوا معظمهم وفيهم ابن شهاب ، وأسرع الحصين بفلهم إلى سرقسطة وقلبه موغر على يوسف والصبيل اللذين أرسلوا قومه إلى اهل مكة ، وأقام عند أبي زيد عبد الرحمن بن يوسف ، وكان يوسف قد خلفه وراءه عاملاً على سرقسطة .

في هذه اللحظة تحركت في نفس الصميل عوامل القسوة التي عرفناها فيه في مناسبات كثيرة ، فمال إلى قتل رهائن القرشيين الثلاثة بعد أن قتل حاميتهم سليمان بن شهاب وهلك معظم أنصارهم في بعث البشكنس ، وجعل يزين الأمر ليوسف ويؤكد له أنه إن فعل هذا خلصت الأندلس له ولولده ، وكان يوسف مقبياً إذ ذاك بمكان يقال له وادي شربته ، فاستجاب له يوسف وضرب أعناق عامر بن عمرو القرشي وابنه وهب والحباب بن رواحة على رغمه ، واطمأن الصميل بعد أن شفى أحقاد نفسه من هؤلاء اليمانيين والقرشيين الذين كادوا يهلكونه أثناء حصارهم إياه بسرقسطة ، اطمأنت نفسه واستراح باله ، فمضى إلى خبائه - وكان فيه ابتداء - ليقليل ، فلم يكذب جفنه يهدأ حتى طرقت سمعه خطوات رسول يوسف يحمل إليه نبأ عبد الرحمن واجتماع الناس إليه بطروش ، فكأن المقادير أرادت أن لا يهدأ له بال لحظة بعد هذه الجريمة البشعة التي ارتكبها منذ لحظات (٢) .

لم يكذب يوسف يقرأ الخطاب حتى بعث يستدعى الصميل ، وانتبه الصميل
٣١٦ - بدء
الصراع بين عبد
الرحمن ويوسف
الفهري والصبيل

خطورة الأمر وأشار على يوسف بأن يعجل بالسير إلى عبد الرحمن بمن معه قبل أن يجتمع إليه الناس ويشدد أمره ، فلم يكذب يوسف يتحدث إلى الجند في هذا حتى عارض فيهم أكثرهم ، وكانوا متعبيين من أثر هذه الحملة المشثومة التي قاموا بها في بلاد البشكنس ، ثم إن الكثيرين منهم كانوا ساحطين على الصميل

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٧ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٧٧ - ٧٨ .

ويوسف بسبب ما فعلا بإخوانهم القرشيين ، إذ ألقى ببعضهم إلى الهلكة وغدر بالباقيين ، لهذا لم يجبه منهم إلا نحو عشرة كانوا هم حملة ألوية القبائل ، ولو أمكنهم التقاعس لتقاعسوا ، أما الباقيون فقد طال الشوق بهم إلى بيوتهم فستلوا إلى أهلهم وتركوا يوسف والصميل وحدهما ، واستحال عليها الذهاب ، وانقضى الوقت وأقبل الشتاء وهطلت الأمطار وحملت الأنهار ، فلم يجد الرجلان بدأ من السير بمن معها إلى قرطبة . وجعل الناس يهونون أمر عبد الرحمن على يوسف ، وقال بعضهم إنه لا يطلب ملكاً وإنما يطلب العيش الرغد ، فإن كفاه يوسف ذلك وزوّجه من بيته رضى وقنع وزال خطره ، واطمأن الرجل إلى ذلك طيلة الشتاء كارهاً.

في ذلك الحين كان عبد الرحمن جاداً في توثيق أمره في طرش في دار أبي عثمان عبيد الله بن عثمان ، كانت جماعات موالى بنى أمية قد توافدت عليه حتى اكتمل عقدها تحت لوائه ، وتسارع إليه اليمينيون لا يشكون في أنه منتصف لهم من القيسيين وقائدهم العاتين ، بل انضم إليه نفر من القيسيين أنفسهم يتزعمهم جابر بن العلاء بن شهاب وأبو بكر بن هلال العبدى والحصين بن الدجن ، وكانت قلوبهم موغرة على الصميل لما فعل بأصحابهم في حملة البشكنس ولضربه رقاب من نجا منهم بعد ذلك ، وانضم إليه من ثيف ثلاثة نفر سيكون لهم في مجرى الحوادث أثر عظيم ، هم تمام بن علقمة الثقفى الذى ذكرناه وعاصم العريان وأخوه عمران ، وانضم إليه كذلك كثير من البربر لم تعطنا المراجع عنهم أى تفصيل ، ولكن معظم البربر كانوا على أى حال يأمنون اليمينيين وينضمون إليهم ، وكان هؤلاء قد تقربوا إليهم بعد هزيمة شقندة . هكذا قوى معسكر عبد الرحمن ، فأخذ ينظم صفوف أنصاره استعداداً للصراع الحاسم إذا انقضى الشتاء .

فلما أقبل الربيع بدأت بطون مضر تتوافد إلى الصميل ويوسف حتى اكتمل جمعهم عندهما في قرطبة ، ويبدو أن عدد من اجتمع من القيسيين كان عظيماً ، لأن الأمويين واليمينيين المجتمعين إلى عبد الرحمن لم يلبثوا أن استبانوا قلة أعدادهم ونصحوا عبد الرحمن بالمرور على بقية منازل اليمينية في نواحيها لكى يصطحب منهم من يستطيع ضمه ، وهذا يدلنا على أن اليمينيين رغم كثرة عددهم في الأندلس كان معظمهم منصرفاً إلى شئون العيش في النواحي التى نزلوا بها ، فلم يكن ينهض منهم للقتال إلا أعداد قليلة ، وربما كان هذا هو سبب تفوق القيسيين عليهم في ميادين الحرب ، فقد كان معظم القيسيين جدداً على البلاد

أقبلوا مع بلج ، لم تثبت بعد أقدامهم في النواحي التي كان أبو الخطار قد فرّقهم فيها ، فكانوا إذا دعا داعي الحرب لى معظمهم وأسرعوا إلى الميدان ، ومن دلائل ذلك أن يوسف والصحيل لم يكادا يدعوان الجند بعد انقضاء الشتاء حتى توافد عليهما معظم القيسية ، في حين كان لابد أن يمر عبد الرحمن على اليمنيين في منازلهم ليحشد أكبر عدد منهم للصراع المقبل .

وجعل نفر من رجال يوسف يوهمه بأن عبد الرحمن لم يأت للملك ، وإنما يكفيه شيء من الخير وحسن المكانة عند يوسف كما قلنا ، ففكر هذا في أن يبعث إليه بشيء من الهدايا مع وقد من أنصاره يعرضون عليه الصلح والمصاهرة ، وتخبر يوسف ثلاثة من خيرة أنصاره هم عبيد الله بن علي شيخ قيس وخالد بن زيد كاتبه الأثير عنده وعيسى بن عبد الرحمن وكان من موالى بنى أمية ، ولكنه ثبت إلى جانب يوسف ، لأنه كان على أرزاق الجند وحشم يوسف ، وبعث معهم بكتاب بليغ كتبه خالد بن زيد وأرسل كذلك كسى وفرسين وبغلين ووصيفين وألف دينار .

فسار الرسل حتى بلغوا أرض من كورة رثه ، فبدا لعيسى بن عبد الرحمن أن يبقى هو بالهدايا في هذا الموضع ، ويذهب زميلاه بالكتاب ليريا إن كان عبد الرحمن يقبل الصلح أو لا يقبله ، فلما وصلا إلى معسكر عبد الرحمن وجداه عامراً بالناس تتوارد عليه الوفود من أجناد دمشق والأردن وقنسرين وقدأ بعد وفد ، وحدثاه بالذى يعرضه يوسف من الصلح والمصاهرة والسلم ، ومالت قلوب نفر من أنصار عبد الرحمن إلى قبول ذلك ، ثم أخرج خالد بن زيد الكتاب وناوله لعبد الرحمن ، فناوله هذا لصاحبه أبى عثمان عبيد الله بن عثمان ليرد عليه بما يشاء ، وهمّ أبو عثمان بإملاء الجواب ، فملك الزهو خالداً وقال : « يا أبا عبد الرحمن ، لتعرقن إبطك قبل أن تجد فيه جواباً ! » فنالت هذه العبارة الجافية من نفس أبى عثمان .

وكان - كغيره من كبار عرب الأندلس - يكره خالداً ولا يرتاح إليه ، إذ كان خالد مولى أندلسياً اصطنعه يوسف وصعد بمكانه ، وكان فيه هذا الغرور الذى سنعرفه في الكثيرين من الأندلسيين ، فأثار بغروره نفوس العرب حتى كرهوه وحسدوه على هذه المكانة التي أصابها من نفس سيدهم ، وهو بعد مولى أندلسى أو « عالج » كما كانوا يسمونه .

أصابته هذه العبارة نفس أبي عثمان فاستطاره الغضب فضرب بالكتاب وجه خالد وسبه سباً قبيحاً وأمر به فكُتِلَ بالحديد ، وحاول عبيد الله بن علي أن يتدخل لإنفاذه فلم يفلح . وهكذا فشلت هذه السفارة بسبب هذه العبارة التافهة التي صدرت عن هذا المولى الأندلسي دون أن يقدر موضعها ، وعاد عبيد الله خائب السعي إلى أرض ليجد صاحبه عيسى بن عبد الرحمن قد أسرع عائداً بالهدايا إلى يوسف ، إذ بلغه أن أنصار عبد الرحمن بن معاوية علموا بأمره وأمر الهدايا التي معه . وقد انضم عيسى فيما بعد إلى عبد الرحمن ، وصفح عنه هذا وجعله من مواليه ، إلا أنه لم ينس له فعلته هذه أبداً^(١) .

سار عبد الرحمن بمن معه إلى شذونة حيث كان جند الأردن ، فانضم إلى جيشه كل من كان بها من اليمنيين وقضاة و قليل من جند الأردن أنفسهم ، وتحمس لعبد الرحمن شيخ عرب الأردن جدار بن عمر القيسي جد بني عقيل ، وصادف دخول عبد الرحمن شذونة يوم الفطر سنة ١٣٨ (٨ مارس ٧٥٦) فأمر جدار خطيب المسجد بأن يسقط الخطبة ليوسف ويجعلها لعبد الرحمن^(٢) ، فكانت هذه أول خطبة لعبد الرحمن على منابر الأندلس ، وساعفه المقدار فانضم إليه قبيل من البربر يُعرفون ببني الخليج كانوا يقيمون بناحية تاكرنا وكانوا موالى يزيد بن عبد الملك ، فأصبحوا في ولاء عبد الرحمن واشتد بهم ساعده ، وبهذا كان مقام عبد الرحمن بشذونة مقاماً سعيداً على قصره : كسب فيه بضع مئات من الأنصار وسمع بنفسه أول خطبة يدعو له . ثم نزل بمنازل جند فلسطين عند طرف شذونة فانضم إليه سراة القوم وحماة الجند إلا بنى كنانة ، إذ كان شيخهم كنانة بن كنانة قد انضم بقومه إلى يوسف وسار إليه ، فرعى عبد الرحمن حرمة هذا الشيخ ولم يمس أبناءه أو حرمه بضر ، ثم سار إلى إشبيلية حيث جند حمص .

« فخرج إليه خيارهم من اليمن شاميهيا وبلديها . وبهذا قوى جمع عبد الرحمن بمن انضم إليه من هذه الأجناد الثلاثة ، وزاد حماسه وحماس من معه حتى نظر أحد رؤساء الجند فإذا جند الأردن سائرون بلوائهم وجند فلسطين بلوائهم وجند حمص بلوائهم وعبد الرحمن في مواليه من غير لواء ، فقال : سبحان الله ، ما أشد خلاف أمرنا ! نحن بألوية وصاحبنا بلا لواء! فأقبل أبو الصباح بن فلان اليحصبي بقناة وعمامة ، والقناة والعمامة لرجل من

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٨٠ - ٨١ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٤ - ٢٥ .

حضر موت لا أسميه ، ثم دعوا رجلاً من الأنصار لا أسميه تفاءلوا باسمه ونسبه ، فَعَقَدَ له بقرية قلبيرة من إقليم طشانة من كورة إشبينية .

فأراد الله أن يكون هذا اللواء المتواضع المرتجل لواء النصر لجنود المسلمين في الأندلس حتى إمارة عبد الرحمن الأوسط ، وظل يرفرف على هامات المسلمين حتى خلق وبلى ، وألقى به عبد الرحمن بن غانم قائد الأمير عبد الرحمن بن محمد واستبدل به غيره فتشاهم بذلك جهور القائد وبحث عن اللواء الحَلَّتَق فلم يجده ، واختفى من ذلك التاريخ بإحدى نواحي ماردة^(١).

٢١٧- موقعة وتعجل يوسف والصميل السير من المدور شمالي قرطبة وانحدرا بمن معها إلى المصارة ناحية مقابلة لطشانة Tocina على الشاطئ الغربي للوادي الكبير ، وكان الوقت شتاء والوادي الكبير فياض بالماء ، فامتنع على العسكرين أن يعبر أحدهما إلى الآخر ، ولبنا على ذلك حيناً ، ثم أراد عبد الرحمن أن يلتمس غُرَّةً من يوسف ويمضي بعسكره إلى قبالة قرطبة ثم يعبر إليها فيدخلها ، فأوقد نار معسكره بليل ، ثم ترك النار موقدة ومضى بعسكره ، وكادت تنجح الحيلة ، لولا أن تنبه لها يوسف وصاحبه فأسرعا عائدين إلى قرطبة ، فكانا مع جيش عبد الرحمن في سباق ، ووقف الجيشان مرة أخرى ينظر أحدهما إلى الآخر عند المصارة على مقربة من قرطبة ، وكانت كفة يوسف أرجح ، لأنه كان مقيماً مع قومه في ناحية زرع وخير ، في حين كان مقام عبد الرحمن في غابات لا مزارع فيها ، فأقام جنده في مَحَل لا يقتاتون إلا ببعض الفول الأخضر أصابوه مما حولهم ، وكانوا يرجون أن يدخل بهم صاحبهم قرطبة ليقيموا أنفسهم بها فيها من الخير ، ولكنهم لم يستطيعوا^(٢).

ثم أقبل يوم الخميس التاسع من ذي الحجة سنة ١٣٨ (١٣ مايو ٧٥٦) فاستبشر به عبد الرحمن لأنه يقابل اليوم الذي وقعت في غده معركة مرج راهط وانتصر فيها أموي آخر هو مروان بن الحكم على فهري آخر هو الضحاك بن قيس ، فقرر أن يخوض المعركة الحاسمة مع يوسف الفهري يوم الجمعة التالي ، ومن ثم أمر جنده أن يستعدوا ليوم الفصل^(٣).

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٨٤.

ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٦ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٨٦ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٦ - ٢٧ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

وفي صباح يوم الجمعة العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨هـ (١٤ مايو ٧٥٦م) صَفَّ عبد الرحمن جيوشه في ترتيب وإحكام ، ولم يكونوا ليزيدوا في العدد عن خصومهم ولكنهم كانوا أشد تلهفاً على القتال ، ولم يكن معظمهم متحمساً لقضية عبد الرحمن بقدر ما كان راغباً في إدراك ثأره من القيسيين وشيخيتهم الصميل ويوسف ، وكان عبد الرحمن يعرف هذا ويشعر به ، فمضى يدبر الأمر في حرص وحذر وحكمة : ظل يتظاهر بأن الأمر كله لأبي عثمان عبيد الله بن عثمان شيخ الموالي ، فلا يرم أمرأ بدون رأيه ، ولكنه كان يعرف كيف يسيطر على هذا الرجل ويسيره في الطريق الذي يريد في كياسة وحكمة ، ومن دلائل ذلك أنه أحب قبل المعركة أن يشحذ همم اليمانيين فسألهم في شيء من الذكاء : « إننا لم نجيء للمقام ، وقد دعانا هذا الرجل إلى ما علمتم ، وعرض ما سمعتم ، ورأىي لرأيكم تبع ، فإن كان عندكم صبر وجَلْد وحب للمكافحة فأعلموني ، وإن كان فيكم جنوح إلى السلم والصلح فأعلموني ، ^(١) .

قال هذا الكلام وهو يعلم أثره في نفوسهم ، فلم يكذب يفرغ منه حتى أصفقوا على القتال جميعاً وزاد حماسهم ، فمضى يعين القواد : فأقام عبد الرحمن بن نعيم الكلبي على أهل الشام ، وأقام على رجالة بني أمية وجماعة البربر عاصم العريان ، وكان من كبار الأموية ، وقد بلغ من حماسه لعبد الرحمن أن خلع سراويله قبل المعركة ليكون ذلك أعون له على القتال فسمي العريان ، وجعل على خيل بني أمية حبيب بن عبد الملك القرشي ، وجعل على خيل البربر إبراهيم بن شجرة الأودي وكان من كبارهم ، وأعطى لواء جيشه كله لأبي عثمان عبيد الله ابن عثمان ، ووقف هو وسط خيل بني أمية على فرس أشقر ممسكاً بقوسه ، وعلى هذا النظام عبر الوادي الكبير وأفضى إلى الضفة المقابلة دون أن يعرض له يوسف أو أحد من رجاله ، ويبدو أنه كان يؤمل في الصلح ما يزال ، وعلى ذلك كان كثير من أنصاره ، لم يخوضوا المعركة إلا بعد أن وضعهم عبد الرحمن أمام الأمر الواقع ، فلم يجذوا عن القتال مندوحة .

ورتب يوسف جيشه : فجعل على خيل الشام ومضر كلها عبيد الله بن علي ، وعلى الرجالة كنانة بن كنانة ، وجوشن بن الصميل ، وعبد الله بن يوسف الفهري ، وجعل على خيل غلمانه وصنائه من البربر غلامه خالداً سَوْدِي .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٧ .

ابن القوطية ، ص ٢٨ .

وأخذت جماعات من مسلمي قرطبة تنضم إلى عبد الرحمن قبيل المعركة ، لأن عدداً عظيماً من موالى خلفاء بني أمية وعيالمهم كانوا قد سكنوها منذ زمن طويل ، فصار جيشه بهذا أكثر عدداً وإن كان جيش خصمه أكثر انسجاماً ، وقد لاحظ عبد الرحمن أن نفرأ من أنصاره اليمينيين يتحدثون عن فرسه الأشقر ، ويخشون أن يكون قد تخيره خاصة ليهرب به إذا دارت الدائرة عليه ، بل كلمه جماعة منهم في ذلك صراحة ، فلم يكن منه إلا أن رجا أبا عثمان عبيد الله أن يعطيه بغلته ، محتجاً بأن فرسه الأشقر لا يثبت تحته ، وهو إنما يريد مركباً ثابتاً ليستطيع أن يرمى بقوسه على ظهره ، فقبل أبو عثمان وطابت أنفس اليمن ، وهذا يدلنا على أن اليمينيين كانوا يخشون القيسية بعد ما لقوا من الهزائم على أيدي رجالها ، ولو لم يكن فيهم هذا الفتى عبد الرحمن لدارت الدائرة عليهم ، بل لما نهضوا للقتال أصلاً^(١) .

دارت المعركة على مقربة من المصارة من أرباض قرطبة ، وقد بدأ القتال بهجوم عنيف قامت به خيل عبد الرحمن على قلب جيش يوسف والصميل ، فلم يمض إلا قليل حتى قتل عبد الله بن يوسف وجوشن بن الصميل ، فلم يصبر الرجلان على القتال بعد ذلك وولياً الفرار بمن معهما ، وثبتت خيل قيس يقودها عبيد الله بن علي القرشي ، فلم يزل عبد الرحمن ابن نعيم وعاصم العريان ومن معهما من الفرسان يشتدون في الهجوم حتى قتلوا عبيد الله بن علي ونفرأ من كبار القيسية ، فانفرط عقد من بقى وولأ مدبرين ، وكسب عبد الرحمن ذلك اليوم الحاسم الذي كُتِبَ فيه للأندلس بل للغرب الإسلامي كله تاريخ جديد ، وصار عبد الرحمن ودخل قصر قرطبة ، وكان من غرائب المقادير أنه ورجاله أكلوا من نفس الطعام الذي كان يوسف قد أعد له لنفسه ولأصحابه إذا فرغوا من المعركة^(٢) .

فلما انتصرت اليمينية وقعوا فيما كانوا يقعون فيه عقب كل نصر حازوه في تاريخهم: ملكهم الجشع في المغانم وكادوا يضيعون ثمرة النصر بسوء التصرف وقلة الكياسة ، ذلك أن جماعة منهم غرهم هذا النصر فحسبوا أنهم يحسنون صنعا إذا انقلبوا على عبد الرحمن وموالى

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٨٩ .

(٢) ابن الفوطي : افتتاح ، ص ٢٨ .

الأخبار المجموعة ، ص ٨٩ - ٩٠ .

ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٤٨ - ٤٩ .

فتح الأندلس ، ص ٥٥ - ٥٦ .

بنى أمية لكي يصبح النصر خالصاً لليمن ، لأن عبد الرحمن ومواليه كانوا من مضر أيضاً ، وقد دعا إلى ذلك رجال من جذام وخاطبوا فيه قضاة ، فأبى قضاة ، واختلف الحيّان فلم يفلح التدبير ونجا عبد الرحمن ومواليه ، وقد علم عبد الرحمن بهذا الأمر إذ أنهاه إليه جذامى يسمى ثعلبة بن عبيد فاحترس لنفسه وضمّ مواليه ، واحترس من أبى الصباح الداعى إلى هذا الأمر الخطير ، وأنشأ لنفسه شرطة جعل عليها عبد الرحمن بن نعيم ، وهذا أول منصب رسمى ينشأ على عهد هذه الدولة الجديدة (١) .

وتسرت اليمنية بما عُرف عنها من الجشع فى الغنائم والإسراف فى ذلك ، وأسرع رجالان من طيء فاتهما دار الصميل بن حاتم بشقنذة ، والرجل ينظر إليها من قمة تل مجاور كان قد هرب إليه على طريق جيان مشرف على قرية شُبَلار ، فملا نفسه الألم وتمثل قائلاً :

ألا إن مالى عند طيءٍ وديعه ولا بُدُّ يوماً أن تُسرِّدَ الودائعُ

وكان فيما انتهباه صندوق فيه عشرة آلاف دينار دراهم ، مما يدلنا على عظم الثروة التى كان هذا الصميل يحتجها ويختص بها نفسه . ولم يستطع عبد الرحمن أن يكف اليمينين عن النهب إلا فى مشقة ، وقد أبدى من النبل كرمًا عظيمًا ، إذ تعفف عن حريم يوسف وضم زوجته وابنته إلى أهله ، وأهدت إليه زوج يوسف الجارية «حلل» التى ستكون أم ولده وولى عهده هشام . وأقر صاحب صلاة يوسف الفهرى على عمله ، وكان فهرياً ، وسيدرك عقبه فى ظلال الدولة الأموية نباهة وذكرًا ، وكذلك أقر يحيى بن يزيد قاضى يوسف على عمله .

ولم يرض اليمينون من عبد الرحمن هذا التعفف أو ذلك الكرم ، ويبدو أنهم لم يكونوا ليحسبوا إلا أنه سيكون دائماً طوع بناتهم فيصّر فون الأمر كما يشاءون ، ففاجأهم عبد الرحمن بعد انتصاره بوضع يده على الأمر كله ، فبدأت نفوسهم تتغير عليه ، ومن ذلك الحين تبدأ مؤامراتهم وثوراتهم عليه (٢) .

٢١٨ - قيام
الدولة الأموية
الأندلسية
ثم دخل عبد الرحمن المسجد الجامع وصلى بالناس وخطبهم من منبر قرطبة لأول مرة ، فوعدهم بالعدل والإحسان ، ونستطيع أن نقول إن الدولة

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٠ .

الأخبار المجموعة ، ص ٩٠ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٩٠ .

الأموية الأندلسية قد قامت فعلاً من هذا اليوم ، وبدأ في تاريخ الأندلس عصر جديد (١) . وكان ذلك يوم الجمعة العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ ١٤ مايو ٧٥٦م .

٢١٩ - مصير وحاول يوسف الفهرى والصميل بن حاتم أن يستعيدا ما ضاع من أمرهما يوسف الفهرى على غير طائل : ذهب يوسف إلى طليطلة ليجمع نفراً من أنصاره ، وذهب والصميل بن حاتم الصميل إلى جيان ليستنفر من فيها من معدّ ، ثم التقيا واستوليا على جيان وطرذا الحصين بن الدّجن عاملها لعبد الرحمن ، ثم مشيا إلى البيرة ففر عاملها جابر بن العلاء بن شهاب ، ووجد عبد الرحمن أن لا مندوحة له عن السير نحوهما ، فلم يكذبغادر قرطبة حتى فاجأها أبو زيد أحد أبناء يوسف الفهرى بنفر من أنصاره أقبلوا معه من ماردة ، فعاد عبد الرحمن إليها ، ووجد أن لا مفر من أن يقيم على حراستها رجلاً يثق فيه فعهد في ذلك إلى عامر بن علي جد بني فهر الرصافيين ، واستوثق من أمره ثم مضى نحو خصميه .

ولم يكذب عبد الرحمن يصل بمن معه من الجند إلى البيرة حتى أحس الصميل ويوسف أنهما لن يستطيعا له حوياً ، فعرض الصلح على أن يدع لها عبد الرحمن ما كان لها من الأموال والأموال ، وأجلها عبد الرحمن إلى ذلك على أن يستودعه يوسف الفهرى ابنه أبا زيد عبد الرحمن وأبا الأسود محمد ، واتفق يوسف وعبد الرحمن كذلك على تبادل الأسرى ، فكان من غرائب المقادير أن عبد الرحمن رد إلى يوسف خالد بن زيد كاتبه المولى الإسباني في نظير أبي عثمان عبيد الله بن عثمان ، وكان عبيد الله هو النسي ضرب وجه خالد وأمر بتكيله يوم تحدها خالد أن يكتب رداً لخطابه على ما روينا (٢) .

وعاد عبد الرحمن إلى قرطبة وقد دانت له الأندلس جميعها ، عاد وفي ركابه يوسف والصميل ، فعن لطيف ما يحكى أن عبد الرحمن استبان امتياز الصميل ، ولا غرابة فالرجل من الأرومة العربية في أعلى مكان ، قال عبد الرحمن : « لله بلاهه . لقد صحبني من البيرة إلى قرطبة ما مست ركبته وركبتي ولا تقدم رأس بغله رأس بغلي ، ولا استهيمني في حديث ، ولا افتتح حديثاً بغير أن أسأله عنه » ، ثم يقول صاحب «الأخبار المجموعة» بعد ذلك : «ولا يذكر - أي عبد الرحمن - مثل ذلك عن يوسف..» (٣) ، وهي ملاحظة لها معناها ،

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٩ .

ابن عذاري : البيان ، ج ٢ ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٩٣ - ٩٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٩٤ .

واستقر الرجلان على كرامة وتوسعة . وأقبل كثير من الناس يطالبانها بحق لهم عندهما من أيام ولايتها ، فأحاطهم عبد الرحمن إلى القاضى يحيى بن يزيد التجيبى ، وكان الناس يحسبون أن القاضى يتتهز هذه الفرصة ليشفى نفسه من هذين الرجلين اللذين أخفا بقوم اليمنيين شر الأذى ، ولكن القاضى امتلك نفسه ، فلم يقض فى أمرهما إلا بالحق ، وظل الرجلان على ما أنزلها عبد الرحمن عليه من الإكرام ^(١) .

بيد أن يوسف لم يطمئن إلى أمان عبد الرحمن ، وظلت المخاوف تساوره من ناحيته ، فلم يزل يتحين الفرصة حتى فر من قرطبة ، وحاول أن يستميل الصميل والشامية إلى جانبه فلم يوفق ، فمضى إلى جماعات من البلديين فى لقتت وماردة وطليلة ، وما زال بهم حتى أغراهم بالانضمام إليه ، فثاروا بعبد الرحمن فى هذه النواحي ، واستبعد عبد الرحمن أن يكون يوسف قد قام بهذا العمل من تلقاء نفسه ، واتهم الصميل بالتدبير عليه ، وعبثاً حاول الرجل تبرئة نفسه ، وانتهى أمره بأن ألقى به فى السجن ، وسجن معه ابنى يوسف وكانا عنده وهيتين .

واستطاع يوسف أن يضم جماعات من البلديين ، فسار بهم من لقتت إلى إشبيلية ، ومن غريب الأمر أن معظم البلديين - بل والشاميين - فى هذه الناحية انضموا إليه ، مما يدل على أن عرب الأندلس كانوا إلى ذلك الحين أميل إلى الفوضى والاضطراب ، وأبعد عن فهم قيمة استقرار الأمور وعودة السلام . جمع يوسف نحو عشرين ألف عربى حاصر بهم عامل إشبيلية لعبد الرحمن ، وكان مرواناً يسمى عمر بن مروان قدم على عبد الرحمن منذ قليل فى صحبة نفر من الأمويين تذكر منهم جَزَى بن عبد العزيز بن مروان بعد أن استقرت قدم عبد الرحمن فى الأندلس ، ولم يكن لدى عبد الملك إلا نفر قليل من القيسيين .

وبدا ليوسف أن يعجل بالسير إلى قرطبة قبل أن يستطيع عبد الرحمن جمع قواته والسير إليه ، ولكن الحظ لم يساعفه ، إذ أن عبد الرحمن استطاع أن يجمع جمعاً عظيماً من أنصاره ويسير بهم نحو إشبيلية ، ولم يكد يوسف يتحرك نحو قرطبة حتى جمع عامل مرور لعبد الرحمن - وهو عبد الملك بن عبد الله - من كان عنده من القيسية ثم انضمت إليه جماعة أخرى وسار بهم خلف يوسف وعجلوا يريدون مهاجمة عسكر يوسف من خلف . فتخوف يوسف أن يقع بين الفريقين ، فعاد نحو إشبيلية يريد أن يعجل بالقضاء على عبد الملك ومن معه قبل وصول عبد الرحمن ، واشتبك القتال بين الجيشين وانهمز يوسف هزيمة قاصمة .

ومضى يوسف نحو طليطلة ليلجأ إلى صديق له يسمى أبا عروة لا يصاحبه غير مولى فارسى يسمى سابقاً ووصيف واحد ، فلما صار على عشرة أميال من طليطلة مر بعبد الله بن عمر الأنصارى ، وهو بقرية من قرى طليطلة - « فقيل له : هذا يوسف منهزماً ! فقال لأصحابه : ويحكم ! اخرج بنا نقتله ونريح الدنيا منه ونريحه من الدنيا ونريح الناس من شره ، فقد صار رجلاً ناجشاً للحرب ، فخرج حتى لحقه وليس بينه وبين مدينة طليطلة إلا أربعة أميال ، وليس معه إلا سابق الفارسى مولى لبنى تميم ومن يجمله يقول مولى يوسف ، وبقيته بسر قسطة ، ووصيف واحد فقط وقد ماتوا من شدة الرخص ، وليس معهم منعة ولا مدفع ، فقتل عبد الله يوسفَ القهري ، وقُتل سابق وهرب الغلام حتى دخل قرطبة » ، وأقبل عبد الله على عبد الرحمن الداخل برأس يوسف فعجّل هذا بقتل أبى زيد بن يوسف وأبقى على أخيه أبى الأسود لِصَغَر سنه ، ولما أقبل الليل بعث إلى الصميل من خنقه ليستريح من أمره جملة (١) .



هكذا صفا الجو لعبد الرحمن وصار له أمر الأندلس كله غير منازع ، وانتهى على يديه العصر الأول من أعصر الأندلس الإسلامية وهو عصر الولاة . عصر الولاة اختفى من الميدان آخر رجلين كانا يمثلان هذا العصر « الجاهلى » فى تاريخ الأندلس ، اختفيا حاملين معها ثارات العصبية وأوضار القبلىة ، وخلفا الأندلس لتقوم فيه دولة إسلامية واحدة تقيم شأن الأندلس الإسلامى بعد أن كاد ينهار . وكان من حظ الأندلس أن اختفى هذا العصر المضطرب ، ولو استمر لكان فى ذلك بوار أمر الأندلس الإسلامى جملة ، ولو لم تطأ قدم عبد الرحمن أرض هذه البلاد لصار تاريخ الإسلام فيها إلى ما سيصير إليه تاريخ الإسلام فى صقلية بعد ذلك بنيف وثلاثة قرون : اختلاف وتفرق وحروب بين المسلمين ، ثم يكسحهم أعداؤهم وينتهى أمر الإسلام فى الجزيرة .



(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٠ .

الأخبار المجموعة ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٥١ - ٥٢ .

المراجع

مَرَاجِعُ الكِتَابِ

أ - مَرَاجِعُ عَرَبِيَّةٌ :

- ابن الأبار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي : الحلة السراء ، طبعة دوزى .
 ابن الأثير الجزرى : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، القاهرة ١٢٨٠ هـ .
 - : الكامل فى التاريخ ، طبعة نورنبرج ، لايدن ١٨٦٧ - ١٨٧٦ ، وطبعة القاهرة ١٩٤٩ .
 ابن حزم القرطبى : جهرة أنساب العرب ، طبعة ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ .
 ابن حوقل ، أبو القاسم محمد البغدادي الموصلى : صورة الأرض ، الطبعة الثانية بإشراف كرامرز ، لايدن ١٩٣٨ .
 ابن حيان ، حيان بن خلف : المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس ، طبعة أنتونيا ، باريس ١٩٣٧ .
 ابن الخطيب ، لسان الدين :
 - الإحاطة فى أخبار غرناطة ، طبعة محمد عبد الله عنان ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٦ .
 - : أعمال الأعلام فىمن ببيع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجير ذلك من شجون الكلام ، نشره ليفى بروفنسال ، الرباط ١٩٣٤ ؛ ثم أعاد طبعه فى بيروت ونشره بعنوان « تاريخ إسبانيا الإسلامية » سنة ١٩٥٦ .
 ابن خلدون ، عبد الرحمن :
 - المقدمة ، طبعة لويس شيخو ، بيروت ١٩٠٨ . وترجمة فرنسية بقلم البارون دى سلان ، باريس ١٨٦٨ .

- كتاب العبر ، بولاق ١٢٨٤ / ١٨٦٧ (٧ أجزاء) .

- أخبار البربر ومواليهم من زناتة وذكر أوليتهم وأجياهم ، وما كان بديار المغرب خاصة من الملوك والدول ، وهو الكتاب الثالث من « العبر وديوان المتبدا والخبر » وقد نشره دى سلان وطبعه في الجزائر ١٢٦٧ / ١٨٥١ بعنوان « تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب » ، ثم ترجمه إلى الفرنسية ونشر الترجمة باسم « تاريخ البربر » سنة ١٨٦٠ ، وأعيد نشره حديثاً بإشراف المستشرق كازانوف في باريس سنتي ١٩٣٨ - ١٩٤٠ .

ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، طبعة شارل توري ، مطبعة جامعة ييل ١٩٢٢ .

ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، طبعة دوزي الجزعان ٢١ و١ ، لايدن ١٨٤٨ - ١٨٥١ ؛ والجزء الثالث نشره ليفي برونسفال في باريس سنة ١٩٣٠ . ثم أعاد برونسفال وكولان نشر الجزءين الأول والثاني في لايدن سنة ١٩٥١ - ١٩٥٢ .

ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، طبعة كوديرا ، مدريد ١٨٩٠ - ١٨٩٢ .

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، القاهرة ١٩٠٤ .

ابن القوطية ، أبو بكر : تاريخ افتتاح الأندلس ، أعده للنشر جايانجوس ونشره خليان ريبيرا ١٩٢٦ .

أبو زكريا : تاريخ أبي زكريا ، ترجمه وعلق عليه Emile Masqueray الجزائر ١٨٧٨ .

أبو المحاسن ، جمال الدين يوسف بن نغرى بردى : النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، صدر منه ١١ جزءاً ابتداء من سنة ١٩٢٨ .

أبو يوسف :

- كتاب الخراج ، القاهرة ١٣٥٢ .

مؤلف مجهول :

- أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس : نشره وترجمه وعلّق عليه لافونتى إى ألكنترا، مدريد ١٨٦٧ .

الإدوسى ، الشريف : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . نشر الجزء الخاص بالأندلس والمغرب دوزى ودى خويه فى لايدن تحت عنوان Description de l'Afrique et de l'Espagne .

الإصطخرى ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى : مسالك الممالك ، طبعة دى خويه لايدن ١٨٦٦ - ١٨٧٠ ثم أعيد طبعه سنة ١٩٢٧ .

البغدادى ، عبد القادر بن طاهر : الفَرْق بين الفِرَق ، القاهرة ١٩١٠ .

البكرى ، أبو عبيد الله بن عبد العزيز : صفة إفريقية ، مستخرجة من كتاب المسالك والممالك ، نشرها البارون دى سلان فى الجزائر ١٩١٠ ، ثم ترجمها إلى الفرنسية ونشرها فى الجزائر ١٩١٣ .

البلاذرى ، أحمد بن يحيى بن جابر : فتوح البلدان ، القاهرة ١٣١٨ .

جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ، القاهرة (طبعة ١٩٥٧ ، راجعها وعلق عليها حسين مؤنس) .

الخميرى ، ابن عبد المنعم : الروض المعطار فى خبر الأقطار . نشره مع ترجمة فرنسية وتعليقات ليفى بروفسال فى لايدن ١٩٣٦ .

الخشنى ، محمد بن الحارث بن أسد : تاريخ قضاة قرطبة ، نشر مع ترجمة إسبانية لرييرا ، مدريد ١٩١٤ .

الخوارزمى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب : كتاب مفاتيح العلوم ، لايدن ١٨٩٥ والقاهرة ١٣٤٤ .

الدباغ ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى : معالم الإيبان (٤ أجزاء) تونس ١٣٢٠ / ١٩٠٢ .

- الدينورى ، أبو حنيفة : الأخبار الطوال ، القاهرة ١٣٣٠ / ١٩١١ .
- السلوى ، أحمد بن خالد الناصرى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، القاهرة ١٣١٠ - ١٣١٢ .
- السيوطى ، عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة ، القاهرة ١٣٥١ .
- الشهرستانى ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم : الملل والنحل ، طبعة و. كيورتون ، لندن ١٨٤٢ ، والقاهرة ١٣١٧ .
- الضبى : بغية الملتبس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، طبعة ريبيرا ، مدريد ١٨٨٤ - ١٨٨٥ .
- الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك ، طبعة دى خويه ، لايدن ١٨٨١ وما بعدها ، وطبعة القاهرة ١٩٣٩ .
- العزرى ، أحمد بن عمر بن أنس : نظام المرجان فى المسالك والممالك والبلدان (مخطوط يعده للنشر الدكتور عبد العزيز الأهوانى) .
- عنان ، محمد عبد الله : دولة الإسلام فى الأندلس - العصر الأول ، القاهرة ١٩٤٣ .
- الغسانى ، محمد بن عبد الوهاب : رحلة الوزير فى افتكالك الأسير ، طبعة الفريد البستانى ، العرائش ١٩٤٠ .
- قدامة بن جعفر ، أبو الفرج : كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، لايدن ١٨٨٩ .
- القرشى ، يحيى بن آدم : كتاب الخراج ، بتحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٤٧ .
- الكتانى ، عبد الحى : فهرس الفهارس ، فاس ١٣٤٦ .
- المالكي ، أبو بكر : رياض النفوس (الجزء الأول) نشر وتحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١ .
- المراكشى ، عبد الواحد : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، طبعة دوزى ، لايدن ١٨٨١ ؛ وطبعة محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٤٨ .

المسعودى : مروج الذهب ، طبعة بارييه دى مينار وبافيه دى كورتى ، باريس
١٨٦١ - ١٨٧٦ .

المقدسى ، شمس الدين : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، طبعة دى خويه ،
لايدن ١٩٠٦ .

المقرئ ، أبو العباس أحمد : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها
لسان الدين بن الخطيب ، طبعة دوزى ودوجا وكريل ورايت ، لايدين ١٨٥٥ - ٦١ ؛
وطبعة الشيخ محى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ .

- : تاريخ الدول الإسلامية فى إسبانيا ، ترجمة إنجليزية جزئية لنفع الطيب مع
تعليقات بقلم ب. دجايانجوس ، لندن ١٨٤٠ - ١٨٤٣ .

المقرئ ، تقى الدين أحمد بن على :

- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، طبعة فستفلد تحت عنوان
Abhandlung ueber die in Aegypten eingewanderten Arabische:
. Staemme Goettingen, 1847

- : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة القاهرة ١٩٠٦ - ١٩٠٨ .

مؤنس ، حسين : فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ .

النباهى ، أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن : تاريخ قضاة الأندلس المسمى المربة
العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، نشره ليفى يروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ .

النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : نهاية الأرب فى فنون الأدب ،
طبعة دار الكتب المصرية ، وطبعة جسيار ريميرو (الجزء ٢٢ و ٢٣ الخاصان
بالمغرب والأندلس) ، مدريد ١٩١٧ .

ياقوت ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى : معجم البلدان ، طبعة
الساسى ، القاهرة ١٩٠٦ .

اليعقوبى : كتاب البلدان ، طبعة دى خويه ، لايدين ١٨٩٢ .

ب - مراجع غير عربية:

Aguado Bleye, Pedro. Manual de Historia de Espana, 2 vols. Madrid, 1947 - 1950 .

Asin Palacios, Miguel. Abenmasarra y su escuela, origines de la filosofia hispano musulmana. Madrid, 1914.

Baer, Fritz. Die Juden in christlichen Spanien, VI. Teil, Urkunden und Regesten. Berlin, 1928.

Ballesteros, Antonio y Beretta. Historia de Espana y su influencia en la historia universal. Madrid, 1943.

Ballesteros, Rafael. Histoire d'Espagne des origines à nos jours. Paris, 1938.

Barrau - Dihigo, L. Recherches sur l'histoire politique du Royaume Asturien, dans Revue Hispanique LII, 1921.

Becker, C.H. Beitræge zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam, 2 Haefte.

- Die Entstehung von Usr und kharagland in Aegypten in Zeitschrift der Assyriologie, XVIII (1904 - 1905) .

- Papyri Schott Reinhardt, I. Heidelberg, 1906.

Bolufer, José Alemany. La geografia de la Peninsula Iberica en los escritores árabes, (Revista del Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino) tomo IX, 1919.

Cirot, G. Etudes sur l' historiographie espagnole. Bordeaux, 1904.

Codera, F. Estudios criticos de historia árabe espanola. Madrid, 1917.

Condé, José Antonio. Historia de los Arabes en Espana. Madrid, 1820.

Condeminas, Francisco y Luis Visintin. Atlas Histórico de Espana.

Cronica Mozárabe de 754. (Atribueda a Isidero Pacence por el P. Florez. Publicada por Mommsen bajo el titulo de Continuatio Hispana en 1885) .

De Lagoy, M. Description de quelques médailles inédites de Masilia. Aix, 1834.

Dozy, Reinhardt Peter - Anne. Etudes sur la conquète de l'Espagne par les Arabes, dans Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyeny - âge. Lyde, 1881.

- Histoire des Musulmans d'Espagne (2 e. édition revisée par **Lévi - Provençal**) Leyde, 1932.

- Script. Ar. Loci. de Abbab. Lyde, 1846 - 1863.

Dubler, César E. Sobre la Cronica Arabigo - Bizantina de 741 y la Influencia Bizantina en la Peninsula Iberica (Al - Andalus, Vol. XI fasc. 2, Madrid - Granada, 1956) .

- Ueber Berbersiedlungen auf der iberischen Halbinsel, in Festschrift J. Jud. Zurich, 1943.

Elias Teres. Linajes Arabes en Al-Andalus, segun la "Jamhara" de **Ibn Hasm**, Al-Andalus, Vol. XXII fasc. 1-2.

Fernández y Gonzalez, Francisco. Estado social y político de los Mudejares de Castilla. Madrid, 1866.

Floresta de leyendas heroicas españolas. Rodrigo, el último godo. Compil. por **Ramon Menéndez Pidal.** Madrid, 1925.

Fournel, Henri. Les Berbères, étude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes, 2 Vols. Paris, 1875.

Gautier, E.F. Le passé de l'Afrique du Nord. Paris, 1937.

Gayangos, Pascual. The History of the Mohammedan Dynasties in Spain, 2 Vols. London, 1840 - 1843.

- Memoria sobre la Autenticidad de la crónica denominada del Moro Rasis; Memorias de la Real Academia de La Historia. Madrid, 1852.

Guerra, A. Fernandez. Caída y Ruina del Imperio Visigótico español. Madrid, 1883.

Herculano, Alejandro. Historia de Portugal. Lisboa, 1863.

Huici Miranda, Ambrosio. Las Crónicas Latinas de la Reconquista. Valencia, 1913. 2 Vols :

Vol. I, Cronicones burgense, complutense, compostulano, del ceratense, de Don Juan Manuel, albeldense, de Sebastian, de Sampiro, de Pelayo y de Cardeña, y Anales complutenses, compostelanos y toledanos,

Vol. II, Cronicon del Silense y Cronicon de Alfonso el Emperador.

Irving, Washington. Legends of the Conquest of Spain.

Isidoro de las Cagigas. Los Mozárabes. Madrid, 1947 - 1949.

- Los Mudejares, 2 Vols. Madrid, 1948.

Isidoro Hispalense (San Isidoro Arzobispo de Sevilla). Divi Isidori ... Historia de Regibus ... Suevorum. Esp. Sagr. III, IV.

Isidoro Pacence. Vease Crónica.

وقد رجعنا إلى القطعة التي نشرها لافويتى ألكانترا ذيلاً على ترجمته الإسبانية للأخبار
المجموعة.

Jacob. Sources of Spanish - Jewish History. New - York, 1894.

Lafuente y Aleántara. Ajbar Machmua. Madrid, 1867.

- Cronologia de los gobernadores de Espana. Apendice III de Ajbar Machmua.

Lafuente y Zamalloa, Modesto. Historia general de Espana desde los tiempos primitivos hasta nuestros dias. 30 Vols. Madrid, 1850 - 1867.

Lammens, H. Etude sur le règne du calife umayyade Mu'awiya Ier. Beyrouth, 1908.

- Le Califat de Yazid Ier. Beyrouth, 1921.

- Etudes sur le siècle des Umayyades. Beyrouth, 1930.

Legendre, Maurice. Nouvelle histoire d'Espagne. Paris, 1938.

Lembke. Geschichte von Spanien. Gotha, 1833.

Lévi - Provençal, E.. Histoire de l'Espagne Musulmane. Paris, 1951.

- L'Espagne Musulmane au Xe. Siècle. Paris, 1932.

- La Péninsule Ibérique. Leyde, 1938.

- Islam d'occident (Etudes d'histoire médiévale). Paris, 1948.

Llanos, Estansilo Rendueles. Historia de la villa de Gijon desde tiempos mas remotos hasta nuestros dias. Gijon, 1867.

Lot, Ferdinand. La fin du monde antique et le début du moyenâge. Paris, 1927.

Lucas de Tuy. Cronicon Mundi, Vol. IV de Hisp. ILLUstrada dirigida por Mariane. pp. I - 116.

Masdeu, J.F. Historia Critica de Espana. Madrid, 1805.

Menéndez Pidal, Ramón. Historia de Espana. Madrid, 1940.

- La Espana del Cid. Madrid, 1929.

- Origenes del Espagnol. Madrid, 1950.

Menéndez y Pelayo, Marcelino. Historia de los Heterodoxos Espanoles. Madrid, 1946.

Miguel de la Luna. Historia Verdadera del Rey Rodrigo.

Mommsen, Theodora. Auctorum Antiquisimorum, tomus XI, Cronica Minora (Seec IV, V, VI, VII). Berolini, 1893.

Moncaut, Cenat. Histoire des peuples et des Etats pérénéens (3e éd. 1873).

Monés, Hussain. Essai sur la chute du Califat Umayyade de Cordoue. Le Caire, 1947.

Neuman, Abraham A. The Jewsin Spain (Philadelphia. The Jewish Publication Society of America) 2 volumes, 1948.

Perles, J. Rabbi Saloma ibn Abraham ibn Aderth. Breslau, 1863.

Primera Cronica General de Espana (ed. Menéndez Pidal). Madrid, 1906.

Ribera, Julian y Tarrago. Disertaciones y Opusculos. Madrid, 1928.

Rodericos Toletanus (Jiménez de Rada, Rodrigo, arzobispo de Toledo). Rerum in Hispania gestarum chronicon en Hisp. Illustr. II. pp. 25 - 194.

Saavedra, Eduardo. Estudio sobre la invasión de los Arabes en Espana. Madrid, 1882.

- Pelayo, Conferencia histórica. Madrid, 1906.

Saint - Saud, Le Conte. Monographie des Picos de Europa, Etudes et Voyages. Paris, 1923.

Sala, Julio Samoza Garcia. Gijón en la historia general de Asturias.

Sánchez - Albornoz. Fuentes de la historia hispano - musulmans del siglo VIII. Mendoza, 1942.

Schacht, Joseph. The Origins of Muhammedan Jurisprudence. Oxford, 1953.

Schevenkow, Rudolf. Kritische Betrachtungen ueber die lateingeschriebenen Quellen zur Geschichte der Eroberung Spaniens durch die Araber, 1894.

Simonet, Francisco Javier. Historia de los Mozárabes de Espana. Madrid, 1897 - 1903.

Thomas, W. Arnold. The Preaching of Islam. London, 1935.

Viardot, Louis. Histoire des Arabes et des Mores d'Espagne. Paris, 1833.

Von Kremer, Alfred. Einnahmebudget des Abbassiden Reiches.

Weil, G. Geschichte der Islamischen Voelker. Stuttgart, 1866.

Wellhausen, Julius. Das Arabische Reich und Sein Sturtz.

ترجمه إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة بعنوان « تاريخ الدولة العربية إلى نهاية العصر الأموي » ونشر في القاهرة سنة ١٩٥٨ .

Wuestenfeld. Die Statthalter von Aegypten zur Zeit der Chalifen. Goettingen, 1875.

Yver, George. Euric, roi des Visigoths, dans Etudes d'histoire du moyen - âge dédiées à Gabriel Monod. Paris, 1896.



الفهارس العلمية

- فهرس الأعلام
- فهرس الأماكن والبلدان والجبال
- فهرس التواريخ الميلادية
- فهرس التواريخ الهجرية
- فهرس القبائل والطوائف والمذاهب
- فهرس الكتب والمدونات التي ذكرت في متن الكتاب

فهرس الأعلام

- أجيكا (أجيكا، ايجيكا، أخيلا): ٢٤، ٢٣، ٢١،
٦٤، ٧٢، ٧٩، ٩٢، ٢٦٣، ٢٧٣، ٣٧٨،
٤١١، ٣٨٢
- أجيلونا (أيله، أيلونا، أم عاصم): ١١٨، ١١٧،
٣٩٧، ٣٥٢، ٣٣٨
- أحمد بن خالد: ٣٦٠، ٣٥٩
- أحمد بن عمر بن أنس العذري: ٤٢٢، ٤٢٥،
٤٤٠، ٤٤٢، ٤٥٤، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٦٢
- أحمد بن عيسى بن محمد المقرئ أبو العباس: ٤٩٧،
٤٩٨
- أحمد بن فرج بن منتيل: ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩
- أحمد بن محمد بن عبد الحميد: ٤١٩
- أحمد بن محمد بن مغيث أبو جعفر: ٣٣٩
- أحمد بن محمد (بن موسى) الرازي: ٦٨، ٧٢،
٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٤، ١٠٢، ١٠٣، ١١٤،
١١٥، ١١٧، ١١٩، ١٧٩، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١،
٢٧٢، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٤٠٢، ٤٠٥، ٤٢٠،
٤٢٢، ٤٢٣، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣،
٤٥٠، ٤٦١، ٤٦٧، ٤٨٤، ٤٨٩
- أحمد بن نصر الداودي أبو جعفر: ٤٨٧
- الإدريسي = محمد بن محمد
- ادوارد جيبون: ٢٥٠
- ادواردو = سافدرا
- ادوازيوس: ٤٨٠
- ادواكر: ١٥
- أذفونش (أذفنش) بن بطره (بيطره)، ألفونسو
الأول: ١٧٨، ٢٥٦، ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٧٧،
٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦

(أ)

- آرنولد تويتسي: ٣٥٠
- آريوس المصري: ٣٧٨، ٣٧١
- آسين بلايوس: ٤٩٦، ٤٩٨، ٤٩٩
- آيدولفو: ٤٠٢
- أبان (بن معاوية بن هشام): ٥١١
- إبراهيم بن الأغلظ بن سالم بن عقال: ١٦٤
- إبراهيم بن حرب: ٥٠٢
- إبراهيم بن حسين بن عاصم: ٣٦٠
- إبراهيم بن شجرة الأودي: ٣٠٨، ٥٢٨
- إبراهيم بن عيسى بن مزاحم: ٣٣٩، ٣٩٨
- الأبرش: ١٣٥
- ابن الأثير = محمد بن عبد الله القضاعي
- ابن الأثير = علي بن محمد
- ابن أيمن: ٥٠٥
- أبه (أوبه، عباس): ٢٣، ٧٠، ٩٢، ٢٦٥،
٣٨٢، ٣٩٨، ٤٠٠
- أبو الأسود = محمد بن يوسف الفهري
- أبيض: ٤٠٧
- أنانا جيلدو بن آيدولفو: ٤٠٢
- أنانا جيلدو بن تدمير: ٤٠٤
- أناسيوس (الأنبا طناش): ٣٧١
- أنيسكلو (قديس): ٧٧
- أنيعة: ٢٣٥
- أجريا: ٤٢٤
- أجوادو بلاي: ٣٧٢، ٣٧٤

- ٤٠٨
- أريانس: ٣٩٩
- أربست: ٢٣
- أرسطو: ٣٧٤
- أرطافازدس: ٢٣
- أوطباس بن غيطشة: ٢٣، ٧٩، ٩٢، ١٩١،
٢٩٣، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٥٢، ٣٦٦،
٣٩٨، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٦٤، ٤٦٧،
٤٩٢، ٤٨٤
- أربطان: ٢٣
- أرمستندا: ٢٨٠
- أريستا: ٤٠٣
- اسيرانيديوس: ٣٨٥، ٣٨٣
- إسحاق بن عيسى بن مزاحم: ٣٣٩، ٣٩٨
- أسد بن عبد الله القسرى: ١٣٠
- اسكندر (أنبا): ٣٧١
- أسلم بن عبد العزيز بن هاشم: ٣٢٦
- إسماعيل بن بدر بن إسماعيل بن زياد: ٣٢٦
- إسماعيل بن خلف (ابن الحيازة): ٣٢٦
- إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب: ١٢٢، ١٢٩،
١٤١، ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩
- إسماعيل بن القاسم بن عبدون: ٣٢٦
- الإصطخري (إبراهيم بن محمد القاسري
ت ٤٦٣هـ): ٣٣٩، ٤٠٥، ٤٢٣، ٤٣٨، ٤٤٠،
٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥١
- أم الأصبح (ابنة معاوية بن هشام): ٥٠٥، ٥١٢
- أطاوولف: ١٣، ١٤، ١٥
- الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي:
١٦٠، ١٦٣، ١٦٤
- أفيوسس الأول: ٣٧٨
- أفيوسس الثاني: ٣٧٨
- أفينون: ١٣٨
- أكويللا: ٤٠٠
- الأاريك: ١٣
- الأاريك الثاني: ٢٠
- ألبر (راهب): ٣٨٤
- البرو = ألفارو
- ألفارو: ٩٢
- ألفريد فون كريمير (بارون): ٤١٩
- ألفونسو الأول = أذفونش
- ألفونسو السابع: ٣٤٢
- ألفونسو السادس: ٣٩٤
- ألفونسو العاشر (المعروف بالعالم): ٢٦٢، ٢٧١،
٢٧٣، ٤٤١، ٤٤٣
- ألفونسو الكبير: ٩١
- ألقيان (الرومان، علققان، حلقة البلخي): ٢٦٥
- ألدن (بن غيطشة): ٢٣، ٧٩، ٩٢، ٣٣٩، ٣٩٨،
٤٠٧
- إلياس بن حبيب: ١٦٠، ١٦١، ٥١٤، ٥١٥
- البياندوس: ٣٨٥، ٣٨٣
- اليسع بن عيسى بن يزيد الأسود: ١٦٤
- أمة الرحمن (بنت معاوية بن هشام): ٥١٢
- أمية بن عبد الملك بن فظن: ١٨٦، ١٩٠، ٢٣٨،
٢٩١، ٣١٨، ٣٢٢
- أمية بن يزيد: ٣٢٣
- أناباديوس: ٢١٣
- أنسونديس: ٢٣٩
- أنييجو خيمينيث (أريستا): ٤٠٣
- أودو (دوق أقطانية): ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤،
٢١٥، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣١، ٢٣٢،
٢٣٧، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٣٨، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢

- بيين الثاني بن شارل مارتل: ٢٢٨، ٢٤٩

- ييكون: ٤٣٨

(ت)

- تابلهان: ٢١

- تدمير (بن غيدوش) : ١٠١، ١٠٢، ١٠٣،
١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٨٠، ٤٠١،
٤٠٤

- تمام بن علقمة (الثقفى ، الوزير) : ٣٣٣، ٣٣٩،
٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٤

- توماس (قديس) : ٤٠١

- تيوتونيوس (قديس) : ٣٤٢

- تيودوس أنانا جيلدو : ٤٠٢

- تيودوسيوس : ١٣، ٣٧٣

- تيود فريدو : ٢٢، ٢٥، ٣٨٢

(ث)

- ثابت الصنهاجى : ١٦١، ٥١٤

- ثعلبة بن ثوابة الجذامى : ١٥٠، ٣٢٢

- ثعلبة بن سلمة (العاملى) : ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠،
٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٣١٣، ٤٧٤، ٤٧٨

- ثعلبة بن عبيد الجذامى : ٣٣٩، ٣٩٨، ٥٣٠

- ثوابة بن سلامة (الجذامى ، العاملى) : ١٧٧،
١٩٤، ١٩٥، ٢٦٦، ٢٧٢، ٢٨٣، ٢٩٥، ٤٧٨،
٥١٣

- أبو نور بن قسى : ٣٢٥

- ثيودوريك : ١٨

(ج)

- جابر (مولى) : ١٢٣، ٤٧٥

- جابر بن العلام بن شهاب : ٥٢٤، ٥٣١

- جاوديسوسا : ٢٦٢، ٢٧٩

- جايانجوس : ٩٧

- جبريل : ٢١٣

- جداد (جدار) بن عمرو المذحجى : ٥٢٢

- جدار بن عمر القيسى (جد بنى عقيل) : ٥٢٦

- جريجوريوس : ٣٨٣، ٣٩٤ (السابع)

- جزى بن عبد العزيز بن مروان : ٥٣٢

- جستان : ١٨

- أبو جعفر المنصور : ١٦٠، ١٦٣، ٢٠١، ٤١٥

- جميل بن كريب أبو كريب : ١٦٢

- جهور : ٥٢٧

- ابن جهور : ٣٢٩

- جوتيه : ٣٩، ٤٧، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨

- جوشن بن الصميل : ٥٢٨، ٥٢٩

- أبو جوشن = الصميل بن حاتم

- جولد تسيهر : ١٨٤

- جيون (مورخ) : ٣٧٤

- جيسرك : ١٤

(ح)

- الحارث (من البربر) : ٥١٤

- الحارث الحوارى : ١٦١

- الحباب (أبو الحبيب) بن رواحة بن عبد الله
الزهرى الكلابى : ٢٠١، ٥١٩، ٥٢٢، ٥٢٣

- ابن الحبيب = عبيد الله بن الحبيب

- الحبيب بن أحمد بن زياد اللخمي : ٣٦٠

- حبيب بن عبد الرحمن : ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ٥١٥

- حبيب بن عبد الملك القرشى : ٥٢٨

- حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى :
١٠٤، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٤٧، ١٤٨،

١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٨، ٣٣٨

- حبيب بن عمير : ٣٣٩، ٣٩٨

- حبيب بن ميمون : ١٥١، ١٥٣

- ابن رسته : ٤٢٣ ، ٤٥١
- رفينا (قديسة) : ٣٩٨
- رمله (ابن القوطية) : ٢٣
- رودريجو (رودريكو ، رودريك ، الطليطلي) =
لذيق
- رولان : ٢٢٣

- ريبيرا = خليان
- ريكاريدو : ١٨ ، ١٩ ، ٣٠ ، ٣٧٤ ، ٣٧٤ ، ٤٠٨ ،
٤١١
- رينو : ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،
٢٤٧ ، ٢٤٦ ، ٢٣٦

(ز)

- زرعة بن أبي مدرك : ٤٩ ، ٦٧
- أبو زرعة = طريف بن ملوك
- زقطرتق : ١٧٣
- زكريا بن يحيى بن عايد بن كيسان : ٣٢٧
- زهير بن قيس البلوي : ٤٤ ، ٤٥
- زياد (أبو طارق بن زياد) : ٦٦
- زياد بن عبد الرحمن (شبطون) : ٣٦٠ ، ٣٦١ ،
٥٠٦ ، ٣٦٢
- زياد بن عذرة البلوي : ١١٧ ، ١٢٠
- زياد بن ناهضة التميمي : ١١٧ ، ١١٨ ، ١٩٠ ،
٣٩٧ ، ٣٣٨
- ابن زيان : ٢٧٣
- زيد بن حصن : ١٣٥

- أبو زيد (بن يوسف الفهري) = عبد الرحمن بن
يوسف الفهري
- زيتون : ١٥

(س)

- سابق (مولى فارسي ليوسف الفهري) : ٥٣٣
- سارة بنت المند (القوطية) : ٩٢ ، ٣٣٩ ، ٣٦٣ ،

- أبو الخطاب بن صفوان الكلبي : ١٣٠
- أبو الخطار = الحسام بن ضرار الكلبي
- ابن الخطيب : ٣١٤ ، ٤٤١ ، ٤٦٦ ، ٤٨٤
- ابن خلدون : ١٠٠ ، ١٤٧ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٢٧ ،
٢٦٤ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٩ ، ٢٨٥ ، ٣٠٧ ، ٤١٩ ،
٤٦٥

- خليان ريبيرا : ٣٣٩ ، ٤٩٦ ، ٤٩٩
- الحوارزمي : ٤٢٠
- عميلد بن عقيل : ٤٥٩

(د)

- داتوس : ٢١٧
- دادون : ٢١٧
- دانس بن عوسجة : ٣٠٨
- داهية بنت ماثية بن تيفان : ٤٦
- داود بن جعفر : ٥٠٦
- دقلديانوس : ٤٢٤ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ،
٤٤٧
- دمتق بن بيطره : ٣٤٣
- دوزي : ٢١ ، ٣١ ، ٥٥ ، ٦٢ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٣ ،
١٨٤ ، ١٩٣ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٧١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٤٦٥ ،
٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩
- دونات : ١٦٥
- دى خويه : ٤١٩
- دينار أبو المهاجر : ٤١ ، ٤٤

(ر)

- الرازي = أحمد بن محمد بن موسى
- رابنهارت بيتر آن دوزي = دوزي
- الرضى = الحكم بن هشام
- رخشدش : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٥
- رخشفتو : ٣٧٩
- رودريجو خيمينث (أسقف) : ٢١ ، ٦٩ ، ٣٩٣

ت٦٨٥هـ): ٢٧٧، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٤، ٤٤١، ٤٩٦
 - أبو سعید بن أرطیاس: ٩٢
 - السفاح (عبد الله بن محمد ت١٣٦هـ): ٥١١
 - سفیان الثوری: ٥٠٤
 - سفیان بن عینة: ٥٠٤
 - سلفیان المرسیل: ٣٢
 - أبو سلامة بن قس: ٣٢٥
 - أبو سلمة الخلال: ٥١١
 - سلیان بن أسعد: ٣٦٠
 - سلیان (بن داود علیها السلام): ٤١٠
 - سلیان بن شهاب: ٥٢٣، ٢٠٢
 - سلیان بن عبد الرحمن بن یزید: ٣٢٧
 - سلیان بن عبد الملك: ٨٢، ٨٣، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٩، ١٣٢، ٤٠١، ٤٧١، ٤٩١
 - سلیم بن منصور: ٢٠٢
 - السمع بن مالك الحولانی: ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٨، ١٣٩، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٨، ٢٢٧، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٥٠، ٣١٧، ٣٤٠، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٧٢، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٩٠، ٤٩٣
 - سمكو بن رسول بن ملان بن أمی ازول: ١٦٤
 - سنرد: ٧٥، ٣٨٢
 - سنریدو: ٣٩٩، ٤٠٠
 - سهل بن إبراهيم بن نوح: ٣٢٧
 - سیزار دویلر: ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٢
 - سیسرتو (ششرت): ٢٣
 - سیعونیت: ٣٦٧، ٣٧١، ٣٨٥، ٣٩١، ٣٩٥، ٣٩٩، ٤٠٤

٤٠٧، ٣٩٨
 - سافدرا: ٢٣، ٥٦، ٦٢، ٦٥، ٨٧، ٨٨، ١٠١، ٢٧٠
 - سالم (مولى أخت عبد الرحمن بن معاوية الداخل): ٥١٥، ٥١٢
 - ساموذا: ٢٨٠
 - سان أنطون: ٤٠٨
 - سان بلاس: ٤٠٨
 - سان توركو تروس: ٣٩٣
 - سان خوان دى لاينيا: ٤٠٣
 - سان خيل: ٤٠٨
 - سان فينت: ٤٠٨
 - سان ماركوس: ٤٠٨
 - سانتا ماريا دلوس هويرتوس: ٤٠٨
 - سيشيليا (خبر): ٤٠٧
 - سباستيان السلمتى: ٦٣، ٦٥، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٧٠، ٢٧٩
 - سبرى: ٢٣
 - سبرة: ٢٣
 - سيطلة: ٤١
 - ستيخو: ١٣
 - سحنون: ٣٥٥، ٣٦٢، ٣٦٣
 - سعد بن جواس: ١٩٢
 - سعدان بن إبراهيم: ٣٢٦
 - سعيد بن بجرة الغسانی: ١٥٢
 - سعيد بن حميد بن عبد الرحمن: ٣٢٧
 - سعيد بن العاص: ٣٢٧
 - سعيد بن عثمان بن سليمان التجیبی: ٣٢٧
 - سعيد بن أبي هند: ٥٠٦
 - ابن سعيد (على بن موسى أبو الحسن المغربي

٥٢٥، ٥٢٤، ٥٢٣، ٥٢٢، ٥٢١، ٥٢٠، ٥١٩
٥٣٣، ٥٣٢، ٥٣١، ٥٣٠، ٥٢٩، ٥٢٨، ٥٢٧

(ض)

- الضبي: ١٠٣، ٣٥٤

- الضحاك بن فيس: ٥٢٧

- ضري بن مادغيس: ٣٠٨

(ط)

- طارق بن زياد: ٥١، ٥٥، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠،
٦١، ٦٢، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠،
٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠،
٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٤،
٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦،
١١٤، ١١٦، ١٣٣، ١٦٠، ١٧١، ٢٠٧، ٢٥٥،
٢٦٠، ٢٦٩، ٢٨٩، ٢٩٠، ٣٠١، ٣٠٦، ٣٠٧،
٣١٤، ٣١٦، ٣٥٣، ٣٨٠، ٤٦٤، ٤٧١، ٤٧٦

- طاهر بن أبي هارون: ٣٣٠

- الطرطوشي: ٣٦٣، ٣٦٤

- ابن الطفيل: ٥٢٢

- طريف بن شمعون بن يعقوب بن إسحاق: ١٤٧

- طريف بن ملوك أبو زرة: ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٧٠،
١٣٣، ١٧١، ٣١٦، ٤٧١

(ع)

- عاصم بن جيل: ١٦٠، ١٦٢

- عاصم العريان: ٥٢٤، ٥٢٨، ٥٢٩

- عاصم بن مسلم الثقفي: ٥٢٢

- أبو عاصم بن محمد الأحمر بن طريف: ٤٠٢

- أم عاصم = أجيلونا

- عامر بن عدى (بن أبي عدى): ٤٩١، ٤٩٥

- عامر بن علي (جد بني فهر): ٥٣١

- عامر بن عمرو القرشي: ٥١٩، ٥٢٢، ٥٢٣

- عامر بن هاشم: ٢٠١

(ش)

- شارك مازنل: ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٠، ٢٢٤، ٢٢٥،
٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧،
٢٣٨، ٢٤٨، ٢٥٠

- ابن شاس: ٣٦٤

- الشافعي: ٤٩٨، ٥٠٥

- شاذر (مولى هشام): ٥٢١

- شانهج (شانجو): ٣٩٤، ٤٢٦

- شبطون بن عبد الله الطليل: ٥٠٦

- شرمكان: ٢٢٠، ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤١،
٢٤٩، ٢٥٠

- ششريت: ١٩، ٢٣، ٧٠، ٧٢

- ششوتو: ٤١١

- شلد براند: ٢٣٤، ٢٣٧

- شمر بن نمير: ٣٢٧

- شندا سفتو: ١٩، ٢٥، ٢٦٣

- شيشيرون: ٣٧٤

- شيجيوس (أسقف): ٣٤٣

(ص)

- صالح بن طريف بن شمعون: ١٤٧

- أبو الصباح بن فلان الجحصى: ٣٢٣، ٤٩٣،
٥٢٦، ٥٣٠

- صبرون بن شيبب: ٣١٢

- صفوان (بن مالك، بن أبي مالك): ١٥٢، ١٥٣

- صفليان: ١٦٥

- الصميل بن حاتم بن شمر: ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤،
١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١،
٢٠٢، ٢٠٣، ٢٣٩، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٤،
٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٣٧،
٣٣٨، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٥٢، ٤٧٤، ٤٧٨، ٤٨٩،
٤٩١، ٤٩٢، ٥١١، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨

- ٢٨٠، ٢٨٤، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٧، ٢٨٥، ٢٨٤، ٢٨٤، ٢٨٠
 ٢٩٨، ٣٠٨، ٣١٦، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٢٤
 ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣١، ٣٣٩، ٣٤١
 ٣٥٦، ٣٦٤، ٣٩٠، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٥٢، ٤٧٤
 ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٨، ٤٨٩، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٥
 ٥١١، ٥١٢، ٥١٥، ٥١٨، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٢
 ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٩، ٥٢٨، ٥٢٦، ٥٢٥، ٥٢٢
 ٥٣٢، ٥٣٢
- عبد الرحمن بن موسى الهواري : ٥٠٦
- عبد الرحمن الناصر : ٢٨٩، ٢٩٧، ٣٠٩، ٣٢٩،
 ٣٥١، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٧٠
- عبد الرحمن بن نعيم الكلبي : ٢٩٥، ٥٢٨، ٥٢٩،
 ٥٣٠
- عبد الرحمن بن يوسف أبو زيد الفهري : ٢٣٩،
 ٥٢٣، ٥٣١، ٥٣٣
- عبد العزيز الأهواني : ٤٤٢
- عبد العزيز بن مروان : ٤٨، ٤٩، ٨٢، ٣٢٧
- عبد العزيز بن موسى بن نصير : ٤٩، ٧٤، ٨٣،
 ٨٨، ٩٩، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ٨٨
 ١٠٦، ١٠٧، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١
 ١٢١، ٢٠٨، ٣٠٧، ٣٣٨، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٩٧، ٣٩٨
 ٣٩٩، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٤، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٦، ٤٩٠، ٤٧٦
- عبد الغافر : ٣٢٩
- عبد الغفار : ٣١٩
- عبد الله بن خالد : ٢٠٢، ٣٢٢، ٤٠٦، ٤٩٢،
 ٥١٦، ٥٢٠، ٥٢٢
- عبد الله بن الزبير بن العوام : ٤٢، ٤٦، ١١٥
- عبد الله بن سعد بن أبي السرح : ٤١، ٤٢، ٧٣،
 ٣٥٥، ٤٨٩
- عبد الله بن سقرديد : ١٦١
- عبد الله بن علي (عم السفاح) : ٥١١

- العباس بن باسعة الكلبي : ١٤٣
- عبد الأعلى بن جريح الإفريقي : ١٤٥، ١٤٨
- عبد الجبار : ٨٩، ٥١٤
- عبد الجبار الهواري : ١٦١
- ابن عبد الحكم : ٨٠، ٨١، ١٤١، ٢٢١
- عبد الرحمن الأموي : ٤٩٤
- عبد الرحمن الأوسط : ٢٩٧، ٣٣٠، ٣٧٦، ٤٦١،
 ٥٢٧
- عبد الرحمن الثالث : ٤٢١
- عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة :
 ١٥١، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢
 ١٦٧، ١٧٣، ١٨٥، ٢٩١، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٥
- عبد الرحمن بن رستم : ١٦٣
- عبد الرحمن بن زياد الأحمري : ١٧٣
- عبد الرحمن بن عبد الله العافقي : ١٣٨، ١٤٠،
 ١٦٩، ٢٠٩، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٦، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢١
 ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٤٣، ٢٤٤
 ٢٤٤، ٢٥٠، ٢٦٠، ٢٦٣، ٢٧٣، ٣٢٨، ٤٠١، ٤٧٤،
 ٤٧٧، ٤٩٠، ٤٩١
- عبد الرحمن بن عبيد الله بن الحبحاب : ١٤٥
- عبد الرحمن بن عقبة الغفاري : ١٥١، ١٥٣
- عبد الرحمن بن علقمة اللخمي : ١٨٦، ١٨٨،
 ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٩١، ٣١٣، ٣٢٢
- عبد الرحمن بن عوسجة : ٣٠٨
- عبد الرحمن بن غانم : ٥٢٧
- عبد الرحمن بن كثير اللخمي : ٤٧٨
- عبد الرحمن بن محمد (أمير) : ٥٢٧
- عبد الرحمن بن معاوية (الأمير) : ٤٠٧
- عبد الرحمن بن معاوية الداخل : ٩٢، ١١٣، ١٢٥،
 ١٨٥، ١٨٩، ١٩٨، ٢٠٣، ٢٣٩، ٢٤٠

- ٤٧٤، ٣٣٣، ١٧٠
 - عبيد الله بن عبد الرحمن السلمى: ١٣٨
 - عبيد الله بن عثمان أبو عثمان: ٢٠٢، ٣٢٤، ٤٦٠،
 ٥٢٦، ٥٢٥، ٥٢٢، ٥٢٠، ٥١٩، ٥١٨، ٥١٦
 ٥٣١، ٥٢٩، ٥٢٨
 - عبيد الله بن علي القرشي: ٢٠٢، ٥٢٥، ٥٢٦،
 ٥٢٩، ٥٢٨
 - عبيد الله بن يزيد القرشي: ١١٨
 - أبو عبيد البكري: ٤٢٥، ٤٢٧، ٤٤١
 - أبو عبيد بن سلام (صاحب كتاب الأموال):
 ٣٥٦، ٣٥٢
 - عبيدة بن عبد الرحمن السلمى: ١٣٠، ١٣٨،
 ١٣٩، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤، ١٥٠، ١٦٩، ٢٧٩
 - عبيدة بن عبد الرحمن القيسي: ٢٢١، ٢٣٠
 - أبو عبيدة (حسان): ٤٠٦، ٥٢٢
 - أبو عبيدة بن عقبة بن نافع: ٥١، ١٥٣، ١٥٤
 - عثمان بن أبي عبدة القرشي: ١٠٣
 - عثمان بن عفان: ٤١، ٣٢٦، ٣٣١
 - عثمان بن عقبة بن نافع: ٥١
 - عثمان بن محمد: ٤٩٧
 - عثمان بن أبي نسعة الخثعمي: ١٣٨، ١٩٠، ٢٩٣،
 ٤٧٧
 - أبو عثمان بن عبد الله (شيخ موالى بني أمية): ٣٢٢،
 ٤٠٦، ٤٧٥، ٤٩٢، ٤٩٥
 - ابن عذارى (محمد المراكشي): ٥١، ٥٩، ٦٣،
 ٦٨، ٨٩، ١١٧، ١٢٤، ١٣٢، ١٦٨، ٢٠٧،
 ٢٢٧، ٢٥٩، ٣٤٠
 - عذرة بن عبد الله الفهري: ١٣٦، ٢١٥، ٢١٦،
 ٤٧٧، ٤٢٠
 - ابن عرفة: ٣٦٣، ٣٦٤
 - عمرو بن الزبير الصديق: ٥١٤
- عبد الله بن عمر بن الخطاب: ٤٢، ٣٤٤
 - عبد الله بن عمر الأنصاري: ٥٣٣
 - عبد الله بن محمد أبو العباس: ٥١١، ٥١٢، ٥١٤
 - عبد الله بن مسعود: ٣٦٤
 - عبد الله بن موسى بن نصير: ٤٩، ١١٦، ١١٩،
 ١٤٠، ١٤١، ١٤٢
 - عبد الله بن مسيرة الفهمي: ١٠٤
 - عبد الله بن يوسف الفهري: ٥٢٨، ٥٢٩
 - عبد الله (أمير أندلسي): ١٧٩، ٢٩٢، ٢٩٧،
 ٣٠٥، ٣٨٤
 - أبو عبد الله المقرئ التلمساني: ٣٦٤
 - عبد الملك بن حبيب: ٣٣٩
 - عبد الملك بن أبي عامر المعافري: ٦٧، ٦٨
 - عبد الملك بن عبد الله: ٥٣٢
 - عبد الملك بن قطن بن ثقبلة بن عبد الله الفهري:
 ١٥٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥،
 ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٠، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣،
 ٢٣٨، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٩٠،
 ٢٩١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٨، ٣٢٢، ٤٠١، ٤٠٣،
 ٤٧٤، ٤٧٨، ٥١٣
 - عبد الملك بن مروان: ٤٢، ٤٥، ٤٧، ٤٩، ٩٥،
 ٩٨، ٣٢٦
 - عبد الملك بن موسى بن نصير: ١٤٠
 - عبد الملك بن وهب: ١٣٥
 - ابن عبد المنعم الحميري: ٤٤١، ٤٤٥، ٤٤٦،
 ٤٦٠، ٤٦١
 - عبد المؤمن بن علي: ٢٠
 - عبد الواحد بن يزيد الهواري: ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨
 - عبد الوارث (قائد جند إلياس): ١٦١
 - عبيد الله بن الحجاب: ٤٧، ١٣٢، ١٤٠، ١٤٤،
 ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٦٩

- ابن قتيبة: ٨٣، ٩٧
 - قدامة بن جعفر: ٣٥٦، ٤١٩
 - أبو قرّة المغيلي: ١٥٦، ١٥٧، ١٦٣، ٥١٥، ٥٢١
 - أبو قرّة اليفرنى: ١٦٨
 - الفزويى: ٤٤١
 - قسطنطين: ٣٧٣، ٣٧٥، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٧، ٤٤٦، ٤٢٩

- قسى: ٣٢٥، ٣٣١
 - ابن القطان: ٥١، ٥٩
 - قطن بن عبد الملك بن قطن: ١٨٦، ١٨٧، ١٩٠، ٢٣٨، ٢٩١، ٣١٨، ٣٢٢، ٥٢٠
 - القلقشندي (أحمد بن علي ت ٨٢١هـ): ٤٢٠
 - قنسطنطين الثالث: ٣٨٣، ٤٣٥
 - ابن القوطية (عمد بن عمر ٣٦٧هـ): ٢٣، ٥٨، ٦٥، ١٢٢، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٣، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٦، ٣٦٦، ٣٦٧، ٤٠٥، ٤٦٤، ٤٨٩، ٤٩٢
 - قيرس: ٣٧٨

(ك)

- كاراكالا: ٤٢٤
 - كارولوس = قارله = شارل مارتل
 - كالت: ٢١٣
 - الكاهنة: ٢٢، ٤٦، ٤٧، ١٢٤
 - أبو كريب جميل بن كريب: ١٦٢
 - كسرى: ٤٨٨
 - كسيلة بن ملزم الأوزبي: ٤٤، ٤٥
 - كلثوم بن عياض القشيري: ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٦٧، ١٧٠، ١٧٤، ٣٢١، ٣٢٢، ٥١٣
 - كلوفيس: ١٦
 - كنانة بن كنانة: ٥٢٦، ٥٢٨

- غومس: ٤٢٦
 - ابن غومس: ٤٢٦
 - غيطنة: ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٥٧، ٥٨، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٨، ٧٩، ٨٧، ٩١، ٩٢، ١٠٢، ١٠٣، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٦، ٣٨٢، ٣٧٠، ٣٧٧، ٣٤٦، ٢١٣، ٤٠٠، ٤٠٥، ٤٦٣، ٣٩٨

(ف)

- فافلة (فافيلا) بن بلاى (بلايه): ٢٦٢، ٢٦٣
 - فافلة: ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٨٠، ٢٨٢
 - فايفر بن أودو: ٢٣٩
 - فرتون بن قسى: ٩٥، ٣٢٥
 - ابن القرصى (عبد الله بن محمد ت ٤٠٣هـ): ١٠٠، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٤٤، ٤٩٧
 - فرناندت جرا: ٢١
 - فروليا: ٢٧٩
 - فريدياريوس: ٣٩٩
 - أبو فريفة: ٣٢٣
 - ابن الفقيه (عبد الواحد بن إبراهيم ت ٦٣٦هـ): ٤٢٣

- فلهاوزن: ١٨٤
 - فوتو (راهب): ٤٠٣
 - فيلكس (راهب): ٤٠٣
 - فيليبالدو: ٤٠١
 - فيليكارىوس: ٢٣٦

(ق)

- أبو القائم الهذلي: ١٠٤
 - قارله = شارل مارتل
 - قاسم بن سعدان بن إبراهيم: ٣٢٦
 - ابن قاسم: ٣٠٩، ٣٦٢
 - أبو القاسم = سمو بن رسول

- ماسكرى : ١٦٦
 - ماسونا : ٣٤، ٣٢
 - مالك بن أنس : ٥٠٤، ٣٦٤، ٣٦٣، ٣٦٢، ٣٥٥، ٥٠٦، ٥٠٥
 - المالكى : ٥٠٥، ١٤٣
 - المأمون : ٤١٩، ٣٧٦
 - الماوردى : ٣٥٢
 - ماورنت : ٢٤٧، ٢٣٧، ٢٣١
 - ماوريكيوس (قديس) : ٢٣٦
 - المتوكل (الخليفة العباسى) : ٤٢١
 - محمد بن إبراهيم بن مزين : ٥٠٦
 - محمد بن أحمد بن أبى حشمة : ٥٠٤
 - محمد بن الأشعث : ١٦٣، ١٦٢، ١٦١، ١٦٠، ١٦٧
 - محمد بن إلياس المغيل : ٩٤
 - محمد بن أوس الأنصارى : ١٣٢، ٨٤
 - محمد بن أيوب بن غالب الغزنائى : ٤٢٢، ٢٩٨، ٤٢١
 - محمد (أمير أنطلسى) : ٣٠٥، ٢٩٧، ٢٩٢، ١٧٩، ٤٣٨، ٤٣٧، ٤٢٦، ٣٦٠، ٣٥١، ٣٦٩، ٣٢٨، ٤٧٠، ٤٦٦
 - محمد بن بشر (القاضى) : ٥٠٦، ٣٦٣
 - محمد بن الخوارزمى بن أسد الششى : ٣٦٠، ٣٥٩، ٥٠٠، ٤٩٩، ٤٩٨، ٤٩٧، ٤٩٦، ٣٦٢، ٣٦١، ٥٠٤، ٥٠٦
 - محمد بن زياد الخمس : ٣٦١
 - محمد بن عبد الرحمن الشيبانى : ٥٠٥
 - محمد بن عبد الله الأشجى : ٤٧٧، ١٣٨
 - محمد بن عبد الله القضاعى بن الأبار (ت ٦٥٨هـ) : ٣٤٤
 - محمد بن عبد الملك بن أيمن : ٣٦٢

- كوديرا : ٢١٣، ٥٦
 - كوند : ٢١٣
 (ل)
 - لاترينيداد : ٤٠٨
 - لاس كانخيخاس : ٣٧١
 - لافونتى = مودستو
 - لاوى : ٣٠٨
 - ابن لبابة : ٤٠٥
 - للفريق : ٥٥، ٣٣، ٢٨، ٢٧، ٢٦، ٢٥، ٢٤، ٧١، ٧٠، ٦٨، ٦٥، ٦٤، ٦٣، ٦٠، ٥٨، ٥٧، ٩١، ٩٠، ٨٩، ٨٧، ٨٦، ٧٨، ٧٤، ٧٣، ٧٢، ٣٣٨، ٢٧٣، ٢٦٢، ٢٥٩، ٢٠٨، ١١٧، ١٠٣، ٤٨٠، ٣٩٧، ٣٩٥، ٣٨٢، ٣٥٦، ٣٥٣، ٣٥٢، ٤٩٢
 - لطفى عبد البديع : ٤٤١
 - لوربان : ٤٠٢
 - لوقا التودى : ٢٦٣
 - لوبتراند : ٤٣٤
 - لويس لنبل سنتر : ٤٤٠
 - لياندرو (س) (راهب) : ٣٧٣، ٣٦، ٣٤، ٣٢، ٣٩٣
 - الليث بن سعد : ٥٠٤
 - ليقى يروفنسال = يروفنسال
 - ليوفيجيلد : ١٨
 - ليونتوس : ٤٥
 (م)
 - المافرى : ٣٦٣
 - مارتينه : ٣٨٢
 - مارتيلينو منندزاي بلايو : ٣٧١
 - ماريانا : ٢١
 - ماريادى ألفيشين (قديسة) : ٤٠٠

- محمد بن عبد المعتم الصنهاجى الحميرى : ٤٢٢
 - محمد بن عبيد الله بن الحجاب : ٢٢٧
 - محمد بن عمر بن ليابة : ٣٦٣، ٣٦٠، ٣٥٩
 - محمد بن عيسى الأضى : ٣٦١
 - محمد بن محمد الإدريسى (ت ٥٦٠هـ) : ٤٤٣ ، ٤٥٨
 - محمد بن مزين : ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦
 - محمد بن مسرة : ٤٩٧، ٤٩٨
 - محمد بن موسى : ٣٢٨
 - محمد وضاح : ٣٦٢، ٥٠٤
 - محمد بن وليد : ٤٩٧
 - محمد بن يحيى السبأى : ٥٠٦
 - محمد بن يزيد (مولى قريش) : ١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٤١، ١٤٧
 - محمد بن يوسف القهرى : ٥٣١، ٥٣٣
 - مدرار بن عيسى بن يزيد الأسود : ١٦٤
 - مروان بن الحكم : ١١٥، ٣٢٩، ٥٢٧
 - مروان بن محمد : ١٦٠، ٥١١، ٥١٤
 - مروان بن موسى بن نصير : ٤٩، ٩١، ١١٦، ٤٠٢
 - مسلمة بن زرعة بن روح أبو محمد : ٤٩٨
 - مسلمة بن سوادة القرشى : ١٥٢، ١٥٣
 - مسلمة بن عبد الملك : ١٤٠، ٥١٤
 - مسلمة بن مخلد : ٤٣، ٤٤
 - المسيح عليه السلام : ١٦، ٣٣٧، ٣٧٩، ٣٨٣، ٣٨٥، ٤٠٦، ٤١٠
 - المصعب بن عمران : ٣٦٢، ٣٦٣
 - معاوية بن حديج : ٤٢، ٤٣، ١٤٩، ١٥١
 - معاوية بن أبى سفيان : ٤٢، ٤٣، ١٦٥، ٣٢٧
 - معاوية بن صالح (الحضرمى) : ٣٦٠، ٣٦١، ٥٠٦، ٥٠٥، ٥٠٤، ٤٠٠، ٣٦٢
 - معاوية بن صفوان : ١٥٩
 - معاوية بن هشام بن عبد الملك : ١٥٤، ١٥١
 - المعتصم : ٤١٩
 - مغيث النرومى : ٦٧، ٧٣، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٠
 - مغيث بن مزيان : ٨٢، ٩٣، ٩٥، ٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١٢١، ١٥٤
 - المغيرة بن أبى بردة (القرشى) : ٤٩، ٦٧، ١٤٣
 - المغيل = أبو قررة
 - ابن مفرج : ٤٧٦
 - المقتر : ٤١٩
 - المقدسى (صاحب أحسن التقاسيم) : ٤٢٣، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٥، ٤٤٨، ٤٥٠، ٤٥١
 - المقرئ : ٨٢، ٨٩، ٩٦، ٩٩، ٢١٧، ٢٢٧
 - مكرم بن جبيل : ١٦٢
 - ملته بن لبيطار : ٣٧٠
 - المنذر (أمير) : ١٧٩، ٢٩٢، ٣٠٥
 - المنصور (الخليفة العباسى) : ١٦٣، ٢٠١، ٥١٤
 - المنصور بن أبى عامر : ٢٥٦، ٢٧٤، ٣٠٥، ٣٣١، ٣٢٩
 - منذر بلايو : ٣٧٢، ٣٧٧، ٣٨٠
 - منذر بيدال : ٣٧٣
 - مهاجر بن نوفل القرشى : ٤٩٧، ٤٩٨، ٥٠٣
 - أبو المهاجر دينار : ٤١، ٤٤
 - مهدى بن مسلم : ٣٥٩، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩
 - مهران بن عبد ربه : ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٣٣٠

- النويرى : ١٣٠، ١٥٧، ٤٢٠-

(هـ)

- هارون الرشيد : ٤٢٢-

- هارون القرني (مولى معاوية بن هشام) : ١٥٤،
١٥٥

- هديران الأول : ٣٨٤-

- هرثمة بن أعين : ١٦٤-

- هرقل : ٢٥١-

- هرقلوناس : ٣٨٣-

- هركلاتو : ٢٨٠-

- هشام بن عبد الرحمن بن معاوية (المعروف
بالرضي) : ٩٢، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠١، ٣٤٥،
٥٣٠- هشام بن عبد الملك : ١٢٩، ١٣٠، ١٣٥، ١٣٦،
١٤٠، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٤، ١٥٧،
١٥٨، ٣٢٢، ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٣٩، ٣٩٨، ٤٠١،
٤٠٤، ٤٠٧، ٤٧٤، ٤٩٥

- هلدريك : ٢٠، ٣٧٧-

- الهمفاني : ٤٥٠، ٤٥١-

- هنري بيرين : ٢٥٠-

- هونوريوس بن تيودوسيوس : ١٣-

- الهيثم بن عبيد الكلايين : ٤٧٧-

- الهيثم بن عبيد الله الكنانى : ١٣٨-

(و)

- واجناس = جولد تسير-

- الواقدى : ١١٩-

- واليا : ١٥-

- واميا : ٢٠، ٢١، ٣٧٧-

- وخنشدش : ٣٧٧-

- الوقاص بن عبد العزيز الكنانى : ٢٩٣-

- وقله (أخيلا) : ٢٢، ٢٣، ٧٢، ٧٩، ٩٢-

- مودستو لافونتى : ٩١-

- موسى بن أبى خالد : ١٤٩-

- موسى بن عياض بن عقبة : ٤٩-

- موسى بن محمد بن حدير : ٣٢٩، ٣٣٠-

- موسى بن نصير : ٣٩، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١،

٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢،

٦٥، ٦٦، ٦٧، ٧٠، ٧٣، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠،

٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨،

٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧،

٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٧، ١١١،

١١٤، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٣٣،

١٤٠، ١٤١، ١٥٢، ١٨٧، ٢٠٧، ٢٥٥،

٢٦٠، ٢٦٩، ٢٩٠، ٢٩٦، ٣٠١، ٣٠٧، ٣١٤،

٣١٩، ٣٢١، ٣٢٦، ٣٣١، ٣٤٠، ٣٥٢، ٣٥٣،

٣٥٤، ٣٨٠، ٤٧١، ٤٧٦، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١،

٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٩٠، ٤٩١،

٥١٦

- أم موسى : ٥٢٠-

- مونوس : ٢١٣-

- مونوسة (زعيم البربر) : ٦٧، ٩٦، ٢١٣، ٢١٤،

٢١٥، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣،

٢٦٥، ٢٦٦، ٢٧٣، ٣١١، ٤٠١-

- ميخائيل الغزيرى : ١٠٣-

- ميسرة المظفرى (زعيم البربر) : ١٣٥، ١٣٦،

١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٢، ١٧٣، ١٧٥، ٣١٦،

٣٢٢، ٣٣٨، ٣٥٢، ٤٠٦، ٤٩٢-

(ن)

- النباهى أبو الحسن : ٣٦٣، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٩،

٥٠١، ٥٠٠-

- نصر بن سيار : ١٣٠-

- أبو نصر : ٩٧-

- نعيان بن عبد الله الحضرى : ١٠٠-

- نغزاور : ٣٠٨-

- الأندلس: ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٧٤، ٨٠، ٨٤، ٨٥، ٨٧،
 - أولبيل: ٤٥٨،
 - أونبة: ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٤،
 - أونجا (مغارة القديسة مارية): ٢٦٣، ٢٦٥،
 ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٤
 - ليون: ٢١٠
 - ايبيريا: ١٦، ١٨
 - ايتريوس: ٣٨٤
 - أيجنشات: ٤٠١
 - ايرلنده: ٢٥٠
 - ايرية: ٤٢٦، ٤٢٧
 - ايطاليا: ١٣، ١٥، ٤٧، ٢١٢، ٢٣٤، ٢٤٣،
 ٢٤٤، ٣٩٣، ٤٠١
 - ايفيران يطوف: ٤٤
 - إيلاف: ٤٣٩
- (ب)**
- باب الحديد: ٤٤٥
 - باب تارنا: ٩٦
 - باب عامر: ٤٤٥
 - باب العطارين: ٤٤٥
 - باب القنطرة: ١٢١، ٤٤٥
 - باب اليهود: ٤٤٥
 - باجة: ٨٦، ٨٨، ٨٩، ١٦١، ١٩١، ١٩٢،
 ٢٩٣، ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٨٨، ٣٨٩، ٤٠٧،
 ٤١٠، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٩، ٤٤٢، ٤٤٧، ٤٤٨،
 ٤٥٠، ٤٥١، ٤٦٢، ٤٦٧، ٥١٤
 - بارو (بازو): ٩٥
 - باروشة: ٤٤٣
 - باريس: ٢١٠
 - باطقة: ٤٢٤، ٤٢٩، ٤٣٥، ٤٤٦
 - باغاية: ٤٦٦
- الأندلس: ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٧٤، ٨٠، ٨٤، ٨٥، ٨٧،
 ٨٩، ٩٨، ٩٩، ١٠١، ١٠٢، ١٠٦، ١١١،
 ١١٢، ١١٤، ١١٥، ١١٨، ١٢٢، ١٣١، ١٤٥،
 ١٤٨، ١٥٤، ١٧٥، ٢١٨، ٢٤٢، ٢٤٦، ٣٠٤،
 ٣٥٦، ٣٨٣، ٤٠٣، ٤٢٠، ٤٢٢،
 ٤٢٣، ٤٢٩، ٤٤٠، ٤٤٦، ٤٥٣، ٤٦٣، ٤٨٣،
 ٤٨٩، ٥٠٠، ٥٠٥، ٥١١، ٥١٤، ٥١٧، ٥٣٣
 - أنه: ٤٥٨
 - أنطاكية: ٣٧٨
 - أنكا: ٣١٠
 - أنكوروا: ٢٦٥
 - آه: ١٠٣
 - الأهمواز: ٤٢٢
 - أوتون: ٢١٠، ٢١٨
 - أوجفونة: ٤٤٧
 - أوراس (جبال): ٢٢٢، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧
 - أوزبة (قبيلة): ٤٤
 - أوروبا: ٢٨، ٣٦، ٣٧، ٢٠٣، ٢١١، ٢٤٩، ٣٣٥،
 ٣٦٦، ٣٧٣، ٣٩٣، ٤١٥
 - أوريط: ٣٨٧، ٤٢٦، ٤٢٨، ٤٤٣، ٤٥١، ٤٦١
 - أورويل (جبل): ٤٠٣
 - أوريولة: ٧٤، ٧٩، ١٠٢، ١٠٣، ٣٨٠، ٤٠٤،
 ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٨، ٤٦١
 - أوربة: ٤٢٦، ٤٢٧
 - أوزة: ٢١٠
 - أوسبة (جبل): ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٤
 - أوستراسيا: ٢٢٤، ٢٣٤، ٢٣٨
 - أوسيا (أوسمه): ١٧٨، ٢٨٤، ٣٩١
 - أوقانية: ٤٤٤
 - أوقة: ٣٨٩، ٤٢٦، ٤٢٧
 - أوكا: ١٧٨، ٢٨٤، ٤٠٨
 - أولاليس: ٢٦٦

- بلكونة (حصن): ٤٤٨، ٤٤٩	- بليزوت: ٤٢
- بلنتلة: ١٠٣	- بولندا: ٤١٤، ٤١٥
- بلنسية: ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٤، ٣٤٨، ٣٨٧، ٤٤٢، ٤٣٩، ٤٢٨، ٤٢٦، ٤٢٥، ٣٩١، ٤٤٤، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩	- بون: ٢١٨
- بل (دار): ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٦	- البونت: ٣١٢
- بليارش: ٤٢٦، ٤٢٧	- بونه: ٣٥
- بيلولونه: ٦٥، ٦٨، ١٠٠، ١٧٨، ٢٠٧، ٢١٣، ٢٢٣، ٢٧١، ٢٨٤، ٣٨٩، ٤٠٣، ٤٠٩، ٤٢٦، ٤٢٧	- بيامة: ٣٨٦، ٣٩١، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٩، ٤٤٨، ٤٥٠
- بيزوت: ٩٤	- بيت المقدس: ٤١٠
- بورتو = برطقال	- بيتيس = بيطي
- بواتيه: ١٦، ١٤٠، ٢١٢، ٢٢٦، ٢٢٧	- بيتكا: ١٥، ١٦، ٢٥
- بورجونيا: ٢١٠، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٤، ٢٣١، ٢٣٢	- بيدمت: ٢٣٤
- بوسير: ٥١١	- بيرين: ٤٦١
- بولندا: ٤١٤، ٤١٥	- بيز (كنيسة): ٢١٠، ٢١٨
- بون: ٢١٨	- بيزنطة: ١٨، ٥٦
- البراب (مدينة): ٤٥٨	
- تراجونا: ١٧	
- ترجال: ٤٤٧	
- تسول (قرية): ١٦٤	
- تطيلة: ١٧٨، ٢٥٥، ٢٨٤، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٣٩، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٤، ٤٦٠	
- تلمسان: ٤٤، ١٤٩، ١٦٣، ١٦٧، ١٦٨	
- تلماس: ٩١	
- تنيس: ٤٩٧، ٤٩٨	
- تهودة: ٤٤، ٥١	
- توده: ٢٦٣، ٢٧٣، ٣٨٩	
- بيزو: ٣٨٨	
- بيزيه = بطوش	
- البيضاء: ٤٥٨	
- بيطره: ٤٦١	
- بيطي (بيتكا): ١٤، ١٥، ٦٩، ٣٨٧، ٤٢٤	
- بيفوا: ٤٤٨، ٤٥٠	
- بشر الكاعنة: ٤٧	
(ت)	
- تاجه (نهر): ١٧، ٩٠، ١٧٥، ١٧٨، ٢٠٠، ٢٨٤، ٢٨٥، ٣١٥، ٣١٢، ٣٠٠، ٤٤٥، ٤٠٨	
- تارونا (باب): ٩٦	
- تازا (قرية): ١٦٤	
- تاكرنا: ٣٠٨، ٣١٥، ٣٢٣، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٧، ٥٢٦، ٤٦٢	
- تاهرت: ١٥٥، ١٦٣، ٤٣٩، ٤٥٠، ٥١٥	
- تدمير (مرسية): ١٤، ١٠١، ١٠٢، ١١٤، ١٨٦، ١٩٢، ٢٠٨، ٢٩٣، ٢٩٥، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٨٧، ٤٠٤، ٤٢٥، ٤٣٧، ٤٣٩، ٤٤٢، ٤٤٨، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢	
- التراب (مدينة): ٤٥٨	
- تراجونا: ١٧	
- ترجال: ٤٤٧	
- تسول (قرية): ١٦٤	
- تطيلة: ١٧٨، ٢٥٥، ٢٨٤، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٣٩، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٤، ٤٦٠	
- تلمسان: ٤٤، ١٤٩، ١٦٣، ١٦٧، ١٦٨	
- تلماس: ٩١	
- تنيس: ٤٩٧، ٤٩٨	
- تهودة: ٤٤، ٥١	
- توده: ٢٦٣، ٢٧٣، ٣٨٩	

- جلق (إقليم): ٤٦٢	- تودى: ٤٢٦، ٤٢٧
- جلق (نهر): ٣٠١	- تور: ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٤٣
- جلولا: ٤٢	- تورغة: ١٦٣
- جليقية: ١٧٥، ١٧٢، ٩٦، ٨٦، ٣٢، ١٨، ١٧	- توكنى: ٣٩١
، ٢٦٠، ٢٥٨، ٢٥٥، ٢٠٧، ١٧٨، ١٧٧	- تولوز (طولوشة): ١٣، ١٦، ٢٠٩، ٢١١،
، ٢٧٠، ٢٦٩، ٢٦٨، ٢٦٧، ٢٦٦، ٢٦٤، ٢٦٣	، ٤٢٥، ٤٠٠، ٢٤٣، ٢٤٢، ٢٢٠، ٢١٤، ٢١٢
، ٢٨٣، ٢٨١، ٢٨٠، ٢٧٦، ٢٧٣، ٢٧٢، ٢٧١	- تونس: ٤٣، ٤٤، ٤٧، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨،
، ٣٩١، ٣٩٠، ٣٨٨، ٣١٦، ٣١٢، ٣١٠، ٢٨٥	٥١٤، ٤٩٧، ٣٠٩
، ٤٤٦، ٤٣٥، ٤٢٩، ٤٢٧، ٤٢٥، ٤٢٤، ٤٠٩	- التيتار (نهر): ٩٠
- جوادا ليشي: ٢٥، ٢٩	- تيروال: ٣١٢
- جوادكس (قادش): ١٤	
- جواردا: ٣٠٩	(ج)
- جيان: ١٩٢، ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٨، ٣١٣،	- جادش (قادش): ١٤
، ٤٤٢، ٤٤٠، ٤٣٧، ٤٢٨، ٤٢٧، ٤٠٦، ٣٣٨	- جايون (نهر): ٢٢٣
، ٤٦٧، ٤٦٣، ٤٦٢، ٤٥١، ٤٤٩، ٤٤٨، ٤٤٧	- جاليوش: ٤٢٩
٥٣١، ٥٣٠، ٥١٩، ٥١٧، ٥١٦، ٤٩٣	- جبل أورويل: ٤٠٣
- جيحون: ٤٣٩	- جبل الشارات: ٤٤٦
- جيرييه: ٢٣٠	- جبل طارق (جبر التار): ١٠٠، ٤٤٨
- جينودان: ٢١٦	- جبل موسى: ٨٠
(ح)	- جرنلة: ٣٨٩، ٣٩١، ٤٢٦، ٤٢٧
- الحجاز: ١١٥، ٣٤٧، ٥٠٥	- جرينويل: ٢٤١
- حصن بلكونة: ٤٤٨، ٤٤٩	- الجزائر: ١٥٧
- حصن بيطرة: ٤٦١	- جزول (جبل): ١٦٣
- حصن مراد: ٣٠٥	- جزيرة أم حكيم: ١٧٤، ١٨٧
- أم حكيم (جزيرة): ١٧٤، ١٨٧	- جزيرة جبل طارق: ٤٤٨
- حصن: ١٩٢، ٢٩٤، ٢٩٥، ٤٣٦، ٥٠٥، ٥١٦	- الجزيرة الخضراء: ٦٨، ٧٣، ٧٩، ٨٠، ٨٤،
- الحمه (نهر): ٣٠١	، ٨٥، ٨٧، ١١٤، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥،
(خ)	، ١٨٦، ١٨٧، ٣٩٠، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٥،
- خراسان: ١١٥، ١٣٠، ١٥٤، ١٦٠، ١٨٤،	، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٧، ٤٣٩، ٤٤٢، ٤٥٠، ٤٥٨،
١٨٥، ٤٣٩، ٤٥٣	٤٦٢، ٤٧١
- خشنة: ٤٣٩، ٤٥٠	- الجعز: ٤٤٨، ٤٤٩
	- جكر: ١٨

- خليفونية (مجمع) : ٣٧٨
 - الخندق (بحيرة) : ٦٩
 - خير : ٤٨٧ ، ٤٨٦ ، ٤٧٩
 - خيخون : ٢٧٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٣ ، ٢٥٥ ، ٩٦
- (د)
- أبو دانس (قصر) : ٣١٢
 - دانية : ٤٢٨ ، ٤٢٦ ، ٣٨٧
 - دجلة : ٣٤٦ ، ٥١١
 - دروقة : ٣٠١
 - درعة (نهر) : ٥١
 - الدوراتون (نهر) : ٤٠٩
 - دمشق : ٩٨ ، ٩٧ ، ٩٥ ، ٩٢ ، ٨٠ ، ٧٩ ، ٢٥ ، ١٠٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٢ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٥٠ ، ١٧٨ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢٢٥ ، ٢٣٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٤٠٥ ، ٤٣٦ ، ٤٦٧ ، ٤٧٢ ، ٤٨٩ ، ٤٩٣ ، ٥١١ ، ٥١٦ ، ٥٢٥
 - دلالية : ٣٠٣
 - دوردونى (نهر) : ٢٢٣
 - دوفينية : ٢١٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٧
 - دويره (نهر) : ٢٠٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٤٠٨
 - الدويره (نهر) : ١٧٨
 - دونزير : ٢٣٣
 - ديجون : ٢١٠ ، ٢١٨
 - دير بينيا : ٤٠٣
 - دير المهاجم : ٥١٢
 - دير سان خوان دى لاينيا : ٤٠٣
 - دير لوربان : ٤٠٢
 - دير ماوريكيوس : ٢٣٦
 - دير مونت كاسينو : ٤٠١
- الديغا (نهر) : ٢٦٦ ، ٢٦٥
 - الديورانس : ٢٢٢
- (ر)
- رافنا : ١٣
 - رياح (مدينة) : ٤٥٩
 - رياض الوراقين : ٧٧
 - ريبنة : ٤٣٧
 - ريدانه (نهر) : ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨
 - رعوان : ٨٥
 - رفينة (ريبه، رفينيا) : ١١٧ ، ٣٩٨
 - رفيريا : ٢١٢
 - رقبيل : ٤٤٣
 - ركله : ٤٥٨ ، ٤٦٣
 - رنمة (جبال) : ٣٠٨ ، ٣١٥ ، ٤٦١
 - رنشالة : ٢٢٠ ، ٢٢٣
 - الرها : ٤٠١ ، ٤٠٥
 - رودس : ٢١٦
 - روسيا : ٤١٥
 - روكريريف : ٢١٧
 - رولان : ٢٢٠
 - روما : ١٣ ، ١٦ ، ٧٥ ، ٢٤٩ ، ٣٣٥ ، ٣٨٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٤٠١ ، ٤٣٥
 - الرون (حوض نهر) : ١٤٤ ، ١٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢٢٣ ، ٢١٨ ، ٢٣٤
 - روبرج : ٢١٦
 - ريبا جوزتا : ٢٤٣
 - الرين : ٢٢٠ ، ٢٢٤
 - ريه : ١٩٢ ، ١٩٦ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٢٣ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٧ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٧ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٧ ، ٥٢٢ ، ٥٢٥

سيو (نهر): ١٦٨، ١٦٧، ١٥٣	ريوخه (نهر): ٤٠٩، ١٧٨
سيية (بلدية): ١٥٢	(ز)
سيطة: ٧٣	الزباب: ١١٥، ١٥٦
سجلهاسة: ١٦٤، ٤٣٩، ٤٥٠	الزقاق (بحر): ١٨، ٢٨، ٥١، ٦١
سجوم (مجموعا): ١٥٩، ٥١	زناتة (إقليم): ٤٥٨
سجية: ٣٩١	زويلة: ٤١
سرة: ٤٤٣	زيدون: ٤٥٧
سرقسطة (سرقوسة): ١٠٧، ٩٧، ٩٤، ٥١	(س)
١١٤، ١٧٢، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٩١، ١٩٩	الساوون (نهر): ٢١٠، ٢١٨
٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٢٢، ٢٣٣، ٢٤٢	الساحل: ٤٥٨، ٤٥٩
٢٥٥، ٢٦٨، ٢٨١، ٢٨٤، ٢٩٠، ٢٩١، ٣٠١	سالم (مدينة): ٣١٢، ٤٣٩، ٤٤٣، ٤٤٥، ٤٥٠
٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٩، ٣١٥، ٣٢٦، ٣٤٨، ٣٨٩	٤٥٣، ٤٥٨
٣٩١، ٤٠٣، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٣٩، ٤٤٣	سان أندوش (كنيسة): ٢١٨
٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٥٠، ٤٥٧، ٤٦١	سان بابلو: ٢٧، ٣٥
٤٦٢، ٤٦٣، ٤٩٢، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢١	سان بدرو: ٢٧، ٣٥
٥٢٢، ٥٢٣، ٥٣٣	سان بول تروا: ٢٣٣
سفيليا (إشيلية): ١٤	سان جان (كنيسة): ٢١٨
سلفانيا: ١٧٨، ٢٨٤	سان مارتان (دير): ٢١٨، ٢٢٣
سلمنقة: ٩٠، ١٧٨، ٤٠٨	سان موريتز (دير) = ماوريكيوس
سليط (وادي): ١٧٦	سان نزيير (كنيسة): ٢١٨
سمورة: ١٧٨، ٢٨٤	سانتا أويلياد فيلاينو: ٢٦٢
السند (إقليم): ٤٤٤، ٤٤٦	سانتا كروت (كنيسة): ٢٧٩
سنيرو: ١٧٨	سانس: ٢١٠
السهلة: ٣١١، ٣١٢، ٤٥٦	سيتانية: ١٦، ٢٠، ٢١٤، ٢١٦، ٢١٩
السواق (ناحية): ٩١، ٩٤	٢٢٠، ٢٢٣، ٢٣١، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢
السودان: ٧١، ١٤٥	٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٨، ٤١١
سوسة: ٤٢	سيبة: ٥١، ٥٥، ٥٧، ٦١، ١٥٦، ١٥٨، ١٧٣
السوس: ٥٠، ٥١، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٦٤	١٧٤، ١٧٥، ٢٨٢، ٢٩٠، ٣٠٧، ٥١٣
٣٤٧	سيخة سجوم: ١٥٩
سولفاك (كنيسة): ٢٣٠	سيرت: ١٥١، ١٥٣
سوليو: ٢١٨	

- سيجونثيا : ٣٩١
- سيراد فرانشيا : ٩٠
- سيلبا دل بابا (جبل) : ٦٩
- سيبا نقاس : ١٧٨ ، ٢٨٤
- السين (نهر) : ٢٢٢ ، ٢١١
- سيراد دل رتين (جبل) : ٦٩
- (ش)**
- شانلرو : ٢٢٧
- الشارات (جبل) : ٤٤٦
- شارقة (إقليم) : ٤٥٨
- شازة : ٤٢٧ ، ٤٢٦
- شاطبة : ٣١١ ، ٣٨٧ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٦٢ ، ٤٥٨
- شاقرة : ٤٤٦
- شالون : ٢١٠ ، ٢١٨
- الشام : ١١١ ، ١٣٤ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٧٥ ، ١٨٤ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٤٢ ، ٢٨٢ ، ٢٩٩ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥٨ ، ٣٨٣ ، ٣٩٠ ، ٤٠١ ، ٤٣٠ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٢ ، ٤٥٣ ، ٤٨٩ ، ٤٩٨ ، ٥٠٥ ، ٥١١ ، ٥٢٨
- الشاوية : ١٦٨
- شيرب (إمارة، مملكة) : ٤٠٣ ، ٤٠٩
- شيلار : ٥٣٠
- شبه الجزيرة الأيبيرية : ١١١
- الشحر : ٤٥٩
- شلدونة : ٧٠ ، ٧١ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣١١ ، ٣١٥ ، ٣٢٣ ، ٣٨٧ ، ٣٩١ ، ٤٣٧ ، ٤٤٢ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٥٠١ ، ٤٦٢ ، ٥٢٦
- شرطانية : ٢١٣ ، ٢٤٣
- شريش : ١٢٠
- شريك (شبه جزيرة) : ٤٤٤
- ششلة : ٤٤٦
- شغونسة : ٤٢٦ ، ٤٢٨
- شقر (نهر بلنسية) : ١٨ ، ٣٠٠
- شقندة : ٧٦ ، ١٩٧ ، ٥٢١ ، ٥٢٤ ، ٥٣٠
- شقوية : ١٧٨ ، ٢٨٤ ، ٣١٠ ، ٣٨٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨
- شقورة (نهر مرسية) : ٣٠٠
- شلب = أكشونية
- شلطيانية : ٤٢٦
- شلفيش : ١٢٠
- شلف : ١٥٧ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨
- شلمتقة : ٤٢٧ ، ٤٢٨
- شلمتقة : ٢٨٤ ، ٣٨٨ ، ٤٠٩
- شلون : ٤٤٤ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٣
- شلبية : ٤٥٨
- الشمال الإفريقي : ١١١ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٥٤
- شتيرية : ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ ، ٤٥٧
- شنترة : ٤٢٧ ، ٤٢٨
- شنترين : ١٠١ ، ٢٩٨ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٤٣
- شنترة : ٤٤٨ ، ٤٤٨ ، ٤٦٢ ، ٤٨٠ ، ٤٨٦
- شنت يا قوب (ياقو) : ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨
- الشنيدة : ٤٤٨ ، ٤٤٩
- شنيل (نهر) : ٧٣ ، ٣٠٠
- شيرب : ٤٥٨
- شية : ٤٨٠ ، ٤٨٦
- (ص)**
- صالحة (قرية) : ٣٠٣
- صخرة ملاي : ٩٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦

٤٦٢، ٣١٢، ٣٠٤، ٣٠١
 - طليطة: ٦٠، ٢٩، ٢٥، ٢٤، ١٩، ١٨، ١٧،
 ٨٤، ٨٣، ٨٠، ٧٩، ٧٥، ٧٤، ٧٣، ٧٢، ٦٢
 ، ٩٧، ٩٥، ٩٤، ٩٢، ٩١، ٩٠، ٨٩، ٨٥
 ، ٢٠٨، ٢٠٧، ٢٠٢، ١٧٨، ١٧٥، ١٧٢، ١٢٠
 ، ٢٩٩، ٢٨٤ ، ٢٨٠، ٢٧٣، ٢٦٣، ٢٦٢
 ، ٣٤٤، ٣٤٣، ٣٤٢، ٣١٤، ٣١٢، ٣٠٣، ٣٠١
 ، ٣٨٢، ٣٨١، ٣٨٠، ٣٧٩، ٣٧٦، ٣٧٤، ٣٧٣
 ، ٣٩٩، ٣٩٤، ٣٩٣، ٣٩٢، ٣٩١، ٣٨٦، ٣٨٤
 ، ٤٢٨، ٤٢٦، ٤١١، ٤١٠، ٤٠٧، ٤٠٠
 ، ٤٤٦، ٤٤٥، ٤٤٤، ٤٤٣، ٤٣٩، ٤٣٥، ٤٢٩
 ، ٥٣١، ٥١٩، ٤٦٤، ٤٦٢، ٤٥٠، ٤٤٨، ٤٤٧
 ٥٣٣، ٥٣٢

- طليوشة: ٤٢٧

- طنجة: ١١٨، ٦٤، ٦١، ٥٧، ٥٦، ٥٥، ٥١،
 ١٣٥، ١٤٩، ١٤٨، ١٤٧، ١٤٦، ١٤٥، ١٣٥
 ، ١٦٨، ١٥٦، ١٥٥، ١٥٤، ١٥٣، ١٥٢، ١٥٠
 ، ٤٢٩، ٣٢٠، ٣٠٧، ٢٨٣، ٢٠٠، ١٧٧، ١٧٥
 ٥١٦، ٥١٥

- طولوشة = تولوز

(٤)

- العراق: ١٣٤، ١٣١، ١٣٠، ١١٥، ١١١،
 ٤٥٣، ٣٨٣، ٣٣٦، ٣٢١، ٢٤٢، ١٤٢

- العريش: ٤٩٨

- عقدة الزيتون: ٤٩٢، ٤٩١، ٤٠٦، ١٩٤

- عين الديك (قرية): ٣٤٣

(٥)

- خانق: ٤٤٨، ٤٤٧

- خالة: ١١١، ٩٣، ٣٤، ١٦، ١٥، ١٤، ١٣،
 ١١٤، ٢١١، ٢١٠، ٢٠٩، ١٧٩، ١٤٠، ١١٤
 ، ٢٢٠، ٢١٩، ٢١٨، ٢١٧، ٢١٦، ٢١٤، ٢١٢
 ، ٢٣٠، ٢٢٦، ٢٢٥، ٢٢٤، ٢٢٣، ٢٢٢
 ، ٢٣٩، ٢٣٨، ٢٣٦، ٢٣٥، ٢٣٤، ٢٣٣، ٢٣١
 ، ٢٤٥، ٢٤٤، ٢٤٣، ٢٤٢، ٢٤١، ٢٤٠

٢٧٧، ٢٧٤، ٢٧٣، ٢٧٢، ٢٧٠، ٢٦٩، ٢٦٧
 - الصدف: ٤٥٥
 - صدينة: ٣١١
 - صرت: ١٦٨
 - صفين: ١٩٨، ١٩٧
 - صفلية: ١٦٩، ١٤٧، ٥١، ٤٧، ٤٦، ٤٢،
 ٥٣٣، ٢٤١
 - صمورة: ٤٢٨، ٤٢٧
 - صنهاجة: ٥٠
 - صورية: ٣١٠
 - العين: ٤٥٣

(ط)

- طارق (جبل): ٢٢٥، ٧٩، ٦٨

- طالفة: ٣٩١، ٣٣٨

- طينة: ١٦٨، ١٦٣، ١٥٧، ١٥٦

- طيناس: ٥١٤، ١٦١

- طرابلس: ١٦٦، ١٥٩، ١٥٢، ١٥١، ١٥٠،
 ٥١٤، ٣٠٧، ١٦٨، ١٦٧، ١٦٣

- طرسونة: ٣١٢، ٢٢٠، ٢٠٩، ١٢٥، ١٢٤،
 ٤٦٠، ٤٤٤، ٤٢٧، ٤٢٦، ٣٩٠

- طرسيل: ٧٦

- طرش: ٥٢٣، ٥٢٢، ٤٩٢، ٤٠٦

- طرطوشة: ٤٤٤، ٤٤٣، ٤٢٧، ٤٢٦، ٣٨٩،
 ٤٥٧، ٤٥١، ٤٤٨، ٤٤٥

- طركوتة: ٣٨٩، ٣٨٦، ٣٠٩، ١٠٦، ٩٤، ١٧،
 ٤٤٣، ٤٣٥، ٤٢٩، ٤٢٨، ٤٢٧، ٤٢٦، ٤٠٠

٤٤٦، ٤٤٥

- طريانة: ٤٦١

- طريف (جزيرة): ٦٩، ٦٦

- طشانة: ٥٢٧

- طلييرة: ٢٨٤، ١٧٨، ١٧٥، ١٧٢، ٨١، ٨٠

- فرنسا : ٢٨ ، ٤٧ ، ١٧٩ ، ٢٠٧ ، ٢١٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٩
- فريزيا : ٢٢٠ ، ٢٣١
- فريش : ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩
- فزان : ٤١
- الفسطاط : ٤٥٤
- فقيرة : ٤٥٨
- فلسطين : ١٩٢ ، ٤١٠ ، ٤٣٦ ، ٥١٢ ، ٥٢٦
- الفولجا : ٤١١
- فوييه : ١٦
- فيزيو : ٩١ ، ١٧٨ ، ٢٨٣
- فيين : ٢١٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦
- (ق)**
- قابس : ١٥٦ ، ١٥٢ ، ١٥٣
- قادش : ١٤
- القاسم (إقليم) : ٤٤٦ ، ٤٥٨
- قاليقلا : ٣٢٦
- قانت = لقت
- قبانس : ٤٥٧
- قبانس : ٤٦٣
- قبرة : ٣٠٤ ، ٣١٥ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨
- ٤٣٧ ، ٤٤٢ ، ٤٦٢
- قنتدة : ٤٥٧
- قرصفة : ٢٤١
- قرطاجنة : ١٤ ، ١٥ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧
- ٤٧ ، ١٦٥ ، ٣٨٣ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩١ ، ٤٢٥
- ٤٢٩ ، ٤٤٦
- قرطاية : ٦٨
- قرطية : ١٤ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠
- ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٩
- ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١١٤ ، ١٢٠ ، ١٢١

- ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨
- ٣١٧ ، ٣٤٢ ، ٣٨١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٤٠٣ ، ٤٠٩
- ٤٢٩ ، ٤٣٤ ، ٤٩٤
- غالوش : ٤٢٥
- غرناطة : ٤٤٨
- غرناطة = البيرة
- غسقونية : ٢٢٣
- غلثار : ٤٥٨
- غلواذه : ٤٥٧
- غهارة : ٥١
- غناة عبس : ٥٠٥
- (ف)**
- فارس : ٨٢ ، ٩٨ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٣١ ، ٢٤٥
- ٣٢١
- فارة : ٤٤٤
- فاس : ٣٤٧ ، ٣٦٤
- فالانس : ٢١٠ ، ٢٣٣
- فالموشا (نهر) : ٩٠
- فاليا دوليد : ٩٥
- فاندالوسيا (الأندلس) : ١٤
- الفنتل : ٤٥٦
- فنج بذره : ٤٥٧
- فنج ابن لقيط : ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩
- فنج المائدة : ٤٧٤
- فنج موسى : ٩٧
- فحص البلوط : ٤٣٧ ، ٤٤٨ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤
- فحص شاطية : ٤٥٨
- فذك : ٤٨٧
- القران : ٤٣٦ ، ٥١٢
- فرنا : ٢٣٢

- قطليرة: ٤٧	١٨٦، ١٧٥، ١٧٤، ١٧٢، ١٢٥، ١٢٤، ١٢٣
- قطلونية (إمارة): ٤١٣، ٣١٤، ٢٤١	١٩٥، ١٩٤، ١٩١، ١٩٠، ١٨٩، ١٨٨، ١٨٧
- قلبيرة: ٤٥٨	١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٨
- قلسانة = شذونة	٢١١، ٢٢٥، ٢٣٨، ٢٥٦، ٢٦٣، ٢٦٩، ٢٧٣
- قلعة أيوب: ٢٠٨، ٣٠١، ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٥٤	٢٧٧، ٢٨٢، ٢٩٠، ٢٩٨، ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٤
٤٦١، ٤٥٩	٣٠٥، ٣٢٣، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٤٨
- قلعة حزم: ٤٩٣، ٤٠٦، ٣٣٨	٣٦٣، ٣٦٤، ٣٨٠، ٣٨٤، ٣٨٧، ٣٩١، ٣٩٠
- قلعة خولان: ٣٠٣	٣٩٢، ٣٩٣، ٤٠٥، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٩
- قلعة رباح: ٣٠٣، ٣٠١، ٤٣٧، ٤٤٣، ٤٤٥	٤٤٠، ٤٤٣، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩
٤٦١	٤٥٠، ٤٥٤، ٤٥٨، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٧، ٤٧١
- قلعة بنى سعيد: ٣٠٥	٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٦، ٤٨٣، ٤٨٥، ٤٨٩، ٤٩١، ٤٩٢
- قلعة بحصب = قلعة بنى سعيد	٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٤، ٥١٨
- قلمرية: ١٠١، ١٠٦، ١٧٨، ٢٤٦، ٢٨٤، ٢٩٨	٥١٩، ٥٢١، ٥٢٤، ٥٢٧، ٥٢٩، ٥٣٠
٣٨٨، ٣٩١، ٤٠٢، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٤٣	٥٣١، ٥٣٢
٤٦٢، ٤٤٨	- قرطمة: ٤٤٣
- قلتيرية: ٤٨٠، ٤٨٦	- قرقنونة: ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٩
- قلنيرة: ٣٠٨، ٣١٢، ٥٢٧	٣٩٠، ٤٢٥، ٤٢٧
- قلنيرة: ٢٥٥، ٣٨٩، ٣٩١، ٤٠٩، ٤٢٧، ٤٢٦	- قرمونة: ٨٥، ٣٠٤، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٧، ٤٤٢
٤٤٤	٤٤٧، ٤٤٨، ٤٦٢
- قمونية (إقليم): ٤٣، ٤٢	- القرن: ٤٢، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٧
- قباناش: ٤٤٥، ٤٤٨، ٤٤٩	- قسطانية: ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٥٨
- قبانية: ٤٤٩، ٤٥٠	- قسطلة: ٤٤٥، ٤٤٨، ٤٤٩
- قنتش: ٤٥٧	- قسطلونة: ٣٨٧، ٤٢٦، ٤٢٨
- قسرين: ١٨٨، ١٩٢، ٢٠٢، ٢٩٣، ٢٩٤	- قسطليون: ٣٠٩
٤٣٦، ٥١٦، ٥٢٢، ٥٢٥	- القسطنطينية: ٩٣، ١٤٠، ٣٧٨، ٣٨٣
- القواصم = القواسم (إقليم): ٤٥٨	- قسطنطية: ٤٦
- قورية: ١٧٢، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٨، ٢٠٠، ٢١٧	- قشتالة: ١٧، ٨٩، ٩٠، ٩٥، ١٠٦، ١٢٠
٢٦٨، ٢٨٠، ٢٨٣، ٢٨٤، ٣١٢، ٣٨٨، ٣٩١	٢٦٤، ٣٤٣، ٣٩٤، ٤٠٩، ٤١٣
٣٩٢، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٤٧، ٤٤٨	- القصب: ٤٥٤
- قونقه = كونكه: ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٩١	- قصر أبي دانس: ٣٠٨
- القبروان: ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٨، ٥٠، ٥١، ٥٧	- قصر عباد: ٤٥٧
	- قصر مضى: ٣١١

- كنيسة شنت مربة غراتية : ٤٢٥
- كنيسة شنت ياقب : ٤٠٨
- كنيسة القديس بخت أوبزنت : ٤٠٥
- كنيسة لاتريبيداد : ٤٠٨
- كنيسة الماء : ٣٩٨
- كوكا دونجا (واقعة) : ٢٥٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨
- الكوفة : ٣٦٤ ، ٤٥٤ ، ٥١١
- كوكه = قونقه

(ج)

- لاختندا = الخندق (بحيرة)
- لاردة : ٩٤ ، ١٧٠ ، ٢٥٥ ، ٢٨٠ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣٨٩ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧
- لافيليا : ٧٧
- لانجدوك : ٢٣١
- لانجر : ٢١٠
- ليايه : ٤٥٨
- لبله : ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨
- ٤٦٢
- لبيرة : ٤٥٠
- لدسا : ١٧٨ ، ٢٨٤
- لشبونة : ٤٤٣ ، ٤٦٢
- لشمانية = لوزيتانيا = برتغال
- لشطان : ٥٢٧
- لفتت : ٨٦ ، ١٠٣ ، ٣٠١ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٥٢٢
- ابن لقيط (مرج) : ٤٤٩
- لك (قلعة) : ٩٦ ، ٩٧ ، ٢٠٧ ، ٢٥٥ ، ٣٨٩
- ٣٩٢ ، ٤٠٨
- لكه (وادي) : ٥٩ ، ٦٩ ، ١١٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧
- لوانة : ٤٤٤ ، ٤٤٦

- ٦٥ ، ٦٦ ، ١١٩ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٨٦ ، ٣٠٩ ، ٤٣٩ ، ٤٥٠ ، ٥١٣
- قشاة : ٤٦١

(ك)

- كازنوار : ١٦٥
- كاساس فيجاس (قرية) : ٧٠
- كانجا دي أوفيس : ٢٧٣
- كانجاس : ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٧٩
- كانيكاس = كانجاس (بلدة)
- كتلونيا = قطلونية
- كرتاجونوفا = قرطاجنة
- كرتش : ٤٥٥
- كردوبا = كردوفا = قرطبة
- كركي : ٤٥١ ، ٤٦١
- كش : ٤٣٩
- الكلت : ٤٢٧
- كنانة (إقليم) : ٤٥٨
- كنتيرية (جبال) : ٩٥ ، ٢٣٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٧٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨١
- ٣٨٢ ، ٤٠٣
- كنيسة أبط : ٤٠٧
- كنيسة جميع القديسين : ٣٩٩
- كنيسة الذهب : ٤٢٦ ، ٤٢٧
- كنيسة سان أنطون : ٤٠٨
- كنيسة سان بلاس : ٤٠٨
- كنيسة سان خيل : ٤٠٨
- كنيسة سان ماركوس : ٤٠٨
- كنيسة سان فيستت : ٤٠٨
- كنيسة سانتا ماريا دلوس هويرتوس : ٤٠٨

المجشر: ٤٩٢ -	اللووار (نهر): ٢٢٦، ٢٢٥، ٢٢٤، ٢٢٣، ٢١١ -
مجلونة: ٤٢٥، ٣٩٠، ٢٤٢، ٢٣٩، ٢٣٨، ٢٣٥ -	لودون: ٢١٨ -
٤٢٧	لورقة: ٤٢٥، ١٠٣ -
المحيط الأطلسي: ٤٠ -	لورة: ٤٥٥ -
مخاضة الفتح: ٥١٩ -	ليانا: ٢٨٦، ٢٨٥، ٢٧٩، ٢٧٤، ٢٦٦، ٢٦٥ -
مدلين: ٣١١ -	ليبة (ليبا): ٣٤٧، ٢١٣ -
المدقور: ٤٩٢، ٤٥٤، ٤٠٦ -	ليته (وادي): ٦٩ -
مريبطر: ٤٥٨ -	ليدن: ٤١٩ -
مرج راهط: ٥٢٧، ١٣٦، ١٣٠ -	ليفليه: ٢١٦ -
مرج ابن لقيط: ٤٤٩ -	ليموزين: ٢٣٠ -
المرج (إقليم): ٤٤٦، ٤٤٤ -	ليون: ٢١١، ٢١٠، ٢٠٧، ١٧٨، ٩٧، ٩٥ -
مرسى المرية: ٤٦٣ -	٢١٧، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٤٢، ٢٦٥، ٢٨٤، ٢٨٥ -
مرسى بجانة: ٤٦٣ -	٤١٣، ٤٠٨، ٣٩٤، ٣٩٢ -
مرسى تونس: ٤٦٣ -	(م)
مرسى الخزر: ٤٦٣ -	مارتش: ٤٥٠، ٤٤٩، ٤٤٨، ٤٤٥ -
مرسى الدجاج: ٤٦٣ -	ماردة: ٣٢، ٣٤، ٨١، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩ -
مرسى موسى: ٨٥ -	٩٠، ٩٤، ١٢٣، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٧، ١٨٦ -
مرسيليا (مرسيلية): ١٥، ٢٣١، ٢٣٧، ٢٤٧ -	١٨٨، ٢٠٠، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩١ -
مرسية = تدمير	٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣٢٦، ٣٥٤، ٣٨٨، ٣٨٦ -
مرشانة: ٤٢٧، ٤٢٨ -	٣٩١، ٣٩٢، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٤٠، ٤٤٢ -
مرطانية الطنجية: ٥٦ -	٤٤٦، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٦٢، ٤٨٦، ٥٢٧، ٥٣١ -
مرية: ٤٤٨ -	٥٣٢
مسيل: ٤٥٨ -	ماسيليا = مرسيليا
المصارة: ١٨٩، ٢٣٨، ٢٩٢، ٥٢٧، ٥٢٩ -	ماكون = ٢١٠، ٢١٨ -
مصر: ٣٢، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٥٩، ٧٣، ٩٧ -	مالقة: ٧٣، ٧٤، ١٠١، ١٠٦، ١٩٢، ٣٠١ -
١١١، ١١٣، ١١٥، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥ -	٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣١٤، ٣٨٨، ٣٩١، ٤٣٩ -
١٥٠، ١٥٧، ١٩١، ٢١٨، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٥ -	٤٤٨، ٤٥٠، ٤٦٢ -
٢٩٣، ٣٠٧، ٣٣٦، ٣٤٧، ٣٥٥، ٣٧٨، ٣٧٩ -	المالدة (بلدية): ٧٥، ٨٤، ٨٤، ٣١٣، ٣٨٧، ٣٩١ -
٣٨٠، ٣٨٣، ٣٩٠، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٤، ٤٢٠ -	٤٤٨
٤٢٢، ٤٤٢، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٧، ٤٦٧، ٤٧٠ -	المتانية: ٣١١ -
٤٧١، ٤٨٩، ٤٩٤، ٥٠٠، ٥٠٥، ٥١١ -	مجانة: ١٥٦ -
	مجريط: ٤٦١ -

٣١٢ - المنيو (نهر) :	٥١٢
٤٥٤ - المهديّة :	مصمودة : ٤٥٨ ، ١٤٦
٢٢٨ - مواسيك :	المعرض (اسم مكان) : ٩٠
٤٥٧ - مواله :	مغارة القديسة مارية (مغارة أونجا) : ٢٦٥
٤٤٦ ، ٤٤٤ - موالى موسى (إقليم) :	المغرب : ٤٩ ، ٤٨ ، ٤٥ ، ٤٣ ، ٤٢ ، ٤٠ ، ٣٩ ، ٤٩ ، ٤٨ ، ٤٥ ، ٤٣ ، ٤٢ ، ٤٠ ، ٣٩ ، ٥٩ ، ٦٥ ، ٩٩ ، ١١١ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٨٥ ، ٢٤٢ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٣٦ ، ٣٥٦ ، ٣٦٤ ، ٣٩٨ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤٣٩ ، ٤٦٣ ، ٤٦٦ ، ٤٧١ ، ٤٧٤ ، ٤٨٩ ، ٤٩٧ ، ٥١٣ ، ٥٠٥ ، ٤٩٧
١٠٣ - مولة :	المغرب الأقصى : ١٦٤ ، ١٤٨ ، ٥٨ ، ٣٩ ، ٢٨ ، ٣١٦
٢٨٤ - ميراندا : ١٧٨ ، ٢٨٤	المغرب الأوسط : ١٦٤ ، ١٦٣ ، ١٤٦ ، ٤٤ ، ٢٢ ، ٣١٦ ، ٣٠٧ ، ١٦٥
٣٧١ - ميلان :	مقلونة = مجلونة
(ن)	مكانة : ٥١٥
٤٤٤ - ناجره :	ملوية (نهر) : ١٦٤ ، ١٥٥
١٦ - ناربو نسس :	مليلة : ٤٥٧
٩٦ - النالون (نهر) :	ممس : ٤٥
٤٠٣ ، ٣٩٤ ، ٢٤٣ ، ٢٣٩ ، ٢٣١ - نبرة = نافر :	متينة : ٤٢٧ ، ٤٢٨
٤٢٨ ، ٤٠٩	متيشة : ٣٨٧ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠
٢٥٥ - نخرة :	منجبار : ٧٤
٤٣٥ ، ٤٢٩ ، ٤٢٨ ، ٤٢٧ ، ٤٢٥ ، ١٦ - نربونة :	المنديجو : ١٧٨
٤٤٦	مريسا : ٢١٣
١٥٩ - نقراوة :	منزل طي : ٣٠٥
٤٤٧ ، ٣٩٨ ، ٦٦ - نفزة :	منزل همدان : ٣٠٥
نقدورة = بقدورة	المنشا : ١٧
٤٥٧ - نهر ابره :	المنكب : ٥٢٢
٣٠٩ - نهر الأشقر :	المنهو (نهر) : ٢٨٠ ، ١٧٨
٤٠٩ - نهر التاجه :	منياة : ٤٥٥
٤٠٩ - نهر الدوراتون :	المنيرة : ٤٥٨
٤٠٩ - نهر دويره :	
٤٥٧ - نهر شلون :	

- ٤٣٩، ٤٢٨، ٤٢٦، ٣٤٢، ٣١٢، ٣١١، ٣٠١
٤٦١، ٤٥٠، ٤٤٧، ٤٤٦
- وادي الردهان: ٢٢٣
- وادي الرمان: ٤٤٩
- وادي سليط: ٢٨٢، ١٧٧، ١٧٦
- وادي شربنة: ٥٢٣
- وادي شوش (شوس): ٤٧٤، ٤٠٦، ٣٣٨، ٤٩٢
- وادي عبد الله: ٤٤٩، ٤٤٨
- وادي لكه: ٤٨٥، ٣٠٠، ١٩٥، ١١٤
- وادي المستعربين: ٣٤٤
- الوادي الأبيض: ٣٠٠
- الوادي الكبير: ٣٠١، ٣٠٠، ١٩٧، ١٧٤، ٥٢٨، ٥٢٧، ٤٨٦، ٤٨٥، ٤٧٦
- الواديانة: ٣٠٠
- واسط: ٤٥٤
- وايه الشعراء: ٤٥٦
- وايه الملاحة: ٤٥٦
- ريدنة: ٣١١
- ودان: ٤١
- وشقة (أشقة): ٤٤٤، ٤٣٩، ٣٨٩، ٣١٢، ٩٤، ٤٦٢، ٤٥٠، ٤٤٥
- وقش: ٤٤٦
- الوليد (بلد): ٣٠٩
- وهران: ٣٠٩
- (٥)
- بايرة: ٤٢٨، ٤٢٧، ٣٨٨، ١٠١
- يابسة = يباسة
- الينس: ٤٩٢، ٤٥٩، ٣٤٧، ٣٠٤، ٢٩٥، ١٨٤، ٥٣٠، ٥٢٦، ٥٢١، ٤٩٣

- نهر شليقة: ٤٥٧
- نهر موسى (فالوتا): ٩٠
- النهر وان: ١٣٥
- نويه: ٤٥٧
- التوية: ١١٢
- نوستراسيا: ٢٢٠
- نومشو: ٤٢٧، ٤٢٥
- نيس: ٢٤١
- نيقية (جمع): ٣٧٨
- نيم: ٢٠
- نيمه: ٢٠، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٤، ٢٣٥، ٣٩٠، ٢٤٢، ٢٣٩، ٢٣٨
- نينى (نهر): ٤٦
- (هـ)
- هانيبال (طريق): ٧٤
- هدنة: ١٦٨، ١٦٣
- اطرهاز: ٤٥٦
- هسباليس (ثيبيلية): ١٤
- هسانيا: ١٦
- هنارس (قلعة): ٧٥
- اخند: ٤٨٧، ٣٩٠، ٣٦
- هيطل: ٤٤٨، ٤٣٩
- (و)
- وادي آش: ٣٩٣، ٣٩١، ٣٨٦، ٣٠٢، ١٢٠، ٤٢٨، ٤٢٦، ٣٩٩
- وادي آنه: ٤٨٦، ٩٠، ٨٦
- وادي ابره الأوسط: ٣٠٠
- وادي الأروكامبو: ٩٠
- وادي البرباط: ٢٨٣، ٢٠٠، ١٧٧، ١١١
- وادي الحجارة: ٢٨٤، ٢٠٧، ١٧٨، ٩٤، ٧٥

فهرس التوارىخ المىلادىة

٣٤:م٦٠٣-	٢٠٦ قبل المىلاد: ٤٢٤-
٢٠:م٦١٢-	٢٧ قى.م: ٤٢٤-
٤١١:م٦١٣-	٧٠:م٤١٠-
٢٠:م٦٢١-	٣٧١:م٢٨٠-
٣٧٣:م٦٢٣-	٤٣٠، ٤٢٩:م٢٩٧-
٨٨٣:م٦٤١-	٣٧١:م٣٠٠-
٤١، ٣٩:م٦٤٢-	٣٧١:م٣١٢-
٤٢:م٦٤٧-	٣٧١:م٣٣٦-
٤٢:م٦٤٨-	٤٢٩:م٣٧٠-
٢٠:م٦٤٩-	١٣:م٣٩٥-
٣٨١:م٦٥٣-	٤٢٩:م٤٠٠-
٤١:م٦٥٤-	١٣:م٤٠٨-
٤٢:م٦٦٥-	١٣:م٤١٠-
٤٢:م٦٦٦-	١٤:م٤١١-
٤١:م٦٦٨-	١٣:م٤١٦-
٤٣، ٤١:م٦٦٩-	١٣:م٤١٨-
٤٣، ٤١:م٦٧٠-	١٤:م٤٢٩-
٢٠:م٦٧٢-	١٥:م٤٦٧-
٤٣:م٦٧٤-	١٥:م٤٧٦-
٤٣:م٦٧٥-	١٦:م٥٠٧-
٢٠:م٦٨٠-	١٨:م٥٥٤-
٣٨١، ٤١:م٦٨١-	١٨:م٥٦٨-
٤٤:م٦٨٢-	٣٤:م٥٧١-
٥٧، ٤٤:م٦٨٣-	١٨:م٥٨٦-
٤٤:م٦٨٤-	١٨:م٥٨٧-
٤٥:م٦٨٨-	٣٧٩، ٣٧١:م٥٨٩-

٤٧٧، ٢٢٠، ٢١٧، ١٣٨: م٧٣٠-	٤٥: م٦٨٩-
٣٢٩، ٢٧٣، ٢٧١، ٢٦٣: م٧٣١-	٤١١: م٦٩٤-
٤٧٤، ٢٢٩، ٢٢٣، ٢٢١، ١٦٩، ١٤٤: م٧٣٢-	٤٥: م٦٩٥-
٤٧٨، ٤٧٧	٢١: م٧٠٠-
١٤٤: م٧٣٣-	٤٧: م٧٠١-
٥٠٢، ٤٧٨، ٤٠٢، ٢٧٣، ١٦٩، ١٤٤: م٧٣٤-	٥١: م٧٠٢-
٢٢٢: م٧٣٥-	٤٥: م٧٠٥-
٢٧٢، ٢٧٠، ٢٦٢، ٢٣٤: م٧٣٧-	٤٨: م٧٠٦-
٢٦٢: م٧٣٨-	٣٩، ٢٣: م٧٠٨-
٢٨٥، ٢٧٩، ٢٣٧، ١٤٨، ١٤٧: م٧٣٩-	٥٧، ٢٣: م٧٠٩-
٢٠٩، ١٤٩، ١٤٨: م٧٤٠-	٦٦، ٦٢، ٢٥: م٧١٠-
١٨٦، ١٧٦، ١٧٤، ١٥٧، ١٥٢، ١٥٠: م٧٤١-	٤٧٦، ٢٨٩، ٧١، ٦٧، ١٩: م٧١١-
٤٧٨، ٤٠١، ٢٩١، ٢٩٠، ٢٨٢، ٢٧٣، ٢٣٨	٤٧٦، ٨٤: م٧١٢-
٥٠٢	٤٧٦، ١١٦، ١٠٦، ١٠١، ٨٦: م٧١٣-
٤٧٨، ٢٩٢، ١٦٧: م٧٤٢-	١٤٢، ١٠٦، ١٠١، ١٠٠، ٩٧: م٧١٤-
٢٦٩، ١٩٠، ١٦٧، ١٥٨، ١٤٤، ١٢٩: م٧٤٣-	١٤١، ٩٧: م٧١٥-
٤٧٨، ٤٧٤، ٤٣٦، ٤٠٤، ٤٠١، ٢٩١،	٤٧٧، ٤٧٦، ٤٧١، ٤٠٢، ٢٩٠، ١٢١: م٧١٦-
١٥٨: م٧٤٤-	٢٧٣، ٢٧٠، ٢٦٩، ١٢٢، ١٢١: م٧١٧-
٤٧٨، ٤٧٤، ١٩٥، ١٥٩: م٧٤٥-	٤٨٢، ٢٧٢، ٢٧٠، ٢٦٩، ٢٦٣: م٧١٨-
٤٧٨، ٢٦٩، ٢٢٩: م٧٤٦-	٤٧١، ٣٤٠، ٢٧٣، ١٢٢، ١٢١، ٩٢: م٧١٩-
٤٧٨، ٤٠٥: م٧٤٧-	٤٧٧
٤٠٥، ١٧٧: م٧٤٨-	١٤٢، ١٤١، ١٢٩: م٧٢٠-
٥١١، ٢٠٠، ١٦٠: م٧٤٩-	٢١٢، ٢٠٩، ١٤٢، ١٤١، ١٢٩، ١٢٥: م٧٢١-
٤٠٨، ٢٧٢، ٢٧١، ٢٦٩، ١٦٠: م٧٥٠-	٤٧٧، ٢٧٠
٢٨٢، ٢٧٢، ٢٧١، ٢٦٩، ٢٢٩، ١٧٨: م٧٥١-	١٤٤، ١٢٩: م٧٢٤-
٤٥١، ٢٨٥، ٢٧٩، ٢٢٩، ١١٥، ١١٧: م٧٥٢-	٢٧٠، ٢١٧، ٢١٦، ٢١١: م٧٢٥-
٥١٥، ١٧٨، ١٦٢: م٧٥٣-	٤٧٧، ٢١٦، ٢١١، ١٣٠، ١٢٩: م٧٢٦-
٢٨٣: م٧٥٤-	١٤٣: م٧٢٧-
٥٢١، ٤٠٨، ٢٠٠، ١٦٠: م٧٥٥-	٤٧٧، ٢١٦، ١٤٣: م٧٢٨-
٢٨٩، ٢٨٤، ٢٨٠، ٢٦٩، ١٦٠، ١١٣: م٧٥٦-	٤٧٧: م٧٢٩-

١٦٣:م٨٥٩-	٥٣١,٥٣٨,٥٣٧,٥٣٦,٤٧٨
٤٥٠:م٨٩٠-	٣٨٥,١٦٧,١٦٤,١٦٣,١٦٠:م٧٥٧-
٢٨٩:م٩٢٩-	٢٤٠,١٦٧,١٦٤,١٦٣:م٧٥٨-
٤٥٠:م٩٨٥-	٢٤١,٢٤٠:م٧٥٩-
٤٠٢:م١٠٥٨-	٢٨٥:م٧٦٠-
٤٩٤:م١٠٧٧-	١٦٣:م٧٦١-
٣٩٤:م١٠٧٨-	١٦٨,١٦٠:م٧٦٥-
٤٢٢,٣٩٤,٣٤٢:م١٠٨٥-	١٦٠:م٧٦٦-
٤٢٢:م١٠٩٤-	١٦٨:م٧٧٠-
٣٤٢:م١١١٨-	١٦٨:م٧٧١-
٣٤٢:م١١٢٣-	١٦٤:م٨٠٠-
٣٤٢:م١١٤٦-	١٦٨:م٨٠١-
٤٢٢:م١٢٨٦-	٤٥٠:م٨٤٤-
٤١٩:م١٨٨٩-	٤٥٠:م٨٤٨-

فهرس التواريخ الهجرية

٤٧٦، ٨٤ : ٩٣ هـ -	٤١، ٣٩ هـ - ٢١
١٠٦، ١٠٤، ٨٦ هـ ٩٤ -	٤٦ هـ - ٢٧
٤٧١، ١١٦، ١٠٦، ١٠٢، ١٠٠، ٩٧ هـ ٩٥ -	٤٢، ٤١ هـ - ٢٨
٤٧٦	٤١ هـ - ٣٥
١٤٢، ١٠٦ هـ ٩٦ -	٤٢ هـ - ٣٨
٧٧، ٢٩٠، ٢٧٣، ١٤١، ١٢١، ٩٩، ٩٣ هـ ٩٧ -	٤٢ هـ - ٤٤
٤٧٧، ٤٧٦، ٤٧١	٤٢، ٤١ هـ - ٤٥
٢٦٩، ٢٦٣ هـ ٩٨ -	٤١ هـ - ٤٨
٢٦٩، ١٢٢، ١٢١، ٩٩ هـ ٩٩ -	٤٣، ٤١ هـ - ٤٩
٢٧٣، ٢٦٩، ٢٠٩، ١٢٢، ١٢١ هـ ١٠٠ -	٤٣ هـ - ٥٢
٤٨٢، ٤٧٧، ٤٧١، ٣٤٠	٤٣ هـ - ٥٥
١٠١ هـ ١٠١ -	٤٤ هـ - ٥٩
٢١٢، ٢٠٩، ١٤٢، ١٢٩، ١٢٥، ١٢٤ هـ ١٠٢ -	٤٤ هـ - ٦٠
٤٧٧	٤٤ هـ - ٦٢
٤٧٧، ١٣٦، ١٢٩ هـ ١٠٣ -	٥٧ هـ - ٦٣
١٤٤، ١٢٩ هـ ١٠٥ -	٤٥ هـ - ٦٩
٤٧٧، ٢١٧، ٢١٥، ٢١١، ١٣٦ هـ ١٠٧ -	٤٥ هـ - ٧١
١٤٣، ١٣٠، ١٢٩ هـ ١٠٩ -	٤٥ هـ - ٧٦
٤٧٧، ٢١٥، ١٣٦ هـ ١١٠ -	٤٨، ٤٧ هـ - ٨١
٤٧٧، ١٣٨ هـ ١١١ -	٤٥ هـ - ٨٥
٤٧٧، ٢٢٠، ٢١٧، ١٣٨، ١٢٩ هـ ١١٢ -	٤٨ هـ - ٨٦
٣٢٩، ٢٧٣ هـ ١١٣ -	٥١ هـ - ٨٧
٢٢٧، ٢٢١، ١٦٩، ١٤٤، ١٤٠ هـ ١١٤ -	٥٦ هـ - ٨٩
٤٧٨، ٤٧٧، ٤٧٤، ٢٢٩، ٢٢٨	٩٢، ٣٩ هـ - ٩٠
٢٢٨، ٢٢٧ هـ ١١٥ -	١٠٥، ٦٦ هـ - ٩١
٤٧٨، ٢٧٣، ٢٥٩، ١٦٩، ١٤٤ هـ ١١٦ -	٤٦ هـ - ٩٢
٥٠٢	٤٧٦، ٢٨٩، ١٠٦، ١٠٥، ٧١، ٦٧ هـ - ٩٢

١٣٧- هـ: ٥١٩	١٢١- هـ: ٢٧١، ٢٥٩
١٣٨- هـ: ١١٣، ١٦٠، ٢٦٩، ٢٨٤، ٢٨٩	١٢٢- هـ: ١٤٧، ١٤٨، ٢٦٩
١٣٩- هـ: ٥٠٨، ٤٧٨، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٦، ٥٢٨، ٥٢٧	١٢٣- هـ: ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٧٠، ١٧٤
١٤٠- هـ: ١٦٠، ١٦٣، ١٦٤، ٢٤٠	١٢٤- هـ: ١٨٦، ٢٣٨، ٢٧٣، ٢٨٢، ٢٩٠، ٢٩١، ٤٧٨
١٤١- هـ: ١٦٣	١٢٥- هـ: ١٥٦، ١٥٧، ١٧٦، ٢٨٢، ٢٩٢
١٤٢- هـ: ٢٨٥	١٢٦- هـ: ٤٣٦، ٤٧٨، ٤٧٤
١٤٤- هـ: ١٦٣	١٢٧- هـ: ١٥٨، ١٤٤، ١٢٩، ١٩٠، ٢٩١
١٤٨- هـ: ١٦٠	١٢٨- هـ: ١٥٨
١٨٠- هـ: ١٦٤	١٢٧- هـ: ١٥٩، ١٩٥، ٤٧٤، ٤٧٨
١٨٤- هـ: ١٦٤	١٢٩- هـ: ٢٣٩، ٢٦٩، ٤٧٨
٢٣٠- هـ: ٤٥٠	١٣٠- هـ: ٤٠٥
٢٣٤- هـ: ٤٥٠	١٣١- هـ: ٢٠٠، ٤٠٥
٢٧٦- هـ: ٣٤٤	١٣٢- هـ: ١٦٠، ٥١١
٣١٦- هـ: ٢٨٩	١٣٣- هـ: ٢٣٩، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩
٤٧٨- هـ: ٤٢٢	١٣٤- هـ: ٢٧١، ٢٧٢، ٢٨٢، ٢٨٣، ٤٠٨
٤٨٧- هـ: ٤٢٢	١٣٥- هـ: ١٧٨، ٢٣٩، ٢٨٠
٦٨٥- هـ: ٤٢٢	١٣٦- هـ: ١٧٨، ٢٠٠، ٢٨٣، ٥١٥، ٥١٧
٨٨٦- هـ: ٤٢٢	

فهرس القبائل والطوائف والمذاهب

- الألمان : ٢٢٩
 - الخاصة : ٣١١
 - الأمويون : ٦٧ ، ١١١ ، ١٢٢ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ،
 ١٣٦ ، ١٤٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٤٢ ، ٣١٣ ، ٣٢٢ ،
 ٣٢٥ ، ٣٤٩ ، ٤٧٤ ، ٥١١ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٦ ،
 ٥١٧ ، ٥٢٠ ، ٥٢٤ ، ٥٢٢
 - الأندلسيون : ١٧٩ ، ٣٤١ ، ٣٧٠
 - الأنصار : ٣٠١ ، ٣٠٣
 - أهل ما وراء البحر : ٢٢
 - الأورثوذكسية : ٣٨٠ ، ٣٨٣
 - الأوروبيون : ٢٥٧
 - الأوس : ٣٠٠ ، ٣٠٤
 - إيباد بن نزار (قبيلة) : ١٢٠
 - الأيبيريون : ١٦ ، ١٨ ، ٣٠ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٢٥٦ ،
 ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٧٢ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٣٣٨ ،
 ٣٦٨ ، ٣٧٩
 - الأيزيدورية : ٣٩٣

(ب)

- البافاريون : ٢٢٠
 - باهلة (قبيلة) : ٣٠٣
 - البتر : ٤١ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ١٣٣ ، ١٤٢ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،
 ٣١٢ ، ٣١٢
 - البرانس : ٤١ ، ١٣٣ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١٢
 - البربر : ٢٢ ، ٢٨ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ،
 ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٧ ،
 ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٦ ، ١١١ ،
 ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،
 ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،

(ا)

- آل شهيد : ٣٣٠
 - آل غانم : ٣٣٠
 - الأربوسية : ٣٧٨ ، ٣٧٢
 - الآريون : ١٦ ، ١٨ ، ٢٣
 - الأعلان : ١٣ ، ١٤ ، ٢٢٥
 - الإياضية : ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،
 ١٦٦ ، ٣١٦
 - الأنثاسيوسية : ٣٧٨
 - الأزارقة : ١٣٥
 - الأزرد : ٢٩٩
 - أزرد اليمن : ١٨٤
 - الأسالة : ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٨
 - الإسيان : ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣١ ،
 ٣٢ ، ٣٥ ، ٨٧ ، ١٠٥ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٨ ،
 ١٩٩ ، ٢٥٧ ، ٢٦٤ ، ٢٧٩ ، ٣٣١ ، ٣٤٨ ،
 ٣٨٠ ، ٣٩٩ ، ٤٩٤ ، ٤٩٩
 - الإسيان الرومان : ١٥
 - الإسيان اللاتين : ٢٥
 - أسد (قبيلة) : ١٢٠ ، ٣٠٢
 - الأشعر : ٣٠١
 - الإغريق : ١٦
 - الأفارقة : ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،
 ١٦١ ، ١٦٨ ، ٤٨٣
 - أقصى بن مضر (قبيلة) : ٣٠٣ ، ٣٠٤
 - الأقباط : ٣٧٨
 - الألبيريون : ٢١٦

٥١٥، ٥١٣، ٥١١، ٤٩٨، ٤٩٢، ٤٧٠، ٤٤٨	١٥٣، ١٥٢، ١٥١، ١٥٠، ١٤٩، ١٤٨، ١٤٦
٥٢٨، ٥٢٥، ٥٢٢، ٥٢١، ٥٢٠، ٥١٨، ٥١٦	١٦٥، ١٦٤، ١٦٣، ١٦٠، ١٥٩، ١٥٨، ١٥٦
٥٣٠، ٥٢٩	٢٢٦، ٢١٤، ٢٠٢، ١٩٩، ١٨٨، ١٧٢، ١٦٧
- بنو أنجلين : ٣٤٦	٢٨١، ٢٨٠، ٢٦٢، ٢٦٠، ٢٥٦، ٢٤٥، ٢٣٨
- بنو بارون : ٣٢٥	٣٤٤، ٣١٦، ٣١٥، ٣٠٧، ٣٠٦، ٣٠٠، ٢٩١
- بنو بيزال : ٣٠٩	٤٨٨، ٤٨٣، ٤٧٤، ٤٧٢، ٤٧٠، ٤٦٧، ٣٩٩
- بنو بلال : ٣١٢	٥١٨، ٥١٥، ٥١٤، ٥١٣، ٤٩٤، ٤٩٠، ٤٨٩
- بنو حجاج : ٣٩٨، ٣٣٩	٥٢٨، ٥٢٦، ٥٢٤، ٥٢١
- بنو حجر الجزر : ٣٩٨، ٣٣٩	- بربر العدو : ١٧٢
- بنو حدير : ٣٢٩، ٣٢٨	- برغواطة (قبيلة) : ١٦٨، ١٤٧، ١٤٦، ١٣٢، ٥٥
- بنو حزم البرابون : ٤٠٦	- برغنديون : ٢٢٤، ٢١٨
- بنو الخليلج : ٥٢٦، ٣٢١، ٣١٩، ٣١٦	- البروتستية : ١٦٥
- بنو خويلد بن عقيل : ٤٥٩	- البيزنطيون : ٣٧٩، ٣٦٩، ١٣٣، ٥١، ٤٢، ٤١
- بنو دانس : ٣١٢	٤٣٦
- بنو ذى النون : ٣١١	- البشكنس : ٥٢٤، ٥٢٣، ٢٠٧، ٩٥، ٢٧
- بنو رزين : ٣١١	- بكر بن وائل (قبيلة) : ١٢٠
- بنو رستم : ٥١٥	- البكريون : ٤٥٩
- بنو رسين : ٣١١	- البلجيون : ١٨٨
- بنو زروال : ٣١١	- البلديون : ١٨٩، ١٨٨، ١٨٧، ١٥١، ١٥٠
- بنو زهرة : ٢٠٢، ٢٠١، ٨٩	٢٩٦، ٢٩٣، ٢٩١، ٢٩٠، ٢٨٠، ١٩١، ١٩٠
- بنو سالم : ٤٤٧، ٣٢٦، ٣١٢	٤٠٤، ٣٣٠، ٣٢٢، ٣١٩، ٣١٨، ٣١٥، ٣١٣
- بنو سعد : ٢٠٢	٥٣٢، ٤٨٨، ٤٨٤، ٤٨٣، ٤٧٤، ٤٦٩، ٤٦٧
- بنو سليمان : ٤٩٥	- بل (قبيلة) : ٣٠٣، ٣٠١
- بنو سيد : ٣٣٩	- بنو الأخطل : ٣٠١
- بنو شريق : ٣٤٦	- بنو أذفتش : ٢٧٨، ٢٦٨
- بنو شهيد : ٣٢٩، ٣٢٨	- بنو الأغلب : ٤٩٨، ١٦٨، ١٦٤
- بنو صبرون بن شبيب : ٣١٢	- بنو إلياس : ٣١١
- بنو عامر بن كلاب : ٢٠٢	- بنو أمية : ١٣٤، ١٣٢، ١٢٩، ١٢٢، ١١٩، ٤٩
- بنو عبد النار : ٤٩١	١٥٣، ١٥٢، ١٤٧، ١٤٦، ١٤٣، ١٤٢، ١٣٥
- بنو عبد الرؤوف : ٣٢٩	٢٩٩، ٢٩٧، ٢٩٠، ٢٠٢، ١٨٤، ١٦٠، ١٥٩
	٣٢٥، ٣٢٣، ٣٢٢، ٣٢١، ٣٢٠، ٣١٧، ٣١٠
	٣٨٥، ٣٥٨، ٣٥١، ٣٢٩، ٣٢٨، ٣٢٧، ٣٢٦

بنو موسى: ٣٢٨	بنو أبي عتبة: ٣٢٩، ٣٢٨
بنو نبيه: ٣١١	بنو عبديوس: ٣١١
بنو نعيان: ٣١٢	بنو عدى بن عبد الدار: ٢٠١
بنو نمير: ٢٠٢	بنو عنزة: ٣٠٢
بنو هذيل: ٣١١	بنو عزون: ٣١٢، ٣١١
بنو وانسوس: ٣٢٧، ٣٢١، ٣١٩، ٣١٦	بنو عقيل: ٥٢٦
بنو ورمان: ٤٦٥	بنو عميرة: ٣١١
بنو يفرن: ٤٦، ١٦٣، ١٦٨	بنو عوسجة (المصوديون): ٣١٢، ٣٠٨
اليوتشلاري: ٢٩	بنو عتيل: ٤٥٨، ٤٥٩
(ت)	بنو غرسية: ٣٢٥
نجيب: ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣١٤	بنو غزلون: ٣١١، ٣١٢
نميم: ٢٩٩، ٣٠٣، ٥٣٣	بنو غومس: ٣٢٥
(ث)	بنو فطيس: ٣٢٩
نقيف: ٥٢٤	بنو الفرخ: ٣١١، ٣١٢، ٣٢٦
نواية: ٣٠١	بنو فرفون: ٣١١
(ج)	بنو فطيس: ٣٢٩
جدام (قبيلة): ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧،	بنو قارله: ٣٢٥
١٩٨، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٥٣٠	بنو قاسم: ٣١٢
الجداميون: ١٩٤	بنو القاسم الداخل: ٤٥٨
الجرمان: ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٥٠، ٣٣٦، ٣٦٦	بنو القبطرته: ٣٤٦
٣٧٥، ٤١١، ٤١٥، ٤٣٣، ٤٣٤	بنو قسى: ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٢٩
جراوة (قبيلة): ٤٦	بنو لثق: ٣٤٦
جزيلة: ٣٠١، ٣٠٢	بنو مخزوم: ٣٢٦
جلالقة: ٢٥٨، ٢٦٤، ٢٧١، ٢٧٤	بنو مدرار: ١٦٤
جهينة: ٢٩٢	بنو مرتين: ٣٢٥
(ح)	بنو مرة: ٤٥٥، ٤٥٨
الحضارمة: ٣٠٢	بنو مسلمة: ٣٣٩، ٣٩٨
حير: ١٩٧، ٢٩٦	بنو مضى: ٣١١
(خ)	بنو مغيث: ٣٢٩
الحارجية: ٤٩، ١٤٧، ١٥٣، ١٥٨، ١٦٤	بنو منخل (قبيلة): ٣٠٣

- الرزالي (بيت): ٣٢٩
 - زناتة (قبائل): ٤٦، ٥١، ١١٦، ١٣٣، ١٣٤،
 ١٤٢، ١٥٣، ١٦٠، ١٦٨، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣١١،
 ٤٥٨، ٣١٦
 - الزناتيون: ١١٦، ١٥١، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٢،
 ١٦٤، ١٦٧، ٣١٦
 - زناتية: ٣٠٨
 - زهرة: ٣٠٢، ٣٠٣

(س)

- الساليون: ٢٢٤، ٢٤٩
 - سرنة: ٣١١
 - سعد العشرية: ٣٠٢
 - السكسون: ٢٢٠، ٢٢٤، ٢٢٩
 - سلون (قبيلة): ٣٠٣
 - سليم (قبيلة): ٢٠٢
 - السود (السودان): ٧٤، ٧٧، ٣١٩، ٣٣٩
 - السوف: ١٣، ١٤، ٣١، ٣٢، ٢٢٥، ٢٢٩

(ش)

- الشاميون: ١٥٣، ١٦١، ١٧٦، ١٨٧، ١٨٨،
 ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ٢٧٩، ٢٨٢، ٢٩٠،
 ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٨، ٣١٩،
 ٣٢٢، ٣٣٠، ٤٠٤، ٤٠٦، ٤٣٧، ٤٦٧، ٤٦٩،
 ٤٧٤، ٤٨٣، ٤٩٣، ٤٩٥، ٥٣٢
 - شوذر (قبيلة): ٣٠٣
 - الشيعة: ٤٩٨

(ص)

- الصغرية: ٤٩، ١٣٤، ١٣٥، ١٤٧، ٥٣، ١٥٩،
 ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ٣١٦
 - الصقالية: ٣٥١، ٤١١، ٤١٥
 - صنهاجة: ١٦٨، ٣٠٨، ٣٠٩
 - الصنهاجيون: ٣١٦

١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ٣١٦

- خنعم (قبيلة): ٣٠٢
 - الخرسانيون: ١٦٠
 - الخزرج: ٣٠٠، ٣٠٢، ٣٠٤
 - خزيمية (قبيلة): ٣٠٢
 - حُشين: ٣٠٣
 - الخلفيدونية: ٣٨٠
 - الخوارج: ١٣٤، ١٣٥، ١٤٦، ١٥٦، ١٦٠،
 ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٨،
 ١٧٩، ٥١٤
 - خولان (قبيلة): ١٢٠، ٣٠٢، ٣٠٣
 - خويلد: ٣٠٢
 - الخيار بن مالك (قبيلة): ٣٠١

(د)

- دوس: ٣٠٢
 - الدونانية (حركة): ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧
 - الدونانيون: ١٦٥، ١٦٦

(ر)

- ربيعة: ١٩٧، ٢٩٦، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٢٤
 - ذورعين: ٣٠٢
 - الروم: ٤١، ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ١٣٤،
 ١٦٨، ٤٠٥، ٤٤٧، ٤٨٠
 - الرومان: ١٣، ١٥، ١٦، ١٨، ٣١، ٣٢، ٣٣،
 ٣٤، ٣٦، ٣٩، ٧٤، ٧٦، ١٠٧، ٢٢٤، ٢٥٠،
 ٢٩٨، ٣٢٠، ٣٦٧، ٣٧٥، ٣٨٠، ٣٨٦، ٤١٠،
 ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣،
 ٥٠٧

- الرومان الإيبيريون: ٢٣، ٢٤، ٣٤، ٧٦
 - ريكو نكيسا: ٢٥٦

(ز)

- الزيارقة (تيمم): ٣٠٣
 - الزبيريون: ١٣٦

- غمارة (قبيلة) : ٣١٠ ، ٧١ ، ٥٥

- غنم (قبيلة) : ٣٠٣

- الغيطشيون : ٧٣

(ف)

- الفرس : ٣٢٥ ، ٤٥٣

- الفرنجة : ٢٨ ، ١٤٠ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ،

٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ،

٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ،

٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٦٦ ، ٢٤٢ ،

٣٤٣ ، ٣٨٠

- الفرنسيون : ٣١ ، ٣٩ ، ١٦٤

- الفرزييون : ٢٢٠

- فهر (قبيلة) : ٢٩٤ ، ٥٣١

- الفهرييون : ١٩٦

- الفينيقيون : ٣٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨

(ق)

- القبط : ٣٥٥

- قحطان : ١٨٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ،

٣٠٤

- القحطانية : ١٨٤ ، ٢٩٩ ، ٣٢٣

- قريش : ٤٢

- القرشييون : ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤

- القشتالييون : ٣٤٢

- القشتلينيون : ٣٤٣

- قضاعة (قبيلة) : ١٩٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ،

٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٨ ، ٥٢٦ ، ٥٣٠

- القضاعييون : ٢٩٥

- القرظ : ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ،

٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ،

٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ،

٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ،

٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠

(ض)

- ضريبة : ١٦٤

(ط)

- الطركونية (ولاية) : ٢٢

- الطماح (قبيلة) : ٣٠٣

- طيء (قبيلة) : ٣٠٢ ، ٥٣٠

(ع)

- العامرييون : ٣٣١

- العباسيون : ١٦٣ ، ٤٢٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣

- عدنان (قبائل) : ١٨٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠١ ،

٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤

- العدنانية : ١٨٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠

- عذرة (قبيلة) : ٣٠٢ ، ٣٠٣

- العرب : ٢٢ ، ٣١ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٧ ،

٤٩ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ،

٨٤ ، ٩٤ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٥ ،

١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢ ،

٣١٣ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ ، ٣٧٠ ، ٣٩٩ ، ٤١٢ ، ٤٣٠ ،

٤٧٠ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٤ ، ٥٢٢

- العرب اليمنية : ١٤٤

- عورم : ٣٠٢

- عك : ٣٠١

- العلويون : ١٣٤

- عس : ٣٠٣

- عوف (قبيلة) : ٣٠٣ ، ٣٠٤

(غ)

- غافق (قبيلة) : ١٣٩ ، ٢٢١ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٤٩١

- الغالييون : ١٦ ، ٢٣٦ ، ٤٢٥

- الغالييون الرومان : ١٥ ، ١٦ ، ٢٤٩

- غسان (قبيلة) : ٣٠٢ ، ٣٠٣

- غطفان : ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٢٩٤ ، ٣٠١

- كندة: ٢٩٦، ٣٠١، ٣٠٢
 - كهلان (قبيلة): ١٣٩
 - الكوريس: ٣٧٦
(ل)
 - لبيس (قبيلة): ٣٠١
 - لحم (قبيلة): ١٧٣، ١٩٤، ١٩٥، ٢٩٤، ٢٩٦
 - ٣٠١، ٣٠٢
 - اللخميون: ١٩٤، ٤٥٩
 - لواتة (قبيلة): ٤١، ١٣٢
 - اللواتيون: ٣٠٨
 - اللومبارد: ٢٣٤، ٢٤٩، ٢٨١
 - الليونيون: ٣٩٤
(م)
 - المالكية: ٥٠٦
 - محارب بن فهر (قبيلة): ٢٠٢، ٢٩٥، ٢٩٩
 - مديونة (قبيلة): ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١١
 - مذحج (قبيلة): ١٩٧، ٢٩٦
 - المرابطون: ١٦٤
 - مراد (قبيلة): ١٢٠، ٣٠١
 - مرة (بن زيان): ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣
 - المروانيون: ١٢٠، ١٣٦
 - مزينة (قبيلة): ٣٠٣
 - المسالمة: ٣٤١، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٨، ٣٥١، ٣٥٩
 - المسيحيون الآريون: ١٦
 - المسيحيون الكاثوليك: ١٦
 - المصامتة: ٣٠٨
 - المصريون: ٣٧٨، ٤٨٣، ٤٩٧
 - مصمودة: ٣١١، ٤٥٩
 - مضر: ١٨٤، ١٨٧، ١٩٧، ٢٩١، ٢٩٦، ٢٩٩
 - ٣٢٣، ٥٢٤، ٥٢٨، ٥٣٠

١٣١، ١٣٨، ٢١٢، ٢١٨، ٢٢٤، ٢٥٥، ٢٥٠
 ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٧٣
 ٢٨٢، ٢٩٨، ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٣٦، ٣٥٧
 ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٥
 ٣٧٩، ٣٨٤، ٣٨٣، ٣٩١، ٣٩٣، ٣٩٧، ٤١٠
 ٤١١، ٤١٣، ٤٢٣، ٤٢٩، ٤٣١، ٤٣٣، ٤٣٤
 ٤٣٥، ٤٤٧، ٤٤٦، ٤٦٩، ٥٠٧
 - قيس (قبيلة): ١٨٤، ١٩٤، ١٩٧، ٢٠٢
 ٢٩١، ٢٩٤، ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٢٣
 - القيسية: ٨٤، ١٣٠، ١٣٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٥
 ١٤٦، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٨، ١٥٩، ١٧٠
 ١٧١، ١٧٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٧، ١٩٠، ١٩٧
 ١٩٨، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٣١٧، ٥٢٥
 ٥٢٩، ٥٣٢
 - القيسيون: ١٤٣، ١٥١، ١٥٥، ١٥٨، ١٧٤
 ١٩٦، ٢٠١، ٢٣٨، ٢٧٤، ٢٩٤، ٢٩٦
 ٣١٨، ٤٧٤، ٥١٣، ٥١٧، ٥١٨، ٥٢٤، ٥٢٨
(ك)
 - كاثوليك: ١٦، ١٨، ١٩، ٣٠، ٣٣
 - الكاثوليكية: ١٨، ١٩، ٣٠، ٣٢، ١٦٥، ٣٤٢
 ٣٧٢، ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٩٣، ٣٩٥، ٤٠٧
 - الكارولنجيون: ٣١
 - الكارولنجية (دولة): ٢٤٤
 - كرامة (قبيلة): ٥٠، ٥١، ٣٠٩، ٣١٠
 - كلاب: ٢٠٢
 - كلب (قبيلة): ١٨٤، ١٩٧، ٢٩١، ٢٩٦
 - الكليون: ١١٥، ١٣١، ١٣٢، ١٤٣، ١٧٣
 ٢٩٦، ٥٢١
 - الكلية: ١٣٠، ١٥٤، ١٧١، ١٧٥، ١٩٥
 ١٩٦، ٢٩٢
 - الكلت: ٢٥٨
 - الكلونيون: ٣٩٥
 - كنانة: ٢٩٩، ٣٠٢، ٣٠٣، ٤٥٨، ٥٢٦

٣٤٨، ٣٤٧، ٣٤٥، ٢٤٣، ٣٤٢، ٣٤١، ٣٣٥
 ، ٣٦٦، ٣٥٩، ٣٥٧، ٣٥٦، ٣٥٤، ٣٥٢، ٣٤٩
 ، ٤٠٢، ٤٠٠، ٣٩٧، ٣٩٢، ٣٨٦، ٣٨٤، ٣٧١
 ، ٤٧٨، ٤٦٦، ٤٦٤، ٤٠٩، ٤٠٨، ٤٠٧، ٤٠٥،
 ٤٩٤، ٤٨٦، ٤٨٠

- نفاوة: ٤١

- نفزة (قبيلة): ١٦١، ٢٠٢، ٣٠٨، ٣١١، ٥١٥

- نعيم بن مضر: ٣٠٢

- نفوسة (قبيلة): ٤١، ١٣٢، ١٦٣، ١٦٤، ٣٠٧،
 ٣٠٨

- النفوسيون: ١٦٤

- نهد (قبيلة): ٣٠٢

- النورمندی: ٢٢٠

(هـ)

- الهاشميون: ٣٤٧

- همدان (قبيلة): ٣٠٢

- هواراة (قبيلة): ٥١، ١٣٢، ١٦١، ١٦٨، ٣٠٧،
 ٣١١، ٣٠٨

- الحواريون: ٣٠٨

- هوازن (قبيلة): ١٢٠، ٢٠٢، ٣٠١، ٣٠٤

- هوازن بن عكرمة (قبيلة): ٣٠١

- الهون: ١٣

(و)

- الوثيون: ٣٢

- ورفجومة (قبيلة): ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣،
 ١٦٧

- الوندال: ١٣، ١٤، ٣١

- آل وهب بن عامر: ٣١٢

(ي)

- اليمانية: ٨٤، ١٣٠، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٥

- المضيبيون: ٢٩٤، ٥٢١

- المضرية: ١٦٣، ١٧٣، ١٨٥

- مطروح: ٣٠٣

- مطغرة (قبيلة): ١٤٧، ٣٠٧، ٣٠٨

- المعتزلة: ٣٧٦

- معد: ٥٣١

- المغاربة: ١٥٨، ١٦٦

- مغالبة العرب: ٤١

- مغيلة (قبيلة): ١٥٦، ١٦٨، ٣٠٨، ٣١١،
 ٥١٥، ٥١٦، ٥٢١، ٥٢٢

- مكناسة: ١٤٦، ١٤٧، ١٦٤، ٣٠٧، ٣٠٨،
 ٣٠٩، ٥١٥

- ملزوزة (قبيلة): ٣٠٨

- ملكان (قبيلة): ٣٠٣، ٣٠٤

- المهالبة: ١٦٤

- الموالي: ٧٤

- موالى موسى: ٨٦

- الموحدون: ١٦٤

- المولدون: ٣٤١، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٨،
 ٣٤٩، ٣٥١، ٣٥٩

- المونثيليون: ٣٨٣

- المونوفيزيون: ٣٨٣

- المونوفيزية: ٣٧٨، ٣٨٠

- الميروفنجيون: ٢٢٥، ٢٣٩

(ن)

- الناريونية (ولاية): ٢٢

- النساطرة: ٣٨٣، ٣٨٤

- النسطورية: ٣٨٠، ٣٨٥

- النصارى: ٩٢، ١٠٥، ١٣٤، ١٣٦، ١٤٦،
 ١٦٨، ١٩٩، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢١، ٢٢٨، ٢٤٠،
 ٢٤٦، ٢٦٩، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٦

- اليهود: ٢٢، ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٣٣، ٧٤،	١٥٤، ١٧١، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٢، ١٩٥، ١٩٦،
٧٨، ٨٦، ٨٧، ١٠١، ٣٣٥، ٣٤١، ٣٤٧،	١٩٨، ٢٣٨، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٣، ٣١٧، ٣٢٢،
٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٨٢، ٤١٠،	٤٨٩، ٥٢٩، ٥٣٠،
٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤٦٦، ٤٨٦،	
٤٨٧	- اليمينون: ١٣٨، ١٤٦، ١٥١، ١٥٢، ١٥٨،
- اليهود الأشكنازيون: ٤١٥	١٦٩، ١٧٠، ١٨٨، ١٩٠، ١٩٤، ١٩٩، ٢٠٠،
- اليهود السفراديون: ٤١٥	٢٠٢، ٢٢٢، ٢٣٩، ٢٧٤، ٢٧٩، ٢٨٢،
- اليهود المسترون: ٤١١	٢٩٦، ٣٠٢، ٣٢٤، ٤٦٩، ٤٧٤، ٥١٣، ٥١٦،
- اليونان: ٣٣، ٣٤، ٢٥٨	٥١٧، ٥١٨، ٥١٥، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤،
	٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١،

- مدينة الله : ٣٥
 - معجم البلدان = تقويم البلدان
 - المغرب (في حل المغرب) : ٤٩٦
 - مفاتيح العلوم : ٤٢٠
 - مقدمة ابن خلدون : ٤١٩
 - منازل البرير في الأندلس : ٣٠٨
 - موطأ مالك : ٥٠٦، ٣٥٥
(ن)
 - نفع الطيب : ٢٩٨، ٣٠٦
 - نهاية الأرب : ٤٢٠

(ك)

- الكامل : ٤٢١
 - مجلة الأندلس : ٤٤١

(م)

- مجلة معهد لخطوط العربية : ٤٤١
 - مدونة البلدة (رواية) : ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٦٩، ٣٦٦
 - مدونة سحنون : ٣٥٥
 - مدونة سيلوس : ٢٦٦، ٢٦٢
 - مدونة شرطانية : ٢٦٦
 - مدونة كعبنتيلة : ٢٦٦
 - مدونة موسياك : ٢١٠، ٢٢٨، ٢٣٥

لِلْمُؤَلِّفِ

مؤلفات :

أ- تاريخ :

- ١ - الشرق الإسلامي في العصر الحديث ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٣٨ .
- ٢ - فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ .
- ٣ - Essai sur la chute du Califat Umayyade de Cordoue. Le Caire, - 1948.
- ٤ - صور من البطولة (طبعتان ، القاهرة ١٩٤٩ و ١٩٥٦) .
- ٥ - مصر ورسالتها (طبعتان ، القاهرة ١٩٥٥ و ١٩٥٦) .
- ٦ - Historical Atlas of the Muslim Peoples (in collaboration with R. Roolvink and Others). Amsterdam, 1957.
- ٧ - مصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإخشيديين - فصل في كتاب « تاريخ الحضارة المصرية » الذي تنشره وزارة الثقافة والإرشاد .
- ٨ - نور الدين محمود ، الطبعة الثالثة ، جدة ١٩٨٥ .

ب- أدب :

- ١ - حكايات خيرستان .
- ٢ - أهلاً وسهلاً .

أبحاث :

- ١ - عقد بيعة بولاية العهد لأبي عبد الله محمد المعروف بالخليفة الناصر الموحدى ، نُشر في الجزء الثانى من المجلد الثانى عشر من مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة .

- ٢ - تطور العمارة الإسلامية في الأندلس ، نشر في المجلد الأول من حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس .
- ٣ - وثائق عن مهدي السودان ، نشر في العدد الثاني من المجلد الثاني من حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس .
- ٤ - غارات النورمانيين على الأندلس بين سنتي ٢٢٩ و٢٤٥ هـ / ٨٤٤ و٩٥٨ م ، نشر في العدد الأول من المجلد الثاني من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .
- ٥ - السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، نشر بالعدد الأول من المجلد الثالث من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .
- ٦ - المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية ، نشر في العدد الأول من المجلد الرابع من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .
- ٧ - المجتمع في الدستور ، بحث نشر في كتاب « روح الدستور » وهو رقم ٢٥ من سلسلة « اخترنا لك » .
- ٨ - لكى لا ننسى .. هذا صوت التاريخ ، بحث نشر في كتاب « قناة السويس - حقائق ووثائق » وهو رقم ٢٩ من سلسلة « اخترنا لك » .
- ٩ - سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين . صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية في مدريد ، مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ .
- ١٠ - De nuevo sobre las fuentes árabes de la historia del Cid
صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية في مدريد ، مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ .
- ١١ - Egipto y el Mediterraneo فصل نشر بالإسبانية والفرنسية في كتاب Panorama del Mundo Arabe ، الذى نشره معهد العلوم السياسية في مدريد سنة ١٩٥٤ .
- ١٢ - نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحيدين . صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية في مدريد ، مجلد ٣ سنة ١٩٥٥ .

١٣ - أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ،
للونشريشى . صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، مجلد ٥ سنة ١٩٥٧ .

١٤ - La division politico - administrativa de la Espana musulmana

صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، مجلد ٥ سنة ١٩٥٧ .

١٥ - الفولكلور ، تاريخه ومدارسه ومناهجه . صحيفة « المجلة » العدد ٢٣ سنة

١٩٥٨ .

نشر وتحقيق :

١ - رياض النفوس لأبى بكر المالكى ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥١ .

ترجمة :

١ - الامبراطورية البيزنطية لنورمان بينز (ترجمة عن الإنجليزية بالاشتراك مع

الدكتور محمود يوسف زايد) طبعتان بالقاهرة ١٩٥٠ و ١٩٥٧ .

٢ - الشعر الأندلسى لغرسيه غومس (عن الإسبانية) طبعتان بالقاهرة

١٩٥٢ و ١٩٥٧ .

٣ - تاريخ الفكر الأندلسى لجونزالذ بالثيا (عن الإسبانية) القاهرة ١٩٥٥ .

٤ - ثم غاب القمر - مسرحية في ثمانية مناظر مقتبسة من قصة The Moon is

Down لجون شتاينيك ، القاهرة ١٩٥٦ .

فهرس الموضوعات

صفحة

٧ المقدمة
١١ الفصل الأول : إسبانيا قبيل الفتح الإسلامى
١٣ القوط الغربيون فى أواخر أيامهم
١٥ دولة القوط فى إسبانيا
٢٥ لذريق
٢٨ نظرة فى أحوال إسبانيا تحت حكم القوط
٢٩ مجلس طليطلة
٣٠ المجتمع الإسبانى أيام القوط
٣٣ الحالة الثقافية
٣٧ الفصل الثانى : فتح المغرب
٣٩ فتح المغرب
٤٣ اختطاط القيروان
٤٧ اختطاط تونس
٤٨ تنظيم ولاية إفريقية
٤٨ موسى بن نصير يتولى أمور المغرب
٥٣ الفصل الثالث : فتح الأندلس
٥٥ مقدمات الفتح
٥٥ يلبان
٥٩ فتح الأندلس
٦٥ بدء الفتح
٦٦ أبو زرعة طريف يقود بعثاً استطلاعيّاً
٦٦ حملة طارق بن زياد

- ٧١ معركة وادى البرباط
- ٧٤ احتلال طليطلة
- ٧٦ فتح قرطبة
- ٧٩ عبور موسى إلى الأندلس
- ٨٦ فتح إشبيلية
- ٨٦ فتح ماردة
- ٩٢ أول عملة إسلامية في الأندلس
- ٩٣ السير نحو الشمال
- ٩٥ أقصى ما وصلت إليه فتوح المسلمين في إسبانيا
- ٩٧ عودة موسى وطارق إلى المشرق
- ١٠٠ استكمال الفتح
- ١٠١ تدمير
- ١٠٩ **الفصل الرابع : عصر الولاة**
- ١١١ لم تتكلف الخلافة جهداً خاصاً في سبيل فتح الأندلس
- ١١٢ لم تغنم الخلافة منه شيئاً مادياً
- ١١٤ هجرة العرب إلى الأندلس
- ١١٦ ولاية عبد العزيز بن موسى
- ١١٧ مقتل عبد العزيز بن موسى
- ١١٩ أيوب بن حبيب اللخمي
- ١٢٠ نقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة
- ١٢١ عامل إفريقية يولى الحر بن عبد الرحمن الثقفي على الأندلس
- ١٢٢ ولاية السمع بن مالك الخولاني
- ١٢٢ عمر بن عبد العزيز يفكر في إخلاء الأندلس من العرب
- ١٢٣ ضبط المال وتنظيم البلاد
- ١٢٧ **الفصل الخامس : صراع العرب والبربر**
- ١٢٩ خلافات العصية

- ١٣١ فترة سيادة الكلبيين اليميين في المغرب والأندلس
- ١٣٢ مسئولية الخلفاء عن أعمال عمالهم في المغرب
- ١٣٢ توتر نفوس البتر - زناتة
- ١٣٤ الأفارقة
- ١٣٤ دعاة الخارجية في المغرب
- ١٣٦ العصية العربية في الأندلس
- ١٤٠ مصاعب الحكم في المغرب بعد موسى بن نصير
- ١٤٤ المغرب أثناء خلافة هشام بن عبد الملك
- ١٤٤ عبيد الله بن الحبحاب
- ١٤٧ مسيرة وبدء الثورة في إقليم طنجة
- ١٤٩ هزيمة الأشراف
- ١٥٠ كلثوم بن عياض القشيري
- ١٥٠ العرب الإفريقيون
- ١٥٢ ثورة البربر على العرب في الأندلس
- ١٥٣ الخلاف بين العرب الأفارقة وكلثوم بن عياض ومن معه من القيسية
- ١٥٥ هزيمة العرب عند بقدورة
- ١٥٦ جيوش الخلافة تتدخل
- ١٥٨ ظهور أمر عبد الرحمن بن حبيب
- ١٥٩ عبد الرحمن بن حبيب يحتل القيروان
- ١٥٩ ختام النزاع بين القيسية واليمية في إفريقية
- ١٦١ البربر يستقلون بنواحيهم
- ١٦٤ دولة بني مدرار في سجلماسة
- ١٦٥ رأى جوتيه في ثورات البربر
- ١٦٦ الدونانية والخارجية
- ١٦٧ أى فريق من البربر نهض بعبء الحركة
- ١٦٩ الأحوال في الأندلس

- ١٦٩ عبد الملك بن قطن الفهري
- ١٧٠ انتقال الثورة من إفريقية إلى الأندلس
- ١٧٠ مقدمات ثورة بربر الأندلس
- ١٧١ ثورة البربر في الأندلس
- ١٧٣ بلج بن بشر ومن معه محاصرون في سبته
- ١٧٤ طالعة بلج
- ١٧٥ طالعة بلج تقضى على ثورة البربر في الأندلس
- ١٧٦ معركة وادي سليط
- ١٧٦ المجاعة وهجرة البربر إلى إفريقية
- ١٧٧ زحف نصارى الإسبان نحو الجنوب
- ١٧٨ العرب يخسرون ربع الجزيرة
- ١٧٨ الحصومة بين العرب والبربر
- ١٨١ **الفصل السادس : القيسية واليمنية**
- ١٨٣ مؤرخو الأندلس والعداء بين القيسية واليمنية
- ١٨٥ القيسية تستبد بأمر الأندلس
- ١٨٦ بلج بن بشر يلى أمور الأندلس
- ١٨٨ موقعة أقوة برطورة
- ١٨٩ عجم أبي الخطار بن الحسام الكلبي
- ١٩٠ إخراج الشاميين من قرطبة إلى الكور
- ١٩٢ ظهور الصميل بن حاتم
- ١٩٤ هزيمة أبي الخطار وولاية ثوابة بن سلامة العامل
- ١٩٥ الصميل بن حاتم يمهد الطريق ليوسف الفهري
- ١٩٧ موقعة شقندة سنة ١٣٠هـ / ٧٤٧م
- ١٩٨ مأساة أسرى شقندة
- ١٩٩ المجاعة تجتاح الأندلس
- ٢٠١ اليمينيون يثرون على الصميل في سرقسطة

- ٢٠٢ الحرب بين القيسية والكلبية في سمرقطة
- ٢٠٥ **الفصل السابع : فتوح المسلمين في غالة**
- ٢٠٨ بدء الغزوات فيها وراء جبال البرت
- ٢٠٩ السمح بن مالك يصل إلى طرسونة . استشهاده عند طولوشة
- ٢١٠ عنبة بن سحيم وحملته الكبرى
- ٢١١ لماذا انه عنبسة نحو حوض الرون ؟
- ٢١٣ الدوق أودو وعلاقته مع المسلمين
- ٢١٥ وفاة عنبسة
- ٢١٥ عذرة بن عبد الله الفهرى يواصل الغزو
- ٢٢٠ عبد الرحمن الغافقى
- ٢٢١ خروج عبد الرحمن للغزو ، أوائل سنة ١١٤هـ / ربيع سنة ٧٣٢م
- ٢٢٣ فتح آرل
- ٢٢٣ الاستيلاء على بردال (بوردو)
- ٢٢٤ أودو يستنجد بشارل مارتل
- ٢٢٥ المعسكر الإسلامى قبيل المعركة
- ٢٢٦ مكان المعركة
- ٢٢٧ معركة بلاط الشهداء
- ٢٢٩ المعركة
- ٢٣٠ بعد المعركة
- ٢٣٠ عبد الملك بن قطن الفهرى يسير إلى غالة
- ٢٣١ المسلمون يستعيدون آرل
- ٢٣٢ الاستيلاء على أبنون
- ٢٣٢ إخضاع إمارات البرت
- ٢٣٣ عقبة بن الحجاج السلولى يحدد نشاط الفتوح في غالة
- ٢٣٤ إعادة فتح بورجونيا
- ٢٣٥ قارله يفشل في الاستيلاء على أربونة

- ٢٣٦ العرب وأهل غالة
- ٢٣٨ عبد الرحمن بن علقمة اللخمي ينصرف عن غالة بجنده
- ٢٣٩ بيبين الثاني يهاجم أربونة
- ٢٤٠ سقوط أربونة
- ٢٤١ بقايا المسلمين في غالة
- ٢٤١ نتائج سقوط أربونة
- ٢٤٢ أحوال جنوبي غالة تحت الحكم الإسلامي
- ٢٤٣ لماذا لم يوفق المسلمون إلى البقاء في غالة ؟
- ٢٤٥ طبيعة الحكم الإسلامي في غالة
- ٢٤٦ المسلمون يعتبرون غالة إقليياً نغرياً
- ٢٤٧ نظام الحكم في جنوب غالة
- ٢٤٧ موقفه المسلمين من المسيحية في غالة
- ٢٤٩ مقارنة بين المسلمين والفرنجة في غالة
- ٢٥٣ الفصل الثامن : قيام حركة المقاومة النصرانية
- ٢٥٥ انصراف العرب إلى المنازعات عن صيانة دولتهم
- ٢٥٦ الريكونكيستا
- ٢٥٨ الإيبيريون الرومان
- ٢٥٨ صخرة بلاى
- ٢٦٠ مونوسة
- ٢٦٢ بلاى
- ٢٦٤ كوفادونجا
- ٢٧٤ أهمية كوفادونجا
- ٢٨٠ أذفونش بن بطره (ألفونسو الأول)
- ٢٨١ المسلمون يخلون الركن الشمالى الغربى لشبه الجزيرة
- ٢٨٢ هجرة أعداد كبيرة من البربر إلى إفريقية
- ٢٨٢ المجاعة تمنح شبه الجزيرة

- ٢٨٣ إخراج المسلمين من جليقية وما يجاورها
- ٢٨٣ حدود دولة الإسلام تتراجع إلى نهر دويره
- ٢٨٥ ما بين نهري المنهور والدويره منطقة فراغ
- ٢٨٦ آراء المؤرخين في أذفونش
- ٢٨٧ الفصل التاسع : المجتمع الأندلسي - (١) العرب والبربر والموالي
- ٢٨٩ أ- العرب
- ٢٨٩ طالعة موسى
- ٢٩٠ طالعة بلج
- ٢٩٠ البلديون
- ٢٩١ الشاميون
- ٢٩١ النزاع بين البلديين والشاميين
- ٢٩٢ سيادة الشاميين على الأندلس وأثرها
- ٢٩٣ تفريق الشامية في النواحي
- ٢٩٣ خصومة القيسية واليمينية تعود
- ٢٩٤ تحوُّل الصراع من القبليّة إلى الحزبية
- ٢٩٦ تكرار العرب في الأندلس
- ٢٩٨ مراجعنا عن منازل العرب بالأندلس
- ٢٩٩ القحطانيون
- ٣٠٠ ملاحظات عن منازل العرب في الأندلس
- ٣٠٠ استقرار العرب على طول خطوط الفتح
- ٣٠١ منازل العرب في الأندلس
- ٣٠٦ ب- البربر
- ٣٠٦ تيار الهجرة البربرية إلى الأندلس
- ٣٠٧ جماعات البربر الأولى
- ٣١١ البربر في الثغور
- ٣١٤ هل اختص العرب أنفسهم بأحسن نواحي الأندلس؟

- ٣١٥ تحوّل البربر إلى بلديين وأثره
- ٣١٦ غلبة الزناتيين على البربر الأول في الأندلس
- ٣١٧ البربر والفتوح في غالة
- ٣١٨ البربر والعرب البلديون
- ٣١٩ جماعات السودان في الأندلس
- ٣١٩ تأثير البربر بالبيئة المحلية
- ٣٢٠ جـ- الموالى
- ٣٢٠ موالى بنى أمية
- ٣٢١ تكوين كتلة الموالى في الأندلس
- ٣٢٢ الموقف السياسى للموالى
- ٣٢٣ الموالى وقيام الدولة الأموية
- ٣٢٥ موالى من أصول إسبانية
- ٣٢٦ طبيعة ولاء الأندلسيين
- ٣٢٧ موالى الاصطناع
- ٣٢٨ أهمية الموالى في تاريخ الأندلس
- ٣٣٠ آراء حول أصل ولاء الاصطناع
- ٣٣١ ملاحظات أخيرة على الموالى في الأندلس
- ٣٣٣ الفصل العاشر : المجتمع الأندلسى - (٢) المولدون والمستعربون
- ٣٣٥ إسبانيا في النطاق الغربى قبل دخول العرب
- ٣٣٦ طبيعة حركة الامتداد الإسلامى
- ٣٣٨ العرب وأهل البلاد
- ٣٣٩ التزاوج بين العرب وأهل البلاد
- ٣٤١ عجم الأندلس
- ٣٤١ خطأ تسميتهم بالمستعربين
- ٣٤٤ المسألة والمولدون
- ٣٤٥ رأى يروفنسال

٣٤٧	آراء في أجناس سكان الأندلس
٣٤٩	خطأ هذه الآراء والأحكام
٣٥٠	هل كان العرب أرسطراطية مترفعة عن غيرها في الأندلس ؟
٣٥١	أهل الذمة
٣٥٢	وضع الذميين في المجتمع الأندلسي خلال هذه الفترة
٣٥٣	عهود المسلمين للنواحي
٣٥٥	تطور النظم الإسلامية
٣٥٦	المسلمون يدعون أهل الذمة أحراراً
٣٥٧	النصارى يتقاضون بقانونهم
٣٥٧	الجماعات النصرانية تنظم نفسها
٣٥٨	التشريع الإسلامي والقانون القوطي
٣٦٣	عمل قرطبة
٣٦٥	اختلاف نظم القضاء في الأندلس عن مثيلاتها في المشرق
٣٦٥	العرب يحترمون نظم البلديات
٣٦٦	قوس الأندلس
٣٦٦	العرب يتركون لأهل الذمة حرية اختيار رؤسائهم
٣٦٧	الوظائف القوطية تدخل في النظام العربي العام
٣٦٨	قاضى المعجم
٣٦٨	صاحب المدينة
٣٦٩	المشرف
٣٦٩	مستخرج الخراج
٣٦٩	صاحب الشرطة
٣٦٩	الأمين
٣٧٠	العريف
٣٧٠	الزراع
٣٧١	المسلمون والكنيسة

- ٣٧٢ المسيحية في إسبانيا القوطية
- ٣٧٢ الكنيسة والدولة أيام القوط
- ٣٧٤ رأى راينهاردت دوزى
- ٣٧٦ الحالة العامة بعد اتحاد الكنيسة والدولة
- ٣٧٨ الخلافات الدينية والفتح الإسلامي
- ٣٨٠ رأى في الخلافات الدينية المسيحية
- ٣٨٢ الإسلام يضع حداً للاضطهادات الدينية المسيحية في الأندلس
- ٣٨٥ أثر الإسلام في نصرانية الأندلس
- ٣٨٦ المسلمون والكنيسة الإسبانية
- ٣٩٢ انتقال مركز المسيحية الأندلسية إلى قرطبة
- ٣٩٣ الكنيسة الأندلسية في النطاق الشرقي
- ٣٩٣ الطقوس القوطية الكنسية
- ٣٩٤ البابوية والطقوس القوطية
- ٣٩٥ وظائف الكنيسة
- ٣٩٦ المسلمون وأملاك الكنيسة
- ٣٩٧ سياسة أمراء المسلمين تجاه أهل الذمة
- ٣٩٨ بيوت فيها مسلمون ونصارى
- ٣٩٩ خلفاء عبد العزيز بن موسى وأهل الذمة
- ٤٠٠ ثورة أكويللا واستسلامه
- ٤٠١ نصارى الأندلس ينجون إلى بيت المقدس
- ٤٠١ عبد الرحمن العافقى وأهل الذمة
- ٤٠١ موقف عبد الملك بن قطن من أهل الذمة
- ٤٠٢ المسلمون ونصارى قلمرية
- ٤٠٢ عقبة بن الحجاج وأهل الذمة
- ٤٠٥ أرطباس
- ٤٠٧ المطران سيشيليا

- ٤٠٨ التصارى يعمرن بعض البلاد الحالية
- ٤٠٨ تعمير شقوية
- ٤٠٩ ميلاد إمارات شرب وأرغون ونبره
- ٤١٠ اليهود فى إسبانيا قبل الفتح
- ٤١١ اضطهاد القوط لليهود
- ٤١٢ المسلمون واليهود
- ٤١٢ تنظيم جماعات اليهود
- ٤١٣ حكومة الجماعات اليهودية
- ٤١٧ الفصل الحادى عشر : الإدارة والمال
- ٤١٩ قلة المراجع عن شئون الإدارة والمال
- ٤٢٠ التقسيم الإدارى
- ٤٢١ كتاب الأندلس وتقسيمه الإدارى
- ٤٢٣ أصول التقسيم الإدارى الإسلامى فى الأندلس
- ٤٢٤ تقسيم دقلديانوس المعروف بقسمة قسطنطين
- ٤٢٥ قسمة قسطنطين كما يعرضها البكرى
- ٤٢٩ التقسيم الكنسى الإدارى
- ٤٣٠ المدينة أساس للتقسيم الرومانى
- ٤٣٣ القوط والتقسيم الرومانى
- ٤٣٤ اضمحلال المدن خلال العصر القوطى
- ٤٣٥ الكنيسة تحتفظ بالتقسيم الرومانى
- ٤٣٦ الاتجاه العربى فى التقسيم الإدارى
- ٤٣٦ الأجناد
- ٤٣٨ المقدسى والتنظيم الإدارى للأندلس
- ٤٤٠ نصوص جديدة
- ٤٤٠ ترجمة كاملة لجغرافية الرازى
- ٤٤١ تعليق منتقى من « فرحة الأفسس » لابن غالب

- ٤٤٢ قطعة من جغرافية العذرى
- ٤٤٣ التقسيم إلى مدن وكور
- ٤٤٧ المدينة كقسم إدارى
- ٤٥١ ظهور مصطلح الكورة
- ٤٥٣ التقسيمات الفرعية : الإقليم
- ٤٥٨ الجزء
- ٤٦٠ المدينة الأم
- ٤٦١ الحصون والمعقل
- ٤٦٢ تقسيم مجارى الأنهار
- ٤٦٣ المراسى
- ٤٦٤ الضياع
- ٤٦٤ الفحص
- ٤٦٥ المشيخة والكوريا
- ٤٦٦ انفصال العرب عن أهل البلاد أول الأمر
- ٤٦٩ اشتراك أهل البلاد فى الجيوش
- ٤٧٠ التقليد الشامى
- ٤٧٠ الإدارة المركزية
- ٤٧١ نظام الولاية
- ٤٧٢ تفكير الخلافة فى إخلاء الأندلس
- ٤٧٦ ثبت بولاة الأندلس
- ٤٧٩ الناحية المالية
- ٤٧٩ أسس النظام المالى فى الأندلس برواية محمد بن مزين
- ٤٨٣ رأى ابن حزم
- ٤٨٤ رأى ابن الخطيب
- ٤٨٥ الخلافة تعتبر الأندلس ثغراً
- ٤٨٥ اعتبار أراضي الجنوب إقطاعات لمن استولوا عليها

٤٨٦	بقية أرض الأندلس أرض صلح
٤٨٨	نزول العرب في بعض نواحي الشمال
٤٨٩	التصرف في أموال الجباية
٤٩١	ثروات العرب الأوّل في الأندلس
٤٩٣	القبائل تملك إقطاعاتها ملكاً جماعياً
٤٩٥	بعض الوظائف العامة
٤٩٦	القضاء
٤٩٦	مسألة قضاء الأندلس الأوّل
٥٠٠	قاضى الجند وقاضى الجماعة
٥٠٠	عهد تولية القضاء لمهدى بن مسلم
٥٠٣	عترة بن فلاح
٥٠٣	مهاجر بن نوفل القرشى
٥٠٤	يحيى بن يزيد التجيبى
٥٠٤	معاوية بن صالح الحضرمى
٥٠٥	اتجاه الأندلس نحو مذهب مالك
٥٠٦	نقطة البدء للملكية الأندلسية
٥٠٩	الفصل الثانى عشر : قيام الدولة الأموية
٥١١	فرار عبد الرحمن إلى المغرب
٥١٣	المغرب في فترة الانتقال من الأمويين إلى العباسيين
٥١٥	عبد الرحمن بن معاوية في المغرب
٥١٦	تفكير عبد الرحمن في أمر الأندلس
٥٢١	وصول وفد موالى بنى أمية واليمثيين إلى عبد الرحمن
٥٢٢	دخول عبد الرحمن الأندلس
٥٢٣	بدء الصراع بين عبد الرحمن ويوسف الفهرى والصميل
٥٢٧	موقعة المصارة
٥٣٠	قيام الدولة الأموية الأندلسية

- ٥٣١ مصبر يوسف الفهرى والصمىل بن حاتم
- ٥٣٣ نهاية عصر الولاة
- ٥٣٥ ● المراجع
- ٥٣٧ أ - مراجع عربية
- ٥٤٢ ب - مراجع غير عربية
- ٥٤٩ ● الفهارس العلمية
- ٥٥١ - فهرس الأعلام
- ٥٦٧ - فهرس الأماكن والبلدان والجمال
- ٥٨٣ - فهرس التوارىخ المىلادىة
- ٥٨٦ - فهرس التوارىخ الهجرىة
- ٥٨٨ - فهرس القبائل والطوائف والمذاهب
- ٥٩٦ - فهرس الكتب والمدونات التى ذكرت فى متن الكتاب
- ٥٩٨ ● للمؤلف
- ٦٠١ ● فهرس الموضوعات

THE DAWN OF AL-ANDALUS

A Study of the history of Muslim Spain from the Arab conquest in 711 A.D. till the rise of the Umayyad Emirate of Cordova in 756 A.D.

By
HUSSAIN MONÉS
Professor at the university of Cairo

DAR AL RASHAD